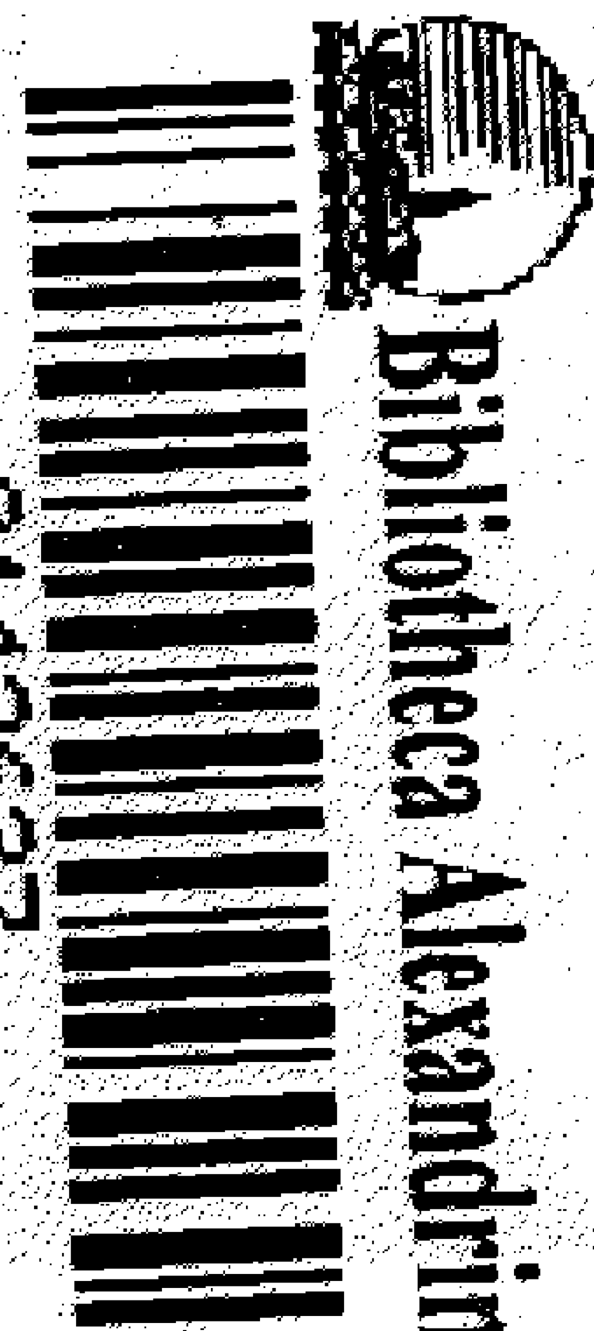
ديزموند ستيوارت

تيودور هرتزل

سّس الحَركةِ الصّهيُونيّة



ترجمة :
فوزي وفاء - ابراهيم منصور

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر


تيودور هرتزل
مؤسس الحركة الصهيونية



المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً - موكيالي بيروت - ص.ب ٥٤٦٠-١١ بيروت

الطبعة الثانية

١٩٨٩

ديزموند ستيوارت

تيودور هرتزل

مؤسس الحركة الصهيونية

ترجمة :

فوزي وفاء - ابراهيم منصور



الجزء الأول

رئيس جمعية «فير»

١٨٦٠ ـــ ١٨٧٨

« ولدت في بودابست ، في منـــزل قريب من
المعبد اليهودي ... » (١)

الفصل الاول

تتضاءل سلسلة الجبال التي تكون المحور الجليدي في اوروبا عندما تبدأ انحدارها نحو الشرق من سويسرا حتى تصل الى مدينة بودا فتشكل سلسلة من التلال المورقة . ويطل على الماء قصر توي منيف ، وكنيسة سقوفها من القرميد الوضيء ، واروقة حصن صياد السمك . وهنا ينحني نهر الدانوب ، عملاق انهار وسط أوروبا ، نجاة نحو الجنوب في رحلته الطويلة الى البحر . وعبر المياه (التي غالبا ما يكون لونها في لون برادة الحديد وليس ازرقا) تبدأ ارض اكبر سهول القارة : ٣٧٫٠٠٠ ميلا مربعا من الارض المسطحة التي تومض مثل سطح بحيرة عملاقة . وتقع مدينة بست في هذا السهل . وقد استخدم بناتها الارض المسطحة لاقامة شبكة من الميادين الفخمة والشوارع المتقاطعة العريضة ... واقاموا مساكنها على الطراز الكلاسيكي السخي الحديث . وشوارع بست توحي بالثقة مثلها مثل شوارع نيويورك تلك المدينة الهندسية الاخرى .

وفي عام ١٨٥٩ بدأت تثري وتزدهر . وجاء المهندس النمساوي « لودفيج فورستر » ، واضاف الى سقوف المدينة المسطحة شيئا زاهيا : وهو معبد يهودي تكلف ما يوازي ستين الفا من الجنيهات الذهبية . وقد بني المعبد في خلط تبيح بين الطراز القوطي والمغربي (٢) . وحوى تصميم المعبد كل ما هو متطرف وغريب . فواجهته مبنية من الطوب الاحمر بدهاليزها الرومانية ، ونافذتها الكبيرة المستديرة التي تشبه النوافذ التي تبنى في جدران محطات السكك الحديدية . وعلى جانبي الباب الرئيسي هنـاك ابراج مثل المآذن تسندها كرتان ضخمتان من النحاس تعلو كل منهما زهرة ملكية سداتها على هيئة نتوء بارز الى الخارج . والمعبد في الداخل يشبه حلما رومانتيا

قديما غير ان قبلته محراب يزينه ستار وبه صندوق التوار ة.والناس يتعبدون في مقاعد اشبه بمقاعد الكنيسة البروتستنتينية . . . وفي كل جانب من جوانب المعبد شرفتين اشبه بشرفات المتفرجين في المسرح ، احداهما فوق الاخرى وهي مخصصة للنساء . وقد وصف حاخام مجري المعبد بأنه نتاج طائفة ثرية لا يمكنها لثرائها ان تبني معبدا متواضعا . وقال حاخام اخر ولد في المجر ثم اصبح امريكيا ان المعبد يشبه سفينة ركاب حقيقية اقيمت لعبادة الله. (٣)

وهناك في مواجهة المعبد شارع مخصص لبيع التبغ وهو من انتاج البلقان العثمانية التي تقع الى الجنوب . وكان المتحدثون بالالمانية يطلقون على الشارع « تاباكاجيز » ، اما المجريون فيسمونه بلغتهم « دوهاني اوتشا » . ويشاهد الذين يزورون المعبد الجديد بيتا حضريا يقع الى الشمال هو مثال لمباني مدينة بست في القرن التاسع عشر . وتطل طوابق البيت الثلاثة على ساحة داخلية . وفي احدى شقق هذا البيت المؤثثة باثاث ينتمي الى الطراز الثقيل الذي كان عصريا في ذلك الوقت ، حملت امرأة في طفل في نفس العام الذي فتح فيه المعبد ابوابه لاول مرة . وهنا قدمت « جانيت هيرتزل » لزوجها يعقوب في الثاني من شهر مايو عام ١٨٦٠ اول ابنائه وثاني اطفاله . وكان على شعب المجر ان يعرف لغات اجنبية كثيرة ، لان قليلين من غير المجريين كانوا يعرفون اللغة المجرية . وكان الاسم المجري للصبي « تيفادارا » غير ان اهله كانوا يسموه « دوري » اختصارا للصورة الالمانية للاسم « وولف تيودور » .

كان المنجم ، الذي يتكهن بشكل الحياة التي سيعيشها المولود يطلب تحديد المكان والساعة التي استنشق فيها القادم الجديد اول انفاسه لانها هي التي تحدد شكل نسيجه الانساني . غير ان الاعتقاد الذي ساد في القرن التاسع عشر،وهو قرن عقلاني،هو ان التنجيم والتعذيب شيئان قد انتهيا واصبحا في عداد الماضي . ولم يستدع احد اي منجم ليقرأ طالع « هبة الله » كما يعني اسم « تيودور » بالعبرية نقلا عن المعنى اللاتيني .

ولو ان منجما قرأ طالعه لقال له انه ينتمي الى برج الثور ، وانه من النوع العنيد الذي يصر على تحقيق هدفه ، وان عقليته عقلية محافظة ، وانه مرتبط بالارض ، ويظهر هذا اما من حبه للمروج والبساتين او من اخلاصه لبلد ما .

ان المكان الذي ولد فيه ، وساعة ولادته ، حددا ظروف البيئة التي اخذت العوامل الوراثية ، والاصدقاء الذين اكتسبهم ، والاعداء الذين

كونهم ، تروح وتجيء فيها بحركة مثل حركة الكواكب في خريطة فلكية . وكانت مدينة بست مكانــا مناسبا لمولد واحد من اكثر الرجال المرموقــين في عصره ، رجل بدا مشروعا من اكثر المشروعات التي تتسم بالمخاطــرة في القرن العشرين . ولقد صاحبت مولده ، على اي حال ، احداث ذات اهمية رمزيـــة .

كانت بست ، تشكل بصورة غير رسمية ، مدينة واحدة مع « بودا » القديمة ذات التلال وذلك منذ بناء الجسر المعلق على نهر الدانوب في اربعينات القرن التاسع عشر . ولقد ساعدت العابرات البخارية التي كانت تعبر نهر الدانوب بين « بودا » « وبست » كل ساعة ، (٤) على تأكيد « وحدة الامر الواقع » بين الجانبين .

وقد بني الجسر (الذي لا يزال قائما حتى الان) طبقا للتصميمات التى وضعها المهندس « ويليام تيرني كلارك » ، الذي صمم ايضا تحفته الرائعة في لندن وهي جسر « هامر سميث »(٥).وقد تكلف بناء الجسر اكثر من عشرة امثال ما تكلفه المعبد اليهودي.وفاز مصممه «بصندوق نشوق ذهبي مرصع» تدمه اليه « الارشيدوق كارل » نيابة عن امبراطور آل هابسبورج في فينا . ويعتبر الجسر الذي يبلغ عرضه ٤٠٠ متر نتاجا في الواقع للثورة الصناعية الاولى ، ففيه التوازن الكلاسيكي والتجديد الهندسي اللذان ما زالا يتمشيان معا في ذوق سليم حتى الان . واسلاك الجسر الضخمة من القوة بحيث قاومت ضغط كتل الثلوج المتساقطة ، وثقل خطوات الجيوش الغازية والقــوات المنسحبة . وعند طرفي الجسر هناك تمثالان لاسدين مقطبي الجبين .

ويصل الجسر بين ضفتين للنهر كل منهما نقيض الاخرى . فمدينة بودا التي تقع على الضفة الغربية للنهر ، تحتل موقعا لمستعمرات يرجع تاريخها الى العصر الحجري الحديث ثم الى عصر الكلتيين .

وكانت تلك الضفة من نهر الدانوب مفتوحة امام الرومان الذين خلفوا وراءهم بقايا قصر بناه « هادريان » ، وساحة للترفيه عن جيش الحدود . وكان الشرق دائما مصدر الخطر بالنسبة لبودا ، وذلك عبر السهل الذي يصعب الدفاع عنه وعبر طريق* « الهــون » وهــو طريق فرســان المجر بعد ذلك ، الذين وصلوا في القرن العاشر ليقيمـــوا اول دولة مجريـــة

---

* الهون شعب منغولي مترحــل سيطر على جزء كبير من اوروبا الوسطى والشرقية بقيادة اتيلا عام ٤٥٠ ميلادية .

(هنغارية) وهي الدولة التي حطمها المغول مؤقتا عام ١٢٤١ ميلاديـــة .
وما كاد يتم بناء كنيسة ماتياس في بودا — التي بداها الملك بيلا الرابع في القرن الثالث عشر — حتى حولها السلطان العثماني سليمان القانوني الى مسجد وذلك عام ١٥٤١ . وابقى العثمانيون على مدينة بودا كعاصمة اقليمية لهم حتى عام ١٨٨٦ عندما استردها النمساويون . وقد اكتشف الاتراك اثناء احتلالهم للمجر شبكة من الينابيع الحارة وبنوا الحمامات التي استمر المواطنون في استخدامها بعد ان رحل الاتراك .

وقد اعيدت كنيسة ماثيا الى الغرض الذي اقيمت من اجله . وكانت اعمدتها قد طليت بطريقة مبهرجة لا تنم عن ذوق سليم . وكانت بودا العاصمة الادارية لحكم اسرة آل هابسبورج .

وقد وصفت « بست » ، المدينة التجاريـــة والصناعية على الضفة الاخرى للنهر ، في وثائق القرن الثالث عشر بأنهـــا مدينة* تيوتونية في غاية الثراء . وفي نهاية القرن الثامن عشر جعلتها اسرة آل هابسبورج اكبر ثكنات ومخزن للمدفعية في اوروبا وربما في العالم.ولكن التحدي الاول الذي واجهته بست لم يكن ذا صبغة عسكرية .فقد اكتسحها فيضان في عام ١٨٣٨ والحق بها دماراً كبيرا لدرجة ان القرن (العشرين) كان يذكر نكبة هذا الفيضان . وهناك تلك الايادي المرسومة على الواح من الرخام تشير الى المستـوى الذي ارتفعت اليه مياه الفيضان . وعندما فتح شارع جديـــد في الحـــي اليهودي ، بواسطة الفيضان وحطم خط المنازل الذي كان عليه المعبد والمكان الذي ولد به هيرتزل ومنازل اخرى ، سمي الشارع باسم البارون الذي كان يستخدم قاربه الخاص لكي ينقذ السكان من مياه الفيضان .

وكانت الحياة في المدينة الجديدة التي بنيت في اعقاب الفيضان اشبه بالحياة في اوروبا الغربية ومختلفة اختلافـــا كبـــيرا عن الحياة في الماضي العثماني . وتوغل النفوذ البريطاني الى ما وراء الجسر المعلق الذي صممه المهندس الانكليزي . فقد عملت شركتان لبناء السفن مركزهما في البندقيـــة على اقامة الخط البحري الذي يربط بين عاصمة المجر وبين فينا التي تبعد مسافة ١٦٣ ميلا الى الشمال الغربي . وكانت الرحلة في النهر من فينا تستغرق ١٣ ساعة فقط ، اما رحلة العودة ضد التيار فكانت تستغـــرق ضعف هذا الوقت لدرجة ان المسافرين كانوا يفضلون القطار بدلا من السفر

---

* التيوتون شعـــب جرمانـــي قديم .

بالنهر ضد التيار . ولهذا وضع تمثالان لستيفنسون ووات رائـدا البخار الذي كانت تسير به السفن على واجهة المحطة . وعلى المستوى الاجتماعي فان الكازينو الوطني مثلا كان يقلد النوادي الانكليزية فكان الاعضاء الدائمون والمؤقتون يصعدون سلما مزخرفا الى حجرات بها صحف .مثلا « التايمز » وادنبيرج ريفيو موضوعة على المناضد ومعها صحف فينا الرئيسية ، وكذلك صحف برلين وبـاريس . ولـم يكـن المجريون مـن الطبقة المتوسطة يلقون ترحيبا . وكانت المجر عندئذ مجتمعا ارستقراطيا .

تم الاتحاد بين بودا وبست رسميا في عام ١٨٧٢ ، اي بعد جيل من اقامة الجسر بينهما . وكان العالم يحتاج الى جيل اخر ليرى جانبا مذهـلا للمدينة المزدوجة وهو توسعها (٦) . فقد كان نمو سكانها مذهلا اشبـه بالانفجار السكاني الذي حدث في آسيا في القرن العشرين ، غير ان هذا الانفجار لم يكن ملحوظا بشدة في القرن التاسع عشر لان هذا القرن كان فترة نمو عام في اوروبا . وكانت دول الاطلنطي (انكلترا وفرنسا وهولندا والبرتغال واسبانيا) تسيطر على مصائر ما يزيد عن نصف العالم . وقد ازداد سكان لندن وباريس الى ثلاثة امثال سكانهما الاصليين في الحقبات التسع الاولى من القرن وذلك تمشيا مع نمو امبراطورياتهما فيما وراء البحار .

ولما كانت لندن وباريس تسيطران على كثير من الاراضي فيما وراء البحار فان الزائدين من سكانهما كانوا يستطيعون الرحيل الى اي مكان يريدون في الارض.اما ممتلكات الهابسبورج فقد اقتصرت على اوروبا. وفي نفس التسعين عاما الاولى من القرن ازداد تعداد بودابست واصبح ثمانية امثال تعدادها الاصلي.وكان التوسع خلال القرن باجمعه من ذلك بكثير.وقد دخلت المدينتان القرن التاسع عشر بعدد من السكان يقل عن ٥٥ الف نسمة ، ودخلت بودابست الموحدة القرن وتعداد سكانها يزيد عن ٧٠٠ الف نسمة . وكانت برلين المدينة البروسية في الشمال منافسا لبوادبست في هذا التضخم السكاني . ولم يقتصر التغيير في المدينتين على ازدياد السكان فقط بل حل ايضا بنوعية الحياة فيهما تغيير كبير . ففي عام ١٨٧١ — عندما اصبحت برلين عاصمة الامبراطورية الالمانية الجديدة الضخمة — كانت مرافقهـا الصحية اسوأ مرافق مدن اوروبا . وكانت كلمة بودابست ايضا تعـد مرافقا لكلمة المرض . غير انه في نهاية القرن اصبحت العواصم الناشئة في اوروبا تنافس لندن وباريس في النواحي الصحية وفي الكفاءة والتعليم العام وذلك بفضل الجهود المستمرة والمخططة للتعمير . وبذلك فان بودابست

وبرلين لم تقفا فحسب عند مواجهة الكاثوليك والبروتستانت للشرق في صورة امبراطوريات القيصر والسلطان ، بل عبرتا ايضا عن اسلوبين مختلفين من الحياة : حياة القذارة غير الصحية في الماضي والمدنية الجديدة التي تدين لجهود الطبيب والمهندس والاخصائي اكثر مما تدين لجهود الاسقف او الملك .

وبهذا فان « بست » المدينة التي رحبت بدوري هيرتزل احدث مواطنيها ، كانت مدينة صاخبة وحديثة كأي مدينة في الولايات المتحدة . وثمة تشابه كبير بين هذه وتلك . ففي امريكا تحولت مراكز التجارة والماشية مثل انديانا بوليس وسانت لويس ، وفي وسط اوروبا تحولت المدينة الريفية الى مدينة حديثة بعد ان زودت بكل احتياجات المدينة الحديثة من فنادق مثل فندق « كوينيجن فون انجلاند » (ملكة انجلترا) ، وحدائق نباتية ، ومستشفيات وسجون . وقد بني اول مترو للانفاق في اوروبا في بودابست « بعد جيل » .

غير ان هناك ايضا بعض اوجه الخلاف بين بودابست والمدن الاخرى. فالمدن الامريكية التي يعيش فيها المستوطنون الاوروبيون وعبيدهم الافريقيون بقيت على ارض غير محروثة (ليست زراعية) . وكان اسلافهم ساكنو تلك المدن من الرعاة الذين هاجروا من امريكا الشمالية ، وكانت عاداتهم وتقاليدهم غريبة وكانوا بالنسبة للسكان الجدد مجرد اشكال فولكلورية عاشت في الماضي . اما مدينتا برلين وبودابست الحديثتان فقد استوعبتا سكانهما في الاراضي الزراعية حيث الفلاحون والملاك من ذوي الافكار القديمة الراسخة .

وشعب المجر لديه احساس عميق بالحدود وهو لا يفترق في ذلك كثيرا عن الشعب الامريكي . غير ان الاحساس عند المجريين مختلف . فالحدود بالنسبة لاي قادم جديد الى انديانا بوليس او سانت لويس هي مساحة جغرافية يمكن عبورها بالسكة الحديد او بالقوارب النهرية ، ويمكن لعمدة المنطقة ان يتولى حراستها . وكانت الافكار الوحيدة في جو البراري الامريكي افكار واردة من اوروبا بعد ان غسلت من شوائبها المتعلقة بالخرافات . اما بالنسبة لسكان مدينة بست ، فان الحدود كانت مصدر تهديد لهم ، فمن ناحية الجنوب تقع الامبراطورية العثمانية على بعد رحلة نهرية قصيرة . وتقع امبراطورية القيصر الآخذة في الاتساع من الناحية الاخرى

وراء سلسلة من الجبال . وقد اثرت امبراطوريتان علـــى المجـــر تاثيرا سيئا .

وثمة حدود اخرى تقع بين الماضي والحاضر ، وتتلوى كالثعبان عبر قلب المدينة . ولا يستطيع زوار المدينة الا ان يقارنوا بين شوارع بست المبنية حديثا وشارع بيكاديلي في لندن او شارع ريفولي في باريس ، وبعدها بقليل واثناء سيرهم سيحبسون أنفاسهم عندما يشاهدون الروعة والجلال اللذان تثيرهما بساطة القطاعات الريفية .

فهناك العربات القديمة المطهمة ، والخيول البرية التي تشاهدها فور صيدها من السهل وقطعان الثيران الملونة ذات القرون الطويلة ، والرعاة المتوحشون الذين يرتدون جلود الماعز . والى الشرق من الحدائق النباتية تجد المسرح المخصص لعروض الفن الالماني واخر لعروض المسرحيـــات المجرية ، ثم الجامعة بطلبتها الـــ ١٥ الفا ، وفيما وراء السهل المجـــري المليء بزهور عباد الشمس ترتفع جبال ترانسلفانيـــا عند اقصى مقاطعة في الشرق من امبراطورية آل هابسبورج .

وقد تنازع المجريون مع الالمان والرومانيين « الذين يعيشون خارج المجر » حول هذه المنطقة من جبال الالب التي تشبـــــه حدوة الحصان (يمتلكها الرومانيون الان-) ، ولكن قليلون يتنازعون حول وجود « مصاصات الدماء » .. وهي مخلوقات بشرية شريرة يقال همسا انها تسكن في النهار ، مثل البق المنتفخ بالدماء ، في اغطية نعوش الموتى ، ثم تحوم في الغابـــات ليلا بحثا عن الدم الاحمر الذي يبقيها خالدة او على الاقل ليست ميتة . ويخيم ضباب تلك الاساطير الدموية على بعد رحلة تستغرق ساعات قلائل من الكازينو الوطني ومن المقاهي التي تضيئها مصابيح الغاز وتصدح فيها الموسيقى وتتصارع فيها كئوس النبيذ .

غير ان الفظاظة يمكن ان تكون اقرب الى متناول اليـــد في اماكـــن غير ترانسلفانيا . فان السهل (حيث كـــان الغزاة المجريون وحدهم لهـــم الاغلبية العددية) يفتقر الى السكان القلائل الذين ينتمون الى الطبقـــــة المتعلمة المتنورة الذين وصفتهم المؤلفة الانجليزية « جين اوستن » في رواياتها ، وهم الطبقة التي جلبت القيم الحضرية الى الريف الانجليزي . وقد عاش ملاك الاراضي المجريون في منعزلات اقطاعية بعيدة عن الفلاحين . بينما في بودا او باريس لم يعش ملاك الاراضي في عزلة عن الفلاحين .

وكان ذلك سبيلا لاختفاء ظاهرة الصقل الاجتماعي . فالريف كـــان

فقيرا وسكانه مرضى . وكانت نسبة الوفيات اعلى هناك منها في اي بلد اوروبي اخر فيما عدا روسيا القيصرية .

لقد اصدرت شركة جون موري في لندن طبعات دورية من دليل اسمه «Handbook for Travellers in Southern Germany»
(دليل المسافرين الى جنوب المانيا)واشارت الطبعات التي صدرت عام ١٨٥٨ و١٨٦٣ في اعقاب وبعد مولد دوري هيرتزل على الفور الى المجر تحت اسم (جنوب المانيا) . وقد وجه الدليل نصيحة الى القراء الذين يفكرون في قضاء اجازتهم في هذه المناطق من العالم فقال ، « يجب على كل مسافر ان يحمل معه دواء للصدر ، او على الاقــــل قدرا كافيـــا من الكينين واقراص الكالوميل لان هناك حميات خطيرة وانواعا اخـــرى من الامراض المستوطنة في المستنقعات التي تقع حول منبع نهر الدانوب » . اما زوار المدن الصغيرة فالراحة لم تكن متوفرة لهم الا بقدر ضئيل .

« ان الفنادق المجرية .. التـــي تجدها خارج بست والمدن الكبيرة الاخرى هي اسوأ الفنادق التي تجدها في اوروبا عامة . ومعظمها من طابق واحد ... مقامة في وسط ساحـــة غير مرصوفـــة تغوص فيها الاقدام في الطين ، والارصفة التي تؤدي اليها غير مستوية ، واذا صادفت درجات فهي محطمة . ونادرا ما تجد الخـــادم او صاحب الفندق ليستقبل مسافـــــرا عندما يقدم نفسه ، والخدمة بطيئة وسيئة ، غير ان هذه امور تافهة . وانا لست ممن يبالغون في الدقة ، غير اني لا بد ان اعترف انه قد اصابني قرف شديد من قاعة الطعام بجوها المليء بدخان التبغ ، والكلاب ، وممارســـة البصاق بصورة تفوق الحد ، ورائحة الثوم المريعة ، والادهى من ذلك كله ، عدم بذل اي محاولة لتنقية جو القاعة . والحال ليس افضل اذا دخلـــت غرف النوم ، فالبصاق يملأها بالمثل ، وهي نادرا ما تنظف . والعنكبـــوت يعشش في اركانها بصفة دائمة ، وخيوطه هي الستائر الوحيدة التي تزين الحوائط العارية . اما الاسرة فاني ارتعد اذا تذكرتها .. فهي دائمـــا قذرة .. والملاءات مخاطة من الاغطية ومن العسير لقذراتها الشديدة ان تحدد المدة التي تركت فيها على الفراش دون ان تغسل . ويجب ان تطلـــب تغيير الملاءات بصفة شخصيـــة ، ودائمـــا ، وعندئذ فقط ستجاب الـــى طلبـــك .

وقد دفعت رائحة الثوم المقززة ــ التي يعتقد المجريون انها طاردة لمصاصات الدماء ــ معظم المسافرين الانجليز الى ان يفضلوا السفر عن

طريق النهر ... ولكن حتى السفر النهري لم يكن مريحا . فالمجريون يبذون الامريكيين في عادة البصق القذرة . وهم لا يقتصرون على البصق على سطح السفينة بل يبصقون ايضا في اماكن اخرى » .

لم تكن المجر المتخلفة عام ١٨٦٠ دولة مستقلة ، ولم تكن ايضا بعد شريكا متساويا في دولة متعددة الجنسيات . بل كانت مقاطعة اعيد اخضاعها مؤخرا ضمن امبراطورية راكدة . غير ان المجريين بكل طبقاتهم فرض عليهم الاحساس بالوحدة وذلك بواسطة اقوى دولة في القرن . « كانت الروح القومية هي الحماس بل كانت هي خرافة العصر تقريبا . » (٧) لقد ربطت القومية رعاة الماشية في السهل والفلاحين واصحاب الاراضي بالاقلية من رجال المدن ، وكانت بالكاد نسبة تصل الى عشر المجريين يعيشون في المدن، وعددهم يصل الى اكثر من عشرة الاف نسمة . وكانت تلك الروح القومية قوة اخرى تختلف عن تلك التي كانت الدافع لاول ثورة في القرن ضد الاتراك. لقد حارب الصرب بزعامة « كارا جورج » واليونانيون بزعامة اساقفتهم ، امبراطورية دينية من اجل ديانة اخرى ، فقد كان الصرب واليونانيون مسيحيين ثائرين ضد الحكم الاسلامي وكان لكل جماعة مسيحية اسلوبها الخاص لعبادة المسيح . ولم يكن في المجر مثل تلك الوحدة الدينية . فقد كان اقل من نصف سكانها من الرومان الكاثوليك اما الباقون من البروتستانت فكانوا موزعين بين المذهب اللوتري والكلفاني ونسبة عددهم اكثر من الخمس ، والارثوذكس موزعين بين اولئك المتحدين مع كنيسة روما والمنشقين عنها . وكان اليهود المجريون يشكلون نسبة (١) الى (٢٠) من السكان . وكان الذين يشعرون منهم بانهم مجريون يرتبطون معا بالاحساس بالتاريخ ، وباللغة ، وبالرغبة في المقاومة . وكانت المقاومة موجهة ضد قوتين . احداهما النظام المتحدث بالالمانية لآل هابسبورج ، والاخرى الشعور الوطني للسلافيين والاقليات الاخرى .

وقد تفجر هذا الشعور المجري بالقومية في عام ١٨٤٨ ، وفي اعقاب الثورة الفرنسية الجديدة ضد البوربون — وتحول الى ثورة تحت زعامة « لاجوس كوسوت » Lajos Kossuth . وفي ٣ مارس ١٨٤٨ طالب كوسوت بالحكم النيابي (البرلماني) للمجر وبحكومة دستورية لبقية اجزاء امبراطورية آل هابسبورج . وقد احدثت مطالب كوسوت سلسلة من الثورات في النمسا نفسها حيث كان مترنيخ قد اطيح به ، وكذلك في ايطاليا . وقد هزمت حركة الاستقلال في المجر بواسطة قوتين وهما التحالف السريع

بين النمسا وروسيا ، والمقاومة من جانب التشيك والرومانيين والصرب لاراء كوسوت وذلك داخل القسم المجري من الامبراطورية . وقد عادت النمسا الى فرض حكمها وهرب كوسوت الى منفى ذاتي لمدة ٤٥ عاما في تركيا وانجلترا وامريكا وايطاليا . ولقد حاول كوسوت اثناء حكمه القصير الامد ان يكسب تأييد اليهود المجريين الى قضية المجر بأن اعلن تحررهم . وعندما عاد حكم النمسا قضى على كل ذلك وقضى ايضا على الحرية في المجر بصفة مؤقتة .

وبهذا كانت المجر في العام الذي ولد فيه هيرتزل هادئة ظاهريا وكان هذا العام في الواقع معلقا في نقطة تحرك في التاريخ الاوروبي الحديث . فقبله بسبعين عاما اعلنت الثورة الفرنسية حقوق الانسان . « ان الانسان يولد ويظل حرا ومتساويا في الحقوق ويجب ان يكون التمييز الاجتماعي على اساس فائدة الانسان للمجتمع » .

وفي ذلك الوقت كان المبدأ الثالث لاعلان حقوق الانسان يبدو باهرا ايضا فقد قال ، « ان مبدأ السيادة كلها يتركز اساسا في الامة . فليس لاي فرد او جماعة ان تمارس السلطة اذا لم تحصل على ذلك الحق من الامة ». ورغم هذا فقد ادى المبدأ الى حالة من الهوس الوطني . وبعد ذلك بسبعين عاما دخلت اوروبا بسبب القومية عهد افران التعذيب . ووصل التقديس للجماعة القومية بصفتها مصدر الخير كله الى نهايته المخيفة وان كانت نهاية منطقية ايضا .

وقدر لتيودور هيرتزل أن يحيا ويموت بين الفكرة الليبرالية والفكرة القومية . ووقع في الاسبوع الذي ولد فيه حادث درامي القى الضوء على تلك القوى المتعارضة . ففي الخامس من شهر مايو عام ١٨٦٠ غـادر « جيوسيي غاريبالدي » ، القومي والليبرالي معـا بشكل متساو ، جنوا بسفينتين عليهما حوالي الف ومائة متطوع . وعندما غادرت السفينتان مياه جزيرة سردينيا قدم لرجاله بوقار قمصانا متشابهة . ولم يعـد لون القمصان القرمزي — في ذلك الوقت يرمز الى الثورة الاجتماعية اكثـر مما كان يرمز الى الممتلكات البريطانية على خريطة العالم . وكان اللون الاحمر يرمز الى الدماء التي كان الرجال على استعداد لاراقتها في سبيل الفكـرة القومية . وعندما نزل رجال غاريبالدي في جزيرة صقلية هزموا رجالا كان زيهم يرمز الى فكرة اقدم للدولة : وهي ان الانسان يخضع لحاكم يعينـه اللـــه .

الفصل الثاني

في العاشر من مايو عام ١٨٦٠ ، اجريت للطفل تيودور هيرتزل عملية الختان ... وهي احدى الطقوس البالغة القدم ... اقدم في تاريخها من اختراع الابجدية ومن استخدام الانسان للمعادن . ورغم ان الختان ليس قربانا مقدسا (١) بالمعنى الدقيق للكلمة الا انه احال هيرتزل جسديا الى يهودي ، وقد كان هيرتزل في الاصل يهوديا لانه ابن لأم يهودية ، ورغم ذلك فلم يصبح ملتزما التزاما واعيا الا بعد مولده بثلاثة عشر عاما.وبمعنى ادق او بمعنى لاهوتي فانه لا يستحق لقب اليهودي الا بعد ان يخدم الآله عن طريق تنفيذ الوصايا . (٢)

كان من بين الذين يزورون المنزل للتهنئة شخصان لهما القاب تقليدية ووظيفية خاصة . فالسنديك هو المقابل للأب الروحي [اب العماد] في المسيحية ، والكلمة مشتقة من الكلمة اليونانية Synteknos ، مما يشهد على ان اليهودية كانت في زمن ما تشكل عنصرا مقبولا في الحضارة البطلمية (حضارة الاسكندرية القديمة) ، وترجم كتابها المقدس الى اللغة اليونانية ، وجذبت الى مبادئها ومذاهبها الوثنيين الذين لم ترضيهم الطقوس اللاهوتية لجبل الاوليمب .

والرجل الثاني وهو الموهيل Mohel كان هو الذي يجري عملية الختان. ويبدو ان عمل هذا الرجل قد احبط رغبة الكثيرين الذين كانوا يريدون التحول عن دينهم طوال قرون .

---

(١) يصبح اليهودي ملتزما دينيا بعد الطقوس التي تعرف في اليهودية بـ « البار ميتزفاه » التي تجعله يهوديا امام الله مثلها مثل التعميد في الدين المسيحي .

والحفل الذي بدأ بصلاة من جاكوب هيرتزل له ثلاث مراحل تقليدية ؛ كل منها لها اسمها العبري . فالمرحلة الاولـــى تسمى « الميلاح » Milah . وفيها يوضع الطفل على وسادة علـــى ركبتـــي السنديك ، ويقوم الموهيل بخلع ملابس الطفل عن نصفه الاسفل ثم يبين لابيه الروحـــي كيف يمسك بقدميه .ثم يمسك بالجلدة الامامية لقضيب الطفل (الغرله) بسبابة وابهام يده اليسرى ثم يشدها الى الامام ويضع امامها شوكة معدنية . وعندئذ يسلب الموهيل سكينه وبضربة واحدة سريعة يقطعها . وفي المرحلـــة الثانية المسماة « بارياح » «Periah» يمسك الموهيل بالجزء الداخلي لجلدة القضيب التي ما زالت تغطيه بالسبابه والابهام بكلتا يديه المقصوصة الاظافر ثم ينزعها وبذلك يتعرى القضيب تماما . والمرحلة الثالثة (التي ادخلت عليها تعديلات لاسباب صحية في القرن العشرين) تعرف بـــ « المزياه » Meziah ، وهي كلمة تعبر عن مص الدماء من الجرح . ويتناول الموهيل بعض النبيذ في فمه ثم يضع شفتيه حول الجرح . ويمارس المص ثم يبصق خليط الدم والنبيذ في وعاء خاص . ويكرر الموهيل ذلك عدة مرات ، وبذلك تتم عملية الختـــان ولا يبقى الا وقف نزيف الدم وتضميد الجرح . (*)

والختان ـــ وهو شعيرة اقدم من التعميد في المسيحية ـــ كان يمارس في الشرق الاوسط قبل ان يمارسه العبرانيون بوقت طويل وقبل أن يحوله الحاخامات اليهود بعد ذلك الى قانون . والمسلمون والمسيحيون يمارسونه في مصر حتى الان . ومن الصعب معرفة اصل هذه الشعيرة لان الجلدة الامامية للقضيب تتآكل في القبر مع بقية جلد الانسان ولحمه ، فلا يمكن رصد اثرها في حفائر القبور القديمة ، وذلك رغم ان تلـــك الشعيرة التـــي تحدث تغييرا جذريا في الشكل الطبيعي لجسم الانسان يجب أن يكـــون هناك شخص بدأها في مكان ما في العالم . وتؤكد الرسوم البارزة علـــى حوائط القبور المحيطة باهرام سقارة التي بناها ملوك الاسرة الخامسة في مصر ، ان قدماء المصريين كانوا يمارسون الختان قبل حاخامات اليهـــود بالاف السنين .

ويجيء اول ذكر للختان في التوراة في الثلث الاول من سفر التكوين ، وهو اول كتاب من خمسة كتب تكون اسفار موسى او الاسفار الخمســـة

---

* هذه الرواية مبنية على مقالة عن الختان كتبها « ارون فريد نولاند » الطبيب من بالتيمور وذلك في الجزء الرابع من دائرة المعارف اليهودية طبعة عام ١٩٠٣ .

الاولى من العهد القديم .

ورغم الاولوية التي يحتلها سفر التكوين في قوانين التوراة ، الا ان تاريخه ومؤلفه موضع جدل وخلاف ، ويعتقد اليهود الارثوذكس ان السفر يكون مع الكتب الاربعة الاخرى في اسفار موسى جزءا من التوارة (التعاليم) التي تليت على موسى . ويقول دارسون اخرون ان الكهنة كتبوها بعد المنفى ، وقد خلطوا فيها بين التقاليد والاساطير ذات المصادر والتواريخ المختلفة .

وفي رواية التكوين يتصل الرب بابرام - وهو بدوي مرتحل من بين النهرين في التاسعة والتسعين من عمره ، ويقترح عليه الرب صفقة جليلة . وبمقتضاها يخلق الرب امه من عصب الرجل العجوز . وتصبح كنعان التي كان ابرام في ذلك الوقت مجرد عابر بها ارض خلفه الى الابد .

وفي مقابل هذه المزايا قدم الرب شروطه :

« قال الله لابراهيم واما انت فتحفظ عهدي . انت ونسلك من بعدك في اجيالهم . هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك . يختن منكم كل ذكر . فتختنون في لحم غرلتكم . فيكون علامة عهد بيني وبينكم . ابن ثمانية ايام يختن منكم كل ذكر في اجيالكم . وليد البيت والمبتاع بفضتك . فيكون عهدي من لحمكم عهدا ابديا . واما الذكر الاغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها انه نكث عهدي » . (٣)

ان رواية سفر التكوين توضح ان الختان كان له معنى مختلفا عن اليهود العبرانيين عن معناه عند غيرهم ممن مارسوه . فلم يكن الختان شارة قبلية ، لان العري كان قد اختفى منذ زمن طويل ، ولم يكن امتحانا لاثبات براءة الجدعان . ولم يكن ايضا يجري للاسباب الصحية التي يوصي بها الاطباء حديثا . فقد كان علامة جسدية على التزام روحي .

وتشير فقرتان تردان مؤخرا في التوارة الى معان ضمنية اكثر قدما . احداهما خاصة بتجربة فردية لاكبر مدرس عبري ، والاخرى

---

* قال ابراهام ليون ساشار ، مثلا ، في كتابه تاريخ اليهود الذي اعيد طبعه مرارا : ان البحث الدائم عن الكتب التاريخية الاولى للتوراة اوضح انها عبارة عن تجميع لعدد من المخطوطات كتبت في فترات مختلفة ولاغراض مختلفة .

بتجربة جماعية متعلقة بهزيمة كنعان .

فعندما غادر موسى مدين في طريقه عائدا الى مصر بعد ان خدم زوج امه غير العبري ، وكان واضحا انه لم يكن بعد قد انضم الى العهد الابراهيمي لانه « حدث في الطريق في المنزل ان « الرب » قابلـه وطلب ان يقتله . فأخذت صفورة صوانه وقطعت غرلة ابنها ومست رجليه . فقالت انك عريس دم لي . فانفك عنه حينئذ قالت عريس دم من اجل الختان » . (٤)

وقد جعلت هذه الرواية البعض يعتقدون ان العبرانيين ، الاوائل مثلهم مثل غيرهم من البدائيين الذين كانوا يمارسون الختان ربما كانوا يعتبرون الختان مقدمة للزواج . وهناك ايضاحان لهذا الراي : احدهما يقول أن الختان يسهل عملية الجماع الجنسي ويقول الاخر ان دم الذكر كان يقدم اختياريا لقوى التكاثر الغامضة . وكان الاله قديما يظهر للذين يعبدوه على شكل عمود (من السحب في النهار ومن النار في الليل) وكان هذا يتمشى مع مفهومهم عن هذا الجانب من قوته .

ورواية الختان الجماعي تجيء في سفر اشعيا . فبعد عشرة ايام من عبور الغزاة العبرانيين لنهر الاردن في طريقهم الى اريحا ، يأمر الرب اشعيا ، خليفة موسى : « فلتصنع سلاحا من الجمر وتختن اطفال اسرائيل من جديد مرة ثانية . » (٥)

وهناك شرح لهذا الطلب المثير للدهشة . فقد مات العبرانيون المختتنون ممن عاصروا « الخروج » . بينما لم يحافظ الجيل الجديد الذي تربى في صحراء سيناء على تلك العادة . وكان المختتون فقط هم الذين يستطيعون تملك الارض .

وتوضح الاشارة الى السكاكين المصنوعة من الحجر (ترديدا لما سبق ان فعلته صفورة مدى قدم عدم الختان . ويرجع غزو العبرانيين لكنعان الى ما بين الاعوام ١٢٢٠ و١٢٠٠ قبل الميلاد . وقد عاش اشعيا كشخص تاريخي في وسط عصر الحديد (الف سنة قبل الميلاد في آسيا ومصر) : وقبل ذلك بقرن دفن حجر مستورد مصنوع من الحديد مع رفات « توت عنخ آمون » (٦) . وقد جاء استخدام الاسلحة الحجرية قبل النحاس والحديد ، وهذا امر قديم وشائع في معظم التقاليد والروايات الدينية .

وفي قصة اشعيا جملة فيها رنين الحقيقة تقول ، « عندما تم ختان الامة باجمعها ، استراحوا الى ان استردوا عافيتهم » .

من السهل عندما يختتن الكبار في ظروف غير صحية ، ان يصابــوا بالمرض والعدوى والالم . ولم يكن لدى رجال قبائل اشعيا شيئا اكثـر تقدما يضمدون به جراحهم سوى الرماد والخرق المحروقة ؛ تلك الاشياء البدائية التي كان رجال القبائل العربية لا يزالون يستخدمونها عندما زارهم « شارلز دوتي » في القرن التاسع عشر .وتبين وصية التوارة بتختين الذكور عندما يبلغون اليوم الثامن بعد مولدهم مدى الاهتمام بتخفيف الالم . فالعملية عندما تجري للمولود في بداية حياته لا يصاحبها الالم الذي يشعر به اذا اجريت له بعد ان يبلغ سن الحلم . وقد ادخل القرن التاسع عشر تعديلاته المهذبة عليها . والارجح ان والدي هيرتزل استخدما مرهما اشتهر في بداية الامر في شمال المانيا وهو محلول مكون من جـــزء من حامض الكبريتيك المخفف ، وثلاثة اجزاء مــن الكحول وجزءيــن مــن العسل الابيض وستة اجزاء من الخل . (٧) وفي نهاية الرواية يقول يهوا كلاما حول هذا الختان الجماعي حير المعلقين « وفي هذا اليوم ابعدت تأنيب مصر عنكم » .

لم يكن العبرانيون المقيمون في مصر مؤقتا مختنين لانهم دخلوا البلاد على حالهم دون تختين او لان السلطات المصرية منعتهم من ممارســة عملية الختان . ولم يكن لهذا الامر اهمية في البداية لان بني اسرائيل كانوا عملاء لرفاقهم الهكسوس الآسيويين . وعندما قوي جناح الاســرة الثامنة عشر واستطاعت طرد هؤلاء الملوك الاجانب لم يســق العبرانيون فقط الى اعمال السخرة بل كانوا عرضة للهزء لعدم التزامهم بعادة الختان السارية في وادي النيل . وتشير التوارة الى ان العبرانيين الذين غزوا الان كنعان (حيث كانت القاعدة الختان باستثنـــاء الفلسطينيــين القدامى) لا يجــب ان يسخر منهم لنفس السبب . ولذلك فمن الغريب انــه بعد ذلك بأكثــر

* كتب الدكتور « ج. هـ. هيرتز » في تعليقه على نسخة اسفار موسى الخمسة (العهد القديم) التي كانت تستخدمها المعابد اليهودية الانجلو سكسونية يقول : المرجح ان المصريين منعوهم من الختان لانهم جعلوا تلك الشعيرة من حق الكهنة الارستقراطيين . ويقول اخرون غير هيرتز ، ان الغاء هذه العادة في البرية يدل على نبذ الرب لذلك الجيل لان الختان كان دليلا على الوفاء بالعهد المقطوع بين الرب واسرائيل . وربما كان المصريون يسخرون منهم لذلك . والختان الحالي يدل على عودة رضائه عنهم وتجديد العهد . » راجع كتب Pentateuch and Hatforaks لندن . مطبعة سونسينو ١٩٦٠ — ٥٧٢٠ ، ص ١٠١٠ .

من الف سنة كان شباب اليهود الذين يشتركـون في مباريـــات الوثنيين الرياضية (التي كانت تمارس في عري تام) يسخر منهم لاسبـــاب عكسيــة .

وقد بلغ الامر ببعض المصارعين اليهود المحرجين ان اقنعوا الجراحين بأن يضعوا جلدة امامية مزيفة لاعضائهم التناسلية . وقد اطلـق كاتب في الموسوعة اليهودية على هذه العملية كلمة اشتقها بنفسه وهي « ابيسبازم » Epispasm (لا توجد في قاموس اكسفورد للغة الانكليزية سوى كلمـة Epispatic وهي الصفة) . وتوحي معاني الكلمة ، وما تشير اليـه من اثارة للبثور ، ان العملية كانت مؤلمة . وقد استنكرها الحاخامات اليهود . ويشير كتاب الغفران الذي الف على الارجح في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد الى هذه العادة قائلا : « كل من لا يختن ينتمي الى ابناء بلعال ، الى ابناء يوم الدين والقصاص الابدي لان كل ملائكة الحضرة والمجد الالهي كانـوا كذلك منذ خلقهم ، وسيشتعل غضب اللـه على ابنـاء العصـر اذا جعلوا اعضاء جسدهم تبدو مثل اعضاء غير اليهود ، وسيطردون ، وسيبعدون عن الارض » . (٨)

وهكذا فان طفلا مثل تيودور ، ختنه ابواه في اليوم الثامن لمولده اصبح دون ارادته مرتبطـا بتاريخ يرجع الـى العصر الحجري ، ويمضي عبـر انتصارات وهزائم حتى عصر السكة الحديدية والصحافة اليومية . والانتماء الى الاقلية امر مؤذ ينبه المرء مباشرة الى غربته عن الاغلبية . فبعد ان اصبح بنيامين زيف (٩) (كما كان دوري يسمى بالعبرية) مختلفـا جسديا (بعد الختان) عن المجريين الذين يعمدون برش الماء المقدس على جباههم باسم الاب والام والروح القدس اصبح مرتبطا باقلية لها التزامات صارمة. فكان الختان اول متطلبات العهد الذي يحتاج الى المزيد من المتطلبـات للالتزام به . وبالنسبة « للهاجوليم » ـــ اللفظ العبري لكلمة الامم (اي غير اليهود) فان الختـان أسبــغ علـى الطفـل الجديـد وضعـا غامضا فقد اصبح مصيره ، ان ينظر اليه اما باحترام واما باحتقار ، ولكنه سيكون شخصا مختلفا بطريقة ما . والروح وراء القانون اليهودي لم تكن تقصد اقل من ذلك . فكل طقوسها ، وصلواتها ، هدفها ان تذكر اليهودي « بان الله بحكمته رأى من المناسب ان يختار شعبا واحدا لكي يكون الاداة المختارة التي تتحقق بها الوحدة النهائية للشعوب جميعا ، التي بين انها الغـرض والهدف من كل التطور الانساني » . (١٠)

ان عقيدة الشعب المختار يمكن بسهولة ان يساء فهمها . فيمكن لمن هم من غير اليهود ان يروا فيها دليلا على عجرفة اليهود ويمكن ان يرى فيها اليهود سببا للرضاء عن ذاتهم . فهي عقيدة اشبه بسكين ذي حدين .

ويوضح الكتاب المقدس ، والحاخامات الذين شرحوا ما جاء به ، ان الانتخاب هو مبعث للالم والعذاب . فاذا كان اليهود قد اختيروا من بين شعوب البشرية فسيكون ذلك من اجل خدمة يؤدوها واذا تقاعسوا عن ادائها عوقبوا بشدة بينما اذا نجحوا فسيكون النجاح غالبا مرادفا اخر للاستشهاد . وكان اليهود مغضوبا عليهم حتى في المجتمعات المتسامحة نسبيا مثل المجتمع البطلمي في الاسكندرية وذلك لرفضهم الاشتراك في اعياد الالهة الوثنية .

وكان احجام اليهود عن الاشتراك في النشاط الجماعي ، هو الاتهام الاول الذي وجه الى هذا الشعب الملتزم ، ولم يكن الاتهام هو الذي جاء فيما بعد بأنهم شعب يحب السيطرة على المال ويلجأ الى استخدام الربا . وعندما افسحت الوثنية الطريق للمسيحية ، وعندما اصبح المجتمع المسيحي مجتمعا صليبيا يضطهد كل من ينكر مذاهبه ، عاش اليهود في كيان منفصل بصورة متزايدة . وكان انفصالهم نتيجة لطاعتهم لقانون مكنهم من المحافظة على اخلاصهم لمهمة معينة وذلك عن طريق الالتزام بقيود مفصلة وعديدة . وكانت تلك الخدمة بالنسبة لليهودي المتدين مبعثا لابتهاجه . « ونفس القانون الذي كان غير العالمين بالدين يشعرون به على انه عبء ثقيل ونير على الرقاب ، وشيء اشبه بالفخ ، كان بقيوده الحقيرة ، الكنز الذي يحقق لليهود كل السعادة . « ان الرب شاء ان يجلب السعادة لاسرائيل ولذلك اعطاه كثيرا من المدركات والقوانين » (١١) .

ولو أن القانون نبذ ، او لو ان المذهب فسر بطريقة علمانية ، لكانت ثمة نتائج خطيرة . وفي حالة اليهود فانه يمكن استخدام الاحساس بالانتخاب لقمع الميل الانساني الطبيعي لتعظيم جماعته على الجماعات الاخرى . ولو ان شعوبا اخرى اخذت تلك العقيدة واستخدمتها ضد توسع قبائل العهد القديم المعادية فقد تكون النتيجة ، مبادىء من اخبث المبادىء العنصرية .

---

* ثمة شرح كلاسيكي لمبدا الشعب المختار من Book of the Kossar . وهو حوار يجريه اليهودي الاسباني « يهودا هاليفي » الذي عاش في القرن الثالث عشر .

ومهما يتكشف من موقفه من الدين ، فان الختان سجل الطفل النائم في الاقلية الاوروبية باعمق الفخر ، وما صاحب ذلك من ماض طويل مؤلم ومستقبل غير مؤكد على الاطلاق .

كان الفخر والالم اللذان يصاحبان العملية امران قديمان اما الجديد في ختان هيرتزل فهو ان المستقبل كان غامضا . فحتى منتصف القرن الثامن عشر كان موقف اليهود صعبا ولكنه كان واضحا . جاء قسط من الصعوبة من عداوة غير اليهود ، والاخر من متطلبات قانون شرائعي بالغ التعقيد ويجب ان نكرر ان الامر بالنسبة « للعهد » لم يكن مجرد كسب جماعي لورقة يانصيب . بل كان الاحساس به هو اشتراك جماعة في اداء مهمة بالغة الصعوبة الا وهي الابقاء على فكرة الاله الواحد حية في عالم خلقه الرب ولكنه رفض في الاغلب ان يعرفه .

وكان في تعاليم موسى نوع من التوازن المثير للفزع بين البركات واللعنات .

« فيرى جميع شعوب الارض ان اسم الرب قد سمي عليك ويخافون منك . ويزيدك الرب خيرا في ثمرة بطنك وثمرة بهائمك وثمرة ارضك على الارض التي حلف الرب لابائك ان يعطيك . يفتح لك الرب كنزه الصالح السماء ليعطي مطرا ارضك في حينه وليبارك كل عمل يدك فتقرض امما كثيرة وانت لا تقترض . ويجعلك الرب راسا لا ذنبا ، وتكون في الارتفاع فقط ولا تكون في الانحطاط (اذا سمعت لوصايا الرب الهك التي انا اوصيك بها اليوم لتحفظ وتعمل ولا تزيغ عن جميع الكلمات التي انا اوصيك بها اليوم يمينا او شمالا لكي تذهب وراء الهة اخرى وتعبدها) (١٢) .

يوضح الكلام الموضوع بين الاقواس الحالة بالنسبة للمنزلة الروحية بين الامم . فان اللعنات التي تنصب على العبرانيين الذين لا يطيعون كل تفاصيل القوانين الموسوية تحتل مكانا ضعف المكان الذي تحتله البركات غير انه من الممكن تلخيصها .

فمن بين النتائج الاولى للعصيان وعدم الطاعة ، المرض والعقم ثم الجنون والعمى ، ثم ضياع العقل ، والتعرض للاضطهاد على ايدي الاخرين ، و « يجعلك الرب منهزما امام اعدائك في طريق واحد تخرج عليهم في سبع طرق تهرب امامهم وتكون قلقا في جميع ممالك الارض » . (١٣)

وستكون النتيجة حصارا على ايدي « امة صافية الوجه لا تهاب

الشيخ ولا تحنّ الى الولد » . وسوف يحاصر هؤلاء القوم نسل ابراهـــام في جميع مدنهم . وسيكون اكل لحم البشر الذي وصف وصفا عنيفا،هو مصير المحاصرين ، وفي النهاية سيشتت الرب اولئك الذين كافأهم من قبل ، « في جميع الشعوب من اقصى الارض الى اقصاها » .

وباستيلاء الرومان على القدس في عام ٧٠ بعد وفاة المسيح ، وفشل ثورتهم في القرن الثاني بزعامة « بار كوخبا » ، فان اليهود مروا تماما بالوضع الذي ذكرته النبؤة لهم . وبتشتتهم في اوروبا ودول البحر الابيض المتوسط ، عاشوا متفرقين ومصرين على الا يستجلبوا عليهم عقاب الرب ابدا مرة اخـــرى .

وقد بنيت الحوائط حول الجيتو بواسطة قوتين احداهما الدول التي اصبح اليهود بالنسبة لها مصدرا للخوف ، والثانية هي اليهود انفسهم الذين صمموا أن يعيشوا حياتهم طبقا لادق التفاصيل التي حددها لهم انبياؤهم ، وقبل كل شيء تعاليم موسى . وثمـــة قول لشمياح ، وهـــو من معاصري هيرود العظيم ، يعبر باختصار عن موقفهم من الحياة في هذا العالم . فقد قال « احبوا العمل واكرهوا السيادة ولا تجعلوا انفسكم معروفين لـــدى الحكام » . (١٤)

وبذلك كان الجيتو مكانا للعزلة ، وامكنة العزلة تثير الشك او الاحتقار بسهولة . والاستخدام الحديث لكلمة « جيتو » يقصد به زقاق قذر تعيش فيه اقلية دينية او عنصرية اسوأ انواع المعيشة ، والجيتو اليهودي يستحق الى حد ما ، هذا المعنى الذي تنطوي عليه الكلمة . غير ان النظر اليه بهذه الصورة معناه عدم رؤيته كاملا . فقد كان الجيتو ايضا قلعـــة تؤدي بعض مهمات الدير : فهو مكان يلجأ اليه اولئك الذين كرسوا انفسهم لاشياء تختلف عن مشاغل المجتمع اليومية ، ويدرسون التوارة ويسعـــون للحياة لا طبقا لمبادئها فحسب بل طبقا للروح الخيرة التي تنطوي عليها . ولم تكن عزلتهم عن عالم يعاني الرق والتعذيـــب والاضطهاد والحـــروب الصليبية امرا سيئا . وكما اضاءت الاديرة المسيحية المشاعل من العالم الهيليني لاوروبا الهمجية ، كذلك فان الجيتو اليهودي حافظ على صورة فريدة من اشكال عباد التوحيد بعد زمن طويل من معاناة شعـــب اسرائيل للشتات الذي تنبأ لهم به موسى . ولم ينظر المفكرون اليهود الى الشتات على انه عقاب الرب لليهود فحسب ، بل على انه قدر من العناية الالهية الغامضـــة .

وقد تهاوت قلاع الجيتو في ايام حياة اجداد تيودور ، وكان اخر جيتو في القرن الثامن عشر ، وهو جيتو روما ، ولم يعد له وجود بعد سنوات قلائل من مولده .

ولم يمارس نظام الانعزال المفروض بقوة القانون في انكلترا منذ عودة اليهود اليها اثناء حكم « اوليفر كرومويل » او في امريكا الشمالية حيث تحرر اليهود رسميا منذ دستور ١٧٨٧ الذي نص على أن الدين ليس شرطا لشغل المناصب في الدولة .

وقد جاءت القوى التي دمرت الجيتو في اوروبا مثلها مثل تلك التي اقامته ، من داخل الجيتو ومن خارجه .

لقد ازال « بيان حقوق الانسان » الذي اصدرته الثورة الفرنسية اي اساس فلسفي للتفرقة ، وبقدوم عام ١٨٣١ ، أعترف باليهودية رسميا في فرنسا الى جانب المسيحية كديانات في الدولة تعينها ماليا . وكان يهود هولندا قد تحرروا عام ١٧٩٦ مع يهود المنطقة التي اصبحت بلجيكا فيما بعد . وتم التحرر في الولايات الالمانية في صورة شد وجذب ، فمن حركات ثورية تثبته الى حركات رجعية تعرقله حتى تحقق التحرر بوضوح بنصوص دستور الامبراطورية الالمانية عام ١٨٧١ . وقد انبعثت الحركة الاوروبية لتحرير اليهود من تيار الافكار الذي كان بعضه كريما ، وبعضه مبعثه الشك في الدين ، وبلغ هذا التيار ذروته في الثورة الفرنسية . ومن افكار الجانب الكريم تلك التي عبر عنها « جوتلد افريم لسينج » ، الذي توج حياته التي كرسها للافكار اللاهوتية بمؤلفه الدرامي ناتان الحكيم Nathan the Wise . (ويقول فيه ان الشخصيات النبيلة يمكن انه توجد في جميع المذاهب الدينية ولذلك فان اي شكل من اشكال الاستثناء الديني ليس له قاعدة منطقية) . وفي الجانب الشكاك هناك الذين بدأوا في الشك في جميع فروع المذهب الديني التي نشأت في الشرق السامي [نسبة الى السامية] .

وبينما كانت مدافع غير اليهود تهاجم حوائط الجيتو الخارجية كان العسكريون اليهود يقوضون تحصيناتها من الداخل . وكانت القوتان عنيفتان في الداخل والخارج . وقد الغت الروح الخيرية في ذلك العصر نظام الرق الذي سمح به رجال الدين وقبلوه قرونا طويلة ، أما روح الشك في ذلك العصر فتظهر نتيجتها في مشهد اسقف باريس وهو يرتد عن دينه أمام المجلس الثوري . وكانت هناك داخل الجيتو المزدحم ، ذي الجو غير

الصحي ، اتجاهات مماثلة ونشطة آخذة في التفاعل . فبينما كان الربوبيون الانكليز والموسوعيون الفرنسيون يتشككون في تعاليم الكنيسة ، كان اليهود وعلى الاخص الذين كانوا في المانيا ، يرفضون دينهم القديم كلية ، او يحاولون الملاءمة بينه وبين الاساليب الحديثة السارية . ولقد حاول « موسى ميندلسون » ، وهو الشخص الذي يدور حوله كتاب « ناتان » ان يحفظ التوازن بين مساهمة اليهود في المجتمع العام مع الاحتفاظ بالقيم اليهودية . غير ان اليهود الذين دعوا متأخرين الى وليمة الحضارة الغربية وجدوا انه من السهل الانغماس بنهم في تلك الحضارة . وكانت الثقافة الالمانية مغرية وفي متناول يد اليهود الذين يريدون الحداثة . ولم يكونوا في حاجة لبذل الكثير من الجهد للتحدث باللغة الالمانية بدلا من اللغة اليديشية (لغة الجيتو الالمانية وبها كلمات عبرية) ومثلهم في ذلك مثل الايطالي الذي يتكلم العامية عندما يريد ان يتكلم باللغة الفصحى .

ولم يكن مندلسون نفسه كاتبا خلاقا فحسب بل كان ايضا كاتبا له اسلوب الماني جميل . وكانت النتيجة السريعة للتفاعل بين اوروبا الاكثر تسامحا والمعبد اليهودي الاكثر تشككا ، هي ظهور ما عرف بـ « حركة الاصلاح اليهودي » . « وبدلا من أن يكون القانون اليهودي هو المرجع الدائم لكل نشاط وشعور اليهودي ، كما كان ساريا حتى ذلك الوقت ، اصبح على القانون اليهودي ان يبرر نفسه امام محكمة الحضارة الاوروبية. على الاقل امام اولئك اليهود الذين كان دخول المجتمع الاوروبي بالنسبة لهم مثلا اعلى لا بد من تحقيقه . وكان هؤلاء هم الاغلبية من اليهود الغربيين » . هذه الجملة مقتبسة من مقدمة طبعة جديدة لكتاب كبير لحاخام الالماني ، « سيمسون رفائيل هيرش » ، الذي يرى في هذا السعي نحو الذوبان الثقافي احد الامثلة الاخرى لتدهور اليهود . كان الجيتو يمثل اصرار اليهود على ان يظلوا شعبا مقدسا ، منفصلا ، بعيدا عن اغراءات حضارة الاميين ، بعد الراهبات عن الزواج او بعد الرهبان عن الاسواق . وكان الحل الوسط بين قيم اليهود وغيرهم من الامم الذي جاء مع تدمير الجيتو ، يبدو في نظر « هيرش » مثالا جديدا للروح التي دفعت بيهود « الخروج » الى ان يعبدوا تمثال هاتور أو يهود العصر البطلمي الى ان يشتركوا في المباريات الرياضية ويمنعوا الختان . فقد كان لها نفس النتائج السيئة .

ولكن رغم تحذيرات هيرش ، فان المقدمة تقول ، ان حركة الاصلاح

التي نشأت في المانيا ، انتشرت مثل النار في الهشيم عبر القارة الاوروبية كلها ومنها الى امريكا .

وعندما رفض من سموا بحاخامات الاصلاح الاعتراف بالانجيل او التلمود أو اي مصدر يهودي ديني اخر كسلطة ملزمة فلم يسلم مبدا يهودي ديني واحد مهما كانت قيمته الرئيسية في وقت او اخر من هجومهم عليه . وبذلك هاجم ابراهام جيجر Abraham Güger مؤسسة حركة الاصلاح اليهودي ، ، عهد ابراهام ثم سخر منه ايضا تليمذه اميل ج. هيرش. وتم تحويل صلاة السبت الى يوم الاحد بواسطة « صامويل هولدهيم » وهو عضو اخر في حركة الاصلاح . وقال ج. م. فيس G.M. Weiss المصلح في نيويورك ان يوم التكفير Yom Kippur يوم كئيب واخر بقايا نظمنا البالية في الدين اليهودي وقال اميل هيرش ان الايمان بخلود الروح ليس الا نوعا من المسكنات والمخدرات . اما عيد « تشعاب بيعيف » Tishab be Av وهو عيد الحزن على الدولة والمعبد الضائعين فقد اصبح مناسبة للرقص والابتهاج . (١٥)

لقد مزق اليهود .. الذين ينظر اليهم اعداؤهم على انهم كتلة صلبة متماسكة وينظر اليهم الذين لا يهمهم امرهم على انهم غامضين . بطريقة تشبه الطريقة التي مزقت بها جميع الديانات الغربية في القرن التاسع عشر . فمن ناحية كان هناك اولئك الذين ارادوا بأي ثمن أن يتواءموا مع عصر متحرر ، ومن ناحية اخرى كان هناك من يعتقدون انه في بحر عاصف فليس هناك وسيلة الا الاسترشاد بنجم ثابت . وكان والدا هيرتزل يدركون تلك العاصفة كغيرهم من اليهود . وكان امامهم مثل غيرهم الذين ذابوا في الثقافة الالمانية واحدا من اختيارين : اما الانفصال عن المعبد تماما واما الالتزام ببعض قوانينه وكسر الاخرى . وكان جاكوب مختلفا عن اثنين من اعمامه « فلم يفك جاكوب هيرتزل رباطه باليهودية . ولكنه لم يقترب ايضا كثيرا منها . لقد جعلته تربيته والعادات التي نشا عليها ، يهوديا ، وقد ظل يهوديا » . (١٦) لقد كان رجل اعمال ولم يكن من رجال الفكر . واستمر جاكوب هيرتزل يقدر الجمال البسيط لليلة السبت عندما كانت تتحول مائدة الطعام الى مذبح للتقوى العائلية وكانت زوجته تضيء الشمعتين بينما كان ورأسه مغطى يقوم بمباركة النبيذ اولا ثم ارغفة العيش المغطاة بفوطة بيضاء .

ورغم ذلك فقد كان جاكوب يشك في الكثير من الاشياء التي كان والده

يؤمن بها . وكان يعرف ان ابنه قد يزداد شكا . فقد كان في ختانه لتيودور يتبع عادة كان ابنه سيضعها موضع الشك . وكان في تمسكه بمثل تلك الجوانب من التقاليد اليهودية لا يختلف عن معاصريه من المسيحيين الذين يحتفلون بعيد الميلاد دون اقتناع بمولد العذراء او يقدمون لاطفالهم البيض في عيد الفصح دون ايمان منهم بالقيامة . وكانت هذه الاحتفالات ، كما قال يهودي من يهود القرن التاسع عشر مجرد مناسبة للهدايا الدينية العائلية ، وقد تصبح الحياة اكثر جفافا لو تخلص الناس منها ، بل سينطوي الامر على الخيانة ايضا .

ان في الموقف اليهودي عناصر يفتقر اليها الموقف المسيحي . فقد هجرت اخر سراديب للموتى (المقابر تحت الارض) في بداية القرن الرابع ، وكان الجيتو تجربة ما زال اليهود الاغنياء المجريون يتذكرونها . فقد نشأوا في ظل قوانين فرضها عليهم غير اليهود يأمرونهم باتيان اشياء ويمنعونهم اتيان اشياء اخرى . ولو انتقلوا مسافة قصيرة عبر الكاربتيان لدخلوا امبراطورية كان اليهود فيها ما زالوا محصورين في منطقة واحدة « منطقة المستعمرة »* .

وكان الانفصال عندئذ عن التقاليد التي ظلت سارية بثمن باهظ من العذاب والالام ، يبدو عملا من اعمال الخيانة لماضي لا ينسى ، هذا الا اذا تحقق الانفصال عن ايمان عميق بضرورته .

* المنطقة تشمل ٢٥ مقاطعة في روسيا القيصرية (في بولندا ، ولتوانيا ، روسيا البيضاء ، اوكرانيا ، القرم ، الصرب) حيث كان يسمح لليهود بالبقاء . ويرجع هذا النظام الى مرسوم للامبراطورة كاترين الثانية في عام ١٧٩١ . وكان الحاملون الحاصلون على دبلومات عليا او رجال الاعمال يسمح لهم بالبقاء خارج نطاق المستعمرة . وقد الغيت المستعمرة قانونا عام ١٩١٧ رغم انها كانت قد الغيت عملا قبل ذلك بعامين .

الفصل الثالث

جاهلا بالتزاماته ، وعى الطفل ذاته ببطء .. وهـــي ذات مستقلة تطلب الكثير . كانت شهوره الاولى هي صيف المجر الحار وخريفها الدافىء الطويل ، وقد جعل ضوء النهار الذي يغشى البصر ، واشباح الليـل التي تنيرها مصابيح الغاز ، الاشخاص الذين يقفون الى جوار فراشه الصغير يظهرون في اشكالهم الواضحة بالنسبة له . يمكن ان نخمن ان الاشخاص الثلاثة الذين اصبحوا معروفين لاول وهلة في عالمه ، كانوا اشخاصا غير عاديين لان تأثيرهم ساهم كثيرا في خلق رجل غير عادي . غير انه لا حاجة للتخمين فالمصادر الخارجية تؤكد ان والديه كانا شخصين غير عاديين ، ومن الفتى نفسه سنعلم مدى تأثير شقيقته الدائم عليه .

كان الشخص الاول الذي فرض نفسه واول شيء يصل اليه هـــو بالطبع امه جانيت . كانت جانيت هيرتزل هي الوصي القلق على طفولته ، وكانت المرشد الذي ظلت احكامه ثابتة في دوامة من المنازعات والمستجيب له، والملاذ في وقت التعب في اكثر سنواته المفعمة بالنشاط، والشخص الوحيد الذي من اجله كافح لكي يبعد عن نفسه شبح الموت قليلا . ولو ان كل هذا الحب كان يخفي شكا خفيا وكراهية مستترة فان ذلك سيكمل الصورة عن قوتهـــا .

كيف كانت تبدو ؟ ان ذكراها في الاذهان تتنازع مـــع صورتهـــا الفوتوغرافية .

[يحمل لها اولئك الذين عرفوها في شبابها ، في اواخر ايامهم ، ذكرى جمالها الأخاذ ، الشعر الكثيف الفاحم السـواد ، الجبهة الشامخـــة المتناسقة مع خط الانف المستقيم ، والفم الدقيق الذي يبدو وهو ساكن جادا الى حد

المرارة ، ولكنه اذا ما دبت فيه الحياة فجاة اصبح يومض بالذكاء والسخرية مما يضفي على صاحبته مظهرا فريدا رائعا . وكانت في عالمها الصغير « شخصية قوية » بلا شك . وكانت تدرك ذلك . وكانت لها صفات اخرى ايضا هي طيبة القلب والاخلاص . (١)]

وهنك صورة فوتوغرافية تؤكد انها كانت تتمتع بتلك الصفات الاخرى . فالشعر الجميل يظهر في الصورة ، والعينان السوداوان الساكنتان تحت حاجبين متفطرسين ، والفم ليس صغيرا جدا غير انه يوحي بان صاحبته مسيطرة ومشاكسة ، فم لم تثبت الحقيقة لصاحبته ما كانت تتوقعه منها او تساوم من اجلها . غير ان الذقن يوحي باصرار صاحبته على الحصول على ما تريد مهما كانت العقبات التي يضعها المنافسون امامها . وهناك فراء ثعلب حول الرقبة والاكمام ينتهيان ايضا بسوار من الفراء . والملابس داكنة اللون . وهنك جزيرة من اللون الابيض وهي اليدان الصغيرتان المدللتان لشخص لم يعمل الا قليلا وتوفر له الوقت ليفكر في اولئك الاعزاء لديه ، اولئك الذين ينبغي ان يسيطر عليهم .

وبعد اربعين عاما من ذلك الوقت ، وصفها رجل كان معجبا بابنها اعجابا شديدا بانها « ام معتزة بتعالي الاصل النبيل » . (٢) ورغم ذلك كان سلوكها يدين بالقليل للاصل النبيل ويدين بالكثير الى القوة الروحية التي اتسمت بها جدتها لامها التي كان عليها ان تعول ابناءها اذ ترملت في وقت مبكر . فامتهنت عمل البائع المتجول ، تدق الابواب من منزل لمنزل . وهذه التفاصيل التي تشير الى التحسن الكبير في ثروات اليهود هي بعض من تفاصيل كثيرة ضاعت عن عائلة جانيت . لان المؤرخ الذي زكى جمالها يقول لنا « ان ما نعرفه عن اسلاف تلك المراة المثيرة للاهتمام اقل مما نعرفه عن اسلاف زوجها » . (٣) وهذا امر لا يدعو الى اثارة الدهشة . فمنذ اوقات الصليبيين ، [عندما انهار التعايش بين اليهود والمسيحيين وانتهى الى خضوع جانب للاخر] وحتى القرن الثامن عشر ، كان اليهود الذين خلفوا وراءهم سجلات عن انفسهم ينتمون الى طائفتين اساسيتين هما الحاخامات المثاليون او المرتدون المرموقون . وفي داخل الجيتو كان الامتياز للشخص على اساس تقواه وعلمه* . فلم تكن هناك « عائلات

---

* ثمة استثناء واحد هو جلوكول من هاملن ١٦٤٦ — ١٧٢٤ والذي كتب مذكراته باللغة اليديشيه بعد زواجه .

كبيرة » بالمعنى الذي يقصده غير اليهود . فاسلاف المرء لا يفيدوه كثيرا . وكلن « الممزز » ، وهو تعبير استهزائي للطفل الذي يولد عن طريق غير شرعي ، يجيز تقليديا على الكاهن الكبير لو كان الممزر عليما بالتوارة والكاهن جاهلا .

واليهود الذين اشتهروا بانهم تركوا الجيتو واستسلموا للتعميد ، فهم اما قد قبلوا في حياة الرهبنة المسيحية ، وحينئذ لم يتركوا ورثة لهم ، واما اندمجوا في العائلات المسيحية عن طريق الزواج منهم وبذلك ذابوا في المجتمع غير اليهودي . اما اليهود الذين تمسكوا بدين آبائهم فقد قاسوا من عراقيل جعلت من المستحيل عليهم ان يحققوا المنجزات التي حققتها طبقة المتعلمين من غير اليهود . وقد بدا هذا الوضع يتغير في القرن التاسع عشر ، وعلى الاخص في الولايات الالمانية الواقعة الى شمال النمسا . وقد كسب يهود البلاط — وهم الذين كانوا مفضلين لدى الملوك الضعفاء الذين يحبون المال — ثروات ضخمة ، وكانوا يرتدون ثيابهم مثل المسيحيين . ولم تكن ثرواتهم مضمونة لانها أثارت الحسد عليهم او لان اصحابها كانوا يدينون الاخرين وكانت اي محاكمة ملفقة تلغي الدين او يصبح الدين معدوما بموت الدائن او وضعه في السجن . غير ان تلك الثروة يمكن في حالة استقرارها ان تساعد اليهود المعوزين في الجيتو . وادت هذه الثروات الى ظهور ارستقراطية يهودية اساسها المال . وقد كون ماير اشيل روتشيلد اسرة مشهورة ، عندما تخلى عن عمله السابق كتاجر في العملات القديمة واصبح الوكيل المالي لحاكم « هيس كاسيل » اثناء الانقباضات التي جاءت في اعقاب الثورة الفرنسية .

غير ان مثل تلك الفرص في اراضي آل هابسبورج ، التي جاء منها والدا هيرتزل سنحت بعد ذلك وفي وقت متاخر . فحتى عام ١٧٨١ كان لا يسمح ، طبقا للقانون النمساوي ، لاكثر من يهودي واحد من ذكور العائلة بالزواج . وكانت هذه المحاولة للحد من تكاثر اليهود خيطا واحدا من خيوط كثيرة متشابكة من مثل تلك القوانين . ولعل ما يثبت هذا هو ما شعر به الامبراطور جوزيف الثاني — وهو رجل ليبرالي — من ضرورة اصدار قانون خاص في اكتوبر عام ١٧٨١ يسمح لليهود ، لاول مرة ، بتعلم الحرف وممارستها ، وبدراسة العلوم والفنون في مدارس وجامعات النمسا ، وبالعمل بالزراعة وان كانت هناك قيود بسيطة . وثمة قانون صدر في نوفمبر من نفس العام يوضح مدى المحظورات القانونية التي كانت موجودة

من قبل . فقد اعلن في ذلك الوقت ان اليهود اصبحوا الرفاق في الانسانية وكان التمادي في شيء ضدهم أمرا غير مستحب ، فسمح لهم بحمل السلاح ، والغيت الضريبة على الافراد . ولكن هذه التنازلات كانت اكثر من اللازم ، فلم تستمر طويلا . ولقد عض الامبراطور جوزيف بنان الندم وهو على فراش موته لانه قدمها اليهم . وقد الغاها خلفه فرانز الثاني . وقد حكم فرانز الثاني منذ عهد الارهاب الثوري الفرنسي حتى عام ١٨٣٥ ، عندما كان والد جانيت قد بلغ الثلاثين .

وقد ولد جابريل هيرش (او هيرمان ديامانت) كما كان يعرف بالالمانية، في بست وتربي فيها ـــ وكانت بست مدينة خاما فيها اناس جدد وامكانيات جديدة . وكان في نفسية ديامانت المرحة شيء خام مثل المدينة . فقد كان رجل بلا خرافات ، ذكيا حاذقا في كسب المال ، وفيما يتعلق بالدين فكان يعلن انه من النزاعين الى الشك فيه . وكثير من اقاربه وابنائه عمدوا في المسيحية او تزوجوا من مسيحيين . وكان يشعر مثلما يشعر معظم يهود بودابست بأنه ليس مرتبطا بالجنسية المجرية ، التي كانت تحاول الظهور بعد قرون من السيطرة الاجنبية . ولم يكن مرتبطا بالماضي اليهودي ولكنه كان مرتبطا بثقافة الولايات الالمانية . وكانت المانيا دولة التنوير عندئذ واعطت عائلة ديامانت المستوى الثقافي الذي عاشوا فيه . ولم يكن حب الثقافة الالمانية معناه انهم يؤيدون حكم عائلة آل هابسبورج التي فرضت في ايام مترنيخ نوعا من الرجعية الدينية . وقد حارب « فيلهلم ديامانت » شقيق «هيرمان» مع الحركة الوطنية المجرية في عام ١٨٤٩ ضد جيوش آل هابسبورج وحلفائهم السلافيين . ولم ينخرط في سلك الجندية بسبب تحوله الى اعتناق القيم المجرية ، بل لان الليبرالية عندئذ كانت احد اوجه القوميات الاوروبية . وكانت الفلسفة السياسية لكوسوث Kossuth ـــ الذي اصدر برلمانه القصير العمر ـــ قانونا بتحرير اليهود تشبه فلسفة غاريبالدي وماتزيني . غير ان فينا ، بسقوط مترنيخ ، اصبحت رمزا للمجتمع المتعدد القوميات الذي يستطيع ذوو المستوى المتمدنون ان يستخدموا فيه مواهبهم كل سواء .

وكان هيرمان ديامنت قد بدأ في بودابست مشروعا لبيع القماش جعله ثريا . ولو انتصرت القوميات المحلية ، سواء مجرية كانت ، رومانية او سلافية ، فانها يمكن ان تسفر عن جو لا يحتمل بالنسبة للتجارة ،

وبالنسبة لحقوق الفرد .

ولقد تأثرت جانيت هيرتزل بقيم والدها تأثرا بالغا ، طوال حياتها . فقد تمكنت من تأثيث منزلها ، وكانت ترتدي ثيابها وتسلك بطريقة تجد مثيلها في اي بيت من بيوت الطبقة المتوسطة في فينا ، او هامبورج او برلين . فقد كانت الثقافة الالمانية بالنسبة لها ، كما كانت بالنسبة لابيها ، عقيدة تعيش بها.وقد كتب «اليكس بين» ، Alex Bein يقول « ان العالم اليهودي ، وهو عالم ليس غريبا عليها ، لم يجد اي صدى له من خلالها . وبدلا من ذلك ، فلم يكن هناك يوم لم تطل فيه على الادب الالماني . وعلى الاخص الادب الكلاسيكي » . وبالطبع فقد كانت جهودها الواعية كلها موجهة نحو غرس التراث الثقافي الالماني في ابنائها . وقد نجحت تلك الجهود وكان من باب الاخلاص لزوجها أن كانت جانيت تسمح للاعياد اليهودية بأن تعترض برامجها الثقافية . وقد تربي جاكوب هيرتزل في جو مختلف تماما ، وقد اثر هذا الجو عليه الى حد ما ، وجاء التأثير من شخصية والده « سيمون لوبيل هيرتزل » ، الذي لم يتوقف ابدا عن ممارسة طقوس اليهودية والذي لم يخلع ابدا جذوره من « سيملين » Semlin . تلك المدينة الصغيرة الواقعة على الحدود والتي عاش فيها آل هيرتزل اكثر من قرن من الزمان . وعندما تحسنت المواصلات اصبح من السهل على الرجل العجوز ان يقوم بزيارات لابنه في مدينة بست من وقت لاخر . وقد سمع تيودور عن سيملين من والده الذي ولد فيها ومن جده الذي كان يعود اليها بعد زياراته . وكانت المدينة وسكانها تختلف اختلافا كليا عن مدينة بست وسكانها .

فسيملين تقع على الضفة الجنوبية لنهر الدانـــوب عنـد الحدود العسكرية ، وهي منطقة كانت تنتمي الى تاج آل هابسبورج حتى عـــام ١٨٨١ ، وتميزها ابراج خشبية عالية بها منارات ومصانق خشبية للتحذير اذا ما عاد الاتراك . وتقع منها الى الشمال ، عبر الدانـــوب الامبراطورية الاوروبية واحسن ما كان فيها في ايام تيودور الاول ، ميلانو والبندقية وبراج وبودابست وفينـــا .

والى الجنوب تقع امبراطورية السلطان شبه الشرقية ، وتمتد جغرافيا الى افريقيا وآسيا ، وروحيا الى ليالي الف ليلة وليلة . وفي مستهل القرن الثامن عشر جاءت عائلة هيرتزل الى الجنوب قادمة من بوهيميا في اعقاب النمساويين المتقدمين جنوبا حتى بلغراد ، ثم تراجعوا معهم الى سيملين التي

اصبحت مركزا رئيسيا للجمارك ومحطة للحجر الصحي للمسافرين في النهر من البلقـــان .

وعاشت عائلة هيرتزل هناك حياتين متميزتين ، فقد اندمج افرادها اجتماعيا مع النمساويين ، واصبحوا يتكلمون الالمانية ، ويعلمون اولادهم في المدارس المحلية ، ويخدمون في الميليشيا ، ويعملون كموردين للمواد العسكرية للقوات الامبراطورية . اما روحيا فكانت عيونهم ، الى جانب ما يربو على ثلاثين عائلة يهودية اخرى ، متجهة نحو المعبد اليهودي . وكان « سيمون لوبيل هيرتزل » ابن حاخام ، وكان له شقيقان . ووجد هذان الشقيقان وهما اعمام تيودور الجو خانقا فتركا سيملين واليهودية في ضربة جريئة واحدة . اما سيمون لوبيل هيرتزل فقد ظل على اخلاصه لدينه وللمدينة . وكان يفخر بالنفخ في قرن الحمل (البوق) في عيد راس السنة ، ويفخر بأن يأم الجمع الصغير في عيد كول نيدر (صلاة تقام كل عام يلغي فيها المرء اليمين التي اقسمها لله متسرعا) الذي يعتبر بشيرا بعيد التكفير . وقد اضفى سيمون الاخلاص الذي كنه لوالده علـــى يهودا الكلاي Yehuddah Al Kalai حاخام المدينة الجديد وهو رجل يختلف اختلافا كبيرا عن ابطال جانيت هيرتزل الالمان .

وكان الكلاي (٤) نفسه ابن حاخام ، وعمل والده في سرايفو ، المدينة التركية الكبيرة التي تقع قصيا الى الجنوب ، والتي كانت الشرارة التي اندلعت منها الحرب العالمية الاولى . وقد ولد الكلاي هناك عام ١٧٩٨ ؛ وهو عام حاسم بالنسبة للامبراطورية العثمانية ، التي كان احد رعاياها . وفي صيف هذا العام نزل نابليون بونابرت بجيش فرنسي في مصر وهـــزم المماليك الذين كانوا يحكمون البلاد لصالح الاتراك . وقـــد ايقظ دخول الفرنسيين المصريين من سبات عميق استمر قرونا ، وكان ايضا بشيرا بفترة تعرضت فيها الممتلكات العثمانية الضخمة لهجوم الاوروبيين بجيوشهم وافكارهم . وقد قضى يهودا طفولته في اورشليم ، وكانت بها طائفة يهودية صغيرة . وفتحت الاسفار التي قـــام بها ، عيونه على مواطن ضعف الامبراطورية العثمانية .

وبفضل جده الذي كان عند الحدود ، راى تيودور في وقت مبكر رؤية واضحة تلك الامبراطورية الرجعية الغريبة الواقعة الى الجنوب . وقد حكم العثمانيون في ريعانهم اقوى واكثر الدول تنظيما في اوروبا ، غير ان هذه الفتوة العثمانية كانت قد مضت منذ وقت طويل وكان كيانها ممزقا

ولم تكن تشبه الدول الاوروبية لان الامبراطورية العثمانية كانت تجميعا للملل ، او الجماعات الدينية ، يحميها السلطان وتدين له بالولاء ، ويمثل السلطان العنصر الاسـلامي المسيطر في الدولة . وكانت الامبراطورية متسامحة فيما يتعلق بالدين . فكان المسيحيون يمارسون العبادة بمذاهبهم المختلفة ، بزعامة رؤساء كنائسهم ، وكان لليهود بالمثل حرية العبادة كما يشاءون . غير انـه اذا حاولت اي من تلك الجماعات الانفصال عن الامبراطورية فلا بد ان تواجه بمقاومة من الاتراك . وقد شـهد الكلأي محاولات الانفصال الاولى عن العثمانيين التي قامت بها الصرب ثم اليونان ثم الرومانيون ثم البلغاريون . وكان الانفصال عملية ممكنة بالنسبة لاولئك لانهم كانوا يشكلون اقليات مندمجة في مناطق تقع عند اطراف الامبراطورية . ولم يكن الانفصال سهلا على الارمن لانهم كانوا مشتتين في الاناضول ولا يشكلون اغلبية في اي مقاطعة . اما بالنسبة لليهود فلم يكن الانفصال املا ممكنا على الاطلاق .. ففي فلسطين نفسها كانوا يشكلون اقلية ضئيلة بينما كانت اعدادهم كبيرة في مناطق اخرى مثل ازمير وسالونيكا ، تلك الاماكن التي وجدوا فيها المأوى بعد اضطهادهم في اسبانيا . وكان ثمة تحذير تاريخي لكل من يحلم منهم بالعودة الى فلسطين وذلك في حيـاة « سباتي زيفي » ، اليهودي المولود في ازمير والذي عـاش في القـرن السابع عشر . وقـد زعم زيفي انه « المسيح » ، وردد انه يعتزم غزو فلسطين بجيش يجنده في الجزيرة العربية . وقد ثبت لكثيرين من اليهود البسطاء أن المسيح المزيف ما هو الا نذير شؤم . فبعد الثورات والمحاولات المجنونة لاسقاط السلطان ، اعتنق زيفي الاسلام ، وسجن في قلعة في البانيا . وقد اصبحت المعاناة التي تكبدها اتباعه قصـة تحذير لليهود العثمانيين الذين دفعوا الكثير لكي يأويهم الاتراك بعد ان اثبتوا لهم انهم رعايا مخلصون ونافعون . والواقع ان اليهود وقفوا الى جانب الاتراك ضد النمساويين دعاة المسيحية . وذلك قبل ان تصبح المانيا دولة لهـا اغراؤها بعد عصر التنوير .*

---

* وقد دفع اليهود ثمنا لهذه الوقفة . فقد ادى دعمهم للاتراك في المجر الى ما يسمى بحادثة « بوريم بودا » . ففي عام ١٦٨٤ ارتد الجيش النمساوي الذي كان يحاصر مدينة بودا نتيجة لجهود مشتركة قام بها الاتراك واليهود . وقد وصلت تقارير هذا الحادث في وقت كان فيه اليهود يحتفلون بعيد البوريم . وقد ظن بعض السوقية بأن اليهود يحتفلون بانتكاص المسيحيين وكادت ان تقع مجزرة لولا تدخل الجنود الايطاليين

وعندما بلغ يهودا الكلاي ، وكذلك جد تيودور ، مرحلة الرجولة ، لم تكن الامبراطورية العثمانية موضعا للاعجاب الشديد من جانب اليهود . ولقد احس الكلاي بالتغيير المرتقب في الامكانيات . فعندما كان الكلاي في السابعة والعشرين من عمره عين حاخاما في سيملين . وكان يعيش في تلك المدينة القذرة ، والامبراطورية العثمانية المتهاوية على جانب ودول اوروبا الجديدة على الجانب الاخر . وبدا الكلاي يقول ان اليهود يجب ان يحاولوا ايضا العثور على وطن قومي لهم . وكان الشرط الوحيد الذي وضعه متمشيا في ذلك مع تقاليد التلمود هو انهم يجب الا يحاولوا استخدام القوة . واقترح أن يبتاعوا فلسطين عن طريق شركة مساهمة للسندات تماثل شركة بناء السفن التي سيرت الملاحة في نهر الدانوب .

وكما فعل الرسول يعقوب واشترى جزءا من الارض في شكم (في وسط فلسطين) ، فانه يمكن لليهود ان يشتروا الارض جزءا جزءا حتى يبنوا دولة على أرضها تكون تابعة للسلطان . وقد اعرب الحاخام عن آرائه هذه في كتاب (Goral la-Adonai) (ارض للرب) ، الذي نشر في فينا قبل ثلاث سنوات من مولد تيودور . وكتب الكلاي عن الالم الذي يشعر به لان اللغة العبرية بطل استخدامها . « ولهذا السبب قسم شعبنا الى سبعين شعبا ، واستبدلت لغتنا باللغات السبعين لاراضي المنفى » .

وكان « سيمون لوبيل هيرتزل » ، الذي تحدث عن آراء الكلاي اثناء زياراته لبست ، شاذا ، لانه حملها على محمل الجد . وكانت هذه الآراء بالنسبة لليهود الارثوذكس تتعارض مع التعاليم التقليدية التي تقول ان المنفى فرضه الرب وسوف ينتهي فقط بقدوم المسيح . ولم يكن من حق الانسان الزائل ان يحث العناية الالهية لكي تتحرك* . وكانت آراء الكلاي بالنسبة للتجار الليبراليين واصحاب البنوك في بست ، هي النتاج الخرافي

والالمان الذين يعملون في خدمة دوق فينيسيا . وعندما حررت بودا نهائيا فرضت الغرامات على اليهود . (٥)

* اعترف سيمون سينجر ، وهو حاخام بريطاني اعتنق اخيرا افكارا مثل افكار الكلاي ، بالمعبودية امام اي حركة سياسية باستعادة فلسطين ، وقال ذلك في خطبة عنوانها : « اليهود وعلاقتهم بالاجناس الاخرى » . القاها في معهد ساوث بليس South Place — لندن في ٩ مارس ، ١٨٩٠ : يقول دكتور في التلمود « ان هناك قسمين فرضهما الرب على اسرائيل ، اولا انهم لن يسعوا لاستعادة ارضهم بالقوة ، ثم لن يثوروا ضد الامم التي يعيشون بينها . اى بمعنى اننا لن نستعين بالقوة بل بنمو النفوذ الادبي لاستعادة مثلنا العليا .

لعالم تركوه خلفهم . غير ان الحاخام كان عليه ان يمارس ما يدعو اليه ، فهاجر الى اورشليم عام ١٨٧٤ عندما كان تيودور في الرابعة عشرة من عمره ، ومات هناك بعد ذلك بأربع سنوات .

كان والدا هيرتزل يستمعان الى حماس سيمون لوبيل بالتأدب الواجب من الصغار نحو الكبار . وكانت المصالح التجارية لجاكوب مرتبطة باقتصاد آل هابسبورج بينما كانت لغة جانيت المقدسة هي لغة ليسنج وجوته . ولكن اذا كان والداهما قد اختارا فينا قبلة لهما . ولم يختارا اورشليم ، فان تيودور وشقيقته كانا اذن غير ملتزمين . واستقبلا باذن نصف واعية - على الاقل الاحلام التي اثارها في جدهما صديقه الحاخام . وتسربت مقترحات الكلأي الى ذلك الجزء من العقل الذي ينسى الشيء ولكنه يختزنه في نفس الوقـــت .

والى جانب الصلة بمدينة سيملين ، فان الاصول الابعد لعائلة هيرتزل مغلفة بالضباب . وعندما يوجـد الضباب فهناك السحر . وفي مجتمع مده يرتفع ، تختفي فيه المراسي القديمة وتبرق المقاصد الجديدة ، فان الناس يطلبـــون الصلات العائليـــة . وفي انكلترا يزعم بنجامين دزرائيلـــي ان عائلته جاءت من اسبانيا ولها تاريخ طويل هناك . وبالنسبة لليهود الطامحين فان النسب اذا كان من اسبانيا فانه يماثل ميل الانكليز للانتماء للدم النورمندي . والحقيقة العارية هي ان عائلة دزرائيلي وصلت الى لندن قادمة من الشرق الاوسط وعن طريق ايطاليا .

وزعمت عائلة هيرتزل انها لديها اسطورة نسب مماثلة . وقد ورثهـــا دوري عن والدته وعندما كبر نقلها الى احد تلامذته (٦) . « كان تيودور هيرتزل له جد عظيم من ناحية أمه ، وهو لوبيل الذي قاسى مرارة الذوبان حتـى في ايامـــه ورغـــم انـــه كان حاخاما اورثوذكســـيا ، فلم يبق من بين ابنائه الثلاثة ، مخلصا لليهوديـــة سوى واحـــد هو سيمون لو هيرتزل Simon Low Herzl وهو جد تيودور . وكان لوبيل يهوديا اسبانيا أرغم في اسبانيا على اعتناق المسيحية. ولكي يهرب من محاكم التفتيش هاجر، وتمكن كيهودي متنصر من التأقلم مع الحياة في القسطنطينية وهذه القصة (وهناك صور اخرى منها) فيها غموض يجعلها تثير الشك . فليس هناك دليـــل على وجود العروق الاسبانيـــة . فقد كان لوبيل هـــيرتـــزل جـــد جاكـــوب هيرتزل من المعاصريـــن لنابليـــون ، ووقـــــع الهجوم الكبير على يهود اسبانيا — الذين ارغموا على التحول عن دينهم او النفي — في نهاية القرن الخامس عشر ، بعد هزيمة اسبانيا على ايدي

الملوك الكاثوليك . وراح رجال محاكم التفتيش بعــد ذلك يسعون وراء اليهود السريين او المتنصرين من ابناء الذين تحولوا عن اليهودية . ولم تتوقف هذه المطاردة حتى نهاية القرن الثامن عشر ، الى ان الغيت محاكم التفتيش . والقصة تمثل خلطا بين الاجيال هذا اذا لم تكن قصة خرافيـــة اصلا . غير ان حكاية الاصل الاسباني هذه ، اعجبت جانيت هيرتزل مثلما اعجبت الدزرائيليين . وروت جانيت لابنها ان اليهود الاسبان كانـــوا مـــن قبيلة بنيامين ولذلك فان «دماءهم ملكية» (٧) . ولم ينس الابن ما قالته ابدا . ولقد اختارت لابنها الاسم اليهودي — بنيامين — وهو نفس الاسم الذي اختارته زوجة دزرائيلي . وبذلك فان احساس هيرتزل بأنه جاء من سلالات الملوك كان يعوضه عن احساسه بمولده المتواضع وثقافته المتوسطة .

وقد نقل جاكوب هيرتزل لابنه اكثر من مجرد حفنة من الاساطير واسم الماني للعائلة .

فكانت راسه الصلبة ، ولحيته المربعة ، اشكال يجب ان يحسنها تيودور ، ولكن فم جاكوب كان فم رجل اعمال ، عملي يعرف حدوده ، وليس حساسا وطموحا . وكان للتركة الجسدية ملحقا روحيا . فكان اهتمام جاكوب الحاد بالتفاصيل ، وعنايته بالتنظيم تتوازن مع اهتمام جانيت بالرقة في المعاملة والتآلف مع المجتمع . ولم يكن الاب القوي العنيف في اي وقت سببا في خلق الشعور العدواني او المقاومة في ابنه . ومن انجازات الاب العظيمة ، تمكنه من تقاسم السلطة مع زوجة عنيــدة وتربية ابن تدين حساسيته بالكثير لام مدللة دون ان يسفر ذلك عن موقف « اوديبي » . وطوال حياة جاكوب ، كان دوري يحترمه ويحبه وكان يطلب منه بركاته لاي عمل يقوم به . كان قبول هذه السلطة رابطا اخر مع بنيامين الاخر . وقد كتب «ايرل بيكونزفيلد» (٨) يقول : « ان الميل الفطري للعنصر اليهودي يتعارض مع مبدأ المساواة بين الانسان . » وللبهود ايضا خاصية اخرى ، وهي الاستعداد الطبيعي للسعي نحو الحيازة والتملك ، وبهذا نجد ان جميع ميول الجنس اليهودي ميول محافظة . فهم ينحازون لدينهم وللكيتهم ، وللارستقراطية الطبيعية . ولم يكن جاكوب هيرتزل عبقريا فيما يتعلق بالتملك . ولكنه كان في نواح اخرى يتمشى مع قوانين الجنس او العنصر

---

* هيرتزل تصغير لكلمة هيرتز المرادف الالماني لكلمة « قلب » . والمرادف بالعبرية « ليب » وتعريفاته لوبيل — لويب — لو . وكانت كلها اسماء للعائلة . واستخدام كلمة هيرتزل يؤكد تحولهم الى القيم الالمانية .

التي حددها دزرائيلي .

وكان العضو الثالث في الثلاثي العائلي اكبر من دوري بعام واحد . لقد وصفت بولين Pauline بانها « نسخة من امها » ، ولكن الصورة الفوتوغرافية لا تؤيد هذا (٩) . فالتعبير الطبيعي في الصورة يعاني من الوضع الذي طلبه منها المصور في بست : فالشعر المدلى واضح انه كان المقصود أن يبدو عرضيا ، وهو ليس كذلك ، والخصلة موضوعة في النصف تماما . ولكن الشعر اصفر . ولو أنها كانت جانيت هيرتزل لارتدت بعض اللآلىء . ورغم ان تكوين الوجه متشابه الا ان هناك بعض الاختلافات الهامة . فان التعبير المرتسم على الفم يفتقر الى المرارة او القدرة على السخرية . وثمة رواية بأن الحاخام لوبيل هيرتزل كان من هواة القبلة (الكعبة) وهذه احدى التقاليد الصوفية اليهودية (١٠) . وثمة ما يؤيد ذلك في صورة بولين . فهناك خطوط القلق والاستياء من الانف حتى زاوية الفم ، ولكن الخطوط فارغة ، مثل صورة وضعت في الحوامض المثبتة بسرعة اكثر من اللازم . وقد كانت رفيقة صبا دوري . وكانت صورة قريبة الشبه من امه ، فهي طالبة مجدة .. ذهنها ممتاز ، وديعة وبها قدر من البراءة يجعل النساء الاخريات يبدون ناقصات الى جانبها ، وكانت بالنسبة لاخيها المعذب شخصا براقا اخاذا . وقد صورها في كتاباته التي نشرت بأنها امرأة مثالية ولكنها خالية من العاطفة .

اما في طيات حياتها السرية حيث يتسرب الخيال الى مشاعر الطفولة الرقيقة ويمزجها باحاسيس الحلم الشهوانية فكانت شخصا لا يحسب له الكثير في هذا الصدد . وكانت بولين مثل امها من حيث تنشئتها لرجل كانت دوافعه لتحقيق ذاته لا تجيء عن طريق الحب . (١١)

وثمة صورة لدوري .. المقصود منها ان تكون صورة جميلة ، يظهر فيها في صباه. (١٢) وقد الحقته جانيت بعد عدةدروس تمهيدية منزلية بمدرسة اعدادية تشرف عليها الجالية اليهودية . ولكي تلتقط له هذه الصورة البسته زي «لورد فلنتليروي الصغير» ، ويقف الطفل في الصورة امام مقعد ظهره محلى بالرسوم والزخرفة ، وتبدو ساقاه ممتلئتين وهو يرتدي سروالا قصيرا ينتهي فوق ست بوصات من حذائه . وفمه يوحي بأن صاحبه شخص حساس وفيه روح التحدي وعيناه حذرتان ويده اليسرى مرتكنة على كتاب كبير . وهو طفل قوي البنيان ، وحاجباه عريضان، ومن النوع الذي يستطيع ان يعتمد على نفسه بين غيره من الاطفال ، ويستطيع ان يتخلص من المواقف

بكلمة ولا يحبذ استخدام القوة .

ولم تكن السيدة هيرتزل تترك شيئا للمصادفة او الحظ . وكانت من ذلك النوع الذي يثير تعجب المدرسين ، وهو النوع الذي يهتم اهتماما زائدا بزيارة طفله في المدرسة من آن لاخر ، فكانت تزور المدرسة باستمرار لتستفهم عن حالة ابنها وتقدمه وسلوكه (١٣) .

وكانت لهذه الحالة من الاخلاص التام على الارجح نتائج بعيدة الاثر . بل كانت على المدى القصير ايضا موضوعا هاما .

كان اي شيء يريده دوري يصبح شيئا مقدسا ، كانت اي ملاحظة بيديها تصبح فالا او نذيرا بشيء .

ان الابطال عند الطفل يختارون ، ولا يفرضون من الخارج واحيانا يكونون اكثر تأثيرا عليه من والديه . وكان البطل الاول عند دوري واحدا من اكبر « منتجي » (١٤) العصر وهو «فرديناند دي ليسيبس» . وهو الرجل الذي سماه كذلك الشاعر جون بودني والذي سيطرت منجزاته على السنوات التسع الاولى من حياة تيودور ولم يكن هذا الرجل متخصصا في علم معين ولا حتى في الهندسة . ورغم ذلك فكان مثالا للرجال الذين كانوا يحدثون التغيير في العالم في القرن التاسع عشر . ورغم ان ديليسبس لم يكن لديه مؤهلات اكاديمية الا انه كان عبقريا وموهوبا . وكانت عبقريته تتركز في التمسك برؤيا او حلم معين، وموهبته تتركز في الفنون الدبلوماسية التي كان يستخدمها لتحويل هذا الحلم الى حقيقة . لقد كان استغلاليا موهوبا ، حول معرفته بأمير مترهل (جعله يأكل المكرونة عندما كان قنصلا لفرنسا بينما كان ابوه يمنعها عنه) ، الى فائدة سريعة وذلك عندما اصبح الامير ، « سعيد باشا » حاكما لمصر . وسافر الى الاسكندرية وفاز رغم معارضة السلطان ومؤامرات البريطانيين بامتياز لحفر قناة للملاحة بين افريقيا واسيا . وكان هذا اكبر اعتداء على الطبيعة في تاريخ البشر واعجب تيودور ، مثلما أعجب جميع طلبة المدارس في عصره بهذا المشروع البطولي. وكانت العقبات تقابل دي ليسيبس فأحيانا تنقص الاعتمادات واحيانا تظهر الاعتراضات السياسية ، غير انه كافح حتى ذلك اليوم من نوفمبر عام ١٨٦٩ عندما وقف الى جانب امبراطورة فرنسا (اوجيني) على اليخت الامبراطوري الذي تقدم اسطولا من السفن من بور سعيد حتى البحر الاحمر . عبر قناة السويس .. وكان وراء السفينة الفرنسية سفن اخرى تحمل فرانز جوزيف امبراطور هابسبورج ولي عهد المانيا .

وقد نشرت الصحف الالمانية ملحمة فتح قناة السويس ونشرتها ايضا

الصحف الفرنسة والانكليزية . وقد الهبت عظمة المشروع والشهرة التي جلبها على الرجل الفرنسي ، خيال دوري . ولم يكن هو الوحيد من بين طلبة المدارس الذي يفتح الاطلس ليبحث عن مكان اخر يحصل منه علـى شهرة مماثلة . وكان عنق الزجاجة بين شمال وجنوب امريكا مكانا مناسبا. وقال دوري ، « اريد شق قناة عند بناما في يوم من الايام . ولكن لا تقل ذلك لاحد فلا اريد ان تسرق فكرتي » . (١٥)

وربما ابتسم والدان غير والدي دوري للفكرة ، وقد يحتفظ بهاالخرون لكي يبلغوها لاصدقائهم ، ورأت جانيت هيرتزل في احلام ولدها مفتاحـا لمستقبله . وكان المدرسون في جميع انحاء اوروبا يحثون على ادخال العلوم في مقررات الاطفال ، وكانت هناك في كل طائفة يهودية ظاهـرة هروب اليهود من الوظائف التي اشتهروا بها في الماضي . وتقرر الامـر بسرعة : فبدلا من ان يتدرب دوري لكي يصبح حاخاما ، او تاجرا او من رجال المصارف ، سيتدرب ليصبح بطلا جديدا ... ليصبح مهندسا .

الفصل الرابع

عندما قرر والداه ان يجعلا منه مهندسا ، فانما كانا يتجاهلان بقرارهما هذا الجوانب التي اعجب بها دوري في « ديليسيبس » وقد تصرفا بنفس الطريقة التي يتصرف بها الاباء عندما يلحقون أبناءهم بالبحرية لمجرد انهم مغرمون ببذة البحارة . وهذه القرارات التي تتخذ بسرعة لها نتائج متأخرة . وامضى تيودور خمس سنوات يتدرب على برنامج لا يستهوي نفسه كثيرا . وكانت مدرسة « ريا لشول » التي التحق بها عندما كان في العاشرة من عمره ، عبارة عن مبنى واسع قبيح يبعد اقل من خمس دقائق مشيا على الاقدام عن المعبد في شارع « تابا كجيز » وعن منزله . كانت مدرسة ثانوية تهتم بتدريس العلوم واللغات الحديثة على حساب اللغة اللاتينية واليونانية . وقد ظل مبنى المدرسة موجودا بعد ذلك بمائة عام ، وفي مدخله تمثال لراس وصدر السياسي الليبرالي الذي كان من بين أعماله الحكيمة الاخرى اتمام تحرير يهود هابسبورج عام ١٨٦٧* .

والتحق تيودور بمدرسة ريالشول في خريف عام ١٨٧٠ ، وفي نهاية ذلك العام احتلت المانيا مركزا مرموقا عرفته فرنسا قبلها باثني عشر شهرا فقط . وعندئذ قادت امبراطورة فرنسا المسيرة البحرية في قناة السويس . وقد تقوض في العام اللاحق هذا التفوق الفرنسي تماما . ففي ٢٦ يونيو

---

* البارون جوزيف ايوتفوس Joseph Eotvos (١٨١٣ — ١٨٧١) ، وزير الثقافة والتعليم وكتب ايضا رواية عن حرب الفلاحين في المجر في القرن السادس عشر .

قدم المؤلف الموسيقي الالماني « ريتشارد فاجنر » اول حفلة لسيمفونيته Die Walküre ويبدو وكأنها كانت بشيرا بثورة في الحكم ونذيرا بنقل الشعب الالماني الذي انتجها الى مواقع السيادة . وفي نفس العام تزوج الموسيقي العجوز من «كوزيما فون بولو» Gsima Von Bülow ابنة « فرانز ليست » وامها فرنسية ، وكانت ما زالت تؤمن بحماس بمصير الشعب الالماني. وما كادت اصوات أوتار الاوبرا تتوقف حتى ارتكبت الجمعية الوطنية الفرنسية عملا طائشا جديرا بالدراما الموسيقية : فقد وافقت بالاقتراع على الحرب ضد بروسيا بسمارك . وقد نظمت القوات الفرنسية بسرعة كما يحدث في المسرحيات . وكان الانتصار في «سيدان»، واستسلام نابليون الثالث المريض سببا في نشوة من كانوا يتكلمون الالمنية . فقد كان نصرا للديبلوماسية بقدر ما كان نصرا للسلاح . ورغم أن بروسيا هزمت النمسا قبل ذلك بسنوات قلائل الا ان معاملة بسمارك الطيبة للدول الالمانية الجنوبية جعلت النمساويين يتحمسون لانتصار بروسيا كما تحمس له الالمان . وكان للنصر اثار ادبية بالنسبة لاوروبا كلها . من الملكة فيكتوريا في وندسور حتى آل هيرتزل وديامنت في مدينة بست . فقد تغلبت دولة بروتستانتية جديدة على مجتمع قديم جزء منه بابوي ، وجزء منه يشك في الدين . واصبحت بروسيا باهتمامها الجاد بالتكتيكات الحربية وبالهندسة الوصي على مستقبل عظيم . وتغير دوري منذ هذه اللحظة الى تيودور : ولا نرى بعد ذلك تيفادور المجري . ومنذ الان وحتى انتهاء فترة المراهقة ، فان ابطاله المعروفين ، وهم الاقنعة التي كان يشرح من خلالها في البداية افكاره ، سيصبحون المان بالميلاد أو بالتعميد . وكان الاول وسيظل ، هو الامير « أوتو فون بسمارك » الرجل الذي جمع شمل المانيا المزقة معا بابرة من صلب بطريقة بالغة السرعة لدرجة ان المانيا لم تعد تبدو اطلاقا كدولة ، « جمع شملها بعد تمزق » . وقد وصل هذا الرجل ، الذي اختار الحرب المحدودة والديبلوماسية غير المحدودة ، الى قمة انتصاره في ١٨ يناير عام ١٨٧١ عندما توج ملك بروسيا امبراطورا لالمانيا في قاعة المرايا في فرساي . وفجاة بدا وكأنه فاجنر نبي اكثر منه حالم . وحمل الناس آراءه ، وليس موسيقاه فحسب ، على محمل الجد .

وكان اعلان الامبراطورية الالمانية اكثر من نصر : فقد كان عملا من اعمال الانتقام التاريخية . وكان ثمة نوع من السخرية المقصودة من اختيار

المكان . ففي عام ١٨٠٤ ، بعد هزيمة بروسيا المهينة في «بينا» ، اختار « نابليون » مدينة برلين ليعلن منها سيطرته على اوروبا . واعلنت قراراته — التي اتخذها في برلين والموجهة اصلا ضد بريطانيا — ان اوروبا كلها كمنطقة واحدة اصبحت تحت النفوذ الفرنسي ان لم تكن تحت السيطرة الفرنسية . وقد عكس انتصار بيسمارك الموقف الذي خضعت المانيا بمقتضاه للارادة الفرنسية . وكان الانتصار يتمثل ايضا في نجاح ظهور الحركة القومية الالمانية التي انتظرت كثيرا ، وخاب املها طويلا من قبل .
واثر ذلك بسنين كان تيودر ينظر الى الماضي والى الاحداث وقعت مع اول فترة له في مدرسة « ريالشول » ، « هل تعرف ما الذي خلق الامبراطورية الالمانية ؟ الاحلام والاغاني والفانتازيا والشرائط السوداء والحمراء ، وباختصار ، النظام ، ان بيسمارك لم يفعل اكثر من ان هز الشجرة التي زرعها الحالمون (٢) ، » . ويصل الى النتيجة : وهي ان نابليون صاحب النصر العظيم في « بينا » ، كان أعظم من بيسمارك ، « الا ان عظمته كانت عظمة غير متجانسة » . (٣) هذه الكلمات المقتبسة هي تعبيرات فتى راشد عن عبادة طفولية للبطل في فترة كانت الاشرطة الحمراء والسوداء والاغاني والفانتازيا تعني الكثير بالنسبة لصبي حالم وراح طوال حياته يتكلم عن بيسمارك باحترام واعجاب عميقين (٤) .
ورغم ان مغامرات السوبرمان الالماني كانت تحتل الحديث على مائدة افطار عائلة هيرتزل ، الا ان تيودور كان في العاشرة من عمره فقط . وقد اسرع خارجا الى الفصل وليس الى المرسم او الى الريشتاج (البرلمان الالماني) . ومن المسلي ان نفحص درجاته ، لما تكشف عنه (وهذه قد احتفظ بها) . كانت افضل المواد في هذا العام الاول هي الجغرافيا والتاريخ واللغة الالمانية . وحصل على درجات كبيرة في « السلوك » و« النظافة » . وكانت اسوأ المواد بالنسبة له هي تلك التي لها صلة بالمهنة التي يطمح اليها، الحساب ، والهندسة ، والرسم الهندسي ، والدراسات الطبيعية ، والنسخ . وحصل على درجات منخفضة جدا في الدين . ومن الواضح ان جهوده كانت مشتتة في ذلك الوقت المبكر من عمره وذلك لسوء توجيهه . وقد اهتمت مدرسة ريالشول بالعلوم ، التي كان تيدور ضعيفا فيها او لا يهتم بها. (٥) وكان عليه لكي ينجح كمهندس ان يكون متقدما في المواد التي تثير اهتمامه والتي كان متخلفا فيها . وكانت مواهبه واضحة في المواد التي قد تفيد كاتبا . ولم يكن ثمة شيء غير عادي في اهتمامه الخاص

بالادب او القصة لان هذا كان امرا مالوفا بين شباب الطبقة المتوسطة في المدارس الالمانية . وقد تبين من شخصيته انه يتخذ موقفا عمليا ازاء ما هو خيالي . وكان يفضل الكتاب المتاملين الذين يكتبون عن العلوم على الكتاب الخياليين الذين يتناولون النفس الانسانية . وقد ولد في اللحظة المناسبة تماما ليقرأ جول فيرن Jules Verne بينمـــا كانـــت صفحاتها ما زالت نضرة. وقد نشر كتاب « خمس اسابيع في منطاد » في عام ١٨٦٢ ، وكتاب « رحلة في منتصف الارض » في عام ١٨٦٤ و « من الارض الى القمر » في عام ١٨٦٥ ، و« عشرون الف فرسخ تحت البحر » في عام ١٨٦٩ ، وهو نفس العام الذي افتتحت فيه قناة السويس . وترجمت اعمال « فيرن » بسرعة الى الالمانية والانكليزية واللغا تالاوروبية الاخرى . وكان موضوعها هو السفر الى اطراف الارض او اطراف الفضاء . ورغم ذلك فان فيرن لم يدرس العلوم بل درس القانون . وقضى شبابه يكتب كوميديات شعرية ويكتب حسابات الاوراق المالية التي كان يقامـــر عليهـــا .

وكانت درجات تيودر الرديئة في الدين لها مغزى كبـــير ، في ضوء مستقبله . واذا نظرنا اليها في نطاق زمنه فهي ما يمكن ان يتوقع من مفكر حر صغير معاصر لماركس وداروين . وفيما بعد ، عندما التزم تيودر بقضية لها نواحي دينية ، كتب في صورة سكيتش عن حياته ثلاثة قصص عـــن موقفه وهو طفل من الدين . ولا يمكن اخذ هذه القصص الهامة على انها الحقيقة الحرفية ، لان كلا منها تثير نقطة جدلية . وربما لم يكن المقصود منها ان تكون كذلك . ويحذر واحد من احسن الذين كتبوا عن حيـــاة هيرتزل (٦) قائلا « ان بعض تعبيراته التي وردت في جمل صريحـــة فسرت حرفيا ، وان الدعابة اللطيفة في سيرة هيرتزل الذاتية لم تلق التقدير بصفة عامة » . وسوف نناقش تلك القصص والدعابة والنقطة التي تثيرهما فيما بعـــــد .

ولكي نلقي الضوء على موقف تيدور في مراهقته من الدين . فسوف نرجع الى ما كتبه واحد من شباب معاصريه كان ايضا ممزقا بصورة غير متوازنة بين تراث موسى وجوته . ويعبر هذا الرجل وهو « جاكـــوب فاســـيرمان «Jackob Wasermann» في كتابـــه عـــن تاريـــخ حيـــاته ، « حياتي كالماني ويهودي » عن موقف من التعاليم الدينية واليهودية يماثل

ما نعرفه عن موقف هيرتزل (٧) وقد ولد « فاسيرمان » في « فويرث » Fuerth في « فرانكونيا Frankonia غير انه استقر فيما بعد في النمسا . ويقول :

[كان الدين دراسة ، ولم تكن دراسة لطيفة ، الدرس يلقى بلا روح من رجل عجوز لا روح فيه . وحتى اليوم ، فاني نادرا ما سمعت عن مدرس دين يهودي طيب أو محبوب ، فمعظمهم مترمتون ومثيرون للسخرية. وكان مدرسي مثله مثل غيره ، يلقي الينا بتركيبات صلبة ، وبصلوات عبرية قديمة كنا نترجمها بطريقة ميكانيكية دون اي معرفة حقيقة باللغة ... كان ما نتعلمه شيئا ميتا ومحنطا ويستحق الازدراء . ولم نحقق مكسبا ايجابيا الا من قراءة العهد القديم ، ولكن حتى هذا ، فان الموضوع وتفسيره كانا يفتقران الى التنوير الحقيقي . وكانت الاحداث والاشخاص لها فعالية طالما ظلت منفصلة عن بعضها ، غير ان كل شيء كان جامدا وعبثا وحتى غير انساني . ولم يكن فيه نبل النظرة المتعالية العظيمة ... واحيانا كان يبزغ شعاع من الضوء من العهد الجديد ، مثل ومضة نور تنفذ من خلال باب مغلق ... ويمتزج حب الفضول بالخوف الغامض ...]

ظهرت ومضات النور لتيودور من « الاصلاح » وليس من العهد الجديد . وكانت واحدة من اشعاره الاولى تدور حول « لوثر » . الرجل القومي الالماني حامل شعلة بسمارك في كفاحه الثقافي ضد الكنيسة الكاثوليكية .

وكان يمكن لهيرتزل ان يعترف ، في شيء من الصعوبة ، بمقارنة « فاسيرمان » المجحفة بين « معبده الجديد ، وهو واحد من تلك المباني شبه البيزنطية الموجودة في معظم المدن الالمانية ، رغم ان عظمتها الناشئة لا يمكن ان تخفي الحقيقة بأن الايمان لا سلطان له على قلوب الناس » ، وبين « الشولز » التقليدية . والشولز هي :

[امكنة صغيرة للعبادة ، وهي غالبا ما تكون حجرات ضيقة في ازقة خفية بعيدة عن الطريق . وهناك ما زال يمكن للمرء ان يرى رؤوسا واجساما مثل التي رسمها « رمبرانت » ، وجوه مترمتة وعيون حزينة تحترق بذكرى الاضطهاد الذي لا ينسى . وعلى الشفاه الصارمة تبدو الصلوات الجامدة ، والدعوات واللعنات وكأنها حقيقة ، وتزوى اكتافهم المحنية عن اجيال عانت من المهانة والحرمان ، وقد راعوا التقاليد المقدسة في اخلاص بالغ واصرار شديد ، واحتفظوا بايمانهم ، رغم ان هذا الايمان

غيم عليه العتم بقدوم المسيح (٨) .]

من احد ملامح « يهودية الاصلاح » تخليها عن المبدأ القائل بان مصير اليهود هو ان ينقلهم المسيح الى الارض المقدسة ، وهناك يعاد بنــاء جهاز الرفع والمعبد من اجله (٩) . وقد حصل تيودور في عامه الثالث في « ريالشكول » على كتاب عن تبسيط العلوم كتبه « ارون بيرنشتين » وهو واحد من مؤسسي جماعة الاصلاح في برلين . وقرأ في الكتاب : « ان تيار الكهرباء اقام جسرا فوق العالم باجمعه ، فالكهرباء هي المسيح الحقيقي وسوف تجلب عجائبهــا الحريـــة للامـــم جميعـــا ، ولجميع البشر المستعبدين (١٠) . »

وبدت هذه الفكرة للوهلة الاولى كفرا بما تعلمه في فصول الدين . ولكنه بعد وقت قصير بدأ يقبل الفكرة بصفتها احتمال مثير .

واقيم حفل آل « بار ميتزفاه » «Bar Mitzvah»لتيودور في الثالــث من شهر مايو عام ١٨٧٣ ، اول يوم بعد عيد ميلاده الثالث عشر . واستخدم والداه في بطاقات الدعوة للحفل التعبير المسيحي « تأكيد العماد » . (١١) وكانت استعارة التعبير من المسيحية امرا مناسبا .

وكان كلا الاحتفالين المسيحي واليهودي قد فقدا كثيرا من قوتهمــا السابقة . وارتدى الطفل عندما عمده اساقفته احسن ملابسه . وقد ركز ذهنه بسرعة على هذه المناسبة في القدس عندما ، « سمع حواريو المسيح المحرومون فجاة شيئا اشبه بالريح القوية الاتية من السماء ... وقد ملأت ضوضاؤها البيت الذي كانوا يجلسون فيه وظهر لهم شيء اشبه بالسنة النار ، وتفرقت الالسنة ثم عادت لستقر فوق راس كل منهم (١٢) » .

وقليلون من الكاثوليك المجريين كان يمكنهم ان يتوقعوا البركات التي تشبه المعجزة لعيد الحصاد اليهودي الاول او الاستشهاد الذي تــلاه . وكان يهود القرن التاسع عشر على الارجح مهتمين بالمثل ، في غموض ، بمأساة سيناء عندما نزل موسى من فوق الجبل يحمل الواح «القانون» . ولو رجعنا الى العصور الوسطى حيث يمكن تتبع اثر عادة الــ « بـــــار ميتزفاه » ، نجد انها كانت تعبر عن المناسبة التي يجعل اليهودي الذكر فيها نفسه مسؤولا مسؤولية شخصية عن احترام المبادىء الــ ٦١٣ للقانون الموسوي . وعندئذ القى خطابا « تلموديا » على جماعة ابيه بينما كان ابوه السعيد يبارك الرب لانه تحرر ، منذ ذلك الوقت فصاعدا ، من المسؤولية عن اعمال ذريته . وفي الوقت الذي تم فيه تعميد « تيودور » تقلص الخطاب

التلمودي فاصبح مجرد قراءة بالعبرية لاجزاء قليلة من « القانون » . وتركز الاهتمام حينئذ على الاحتفالات التي تقام بعد الظهر في المنزل . وفي المنزل كان لدى عائلة هيرتزل امــور تشغلها . فان الاتحاد بين بودا وبست في العام السالف ادى الى ازدهار لم يشوهه الا ظهور وبـــاء الكوليرا . وكان جاكوب هيرتزل قد استثمر ثروته في مشروع تجاري له علاقة بالخشب الذي تغطي اشجاره اكثر من ربع مساحة المجر ، فهنــاك شجر البلوط ، والصنوبر والشجر المعروف باسم جار الماء وشجـــر الدردار . وبدا الازدهار ينحسر في ربيع عام ١٨٧٣ . وفي نهاية العام كان جاكوب قد فقد ثروته .

ورغم ان هناك تشابها بين اسلوبي التعميد ، الا ان مشكلة اليهودي الصغير كانت اصعب بكثير من مشكلة المسيحي الصغير . فالمسيحي الذي يبدا بالشك في مذهب واحد ثم في مذهب اخر ، لا يستدعيه الامر الانفصال فجاة عن الدين الا اذا كان ميالا بطبعه لتحطيم القيم الدينية ، فيمكنه ان يمارس القليل او الكثير كما يشاء مما تمارسه الاغلبية الطيبة . والشك في قليل من نواحي العقيدة معناه الانضمام الى الاغلبية المتوائمة معا . وكان الموقــف مختلفا بالنسبة لليهود . وكـــان الرهبان المتشحون بالعباءات في « المعابد اليهودية الصغيرة » — « الشولز » — التي اشار اليها « جاكوب ناسيرمان » يعتقدون انهم يكونون جزءاً من « مملكة الرهبان » ، وامــة مقدسة (١٣) » . وقد استقبلوا بالترحاب ما يمليه « القانون » ، بنفس الروح التي استقبل بها الشاعر « وردسورث » نظام القصيدة الشعريــة الغنائية التي تعرف « بالسوناتا » . ان الطاعة الحازمة للقانون يمكــن ان تفتح نوافذ على صور رائعة من الجمال الروحي . ولم يكن ثمن الطاعة رخيصا .. وقد دفع فيه اخر درهم .

ويصور لنا بائع يهودي ارثوذكسي متجول في بيئــة غير يهودية هذا الثمن بطريقة مفصلة فيقول (١٤) : «معناه الصلاة في قطارات السكك الحديدية المزدحمة ، ووضع حجاب حول ذراعـــه الايسر وعلـى جبهته ممـــا يحير ويضايق المسافرين الذين لا يتعاطفون معه ، ومعناه ان يعيش المرء اساسا على الخبز الجاف وان يشرب الشاي الاسود من فنجانه الخاص . امـــا اللحم والسمك وطيبات الحياة فمحظورة تماما طبقا للقانون التقليدي حتى لو كانت طازجة . ومثل هؤلاء اليهود الارثوذكس لم يهتموا الا قليلا بالحفلة الاولى لاوبرا فاجنر « دي فالكير Die Walkure مثلهم مثل المسيح الذي لم

يهتم بالحفلات التي اقيمت في مسارح الوثنيين . غير انه بالنسبة لعائلة هيرتزل التي كانت ثروتها تحت رحمة الاتجاهات الاقتصادية لامبراطورية آل هابسبورج ، وعاطفتها متورطة بشدة مع تيار الثقافة الالمانية ، فان « القانون » كان يشكل لهم عبئا ثقيلا ، سواء ابعدوه عقلانيا او تجاهلوه في شجاعة . وكان من الصعب على مثل هؤلاء اليهود ان يوفقوا بين مسألة ارتداء الاحجبة وبين المثل البسماركية العليا ، كما كان صعبا على بسمارك ان يوفق بين مسألة الصلوات التي تقام على الجبل وبين السياسة العملية التي يتبعها . ان الاعباء اذا كانت تثير الحرج يصبح وزنها اثقل من الاعباء الثقيلة فعلا .

وهذا يفسر الكثير من قبول الانسان للمتناقضات ، لان كلا من الجانبين بذل الجهد .

فكان البروسيون يستمعون في كنائس برلين الانيقة الى ما يقال لهم من انهم يجب ان يحبوا اعداءهم او يديرون لهم الخد الايسر . وكان اليهود الذين يحجزون لانفسهم مقاعد دائمة في الاوبرا يقيمون احتفالات الـ « بار ميتزفاه » ، التي كان من المفروض ان يقف فيها ابناؤهم روحيا مع الستمائة الف اسرائيلي الذين سمعوا « القانون » وهو يتلى في سيناء . كان السلوكان سهلين على الاغلبية التي كان النفاق بالنسبة لها جزءا مسليا من امور الحياة اليومية . ولكنه كان اصعب بالنسبة للمخلصين المتعمقين في الامور .

لم تنفصل عائلة هيرتزل عن الدين ، ولكنها ايضا لم تضعه من حياتها في الموضع الذي يتطلبه . وكانوا اذ وضعوا الدين في جانب صغير من جوانب الحياة المدنية المعقدة ، انما يهزمون نوايا رهبان ما بعد الخروج الذين رتبوا « القانون » الموسوي ، وكان الرهبان يعرفون ويقدرون الجوانب المزعجة في « القانون » ، فقد كانوا يريدون على وجه التحديد ، ان يجعلوا من المستحيل على اليهود ان يقلدوا غيرهم من الامم غير اليهودية . وكانوا يذكرون انفسهم وابناءهم بالمصير الذي يفوق اي مصير طبيعي وبالمهمة الموكلة اليهم .

وكان العام الذي تلى آل « بار ميتزفاه » عاما هاما بالنسبة لتطور شخصية تيودور .

وبالبدء الطبيعي للمراهقة ، وافول نجم والده ، واختفاء المحاولات لاستعادة ثروته ، تشجعت دوافع تيودور لكي ينمي في نفسه شخصية

متميزة . وثمة مشروع مبتكر تتضح فيه شخصية الرجل « المنظم » التي تقبع وراء تردد الشباب ، وتتضح منه الرغبة في الكتابة التي تكمن وراء احلام الصبا .

كون تيودور في اخر عام له في ال « ريالشكول » وهو عام ١٨٧٤ جمعية ادبية . كان اعضاؤها من رفاقه في المدرسة . وهم صبية عمرهم يقارب عمره ، بعضهم من اقاربه واحدهم « ديامانت » ابن عمه ، وكان السكرتير ، بينما كان تيودور الرئيس . وقد حضرت « بولين » وفتيات اخريات في سنها واحدا على الاقل من اجتماعات الجمعية . ولم تكن العضوية قاصرة على اليهود .ويبدو ان ثمة صديقا حميما لتيودور كان مجريا واسمه « جابور بورساني » . فقد وقع الاثنان على قطعة من الورق مؤرخة في ٢٦ يناير ١٨٧٤ ، اتفاقا للصداقة والتعاون يستمر حتى نهاية العام . وكان اسم الجمعية « غير » ، ومعناه بالعبرية « نحن » . والاسم يشير الى الميل الطبيعي نحو التميز في تجمعات الشباب . غير ان جوا من الرسمية التي تجيء قبل اوانها اكد الروح الارستقراطية للجمعية . فلم يكن اعضاؤها يخاطبون بعضهم الا بصيغة الجمع الالمانية Sie وليس بالصيغة المعتادة المألوفة للتخاطب بين الاصدقاء والاقارب والمعارف Du .

وما زالت ملفات هذه الجمعية موجودة حتى الان . ويتبين منها ان اعضاء الجمعية قدموا كمية كبيرة من مؤلفاتهم لا يمكن ان تصدقها الاجيال التي اعقبتهم والتي تقضي اوقاتها مخدرة بواسطة التلفزيون . وقد شاب الاخلاص اليهودي التقليدي العلمانية وذلك في القصص والمقالات والروايات الخرافية التي كانت تقرا على المراهقين الاخرين . وقد احتاجت مقالة لتيودور اسمها « الطاعة والامر » — وهو اسم له مغزاه — الى ثلاث جلسات لقراءتها كاملة . ومثل هذه الاعمال نمت لدى من يتبعونها احساسا بالادب ظل معهم طول حياتهم حتى لو لم يصبحوا من الكتاب . وبالنسبة لتيودور ، ارسى ذلك ، الاحساس لاسلوب المانى انيق ورصين .

وظهر من تكوين تيودور للجمعية الادبية والكتابة في موضوعات مختلفة مثل « محمد » ، و « سافونارولا » ، « والاوكسيجين » ، و « المودة » انه بدا يمسك بالواقع بقبضته بصورة تختلف عن الاحلام التي كان يحلم فيها بشق قناة مثل دي ليسيبس ، او تقديس البطل في « مارتن لوثر » و « بسمارك » . فلم يعد الان طفلا حالما . واحلام اليقظة عند

الطفل لا ينبغي ان تختلط مع حقائق عالمه . فقد يحلم ابن عالم الطبيعة بأن يصبح مهرجا في سيرك ، وفتاة قبيحة الصوت بان تصبح مغنية اوبرا . غير ان تيودور ادرك مع بدء مراهقته ، حقيقة مواهبه ، ومزاجه ، ووضعه في المجتمع . لم يكن له ميل نحو « العلوم » ، وفي وقت قصير كان عليه ان يغير المدرسة . وادرك ان «لوثر» او «بسمارك» هدفان يصعب عليه تحقيقهما . وحتى لو قرر آن يعمد كالمسيحيين فمن العسير ان يأمل في القيام بدور ديني او سياسي كبير في المانيا الاوروبيـــة . وكان موقــف المانيا عكس موقف بريطانيا . وقد اصبح « بنجامين دزرائيلي » رئيسا للوزارة في نفس العام الذي كون فيه تيودور جمعية « فير » الادبية . وفي عام ١٨٧٦ اعلـــن دزرائيلي ان الملكة فيكتوريا هي امبراطورة الهند . ومع ذلك فلم يكن اي يهودي بريطاني حينئذ قد وصل الى قمة الادب (اهم الفنون في بريطانيا) واصبح اديبا مرموقـــا (بما في ذلك دزرائيلي نفسه الذي كتــب القصة) . وكانت السياسة في المانيا لا تحلم ايضا بأن يكون لديها سياسي مثـــــل دزرائيلي . وكان اليهود يحتلون امكنة مرموقة في الفنون الالمانية .

واصبح لدى رئيس جمعية «فير» الصغير بطلان جديدان : كلاهما من الشعراء الالمان . وقد اعجب بهما لا لشعرهما فحسب بل للطريقة التي صورا فيها ما يشبه حالته .

ولد « نيكولاوس ليناو » «Nikolaus Lenau» ـــ الاسم الرمزي للشاعر«فرانز نيمبس فون ستريهلناو»في المجر ـــ ولكنه كتب باللغة الالمانية، ولد في عام ١٨٠٢ وانتمى بذلك الى جيل الشعراء الاوروبيين الذين استقبلوا الثورة الصناعية الاولى بحزن عالمي . وكان هذا التشاؤم الذي عبر عنه كل من جوته Goethe وبايرون Bayron قد تحول الى فلسفة علـــى ايدي جياكومو ليوباردي Giacomo Leopardi . وكان « ليناو » هو المتحدث النمساوي باسم هذه الفلسفة .

وحوت آراؤه ومشاعره الكثير مما اثر في المراهق تيودور . وعندمـــا كان في الخامســة والثلاثين من عمره كتب ليناو ملحمة اسمها « سافونارولا» Savonarola اعلن فيها بشجاعة ان التحرر مـــن الاستبداد السياسي والثقافي هو شرط مسبق للمسيحية . واحست روما الليبرالية بالقلق من النمسا ، التي كان ميترنيخ ما زال يحكمها . وفي عام ١٨٣٢ ابحر « ليناو » الى امريكا الشمالية بحثا عن « الحرية والسلام » ، وبدلا من تلك المثل

العليا ، وجد «ليناو» هناك اهتماما غير رومانتيكي بالمال* . وترك منزله في أوهايو بعد عام وعاد الى وسط اوروبا ، وكتب قصائد حب ، زاد من رنة الحزن الطبيعي فيها ، تعلقه بشخص غائب محرم عليه وهي « صوفي فان لوفينتال » زوجة واحد من اصدقائه .

غير ان التأثير الاكبر بسبب التشابه القوي بين الشخصيتين جاء من « هنريك هينه » «Heinrich Heine» . وقد ولد «هينه» لابوين يهوديين من الطبقة المتوسطة في دوسلدورف . وتوفي قبل مولد تيدور باربع سنوات فقط . وقد دخلت جيوش نابليون ، اثناء صباه ، الارض التي كانت تشكل المانيا حينئذ ، وركلت الثورة الفرنسية والجنرال الصغير الذي كان يمثلها ، النسيج القديم لاسلوب الحياة الالمانية ، بما فيها من قيود على اليهود . غير ان حياة « هينة » بدات ، مثله مثل هيرتزل بسوء التوجيـــه وذلك عندمـــا وافق على ان ينضم الى عم ثري له في هامبورج في اعمال التجارة .

وفشلت الشركة،واتجه «هينه»اتجاها خاطئا اخر عندما قرر ان يدرس القانون في البداية في بون ثم في جامعة جوتينجن Gottingen . وكان مثل هيرتزل في الـــ « ريالشكول » شغوفا بالتاريخ والادب اكثر من شغفه بمادة تخصصه . وفي جوتينجن دخل مبارزة بالمسدس ضد طالب اهانه . واستغل فترة الاشهر الستة التي اوقف فيها عن الدراسة ليستكشف مدينة برلـــين عاصمة الدولة الالمانية التي كان يعجب بها الليبراليون . وكانت تجذبـــه صالوناتها الانيقة الحديثة ، كما كانت صالونات « فاوبورج » و « سانت هونوريه » تجذب « مارسيل بروست » بعد ذلك بسبعين عاما .

وعندما عاد الى جامعة جوتنيجن ، قبل اسابيع من تخرجه ، قـــام بخطوة ، كان هيرتزل يفكر فيها بامعان ، فقد تقدم « هينه » للعماد باسم « الثالوث المقدس » . وكانت دوافعه لذلك دوافع عملية . كان حينئذ قد ذاب بالفعل في اسلوب الحياة الالماني : طريقة الزي ، واللغة (١٥) » . وبذلك اصبح مستوعبا في الاغلبية الالمانية . ولم يبين هينه ابدا جـــــذوره اليهودية ، والواقع ان الناقدين لاشعاره لاحظوا تشابهـــا بين اسلوبه في استخدام الصور الطبيعية واسلوب الشعراء العبريين في ذلك ، وكـــان نثره اللاذع يبين « السخرية البالية والاحساس الدائم بالعدالة الامر المألوف

---

* صورها ليناو ــ ليس بدقة كاملة ــ لان أمريكا حينئذ كانت مستقلة ــ بأنها « لثقة الدولار الانجليزي . »

عند زعماء الجنس اليهودي » (١٦) .

اما فيما يتعلق بما وراء الطبيعة فقد كان « هينه » ازاءها ساخرا . فكانت جديته في سلوكه الاخلاقي ، التي كانت الدافع الى سخريته ، مكرسة للمثل العليا في هذا العالم .

وقد سهل تعميد « هينه » من تقدمه كشاعر ، وناقد لاذع ، وكاتب للمقالات الصحفية . وقد لحن شوبيرت وشومان اشعاره الغنائية . وتسللت تلك الالحان والاشعار الى اعماق الاحساس الالماني . وبعد قرن من الزمان عندما اطاحت بذوره الالمانية بذكره في كتب المدارس الالمانية ، كانت اشعاره تنسب بقدر من الثقة الى كتاب مجهولي الاسماء . وكان في حياته مكروها كراهية شديدة من السلطة ليس بسبب نسبه وأصله ، بل لان السلطة كانت تربطه بالقضية الليبرالية (التي كانت تعني الثورة) . وكان كالاخرين من الشعراء يعاني من المشكلات المالية . ورغم انه كان يعتبر زعيما لجماعة كتاب « المانيا الصغيرة » ، الا انه وجد ان « الارض الام » لم تشبع ذوقه بالقدر الكافي . وكانت ثورة الطبقة الوسطى التي جعلت «لويس فيليب» ملكا على فرنسا في عام ١٨٣٠ قد اثارت اعجابا زائدا . وبعد ان انتقل الى باريس في العام الثاني للثورة قدم للحكومة الفرنسية طلبا باعانة مالية ، واستجابت الحكومة لطلبه ولكن بشروط جعلته في النهاية مخبرا سريا . وعندما وقع « هينه » في هوى سيدة شابة تعمل بائعة في متجر للاحذية سرعان ما جعلها زوجته رغم افتقارها الى الثقافة ورقة الحاشية . وبذلك اصبح الرابط الوحيد بالمانيا لا يعدو مجرد ماض رومانسي .

ومن شخص « ليناو » ، اتضح لهيرتزل ، اليهودي المجري ، ان من يولد في المجر يمكن ان يصبح شاعرا المانيا كبيرا ، واتضح له من شخص « هينه » ايضا ان اليهودي ممكن ان يصبح كذلك . غير ان حياة البطلين كانت تحمل بين طياتها تحذيرات تبعث على الانزعاج ، اذ فقد « ليناو » عقله وجن بينما كان في بداية الاربعينات من عمره ثم مات في سنة ١٨٥٠ في مستشفى للامراض العقلية . اما مصير « هينه » فكان اكثر مرارة من ذلك . فقد اصابه داء عضال في عموده الفقري الزم الرجل الفراش طيلة السنوات الثمانية الاخيرة من حياته،وكان يكني فراشه «حشية القبر».وذبلت بالالم غير المحتمل « هيلينيه » شبابه المصطنعة ، وازداد شعره عمقا وروحانية . ولم يفلح اي ايمان ايجابي في مواساته . وقد ندب في احد اشعاره ان احدا لن يقول له كلمة العزاء اليهودية « كاديش » ولن يقام

له ايضا جناز مسيحي . ووافته المنية في باريس سنة ١٨٥٦ ودفن جثمانه في مونمارتر

واكدت التقاليد الدينية اليهودية تأكيدا شديدا ان الآثم يعاقب في التو واللحظة وليس فقط بعد الموت . وكان عسيرا عندئذ على هيرتزل الشاب ان لا يربط بين جنون « هينه » وبين قصيدته ذات الايحاء الزاني «Neuere Gedichte» وان يربط بين « حشية قبر » « هينه » وبين قبوله التعميد في المسيحية في مقابل مكاسب اجتماعية .

ولما كانت حياة هيرتزل تجتاحها الرغبات مثله مثل « ليناو » ، وبه طموح يفوق طموح «هينه»،فقد القى موت بطليه ظلالا كئيبة في اعماق نفسه. ولو درسنا هيرتزل فوتوغرافيا وهو في سن الخامسة عشرة لرأينا صبيا نرجسيا قصير الشعر ذا افكار كئيبة حزينة .

الفصل الخامس

نقل تيودور في أوائل شهر فبراير سنة ١٨٧٥ من الريالشكول حيث ظلت درجاته ضعيفة ، ووكل امره بعدها الى مدرسين خصوصيين ليلقنوه اللغتين اللاتينية واليونانية كي يستطيع دخول المدرسة الانجيلية الثانوية الالمانية ، وهي مدرسة لها اهتمام تقليـــدي بالتركيـــز على الدراسات الكلاسيكية . والمدرسة بناؤها شامخ وصلب ورغم ذلك فهو انيق . وهو ملحق بالكنيسة البروتستنتينية الرئيسية (١) في المدينة وهي قلعة من قلاع القيم الالمانية .

ولم يتهاون تيودور ، بعد ان نقل الى الارض التي تناسبه . وفي غضون عام كان يحصل على درجات اكبر بين رفاق كانوا يشاركونه ذوقه وخلفيته الادبية . وكان اغلبيتهم ، كما كان يذكر في سنواته الاخيرة ، من اليهود (٢) . ومن اليسير معرفة سبب زيادة نسبتهم . فقد كان اليهود يشكلون العدد الاكبر بين الطبقة المتوسطة المجرية التي كانت طبقة صغيرة الحجم في ذلك الوقت . وكثيرون منهم ، مثل عائلة هيرتزل ، كانوا مندمجين في الثقافة الالمانية . وثمة اسباب وجيهة جعلتهم يشعرون انهم اقرب الـــى البروتستانت منهم الى الكاثوليك . فقد كان البروتستانت المجريون اقلية كاليهود . والاهم من هذا ان بروتستانت القرن التاسع عشر في اوروبا كانوا ليبراليين بصفة عامة على عكس الكنيسة الكاثوليكية .

وقد استنكر البابا « بيوس » في كتابـــه « منهاج الاخطاء «Syllabus of Errors» ، الذي نشر عام ١٨٦٤ ، فكرة التسامح ازاء الديانات غير الكاثوليكية ، وانهى كتابه بأن اعلن قائلا ، « ان البابا لا يمكنه بل ولا ينبغي

له ان يتساهل ازاء التقدم او الليبرالية او المدنية الحديثة » . وقد آمن اليهود منذ الاصلاح بتلك الاشياء الثلاثة ، وكانوا بالطبع يرتاحون الى لوثر وبسمارك اكثر مما يرتاحون الى من يدينون بالطاعة لهذا البابا غير الليبرالي . وفي عام ١٨٧٠ اعلن ان البابا انسان معصوم من الخطأ .

ورغم ان تيودور تكلم اللغة المجرية ، وكان يستطيع كتابتها صحيحة (٣) ، الا انه لم يشعر باهتمام كبير بالثقافة المجرية . ومنذ عام ١٨٦٧ اصبح المجريون شركاء متساوين مع الالمان فيما سمي « بالملكية المزدوجة » ، ولهذا فكان الكلام عن ملك « هابسبورج » بصفته القيصر او (الامبراطور) يعتبر اهانة ، لان المجر عندئذ كانت توصف بأنها مملكة تاج « سان ستيفان » .وكان «فرانز جوزيف» ببساطة ملكا للمجر،ويبدو ان الملكة المزدوجة كانت شكلا مفيدا . . . لجأ النمساويون اليه لحاجتهم الى ربط امبراطورية مجزاة . وقد يسر من ذلك تعاطف المجر مع الامبراطورة اليزابيث . ولم يكن هذا سوى حل مؤقت لاخطر مشكلات الامبراطورية . وكانت مكاسب المجر على حساب التشيك والرومانيين والسلافيين الذين لم يكسبوا شيئا مقابلا يعزز من كرامتهم . ولم تكن مملكة سان ستيفان مملكة ديمقراطية رغم برلماناتها المنفصلة .

فقد حكمت الملكية المجر واستغلتها ، وكان الفقراء هم ضحاياها الرئيسين وليست الاقليات الدينية التي كانت حالها قد تحسنت . ولم يعان اليهود منذ عام ١٨٦٧ من اي جور قانوني . والمعارضة التي واجهتهم ، كان سببها الى حد كبير الغيرة من قوتهم الاقتصادية . وكتب مراقب فيما بعد يقول ، « ان اهمية اليهود لم تكن تتناسب مع عددهم ، لانهم احتكروا جزءا كبيرا من التجارة . وكانوا يشتركون مع الالمان ، المستخدمين الرئيسيين للعمال ، ويسيطرون ليس على المال فحسب بل ايضا ، والى حد كبير ، على الحكومة والصحافة في البلاد . ونظرا لحماقة ملاك الاراضي المجريين وفقر الفلاحين فان اراضي البلاد ايضا اخذت تتسرب بالتدريج الى ايديهم (٤) » . ومع ذلك ، ورغم ان اليهود في نهاية القرن كان عددهم قد وصل الى خمس تعداد بوادبست فانهم لم يعانوا من الكراهية — على الاقل في وقت هيرتزل — التي عانوا منها في فينا حيث كانت نسبتهم تصل الى يهودي واحد بين كل عشرة من السكان.وكانت تلك اكبر اغلبية مسيحية حرمتها مجر آل هابسبورج من الحقوق المدنية . وكان حق الانتخاب — وهو اقلها ليبرالية في اوروبا — يقتصر على ٦ في المائة فقط من السكان .

وكان أساسه الملكية والضرائب والموقف المهني او الوظيفي والامتيازات العائلية . ومن بين اولئك الذين لم يسمح لهم بالانتخاب ، الخدم والعمال الذين يتدربون على الصنعة ، والمزارعين .

وكان نبذ هيرتزل للثقافة المجرية بل وللمجر نفسها في النهاية يعتبر بمثابة رد فعل لمشكلة حقيقية . ولما تقدم القرن ازداد مبدأ القومية اهمية بين المحترمين وغير المحترمين على حد سواء . وكتب « جـون ستيوارت ميل » يقول « حيث توجد مشاعر القومية بأي قدر فلا مفر من ضم اعضاء هذه القومية تحت لواء نفس الحكومة بـــل تحت لواء حكومـــة لهم وحدهم (٥) » . وقد تسللت هذه الفكرة الليبرالية الى امبراطورية عائلة « رومانوف » المفتتة . ففي عام ١٨٦٧ ، وهو نفس العام الذي اعترفت فيه النمسا بالقومية المجريـــة ، افتتـــح القيصر معرضا كبـــيرا للاجناس البشرية في مدينـــة سانت بيترسبورج وخاطـــب ممثلي الشعب السلافي في أوروبا الشرقية قائلا « اخواني السلاف » . وكانت اخر دولة عالمية في أوروبا هـــي ذلـــك الجزء مـــن ايطاليـــا الذي يحكمـــه البابا . وقـــد ساعد انسحـــاب الحامية الفرنسية من روما في سنة ١٨٧٠ ، القوميين الايطاليين على تكوين « فير » جديدة او امة ايطالية جديدة توحد شبه الجزيرة باجمعها تحت حكم ملك ليبرالي . وقررت عائلـــة « هيرتزل » وعائلة « ديامنت » عندما واجهتا التحدي لجنسيتهما التمسك بالمانيا او فينا المغناطيسية مثيلتها في الجنوب والتي اصبحت الافكار الليبرالية تسيطر عليها وتتئذ .

وبذلك كانت بودابست اشبه بالمنفى ، والمدرسة الانجيلية الالمانية اشبه بمركز من مراكـــز النمســا الخارجيـــة او بروسيا علـــى احسن تقديـــر .

ولكن مهما كان اهتمامه بالافكار ، ومهما كان تاثره بالسياسة ، فقد كان تيودور انسانا عاطفيا ، وكان ايضا عقلانيا . فقد توازنـــت شفتاه السخيتان وعيناه البراقتان مع حاجبيه المتغطرسين . وكان الظهور المفاجىء لقدرته على الحب سببا في خلق عنصر جديد مثير للارتباك اثناء ايـــام دراستـــه .

وقد بنى معاصره ،ورفيقه في الدين « سيجموند فرويد » نظرياته عن النفس البشرية على اساس دراسات اجراها على مرضى تشبه خلفيتهم خلفية تيودور كثيرا . ويقول فرويد ان المراهقة عادة ما يصحبها اتجـــاه

« الليبيدو » نحو اعضاء من نفس الجنس ولكن ليست هناك اثار لمثل تلك المرحلة في تطور تيودور العاطفي* ، على الاقل كمراهق . ولما كانت مدرسته الجديدة ، مثل القديمة لا تبعد الا مسيرة دقائق من منزل والديه فلم تكن به حاجة الى الانتقال الى منزل اخر . وبهذا انقذ تيودور من الشعور بالوحدة في « الثكنات » التي تحدث رد فعل مضاد يائس وهو الشوق الى العلاقات المنزلية الحارة (هناك رواية للكاتب روبرت موزيل اسمها « يونج تورليس «Young Torless» عن النمسا في عهد الامبراطور فرانز جوزيف ، ويحكي فيها عن مثل تلك العلاقات التي ازدهرت بطريقة مؤلمة في وسط اوروبا وفي بريطانيا وفرنسا .) غير ان عائلة يهودية من الطبقة المتوسطة كانت تفرض على اولادها قيودا صارمة مثل قيود المدرسة .

فقد حذرته امه من اغراء النساء ، وكانت تحيطه بالعناية والحب كل لحظة ، وكان المجتمع الذي ينتمي اليه مجتمعا يجعل الوقار امرا ضروريا ، ولهذا فلم يكن من السهل عليه ، مثله مثل طلبة المدارس الداخلية، ان يقيم علاقات مع الفتيات اللائي في سنه .

وقد تمسك تيودور ، كابن محبوب وليس متمردا ، لا بوصايا والديه فحسب بل بقيمهم ايضا . وعرف كمراهق ذلك الفيض الواسع من الرغبات المكبوتة . وكان هناك صراع . وقد كتب الكاتب الانكليزي « جراهام جرين» . في براعة يقول (٦) ، «كلما تقدم بنا العمر ، كلما اصبحنا اقدر على نسيان حالة الاثارة الجنسية الشديدة التي قضينا فيها سني عمرنا بين السادسة عشرة والعشرين » . وزناد الاثارة يمكن ان يكون نظرة او لمسة : والانفجار يحدث من رؤية وجه ما في القطار ، او صورة ، أو شبح يخلقه العقل . والمراهق ليس له ذوق خاص . فالاشياء الهشة والذكريات التي تثير عواطفه يتذكرها الى الابد ، رغم انها لو ظهرت له في كبره فربما تركته دون اثارة . وكان « بيرون » ينظر الى الماضي وراءه الى صداقة المدرسة على انها العاطفة الطاهرة الوحيدة في حياته . وكان هيرتزل ينظر وراءه الى الماضي الى حب لم يتحقق لفتاة اسمها « مادلين كيرز »

---

* هناك محلل نفسي آخر وجد ذلك فيما بعد في حياة هيرتزل: البروفيسور بيتر لوفينبيرج في كتابه تيودور هيرتزل A Psychological Study in Charismatic Political Leadership.

Madeline Kurz يقال انها ماتت صغيرة . وقد كتب هيرتزل مرارا بعد ذلك انها كانت حبه الحقيقي الوحيد . وسواء كانت هي حقيقة أم شبحا فقد كانت خطوة نحو نظرته المثالية لبنات جنسها فيما بعد . وكتب هيرتزل يقول :

« اننا في حاجة الى قدر من الشعر في الحياة ، ويجب الا يفعل الناس مثلنا ويجعلون من الغادات الجميلات مجرد عاملات يكسبن قوتهن . انهن يجب ان يسرن في المروج ليلتقطن الزهـــور ويضعنهـــا بين خصلات شعرهن (٧) » .

عندما يكون الرفيق الانثوي الوحيد لاي انسان هو اخته ،فان رد الفعل المفهوم لذلك هو وضعها في صورة مثالية ، وربما كان هذا امرا خطيرا . فعندما توضع المراة الخيالية على قاعدة تمثال فان المراة الحقيقية سيلقى بها في بالوعة المجاري . فالنساء كجنس منقسمات دون وعي الى قبيلتين متعارضتين : الامهات والشقيقات الى اليمين ، والعاهرات الى الجانـــب الشؤم . وهذا التقسيم يعتبر تمهيدا سيئا للزواج ودافعـــا قويا للمغامرات المثيرة . ولكن من الصعب القيام بالمغامرات في مدينة حيث المرء معـــروف جيدا . وبدلا من ذلك فهناك القيلولة الخانقة ، والليالي السود ، فيستيقظ الشاب الصغير متعبا ولا يعرف لماذا ، فهو محاط بالمحبين وبوجوه مألوفة وسيكون هكذا في اي مكان . وفي تأرجحه نحو الدنس كان يمكنه ان يبتاع تذكرته الى بوهيميا او يشترك في « الليجيون » «Legion» . وفيما بعـــد فقط،عندما تعرض المدن المجهولة الاسماء «تجارتها»،وعندما تضيق الرغبة وتنحصر في الخاص ، وعندما يبلى الزناد من كثرة التكرار ، يواجه بالاختيار الحاسم : الاستسلام للشهوة او انكارها تماما . البعض يستسلم . فويلي Willie Heath الصديق الطيب للشاب مارسيل بروست يستبدل بالغلمان الجزارين في سنوات بروست الاخيرة . يقتلون الفئران لاثارتـــه . وبايرون يصبح « دون جوان » . وهذه طريقة ، والاخرى طريقة راديكالية بالمثل . ان الشهوة تسندها جبيرة . ويولد الرجل القوي .

السادسة عشر ، ثم السابعة عشرة ، ويواصل تيودور دراستـــه وينسج مصيره باحلام يقظته . ويرحل والده لعمله ويبقى الابن بالمنزل . ويبدأ في تنمية الاحساس بالزي . التباعد المترفع للرجل الغندور ، والوجه الذي ما زال حالما يكاد يخفي العدوان ، ورفـه الفم الشهواني تقمعـــه عدم

الثقة القلقة . وكان نرجسيا الى حد لم يكن له اصدقاء حميمون بل معارف فقط او رفاق . وكتب احد معارفه فيما بعد يقول ، « لقد كان خجولا دائما عندما امده النجاح بارض للمزيد من الثقة بنفسه عما كان شابا . كانت مقابلته لأناس جدد معاناة (٨) » .

ان الخجل والعدوان مرتبطان . فالخجل هو عمليـــة « اسقاط » ، لاحتقارنا للاخرين ونحن نحتقر لاننا نفتقد الثقة في انفسنا ، لاننا اذا احتقرنا احدا فهذا يجعل ثمة توازن مع عدم ثقتنا بانفسنا . ونحن الاعضاء العالمين لـ « غير » نحتقر الاقل ثقافة ، والريفيين والمتكلمـــين في لهجـات ولذلك فعندما ندخل حجرة او نجلس الى مائدة مع اناس من مدينة اخرى أو من طبقة او دين اخر ، فخلف عيوننا صورة ذهنية للاجانب المعجونين في ذواتنا، ولاننا عدوانيون فسيكونون هم عدوانيون ايضا ولكننا بدانا نؤهل ، فدرسنا الفرنسية والانكليزية وتعلمنا البيانو لذا فاننا نستطيع القضاء على عداوة الاخرين بأكثر من ملابسنا الانيقة ، بكل ما للطبقة المسيطرة من حقوق ، التي كانت الطبقة الارستقراطية في القرن التاسع عشر .. ولهذا فنحن على استعداد لان نقامر بورقة او بمبارزة او قتال علـــى ثروتنا ، ونحن نسير مرفوعي الراس . وسنكون ارستقراطيين حيث لا يعـــرف أحد من نحن . وفي مدينة اخرى لن يعرف أحد من نحن .

وفي تلك الحالة العقلية ، او في حالة شبيهة لها ، بدأ تيودور ، مثله مثل الآف قبله وبعده يستكشف موضوع الموت . « لقد فكرت كثيرا في الهدف من الوجود الانساني وهو اكبر مظهر للحياة على الارض» (٩) . ان التجربة الشخصية المتشحة بالغموض تغزو الانتاج الادبي للطالب الذي يحـــاول خلق اسلوب خاص به.والشباب هو مرحلة تتوق لكل ما هو متطرف فيتأرجح بين مبدأ اللذة في الحياة ــ « هدف الحياة هو التمتع والتحرر من الهموم » ــ وبين مبدأ حب الانسان ، « الهدف الممكن الوحيد للحياة هو حب الآباء ... اباء المرء وحب البشر جميعا » .

ثم لكي يقضي على هذا الاختيار بين المبداين تجيء : المعرفة المعتمة « لعجز الانسان » فالموت والفنـــاء الغـــاز لا يمكـــن لاي « أوديـــب ان يحلهـــا » .

ان الموت الذي شوه القرن العشرين كان سببه الظلم . اما المـــوت المشابه في القرن التاسع عشر ، الخطوط السوداء التي تنهي الفصول قبل اوانها ، فكان سببه المرض . فحمى التيفود ، سفاح موجود في القذارة ،

تفخر بضحايا لها مؤكدين : منهم الامير «البيرت» زوج الملكة فيكتوريا ،وويلي هيث الصديق الطبيب لمارسيل بروست ، وأولغا شقيقة لينين الذكية واكثر شقيقاته استحواذا لحبه . ويجب ان تضاف الى هؤلاء شقيقة تيودور الوحيدة . ففي فبراير عام ١٨٧٨ اصيبت «بولين هيرتزل» بالحمى وماتت في غضون ايام قليلة . وقد هز موتها — وليس اختفاء مادلين الشبح — صباه .

ودفع اسبوع الحداد الاول بتيودور الى ان يتخذ اعلانا للنوايا ، وزار عائلة هيرتزل حاخامهـا واسمه الدكتور « صمويل كوهـين » وبعد تقديم العزاء المعتاد سأل الحاخام تيودور عن مشروعاته للمستقبل . وكان سيحصل على شهادته النهائية في شهر يونيو . فرد بالالمانية قائلا :

— « اعتزم ان اكون كاتبا (١٠) » .

ولم يكن الحاخام ولا العائلة ينظران الى الكتابة كمهنة مضمونة . وتم الاتفاق على حل وسط . فان تيودور سيدرس القانون مثل « هينه » قبله .

ولكن ليس في بودابست .

ولدينا رواية تيودور الدقيقة التي كتبها متعجلا بعد ذلك بعشرين سنة. من الازمة التي حدثت في العائلة . والرواية مكتوبة بالانكليزية وهي لغة لم يتقن تيودور ابدا دقائقها الامر الذي يفسر الجملة العائمة في البداية . (انه هو الذي كان في اخر فصل في المدرسة وليست بولين) : « بينما في اخر سنة في المدرسة الثانوية الالمانية ماتت اختي الوحيدة ، وهي فتاة في الثامنة عشرة . واكتأبت أمي الرؤوم وحزنت حزنـا عميقا لدرجـة اننا اضطررنا الى الانتقال الى فينا سنة ١٨٧٨ » . ورواية هيرتزل تخفي اغرب جانـب في الانتقـال ، وهـو سرعتـه . وينسبـه اليكـس بين هذا الى « جانيت هيرتزل » . « كانت الام — التي تحطمت معنوياتها . قد وجدت ان الجو المحيط بها لم يعد يحتمل — المنزل والحي والمدينة التي كان وجود ابنتها يملأها ذات مرة كلها.وفي غضون اسبوع من وفاة بولين انتقلت العائلة الى فينا » . ويضيف البروفيسور « بين » وهو احد المؤرخين لحياة هيرتزل وصفا خياليا لمشاعر تيودور .

[ازداد تيودور — بعد ان ترك وحده مع والديه — قربا منهما .وشعر بأنه اصبح لزاما عليه أن يعوضهما عن فقدان بولين بأن يمنحهما مزيجا مزودجا من الحب والحنان والعناية .

واكتسبت العلاقة بين الام والابن — التي كانت دائما علاقة حميمة

رقيقة ــ عمقا جديدا . اما موقفه من والده الذي تطور من موقف الطفل الى موقف الزميل فقد اكتسب المزيد من الدفء . وكانما الثلاثة ضموا صفوفهم لكي يسدوا الفجوة . وهذه الروابط العائليـــة التي قد تبدو في لحظات متطرفة في قوتها ، قوضها الموت وحده ، فمات الاب اولا ثم ماتت الام بعد ذلك (١١)] .

ان الافكار المحبوكة النسيج تحيط الفتر بجدار واق .

فبدلا من المجادلات العائلية او مناقشة مشروعات مسكنهـم الجديد (وقد كانوا عائلة ثرية لديها كل متطلبات العصر الثقيلة ولم يكونوا بدوا رحل) نجد أن حقيقة الانتقال تعرض بطريقة توحي بأن الحزن يجعل الناس يتصرفون بهذه الطريقة . والواقع ان هذا الاجراء المتسرع لا يمكن ان يتخذ الا بواسطة ام غير عادية . والارجح ان الدافع اليه هو مشاعر اثنين من مثلث العائلة هما جانيت وتيودور،ضد صمت جاكوب هيرتزل الذي احس بفقدان ابنته بحدة . ويبدو ان جانيت لم تعان من العجز الخـــدر والرغبة في الانسحاب في صمت وسط اسى ذكريات المحبوبة الذي يمكن ان يعتبر امرا طبيعيا بعد ذلك المرض المفاجيء والموت السريع . او اذا كانت قد شعرت بكل هذا فان الدافع لها على الانتقال وقدرتها عليه كانا اكبر من مشاعرها . ويصبح قرار الانتقال مفهوما لو ركزنا على المكان الذي تم الانتقال اليه . فقد كانت فينا رمزا للثقافة التي اصبحت بديلا للايمان الديني. وبالنسبة لجانيت هيرتزل فان صلوات الحداد اليهودية الارثوذكسية الجميلة كانت غير ذات جدوى ، كما كانت بالنسبة « لجاكوب فاسيرمان » الشاب بعد وفاة امه : وقد جعلته ضرورة الاستيقاظ من نومه مبكرا ليتول «كاديش» في المعبد اليهودي ، يكره ذكراها رغم انه كان يحبهـــا اكثر اثنـــاء حياتهـــا .

وكانت دوافع هيرتزل الخاصة معقدة ، وقيل انه احتفظ بكل ما يتعلق ببولين وكأنه اثار مقدسة ، وانه كان يسافر سنويا الى بودابست في ذكرى وفاتها (١٢) . ورغم ان دراسة مذكراته التي كتبها فيمـــا بعد باسـم «فبرايرات» لا تثبت ذلك الا انه ليس ثمة شك في الدور الذي لعبته بولين في حياته العاطفية . فلقد جسمت بولين الانوثة التي كانت « مادلين كيرز » « اسقاطا » لها ، والان فقد جسمت الموت . ولا بد انه كان يريد الهروب لا لكي يبتعد عن الارتباط بالموتى بقدر ما كان يريد الغرق في مدينة الحياة . المدينة التي يجد فيها الطرف الاخر لخياله المنقسم ، مجالا للحركـة . لقد اصبحت بولين هي الموت ، وذكرى الجمال : فكانت تسيطر على كتاباته

وجاء أسمها في مقدمة الرواية الوحيدة الهامة (صفحة الاعداء) وكانت شخصيتها مصدر الالهام في خلق شخصية بطلة الرواية .

والان اصبحت بودابست التي احتفظت ببولين الى الابد رمزا للاسى واصبحت فينا رمزا للحرية والحياة .

ولما اضحى تيودور طالبا ، وليس تلميذا يقيم في منزله ، امكنـــه ان يحقق ما كان يحلم به ، ويكتسب الاعجاب من جماعة اكبر من جماعـــة « فير » ، وان يجد بديلا لمادلين ان لم يكن لبولين . وكان الرحيل عـــن بودابست معناه وداعا الى الصبى ، والصعود الى فينا معناه الطمـــوح والرغبة . وقد توازن هذان في طبيعة تيودور بحزن اكتسب قدرا منـــه من كتابه المفضلين وقدرا اخر من شكه في الوجود الانساني . وربما استطاع في فينا ان يكتشف ان الحياة رغم ما يحيط بها من الغاز تستعصى على الحل، الموت والفناء فانها ما زال لها هدف .

الجزء الثاني

الفارس الشاب

١٨٧٨ ـ ١٨٨٤

« اذا اصبحت شيئا افضل من كاتب غير
موهوب (وزائري السيد « شك » لا يعتقد
ذلك على وجه التأكيد) فسوف اختلط بالناس
من حين لاخر في هيئة البارون فون ريتز
هاوسن ، مثل ذلك الرجل البارع هارون
الرشيد الذي كان خليفة في بغداد (١) »

الفصل السادس

استأجر والدا هيرتزل شقة في حي « ليوبولد شتات » ، وهو الجزء الوحيد في فيينا الذي بقي على الشاطىء الشرقي لنهر الدانوب ، وهو الجانب الاقرب لبودابست . وقد كان حيا فسيحا من احياء المال والاعمال ومعظم سكانه من اليهود . وقد قضى تيودور البقية الباقية من عام ١٨٧٨ — فيما عدا شهر يونيو حينما عاد الى بودابست كي يدخل امتحانات المدرسة النهائية — في التعود على فيينا اولا ، ثم فيما بعد ، في الخريف ، على روتين الحياة الطلابية في كلية الحقوق .

كانت فيينا ، عاصمة الامبراطورية الالمانية الجنوبية ، ترياقا فعالا ضد الحزن . وكانت المدينة الكوزوموبوليتانية تؤكد الملامح الاكثر مرحا في الثقافة الالمانية . وقد كان عام ١٨٧٨ ، بالنسبة للامبراطورية الشمالية ، عاما أزدادت فيه مكانتها وهيبتها . فقد تراس مستشارها بسمارك اجتماعا لرجال الدولة والسياسة في اوروبا وضعوا فيه الخطط التي تكفل دعم السلطان العثماني وتوزيع بعض ممتلكاته البعيدة فيما بين انفسهم في نفس الوقت . وعلى الرغم من ان النمسا ، مع بريطانيا ، كانت روحا محركة وراء مؤتمر برلين ، وعلى الرغم من ان آل هابسبورغ قد حصلوا على « البوسنة » و « هرزجوفينا » ووضعوهما تحت ادارتهم المباشرة كما فرضوا سيطرتهم على « مونتنجهرو » المستقلة اسميا ، فان آهل فيينا كانوا اكثر اهتماما بالحياة من الحكم ، وكان اهتمامهم الرئيسي في عام ١٨٧٨ هو خلق عاصمة تنافس باريس .

وحتى مولد تيودور بقليل ، كانت المدينة الصغيرة الداخلية يحرسها نظام قوي من التحصينات التي اقيمت ضد الاتراك . ولما لم يعد الاتراك

يمثلون خطرا ما ، هدمت هذه التحصينات وتحولت المساحة التي كانت مقامة عليها الى واحد من اكثر الشوارع فخامة في العالم ، وهو « الرنجستراسا» الذي يبلغ طوله ميلان والذي يطوق ــ مثل حدوة حصان هائلة ــ المدينة القديمة بكاتدرائيتها المقامة للقديس ستيفان وقصرها المقام لآل هابسبورغ . وقد جلبت الارض التي وضعت تحت تصرف اباء المدينة اثمانا مرتفعة اتاحت لهم أن يقيموا المباني الباذخة دون ان يضطروا الى الاستدانة . واصبح « الرنج » ، الذي بلغ متوسط اتساعه ٥٠ ياردة والذي غرست على جانبيه الاشجار ، العمود الفقري لشبكة مهيبة من الشوارع . وفي سنة تيودور الاولى في فينا ، كانت رائحة الطلاء لا تزال تنبعث من بعض المباني ، بينما كان بعضها الاخر لا يزال محاطا بالسقالات يموج بحركة العاملين . وكان الشاب الطويل الوسيم ، المدرك لوسامته ، رغم انه لم يكن بعد خبيرا في فن استخدامها ، يتجول تحت تماثيل الذكور التي لاحصر لها ، والتي تقبع عاليا فوق افاريز المباني او تلك المقامة اعمدة ماردة كي تدعم مداخل القصور . وقد ترك اسلوب مباني المدينة البطولي بمزيجه الخاص من الحداثة والحنين المرضي للاصول ، بصماته للابد على حياته .

كانت الحداثة تنعكس في مستويات جديدة من الرعاية الصحية ، وفي سهولة المواصلات عن طريق السكك الحديدية التي جعلت من فينا واسطة عقد اوروبا ، وفي الجامعة حيث كانت كلية الحقوق والاقتصاد يسودها الفكر الاصلاحي ذو الاهتمامات الاجتماعية اللاماركسية ، والذي ظهر فيما بعد في الجماعة الفابية في انكلترا . وانعكست هذه الحداثة ، على مستوى اخر ، في انهيار القيود التقليدية بحيث اصبحت حياة الليل في فينا تزخر بالاثارة والخطر في سرعة تقطع الانفاس .

وكان الحنين المرضي للاصول يظهر على الفور في فن المعمار . ففي مبنى البرلمان ، الذي كان تمثال الالهة اثينا يحتل مكان الصدارة فيه ، كانت هناك اروقة هيللينية ، بينما كان مبنى البلدية تحليه النقوش كقلعة قوطية ؛ وكانت رشاقة عصر النهضة الايطالية تسود برقتها دور المسرح والفنادق. وكانت العلاقات الروحية تتزاوج مع العلاقات المادية وكانت هذه ، كما في فن المعمار ، تعكس مرضا اوروبيا شائعا وهو الحنين للرجوع الى الوراء وللتقدم الى الامام في نفس الوقت . كان العصر الذي كان عماده المهندسون ورجال الاعمال يحلم بالفرسان شاكي السلاح . كان حلما من احلام شمال اوروبا ذلك الذي ملأ نادي « اتحاد اكسفورد » بصور

الفرسان الشاحبين ، والذي الهم دزرائيلي ان يزور اراضي الحروب الصليبية ، والذي اجتذب افكار ريتشارد فاجنر الى « تانهوزر » و « لوهنجرين » .

وقد اتخذ تأثير الفروسية على تيودور هيرتزل طرقا متناقضة . فبوصفه ابنا لاب يهودي وصل لمرتبة مدير في بنك المجر ويعمل في فينا سمسارا في البورصة ، كان يرى نفسه فارسا لمستقبل ليبرالي علمي تقوم فيه التكنولوجيا باعادة تشكيل الامبراطوريات الالمانية وجيرانها ، مستقبل يستطيع فيه ذوو النفوس النبيلة من كل دين ومذهب ، عن طريق مراعاة معيار اجتماعي واحد ومحدد ، آن يشاركوا في مشاق وثمار السلطة . ولم يكن هذا المعيار الاجتماعي او نظام السلوك الذي يليق بفرسان القرن التاسع عشر يدين بشيء للتلمود او الانجيل ، بل انه وجد نفسه في الخيلاء الشجاعة والظرف الداعر اللذين كانا روح جمعيات الطلاب . وكانت صورة الفروسية تستخدم على مستوى اخر اقل سموا . وتقول سيمون دي بوفوار ان النساء المهذبات بوجه عام « يكنين عضو الغلام التناسلي باسم اخر ويحدثنه عنه وكأنه شخص صغير هو في نفس الوقت الغلام نفسه وشخص اخر ايضا (٢) » . وكان تيودور يسمي عضوه التناسلي «مرشحي الشاب لدرجة الفروسية » . كان هناك من التناقضات في هذه الادوار ما يكفي ان يجعل من نهار ايام طلبه للعلم مزيجا من المجازفة والاثارة مثل لياليهما .

ومع ذلك فقد كان — على السطح ولمعظم الوقت — يحتفظ بمظهر الابن المطيع الذي لا يشوب سلوكه شائبة . ولكن سلوكه الاوليمبي رغم ذلك كان ينكشف عما يذكر بأنه كان شكاكا ومن ثم شاذا . فقد كان قريبه راؤول اورهيمر (انظر الهامش السابق) في الثانية من عمره عندما انتقلت عائلة هيرتزل الى فينا . وكان تيودور ، وقد كان في الثامنة عشرة من عمره في ذلك الوقت ، يزور اقاربه من حين لاخر . وقد كتب راؤول الذي اصبح كاتبا يقول فيها بعد :

« اعتاد ان يختبرني بأن يضع قطعة من السكر تحت البيانو . وكنت ازحف تحت البيانو كي احصل على قطعة السكر واضعها في فمي ثم احاول الوقوف في فخر كي يصطدم راسي بأسفل البيانو . ويصيح ابن عمي « هذا الغلام الغبي » مستمتعا ، ومعه امي ، بغبائي الذي لا يوصف . ولكنه حين حاول ان يكرر نفس التجربة بعد اسبوع ، حدث شيء غير

متوقع . فقد زحفت تحت البيانو ووضعت قطعة السكر في فمي . ولكن بدلا من ان اقف على التو كما كان متوقعا ، فقد واصلت الزحف وانا امتص قطعة السكر الى الجانب الاخر من الغرفة . وهناك فقط استعدت في حرص وتفتي المعتدلة وانا ارنو في بطء وخجل الى اعلى » .

وبعد اربع سنوات اخرى ، لعب تيودور لعبة اخرى على قريبه الصغير . فقد عرض عليه ان يبتاع له مطواة ، واصطحبه الى احد المتاجر واراه مطواة مطعمة بالصدف واخرى ذات جراب من القرون . وقال للصبي ، الذي كان في السادسة من عمره ، ان المطواة المطعمة بالصدف هي الرخيصة وان الاخرى هي الغالية الثمن ، ثم طلب منه ان يختار احداها . « قلت « هذه » مشيرا الى المطواة المطعمة بالصدف وكانت هي الاغلى . كان ابن عمي الطيب ، والذي كان احيانا في شبابه يشك في جميع الناس بوجه عام ، يريد ببساطة ان يختبرني » (٣) .

وقد كانت فينا ايضا تختبر تيودور فيما يتعلق بمستقبله . فقد كان عليه في مدينة كان فيها النجاح بديلا عن عراقة الاصل ، ان يفكر طيلة ايام دراسته كيف يحرز الامتياز والتفوق . وقد كانت كلية الحقوق تكشف باسمها باللغة الالمانية (كلية الحقوق والادارة الحكومية) عن صلتها الوثيقة بالدولة . وعلى الرغم من ان منهاجها الدراسي كان قد تم اصلاحه عام ١٩٤٩ واصبح يهدف الى ان يقدم للطالب شيئا اكثر من التدريب التقريري الجاف الذي كان متبعا فيما سبق ، فقد كانت الكلية في الواقع معهدا لتخريج خدام للدولة . فقد كانت السنة الاولى مخصصة لدراسة القانون الروماني والقانون الالماني ، والسنة الثانية لدراسة القانون الكنسي والقانون الجنائي ، والسنة الثالثة لدراسة القانون الدولي والاقتصاد السياسي وفلسفة القانون ، اما السنة الرابعة فقد كانت للمراجعة . وعلى الرغم من ان هيرتزل كان دائما واقعا تحت تأثير القانون الروماني (وذلك بفضل استاذه البارع جوستاف ديمليوس) فانه لم يكن طالبا لامعا ولم يحصل على درجته الدراسية في اقل وقت محدد لذلك .

وكان قد قرر حين ترك بودابست ان يصبح كاتبا . وكانت هناك طريقتان على الاقل — كما كانت الاحوال في فينا تبين بوضوح — يمكن بهما ان يحقق طموحه . كان يستطيع ان يكون صحفيا او كاتبا مسرحيا .

فمنذ اعلان الدستور في عام ١٨٦٧ ، اصبحت الرقابة اقل تعنتا . وازدهرت الصحافة تبعا لذلك . ففي وقت وصول هيرتزل ، كان هناك

اكثر من ٢٥٠ جريدة تصدر في النمسا . وفي العاصمة كانت « نويا فرايا بريسا » Neue Freie Presse (الجريدة الجديدة الحرة) التي تأسست عام ١٨٦٤ افضل جريدة من بين ما يزيد عن دستة من الصحف اليومية ذات التوزيع الكبير . وقد كانت لهذه الصحف الجادة الخالية من الصور الفوتوغرافية ، شهية مفتوحة للكلمات ونهم لا يشبع . وكان اغلبها يخصص مساحة في اسفل صفحاتها ــ يفصلها عن الباقي خط ثقيل اسود ــ لما كان يعرف « بالفياتو » بالــ Feuilleton ، وهي تشبه حظائر من الكلمات المطبوعة بالبنط الصغير تتوالى من صفحة لاخرى ويستطيع فيها الكاتب ــ في مجال يصل الى خمسة الاف كلمة ــ ان يستعرض خفة ظله او معرفته او حساسيته . وهو يستطيع ان يفعل ذلك عن طريق كتابة القصة القصيرة او وصف الاماكن او التعليق على احداث اليوم . والــ Feuilleton الناجحة تكسب لصاحبها شهرة لامعة مثل فقاقيع الشمبانيا وقصيرة العمر مثلها . وقد كان انتاج تيودور الغزير حين كان تلميذا صغيرا يمثل تهيئة مفيدة للنجاح في هذا الشكل المحبوب .

كذلك كان المسرح متلهفا لمسرحيات ذات جاذبية للذوق السائد في فينا . وقد كانت هذه اقل جدية من الروح البروسية وذلك بسبب الطبيعة الكوزموبوليتانية التي كانت تسود المجتمع النمساوي . فحتى فقدان ميلانو والبندقية لايطاليا المتحدة ، كانت الجالية الايطالية الكبيرة تجلب الظرف والكياسة ، بينما كانت الشعوب السلافية المختلفة تواصل اضافاتها العاطفية . وكانت الروح الفينية اقل تعقلا وتأملا من الروح الفرنسية وذلك لان تعدد القوميات كان ينتج جوا من التوتر يمكن ان تكون فيه الافكار امرا ذا خطورة . وكانت جماهير المشاهدين في فينا اكثر استمتاعا بالمسرحيات والاوبريتات الفكاهية الخفيفة ، والتي كانت الموسيقى فيها تتهكم حتى على نفسها . ومن المباني التي كانت لا تزال تحوطها السقالات حين كان هيرتزل طالبا مبنى مسرح البرجتياتر المهيب الذي يرجع تاريخه الى ما بين عامي ١٨٧٤ و١٨٨٨ . وكان هذا المبنى الذي يغلب عليه طابع عصر النهضة تزينه التماثيل التي تمثل صفات مثل البطولة والانانية ، كما كان يتوج مدخله الرئيسي تماثيل ليسنج وجوته وشيللر . وذات مساء بينما كان تيودور واحد الاصدقاء يتنزهان القيا بنظرة على المبنى الذي لم يكتمل بناؤه خلف السقالات وقال هيرتزل « اتعرف ، سوف اكون هنا يوما ما » .

كان طموحه يقفز الى ابعد ما تقفز اليه الكلمات . وفي عامه

الدراسي الاول كان قد انتهى من اعداد خطة معقدة لكتابة سلسلة من المسرحيات الكوميدية واختار لها عنوانا لافتا للنظر هو : Die Ritter vom Gemeinplatz (فرسان الامور العادية) .

وقد كان العنوان ذا دلالة ايضا ، لان هيرتزل كان يعيش في توتر تتجاذبه أمور الحياة العادية اليومية ــ شقة أسرته وبيانوا اقاربه وضرورة حضور المحاضرات وضرورة سداد المصاريف ــ والاحلام التي تلهبها المدينة الامبراطورية . وفي عام ١٨٧٨ كان هذا التوتر يبدو كما لو كان يمتد عبر سماء لا تزعجها اشياء اكثر شرا من تلك التي يمثلها تمثال الالهة اثينا أو بعض تماثيل الذكور الرمزية الاخرى . ورغم ذلك فان هذا المجتمع الليبرالي التقدمي الذي كان اليهود يلعبون فيه دورا ذا اهمية بالغة كان يمكن لو انه اغلق اذنه عن الانصات الى انغام الفالس ان يسمع صوت ارتجافات تثير القلق .

كان يمكن سماع صوت هذه الارتجافات شمال وجنوب جبال الالب . فان الاقتصاد الذي جلب ثمارا عظيمة الى البعض واجور الكفاف للبعض الاخر ليس بالذي يخلق مجتمعا هادئا . فقبل خمسة اعوام كان السياسي المال ، الذي تم اعتصاره من فرنسا المهزومة ، في المضاريات بدلا من انفاقه
المال ، الذي ثم اعتصاره من فرنسا المهزومة ، في المضاريات بدلا من انفاقه
ببطء على احتياجات الدولة . وكان لاسكر يهوديا . وكذلك كان « بيتل هنري ستراوسبرغ » زعيم عصابة الفساد المثيرة التي ادانها تقرير لاسكر . وكان المراقبون العاقلون يرون أن ظهور اليهود الواضح في الفضائح المالية يعكس ظهورهم الواضح في النشاطات الصناعية والاقتصادية . ففي مقابل كل « ستراوسبرغ » كان هناك عشرات من اليهود غير المعروفين الذين يمولون مشاريع رائدة مثل انشاء السكك الحديدية وحفر ابار البترول . ولكن « فيلهلم مار » ، وهو صحفي من هامبورغ ، استغل ما كشف عنه لاسكر في كتيب عنوانه « انتصار اليهودية على الالمانية . وكان التعبيران Judenthum (اليهودية) و Germanenthum (الجرمانية) هراوتين غامضتين يصعب ترجمتها الى لغة اخرى . وربما كان « مار » هو اول من صاغ تعبيرا اخر هو « معاداة السامية » الذي سوف يسمع العالم وهيرتزل عنه اكثر (٤) . وحول مثل هذه الافكار الانفعالية المختلفة تماما من ابطال « جانيت هيرتزل » الالمان المثاليين ، كان مؤلفو الكتيبات والديموجاجيون يحرزون الشهرة في فينا ومدن المانية اخرى

الفصل السابع

كانت جامعة فينا مكانا يتلقى فيه الطـــــلاب المحاضرات ويدرسون ويؤدون الامتحانات ، وليست مكانا يأكلون او ينامون فيه . وكانـــت الاغلبية العظمى من الطلاب يعيشـون في المدينة . وقـــــد استهل هيرتزل وصفه لهذه المرحلة من حياته في انكليزية ركيكة قائلا : « في فينا درست القانون واشتركت في كافة انواع مجون الطلبة الغبي ... » (١) وقد اعاد احد كتاب سيرة حياته كتابة الفقرة الاخيرة بحيث اصبحت : « مرح الطلاب السخيف » (٢) . وسواء اكان مجونا أم مرحا ، فان هذا اللهو كان به الحرية التي يتميز بها الشباب الالماني . ولا بد أن أحد تقاليد اكسفورد وهو تعليق اواني دورات المياه على قباب الكليات كان يبدو لهم عبثا طفوليا . وقـــد سبق طلاب القارة زملاءهم الانكلوسكسون في الاشتغال بالسياسة بقرن من الزمان . وخلال الاعوام الست التي قضاها تيودور في فينا لعب الطلبة دورا هاما في تقويض الحلم الليبرالي.وكانت رياضتهم المفضلة ــ المبارزة ــ تتضمن عنفا منظما يختلف أختلافا تاما عن العنف العرضي الذي تتسم به لعبة الرجبي الانكليزية او كرة القدم الامريكية . وكانت النشاطات الخارجية تعني بالنسبة الى هيرتزل اكثر مما تعني المناهج المحددة . فلم يكن ابدا لامعا في الامتحانات وكان يؤنب اصدقاءه الذين يتظاهرون بعكس ذلك .

وفي عام ١٨٧٨ ، كانت المؤسسة الليبراليـــــة Akademische Lesehalle (اكاديمية قاعة المطالعة) لا تزال هي المحور الاساسي الذي يقضي فيه الطلاب الاكثر طموحا اوقات فراغهم . وكان هذا الاتحاد الثقافي الذي كان يبلغ عدد اعضائه الف عضو ، لا ينظر بعين الرضى الى الانتماء

الى الاحزاب او الشيع . واصبح الرئيس السابق للفيرWir عضوا نشطا في الاتحاد خلال الثلاثين شهرا الاخيرة من حياته . وفي الاتحاد ايضا وقعت عينا ارثر شنتزلر Schnitzler (الذي اصبح فيما بعد كاتبا مسرحيا وروائيا هاما) لاول مرة على هيرتزل . وقد كتب اليه فيما بعد يقول : « لا زلت اذكر اول مرة رايتك فيها . كنت تلقي خطابا وكنت لاذعا ... لاذعا جدا . وكنت تبتسم في تهكم . وقلت لنفسي : لوكنت فقط استطيع ان اتحدث وابتسم بهذه الطريقة (٣) » . وكان شنتزلر ، الذي كان مثل هيرتزل ينحدر من اصول يهودية ، قد اجتذبته الطريقة التي كان بها سلوك هيرتزل يتناقض والنموذج اليهودي التقليدي . ففي النقاش ، كان هيرتزل يطرح جانبا التعاليم التلمودية التي تقول ان جرح رجل علانية يماثل سفك الدم كفعل شرير . وكانت كبرياؤه الانوف رفضا متعمدا للتمجيد الديني للتواضع بوصفه اعلى الفضائل . وقد اعجب شنتزلر ايضا بطريقة هيرتزل في ارتداء ملابسه وحاول ان يقلده . ولكن سواء كان الامر يتعلق بالملابس او المناقشة فان هيرتزل كان دائما هو السابق .

وقد كان شنتزلر في ذلك الوقت معجبا اكثر منه صديقا . وكان اكثر اصدقاء هيرتزل قربا اليه — وقد ظلا كذلك حتى وفاتهما في وقت غير مناسب خلال عام واحد ولم يحتل مكانتهما احد بعد ذلك — هما « هنريخ كانا » و «اوزفالد بوكسر».وكان الاثنان ينحدران من اسرتين اكثر فقرا من اسرة هيرتزل.وكان والدا«كانا»الرومانيان،رغم الفقر،يحافظان على احترام النفس. وكان هنريش ، الذي كان يكبر هيرتزل بثلاثة اعوام ، يعول نفسه عن طريق اعطاء الدروس الخصوصية لاطفال اليهود الاثرياء . وكان والد بوكسر يعمل سمسارا على نحو متواضع في البورصة . وكان الشابان يمثلان طرفي النقيض في شخصية هيرتزل ومزاجه . فكانا كان خجولا ساذجا متاملا ، عاش كالطيف في عالم لم يكن يستطيع اقتحامه رغم انه كان مثل هيرتزل يريد أن يكون كاتبا . اما بوكسر ، الذي ولد في فيينا في نفس العام الذي ولد فيه هيرتزل في بودابست ، فقد كان طويل القامة قوي البنية ذا راس ضخم وحاجبين نبيلين ، وكان انفه وعيناه اللتان تنظران بعيدا تشير الى رائد . وكان ، وهو الرجل ذو الحيوية التي لا تعرف الخوف ، لا يدعي شيئا اكثر من الموهبة . وكان ، مثل كانا ، يعول نفسه عن طريق الدروس الخصوصية ، واقصى طموحاته ان يكون صحفيا ناجحا مهما كانت الوسائل المؤدية الى ذلك .

ومثل معاصره سيجموند فرويد ، فان اصدقاء هيرتزل المقربين في فينا كانوا من اليهود . كان يشارك « كانا » و « بوكسر » في الازمــــة اليهودية وليس في العقيدة اليهودية حيث ان ثلاثتهم كانوا من المتشككين . كان الثلاثة ، وقد تورطوا في موقف واحد لم يكن احد منهم يريده ، ويتضمن معتقدات لم يكونوا يتقبلونها ،يناقشـون ، من منطلق واحد ،الافكار التي كانت تتصارع خلف واجهة الاكاديمية الآمنة ، والتي سوف تؤدي فيما بعــد الى انهيارها ولا بد لكي نفهم هيرتــزل الشـاب ان نفهم صراع الافكار هــذا .

فقد كانت المشكلة الرئيسية ، كما في بودابست ، هي مشكلة تحديد الهوية . ولما طلب من آل هيرتزل في المجر ان يحددوا جنسيتهــم اختاروا ان يكونوا المانا لان القوميات الصغيرة كانت متمادية بينما كانت الدولــة البروسية ــ وهي الوحدة الالمانية القائدة ــ هي الامتداد المنطقي لعصر التنوير بمثالياته الليبرالية والكفاح الثقافي ضد سلطة الكنيسة . اما على التربة النمساوية وفي فينا الالمانية فان (الالمانية) Deutschtum (وهو اصطلاح اكثر اتساعــا ممــا سمــاه « ويلهلم مــار » بــ (الجرمانية) (Germanenthum)) كانت تبدو اقل جاذبية .

وكان الامر يتطلب من اليهودي الذي يعيش في النمسا والذي يدافع عن الــ Deutschtum ــ مثلما كان يفعل هيرتزل ــ ان يكون ذا روح عنيدة او نظرة طويلة ممتدة للتاريخ .

وربما لانها احست بالتهديد الذي تمثله القوميات الجديدة مثـــل التشيك والسلاف ، وربما بسبب أن الجراح التي أحدثها حرب الثلاثــين عاما والاحتلال النابوليونــي لم تكن قد اندملـــت بعد ، فان Deutschtum وقد تطورت الى قومية «كل» الالمان حينما كانوا Pan-Germanism تختلف اختلافا كبيرا عما يمكن ان نجده في فرنسا او انكلترا او الولايات المتحدة . فمنذ عصر الاصلاح اصبحت انكلترا وفرنسا دولتين واضحتي الارتباط ، على حين لم تكن الولايات المتحدة قد خسرت حربا واحدة منذ انشائها . وجعلت الحدود الثابتة وعدم وجود قوميات تابعة مضطربة ، من اليسير على هذه الدول ان تكون هادئة الاعصاب . وعلى عكس ذلك ، كان القوميون الالمان، اذا نظروا الى الوراء ، لا يجدون دولة ثابتة او حدودا لا نزاع عليها . وبدلا من ذلك كانوا يستعرضون تاريخا مذلا من التفرقة وسيطرة الطغـــاة الصغار او الغزاة المخربون ، والشكل الوحيد من الوحدة الذي تحقق كان تحت الشعار الزاهي البراق للامبراطورية الرومانية المقدسة.وبالنسبة

للمفكرين المتنورين في القرن الثامن عشر (وهم اساتذة السيدة هيرتزل) كانت وحدة الثقافة الالمانية كافية او هي افضل الموجود . ولكن كما ان السلطة الالمانية تطورت بعد هزيمة فرنسا ، كذلك تطورت القومية التي لم تعثر على تعريف اقليمي محدد وكان عليها لذلك ان تبحث عن مجال اخر « وكان اصطلاح Pan-Germanism مبنيا على فكرة ان كل من كان من الجنس او الدم الالماني اينما كان يعيش وفي اي دولة يحيا ، يجب ان يكون ولاؤه الاول لالمانيا ويجب ان يصبح مواطنا في الدولة الالمانية التي هي وطنه الحقيقي . وربما كان هؤلاء او آباؤهم او حتى اجدادهم قد شبوا تحت سماء اجنبية او في اجواء غريبة ، ولكن « حقيقتهم » الداخلية الاساسية تظل المانية (٤) » . وكان الالمان واليهود المتحررون مرتبطين ارتباطا وثيقا بحيث ان افكارهم كانت تبدو متماثلة ذات اصداء واحدة . وكان « موزيز هيس » قد صرح بمقولة مماثلة تماما منذ ستة عشر عاما . وكان هيس قد استهل حياته الثقافية كواحد من اوائل الشيوعيين وزميل لكارل ماركس رغم انه على عكس ماركس ، لم يعمد . وفي عام ١٨٤٨ دفعته عاطفته المناصرة للالمان ان يضع لحنا لقصيدة معادية لفرنسا . ولكنه عندما ارسل هذا اللحن الى المؤلف الالماني قوبل ببرود (٥) . وفي عام ١٨٦٢ في كتيبة « روما والقدس » ، اقترح قومية يهودية مبنية على الجنس. وكتب يقول : « ان اليهود ليسوا جماعة دينية بل هم امة منفصلة وجنس خاص . واليهودي الحديث الذي ينكر ذلك ليس فقط مرتدا وكافرا ، بل هو ايضا خائن لشعبه وقبيلته وجنسه » . وتحولت كراهيته لفرنسا الى حب . « ان الفرنسيين ، وهم جنود التقدم ، سوف يحطمون شواهد القبور ، وسوف تخرج الشعوب من قبورها . وكما ان روما ، التي اصبحت منذ عهد « اينوسنت » الثالث مدينة النوم الابدي ، تبعث اليوم بالتدريج كي تصبح مدينة الحياة الابدية بواسطة الوطنيين الشجعان الذين يحاربون من اجل حرية ايطاليا ، كذلك سوف تستيقظ القدس » . وفي الوقت الذي كان فيه هيس يكتب ذلك (ايام طفولة تيودور) كان الفرنسيون ينشطون في مصر . وكان هيس يأمل ان يكسب تأييدهم لحلمه . « ان فرنسا يجب ، بعد ان تنتهي من حفر قناة السويس ، ان تتيح لليهود ان يؤسسوا المستعمرات على شواطئها ، ذلك انه بدون تراب لا توجد حياة قومية » . ولم يتصفح هيرتزل كتاب « روما والقدس » الا وهو في الثامنة والثلاثين ، ولم يقرأه بعناية الا حين بلغ عمره واحدا واربعين عاما (٦) . كذلك لم يقرأ

كتاب « فيلهلم مار » الاول Der Judenspiegel (اليهود في المرآة) والذي نشر في نفس العام . ففي عام ١٨٦٢ ، كانت هذه الكتيبات التي تبشر بهذه الافكار العنصرية بين اليهود وغير اليهود لا يقراها سوى مؤلفيها وبضع افراد قلائل بجانبهم . وكان الطلاب في فينا في القرن التاسع عشر ، مثل زملائهم في اوروبا وامريكا في القرن العشرين ، يتبعون ابطالا ثقافيين يتجسد في اشخاصهم تصادم الافكار قبل ان يتم فحص هذه الافكار والتعبير عنها بواسطة السياسيين . وفي الصيف الذي انتقلت فيه عائلة هيرتزل الى فينا ، دارت اهم معارك القرن بين بطلين من هـذا النوع هما فريدريخ نيتشه ، اعمق المفكرين الالمان ، وريتشارد فاجنر ، الذي يعد بدون شك اعظم فناني المانيا بل ربما القرن باكمله . وقبل اربعة اعوام كان نيتشه قد كتب يقول : « ان الموسيقى السابقة برمتها تبدو جافة ومترددة عند مقارنتها بموسيقى فاجنر » . وكان قد مجد القومية الالمانية التي الهمت هذه الموسيقى . وفي عام ١٨٧٨ انفصل عن معبوده السابق . وكتب نيتشه يقول : « كان امرا من امور القدر ، بالنسبة لي ، ان ادير ظهري لفاجنر ، كما كان انتصارا ، بالنسبة لي ، ان احب شيئا اخرا ايا كان بعد ذلك » (٧) .

ولم يكن رفضه يعني ان يتصالح مع المسيحية التي تعلمها في ابرشية والده . وقد بدأ رفض نيتشه لفاجنر في مسائل تتعلق بالجماليات . فقد كتب يقول : « ان فن فاجنر هو بلاشك فن العصر . ولو كان هذا العصر عصرا جماليا لرفضه . بل ان بعضنا الاكثر حذقا يرفضه حتى في وقتنا هذا (٨) . ولكن ذلك ادى به الى ان يسأل عن اي شيء في العصر يعبر عنه فن فاجنر . وهو يجيب على ذلك السؤال بقوله : « هذه القسوة وهذا الضعف الرقيق اللذان يوجدان جنبا الى جنب ، هذا الانطلاق الوحشي للغرائز الطبيعية ، وهذه الحساسية الفائقة العصبية المتعطشة للعاطفة والتي تنبعث من الارهاق ومن عشق الارهاق» (٩) . وقد كتب فيما بعد معترفا : «انا طفل هذا العصر مثل فاجنر ، اي انني في حالة انحطاط . الفرق الوحيد هو انني اعترف بهذه الحقيقة واناضل ضدها » (١٠) .

ومن ملامح العصر التي ناضل ضدها — متقدما في ذلك على عصره — الايمان بأن الجنس — وليس الجغرافيا او الطقس او الاقتصاد — يمثل العنصر الحاسم في التاريخ . وفي منزل فاجنر — حيث كان مركز نيتشه

كمركز احـــد رجـــال البلاط الملكي ـــ كـــان ذلـــك يتخذ شكـــل تمجيـــد كل ما هو الماني والحط من قيمة الاجناس الاخرى كنتيجة طبيعية لذلك . وكانت « كوزيما » زوجة فاجنر الثانية ، ابنة غير شرعية لفرانز ليست ، وهو مجري ، من عشيقته الفرنسية التي كان واحدا على الاقل من بين اجدادها يهوديا . ومع ذلك فقد كانت احكامها تتسم بالعنصرية اكثر حتى من زوجها . وقد دفعها ذلك ذات مرة ان تصف « سارة برنار » في دور « توسكا » « بقردة عجوز (١١) » . وفي عام ١٨٧٤ ، ادخل نيتشه ، الذي كان آنذاك استاذا للفلسفة الكلاسيكية في بازل ، السرور على قلب فاجنر وزوجته بأن شبه الازمة الالمانية ـــ التي تتمثل في الصراع من اجل الحياة ضد العناصر اللاالمانية ـــ بتلك التي كان يعانيها الاغريق القدماء وســـط « فوضى الاشكال والاراء الاجنبية ـــ السامية والبابلية والمصرية (١٢) » .

وفي عام ١٨٧٨ ، وهو العام الذي تمرد فيه نيتشه ، كان فاجنر منهمكا في تأليف « بارسيفال » . واثار موضوع « بارسيفال » النفور في كل من المعادي للمسيحية وابن القسيس اللذين كانا يتواجدان جنبا الى جنب في شخصية نيتشه . فقد اثارت الاول الرموز المستمدة من الاساطـــير المسيحية ، بينما ادرك الثاني الخدعة التي يقدم به الهوس الوثني بوصفه شيئا مقدسا . « اذا كان فاجنر مسيحيا ، فربما كان « ليست » هو ابو الكنيسة (١٣) » . وقد رفض نيتشه بوضوح كراهية استاذه السابـــق لليهود . وفي هروبه من فاجنر ، اتجه نيتشه جنوبا . وكتب يقول بالفرنسية: «يجب صبغ الموسيقى بصبغة البحر الابيض المتوسط* (١٤) » . وقد مدح «بيزيه» بسبب جفاف اجوائه وحساسيته الجنوبية النحاسية التي لوحتهـــا الشمس والبعيدة كل البعد عن فاجنر . «هذه الموسيقى مرحة ، ولكن ليس على الطريقة الفرنسية او الالمانية . ان مرحها افريقي : القدر معلق فوقها ، وسعادتها قصيرة فجائية وبدون تأجيل (١٥) » .

وفي بصيرة كبصيرة الانبياء كتب نيتشه يقول : « ينتابني الخوف من ان اثار فن فاجنر ستتدفق في هذا السيل الجارف الذي سوف ينبع من الجانب الاخر من الجبال والذي يعرف كيف يستطيع ان يفيض حتى من فوق الجبال (١٦) » . وكان ايحاء نيتشه الواضح ان فاجنر يمكن ان ينتهي حليفا

---

* «Il faut Méditerraniser la Musique».

للحزب البابوي المتطرف . والنبوءة الاعمق التي تختبىء في الكلمات هي انه من الاراضي الالمانية التي تقع جنوب جبال الالب سوف تغرق المانيا كلها في التعصب ، وانه في فينا ـ قبل برلين وفرانكفورت ـ سوف تصبح كراهية اليهود قوة سياسية ، وان النمسا سوف تكون هي دار الحضانة لاولئك الذين يرون التاريخ بمنظار عنصري .

ولم يكن أي من فاجنر أو نيتشه من رجال السياسة . وكان لمعركتهم نقاء يستحيل وجوده في اناء الحلول الوسط الذي يسبح فيه رجال السياسة . وفي عام ١٨٧٨ لم تكن المسائل المثارة قد دخلت بعد حلبة السياسة النمساوية . وكانت « الالمانية » لا تزال حركة يمكن لتيودور هيرتزل و « هنريش كانا » و « اوزوالد بوكسر » ان يتقبلوها ، بل ان اليهود الاثرياء المستوعبين كانوا فعلا اعضاء في الاحزاب القومية الالمانية . ولكن سياسيا كان يدعو الى شيء يماثل الفاجنرية كان قد اصبح فعلا مثل سحابة سوداء في افق فينا . وقد انحدر «جورج فون شرونرر» (١٧) من خلفية مماثلة لخلفية آل هيرتزل فيما عدا انه كان كاثولوكيا . وكان والده ، « ماتنياس شوندر » قد ارتقى الى الثروة والنبالة بطريقة متاحة لكل من اليهود والمسيحيين على حد سواء في نمسا ما بعد مترنيخ . وقد قبل الافكار السائدة في الليبرالية الهابسبورغية مثل الانسانية والكاثوليكية والتسامح المتجسدة في مجتمع مختلط رابطته الوحيدة هي طاعة الامبراطور . وكان العمل الرئيسي الذي انجزه ماتياس شوندر هو انه بنى ، في ما بين عامي ١٨٥٦ و١٨٦٠ ، سكة حديد الامبراطورة اليزابيث ، التي كان يمولها آل روتشيلد . وبعد ان منحه الامبراطور فرانز جوزيف لقب بارون ، ابتاع ضيعة في « روسناو » وادخل كلمة « فون » في اسمه واذاب نفسه في طبقة النبلاء الريفيين بنفس البراعة التي اذاب بها كثيرا من اليهود انفسهم في بلوتقراطية المدنية . وقد كان ولده جورج (على عكس هيرتزل) يعاني من رد فعل اوديبي عنيف تجاه والده المهيب . وقد رفض كلا من الليبرالية والكنيسة الكاثولوكية . وبرفضه هذا قدر له آن يكتسب الثناء ، ليس فقط من جانب الطلاب القوميين ، بل وايضا من جانب اكبر المعادين للسامية في العصر اللاحق . فقد كتب عنه ادولف هتلر في كتابه « كفاحي » يقول : « لقد تنبأ بالسقوط الحتمي للدولة النمساوية بشكل اكثر دقة ووضوحا من اي احد اخر (١٨) » . ويحق ايضا القول بأنه عمل ايضا من اجل هذا الهدف . فقد أصبح ، بعد انتخابه في البرلمان النمساوي في عام ١٨٧٣ ،

المتحدث باسم المزارعين ، وهم جماعة تكن عداء عميقا للمدينة ولكل ما تمثله . وكان يقدم حججا مقنعة ضد التحالف الليبرالي الحاكم مثل عجـزه عن التعامل مع القوميات السلافية التي تمثل خطرا قويا على السلطـــة الالمانية وتجاهله للمشـاكل الاجتماعية . وفي نفس العام الذي انضم فيه هيرتزل الى الاكاديمية انتخب شـونرر عضـوا شرفيا في جمعية طلابية مختلفة تماما هي الـ Leseverein (جمعية القــراءة) وكان اعظـم رؤســاء الاكاديمية ـــ وهو يهودي ـــ قد قال : « في معبد المعرفة ، كل العابدين سواء» (١٩) . ولكن «جمعية القراءة» كانت تقول انه اذا لم يكن للالمان اليد العليا في الامبراطورية النمساوية فان من الافضل لهم ان ينفصلوا عنها وينضموا الى المانيا . ولم يكن محك الالمانية قد حدد بعد لكي يستبعد محبي الثقافة الالمانية من امثال آل هـيرتزل . ولكنه في نفس الوقت لم يكن حدد بعد كي يضمهم . وكان هناك من الشكوك ما يكفي كي يبعث القشعريرة في اوصال اولئك الذين كانوا لا يزالوا يحتفظون بانسانية لسنج التي تنتمي الى القرن الثامن عشر ، او اولئك الذين كانت تسري في شرايينهم نفس الدماء التي كانت تسري في شرايين ناثان الحكيم . ولكن لم يكن هناك ما يكفي ، في حالة تيودور ، كي يجمد طموحه .

الفصل الثامن

في بودابست ، كان التصاق والدي هيرتزل به ، قد منعه من الالتقاء بشابات خارج محيط العائلة . وكانت مغامراته العاطفية ، لذلك ، محصورة في احلام اليقظة . وكان التعقل ، وليست الوساوس الدينية ، هو الذي املى عليه العفة . وفي عامه الاخير في مدرسة بودابست الثانوية ، وضع كل من موسى والمسيح والكونت دي سان جرمان* في سلة واحدة واطلق عليهم صفة « المخادعون الماكرون (١) » . وهكذا وصل ، اعزل من القيود الدينية، الى المدينة التي لم يكن يقل انغماس شبابها في الملذات عن انغماس الجنود البريطانيين فيها (في ثمانينات القرن الماضي بلغت نسبة الاصابة بالامراض التناسلية في الجيش البريطاني ٢٧٫٥٠٠ لكل ١٠٠٫٠٠٠ جندي سنويا) (٢) . وكانت حياة الليل في فينا ذات شهرة ذائعة في وسط اوروبا ، ولم تكن اثارها محصورة في الطبقات الدنيا من المجتمع . وكمثال على ذلك نورد قصة ولي العهد الامير رودولف ، الابن الوحيد للامبراطور فرانز جوزيف ، الذي اصيب في فبراير عام ١٨٨٦ بمرض تناسلي نتيجة لمغامراته العديدة . وعلى الرغم من ان هذا المرض الملكي قد وصف بانه مجرد التهاب في المثانة (تسبب ، كما قيل ، نتيجة رقوده على ارض مبتلة اثناء الصيد) فان البحوث الحديثة قد اثبتت ان الامير كان مصابا بالسيلان ، وان الادوية المسجلة في الصيدلية الملكية — واستخدام سلفات الزنك على وجه الخصوص — لم تكن

★ مغامر غامض في القرن الثامن عشر ادعى انه عاش الفي عام بفضل اكسير من اختراعه .

لتؤدي الى الشفاء . كما ثبت كذلك ان الامير قد نقل المرض الى زوجته الاميرة ستيفاني البلجيكية التي لم تصب فقط بالعقم بسبب هذا المرض ، بل انها تجنبت زوجها الى الابد بعد ذلك . وربما كان انتحاره في «ماريلنغ» هو النتيجة النهائية لهذه النكبة التي حلت به (٣) .

وقد كان اهل فينا في الثمانيات من القرن الماضي بعيدين بنصف قرن من الزمان عن اكتشاف البنسلين ، كما كانوا بعيدين ببضع حقب عن القبول العام للمصطلحات وانواع السلوك المستمدة من التحليل النفسي . ولا بد ان مصطلحات مثل « الانا العليا » و « التسامي » كانت سوف تسبب الحيرة في نفس هيرتزل ، بينما كانت تعبيرات مثل الـ « هو » و «الليبيدو» سوف تحتفظ بمعانيها اللاتينية اي : « هذا الشيء » و « الشهوة » .

ورغم ثبات اهمية اكتشافات فرويد ، فان اولئك الذين عاشوا قبل اكتشافها قد استمتعوا ببعض الميزات. فقد لاحظ السير «موريس بورا» (٤) ان عليه القوم في العصر الفيكتوري كانوا يستطيعون تحت ستار التعقل ان يمارسوا أفعالا شاذة دون ان يتعرضوا للحرج الذي يسببه جمهور مفتوح العينين . وقد كان هيرتزل صادقا دائما . وكان قد بلغ مبالغ الرجولة حين كانت القيود آخذة في الضعف ، ولكن قبل أن يتم تصنيف وتسمية كل رغبات الجسد . ومع ذلك فقد كشف الكثير عن نفسه وطبيعته الاساسية . ليس علانية طبعا . فانه ، مثل معظم الناس ، كان يظهر للعالم وجها ولاصدقائه المقربين ولنفسه وجها اخر . كانت الجامعة ترى الشاب المثقف الانيق الحازم الذي يثير اعجاب «ارثر شنتزلر» .ولكن يوميات تسجل فترة شبابه ترجع الى عام ١٨٨٢ ، بالاضافة الى مراسلاته الصريحة مع « هنريش كانا » والتي ترجع الى تاريخ اسبق ، تكشف عن متشائم دائم الشك في نفسه ، تتملكه رغبات دفينة . وبالنسبة لاولئك الذين يودون ان يروا هيرتزل كما كان حقيقة ،

★ نشر سيجموند فرويد ، الـذي كان يكبر هـيرتزل بخمسة اعـوام ، اول اعماله «Studien uber Hysteri» بالتعاون مع جوزيف بروير في عام ١٨٩٥ . ونشر اخر اعماله وهـو Moses and Monotheism عام ١٩٢٩ . ويرجع القبول العام لافكاره الى العشرينات من هذا القرن عندما ساهم بمقالة عامة عن التحليل النفسي في الطبعة الثالثة عشر من دائرة المعارف البريطانية . والطبعات السابقة على الحرب العالمية الاولى لا تذكر شيئا عن هذا العلم الجديد .

والذين يودون ان يكتشفوا مصادر معاناته وانجازاته اللاحقة ، فان الصراحة والكشف عن النفس في مراسلاته ويوميات شبابه تقدم انارة كاشفة (٥) .

ومع ذلك ، فان هذه الانارة الكاشفة لم تستخدم . فقد شب بعض اتباعه في زمن كان فيه من سوء السلوك ذكر مواضيع معينة . و « جاكوب دي هاس » الذي كتب تاريخ حياة هيرتزل في جزءين ، مثال على ذلك . فقد ولد في لندن عام ١٨٧٢ . واقصى حد يقترب فيه من تحليل تكوين هيرتزل العاطفي يوجد في فقرة يعرض فيها لهيرتزل كمؤلف مسرحي . ويدعــى « دي هاس » ان هيرتزل كان « يحتقر ارضية المشاكل الجنسية ويكــره البذاءة ، كما ان مسرحياته الهزلية ينقصها **ازدواج المعنى** الذي كان يجلب اعلى الضحكات في مسارح النمسا والمانيا . وكان ، وهو الفارس فــي مظهره ، لا يهتم بالنساء الى حد غريب . وقد ابعده ذهنه البورجوازي النظيف عن الدوائر البوهيمية التي كانت تموج بها مهنته . وكانت احاسيسه **السينتمنتالية** الالمانية تجاه الاماكن والاشياء ، والرقة الشديدة نحو الاطفال، ومجاملة النساء مهما كانت مراكزهن ، من مميزاته (٦) » . وكأنه كان يصف « بارسيفال » !

ولا يكشف المؤرخون اللاحقون سوى عن اشياء اكثر قليلا ، وذلك رغم العناية الشديدة التي احتفظ بها هيرتزل بآثار ماضية . فلا يقوم الاستاذ « الكس بين » ، والذي ولد بعد « دي هاس » بواحد وثلاثين عاما ، والذي شغل حتى عام ١٩٧١ منصب مدير الارشيف المركزي الصهيوني ، سوى بادخال بعض التحسينات على الصورة التي رسمها « دي هاس » . فهو يقول : « في حقيقة الامر ، فان هذا الرجل الذي خبر العالم كان يمتلك في اعمق اعماق قلبه من حساسية الروح ، والحماسة، والاخلاقيات ما لايسمح له ان يقتطف اية زهور تقدم نفسها الى حواسه » (٧) . وقد كان المحلل النفسي الامريكي بيتر لوينبرغ ، هو اول من انتبه الى مراسلات هيرتزل مع « كاتا » وفحص دلالات « يوميات الشباب » . ومن بين هذه الخطابات خطاب يبلغ من الاهمية الحد الذي يجب فيه نشره وتحليله بالكامل . ولا ترجع اهمية هذا الخطاب فقط الى انه ينسف الاساطير الورعة التي حاول بها عابدوا هيرتزل ان يدفنوه فيها ، بل وايضا الى دلالاته الخطيرة فيما يتعلق بتاريخه الطبي . وقد كتب هذا الخطاب ، المؤرخ في ٨ يونيو عام ١٨٨٠ ، من « فوسلاو » ، وهي حمامات استشفاء تبعد ١٩ ميلا عــن فيينــا :

« صديقي العزيز*

انا ادرس . كل يوم من ١٠ الى ١٥ صفحة من القانون الكنسي ، بالاضافة الى قدر كبير من اعمال « ارنت » . (كارل لونفيج ارنت [١٨٠٣ — ٧٨] كان تلميذا لسافيني واستاذا في فينا في عام ١٨٥٥) . وصلني خطابك العطوف . ولكنك مخطىء . فلم اكن في حاجة الى حقنة بـــل الى ...... ربطة (ربما كان الجزء الاول من الكلمة الذي حذفه هيرتــزل يعني « القضيب ») وعلي الان ان اضع نفسي في يد خبير في التغيير بسبب العقدة التي اصابت لساني . (لانه لم يجد الجراة على ان يتحدث في وضوح فان كل من « كانا » والحائكة قد اخطا فهمه) . لقد طرحت حقنة الـ .... جانبا ، وربما شفيت .... القادم عن طريق سلفات الزنك (ربما كانت الكلمة الناقصة هي Der Tripper وتعني « السيلان » باللغـــة الالمانية . وقد شاع استخدام سلفات الزنك كعلاج لسيلان القناة البولية في ذلك الوقت . انظر كتاب « نيومان » Lehrbuch der Venerischen Krankheitn und der Syphilis المنشور في فينا عام ١٨٨٨) وقـــد اوصيت احد متاجر الملابس النسائية الفاخرة أن تصنع غمدا من القماش لعضوي التناسلي ، مستعينا في ذلك بعدد من الاكاذيب الفاضحة التي لا اجد الحبر الكافي لكتابتها . ولحسن الحظ فان الحائكة كانت فتاة صغيرة في السابعة عشر من عمرها ، لم تكن لتعرف في مثل سنها هذا ، اية نتائج تجلبها تجربة حب تعسة ، غير افلاطونية طبعا . والحقيقة انها بذلت كل ما في وسعها كي ترضيني . ولكنها لم تنجح في ذلك تماما . فالغمد المشار اليه اضيق من أن يتسع لعضوي التناسلي . ولكني اسالك : كيف كان يمكنها أن تعرف ذلك وهي لا تزال في السابعة عشر ؟ وانا لا استطيع ان ادخله الغمد الا حين يكون هادئا تماما مثل مواطن مسالم . ولكن هذا امر نادر تماما . فهو، وهو النمساوي ــ الالماني الجرىء، يقلد بول شولز العظيم زميله في الهروب من المحاضرات (يبتكر هيرتزل كلمة Conschwanzo على نمط كلمة Commilito التي تعني رفيق السلاح . وتعني كلمة Schwanz بالعامية الالمانية عضو التناسل والهروب من المحاضرات ايضا . ولا بد ان شولز كان من القوميين الالمان المتطرفين في الجامعة وكان يعبر عن تحديه

★ العبارات التي بين قوسين شروح وتعليقات للمؤلف .

للسلطة بالتغيب عن المحاضرات) ويتمرد على قوانين غمدي . ولذا فقد اوصيتهم ان يصنعوا جيبا ثانيا لسروالي الداخلي . ولكن اكانييي هذه المرة قوبلت بشيء من عدم التصديق . اتراها قامت ببعض التحريات ، ام ان شكل السروال الغريب هو الذي اثار في نفسها الشكوك ؟ ففي سن السابعة عشر تروادك افكار غاية في الغرابة . وعلى اية حال ، فان هذا الجهاز الثاني به بعض العيوب ايضا . صحيح انني استطيع ان اجعل هذا المرشح لرتبة الفروسية يدلف الى غمده القطني ، ولكنه اما أن يشعر بضيق التنفس هناك ، او هو ينزلق الى الخارج . وهكذا ترى اي ورطة انتصاب اعانيها الان . (انتصاب القضيب من اعراض السيلان الجانبية) . ترى هل من الافضل ان اعفيه من قميصه الخشن ؟ حسنا ، ولكن لا تنس فيض الافرازات الذي يسيل . ما الذي يمكن أن تظنه الغسالة ؟ ربما احتقرتني . هل اغامر ؟ انا احييك .

المخلص

« ملحوظة : قل لروسو وفيشر اذا رايتهما انني سوف اكتب لهما قريبا » .

كتب هذا الخطاب قبل ان ينتهي هيرتزل من أول امتحان في القانون بسبعة اسابيع ، اي نحو نهاية اولى فترات حياته الدراسية . وهي الفترة التي كان فيها ، واقعا تحت تأثير شوبنهور ، يشك فيما اذا كانت الحياة لا تعدو ان تكون أرجوحة تتردد بين الامل واليأس ، واليأس فيها اكثر هاتين العاطفتين عقلانية. ونبرة الاستخفاف التي تبدو في خطاب هيرتزل لكانا سطحية تماما . فالقلق الذي تسببه الاصابة بهذا المرض مبرر تماما . وقد قرر البروفيسير « البرت ويدمان » مدير المستشفى الجامعي للامراض الجلدية في فينا ان الوسائل الطبية المتاحة في الوقت الذي اصيب فيه الامير رودولف بالمرض « نادرا ما كانت تؤدي الى الشفاء الكامل من مرض تناسلي بهذه الطبيعة (٨) » . واذا كان هيرتزل قد اصيب بالسيلان ، كما يوحي نص الخطاب ، فانه قد أصبح الان مصابا بعلة يمكن ، حتى حين تصبح مزمنة ، أن تكون مؤلمة . وهي علة تجعل من الزواج مخاطرة لان عدواها يمكن ان تنتقل بسهولة ، كما انها يمكن ان تسبب للنساء الاما اكثر حدة من تلك التي تسببها للرجال . وقد ابدت هيئتان مستقلتان ان الامر لم يكن على ما يرام فيما يتعلق بصحته . ففي عام ١٨٨٠ ، وهو نفس

العام الذي كتب فيه هذا الخطاب الهام ، تقدم طالبا التطوع لمدة عــام في الجيش النمساوي (كانت الخدمة العسكرية في المجر اجبارية بالنسبة للمجريين ، وكان هيرتزل لم يكتسب الجنسية النمساوية الا عام ١٨٨٥) . وفي عامه العشرين استدعي للمثول امام لجنة اللياقه للخدمة العسكرية في فينا . وقد رفضته اللجنة بوصفه « غير لائق للخدمة في الميدان في الوقت الحاضر » . وفيما بعد ، وفي نفس العام ، كرر طلبه ، ولكنه قدمه هــذه المرة الى اللواء ٦٣ في فينا . ومرة اخرى رفض بوصفه « غير لائق » . وقد تمسكت السلطات العسكرية بتحفظها المهني ولم تنشر تفاصيل اخــرى غير ذلك عن هذا الموضوع (٩) . ويكاد يكون اكثر الاسباب شيوعا لرفض المتقدمين للخدمة العسكرية هو الاصابة بلغط القلب . وعلى ضوء تاريخه الطبي اللاحق يبدو انه من الممكن ان يكون هذا هو سبب رفضه ، رغم انه لا يوجد ما يثبت اصابته بالحمى الروماتزمية (١٠) .

وبعد عامين ، كان هيرتزل في بست مقيما في فندق اوروبا . (كانت هذه احدى المناسبات التي ذهب فيها الى المجر للاحتفال بذكر وفاة بولين). وقد كتب في ٥ مارس الى « كانا » الذي كان يجتاز آنذاك امتحاناته النهائية في فينا ، عن الشجن الحلو الذي كان يثيره كل حجر من احجار الطريق : معروف جيدا وغريب رغم ذلك :

« هاهنا دفنت اختي بولين ، وكذلك دفن صباي ، وقد بكيت علــى شـاهدي كل من القبرين . ولكن عند ذاك اخذني الحاضر بين ذراعيــــه وقبلني . وقد اتخذ هذا الحاضر الغض الربيعي ، الهيئة الساحرة لبنت عمي الحبوبة الحلوة . وهي في السادسة عشرة من عمرها ، ومن الفتيات اللائي لا يراهن المرء سوى في احلامه . ولو كنت اكبر بأربعة اعوام لتزوجتها فــــورا ، ولو كنــت اصغر بأربعــة اعــوام لوقعت في غرامهــا .... علــى ايـــة حال فانه من العلامـــــات السيئـــــة انني احسست باصابعي تاكلني كانها تريد ان تنفجر في قصيدة . ولكنني قاومت . ولكن تصور فقط آنسة ساحرة دقيقة صغيرة ذات شعر بني وعيون زرقــاء وفم ساحر لم اقبله ، للاسف ، سوى مرة واحدة عندما وصلت الى هنا . وانا على استعداد لتقبيل كافة عماتي المسنات كل ليلة ، اذا كان ذلك يمنحني الحق في ان المس شفتيها بشفتي (١١) » .

ويوضح هذا الخطاب ان هيرتزل كان ، في ذلك الوقت فقيرا (فقــد طلب من كانا ان يسترد رهنا له) وانه كان يدرك في مرارة ان ابنة عمه الجميلة سوف تتزوج « يهوديا مختارا يمتلك دخلا محترما » .

وفي شهر اغسطس من العام التالي كان يقيم في « بادن » وهي حمامات للاستشفاء تبعد ١٦ ميلا عن فينا وبها ١٥ ينبوعا كبريتيا تستخدم لعلاج امراض المثانة . وعلى ورق للكتابة طبع في أعلاه اسم « تيودور هيرتزل » كتب الى كانا ناعتا اياه بعزيزي الشاب قائلا :

« حدث البارحة سوء تفاهم جدير بكوميديا هائلة . كنت في فوسلاو . وهناك لعبت «فراو اديت» واختها الجميلة «كلارا» لعبة من لعب السيداتمع يهودي ضئيل رث هو في نفس الوقت كاتب هام ، واسمه جوزيف ر. اهرلخ . وهذا الرجل ، الذي قابلته البارحة للمرة الاولى ، شخصية مثيرة للاهتمام للغاية ، ولا يفهمه الا عدد ضئيل من الناس ... وكانت السيدتان تعاملانه باحتقار يبدو واضحا على الفور للشخص العادي . ولكنه ليس شخصا عاديا ، بل هو عبقري : محدود وسريع البديهة ، سخيف ورائع. وهو لا ينقصه سوى موهبة الشعر كي يكون شاعرا عظيما . ولا اريد ان اواصل هذه المقابلات رغم ثقتي انك ستوافقني لو رأيته . واعتقد انه يستطيع ان يفهم اكثر الظلال دقة وانه كريم . ومع ذلك فهو يفخر بأنه عثر على ست قروش (Zehnerl في الاصل) وانه اعطاها للنادل بدلا من ان يحتفظ بها . ولا شك انه ، في احلام يقظته ، يقابل آنهسات الشباب والجمال ، ورغم ذلك فانه يقول لهاتين السيدتين اللتين لا يكاد يعرفهما واللتين ينظر اليهما باحترام باعتبارهما نموذجين للتميز الارستقراطي — واللتين تنظران اليه باعتباره يهوديا بولنديا فقيرا — يقول لهما انه يتعشى بشريحة من لحم البقر وربع زجاجة من النبيذ . وان شريحة لحم البقر هذه تهز مشاعره ! وكان العشاء بالنسبة اليه ترف غير عادي » .

« اما بالنسبة لسوء الفهم ، فان فراولين كلارا قدمت نفسها باعتبارها كلارا فون ريترهاوزن زوجة لضابط برتبة ماجور ، وقدمتني باعتباري البارون فون ريتر هاوزن ، وقدمت اختها «ادليتز» باعتبارها اختها غير المتزوجة . وقد بلغ الاكذوبة بالطبع . وقد كان الامر يشبه اختطاف قطعة حلوى من صبي . اما انا فقد اثنيت على مسرحيته الرائعة . وقد بدا ساذجا بشكل لا يمكن ان يصدق . (وانا اعفيك من **الكليشيهات**) . ولكني قلت له فقط ان كالتو يجب ان يستقيل في النهاية كتعبير عن الحكمة الفائقة . ولكنه اجاب ان التاريخ يطلب ان ينتهي بالطريقة التي كتب بها . ومن الواضح انه لم يسمع ابدا بامكانيات الرخصة الشعرية (١٢) .

وقد دفعت هذه الفكاهة السخيفة هيرتزل الى ان يفكر في

استخدام قناع البارون فون ريترهاوزن بنفس الطريقة التي كان يتنكر بها الخليفة في « الف ليلة وليلة » في زي مواطن بسيط . وكان هيرتزل في ذلك مدفوعا الى حد ما بولعه بالالقاب الالمانية ، ولكن التخفي كان مفيدا للاذواق الشهوانية ، التي وان لم تكن في مثل خطورة اذواق معاصرة اوسكار وايلد، فانها كان يمكن ان تؤدي بالرغم من ذلك الى سوء الفهم . ولقد كان في الثانية والعشرين من عمره حين وقع في غرام ابنة عمه الفتاة ذات الست عشر ربيعا . وقد بقي هذا الولع بالفتيات الاصغر منه بكثير معه حتى بعد ان تقدم في السن . وقد كان يحتفظ في علاقاته داخل نطاق طبقته بالمستوى الافلاطوني بشكل اقل او اكثر . وهو يصف في عامه الاخير كطالب مقابلة اخرى مع فتاة قابلها في سهرة (١٣) . فقد ادت قبلة على الكتف « حيث كانت ثقوب الدانتيلا تكشف بشكل مثير عن عنق وذراع ناصعتا البياض — ادت الى :

« صفعة قوية . ودلتني نظرة الى المرآة الى انني لا استطيع ان اواجه الناس بخد واحد احمر . وهكذا ، ولكن اعيد التوازن ، غامـــرت باختطاف قبلة اخرى . ولم يكن ذلك من اجل التوازن فقط ، فقد كان مذاق بشرة الفتاة الوردية الناصعة البياض ملوكيا . وادت صفعة اخرى الى ان يصبح وجهي كله احمرا ، بينما كانت النغمات الراقصة في الحجرة المجاورة تهيء الخلفية الموسيقية تساعدها رنين الضحكات وضجة ما بعد العشاء المعتادة . اما بالنسبة الينا ، فقد كانت الجريمة والعقاب يتبادلان . كنت المجرم ، وكانت هي المنتقمة، وبالتدريج وجدنا لذة ايقاعية في تبادل الصفعات والقبل . ولكن الامور تطورت على نحو غريب : فقد اصبحت الصفعات اكثر ضعفا والقبلات اكثر عنفا . ثم ، بعد ذلك، القت حسنائي بنفسها على مقعد هزاز بينما وقفت انا ممسكا بارجله المستديرة في يدي . ولكنها كانت تود ان تتأرجح . ولما كنت اقف قريبا جدا بحيث كنت اعوقها عن ان تفعل ذلك ، فقد وضعت فجاة تدميها الدقيقتين على فخذي المرتعشتين واخذت تدفع وتدفع .... ايمكنك ان تتصور ذلك يا صديقي ؟ هل يمكنك ان تحس بذلك ؟ القدمان الصغيران في حذائهما الحريري الازرق ، والجلد الناعم على السروال الاسود لسيد ليس عنينا تماما . يا الهي ! هل قلت لك ابدا انني احب النساء اللائي يركلنني ؟ لا بد طبعا ان يكون لهن مثل هاتين القدمـــين اللتان ركلتاني ليلة البارحة » .

ولم يضعف حبه للفتيات الصغيرات ولكن فارق السن كان يتزايد .

وفي المرة التالية التي وقع فيها في الحب بشكل جدي ، كان في السادسة والعشرين من عمره ، بينما كانت الفتاة ، ماجدا ، في الثالثة عشرة من عمرها . (وهو يقول لنا انه ، في الفترة ما بين الغرامين ، كان قد اصبح فظا غليظا ، وان قلبه ، الذي يحب الحب جدا ، قد اصبح باردا ابكم) وفي اوائل شهر يناير عام ١٨٨٦ ، كان يتطلع في شغف الى حفلة راقصة للاطفال كي تتاح له فرصة رؤية ماجدا . وهو يقول في يومياته وليس في خطاب الى «كانا» (١٤) : «اتجهت اليها ممتلئا بالشوق . كانت سيدة صغيرة وكبيرة وجميلة ... كانت حلوة جدا . وتظاهرت بأني اقبلها . ولم يكن هناك سوى رأسها الصغير الاشقر هذا فقط ، ملتفتا الى الناحية الاخرى . ولم أقبلها . ثم تقدمت مستندة الى ذراعي ، كملكة صغيرة واخذت اخاطبها بألفاظ التفخيم ، وكانت هي تفعل نفس الشيء .... » ويدرك انه يجعل من نفسه موضعا للسخرية ، وان غرامه يمكن ان يكون ملحوظا . ولكن الغيرة تمزقه عندما يرى الفتاة « ورداءها الصغير لم يزل قصيرا وجسدها الحلو لم ينضج بعد » يسألها غلمان في مثل سنها ان تراقصهم ، ويراها ، وهي « المفناج التي لم تنضج بعد » توافق . وردا على ذلك « اردت ان اجعلها تحس بالغيرة فأخذت اغازل اكثر السيدات الناضجات جمالا » . وتذكرنا هذه الحوادث ببطل نابوكوف « همبرت همبرت » ، كما تذكرنا غمزة ماجدا الماكرة ، عندما جرؤ اخيرا على مراقصتها ، بلوليتا . وفي كلتا الحالتين ، نرى شخصا اخر يجلس بالداخل يراقب ويزن الامور . وفي رقصة « الكودريبل » ، هناك ما يسمى باختيار السيدات واختيار السادة . و « تظاهرت المفناج الحلوة بأنها سوف تندفع نحوي . ثم في منتصف الطريق ، توقفت فجأة ، ورقصت مع فتاة صغيرة » . وهو يستخرج من ذلك نتيجة مريرة : عندما تكبر سوف تفعل نفس الشيء — ولكن فقط مع رجل اخر . « بعد اربعة اعوام سوف تعاملني كما تحب تماما . ولن تحبني ابدا . فان جنسها لا يحب سوى مضاربي البورصة الاثرياء ذوي الفظاظة — وهم قبيلة بذيئة ، ولكنهم يحصلون على افضل النساء » .

ويعود الى منزله كي يظل مستيقظا ، وينتابه الاغراء بأن يذهب الى ملعب الانزلاق حيث تمارس الفتاة هذه الرياضة .

وبعد ثلاث ايام يفعل ذلك .

« لم اذهب الى العمل اليوم بعد الظهيرة . واتجهت رأسا الى ملعب الانزلاق حيث كنت اعرف انني سوف اجد صغيرتي الحلوة السماوية .

وهناك وقفت مثل رجل عجوز على حافة الجليد احدق في الشبان والشابات ذوي الوجنات الوردية وهم ينزلقون امامي . وراتني ، ولكنها اندفعت واختفت في الجمع . وظل نصف ساعة يحدق في الجمع السريع الحركة . تمزقه الغيرة وهو يرى ماجدا تدور مع شاب في الخامسة عشر من عمره . ويذكره الاثنان «ببيراموس» و «ثيسبي» او بـ «تيودور» بودابست ومادلين. ويصيح : « فراولين ماجدا » حين تقترب منه . وتنحني الفتاة وتبتسم له ابتسامة بعيدة . وبعد ساعتان ، تكون قد أكتفت وتأخذ في حل قبقابها . « اغلقت الممر الضيق . وراتني من على بعد ، وترددت لحظة ، ثم اتت نحوي في عزم ناوية ان تمر . ورجوتها ان تكون عطوفة . ووعدتها ان لا اناديها بـ Du ، بل بـ « فروالين » (آنسة) فقط . وهزت راسها متهكمة على حلفنا وتركتني واقفا » .

ورغم ان حادثة ماجدا قد حدثت بعد فترة من انتهاء هيرتزل من دراسته ، فانها تظهر أضطراد اهتمامه بفتيات آصغر منه سنا بكثير ، كما انها تصور مشاكله العاطفية . فمن ناحية ، وبشكل جزئي ، كان به كل ما ادعى عابدوه انه كان : مجاملا ، سنتمنتاليا وصعب الارضاء . ولكن جسده ايضا كان نشطا نشاطا فائقا كما يدل على ذلك القدر الكبير من الكتابات التي انتجها وهو تلميذ وطالب ومناقشاته الحيوية في المقهى والجمعية الطلابية . وكان هذا النشاط وهذه الحيوية يتطلبان تعبيرا ماديا. وكانت فينا مدينة كبيرة ومزدحمة بالمقارنة ببودابست . وعلى الرغم من ذلك فان هذا الطالب ذو الطلعة الوسيمة كان يتحرك في دوائر محدودة لا تتعدى الاقارب وزملاء والده في العمل واليهود الاخرون . وكان يمكن ان تؤدي محاولات ترجمة العواطف الى افعال الى نتائج مدمرة . وكان طموحه اقوى من شهواته ، كما ان تعقله كان يدين بالكثير لانتماءه الى اقلية . ولكن الحصول على واحدة من تلك الفتيات لنفسه بدا ، في ايام طلبه للعلم ، امرا خارج نطاق آماله . وعندما كان في الثانية والعشرين من عمره وغرامه ببنت عمه يلهب بجوانحه ، كتب في بطاقة بريدية يقول : « تصور فقط لو انني فزت بالجائزة الاولى لكنت شخصا مهما وربما استطعت ان اتزوجها » . ونفس الشيء مع ماجدا : « انا في حاجة لنجاح خارجي ... الى عش لهذا الطائر الذهبي » . ولكن بعد وضعها في القفص ، الى متى يمكن آن تظل هذه المغناجة ذات زغب ؟ « عندما يتم نضجها ، ربما اصبحت مجرد ابنة صالحة للزواج » . كان قد تنبأ بخيانات

ماجدا ، وكان يستطيع ايضا ان يتنبأ باختفاء نحافة الشباب .

فقط اذا استعاد صحته ، وفقط اذا اصبح ناجحا ، يستطيع ان يأمل في الزواج . وخلال فترة الانتقال الطويلة هذه ، كان يعرف بالتجربة مدى خطورة ممارسة ما اسماه جيمس بوزويل (الذي عانى من قبله) (١٥) بفكاهة القرن الثامن عشر بـ « النكاح » (Venery) . وهكذا كان على جسده القوي أن يجد مسارب اخرى . وتظهر مراسلاته مع « كانا » احد تلك المسارب . فهيرتزل يزهو (مثل بوزويل مرة اخرى قبله) بحجم وقوة انتصاب « فارسه الشاب » . وهذه الرغبة في اثارة اعجاب صديق من الذكور تبين أن جذور اناقة هيرتزل كانت ترتوي من مياه النرجسية . واذا كانت التجارب العاطفية الخاصة ممنوعة) وما هو خطر بالنسبة لطالب يصبح مدمرا بالنسبة لاستاذ القانون) فان العواطف العلنية لجمهور من المستمعين لا بد أن تحل محلها . وهكذا اصبحت الرغبة في ان يصبح كاتبا وضرورة ان يحرز الشهرة ملحة وواضحة . والحاجة الاولى بالنسبة للكاتب هي ان يقرأ ، ويقرأ بشراهة . وفي الكتب التي تحول اليها وجد امامه المشاكل التي بدأت تهز فيينــا .

الفصل التاسع

احتفل تيودور بعيد ميلاده الواحد والعشرين في ٢ مايو عام ١٨٨١ . والانتقال الى الرجولة يمكن ان يكون امرا مقلقا . وفي حالة هيرتزل ، كانت هناك عوامل اخرى ، بجانب الانتقال الى مرحلة الرجولة ، تلقي بظلها . فقبل شهرين حلت اكاديمية غرفة القراءة . وكانت قد وقعت ضحية لخطبة عنيفة القاها فون شونرر . وكان بطل القوميين الالمان هذا قد اتهم هذه الجمعية بأنها مكان يتم فيها تسميم الشباب بالافكار الليبرالية .

ومجرد حقيقة ان الليبرالية قد اصبحت اهانة ، تظهر التغير الشبيه بالزلزال الذي حدث منذ ١٨٧٨ ، وهو العام الذي هاجر فيه هيرتزل مع والديه الى فينا . ولم تعد الحكومة الليبرالية التي ارسلت ممثليها الى مؤتمر برلين هي التي تحكم . وقد كانت هناك عوامل كثير وراء سقوطها . فبينما كانت الفضائح المالية تملأ صفحات الجرائد ، كان غضب العمال يتزايد بسبب ظروفهم المعيشية البشعة . كما ان اتجاه الليبراليين المصبوغ بالثقافة الالمانية اثار استياء السلاف الصخابين . وفي برلمان عام ١٨٧٩ الجديد ، وجد الليبراليون وحلفاؤهم الراديكاليون انفسهم اقلية . واستطاع رئيس الوزراء الجديد الذي لا لون له ان يبقى في السلطة بفضل اليمين الكنسي الكهنوتي الذي فقد تأييد الالمان ولكنه احتفظ بسلطته بفضل تحالف انتهازي مع اكثر من ١٠٠ نائب بولندي وتشيكي . وكان اليمين مشغولا حتى اذنيه بمشكلة ذات جاذبية شعبية محدودة هي اعادة سلطة الكنيسة على المدارس . وكذلك كانت مطالبة السلاف باعتراف اكبر بالحقوق القومية واللغوية للاقليات يحظى بشعبية اقل بين اولئك الذين كانوا (مثل هيرتزل)

يشعرون انهم المان .

وقد اعطى سقوط الليبرالية « شونرر » منبرا يستطيع منه ، باسم القومية الالمانية ، ان يهاجم تطبي دولة الهابسبورغ الجديدة . فقد هاجم الكنيسةِ لتأييدها للنظام الامبراطوري ، وهاجم الاولجاركية التي كانت تمثل مصالح راس المال بتهمة كبت الديمقراطية . وكان يمكن للكثير من اليهود ذوو الصبغة الالمانية ان يشاركوا اخوانهم من البروتستانت والكاثوليك تصفيقهم . ولكن لاول مرة يقدم احد سياسي فينا تفسيرا محزنا للـ Deutschtum . فقد زعم فون شونرر ان اليهود هم اعداء كل من الحقوق القومية الالمانية ومصالح العمال . وبعد خطبة قابل فيها بين مصالح ملاك الاراضي والعمال المنتجين من جانب و « المصالح المميزة حتى الان لراس المال المتحرك والسيطرة السامية على المال والكلمة » من جانب اخر ، اسس اتباعه في فينا اول جمعية معادية صراحة للسامية هي « جمعية الدفاع عن الصانع الحرفي (١) » . ولم يخاطب فون شونرر الطبقة الادنى في المجتمع الالماني (وقد كان هذا مبعث شكوى هتلر فيما بعد ، على الرغم من احترامه له) . ولكنه من المحتمل انه كان يعرف كيف يمارس الديماجوجية جيدا . فقد كان يخاطب اولئك الذين يشعرون بأنهم موضع التهديد اكثر من غيرهم . وقد عبر كاردينال معادي عن مشاعر المتحدثين بالالمانية ، وخاصة اهل الريف ، عندما اكد ان نظام آل الهابسبورغ يقدم المنزلة لليهود دون ان يطالبهم بالقومية ، وانهم قد اصبحوا الشعب المتفوق في الدولة المتعددة القوميات ، وانهم ، في الواقع ، هم الشعب الوحيد الذي ارتدى احذية الاورستقراطية الاولى » . وبينما اصبح البارون اليهودي الموضوع الرئيسي لسخرية الكاريكاتير السياسي (٢) ، كانت الطبقات المتوسطة الدنيا تحسد اليهود لنجاحهم في ميداني الصناعة والتجارة .

وقد عرف اليهود تقلبات الحظ منذ اقدم العصور . ولكن في الماضي الاكثر قربا ، عندما كان اليهود يعانون النكسات تحت ظل امبراطورية الهابسبورغ — مثل الغاء تحررهم الرسمي بعد الثورة المجرية — فانهم كانوا يدخلون العزاء على انفسهم بالنظر شمالا . فقد كانت بروسيا ، نواة الامبراطورية الالمانية ، تؤيد منح الحقوق الدستورية للدول الاعضاء في الاتحاد الالماني منذ عام ١٨١٥ . وقد كان دستور بروسيا لعام ١٨٥٠ ، والموضوع على نهج الدستور البلجيكي ، يحمي مبدأ المساواة امام القانون ، وحريات الافراد وحرية التنظيمات الدينية . كما ان البحث العلمي لم تكن

تعوقه السيطرة الدينية (٣) . وقد اوضح بسمارك ، الذي كانت بروسيا تتجسد فيه ، موقفه في مؤتمر برلين . فقد قال الامير جورشاكوف الروسي انه بينما كان من الطبيعي ان يستمتع اليهود في فرنسا وانكلترا والمانيا والنمسا بالمساواة فذلك لان هؤلاء اليهود الغربيون يختلفون عن يهود الصرب ورومانيا وروسيا الذين وصفهم بأنهم « وباء الشعوب الوطنية » .
وقد رد عليه بسمارك ، الذي كان يرأس المؤتمر ، قائلا : ربما كان هذا صحيحا ، ولكن طبيعة اليهود الشرقيين قد خلقتها ظروفهم ، وان حالة اليهود المؤسفة يمكن ارجاعها الى تضييق حقوقهم المدنية والسياسية (٤) .
ومع هذا فقد انتجت نفس الدوافع في برلين حالات مماثلة لتلك الموجودة في فينا . فقد ايد اليهود الالمان ضد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية . وقد ادى هذا حتميا الى معاداة الكثير من الكاثوليك لليهود . فعندما طالبت جريدة يملكها يهودي عام ١٨٧٩ « بجبهة ضد روما » ، ردت عليها جريدة كاثوليكية مطالبة « بجبهة ضد القدس الجديدة* (٥) .

ولم تكن مثل هذه الهجمات محصورة في الكاثوليك الذين اغضبهم تأييد اليهود لسياسة بسمارك المعادية للكنيسة ، فقد كان ايوجين دهرنغ Duhring مثقفا معروفا بعداءه لكل اشكال الدين ، وكان يستمتع بصيت ذائع بين الطلاب لا يعادله سوى ذلك الذي استمتع به سارتر و «ماركوزا» في القرن التالي . وقد نشر — وهو الاعمى المشاكس المتعجرف — كتابا تحت عنوان : « المسألة اليهودية كمسألة جنس واخلاق وحضارة » .
والعنوان يكشف عن موضوع الكتاب : فقد قرر دهرنغ أن اليهود (الذين هوجموا في الماضي بسبب معتقداتهم) كانوا خطرين ، في حقيقة الامر ، بسبب الدماء التي تسري في عروقهم . وحيث ان معتقدات المرء لا تؤثر في جنسه ، فان تغيير الدين او المذهب لا يقدم حلا . ولذا فان التعايش بين الالمان وهذا العدو الجنسي امر مستحيل ، كما ان التحرير كان غلطة

★ « لقد فتح الشعب الالماني اخيرا عيونه . وهو يرى ان الكفاح الثقافي الالماني الحقيقي والمعركة الحقيقية من اجل الحضارة ، هي المعركة ضد سيطرة الروح اليهودية والمال اليهودي . وفي كل الحركات السياسية ، كان اليهود هم الذين يلعبون الدور الاكثر ثورية وراديكالية ، ويشنون الحرب حتى النهاية ضد كل ما بقي مما هو شرعي وتاريخي ومسيحي في حياة الشعوب القومية » — جريدة Germania — ١٠ سبتمبر عام ١٨٧٩ .

مدمرة . وقد طبع كتاب دهرنغ خمس طبعات خلال العشرون عاماً التالية . وقد تردد صداه ، ليس فقط في كتيبات لا حصر لها ، بل ايضا لدى « صوت الانسانية » أدولف ستوكر واعظ البلاط الذي كانت اشتراكيته المسيحية تستمد اصولها مباشرة من نظريات صاغها كاثوليك روما ، وبشكل غير مباشر من تعاليم فرديناند لاسال الذي كان — وهو الامر الذي يدعو الى السخرية — يهوديا . وقد كان ستوكر عضوا في الديت (البرلمان) البروسي حيث كان يصوت مع المحافظين . وقد كان الديت مكانا صالحاً للغاية يمكن منه نشر مثل هذه الاراء العدوانية .

وقد قاوم القادة الالمان هذا التيار المعادي للساميه . وادان ولي العهد وزوجته (ابنة الملكة فيكتوريا ووالدة القيصر فلهلم الثاني) التيار المعادي للساميه باعتباره عارا على المانيا . بينما قام قادة المفكرين — ومن بينهم المؤرخ مومسن — بالتوقيع على بيان يدين هذه الحركة باعتبارها ضارة بالمانيا كما انها ظالمة لليهود . ولكن الذي وضع حداً لما كان يبدو تيارا قويا من تيارات الفكر — لم ينتعش في المانيا الا في العام الذي تلا وفاة هيرتزل — كان مشهدا يثبت ما يمكن ان تؤدي اليه مثل هذه الافكار اذا سمح لهما ان تؤثر في عقول البسطاء . وقدم بلدان ، على الحدود غير النامية لاوروبا الراسمالية (روسيا اولا ، ثم المجر بعد ذلك) امثلة للاضطهاد المعادي للساميه اثارت الغضب والحنق في اوروبا الغربية وامريكا على حد سواء .

وفي نفس ربيع عام ١٨٨١ ،الذي اغلق فيه أكاديمية غرفة قراءة فيينا فتح فيه في روسيا كارنفال من التعصب الديني لم تشهده اوروبا منذ ايام الموت الاسود . وانضم القوميون السلاف ، الذين كانوا يرون اليهود اغرابا ، الى اولئك الذين كانوا يرونهم منافسين في ميدان المال والتجارة ، وتلاحمت العقول التي كانت تستمد افكارها من المانيا مع تلك التي كانت الخرافات لا تزال تملؤها . وتحولت مشاجرة في حانة في اليزابثجراد الى مظاهرة معادية لليهود حرقت فيها منازل ودور عبادة اليهود وقتل الرجال واغتصبت النساء . ودخلت كلمة جديدة هي Pogrom (مذبحه) في القاموس الشعبي . ولكن ليس كل من كانوا خارج روسيا اداتوا ما كانت تمثله هذه المذبحه .

ففي براغ ، التي كانت عندئذ مدينة صغيرة من مدن امبراطورية النمسا والمجر ، ابتكر استاذ كاثوليكي للعبرية هو الدكتور اوجست روهلنج ، عود ثقاب ذاتي الاشتعال كي يحرق اشجار غابات آل الهابسبورج الخلفيه .

فقد صرح علانية بأن التلمود يتطلب من اليهود أن يعملوا على دمار المسيحيين ، واعلن ضمنا رضاه عن الـ Pogroms بوصفها من اعمال الدفاع عن النفس . وقد ادى احد ملامح هجومه سريعا الى وقوع مأساة. فبحكم كونه خبيرا في العبرية والشئون اليهودية ، عرض ان يشهد ، بعد ان يقسم اليمين ، أن قتل المسيحيين لاغراض طقوسية يكون قسما سريا في النظام الديني اليهودي . وقد كان لهذه التهمة ، التي تبلغ مدى صحتها مدى صحة اسطورة دراكيولا ، جذور في انكلترا في القرن الثاني عشر . فبعد عيد الفصح في عام ١١٤٤ مباشرة ، عثر على جثة غلام مشوهة في غابة بالقرب من « نوريج » ، وهي مدينة كانت بها جالية يهودية ثرية وكاتدرائية جديدة . وبدلا من البحث عن ممووس جنسي (لم يكن لمعتقداته الدينية ان تكون ذات دلالة بالنسبة الى الجريمة) فقد اتهمت الجماهير المؤمنة بالخرافات اليهود بقتل الغلام استهزاءا بتضحية السيد المسيح .

وربما كان الذي وضع هذه الفكرة في رؤوسهم هم الرهبان الذين كانوا في حاجة الى قديس حارس للكاتدرائية حيث ان مؤسسها « لوسينجا » لم يكن قد تم رفعه الى درجة القديسين . وتردد صدى هذا الاتهام في مدن انكليزية اخرى.وبعد قرن من الزمان،انحنى ادوارد الاول للارادة الشعبية وطرد جميع اليهود من مملكته . ولكن هذا النجاح اضر بميزانية كاتدرائية نورويج . واخذ قبر القديس الشعبي « سانت وليام » يجتذب عددا اقل فاقل من الحجاج عاما بعد عام مع انكماش اليهود الى شخصيات فلكلورية . وكان يمكن عد ايراد الضريح السنوي بالبنسات في عصر الاصلاح . وقد قوبلت محاولة روهلنج لاحياء هذه الاسطورة في عصر داروين بالتفنيد من جانب العلماء المسيحيين واليهود على حد سواء* . وقد كان هذا التشهير ، على اية

---

* ومع ذلك فقد كانت هناك اتهامات مماثلة لاتهامات روهلنج في روما نفسها . فقد نشر « جيوسبي اوريجلياسان ستفانو » عددا من المقالات تتناول نفس الموضوع في جريدة La Civilta Cattolica في الفترة ما بين فبراير ١٨٨١ وديسمبر ١٨٨٢ . وقد كاتب في العدد الصادر في ٢٠ اغسطس ١٨٨١ يقول : « ان ممارسة قتل الاطفال في الاعياد اصبح امرا نادرا جدا في الاجزاء الاكثر تحضرا في اوروبا . ولكنها اكثر شيوعا في اوروبا الشرقية ، وشائعة ، بل شائعة الى حد بعيد في الشرق . وذلك لان اليهود في الغرب لديهم الان اشياء اخرى يفكرون فيها غير مزج خبزهم غير المختمر بدماء المسيحيين ، فهم مشغولون بممارسة الحكم مثل الملوك في دوائر المال والصحافة ... » .

حال ، في طريقه الى الاندثار . وكان على مجـــانين التعصب في القرن العشرين ان يتسلحوا بتهم جديدة لا علاقة لها بهذه الاسطورة . ومع ذلك فقد اثبتت دعاية روهلنج ان اية فكرة ، مهما كانت طفولية ، يمكن ان تستخدم كلغم ارضي ينفجر في اي احد . ففي شهر ابريل التالي ، عندما اختفت فتاة من قرية « تزا اسزلار » في المجر ، تذكر الناس رؤيا الاستاذ الدكتور واتهموا فورا اليهود بالاعداد لاستخدام دم الفتاة في احد اعيادهم . وزج بعدد كبير من اليهود في السجن ، بينما دفع صبي صغير ، في محاكمة تاريخية ، ان يدلي بشهادة ضد والده* .

ولا يبدو ان موجات الصدام تلك الاتية من روسيا ، والتي دفعـت « اما لازاروس » في نيويورك من برجه العاجي الى الشعر الملتزم** ، كان لها ادنى تاثير على هيرتزل . على الاقل ليس في فينا ، وليس في عـام ١٨٨١ . وبدلا من ذلك نرى مثالياته الفروسية تدفعه ، تحت تأثير صديقه غير اليهودي فرانز ستايرك ، الى ان يتقدم الى عضوية جمعية «البيا»Albiz وهي جمعية طلابية للمبارزة . واصبحت هذه الجمعية بديلا عن اكاديمية غرفة القراءة التي قضى فيها معظـــم الايـــــام الاولـــــى مـــن دراستـــــه . وكــــانت جـــــذور جمعيـــــات المبــــــارزة هذه تمتد الى الحروب النابوليونية ، وكان تاريخها يعكس تطور الوطنيـــة الالمانية . وكانت — وقد كانت معادية لفرنسا ايام نابليون ، ومعاديـــة لترنيخ ايام حكم هذا السياسي الرجعي — تؤيد الليبرالية في البدايـــة ثم اخذت بعد ذلك تؤيد القومية الالمانية . وفي النمسا ، اخذت هذه الجمعيات تزداد قوة مع كل هزيمة يصاب بها نظام آل الهابسبورج . وكانت تتجسد

وفي ٤ مارس ١٨٨٢ ، اعلن هذا القسيس : « يضطر كل يهودي متدين حتى وقتنا هذا ان يستخدم في طعامه وشرابه وطهوره وطقوسه الدينية والمدنية الاخرى الدم الطازج او الجاف لطفل مسيحي وذلك حتى لا يخالف قوانين دينه ولكي لا ينظر اليه بوصفه يهوديا سيئا من جانب معارفه » . ولا يبدو ان الكاتب ، الذي كان قسم الجزويت يلزمه بطاعة البابا ، لقي ادنى معارضة من جانب البابا « ليو » الثالث عشر .

★ وقد كشفت المحاكمة التي عقدت في « نيراجهازا » في الفترة من ١٩ يونيو الى ٣ أغسطس ١٨٨٢ في النهاية هذا الشكل من اشكال معاداة السامية في المجر . واستطاع الدفاع البارع ان يكشف المؤامرة ، واضطر المدعي العام ان يسحب الاتهام ، واصدر القضاة الاربعة ، وكان من بينهم قاض معاد للسامية ، حكما ببراءة المتهمين .

★★ كتبت اما لازاروس (١٨٤٩ — ١٨٨٧) القصيدة التي حفرت فيما بعد على تمثال الحرية ، عقب سماعه بمعاناة اليهود في روسيا القيصرية .

فيها نوع القومية الذي كثيرا ما كان يرى في الوحدة مع المانيا طريق الخلاص . ويجب التفرقة بين هذا النوع من جمعيات المبارزة وبين الجمعيات الاخرى التي تسمى بالـ Korps ، وهي نوع اخر من التنظيمات الطلابية كانت الحكومة تدعمه لعدم اهتمامه بالسياسة ولانصرافه التام الى المبارزة . وكانت هذه الجمعيات تضم اليهود في البداية ، ثم اخذت ، في الفترة التي انضم فيها هيرتزل الى الالبيا لا تقبلهم . وكانت « البيا » واحدة من بين ثمان جمعيات محافظة من هذا النوع . وقد تأسست «البيا» عام ١٨٧٠ تحت اسم « ليبنسيا » ثم غيرت اسمها الى « البيا » عام ١٨٧٣ . وفي عام ١٨٧٧ ، اتحدت مع جمعية « جوثيا » (التي تأسست عام ١٨٧٤) . وكانت الالوان الاسود والاحمر والذهبي هي الوان القومية الالمانية في مقابل الالوان الاسود والاصفر النمساوية .

وكان الانضمام الى « البيا » يلزم هيرتزل ببرنامج مرهق . فقد كان عليه ان يجرع البيرة مع الطلاب الاخرين ، وان يشاركهم في غناء الاغاني التقليدية البذيئة ، وان يكتب المقالات لجريدتهم ، وان يخصص ايضا اربع ساعات يوميا لممارسة المبارزة التي كانت هي النشاط الاساسي للجمعية . ولما كان لم يتعلم اللعب بالسيف في بودابست ، فقد اضطر الى اخذ دروس خصوصية على يد استاذ في المبارزة .

وللوهلة الاولى نجد انه من المحير ان نرى الرئيس السابق لجمعية «نحن» Wir ونجم اكاديمية غرفة القراءة يمارس نشاطا لا يجد مؤيدا له سوى بين صفوف القوميين الالمان المتطرفين والمعادين للسامية . (وقد كانت الكنيسة تهاجم باطراد هذا النوع من النشاط لاسباب تعد وجيهة تماما بالنسبة للمتدينين من اليهود ايضا) كذلك فانه من المعتاد بالنسبة للشباب ان يتطوروا من النشاطات البدنية الى العقلية لا العكس . وبعد ان تقدم هيرتزل في العمر وصف ارتداءه لقبعة الجمعية بأنها احدى حماقات الشباب (٦) . ولكن دوافعه للانضمام الى « البيا » كانت تنبثق من بواعث كانت دائما ذات سلطان على طبيعته . فقد كانت قبعته المستديرة الزرقاء ، التي كان يرتديها على مقدمة راسه بزاوية مرحة ، تثبت قبوله من جانب النخبة في الجامعة . ومثل الكثير من جمعيات النخبة هذه ، فان عضوية جمعيات المبارزة كان لها صفات متعارضة . فهي من جانب تمثل الشجاعة والسيطرة الارستقراطية على الاعصاب . (قبلت « البيا » وحدها ٧٥ تحديا للمبارزة في عام ١٨٨١ (٧) ومن الجانب الاخر ، كانت هذه الجمعيات تفقد رشدها في عنف

جنوني وتصبح القوات الضاربة للسياسيين المتطرفين . وقد كتب ستيفان زفايج يقول : «ثملين ومفعمين بالقسوة ، كان اعضاء جمعيات المبارز يهاجمون الطلبة من اليهود احيانا ، واحيانا من الايطاليين ، واحيانا من السلاف » . وكان بعض اليهود الذين بقوا اعضاء يصوتون في عجرفة حريصة ضد زيادة نسبة الاعضاء اليهود . ولكن دوافع هيرتزل للانضمام كانت تختلف عن دوافعهم . فالى جانب الانضمام الى نخبة الطلاب هذه ، كان يأمل ، عن طريق ان يسلك سلوكا مشرفا في هذا المجتمع غير اليهودي ، ان يثبت ان نمط اليهودي الذليل الوديع المحني الظهر من الدراسة ، لا ينطبق على حالته . فالاستعداد للدخول في مبارزة من اجل مسالة تتعلق بالشرف يثبت استحقاق يهودي ان يقبل اجتماعيا . وجزئيا بدافع الكبرياء ، كذلك بتأثير عبير نيتشه في الجو النمساوي ، كان وسوف يظل دائما يرتاب في الشفقة وابنتها الاحسان . وكان مزاجه ينفر مما سماه « اما لازاروس » بـ « الجماهير المتزاحمة » و « النفايات التعسة* » . وكان نوع الفارس الذي يريد ان يكونه لا يقبل الانضمام الى مثل هؤلاء . كان هناك شيء يكاد انثويا في عقله السريع البديهي يجعل من اليسير عليه ان يقبل حجج خصومه عن طريق وضع نفسه مكانهم . وكان لا يثق كثيرا في الجدل العقلاني كرد على التعصب . وبدلا من ذلك كان لا بد له ان يجعل عناولة فينا الشبان — اولاد العائلات الثرية — يصيحون « ولكن هذا الرجل يتصرف كبروسي ، وليس كيهودي ! » وسوف تتطور شخصيته طبعا في السنوات التالية ، ومع ذلك فان حادثة ترجع الى عام ١٨٩٣ ، ربما كانت تصور الدوافع التي جعلته ينضم الى « البيا » في عام ١٨٨١ . فقد تكونت جمعية للرد على الدعاية المعادية للسامية ، وسألته احدى عضوات الجمعية ان يمد لها يد المساعدة. وكان رد هيرتزل « ان عددا من المبارزات سوف يفعل الكثير لتحسين وضع اليهود في المجتمع (٨) » . بل انه اطلق لخياله العنان وجعل يتخيل كيف انه سوف يتحدى عددا من قادة المعادين للسامية للمبارزة .

★ الابيات الختامية في قصيدة « التمثال الجديد » (١٨٨٣) : اعطوني متعبيكم وفقراءكم وجماهيركم المتزاحمة المتعطشة للتنفس في حرية والنفاية التعسة لشاطئكم المكتظ ...

وكان لكل عضو في الجمعية اسم يتخذه عند المبارزة . وكان اسم هيرتزل هو « تانكرد » وهو اسم بطل رواية دزرائيلي وكذلك ملك صقيلية في القرن الثاني عشر . وفي ١١ مايو عام ١٨٨١ ، وبدون أن يخبر ابويه ، ادى مبارزته الاجبارية . وبارز عضو « البيا » تيودور هيرتزل عضو « اليمانيا »كارل كوش . واجتمع اعضاء الجمعيتين في مبنى النادي لمشاهدة المبارزة . ووقف هيرتزل وعلى يمينه مساعده « فرانز ستايرك » ، وعلى يساره — كشاهد — زميله في دراسة الحقوق « هانز بيشيك » . وطلب الحكم فون ستروباخ من الحاضرين الصمت ، ثم اعلن ابتداء المبارزة . وجرح المتبارزان ، اللذان كانا يرتديان ملابس واقية ، احدهما الاخر واسال دمه . وكانت النتيجة التعادل . واحتفل بهذه النتيجة في نفس المساء بتبادل الانخاب .

ولكنه على الرغم من انه كان يحظى بشعبية معقولة بين زملاءه المتبارزين ، (معقولة لانه لم يدخل غير هذه المبارزة التي ذكرناها) فانه ابتدأ يحس بحركة معاداة السامية ، لا في الجمنازيوم حيث كان يتدرب ، بل في مكتبة الجامعة حيث كان يقرأ . وكانت قراءاته من الكثرة بحيث كان من المحتم ان يصطدم بمثل هذه الفكرة الواسعة الانتشار . وعلى سبيل المثال، وكما تقول يوميات شبابه ، فقد قرأ في الفترة من فبراير الى مايو ما لا يقل عن ٥٠ كتابا .

ومثل الشبان الاخرين من مختلف العصور ، كان يقرأ لكتاب ظلت اسماءهم باقية بعد انقضاء زمانهم — مثل مارك توين وبلزاك وبايرون — وكتاب أخرون يحتاج المرء لكي يتعرف عليهم ان ينقب في صفحات قواميس الكتاب . وعلى سبيل المثال قرأ في ١٩ يناير عام ١٨٨٢ روايتين لفيكتور شربيوليه هما : Le Comte Kostia و L'aventure de Ladislas Bolski وكان يقرأ بانتظام روايات فيلهلم جنسين ، وهو اكثر روائي المانيا شعبية وخصوبه في القرن التاسع عشر . ولكن بينما كان جنسين هو استاذه الادبي في عامه الاولى في فينا ، فانه الان يشعر ان جنسين ينتج اكثر مما يجب . (ومما يؤكد صحة حكم هيرتزل أن جنسين انتج ما يربو على ١٠٠ رواية) . ورأيه في ديستيوفسكي هام لانه يلقي ضوءا على شخصيته . فعلى الرغم من اعجابه بـ « الجريمة والعقاب » بوصفها « رواية نفسية من الطراز الاول » ، فانها قد سببت له قلقا عميقا . « انها تصف بطريقة مرهقة وفي صدق نفسي المرض الذي تعد الجريمة احدى عوارضه . ولكن الكتاب في

نفس الوقت مقلق . وحمى البطل الاجرامية تصيب القارىء ، اذا كان به ادنى قدر من الحساسية ، بالمرض العضوي . والحوار الذي يدور بين راسكلينكوف والمحقق بتروفنتش ، رائع . وهما يلعبان مع بعضهما لعبة القط والفار . ولكن الغريب هو هذه اللذة الشهوانية القاسية التي يستمتع بها الفار بذلك » . ويظهر رد فعل هيرتزل خوفا مميزا من الـ « هو (id) كما يدل على الجهد الذي كان يبذله من اجل السيطرة على عواطفه الدفينة حتى لا تزعج هدوء الفارس الذي كان يود ان يكون .

وعلى الرغم ان القرن التاسع عشر كان — بالنسبة لليهود والمسيحيين على حد سواء — عصرا غنيا بالكتابات اللاهوتية ، فان قائمة قراءاته تظهر عدم الاهتمام بالدين الذي لازمه منذ صغره . بل انه لم يعد يقرا « سامسون رافييل هيرش » او الكاردينال « نيومان » ولم يكن الكتاب اليهود من بين ابطاله .

ومع ذلك ففي يومين متعاقبين من شهر فبراير — الثامن والتاسع — تفرض المسألة اليهودية نفسها عليه . فان احدى روايات « جنسين » العديدة وهي « يهود كولونيا » تظهر تعاطفا مع يهود العصور الوسطى يشبه ذلك التعاطف الذي ابداه السير والتر سكوت في رواية « ايفانهو » نحوهم . ويكتب هيرتزل قائلا :

« كثيرا ما يعطي اليهود الانطباع المؤسف بأنهم مثل ابناء العائلات القديمة الذين يستطيعون أن يفعلوا اي شيء ما عدا ان يعملوا بشرف بأيديهم . ولكن اليهود كانوا كذلك ، وما زالوا كذلك ، لان جدران الجيتو* (Ghetto) التي اقامها التعصب تغلق عقولهم واجسادهم ، ولانهم منعوا من تحسين سلالتهم عن طريق التهجين مع الاجناس الاخرى . ولو كان مسموحا بالتزاوج بينهم وبين الاجناس الاخرى بدون عوائق — مما يمكن ان يعود بالخير العميم على الاجناس الحديثة وعلى اليهود كذلك — لاعقب ذلك التحسن النفسي بسرعة كبيرة . والسبب في ان لليهود هيئة جسدية وعقلية مختلفة — غريبة بل وللاسف محتقرة — لا يعود الى انهم احتفظوا بـ « نقاءهم » الخاص (او عدم نقاءهم كيفما كانت وجهة نظرك) كما

★ اسم اطلق على احياء اليهود في المدن الاوروبية في العصور الوسطى حيث كانوا يعيشون في عزلة تامة . (المترجم)

جلبوه معهم من آسيا ، بل يرجع الى انهم نادرا ما يختلطون بأندادهم من عائلات الامم الاخرى . والحل الوحيد للمسألة اليهودية هو تشجيع احداث تحسن علم في الصورة الجسدية والمجازية للامة . والتهجين بين الاجناس الغربية وبين ما يسمى بالاجناس الشرقية — على اساس دين واحد للدولة — هو الحل العظيم الذي يجب ان نرغب فيه . وبدون الجيتو الكئيب ، والذي ظل تأثيره قائما بعد ان تحطمت جدرانه بمدة طويلة ، والذي يشبه خاتما ضيقا لا تزال تشعر به يخنق اصبعك بعد مدة طويلة من خلعه او قطعه — وبدون الجيتو الذي لا يزال ، بشكل غيرمرئي ، يحد من رؤية طبقات اليهود الدنيا ، بل وكثير من اليهود المتعلمين ايضا ، وبدون جيتو اليوم والبارحة الشرير ، لم يكن هذا الخاتم الضيق في اصبع البشرية والذي ندعوه باليهود ليتطور — او ليسيء التطور كما فعل . فقط لندع هذا الاصبع المعذب يتحرك اخيرا في حرية وبدون قيود او ضغوط ، وسريعا ما سوف يختفي الم الاختناق مثل ذكرى كئيبة ، كما سوف يختفي الخط الغائر الذي صنعه الخاتم الضيق ، وسيتحرك هذا الاصبع في حرية ونشاط مع باقي الاصابع من اجل خير الانسانية . وفي البداية اصيب اليهود بالغرور وحسبوا انفسهم الخاتم المختار للاصبع . ولكن الخاتم ضاق بالتدريج على الاصبع ، ولذا فقد ملكهم الفرح حين خلع . وعليهم الان ان يجاهدوا من اجل اللحق بكل ما فقدوه » (٩) .

يبدو ان « الخاتم » يمثل القانون اليهودي كما يمثل الجيتو .

وفي اليوم التالي يقرا هيرتزل كتاب دوهرنغ الذائع الصيت : « المسألة اليهودية كمسألة جنس واخلاق وحضارة » . ويقول الكتاب في برود قاسي انه من المستحيل على اليهود ان يلحقوا بركب التطور بالطريقة التي كان يريدها هيرتزل . والنوع من « اللحاق » الذي يستطيعه اليهود هو ان يكونوا مثل نشالي فاجين* Fagin . وهكذا فان تصوير « جنسين » لما يمكن ان يسمى — بشيء من الخجل — بالمعاداة المسيحية للسامية قد اعقبه — كما في هذيان كابوسي — استحضار الكراهية المرضية للاجانب المصبوغة بالصبغة العقلانية ، وتحديث العداوة القديمة بمصطلحات القرن

★ اليهودي في رواية ديكنز : « اوليفر تويست » الذي كان يعلم الصغار النشل . (المترجم)

التاسع عشر . ويلاحظ هيرتزل ان كراهية اليهود تستمر ، وان « دوهرنغ» يمدها ببساطة بمعقلانية جديدة . فالاتهامـــــات بالقتل الطقوسي وتسميم الابار ونشر الاوبئة ، تنتمي الى عالم العصور الوسطي الذي انهارت اعمدته الدينية التحتية ، ومع ذلك فكم ينقصهم الابتكار ــ برغــم تعاقب القرون ــ صائدي اليهود هؤلاء ، وكم هم مبتذلون .

« انهم يدركون ، كما يفعل السيد دوهرنغ ، ان شن الهجمات الدينية لم يعد ذا جدوى . اذن ، يجب ان يتقدم الجنس الى الامام ! ان اغصان القرون الوسطى الجافة قد اصبحت مبتلة ولم تعد قابلة للاشتعال . لذا فانهم في حاجة الى وقود جديد قابل للالتهاب يرسل نيرانا قوية تشـــوي الدهن اليهودي الذي تنبعث منه رائحة لانوف البروتستانت المستقيمة . هم في حاجة لاولئك المفكرين الاحرار يحلون محل قسس الدومنيكان الذين كانوا يتولون ، في العصور الوسطى الكريهة الرائحة ، مثل هذه الامور . من الحريق الى الاسلاب ــ او العكس ــ والسيد دوهرنغ وجماعته يخرجون وراء الاسلاب ويجدونها . والمرء يكتشف « الاقتصاد القومي » ، وهــو « راي عام » اخر . وقريبا سوف يصدر السيد دوهرنغ جريدته العظيمة المسماة بــ « الولاء » . والشراهة هي الدافع العفن الدنيء وراء كل الحركات المعادية لليهود الذين لم يستطيعوا خلال القرون المتعاقبة ان يحدثوا ادنى تغيير في هذه الاخلاقيات المسيحية . التغيير الوحيد هو : براعـــة اكثر ، وذلاقة اكثر ، وذكاء اكثر ، رغم انه ذكاء المحتالين . ورغم كل هذه الاكاذيب الطفولية ضد اليهود المعاصرين ، فان المرء يأمل في مستقبل اكثر ضياء ينظر فيه رجال مفعمين بالانسانية الى الحركات المعاصرة المعادية لليهود كما ينظر اليوم الرجال المتعلمين ، بل والمعادين للسامية من بينهم ، الى اكاذيب القرون الوسطى » .

اما بالنسبة الى الحل الذي يقدمه دوهرنغ في حرارة فان هيرتـــزل يدينه بوصفه لا يعدو ان يكون اعادة بناء للجيتو « مضافا اليه التطهـــير المنتظم لكل من الصحافة والتعامل بالربا من اليهود ، وكلاهما من الميادين المربحة التي سوف تسقط تماما في ايدي مسيحية ــ المتية بفضل « ضم الامارات المالية » . ومع ذلك فقد ادى اللعب بالالفاظ بدوهرنغ الـــى عرض ممل لحيلة مكشوفة . « فالضم » ليس سوى قطع الطريق القديم .

« وعلى اية حال ، فبعد ان تطرد اليهود من المحاكم ومكاتب المحاماة والطب والسياسة ، كيف يمكن لهؤلاء المساكين ان يعيشوا دون ان يقرضوا النقود او يعلموا الصغار ، او يشفوا المرضى ، او ينصحوا المتهمين ، او

يخدموا الدولة ، او يكتبوا في الصحافة ، او يبيعوا كتبهم او اي شيء اخر ؟ هل يقوم دوهرنغ واقرانه في الجشع ، بعد ازاحة المنافسين المرعبين، بعد زيادة ثرواتهم الخاصة ، وبعد أن انكروا على اليهود ان يمتلكوا الاخلاق او الفهم او الشخصية او الموهبة او قوة الارادة ، ولكن ليس المعدة او الرغبة في الطعام : هل يقومون باطعامهم ؟ ومع ذلك فان هذا الدوهرنغ ليس فقط طامعا في الاسلاب . بل هو ايضا منافق ووغد وصورة طبق الاصل من رجال الجزويت الذين يلوكون الله » .

ان غضب هيرتزل يكاد يجعله غير مفهو م.

« هذا المحتال — الذي يجب ان تكسر اسنانه التي ينبعث منها هذا القيء الشرير — يرفع عينيه في ورع كريه كمحرر زائف كي يقول : حرية بلا حدود لكل الرجال . ولكن لليهود : قانون الاستثناء . هذا هو الشعار الجديد لجيتو العصور الوسطى . ان يجرؤ هذا الرجل على ان ينطق كلمة الحرية المقدسة ...... (١٠) »

وفي هذه الصفحات — التي تعتبر من اعنف مـــا كتبه هيرتزل في حياته — تبدو لهجة العاشق الذي قوبل بالرفض . ولكن ما يضيف بشكل خاص للمسة الهيرتزلية هو اقرار هيرتزل بجمال الطريقة التي كتب بهـــا الكتاب وبأنه يحتوي على فراسة ثمينة . « ان انحراف الاخلاقيات اليهودية ونقص الحماس الاخلاقي في كثير — ودوهرنغ يقول في كل — من اعمال اليهود يتم عرضها وتحديدها بلا رحمة » . كذلك يسر هيرتزل في يومياته اعجابه بأسلوب دوهرنغ اللغوي .

وفي الشهر التالي يعود هيرتزل لزيارة بست . وقد احيا اتصاله بالمجر وابتعاده الجسدي عن فينا ، في نفسه الايمان بالثقافة الالمانية ، وعاد كل من جنسين ودوهرنغ الى ارفف المكتبة . كان قد عاد الى مدينة ريفية تماما بالمقارنة بفينا . وكتب الى هنريش كانا يقول : « اصبحـت المجـر خلال غيابي مجرية اكثر فاكثر . والكثير من اصدقائي وزملائي قد نضجوا واصبحوا مجريين كاملين . صحيح انهم لا يعرفون اللغة المجريـــة ، ولكنهم يتحدثون بها في اصرار . والذي كان اسمه في الماضي « سوننبرغ » اصبح الان « ميوراني » ، والذي كان اسمه « نيجلستوك » اصبح يسمي نفسه « نيجالي » .... اما من ناحيتي فقد كنت حريصا الا انطق حرفا واحدا باللغة المجرية (١١) » .

الفصل العاشر

في الايام الباردة من اوائل عام ١٨٨٣ ، احتك هيرتزل بالعجرفة العنصرية التي اصبحت بشكل متزايد طابع اوروبا في القرن التاسع عشر . وبالمقارنة بصنوف الاذلال الذي كانت بريطانيا تصبه على مصر ، او كانت فرنسا تصبه على الهند الصينية ، فان ما حدث يصبح ذا طبيعة اخرى .

ولكن الاهانة لا يمكن وزنها مثل الجبن . وما قد لا يحس به واحد قد يجرح اخر ، كما ان ناراً يمكن ان يسبب انهيارا ثلجيا . وقد كانت كرامة هيرتزل لارتباطها بالحاجة لاحترام النفس وثناء الاخرين ، ولكونها اقوى من اي تعلق بالملكية او الربح ، في مثل حساسية ورق التصوير . وقد كان جيل بايرون وستندال لا يزال يلقي ظله المهيب على طلاب اوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر .

وهذا الحادث ، المكون من وقائع حدثت فيما بين ٥ مارس و٣ ابريل — ذو اهمية بالنسبة لتطور هيرتزل ويجب ان يوضع في السياق . ولان الحادث ذو طبيعة فاجنرية ، فهو معقد ايضا .

في ١٣ فبراير عام ١٨٨٣ ، وفي بهو فينيسي رطب ، لفظ ريتشارد فاجنر انفاسه الاخيرة بين ذراعي زوجته « كوزيما » . وبالنسبة لعشاق الموسيقى من القوميين الالمان كان الامر يتعلق بفقد نبي تجسدت في اخر اعماله پارسيفال (وقد عرضت لاول مرة في ٢٦ يوليو في الصيف السابق) رسالة عظيمة . اما بالنسبة لعشاق الموسيقى الذين لم يكونوا ينظرون الى الاشياء بمنظار سياسي — مثل الامريكي الشاب « غوستاف كوبي » الذي

قدم الى « بايروث » ليقيم الافتتاح لجريدة World النيويوركية — فقد بدا اخر اعمال الاستاذ الدرامية وكانه يتميز بنقاء روحي (١) . كما بـدت شخصية « كوندري » — وهي على حد تعبير كوبي النسخة الانثوية من « اهاسيروس » Ahasuerus اي اليهودية التائهة — من اكثر شخصياته الدرامية حيوية . ولا شيء اخر . ووفقا له (اي لفاجنر) فانها كانت قد ادينت لانها ضحكت في وجه المسيح وهو يسير حاملا الصليب . واخذت تبحث عن الغفران بتقديم خدماتها لفرسان الجريل* Grail بعملهـا لديهم كرسول على حصانها السريع . ولكنها دائما وابدا ، بسبب اللعنـة المعلقة فوق راسها ، تندفع عائدة الى كلنجسور (الساحر) الذي يحولها الى امراة جميلة ويضعها في حديقته كي تغري فرسان الجريل وتدفعهم الى تدمير انفسهم . وقد راى القوميون الالمان في قصة مونسالفات ، قلعـة الفرسان المهددة ، وراوا في كوندري ، التي كانت كلماتها الوحيدة في الفصل الاخـير هـي : Dienen ... Dienen (ان اخدم ... ان اخدم) والتي كان رجاؤها الوحيد هو الموت (بدون امل في البعث) التحقق الاسطوري للعقيدة التي كان استاذهم يبشر بها نثرا بلا كلل . وقد بدت هذه العقيدة اقل براءة للاجيال التالية ، كما كانت عبـارة Dienen ... Dienen انذارا مروعا بشعار Arbeit Macht Frei (العمل يحرر) التـي حفرت على بوابة معسكر « او شويتز » النازي للتعذيب . وفي كتابـه « الدين والفن » المح فاجنر لفكرة (« سوف يبقى من المشكوك فيه ان يكون المسيح من اصل يهودي ») قام زوج ابنته «هوستون ستيورات تشامبرلين» فيما بعد بتطويرهـا في كتاب ظـل يحظى بالتقديس من جانب العنصريين الاوروبيين منـذ نشره في عـام ١٨٩٨ الى وفـاة ادولف هتلر في عـام ١٩٤٥** . وفي كتابه « البطولة » الذي صدر قبل « بارسيفال » ، عـزى فاجنر الى المسيح تملك نوع من الدم المتفوق الذي هو في نفس الوقت ترياق معجز ضد انحدار الجنس كما هو اداة لتحسينه . وكتب فاجنر يقول : « ان

---

* الجريل تعني الكاس الذي شرب منه السيد المسيح في ليلته الاخيرة .

** يتجنب كتاب تشامبرلين « اسس القرن التاسع عشر » مسالة اصول المسيح العنصرية بان يؤكد الوهية المسيح مما ينفي حتى فكرة رجولته ، ثم يدعي ان جانبا كبيرا من سكان فلسطين اليهود كان ينحدر في الواقع من اصل آري .

الكبرياء فضيلة رقيقة لا تحتمل حلولا وسطا مثل امتزاج الدماء » . وقد كانت معاداة فاجنر لليهود مبالغ فيها الى حد انها كانت تشير الى اعجاب دفين . واصبحت الكراهية ، في الحقيقة ، مثل العدسة المكبرة . « اذا تزاوج يهودي او يهودية مع اي جنس غريب اخر ، فان طفلا يهوديا سوف يأتي نتيجة هذا التزاوج » . وهكذا يبدو من الصعب القول بأن الدم المتفوق هو ملكية احتكارية للمسيح (٢) .

وقد كان لهذا الجنون التسلطي نتائج مختلفة . فبينما نجد نيتشه يتساءل في خبث عما اذا لم يكن « جابير » والد فاجنر يهوديا ، نجد ان احد تلاميذ فاجنر اليهود يقتل نفسه يأسا من التخلص من هذه الوصمة التي لا يمكن محوها .

وقد شجعت وفاة فاجنر — الذي كان في راي تلاميذه يجمع بين عبقريتي شكسبير وبيتهوفن ، والذي نراه الان بشكل أكثر تعقلا يجمع بين الافضل والاسوء في عصر من اغنى العصور بالخلق في تاريخ البشرية — شجعت نوعا من الهستيريا الدينية بين المعجبين به . ومن بين هؤلاء المعجبين ، بالطبع ، اعضاء جمعية « البيا » ، الذين كانت قوميتهم الالمانية ونشاطاتهم المتسمة بالرجولة تتفق وتدين المونسالفات الكريه . وقد كان بارسيفال ، في مفهوم فاجنر ، احمقا كما كان اشقرا ، ومدمرا كما كان مداويا .

وفي يوم ٥ مارس ، عقد اتحاد الطلبة الالمان حفل تأبين لذكرى المؤلف الموسيقي المتوفى . وكان فون شونرر واحدا من بين الخمسة الاف طالب واستاذ جامعي ونائب برلماني احتشدوا في قاعة « صوفين » . وعلق علم هائل الحجم يجمع بين الوان الامبراطورية الالمانية الاسود والاحمر والذهبي كخلفية للخطب التي كانتتخللها الاناشيد الوطنية مثل « حراس الراين » و « المانيا فوق كل شيء » . وكان اعضاء « البيا » مع ممثلي الجمعيات الطلابية المماثلة الاخرى هناك . ومن بينهم « هيرمان بار » الذي كان يصغر هيرتزل بثلاثة اعوام والذي كان احد المعجبين به . وبتوالي الخطباء واحدا بعد الاخر ، يعزفون انغام الناي الفاجنري ، نسى « باهر » الشاب اليهودي الذي كان يعرفه (والذي ظل محتفظا بصداقته فيما بعد) من اجل التجريد الفاجنري . ودفعه الشراب القوي — الذي لم يكن فاجنر ليسمح لمارسه بتناوله — الى ان يلقي خطابا عاطفيا ملتهبا اكد فيه الدلالة السياسية لفن فاجنر ، واشار فيه الى ان « كوندري » ، المقيدة بالاغلال والتي تتهيأ بالرغم

من ذلك للانضمام الى اخواتها في البلدان المجاورة ، ترمز الى الخطر اليهودي . وقد احدث قبول « باهر » العلني للقومية الالمانية المعادية للسامية هياجا شديدا دفع الشرطة للتدخل وفض الاجتماع . وارتقى « شونرر » المنبر وسط شغب متزايد كي يدين هذا الكبت لحرية التعبير ويصيح : « يحيا زعيمنا تبسمارك » (٣) .

وكان هيرتزل قد اصبح في ذلك الحين عضوا غير عامل في «البيا» (٤) ، وكان قد احس مثل باقي الاعضاء اليهود الاخرين في الجمعيات الطلابية في فينا ، بالجو المعادي الذي اخذ يسود هذه النوادي اليمينية . ولم يكن هيرتزل قد حضر حفل التأبين ، ولكنه قرأ عنه في صحف اليوم التالي . وكانت تتملكه في ذلك الحين حالة من الاكتئاب النفسي الحاد . فقد كان في الثالثة والعشرين من عمره ولم يكن قد اكتسب بعد اية خبرة ذات شأن ، كما فشل حتى الان في اكتساب حب جماهير القراء ، وهو أمر اساسي للغاية بالنسبة اليه . كما انه في فبراير عام ١٨٨٢ ، كان قد اشترك في مسابقة لاختيار افضل Feuilleton اقامتها جريدة Wiener Allgemeine Zeitung

وفشل ليس فقط في الحصول على جائزة بل وايضا في الحصول على مركز مشرف . وبالاضافة الى ذلك كانت روايته «هاجناو» Hagenau ملقاة غير منشورة في احد ادراج مكتبه . (كان لبطل الرواية الكونت روبرت شنك فون هاجناو تلميذ وصديق من الطبقة المتوسطة يتشابه في كثير من الملامح مع هيرتزل) . كذلك رفض مسرح الهوفبر جثياتر Hofburgtheater قبول مسرحيته الكوميدية ذات الفصل الواحد ، بالرغم من جهود ممثل مشهور كان هيرتزل قد طلب مساعدته (٥) .

وبعد ان قرأ هيرتزل تفاصيل ما حدث في الصحف ، كتب رسالة غاضبة بها شيء من التعقيد الى قيادة الجمعية . وبدأ الخطاب بقوله انه علم من الصحف ان احتفالا اقيم لتكريم ذكرى ريتشارد فاجنر ، وحضره اعضاء من الجمعية التي يتشرف بالانتساب اليها كعضو غير عامل ، قد تحول الى مظاهرة معادية للسامية . وعلى الرغم من انه لا ينتوي الدخول في جدال حول مودة العصر الرجعية هذه ، فانه يود ان يشير الى انه كمحب للحرية ، وحتى ولو لم يكن يهوديا ، فانه يجد لزاما عليه ان يعارض هذه الحركة التي اصبحت جمعيته منغمسة فيها . وحيث انه لم يكن هناك في الصحف ما يشير الى ان الجمعية تستنكر مثل هذا الانغماس وحيث ان السكوت يعد من علامات الرضا (واضاف باللاتينية (Qui tacet, consentire videtur !) وحيث انه موسوم بالسامية — وهي تعبير

لم يكن معروفا وقت انضامه للجمعية ـ فانه يعتقد انه لا يجد امامه طريقا مشرفا اخر سوى تقديم استقالته . ولاخر مرة كتب اسم « تانكرد » تحت امضائه .

كان الطلاب النمساويون يعرفون ، مثل زملائهم الانكلوسكسون ، ان الفارس او السيد المهذب لا يجرح بارادته مشاعر اخر . وليس هناك ما يشير الى ان اعضاء « البيا » من الشبان المشاغبين كانوا سيئين حقيقة. ولكنهم كانوا بشرا . وقد اختاروا ، وقد ووجهوا بدليل ساطع على فساد ذوقهم وقد وقفوا مترددين على الحدود بين التبرير والاعتذار ـ اختاروا ، يساعد احدهم الاخر ، ان يتخلصوا من الورطة بالخداع ، وان يخفوا ، باهانة اخرى ، او على الاقل برسمية باردة ، انهم قد قبلوا ، تحت تأثير العاطفة والخمر ، سلوكا كان ولا بد ان يؤدي الى جرح مشاعر زميل يهودي . وكان هيرتزل قد كتب رسالته بتاريخ ٥ مارس . واستغرقت هيئة « البيا » القيادية شهرا كي ترد . وفي اثناء ذلك كان بعض الاعضاء ينادون بأن فعل تانكرد ، واتهامه لهم بسوء السلوك ، يستحق ، ليس قبول الاستقالة ، بل الفصل غير المشرف . ولكن الاراء الاكثر هدوءا انتصرت في نهاية الامر . وكان الخطاب الذي ارسل اليه في ٥ ابريل باردا ولكن ليس مهينا . وابلغت الجمعية الطلابية طالب الحقوق تيودور هيرتزل انه ، وفقا للقرار الذي اتخذته في اليوم السابق ، فان اسمه قد شطب من قائمة اعضاء الجمعية ، على ان يكون مفهوما ان عليه ان يعيد كافة شعارات الجمعية في خلال ثمانية أيام . ووقع الخطاب القصير طالب الحقوق ا. هورن وطالب الطب رودولف راب .

وبالمقارنة بأعمال القسوة الاخرى ، فان اشتراك « البيا» في حفل التأبين ، ومعاملتها اللاحقة لهيرتزل لم تكن شيئا غير عادي . ومع ذلك فقد كان لهما نتائج تراجيدية ذات اصداء . فقد اقترح « بول فون بورتهايم »، احد قادة « البيا » البارزين ، بجانب الاحتفاظ بالاعضاء اليهود في الجمعية، عدم قبول اعضاء يهود جدد . وقد كان فون بورتهايم نفسه من اصل يهودي ، وادى به هذا الصراع بين الخيال والحقيقة ان ينتحر فيما بعد في نفس العام . اما بالنسبة لهيرتزل فقد كان ذلك اول اسفين يدق في جذع الشجرة ، ونذيرا بجرح غائر في مشاعره كأوروبي .

وبعد ان رفض طلبه للتطوع في الخدمة العسكرية حيث كان سوف يستمتع برفقة السلاح التي توفرها ـ واذا كان سبب الرفض هو نتيجة

انغماسه في الشهوات فانه سوف يعرف ، مع ذلك ، صدى الذنب الذي اقترفه قادة « البيا » في حقه ـــ وبعد ان رفضه رؤساء التحرير والمنتجين ، فانه رأى نفسه يطرد من قبل زملاءه الفرسان من قلعة « مونسالفات » .

وقد قال لاحد اصدقائه انه اتخذ قرار الاستقالة بعد تردد طويل ، وان القرار قد سبب له الما عميقا (٦) . وفي مثل هذا الموقف فان النجاح الواضح الصريح كان هو الوسيلة الوحيدة للثأر . وبعد ان سلم سيفه ، اخـذ يسن قلمه . ولكن على الرغم من الاف الكلمات التي كتبها منذ ايام جمعية « وير » (نحن) فان اسلوبه كان لا يزال يجمع بين الرومانسية والمظهرية . وكان قد ظل عامين يكتب مسرحية اسماها (ولاحظ دلالة الاسم) « انقشاع الوهم » . وقد قال لـــ « كانا » في خطاب مؤرخ في ٣٠ اغسطس ان كتابة هذه المسرحية قد جلبت له ساعات مليئة بالجمال والالم في نفس الوقت . وكان قد فرغ من كتابة الفصل الثاني « وفي انسب وقت ايضا ، لانـــي احسست باقتراب الضيف الشرير المسمى بالسيد « شك » (Herr von Zweifel) وهو قريب وثيق الصلة بالشيطان (Teufel) عن طريق التوافق النغمي بين الكلمتين» (٧) . كان قد وصل الى هذا الحد في مسرحيته في موجات متعاقبة من القوة والوهن . ولم يقدر له ان يكملها .

وقد كتب هيرتزل هذا الخطاب من « بادن » وهي مدينة لحمامـــات الاستشفاء قريبة من فينا بها عيون كبريتية تصلح لعلاج امراض المثانـــة بوجه خاص . وفي نفس الصيف ، كتب خطابا اخر لـــ « كانا » ارخـــه بغموض « ١٦ من شهر الالام » (٨) . ولا يوجد بالخطاب ما يشير الى كنه هذه الالام او سببها . وقد احتوى مظروف الخطاب امرا بريديا بمبلغ « ٦٠ جنيها كسبت بمشقة » يطلب من « كانا » ان يدفعها الى عميد الكلية على وجه السرعة . والمفروض أن هذا المبلغ يمثل مصاريف امتحانات السنـــة الثانية التي كان قد اداها توا . ولكنه يضيف بعد ذلك ، في جملة كاشفة : « ولما كنت مقامرا قديما ، فانني لن استطيع ان اقاوم المخاطـــرة بنقودي مرة اخرى على المائدة الخضراء . وهي مخاطرة ، لان من يلاعبونني قوازق حقيقيون ، وانا بالنسبة لهم لا شيء » .

وقد كتب بيتر لوفنبرغ يقول (٩) : « ان المقامر يتحدى القدر ويجبره ان يقرر اذا كان معه ام ضده . وهو يعتقد ان من حقه ان يطلب من القدر جميلا خاصا . فالحظ الحسن يمثل توفير الحماية ووعد بمباركة مستمرة لافعاله في المستقبل . والمقامرة محاولة لاجبار القدر على معاملة المقامـــر

معاملة طيبة . وفي اي كازينو للمقامرة فان فرص الخسارة اكثر قليلا من فرص الكسب . والمقامر يتحدى الالهة ان تتخذ قرارا بشأنه مؤملا في اريحيتهم . واذا كان الكسب يعني الحصول على الزاد المحتاج اليه ، فان الخسارة تفسر بوصفها تقربا الى الالهة للوصول الى نفس الغرض » . ويتملك المقامر ، وخاصة اذا كان قد نشأ نشأة دينية ، احساس بعدم النظافة . ونحن نزن بخلنا في امور الاحسان والهدايا في مقابل كرمنا الطائش على المائدة ذات الجوخ الاخضر . ثم ، بعد ان نخسر ، نود ان نهرب بشرف . ونتخذ لانفسنا قناعا وراقيا ، ونقلد خروج الفارس المشوه .

وظلت الكآبة بعد انتهاء الشهر . ومع سقوط اوراق الشجر ، كان مزاج الطبيعة يعكس مزاجه هو . وكان قد عاد الى فينا حينما كتب في ٢٧ نوفمبر عام ١٨٨٣ :

« الموت والدمار . هل سيكون الامر هكذا دائما ؟ النجاح لا يأتي . ومع ذلك فانا في حاجة الى النجاح . فانا اكون نفسي فقط عندما اكون ناجحا .

هناك في ادراج مكتبي تقبع امالي المخيبة . ان الغثيان يتملكني حينما انظر الى العمل الذي انتهيت من اتمامه ، والذي ارتوى بكل رغباتي وآمالي وصراعي طيلة عام هو جزء من شبابي ومن دمي ذاته . بل انني حتى لا ارغب في ارساله بالبريد . ولم افعل ؟ لمجرد ان استرده مرة اخرى ومعه الاعتذار بالرفض . ليس هناك شعاع يضيء طريقي ، ولا ارى هدفا امامي ، والازهار لا تورق في مساري ....

لن اكتب بعد الان . ان مجرد رؤية الصفحات البيضاء امامي يثير في الاشمئزاز ، والكلمات ذاتها التي يخطها قلمي تصيبني بالغثيان .

لاحب في قلبي . لا توق في روحي . لا أمل . لا فرح (١٠) » .

ولازمته هذه الحالة وهو في لحظة الانتقال الى العام الذي سوف يتخرج فيه . وفي مدينة تموج بالقاصفين ، بقي في منزله . ووحيدا ، استدار الى مياه نرجسيته الحزينة ، الى يومياته :

« ليلة رأس السنة الجديدة ، ١٨٨٣ — ١٨٨٤

لن اقضيها مع احد . بل انني لن ابقى مستيقظا حتى تدق الساعة منتصف الليل . قبل ذلك ، سوف استلقي على فراشي طالبا النوم ، ذلك النوم الذي سوف يحملني عبر فتور يوم فارغ في حياة فارغة .

الكل فارغ : القلب من الامل ، والعقل من الفكر ، والنقود من الجيب، والحياة من الشعر !

بعد خمسة اسابيع سوف اؤدي امتحاني النهائي في القانون الروماني، ولكنني لم اعد اصلح للدرس » .

ومع ذلك فان الصفات التي ورثها عن جانيت هيرتزل سوف تحمله عبر عام ١٨٨٤ ، الذي تخللته زيارة الى باريس في الربيع ، ثم ، في اواخر شهر يوليو الى وظيفة في محاكم فينا ككاتب قضائي .

الجزء الثالث

الاندفاع نحو النجاح

١٨٨٤ ــ ١٨٩٤

« ان كل الناس على ما اعتقد ، طيبون في البداية ، أو كما اسميهم ... اصلاء ... ثم يحدث شيء ... ربما ليس اكثر من مرور الوقت ، ويصبحون جميعهم مزيفين (١) » .

الفصل الحادي عشر

كانت دراسات هيرتزل القانونية ، مثل دراسات « هينه » من قبله مقدمة للحياة الطلبة باندماجها في خضم الشخصيات والافكار . وكان هيرتزل حينئذ متأثرا بعمق بمعارك الاكاديمية الكلامية وبمبارزات « البيا » . غير ان دراسته الرسمية كانت على ايدي رجال ذوي قدرات ممتازة . فمنهم ثلاثة على الاقل ، من نوع اثر على موقفه الدائم من السياسة والدولة ، فكان « لورينز فون شتاين » Loreuz von Stein وهو أكثر تلامذة « هيجل » نبوغا ، استاذا في العلوم السياسية ، وعندما كان « لورينز » شابا عاش في باريس في الفترة ما بين عامي ١٨٤٠ ، ١٨٤٨ ، لمجرد ان يدرس الحركات الاشتراكية الفرنسية . وبعد ان درس « سان سيمون » Saint Simon ، و « فورييه » ، Fourier و « كومت » Comte و « برودون «Proudhon» جعل من فكرة اشتراكية الدولة جزءا مبجلا من الجو في النمسا . وكان الاخوة « كارل وانطوان مينجر » «Carl and Anton Menger» من حواريي « فون شتاين » . وكان كارل ، مكتشف قانون المنفعة الحدية ، يحاضر طلبة القانون بصفة خاصة . اما اخوه انطوان ، فكان يقول للطلبة وهو يعلمهم انه من واجب الدولة أن تتدخل لكي تجعل الحياة محتملة بالنسبة للطبقات الدنيا ، وان توفر لهم العدالة .

وكان مثل استاذه « فون شتاين » يعارض العنف الذي تنطوي عليه الماركسية . وكان يقول ان الثورة الاشتراكية يمكن ان تتحقق بواسطة الدولة ، وتفرض عن طريق الاجراءات القانونية وليس عن طريق

العنف (٢) .

ولما كانت هذه الافكار غير ملحة ساعتها بالنسبة للفندور الطموح الصغير الذي حصل على الدكتوارة في عام ١٨٨٤ ، الا انها كانت موجودة في المخزن الخلاق لعقله لاستدعائها في اي وقت ، وقد هيأته درجة الدكتوارة لمنصب دائم من المناصب القانونية في الدولة النمساوية ، وضمن له المنصب مستقبلا مضمونا ، وان كان ليس مثيرا ، لو ثبت ان المواهب التي اعتقدت امه انه يتمتع بها لم تكن الا مجرد اوهام . ومنذ ٤ اغسطس حتى قبل عيد الميلاد في عام ١٨٨٤ بقليل ، عمل هيرتزل كاتبا في المحكمة الابتدائية . وكان اختصاصه عندئذ القضايا الجنائية وقضى الشهور الاربعة يعمل في المنازعات التجارية في المحكمة الابتدائية تبعها شهران عمل فيهما في القضايا المدنية . وقضى هيرتزل شهري يونيو ويوليو من عام ١٨٨٥ يعمل في المحكمة الابتدائية في سولزوبورج لان والده كان يشكو عندئذ من الم في اذنيه فسافر الى شمال النمسا للبحث عن علاج . وكانت مذكراته عن الصيف شبه الريفي ، ومكتبه في برج تغزوه ثلاث مرات يوميا انغام قرع الاجراس ، مزدانة بسعادة التامل في الاحداث الماضية (٣). غير انه في ذلك الوقت لم ينبعث وهج النور من سروره من وظيفته ذات المرتب وانما من اول نجاح ادبي له . ففي منتصف سنة تدريبه القانوني الاولى هبت لفحة نسيم مشجعة على شراع نواياه ، جعلت ذلك العام اخر عام له كمحام .

وفي بداية سنة ١٨٨٥ قرر هيرتزل ، ان يقوم بمحاولة اخرى بدخول مسابقة « الفياتون » التي تقيمها صحيفة « فيز اليجماين » Wiener Allgemeine وكانت جراح فشله الاولى قد التامت . وفي ثقة جديدة كتب قطعة ادبية جديدة اسمها « اليوميات » وهي في صورة القصة القصيرة .وهي سخرية واعية بالتقييم التقليدي لما هو عام وللعمل الوضيع. وهي تفضح دون وعي اصرار مؤلفها على عدم ثقته بالاخرين ، وخجله الذي يتميز به عند مقابلته للغرباء . والشخصية الرئيسية فيها (كلمة بطل ستكون اكثر من اللازم اذا اطلقت على موظف متواضع الحال غارق في الاحلام)تجد في الاشياء اليومية العادية مبعثا للاعجاب الشديد الذي تبعثه في الاخرين الاشياء المتطرفة وغير العادية . وكان مما يتوج رغباته وظيفة متواضعة ، وركن مدفاة هادئ . ويقضي الرجل ساعات فاضلة نبيلة في صحبة طالبة شقراء تدرس « البيانو » . ودون ان يضع حبه اطلاقا موضع الكلمات ، يحلم باليوم الذي يجد فيه معه من المال ما يكفي لان يخطبها

للزواج . وفجأة يضطرب روتينه الهادىء اذ يزوره يوما صديق الدراسة « جورج » الذي ذاق كل التجارب ووصل في النهاية الى النتيجة ، وهي ان الحياة فاسدة ولا نفع من ورائها . ويروي البيروقراطي الذي تجتاحه فجأة موجة من الشفقة على حال صديقه ، قصة صداقته مع الشقراء كدليل على ان احداث الحياة اليومية ليست بالضرورة قبيحة ، أو غير مستساغة . ويسحر جورج بهذا الكسول ، ويتزوج الطالبة الشقراء ويترك الفتى الحالم ازاء مشهد من المشاهد التي تقع كل يوم .

كان « هنريك كانا » Heinrich Kana ، اول شخص يطلعه هيرتزل على قصته . و « كانا » ، لا باع له ، ويفتقر الى السخرية ، وكذلك الى الدوافع المؤثرة ، غير ان قدرته كناقد اكدت نفوذه المعنوي على « اوزوالد بوكسر » وعلى هيرتزل بالمثل . وقرأ « كانا » قصة صديقه على ضوء نافذته بينما يتمدد على فراشه ، وهيرتزل متخوف بالطبع مما ستتم عنه كتاباته . وصدر حكم كانا في سيل قذائف من الصفات : « متكلفة ... غير مخلصة .. زائفة ... فيها حلاوة مقززة (٤) » . ولولا الجهد الذي بذله هيرتزل في كتابتها لبادر الى تمزيقها على الفور ..

ومن حسن الحظ ، ان الشخص الثاني الذي قرأها وهو المشرف على تحرير باب « الفياتون » ، كان يفتقر الى تشدد « كانا » .

كانت السخرية التي تنم عن الشاب الصغير متوازنة الى حد كبير مع التحكم في القالب الذي ينم عن الكاتب . وعندما تزداد تجارب الكاتب الشاب فانه يقول ما يريد ان يقوله بأناقة وقوة . وبعد تهنئته على روعة قالبها ومحتواها نشر « اليوميات » في عدده الصادر في ٢٧ مايو . وكان هيرتزل بالطبع قد رأى كلماته مطبوعة من قبل . ففي بداية ايامه في بودابست كتب في صحيفة « بيستر لويد » . وبينما كان طالبا في الجامعة كتب في مجلة الاخوة . غير انه هذه المرة كان يقدم عملا بذل فيه جهدا كبيرا ، الى اكثر القراء نقدا في عالم آل هابسبورج . وعندما افعم قلبه سرورا لاستحسانهم له ، امكنه ان يصرف النظر عن نقد « كانا » العنيف .

« لا بد انك رأيت قصتي في باب « الفياتون » امس ، وبتلك الصراحة التي تعتقد غالبا انها حماقة أو عجرفة ، يجب ان اقول لك ان نشر القصة يسرني اليوم للغاية ، واليوم بالذات . اني صريح جدا (او احمق او مغرور) مع رجل واحد فقط وهو انت . وارجو ان تدرك خطأك — مثل

جورج في روايتي ـــ فقد اكتسبت الحق ، على الاقل معي ، في ان تكون مخطئا ولو مرة واحدة » .

وكان الاجماع في فينا على الترحيب بما كتبه هيرتزل الذي تبين مـــن صحيفة « فنير اليجماين » قد أزال حقده على نقد « كانا » . وقد فاق هذا الاجماع بكثير ضآلة اجره . وقد اوتي « كانا » على عكس هيرتزل قدرة على الملاحظة العميقة لا يمكن تأكيد صوابها بالمديح ، فلم يحدث ان كسب « كانا » اطلاقا قدر ما كسبه هيرتزل . ولم تكن وراءه المساندة التي لا تعرف الكلل من ابوين ثريين . ونقد « كانا » لهيرتزل هو الدليل الوحيد الباقي على موهبة كان مصيرها ان تنزلق الى طيات النسيان .

وكان نشر « اليوميات » ـــ التي اعترف هيرتزل شخصيا بأنهـــــا عاطفية الى حد ما ـــ ذا اهمية كبيرة له من الناحية النفسية . ويبدو آن الآلهة تكون الى جانب المقامر عندما يقامر بأكثر مما يحتمله رصيده على رقم واحد ثم يكسب هذا الرقم .

ولم يكن النجاح راجعا الى مجرد الحظ . فان قالب «Feuilleton» ـــ معناه الوريقة ـــ الذي وضع فيه هيرتزل قصته كان السبب في انه كسب شهرة تزايدت باستمرار في اوروبا المتكلمة بالالمانية . واصبح نثــره القوي المهذب سلاحا مناسبا للاقتناع ، لو كانت هناك قضية يريد ان يروج لهـــا .

ولم يكن النجاح راجعا الى مجرد الحظ . فان قالب « الفيلتـــون » تصبح شيئا مهلهلا) سببا في حصوله على اول مناصبه الادبية . وبمواهبه كمراقب للموقف العالمي (لم تظهر تلك الموهبة في اعماله الاولى) حصل فيما بعد على وظيفة صحفية لم يكن لها منافس في اوروبا في تسعينات القرن الثامن عشر .

ولو قدر لهيرتزل ككاتب بسيط وسهل ان يبعث من جديد وقد حدثت حالات بعث اغرب من ذلك ـــ فان شهرته المبعوثة ستعتمد على مواهبـــه ككاتب للمقالة . وهي نفس المواهب التي اضفت على مذكراته الاخـــيرة سحرها . ورغم ذلك فبالنسبة للشاب الصغير في برجه في سولزبورج . وبالنسبة لهيرتزل الاكبر سنا في المدن الكبيرة ، كانت شهرة كاتب المقال شيئا مرا من الصعب تذوقه .

والمقالة يمكن تصورها كشيء يقرأ على المقاهي ، وفي النوادي او في المنازل ولكن كاتبها لا يكون موجودا عندئذ ليرى ذلك . والمقال لا يمثل ذلك

النوع من النجاح الذي يشحن البطاريـــات التي لـــم يشحنها الحب الشخصي. فنجاح الكاتب المسرحي مثلا يبدو نجاحا اكثر اكتمالا واكثر ارضاء للنفس . فالذي يسيطر على تلـك الدمـى الآدميـة تشاهده في سترته المسائية وهو يتوجه نحو اضواء المسرح السفلى بين التصفيق في النهاية . ويستطيع كاتب المسرح الشاب ان يحتسي مثل آلهة الاوليمب خمـر اليوم بينما في الغد فان شهرته في المانيا كلها ستنتشر الى بقية انحاء اوروبا .

وبذلك فان سعادته في سولزبورج كانت مرقطة مثل اشعة الشمس تنفذ من خلال تعريشة الكرم . وكان قد بدأ يحوز الشهرة في العواصم .

لقد غزا هيرتزل عالم الادب ، غزوة مقنعة باسم لا وجه له . وفي اواخر يوليو عام ١٨٨٥ بين هيرتزل الاتجاه الذي كان طموحه يتحـــرك نحـــوه .

كان « بول لينداو » صحفيا وكاتبا مسرحيا يكبر هيرتزل بواحـــد وعشرين عاما . وقد عرف هيرتزل عن طريق صديق لجاكوب هيرتزل وهو رجل من رجال الاعمال في برلين اسمه « تريتل » . وقد تسلم لينداو فجأة رسالة من هيرتزل يقترح عليه فيها ان يتعاونا معا في كتابة مسرحية . كان الشباب، الجيل المتعجل المهاجم، يفرض تحالفا على الثقات الذين اصبحوا عندئذ مهددين. ورفض لينداو التحالف. غير ان النشوة التي كان هيرتزل يشعر بها في سولزبورج ، والوهم اللذيذ الذي انتاب الكاتب الصغير الذي نشرت اعماله اخيرا ، بان الناس ستذكر عمله بعد اسابيع من ظهوره ، جعلـه يعلو في سعادة فوق رفض لينداو لعرضه . وفي ٥ اغسطس انهى عمله في القانون وذلك بعد آن بداه بعام واحد. وحمل، مع حقيبة يده، تآلفا مع الدعاوى القانونية اللغة التي كان يستخدمها ، وحمـل معه الاحساس بأنـه ليس ثمـة عمل في العالم الكبير يمكن ان يكـون عملا كاملا الا اذا دثر في رداء قانونـي .

ان كل الناس يحرفون ماضيهم ، والسياسيون كثيرا ما يلفقونـه ، وبعد سنوات عندما اصبح سياسيا ، زعم هيرتزل انه هجر القانون عندما ادرك انه كيهودي لا يمكنه ان يأمل في ان يصبح قاضيا (٥) . وبالنسبة لهيرتزل اغسطس عام ١٨٨٥ فكانت ثمة اسباب اكثر اقناعا . فقد كتب « اليكس بـين » يقـول ، « انـه كـان يريـد النجـاح ، والمكانـة والمنصب ، والشهرة ، وكان يريدها بسرعة (٦) » . وكانت القضية المباشرة هي الوقت ولم تكن الانتماء الديني . وحتى لو كان ارستقراطيا كما كـان

يراوده في احلام يقظته ، ولو كان قد نجح في امتحاناته بعبقرية وليس نجاحا بسيطا ، لما كان يأمل ان يتقلد اعلى المناصب في مهند مزدحمة قبل ان يبلغ اواسط العمر .

لقد كان القانون بيروقراطية والترقي في معظم البيروقراطيات يجيء ببطيء .

وفي المجالات الاكثر ربحا ، في الاعمال الخاصة ، وجد المحامون اليهود ان العقبة الرئيسية لتقدمهم هي صحافة رفاقهم . وكان هذا عاملا معرقلا مثل البيروقراطية . وكان قبول صحيفة رئيسية لرواية هيرتزل يشير الى انه يستطيع ان يحقق الشهرة ككاتب بأسرع مما يستطيع ان يحققها كمحام ، سواء في السلم الرسمي ، او السلم غير الرسمي .

وكان والداه الشغوفان به على استعداد لان يحلا محل درجة الدكتوراه ويوفرا له وسادة امن من العسر المالي او من النجاح الذي قد يأتي متأخرا .

وكان نشر قصته بمثابة تأكيد اصيل لاتجاهاته . وقد اعقب هجرته للقانون بسرعة نجاح اخر . ومع ذلك فقد كان النجاح تلك المرة مثل سراب ضوء يغريه بان يتبعه الى مستنقعات الغضب وخيبة الامل .

وبمجرد ان اغلق هيرتزل ملفاته القانونية ، موله والداه ليقوم برحلة يجدد فيها نشاطه . واخذته الرحلة عن طريق ميونيخ وهايدلبيرج الى سكك حديد « الاراضي الواطئة » ، وزار في تتابع سريع بروكسل وبروجز واوستند وانتويرب ولندن ، وكان اثناء مروره يدلي بالتعليقات المتوقعة من مسافر شاب.وكانت الرحلة للاراضي الغربية الواطئة في اوروبا وما صاحبها من تأمل لمئات اللوحات الفنية بمثابة «بروفة» للرحلة الاكثر اهمية التي امتزم القيام بها في شهر نوفمبر وهي زيارته لبرلين تلك النافورة التي تقع في المركز الذي تهب عليه رياح الثقافة الالمانية والتي تنسم « هينه » بنفسه فيها اول انفاس الشهرة .

وكان مزودا بعنوان « تريتل » ، صديق والده ، عندما وصل الى عاصمة الامبراطورية الالمانية في ٢٠ نوفمبر واستقل عربة الى مسكن يقع في ٥٨ شارع « اونتر دن لينرن » ، وهو عنوان ليس وضيعا . وكان يحمل في امتعته ثلاث مسرحيات مكتوبة بخط اليد . وانتظر الان في صبر نافد كلمة نعم الحماسية تصدر من احد رجال المسرح الذين سيقدمهم اليه

« تريفل » .

وفي هذه اللحظة توهج الضوء من السراب ، وتوهج من المكان الذي لم يكن متوقعا ان يتوهج منه على الاطلاق . فقد دعا مسرح « ستار » الذي يقع في زاوية برودواي في نيويورك والشارع ١٣ ، الممثل « فريدريك ميتزر فورزر»(١٨٤٤ — ١٨٩٧) — ومن مسقط رأسه دريزدن — الى تقديم موسم من ثلاثة اسابيع لمسرحيات هدفها عرض اسلوبه الملتهب في التمثيل. وفي ٢٢ نوفمبر — اي بعد ثلاثة ايام من وصول هيرتزل الى برلين اللامبالية به — اعلنت صحيفة « ستاتس » التي تصدر باللغة الالمانية ان « ميتزر فورزر » سيفتتح موسمه في اليوم التالي بعرض مسرحية « تابارين » «Tabarin» ، وهي مسرحية من فصل واحد من تأليف تيودور هيرتزل .

وكتب هيرتزل المسرحية وهي واحدة من ثلاثة كانت في امتعته ، بوحي من قصة للكاتب الفرنسي كاتول منديس Catulle Mendès وزمان المشاهد هو باريس عام ١٦٢٠ . ويكتشف بطلها المضحك ، الذي قام بدوره مخرج المسرحية نفسه ، ان زوجته غير مخلصة له وفي تصعيد مأساوي يقتلها ثم يقتل نفسه .

ومسرحية « تابارين » التي عرضت ليلة واحدة ، لم تقدم على المسرح مرة اخرى الا عام ١٨٩٥ — ١٨٩٦ عندما مثلت تسع مرات على مسرح « بيرجتياتر » في فينا . غير انه بالنسبة للمحامي السابق ذي الخمسة والعشرين ربيعا فان هذا النصر في « العالم الجديد » كان يشير الى اكثر الميادين فتنة واغراء . واخذ يتضح ببطء ان تلك الميادين كانت مغروسة بالالغام . وكانت حساسية هيرتزل البالغة ، بحاجتها الى النجاح الملموس بالاضافة الى عضويته في اقلية وجدت في المسرح ميدانا تتفوق فيه ، قد شجعتاه على ان ينفق سنوات من الجهد النفسي لانتاج « قطع » مسرحية او « شتوكي » Stucke كما كان يسمي مسرحياته . وكان نجاح تابارين مع جمهور نيويورك يماثل نجاح نزوته عن فتاة بناما مع والديه . ومرة اخرى كانت النتيجة هي سوء توجيه الجهد . فرغم انه كان يتمتع باحساس بالشكل الدرامي الا انه لم يكن قد شكل ليكون « ابسن* » (ولم تكن ترضيه شهرة اقل من شهرة ابسن) ولم يكن قد شكل ايضا ليكون مهندسا عظيما .

---

* الكاتب المسرحي النرويجي . (المترجم)

غير انه في نوفمبر عام ١٨٨٥ ووسط بريق نجاحه كان اهالي برلين من حوله في حالة من الرزانة تثير الملل . وهناك خطاب كتبه لوالديه بعد يومين من عرض « تابارين » في نيويورك يبين حالته . ورغم ان العروض المكتوبة للمسرحيات لم تكن تصل الا بعد اسبوع او اكثر الا ان التلغراف اعلـن عن ظهور المسرحية اذ قال فيه ، « كان امس ، « الغراند سواريه » (الافتتاح) في ترتيل ... ثلاثون أو اربعون يهوديا ويهودية حقراء وبشعين . منظر غير مريح » (٧) .

ان الكتاب الصغار نادرا ما يتسمون بالصبر ، غير ان قلة صبـر هيرتزل كانت تحركها مراحل غاضبة . فزعم ان سلوكه الظاهري كان يدفئه الوهج المنبعث من برودواي ، الا ان نفسه مـن الداخـل ، النزاعـة الى الشك انزعجت لانه لم يكن ثمة مخرج واحد او ممثل او منتج قد ابدى اقـل اهتمام بتابارين نفسها ولا بسابقتها « قضية هيرشكورن The Hirschkorn Case» التي عرضت قبلها (التي كانت في ذلك الوقت تعرض بواسطة جماعة من الهواة في فينا) ولا بلاحقتها ذات الاربعـة فصول « ابن الام الصغير » «Mothers' Little Boy» . وانفجر في رسالة الى « كانا » يعرب عن احساسه بالمهانة لانه يضطر الى الابتسام لاولئـك الذين لا يقبلـون عبقريته ، والى التردد على اناس غير مثقفين ولكن لهم القدرة على اظهـار مسرحياته او الاساءة الى معنوياته . ومرة اخرى يظل « كانا » بمثابـة المعلم الناقد لحالات هيرتزل . وهذه الحالات مميزة له لدرجة ان التعليقات عليها تستحق ان تحفظ .

[ما هذا الاذلال ، ان تتردد على قلة قبيحة ومنفرة من الرجال وتظهر لهم وجها بشوشا ؟ هل هذا هو ما تسميه التمرغ في الوحل ؟ الا بد ان يكونوا على نفس الصفات التي تمقتها ؟ انهم على الارجح في دوائرهم الخاصـة اشخاصا رائعين ، اباء طيبون ، واصدقاء مخلصون ، وتجار كبار ، ويهود من الادباء او حموات ، كل منهم او منهن له مكانة او مكانها . انـك ستكون لا انسانيا الى احد كبير لو اعتقدت سواء عن حس او دون وعي ان الناس لو اثاروا حافظتك فيصبح لك الحق في ان تطلق العنان لمشاعرك .

وليس لديك مبرر مفهوم . فاي شخص مدرك للامور سيرجع هنا الى « الامر المطلق » . اي عالم سيصبح هذا ، لو اصبح لكل واحد الحق في ان يجعل من شعوره الشخصي مقياسا لمواقفه من الاخرين ؟

ولكنك ما زلت سيئا ، يا عزيزي تيودور ! ويجب ان اقول لك مخاطرا

بأن أبدو جافا ، انك اصبحت وقحا لا اكثر ولا اقل . انت تدعي لنفسك كل شيء بلا ذكاء . ولو ان انسانا اخر لا يعرفك مثلي ، كشخص بسيط غير متكلف ، ثم قرأ افعالك التفضيلية المبالغ فيها ، فماذا هو ظان بك ؟

ها هوذا شاب كتب مسرحية جيدة . واضحى الان اخراجها وكسب الشهرة والنجاح من ورائها هو مرام حياته كلها . طبعا . غير انه يتوقع الآن من الاخرين ان يجعلوا من اخراج هذه المسرحية هدف حياتهم ، وان ينسلخوا عن كل شيء اخر ويركزوا على ذلك . ولكنهم ، لو رفضوا ، وهذا من حقهم ، ولو اظهروا الاهتمام امامه فقط وهذا من خلقهم المألوف . او بدلا من ذلك ، اقتضتهم مصالحهم الخاصة ان يخيبوا امله او يؤذونه ، فان هذا الشاب يشعر بالمرارة ، وتصبح نظرته الى العالم مشوهة ، فيرى جوانب الحياة الشريرة تتخذ احجاما عملاقة ، بينما تختفي جوانبها الطيبة . انه يرى فقط قذارة ! قذارة ! ! ويريد ان يتقيأ اما من الحماقة او من المغالاة في الاحساس بالذات ؟ لا ليس من الحماقة اذ انه كتب مسرحية طيبة للغاية. اذن فمن المغالاة في الاحساس بالذا ت. هناك ١٣٠٠ مليون انسان يعيشون على هذا الكوكب . كل منهم بؤرة عالمه . وهاهم كل واحد منهم يصر على ان يكف الاخرون عن أداء وظيفتهم (٨) .]

ورغم ان هيرتزل كان لديه احساس بالدراما وبعض الموهبة للحوار ، الا انه لم يكتب مسرحيات يمكن أن تبقى ذكراها لذاتها او لانها المنجزات الرئيسية التي حققها في حياته .

ولم يكن باي صورة مجددا ، فقد كان سيء الحظ لانه كتب في فترة كان فيها نهر الدراما الهادىء في النمسا يغير مجراه.وظل ما يقرب من عشر سنوات او ما ينيف متخلفا عن الطليعة ، يتناول الشخصيات النمطية لحجرات المعيشة في خلفية من الثريات والدمقس . بينما كان المزاج قد تغير وانتقل الى المناقشات الواقعية للمشكلات الاجتماعية . وكان بذلك مثل كتاب المسرح الذين ظلوا لفترة قصيرة في العصر الذي تلا ذلك يسألون « هل من احد يلعب التنس ؟ »وذلك بعد ان كانت مسرحية «انظر وراءك في غضب» ، التي كتبها جون اوسبورن ، قد خلقت اسلوبا مسرحيا اكثر قوة مع خلفية اشد كآبة . وكانت مساهماته سطحية في مسرح قبل قبولا شديدا على اي حال . وكان « هيرمان سودرمان » (١٨٢٩ — ١٨٥٧) الكاتب الاول لهذا المسرح لم يفز في المراجع المهتمة بالمسرح الا بعامود قصير لا يتعدى بوصات قليلة .

وكانت احسن مسرحيات « سادرمـــان » المعروفة هي « دي هايمات Die Heimat التي ظهرت في انكلترا وامريكا تحت اسم « ماجدة » «Magda» تضع المرأة الجديدة في فك الحوت في المسرحية الجيدة الصنع . وحتى هذا لم يحدث في مسرحيات هيرتزل . ولم يذكر ايضا عن المسرحيات شيء في معظم المراجع ، ولم تمثل .

وبعد ذلك عندما وجدت دوافعه الدرامية ، الى جانب اشياء كثيرة غيرها ، مخرجا اخر ، فان هيرتزل نفسه تأرجح بين الاراء المتضاربة حول قيمة « قطعة » المسرحية . وذكر في شهادة ادبية كتبها بعد اثني عشرة عاما من اخراج مسرحية « تابارين » في نيويورك ، « اعتقد انه يجب جمع اعمالي المسرحية ونشرها في كتاب واحد (٩) » . غير انه عاد بعد ذلك بعام واحد الى التقليل من قيمة اعماله المسرحية .

[ان عددا كبيرا من مسرحياتي قد مثل في مسارح مختلفة ، بعضهـــا لاقى تصفيقا كبيرا ، والبعض الاخر فشل فشلا ذريعا . وحتى هذه اللحظة لا استطيع أن افهم لماذا نجحت بعض مسرحيات بينما قوبلت الاخرى بالصفير والاستنكار على المسرح . ومهما كان الامر فان هذا التباين في استقبـــال مسرحياتي علمني أن اتجاهل كلية ما اذا كـــان الجمهـــور يصفق او يصفر لمسرحياتي . فيجب أن يكون ضمير المرء نفسه راضيا عن عمله وكل ما بقي غير ذلك فليس مهما . اني اتبرأ الان من كل مسرحياتي حتـــى تلك التي ما زالت تقابل بالتصفيق في مسرح « بورجتياتر » (مسرح البلاط الامبراطوري في فينا) فلم اعد اعير اي منها اهتماما .] (١٠)

وكان للاجيال اللاحقة الحكم الثاني . فقد ظهرت دراسة قصيرة واحدة فقط عن هيرتزل ككاتب مسرحي . وقد نشرها في فينا ، بعد ٣٠ سنة من وفاة هيرتزل ، « جوزيف فرانكين » ، الذي اعجب بهيرتزل اساســا كخالق لشيء غير المسرحيات (١١) . وحينئذ كان هناك « قطعتان » فقط من قطع هيرتزل المسرحية يمكن الحصول عليهما مطبوعتين* . والطريقة الوحيدة للعثور على نصوص المسرحيات الاخرى كانت نشر اعلان عنها في كتالوغات بيع الكتب . ويتهم فرانكين ، اخوان هيرتزل في الدين عامة بالجحود . لانهـــم لم يبقوا

---

* الجيتو الجديد ، The New Ghetto ، والطريد The Fugitive

على حياة الاعمال الدرامية لشخص يرتبط ارتباطا وثيقا بمستقبلهم . وفي مكتبات تل ابيب يمكن ان تجد ترجمات عبرية لمؤلفات « كونان دويل » ، و « ادغار والاس » وحتى لكتاب معادين للسامية ، ولكن لن تجد ترجمات عبرية لمؤلفات هيرتزل .

والمسرحيات التي لا تعيش تثير في ذهن المرء استعارات عن حطام السفن . ولا يمكن لاي منقذ للحياة ان يبعث الحياة في كاتب مسرحي فشل في ان يحمل المعدات اللازمة للبقاء على قيد الحياة .

ان اي كاتب مسرحي يمكن ان يكتب له الدوام اذا قدم بعض المشكلات الانسانية المعاصرة بقوة عاطفية او عقلانية كافية . [فمثلا ، النزاع بين قوانين الدولة والضمير الانساني جعل مسرحية انتيجون لسوفوكليس مسرحية تناسب معظم المجتمعات] . او اذا صور الكاتب انماطا انسانية بالغة العمق،وبعث فيها الحياة بقوة تجعل شخصيات مثل «هاملت» و«سيرانو دي بيرجراك» تقفز وراء الزي وعوائق المسرح — مثل اوسكار وايلد — بسطور فيها كلام بارع الذكاء لدرجة تصبح معها شخصيات مثل « الجيرنوت » ومس بريزم ، شخصيات لا تموت ابدا . وفي عصر الشعر يمكن للكاتب المسرحي ان يحقق ما يساعده على تخطي جدران النسيان .

غير انه عندما يفتقر الكاتب المسرحي الى كل ذلك العتاد كما كان الحال مع هيرتزل ، فلن يستطيع جمهور مهما كان ممتنا له ان يعيد اليه الحياة .

وهناك مسرحية واحدة فقط من مسرحيات هيرتزل وهي « الجيتو الجديد » . يمكن ان تسمى « تراجيديا » — ماساة — وفيما عدا ذلك ، وباستثناء « سلون في اللد » Solon in Lydia ،و « جريتسل » وهي ماساة عاطفية ، فان اعمال هيرتزل تتكون من الكوميديات . غير ان هيرتزل ، ككاتب مسرحي ، يفتقر الى الموهبة الوحيدة اللازمة لكتابة المسرح . فقد كان لدى معاصره « جورج فيدو » (١٨٦٢ — ١٩٢١) احساسا بالموقف ، وقد افتقر الى سرعة هزل جورج كما افتقر الى الذكاء الالي الذي كان له الفضل في الابقاء على اعمال « غولدوني » Goldoni . وكان الى حد كبير ابن امه التي يذكرها مراقب ذكي بانها كانت « جليلة ومخورة وفاضلة — ولكنها تفتقر الى روح الفكاهة كلية (١٢) » — ولذلك لم يستطع ان يحقن شخصياته بتلك الدماء التي يصبح الحوار من غيرها قاحلا غير لوذعي .

ويعترف « اليكس بين » صراحة بأن ، « هيرتزل لم تكن لديه الفكاهة

التي تثير الضحك من القلب ، والتي تتطلب من الكاتب ان يعلو بنفسه تماما فوق حياته الخاصة وفوق حياة اولئك الذين من حوله ، فكان هيرتزل شخصا جادا للغاية (١٣) » .

ولم تكن المسرحيات ايضا بالرداءة التي تجعلها تعيش فترة مؤقتة بالطريقة التي عاشت بها ميلودرامات مثل « جريمة في الحظيرة الحمراء » . وهذه الميلودرامات تنبع من عصر مثير للسخرية ومكتظ بالاثاث ، ورغم هذا فالديكور فيها يصور بطريقة ضعيفة ، والحوار خال من المفارقات الكافية لاثارة الضحك .

ورغم ذلك فان مسرحيات هيرتزل مهمة ، كعلامات في طريق خاطىء ، ولانها تكشف عن شخصيته واهتماماته . وتنم الطريقة الساخرة التي يتناول بها موضوع الحب على مستوى الغزل او الشهوانية ، عن الفراغ الذي كمن في بؤرة حياة هيرتزل .

وتوضح الاسماء التي اختارها لمسرحياته الخمسة عشرة التي اتمها بعد مسرحية « قضية هيرشكورن » مدى التنازلات التي قدمها عقل جاد واع لارضاء الذوق الشعبي . وتوضح تواريخ تاليفها وظهورها على المسرح انه رغم اضطراره احيانا الى الانتظار لاخراج مسرحياته فان اجره كان احسن من اجور كثيرين من كتاب المسرح الذين كان لديهم الكثير ليعبروا عنه وعبروا عنه باسلوب افضل . ومما له مغزاه ان المسرحيات ـ التي كتبها بالاشتراك مع « هوغو ويتمان » الذي كانت روح الفكاهة عنده اقوى من روح الفكاهة عند هيرتزل ـ كانت اكثرها نجاحا .

الفصل الثاني عشر

لم يكن هيرتزل من الكتاب الدراميين الذين يكشفون عما يعتورهم من افكار فيما يصورونه ، لان حواره كان ابعد ما يكون عن الشاعرية ، ولم يكن مترابط النسيج . وقد كشف عما يجول في نفسه او الامور التي تقلقه في موضوعاته المتكررة . وكان ابرزها موضوع الزواج على النهج المتبع في فينا . وقد زودته تجاربه مع النسوة الصغريات المغريـــــات على الزواج وملاحظاته للاسلوب الذي يتم به ترتيب الزيجات في المجتمع الذي يعرفه ، بنظرة ساخرة .

وكان ولعه بماجدة ، ومعرفته المسبقة بما ستؤول اليه المراهقة ذات الدلالة ، قد جعل من شهر يناير من عام ١٨٨٦ شهرا مرا مثل سمائه . ولم يكن يمكنه ان يتكهن بذلك اليـــوم الذي سيرى في عصره البارد ، المتزلقين بالقباقيب في فرائهم ، وكيف ان ماجدة ستستبدل بسرعة بالفتاة التي كتب عليها أن تحتوي ليست تجربته الشخصية للزواج فحسب ، بل ايضا اخـــر محاولاته للحب .

وكانت « جولي نامشاور » تصغر هيرتزل بثمان سنوات . وكانت تفيض بصحة متألقة مثـل مجلدة غادة الانزلاق ، وكانت لهـــا لفتــات جميلة اعجب بها اي اعجاب : كان شعرها اشقر ، وعيونها في زرقة عيون بطلته التي تخيلها في « اليوميات » ، وقد عرف هيرتزل عائلتها قبل ان يترك المجر لان عائلة نامشاور انتقلت الى فينا من بودابست مثل عائلة هيرتزل . وقد ولدت « جولي » وشقيقاتها الثلاث في المجر . وجاءت عائلة هيرتزل الى بودابست من سيملين في الجنوب ، بينما جاءت عائلة نامشاور من

الاتجاه المضاد ، فقد كان جد جولي « موريتز ناسشاور » من مواطني بوهيميا ، وهي تشيكوسلوفاكيا الحديثة . وكانت ثمة اوجه تشابه اخرى ، واوجه خلاف ايضا . فقد عاش « ميورتز ناستشاور » مثل جد هيرتزل في ظل التقاليد اليهودية الصارمة ، التي عبرت عن نفسها في حالته عن طريق الاخلاص للتعاليم والفلسفة اليهودية وليس عن طريق الاخلاص لحاخام شاذ .

وكانت النقود تجيء في مرحلة اقل من التقوى بالنسبةلموريتز رغم انه كسب من المال ما يكفي لكي يعلم ولديه تعليما حديثا (١) . اما الاخ الاكبر « فيلهلم » فقد انتقل الى فينا في بداية عام ١٨٦١ وذكرت سجلات المدينة انه شاب في الواحدة والثلاثين من عمره يعمل في شركة « موريتز كولينسكي » ويعيش في « ليوبولد شتادت (٢) » وقد تزوج على الفور تقريبا من « جولي كولينسكي » ابنة رئيسه لانه انجب طفلا « فرانز فيكلس » في عام ١٨٦٣ ثم طفلة « شارلوت » في عام ١٨٦٥ (يبدو ان كلاهما لم يتزوج) . اما جاكوب الذي مكث في بودابست كشريك لشقيقه فقد تزوج من جوهانا كولينسكي في نفس الوقت تقريبا . وكانت جولي طفلهما الرابع ، والاخرون هم تيريز ، وبول ، وهيلين ، وايلا ، وقد ولدت الاخيرة عام ١٨٧٥ وماتت غير متزوجة في عام ١٩٣٩ . وهناك غموض يحيط بالفتاتين اللتين تزوجهن الشقيقان . فلم تمتد الحياة بموريتز كولينسكي طويلا بعد الزيجات ، بينما عاشت ارملته « فرانسيسكا » (التي وصفت بأنها « صاحبة البيت ») حتى عام ١٨٩٧ في البيت الكبير في ليوبولد شتادت ويبدو انه ليس ثمة شيء معروف عمن كانوا آل كولينسكي . فرغم ان الاسم بولندي فليس مؤكدا ما اذا كانت « فرانسيسكا » نفسها من نسب يهودي من ناحية الام .

واذا لم تكن كذلك ، فانه طبقا للـ « هالا شا » او القانون اليهودي التقليدي فلن تكون جولي زوجة فيلهلم ولا جوهانا زوجة جاكوب يهوديتين* .

---

* رغم ان فرنسيسكا وجوهانا دفنتا مع زوجيهما دون شواهد على القبور في « زينشر الفريد هونس » (٢) في فينا الا ان ما كتبه جيرالد ابراهامز المتخصص في الشئون الدينية اليهودية في عدد « الجويش كرونيكل » الذي صدر في ١٩٧١/١/٢٢ ان الـ « هالا شا » هي منخل ورغم ان شبكته ليست اضيق الشبكات فهي (تستبعد سلالة هيرتزل) [بين الاقواس من كلام المؤلف] وتسمح بمرور سبينوزا .. وهذا يشير الى ان فرانسيسكا كوليسكي ، ام جوهانا وبالتالي ام جولي كانت خارج المجامع اليهودي .

وربما كان « موريز كولينسكي » قد حث على زواج ابنتيه من الشقيقين كصفقة يتوفر للشابين فيها المال لمواجهة اية مشكلات دينية قد تظهر في المستقبل عندما يكبر اولادهم ويصبحون اهلا للزواج . ولم تظهر المشكلة في حالة فيلهلم (الذي لم يتزوج ابناؤه) .

وقد استغل الشقيقان فرصهما احسن استغلال . فبينما بقي فيلهلم بمنزل كولينسكي في فينا ، بقي جاكوب وجوهانا في بودابست حتى عام ١٨٨٠ ، وعندئذ انضما الى فيلهلم ناسشاور في فينا . وكون الشقيقان شركة مستقلة باسم « فيلهلم » . ونجحت الشركة نجاحا مذهلا . وقد ساعدتهما اتصالاتهما في جزئي المملكة المزدوجة على الكسب من مشروعات كثيرة : عمولات للخزانة النمساوية ، مشروعات اصلاح اراضي متعلقة بالسيطرة على مياه الدانوب ، المتاجرة في الفواكه والذرة . وحتى استغلال وقود جديد وهو البترول في المناطق الشرقية من الامبراطورية . ورغم ثرائهما فانهما لم يتصرفا بالاسلوب المهذب في انفاق المال الذي كان يمكن ان يجعل اسميهما يدرجان في قاموس السير النمساوية المكون من ٦٠ جزءا ، وهو قاموس غني بالاسماء اليهودية . وكان هيرتزل ينظر اليهما على انهما « محدثي نعمة » ، اسلوب حياتهما مختلف عن اسلوب حياة عائلة هيرتزل بصورة حقيرة وان كان يحسدهما عليه . وبينما كانت عائلة هيرتزل تتجه بانظارها نحو المانيا ، كانت عائلة ناسشاور تتجه بانظارها بطريقة اكثر مادية واكثر تكلفا نحو فرنسا . كانوا مميزين في الاوبرا ، وكانوا يملأون احاديثهم بالعبارات الفرنسية ، ويجمعون اللوحات الفنية ولا يجعلون من ثمنها سرا . وفي عام ١٨٨٩ اصبح العم « فيلهلم » « فارسا يحمل وسام الشرف الفرنسي . وقد دفنوا اي اهتمام بالدين واصولهم البوهيمية ، وكانوا في اخلاقهم يتشبهون باخلاق غير اليهود اكثر من عائلة هيرتزل* . فلم يرب

* كان تحول جاكوب ناسشاور البطيء « الى صورة طبق الاصل من والده » نتيجة غريبة من نتائج السير التي تقدس اشخاصها . وفي وصفه المباشر كتب ليون كيلز (١٩٢٠) يقول : « ان موريتز ناسشاور ، الذي هاجر وهو شاب الى المجر ، وكرس اهتماما اكبر لدراسة الادب اليهودي من الحصول على المال ، علم ابناءه فيلهلم وجاكوب (١٨٣٧ — ١٨٩٤) تعليما مثاليا » . والصورة التي رسمها الدكتور « اليكسي بين » لوالد جولي (في السيرة الالمانية منه عام ١٩٣٤) تجعل جاكوب نيشاور متناقضا تماما مع والده موريتز اذ يقول : « فلم يكن مثل والده الذي كان اهتمامه منصب على الادب اليهودي

الاطفال ليذهبوا الى المعبد او يحترموا القوانين الالهية .

وبدأ هيرتزل يزور عائلة ناسشاور عندما كان طالبا وبعد ان جاء جاكوب بعائلته الى فينا . وكانت جولي في السن التي وجدها فيه جذابة للغاية بين عام ١٨٨٠ عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها ، والعام الذي حصل فيه على درجة الدكتوراة وكانت عندئذ في السادسة عشرة . غير انه كان في تلك الايام طالبا قلقا بشأن مصاريف المدرسة ، وغيرها من الامور . . . وكان فارق الثروة بين عائلته ــ وكانت تعتبر ثرية بقدر متواضع على احسن الفروض ــ وعائلتها يضعها في نطاق الفاكهة المحرمة في الجنة البلوتوقراطيــة .

ومن المشكوك فيه بما اذا كان حتى وهو طالب قد احترم ما يمثله فيلهلم وجاكوب ناسشاور ، ومن المؤكد انه احتقرهما فيما بعد ، ودائرتهما كما يتضح ان اثنتين على الاقل من كتاباته الرئيسية* غير انــه كــان واضح الرؤية فرأى أن اموالها يمكن أن تكون مفيدة للغاية في ايد اقل فظاظة .

وفي ٢٨ فبراير عام ١٨٨٦ ــ وهو اخر يوم من الشهر الذي اعقب هيامه بماجدة ــ تسجل مذكراته مشهدا يوضح الثقة الجديدة للكاتب الذي نشرت اعماله ومثلت مسرحياته في نيويورك (٦) . وتقول المذكرات :

« كنا نقف في الشرفة . وسألتها هازلا ان تمنحني قبلة . ورفضت لسبب واحد فقط : وهو اني قد أتكلم .

« اقسم بحياتي يا جولي فلن افعل » .

وعندئذ لم يعد وجهها المتورد يتجنب وجهي. قبلة بمثل هذه الحلاوة! »

والفلسفة اكثر من انصبابه على المال ، بل كان مثالا نموذجيا لكل اول جيل من اليهود المتحررين ، والذي مكنهم التحرر من جميع انواع الصعود المالي السريع (٣) » . والنسخة الانجليزية للصورة التي وضعها الدكتور « بين » (١٩٥٧) تغير من شخصية ناسشاور كما انها تضيف الى اسمه اسما جديدا وضــع في الاول اذ تقول : « كان جوزيف ناسشاور ابن مهاجر من بوهيميا . رجل ذو ثقافة واسعة ، يهتم بالفلسفة اليهودية اهتماما خاصا وبالادب اليهودي ايضا ، وكان ناسشاور ناجحا في التجارة بصورة شاذة (٤) » . ومن هنا ننتقل خطوة اخرى الى رواية اندريه شدراك (١٩٧٠) التي ذكر فيها : « ان هيرتزل استحسن الرجل [جاكوب ناسشارر] لثقافته الواسعة وشجاعته الادبية والفكرية ومعرفته في مجال كان مجهولا لتيودور وهو الثقافة اليهودية والفلسفة (٥) » .

* يسخر من عائلة ناسشاور في روايته الجيتو الجديد ١٨٩٤ وروايته التائيولاند ١٩٠٢ .

من شفتين طريتين ، عطرتين مستسلمتين . كنت قد تأثرت تماما عندما عدت الى الحجرة .. غارقا في الحب .

شيء لا يصدق » .

وقد اعطته جولي قبلتين اخريين بعد ذلك بثلاثة اسابيع . وفي تلك المناسبة وبسبب الحذر كانت القبلات قصيرة — فقد كان الهر ناسشارو « ابي الحبوب الذي لا يحتمل ! » — يتحدث مع اثنين من التجار في حجرة مجاورة . ولم يكن هيرتزل قد تعلم ان يبتسم لاولئك الذين لا يحبهم ، حتى لو كانوا آباء محبوبته . ورغم ان جولي رجته ان يبقى ، فقد خطى باضطراب الى العالم الخارجي ، وفي وحدته المليئة بالضوضاء كان يعيد تذوق النصر الذي احرزه بتقبيلها . كان الاتصال بالاخرين مؤلما . وبينما وضع شفتيه على سيجار ، وكأس ، طعنه الشعور بالذنب : لقد كان يخفف من انتصاره . ولكن حتى وهو يدرك طبيعة الحب السريعة الزوال ، فقد عزاه انه اكتسب حبها . لقد شربت قبلته الثانية بنهم .

وكان حب جولي الواضح له بمثابة تدليك لذاته ، ولم يلح في سؤال نفسه ما اذا كان يبادلها ما شعرت به . وكتب يقول « لقد تأثرت بهذا الحب الصغير البريء ... ومن الواضح انها حقا تحبني جدا » . وكان حب جولي في موسم من القحط بمثابة مجاملة منعشة له : « قطرة من الحلاوة في كأس الطموح الفاشل الجاف المرير » . وتؤكد مذكراته في مدخلها بتاريخ ١٠ مايو اعجابها به : « كلمة حب صغيرة من جوليت الصغيرة المزيزة ، التي احبتني اعتقادا منها اني احبها . ولهذا فيجب ان احبها » . وفي هذه المناسبة رافق احد الاصدقاء هيرتزل الى منزل ناستشاور . وفي دور مبعوث هيرتزل بحث العلاقة مع جولي . واقرت واعترفت بأن العلاقة لا مستقبل لها . وقررت الا تفقد عقلها بسبب برجل لا يستطيع الحصول عليها .. وسألها عندئذ صديق هيرتزل ، وماذا تفيدها العلاقة ؟ فقالت « الحاضر ! »

ولم يحزن هيرتزل لرد جولي وانما تأثر فقط . وقرر انه من الشفقة ان يتسبب في اذى بسيط عاجل ، بدلا من الم آجل اعمق . فسينهي كل شيء ، غير ان قراره اثبت انه اضعف مما كان يريده.فاتخذ خطوة اولى بعد ذلك بعشرة ايام . وكانت جولي قد اخبرته انها ستذهب الى مسرح برجتياتر في ٢٠ مايو . وتردد هيرتزل . وكان الاختيار منطقيا فاما ان يلحق بها في المسرحية او يبقى بالمنزل . وبدلا من هذا وذاك جلس اثناء المسرحية في مقهى عبر الشارع من المسرح . وفي النهاية وعندما كان ينادي

على العربات تعمد ان يمر بعربتها رافعا قبعته السوداء فردت بايمـــاءة حزينة . ولم يكن هذا كل شيء . فقد عرف الفندق الذي ستتعشى فيه هي والعائلة . وفي حوالي الحادية عشرة دخل حجرة الطعام وحيا الاخرين ، وتعمد تجاهلها . وكتب يقول « اخذت عيناها الزرقاوان تزدادان حلكـــــة باستمرار ، فقد جرحت حقا . الم اكن انا قد جرحت ايضا ؟ ولم انظر اليها » . ومع ذلك فان عواطفه كانت معها .. ولو لم تكن عواطفه معها لما انتظر في المقهى البذيء . وبعد أيام قلائل ، عندما هاجمه الندم ، راح يشرح لهـــا الدوافع لتصرفه البارد واحتجت بأن هذا العلاج بدلا من ان يشفي المرض زاده وطأة . ومر اسبوع اخر وتمسك باصراره . ولما وجهت اليه دعـــوة جديدة ، بقي في المنزل ، ولم يرسل اعتذارا او عذرا وساءه ان يثابر ولكنه ثابر . وكتب ما توقع ان يكون الشاهد على قبر هذا الحب واستخدم اللغة التي ترمز الى الهوة بين الفتاة الثرية والمؤلف الذي ما زال يعتمد على ابيه وامه اللذان ينتميان الى الطبقة المتوسطة .

« لقد انتهى الامر تماما » .

ثم اغلق مذكراته لمدة عام .

وربما كان من الافضل للاثنين لو ان المذكرات لم تفتح على حبهما . ولم يعد هيرتزل محطم القلب بسبب الخلاف مع جولي في مايو اكثر مما كان بسبب انفصاله عن ماجدة قبل ذلك بأربعة اشهر،والارجح انه لم يحب جولي اكثر ، ولم يسخر من عائلتهما وقيمها بصورة اقل . وبعد شهرين فقط من القطيعة النهائية كتب من فرنسا يقول «العمل جنة» (٧) واستمر في كتابته لوالديه يقول ان منتجعشانيل لا شك انه اجمل مكان يمكن للمرء ان يتصوره. وقد سحرت اناقة المكان الارستقراطية جانبا من روح هيرتزل . بينما كانت الرمال الناعمة التي تتمزج بالبحر تثير الغبطة في القادم من وسط اوروبا والذي كان هذا المكان الجديد ذا جاذبية مزدوجة له لانه مكان ناء .

ادرك جاكوب وجانيت هيرتزل ان الترياق لعلاج مرض ابنهما هو السفر . وكانت السكة الحديدية توفر للاوروبيين في القرن التاسع عشر تنقلا اكثر راحة ، فكانت بالكاد سرعتها اقل من خطوط الطيران الحديثة ، لان القطارات كانت تسير في مواعيد دقيقة للغاية وكان حجم جمهور المسافرين اصغر بكثير من حجم الجمهور الحالي . ومنذ نهاية شهر يونيو حتى عودته الى فينا في نهاية شهر اغسطس . كان هيرتزل يتنقل في غرب اوروبا ، ووصل الى فرنسا عن طريق التيرول وسويسرا . واثر فترة قصيرة امضاها في باريس

انتقل الى نورماندي وبحر المانش .

ولم تعرف الطبقة المتوسطة في العصر الفيكتوري ذلك الولع بالشمس الذي اسر ابناء ابنائها . وكان جنوب فرنسا في ثمانينات القرن التاسع عشر مغلقا ومحروما من الاجانب في شهور الصيف . ولذلك فعندما اختار هيرتزل ان يرتاح من جولي في نورماندي فلم يكن قد اختار نعيما منعزلا ، بل كان يغرق ضيقه في دوامة معقدة .وبزيارته لدييب ، وروين ، وليهافر ، وتروفيل ، بصفة خاصة،كان يقترب لاول مرة من المجال المغناطيسي لانكلترا بما لها من اسطول قوي ، اقوى من اساطيل العالم مجتمعة ، وجنيه ذهبي اقوى من جيوش ملكتها وكان بين سياسييها النظريين وبين معلمي هيرتزل الفيناويين تشابها في نواح كثيرة . (ايد كارل مينجر مقالا لادام سميث نوقش كثيرا في « نيو فري بريس ») . وقدر للجزيرة البريطانية ان تلعب فيما بعد دورا سياسيا حيويا في فترة حياه هيرتزل . وفي عام ١٨٨٦ كان هيرتزل يشعر بان هناك قوة وراء الافق الذي يغشاه الضباب ، هي دولة النظام والمعتقدات الليبرالية .

وقضى هيرتزل اجازته في نورماندي في حالة نفسية طيبة . ولم تكن ماجدة او جولي او قلقه على صحته سببا في القاء اي ظلال قاتمة على الاجازة ويبعث الى والديه بانطباعات زائفة وباشارات الى تحركاته وذلك في رسائل قصيرة . وكان بذلك يطيع نصيحة والديه بأن يكتب بطلقات فحسب لان احاسيسه وانطباعاته وافكاره يجب ان تكون موضوعات كتاباته الجادة ، « التي لا تخصنا انما تخص العالم (٨) » .

كتاباته الجادة : وهنا للاسف فان السماء كانت مكفهرة . فبينما كان يقوم برحلته فيما اسماه بـ « مكان كبير في العالم ومكان في العالم الكبير (٩) » كان يحمل معه مسرحيتين ، احداهما لكاتب انكليزي ، والاخرى كتبها بنفسه . فكان « ادوارد جورج ايرل ليتون بولدار ليتون » (١٨٥٣ — ١٨٧٣) ، رغم انه يشار اليه على انه كاتب للرواية ، الا انه كتب مسرحية عنوانها بالغة القصر بالمقارنة باسمه البالغ الطول وهو : « المال » ، ورغم انها كتبت في عام ١٨٤٠ ، الا ان تلك الكوميديا الجادة استمرت تستحوذ على اعجاب الجمهور حتى عام ١٩١١ على الاقل ، عندما سجل عنها انها اخرجت لكي تمثل في « دوري لين » في لندن . وكانت مسرحية هيرتزل « صاحب الجلالة » قد تمت فورا قبل ان يبدأ رحلاته . وبمجرد ان انتهى منها ادرك ان موضوعه قد يشابه كثيرا موضوع « بلفرز جيلد » . وفي مناسبات كثيرة

فيما بعد كانت تقلق هيرتزل مخاوف مشابهــة بانه قد يتهم بانتحال افكار الاخرين . وكان على قدر من الذكاء لا يمكنه معه أن يتظاهر على عكس الادلة وبأن ما استعاره انما من افكاره هو . فيجب حقا ان يكسب ولكن من انجازاته الشخصية . ولذلك عندما قال « كانا » ــ الذي كانت قسوته على غير العادة تعيبها مشاعره ــ لوالديه الرومانيين ، أن تيودور فاز بالتأييد الجماعي لممتحينه في الجامعة . فقد صحح له هيرتزل ذلك قائلا : انه في الحقيقة عاد الى منزله بقرار جماعي .

وبهذا فقد ازعجته ايضا الحقيقة بأن مسرحية « تابارين » اخذت عن مسرحية « لكاتول منديس » وذلك عندما تقرر في عام ١٨٩٤ مناقشة اخراج جديدة لمسرحيته الاولى الناجحة مع « بوركهارد » مدير مسرح « بورجتياتر » في فينا . والان في صيف عام ١٨٨٦ قضى هيرتزل لحظات مؤرقة يتساءل ما اذا كان قد اقتبس بغباء فكــرة من « بولفر ليتــون وبعــد ان قرأ المال اطمأن الى النتيجة وهي انه هو والانكليــزي عالجــا هدفا واحــدا من اتجاهات مختلفة ، لان مسرحيته « صاحب الجلالة » لم تشر الى امير او دوق بل الى شيء أكثر سطوة وهو : « المال السافر » . ويلخص « جوزيف فرانكل » فلسفة هيرتزل في ذلك الوقت قائلا : « المال هو القوة وكل الاشياء المضيئة تستمد ضوءها من وهج الذهب الشمسي . وبالمال تستطيع شراء المجد والشرف والاحترام . ان المال يحيل الحقراء الى لوردات في المجتمع وينتهك المال العالم بلا رحمة ، فيفرق بين العشاق ، ويزوج بين الناس ويحطم العائلات الى اجزاء والى ورثة ، ويمكن ان تشتري الولاء ، والحب ، والصداقة ، وكل الناس وكل شيء بالمال (١٠) » .

وقد كتب المسرحية بعد ان تنبأ بأن ماجــدة سوف تنحــدر وتصبح زوجة مدللة لسمسار للاوراق المالية ، وذلك عندما وضعت الفوارق المادية بين عائلة ناسشاور وعائلة هيرتزل جولي بعيدا عن متناول يده . والمسرحية تؤكد هذه الحالة ولا تنفيها . ولم تكن فكرة نفوذ المال السائد عندئذ غريبة على هيرتزل . فهي فكرة متكــررة في مؤلفــات شارلز ديكنــز ، النتاج الحساس الاخر للراسمالية الفيكتورية وبالنسبة لديكنز فان الثري الاعزب هو حالة من عند الله ولكن البخيل يمكنه ان يصحح الامور اذا انفق ذهبه . غير ان تصوير هيرتزل لسطوة المال يبدو اكثر اليه لان شخصياته ، غــــير شخصيات ديكنز تفتقر الى الحياة . فهي دمى تصور نظرية مستقاة من نظرة عميقة باردة لمدينة كبيرة ساخرة .

ورغم هذا فان فينا كانت تعترف بقوة عشق المادة بصراحة اكثر من

لندن « ديكنز » . وفي مجال « الحب » فان « صاحب الجلالة » مارس سلطاته بطريقة مؤذية للغاية .

وقد أعاد الدكتور اهلسدورف ـــ المحامي في مسرحية هيرتزل ـــ صياغة القول اللاتيني عن الزواج بأنه « شركة الحياة كلها » قائلا انه شركة الحياة باجملها وشركة للمضاربة .

والصرير الصادر من مسرحية هيرنزل يحاول ان يبين ان اهلسدورف على صواب ، وذلك باستثناء شخص واحد وهو بطلة المسرحية الشقراء « لوسي » . فطالما اعتقدت أن والدتها « تيريز » ثرية كما تبدو وانها ترتدي اثوابها الحريرية وتقيم امسياتها الرائعة الحديثة كجزء من واجباتها نحو المجتمع « الطيب » . والواقع ان امها غارقة حتى اذانها في الديون بسبب حبها للمظاهر . ومبداها في ذلك واضح تماما : فبدون المال لن تستطيع ان تعلو في المجتمع وبدون المال لن تعثر لوسي ابدا على زوج . وعندما تعلم لوسي بالحقيقة فانها تريد ان تبدأ حياة جديدة وان تجد وظيفة . وتقرر ان تقطع علاقاتها مع « فرانز هيلفاج » (صاحب القلعة الثري) الذي خدعته مظاهر امها وجعلته يشعر بأنه اقل منها .

وقد احتفظ جوزيف فرانكل الامين بمشهد واحد (العاشر) من الفصل الثالث . وهو يبين بوضوح طعم كتابة هيرتزل الكوميدية .

لوسي : ماما ؟

تيريز : طفلتي ! لقد قال لي صديقنا اهلسدورف توا ان .. ان

اهلسدورف : قولي فورا .. لا داعي لان تنمقي الاخبار الطيبة .

تيريز : ... ان ثروة غير متوقعة ...

اهلسدروف : يا للكلمات الطويلة التي تستخدمينها ! رجل عنيد ، واحد من مديني ابيك المحترم .. قرر اخيرا يا آنسة لوسي ان يدفع لك ما عليه من ديون .

لوسي : حقا ؟

اهلسدورف : وهو مبلغ كبير في الواقع .

تيريز : .. سنجد انفسنا مرة اخرى في ظروف احسن .

لوسي : ماما . لا يصح ان تتآمري ضدي مع اخرين .

اهلسدورف : الا تصدقينا ؟

لوسي : ولا كلمة واحدة . ان الهير هيلفيج يريد ان يمنحنا النقود بطريقة غير مباشرة والظاهر ان احساسنا بالكرامة لا يستحق ان يراعى اذا

كنا سنسمح لانفسنا بأن نحتقر .

اهلسدروف : ... ان كلماتك تمس شغاف روحي .. افضل طريق هو الطريق المباشر . فراولين لوسي اني ابلغك ان هناك ارثا في الطريق اليـــك .

لوسي : اني اعلم ان هذا غير صحيح .

اهلسدورف : هكذا اذن ؟ انك نسيت ان هناك رجلا اسمه اهلسدورف اصبح له شيء عن طريق مباشرته لشؤون الاخرين ، وهو يختارك في وصيته الوريث الوحيد .

لوسي : هير اهلسدورف .. ارجوك الا تزج بنفسك في شؤوننا .

تيريز : لوسي !

اهلسدروف : ها انت تمسين شغاف روحي مرة اخرى ... ولم اكن استحق افضل من ذلك . لوسي لقد مددت لي يدك مرة . وكنت سيئا لدرجة اني لم آخذها . واليوم يا عزيزتي لوسي فاني اطلب بتوسل يدك الصغيرة الشجاعة . لا يجب ان تقاوميني. فانت وريثتي . وانت مناسبة لي تماما الان. ولو انكدرست القانون فستعلمين انك لا تستطيعين ان تمنعيني من اختيارك وريثة لي .. افهمت !

فرانز : (في وسط المسرح) اين سيؤدي بنا كل ذلك ؟ . انا لا اعرف ما اذا كانت الانسة لوسي تحبني . ومع ذلك فاذا كانت تحبني ولا تثق في اني لم اسع ابدا الى تلك الاموال التعسة . او اذا كانت من العجرفة بحيث تنساها ... فاني في طريقي اذن ...

لوسي : (ترتجف) فرانز !

فرانز : (على ركبتيه امامها) لوسي !

اهلسدورف : (يجذب تيريز الى الامام) اننا نرى اشياء جميلة يا سيدة تيريز . أن ابن زوجك غني الى حد فاحش .

تيريز : (تضحك) لن اؤاخذك اذا قلت ذلك .

اهلسدورف : وانت على حق . لانه كما قال احد المفكرين مرة بذكاء المال وحده لا يسعد ، فالمرء يجب أن يحصل على الحب .

وعاد هيرتزل الى موضوع الزواج مرة ثانية اثناء بعده عن جولي . ففي يناير عام ١٨٨٧ كتب في اقل من عشرة ايام مسرحية من فصل واحد ، « الهارب » وقد كتبها لا لكي يريح قلبه ــ بل حسبما كان يأمل ــ لكي يكسب منها مالا يتيح له القيام باجازة في ايطاليا . وقد حمل مسرحيته السابقة الى

برلين ولم يجد من يخرجها ، ولكنه بدلا من ذلك وطد صداقته مع « آرثر ليفزون » رئيس تحرير « برلينر تاجيبلات » . وقد عهـد اليه « ليفزون » بكتابة مقالات اسبوعيا (او كل اسبوعين) عن الحياة الثقافية في فينا تحت عنوان « جولات حول الاسبوع » . ولم تكن هذه المقالات ذات تأثير كبير على قراء برلين غير ان هيرتزل بدأ في ذلك الوقت بالاحساس بآلام شديدة في مؤخرة رأسه صاحبتها آلام جسدية من أثر حالات الاكتئاب النفسي . وكانت الرحلة لايطاليا تبدو كعلاج محتمل لكل هذا .

وموضوع مسرحية « الهارب » هو الموضوع النموذجي الذي يمثـل هيرتزل كمتقن للحبكات المسرحية وذلك كما يوضح المشهـد الذي اقتبسناه وهو المشهد النموذجي الذي يمثل هيرتزل ككاتب للحوار الدرامي .

هجرت « مارجريت فون جرديتنر » بطلة المسرحية زوجها « هانز » الاحمق. ولم تكن تريد الصلح معه (رغم أنها ما زالت تحبه) ولا الطلاق منه (لان هذا سيجعله حرا لكي يحطم حياة امرأة اخرى). وتعيش مارجريت في منزل منعزل هادئ فاخر مع رفيقتها « آديل » من دخل مصدره غير معروف . وفي احدى الامسيات تقنع « آديل » مارجريت بالذهاب الى المسرح . وتلاحظ مارجريت ان آديل قلقة كي ترحل هي بسرعة . والواقع ان مارجريت لا تكاد تغادر المنزل حتى تصعد آديل الى اعلى لتستدعي « روديجر » جارها الحبيب . وبينما هي خارج المسرح يدخل رجل ويسمع ضجيجا فيختبئ في حجرة نوم « آديل » ، وتعود « آديل » ومعها « روديجر » ، ولكنهما لا يستمتعان معا لوقت طويل اذا ما لبثت مارغريت ان تعود من المسرح مبكرة عما كان متوقع وهي متعمدة ذلك . ويضطر « روديجر » الى الهرب وتستاء مارجريت من سلوك زميلتها وتبحث لها عن حبيب فتجد زوجها مختبئا في غرفة نوم « آديل » ويستيقظ الحب فجأة وسط سحابة من الخداع : لان « هانز » يزعم انه هارب من زوج منتقم . وتعزف مارجريت على « البيانو » ويقبل هانز شعرها حتى يقطع الصلح بينهما صخب شديد . لقد سمـع « روديجر » صوت « البيانو » وابلغه البواب ان غريبا دخل المنزل ، ويعود في غضب طالبا ايضاحا لكل ذلك . وتتحمل «آديل» اللوم لكي تحمي سيدتها . ويعيد كل للاخر خاتمه بين تساقط الدموع . غير ان الصلح يعم الجميع قبل ان يسدل الستار . وتبقى مارجريت في صحبة الهارب ، وهو سجين خجول في وسط ديكور من الاناقة البورجوازية تزينها الثريات . وهناك عبارة واحدة في الحـوار تحمل طابع الخبـرة . « اننا لا نكون قسـاة الا مع من

نحبهم (١١) » .

واسرع هيرتزل بالمسرحية الى « ايرنست هارتمان » (١٨٤٤ ــ ١٩١١) وهو ممثل مشهور في مسرح « بيرجيتاتر » . غير ان رد هارتمان كان ساحقا . ان هيرتزل عنده الموهبة ولكنه يجب ان يبدي المزيد من الاحترام للحياة وان يدرسها بمزيد من العمق . ووجد هارتمان ان الشخصيات ليست اكثر حيوية من تماثيل الشمع في متاحف المسرح (١٢) . واحتدم هيرتزل غضبا لتعليقات هارتمان . ولكن رحلته لايطاليا لم تلغ . واعطاه والداه مائتي جليدر . وبهذا القدر من المال تمكن من زيارة شبه الجزيرة المشمسة كمراقب مميز . ولكن هيرتزل كان يفضل بالطبع ان يسافر من مكسبه ككاتب للمسرح .

وكانت اموال والديه بمثابة تذكرة مقلقة له بعدم استقلاله وبالحقيقة وهي أن مستقبله ككاتب مستقبل غير مضمون كما قال عنه الحاخام في بودابست .

وحمله القطار جنوبا عن طريق البندقية ، وبيزا وليفورنو وروما الى نابولي وتلك المنطقة المباركة حيث يزدهر اللوز ويلمع في ضوء الشمس في معظم اوقات السنة بينما تكون اوروبا شمال جبال الالب رمادية باردة . وفي كاري تعرف بالكاتب المسرحي سدرمان وناقش معه مشكلات الكاتب .

وكانت هذه المشكلات في حالة هيرتزل على وشك ان تصل الى حل مؤقت . وساعدت ايطاليا على ذلك . وجد هيرتزل ان رحلته الثانية التي قام بها للمتعة ــ والتي لم تعد تفسدها احزان الحب المفقود اكثر من رحلته لنورماندي ــ كانت من وحي ظهوره الحقيقي لاول مرة في عالم الادب في فينا . وجاءت نقطة التحول في حفنة الايام التي قضاها في « امالفي » . وهناك خطاب باق يشير الى حالته عندئذ .

« ما شباب « امالفي » فانا « الاخ والخنزير » ، انا الاخ وهم الخنازير ومثل صائد الفيران في « هاملين » ، اتجول محاطا بحوالي خمسين من الانذال الصغار . ويغنون جماعة اغاني صيادي السمك بينما انا اقتل وقتي . وقد ظلت مدينة « امالفي » باجمعها في عيد لا يتوقف منذ وصولي . ويبلغ جنون اللذة قمته عندما ابعثر حلوى قيمتها ٢ صولدي تحت اقدام الاطفال . وعلى الفور تنتفخ الارض بكوم لا شكل له من الفتية والفتيات يتدافعون ويسقطون ثلاثة او اربعة بعضهم فوق بعض (١٣) » .

وكتب هيرتزل مقالا في باب «الفياتون» بوحي من « امالفي » واعطاه عنوان « اميلفي » مقلداً بذلك الطريقة التي ينطق بها بعض السائحين الانكليز الاسم الايطالي .

ولاقت « أميلفي » نجاحا كبيرا عندما نشرتها صحيفة « فينر اليجماين » في عددها الصادر في ٢٥ مارس ١٨٨٧ . وبلغ نجاحها حدا جعل « البارون كوديش » صاحبها ، يعرض على هيرتزل عندما عاد هذا الى فينا وظيفة محرر باب « الفياتون » .

وفي اليوم السابق لبدئه مهام وظيفته الجديدة ، وهي وظيفة طيبة بالنسبة لكاتب في السابعة والعشرين من عمره ، فتح مذكراته التي كان قد كتب في اخر صفحاتها نهاية حبه لجولي .

[مضى عام تقريبا منذ ان كتبت اخر سطر ، وفي تلك الاثناء ، «صاحب الجلالة» ، والرحلة الى « تروفيل » ، ثم الى برلين ثم « الجولة حول الاسبوع » ، وصاحب كل هذا شهرة متزايدة واعصاب متزايدة ، وهذا الخليط الممل من « الفياتونات » ، وزيادة عنف الالم في مؤخرة راسي ، والرحلة الى ايطاليا التي كنت اتصور انها مهرب ، ثم العودة ... دون تحسن مرة اخرى . والان اصبحت محررا لباب « الفياتون » في صحيفة « فينر اليجماين » . وغدا ابدأ مهام وظيفتي .]

ولم يبق هيرتزل في وظيفته طويلا ، فبعد شهرين فقط انذره « بارون كوديش » بالفصل في لهجة مهذبة . وسبب الانهاء المفاجىء لعقد هيرتزل قد يوجد في مجموعة المقالات والقطع الصحفية التي نشرها في كتاب في العام نفسه وكان عنوانها « أنباء من الزهرة » عنوانا مضللا . ولم تكن محتويات الكتاب مثيرة او شيقة .

ولكن تبرز فيها بكثرة سمات اساسية مثل الطموح وحب الذات ، سمات ممتزجة بتلك التركيبات الصارخة للغاية مثل مجد الصباح على الاسلاك الشائكة : وهذه نزعة الى الاحلام . وكانت اول « فياتون » ناجحة له وهي « اليوميات » قد اعيد الان طبعها . ومما له مغزى انها بدات بحلم . وكانت مواهب هيرتزل ككاتب وصفي تظهر في افضل صورها عندما يصف المناظر الطبيعية للارض ، او البحر . الامر الذي دفعه الى ان يحلم احلاما عن الابدي واللامحدود . وحتى عندما كان يفتقر الى مثل تلك الخلفيات الملهمة ــ وذلك عندما كان منغلقا في المناظر المدنية التي عرفها طيلة حياته من مقاهي الشوارع الجانبية الى حجرات الطعام المزينة في ثراء بالستائر

الحريرية والزجاج الملون ، كان يصاحبه خفية ابطال ارستقراطيون غير مرئيين ، او نفوس ثانية . ويحكي في مقالة مريرة عن رجل ينتحر لان زوجته تمنعه من ان يحلم ، « عادتي القديمة التي كانت بلا شك مصدرا من الذ مصادر المتعة ومصدرا ايضا لغيظ عظيم ، هي الرغبة في ان احلم . لقد وجدت متعة دائمة في ان افقد الارض من تحت قدمي وان اغرق نفسي في الذكريات او اقفز عبر اسوار المستقبل (١٤) » .

وقد شكل هذا الاتجاه موقفه من الحب ، فالستائر الحريرية ، والانوار الخافتة ، وجو الترف وحده هو الذي يجعل الحب ممكنا « ان الديكور عامل حسمي هام في خدعة النفس المعروفة بالحب (١٥) » .

ان النزعة الى الاحلام ، عندما تكون دافعا الى العمل ، وعندما تدفع المرء الى مقاومة معارضة الواقعيين ، يمكن ان تغير مجرى التاريخ . غير انها جعلت هناك في مكتب الصحيفة في عام ١٨٨٧ ، محررا شارد الذهن . ولربما ادى عدم الكفاءة ، والاستغراق في الذات اللذين صاحبهما الميل الى كثرة الكتابة الى الاحتكاك مع زملائه ثم الى الفصل من العمل .

ولاشك ان سوء السلوك لم يكن له دخل . وكانت نظرته حينئذ مركزة بشدة على تحقيق التقدم لنفسه ليعوض التلكؤ الذي وصفه في خطاباته الاولى « لهنريش كانا » .

وتلقى في شهر يوليو انباء طيبة ، عوضته قليلا عن سوء الحظ ، وهي ان مسرحية « صاحب الجلالة » قبلت اخيرا لاخراجها على مسرح « فالتر » في برلين . وكان مجيء برلين بعد نيويورك فألا حسنا . وبغريزته المحبة للمغامرة فكر هيرتزل في ان يهاجر الى العاصمة الالمانية الحقيقة . وكانت ثمة مجلة انشئت حديثا تبحث عن مدير . وتردد الكلام عن مرتب ربع سنوي يصل الى ٧٥٠ مارك . ولكن لم يتحدد شيء . ثم في نفس الصيف ، استقال اوسكار بلومينتال Oscar Blumenthal وهو ناقد مرموق من وظيفته في صحيفة « برلينر تاجيبلات » غير ان الامل في ان يخلفه هيرتزل اسفر عن لا شيء . وكانت خيبة الامل الثالثة اكثرهم اثارة للحنق . فقد ابلغه ارثر ليفيزون ان صحيفة « فرانكفورتر » تحتاج الى مراسل لها في باريس ، وانه شخصيا سيزكي هيرتزل لهذه الوظيفة . واصبحت باريس ، التي كانت منارة عائلة ناسشاور ، ملكه الان ، وكتب وهو منفعل لوالديه يقول :

« كان هينه مراسلا في باريس ، ثم بعد وقفة ادبية عامة ، اصبح ليندأو وويتمان مراسلين ايضا . وكان « سينجر » Singer الذي

يعمل مع نيو فري بريس [الصحافة الحرة الجديدة] بلوفيتز Blowitz الذي يعمل مع التايمز يتمتعان تقريبا بوضع السفراء . وقد بدأ ليفيزون مستقبله الضخم كمراسل في باريس لصحيفة « كولنيش » (١٦) .

ورغم انه لم يقدر له ان يمثل صحيفة « فرانكفورتر » الا ان باريس رسخت في ذهنه على انها المعامل المادي لجولي وللنجاح . وفي ٧ سبتمبر سجلت مذكراته نصرا كان اثره عظيما لانه حدث في موسم من خيبـــة الامـــل .

« لقد وجدت جولي الطيبة مرة اخرى ... حبي النهائي لقد احبتني طوال الوقت وسوف اتزوجها . لقد قلت لها ذلك فعلا » .

ولكن كان ثمة عمالقة يجب ان يذبحوا .

« قبل ان اصل الى الاميرة الصغيرة الحلوة . اليوم يوم المراســلات الوظيفية . وانا ليس لدي وظيفة . ومنذ ١٥ يوليو لم اعد اعمل مع صحيفة اليجماين ويبدو ان « الغرينديمبلات » تهرب مني . وفي هذه الحالة سأصبح مرة اخرى بحارا تحطمت سفينته والقي به في بحار بوهيميا الهائجة ، غير قادر على طلب يد جولي ... حقا ان مسرحية « سين هوهيت » قد قبلها مسرح فالنر في برلين . واذا فشلت فسأجد نفسي رجلا مهزوما مفلسا . افقر مما كنت في اي وقت مضى لان شجاعتي التي كنت اتمتع بها في شبابي قد تلاشت تماما . وعندئذ يجب ان اودع حبيبتي وداعا نهائيا لاني لا اريدها ان تضحي بشبابها من اجلي ربما لا أنجح ابدا » .

وكانت استعادة جولي بمثابة توازن مع الفشل والنجاح الجزئي الذي كان في ايقاعه الوحيد يشكل مستقبله في ذلك الوقت . ولم تفشل مسرحيـــة سين هوهيت . بل كانت نوعا من النصر المزركش الذي يقلق الشخص الطموح قلقا بالغا . فقد رفضها ادولف ديتر فون زونينتال المخرج المساعد لبارون فورستر في مسرح هوفبيرجيتاتر .

وقد اخرجت عندئذ في براغ في فبراير عام ١٨٨٨ ثم ظهرت بعد ذلك في برلين (وفي شهر يونيو من ذلك العام ادخل فون زونينتال تعديـــلاته عندما قبل الهارب (The Fugitive) ومع ذلك كان هيرتزل قد اثبت نفسه ككاتب. وفي شهر مايو انضم الى اتحاد الصحفيين في فينا والى رابطة الكتاب . وظهر كتابه «Book of Folly» ، « كتاب المساخر » ، الذي اهداه للدكتور « ارثر ليفيزون » في نهاية ذلك الصيف . وكان خلفسا لكتاب « انباء من الزهرة » «News from Venus» وكان مزدحما بالحكم التي كانت تبدو لاول وهلة

شيئا قريبا من اوسكار وايلد .

وكانت تلك من ظواهر العصر وليست من مزاج الكاتب . وكان كل واحد يضع وجهة نظره الخاصة في اسلوب يربط فيه بين الدهش والتركيب الجميل للعبارات . وكان هذا هو اسلوب « نهاية القرن » ولم يستخدم اي كاتب هذا الاسلوب مثل استخدامه غيره له ، ورغم ذلك فان جميع من استخدموه شاركوا في كراهية الجدية التي يعبر عنها بعبارات جادة . وقليل من اقوال هيرتزل تعبر عن اهتماماته الخاصة .

● « كل عمل فني انما هو تعبير عن القوة او العجز » .

● « أن الكوميديين لا يفهمون النكتة » .

● « أن اقصر طريق الى المخرج هو الكواليس ، ومن ينكر ذلك فانه يخشى ان يقابل هناك » .

● « أن الجمهور لا يسمح الا للمشهورين بأن يثيروا فيه الملل » .

● « أن الناس يهنئون بعضهم على النجاح . يا للسطحية ، ان النجاح نفسه هو السرور الذي لا يمكن تجاهله (١٧) » .

ويمكن ان نقول بطريقة مماثلة أن اكثر انواع الحب اثارة للشعور بالوحدة هو حب النجاح . وعندما رفض النجاح ان ياتي ، او ياتي بالحجم الذي تصوره ، لم يكن لهيرتزل اصدقاء حميمون يلجأ اليهم لا احد يسخدم معه التورية او التلاعب بالالفاظ ، تلك اللغة الساخرة التي جعلت من الممكن السخرية من الهزيمة او المرض . وكان « كانا » « وبوكسر » في برلين . وبينما كان « بوكسر » ناجحا كصحفي ، عاش كانا في فقر لا تسنده المساعدة الابوية ، ولا يهدىء منه او يلطفه حتى نجاح مؤقت . كان فقيرا ، لا لانه يهودي بل لانه كان كاتبا لا يستطيع تسويق بضاعته . ولم تكن مأساته شيئا غير شائع في القرن التاسع عشر . فقد عــرف جيمس تومسون James Thomson الذي كتب «مدينة الليل المرعب» «The City of Dreadful Night» ، او « وفريدريك رولف » Frederick Rolfe الذي كتب « هادريان السابع » Hadrian VII ، مثل هذا الفقر المدقع . وعرض هيرتزل على كانا النقود . ولم يرفض كانا فحسب بل فعل ذلك بطريقة مؤلمة وكتب يقول : «لقد فقدت الايمان بصداقتنا منذ زمن طويل وهذا امــر نهائي » (١٨) . وكان عزاء صغيرا ان ظل كانا يؤمن بنجم هيرتزل . « ان الامر في حاجة الى الشجاعة ، والقوة ، وانت لديك هاتان بصفة خاصة انك يجب أن تصل وستصل » .

وكانت حالة « كانا » سببا في اثارة رثاء هيرتزل العاجز وجعلت من هزيمته لابنة رجل ثري ، نصرا له قيمة عظيمة .

الفصل الثالث عشر

وفي بداية عام ١٨٨٩ طلب هيرتزل من جاكوب ناسشاور يد جولي للزواج ، وبهذه الفعلة حرك المأساة الكبرى في حياته . وكانت مأساة مؤلمة وطويلة . وارتبطت بالمأساة السياسية الثانية في حياته بنفس الطريقة التي يرتبط الوجه الاخر للقمر بالوجه الذي نراه . ولم تكن المأساتان متساويتان اطلاقا . وكانت المأساة الثانية بما فيها من الاف من الممثلين تطغى على المأساة الاولى وتجعلها قزما بجانبها ، بممثليها القليلين العائليين . وكان في قدرة ابطال المأساة الثانية ان يخفوا ابطال المأساة الاولى ورغم ان ذلك كان حيويا لظهور دورهم السياسي الخاص . ومن سمات مأساة هيرتزل الثانية وفرة وثائقها ، لدرجة أن رسوم حبكته السياسية تصبح كاملة بل وواضحة ايضا في اغلبيتها لكل من يكلف نفسه النظر فيها . وفيما يتعلق بزواجه فان الوثائق والصور تتحدثان بفصاحة ، الاولى بما فيها من كلام قليل ، والثانية بعدم وجودها .

وربما وضع هيرتزل احاسيسه على الورق عندما قرر المخاطرة بالزواج ولو ان الامر كذلك فان الاوراق لم تبق . وكان هيرتزل رجل عقل اراد ان يتأكد انه وقع في اسر الحب . وطالما حلم بالعثور على من يخلف مادلين كورز Madeline Kurz ي كانت حياتها في قصر اسم عائلتها . وكانت عندئذ في التاسعة والعشرين ، وكان يحتاج الى تلجيم عواطفه أو حتى التغلب على شعوره الحزين بالوحدة الذي كان الحالة التي تسيطر عليه باستمرار . وكان لا بد أن يمارس قدراته للانتصار على جولي . ومهما كان تمركزه في ذاته ، فلا بد وانه سأل نفسه كيف ستؤثر تركة مرضه اثناء فترة دراسته على

زوجته ، ولكن حتى اكثر كاتبي المذكرات صراحة في زمنه نادرا ما وثقوا في المداد لكتابة مثل هذه المشاكل .

وقد وصله من « كانا » خطاب تهنئة حماسي بمناسبة خطوبته . والجائع فقط هو الذي يقدر رغيف العيش حق قدره .

ولا بد ان كانا رأى من صومعته في برلين أن خطبة صديقه بمثابة تحقيق لراحته المادية . وكان هيرتزل نفسه واقعيا الى حد يجعله يقدر الاستقلال الاقتصادي الذي سيحققه له الزواج . وفي اوروبا القرن التاسع عشر ، كانت ثروة المرأة بما فيها الدوطة . تؤول الى اشراف الرجل الذي تتزوجه . ويمكن تخمين حجم دوطة جولي من شكوى هيرتزل ، بعد ذلك باحدى عشر عاما (١) ، ان كل شيء قد صرف ما عدا ٢٠ الف جيلدر . وكانت رحلته الى ايطاليا عام ١٨٨٧ قد مولت بواسطة مائتي جيلدر . وتصور احدى مسرحياته عامل في مناجم الفحم يكسب جيلدر واحد و١٢ كروزر في يوم عمل من ١٢ ساعة تبدأ وتنتهي بمسيرة مجهدة لمدة ساعتين (٢) .

ومع ذلك فمن المشكوك فيه ان يكون هيرتزل قد استقبل الزواج بحماس شديد . فقد كان شخصا ساخرا متشائما بالطريقة الفيناوية ، فيما يتعلق بوعود الحب الابدي . وفي كتابه الاخير « كتاب المساخر » كتب يقول : « اننا دائما نضحك على الخطوبة في المسرح وذلك بسبب السخرية الخبيثة الكامنة بطبعها في كل شخص منا (٣) » . ولهذا يمكن الشك فيما اذا كان قد اعتقد ان مغازلاته لجولي يمكن ان تنضج وتتحول الى حب دائم . ورغم ان الزواج من ابنة رجل غني كان بمثابة نصر لقلمه ، فقد ثبت ان جولي كانت صيدا سهلا بالنسبة لذاته التي كانت احلام يقظتها لا تذكر الا في المذكرات فقط : « ان ذراعك القوي سيخطف العذراء التي تقاوم ويرفض التي تستسلم ... الملكات ستحبك .. ولكنك ستهزأ بهن . انك سترفض من تقدم نفسها وتسعى فقط الى من ترفض (٤) » .

اما فيما يتعلق بجولي ، فقد كانت جاذبيتها الاساسية بالنسبة لهيرتزل جاذبية جسدية ، ولقد اعترفت هي بذلك بنهم قبلاتها واستعدادها للاستمتاع بالوقت الحاضر في وقت لم يكن فيه للعلاقة مستقبل .

وقد اعجبت ايضا بالاديب البارز . وكانت سطحية ، ولذلك لم يكن لديها الكثير لتشكو منه في كتب زوجها او مسرحياته* ، وعندما كانت تلك

---

* على الاقل تلك التي كتبت قبل زواجهما ، وربما اعترضت على ما ورد في كتاباته اللاحقة من كاريكاتير لها .

تحوز بالاعجاب كانت تنغمس في قراءتها . ولم تكن تشعر برغباته العميقة او تسعى للسيطرة عليها . وفي البداية بدت وكأنها اثارت السرور لدى جانيت هيرتزل التي سمتها « الصغيرة » Die Kleine . غير ان جولي كانت ترى نفسها سيدة عظيمة ، وصاحبة منزل مستقل بعيدة كل البعد عن شقيقاتهـا غير المتزوجات .

وفي عام ١٨٨٩ ، كان يهود فينا ما زالوا يعيشون في اعداد كبيرة في ليوبولدشتادت ، ذلك الحي الذي يقع عبر جسر قناة الدانوب . ولم يترك جاكوب ناسشاور الحي ابدا بينما تركه فيلهلم فقط في العام الذي سـبق وفاته . وكان آل هيرتزل وعائلة ناسشاور معروفين جيداً في ذلك العالم المحدود . وقيل ان الجاكوبيين طلبا من الحاخام الرئيسي موريتز جوديمان ان يزوج الاثنين . وربما تصور الابوان زواجا انيقا في المعبد الرئيسي وتقول نفس الرواية [المبنية على اساس مذكرات جوديمان التي لم تنشر ولا يمكن الحصول عليها (٥)] انه يبدو ان جوديمان وافق في البداية ، ثم قال انه لديه عمل عائلي في الخارج كعذر كي لا يقوم بمراسيم الزواج . وكان جوديمان في ذلك الوقت في منتصف الخمسينات وكان واحدا من الحاخامين الرئيسيين في فينا ، واصبح الحاخام الرئيسي الوحيد بعد وفاة زميله ، ادولف جيلينيك في عام ١٨٩٣ . وقد ولد في هانوفر ، وانتخب حاخاما لبرلين ثم رفض بعد ذلك لانه ارثوذوكسي متطرف بالنسبة لمجتمع برلين المتطور . وكانت تجربته كلها المانية ، فلم يعرف شيئا عن المجر (اصل جاكوب هيرتزل وجاكسوب ناسشاور) بما فيها من توازن ديني مختلف وقوانين مختلفة . واسبابه لعدم القيام بمراسيم الزواج ربما كانت نفس الاسباب التي زعمها ، او ربما كان لديه شك في ان جولي ناسشاور ابنة جوهانا وحفيدة فرانشيسكا كولينسكي، يهودية . واعتراضاته [اذا كان لديه اعتراضات] لا يمكن ان تتعلق بتيودور الذي كان وصفه كيهودي واضحا ، ولا يمكن ان يكون اساسها فشل كل من العائلتين في ان تعيش حياة يهودية كاملة ، لان هذا الفشل كان شيئا عاديا ان لم يكن عاما .

وعلى اي الاحوال ، لم يرد ذكر حاخام اخر عرض ان يحل محـل جوديمان . ولم يتم الزواج بوقار في معبد في فينا او اي مكان اخر . فبدلا من ذلك فقد دعي الضيوف للاحتفال في قرية جبلية كاثوليكية تبعد ساعتـين بالقطار من سودبانهوف في فينا . وكان التاريخ ٢٥ يونيو ١٨٨٩ (٦) .

وبالنسبة لمن يعتقد في الخرافات فلم يكن المكان ولا العام فالا حسنا .

فان سنة ١٨٨٩ بدات بحادث شكسبيري يبين كيف تؤدي الثروة في ليلة واحدة الى الجريمة والموت . ففي صباح ٣٠ يناير ، عثر جوزيف كونت هويوس Joseph Count Hoyos رفيق الصيد لولي انعهد الامير ادولف ، على جثة الامير في حجرة النوم التي تقع في السرداب السفلي في بيت الصيد في ماريلين ، وكانت ترقد الى جانب الجثة ، جثة البارونة ماري فيتسيرا باردة، ولم تكن قد تعدت الثامنة عشرة . وكانت مأساة مايرلنيج لها صلات بالمكان الذي اختاره جاكوب ناسشاور لزواج ابنته . وكان يمكن الوصول الى ريشناو ان دير راكس Reichenou an der Rax ، مثل مايرلنيج عن طريق بادن ، وهي منتجع المياه المعدنية ، الذي قامر فيه هيرتزل عندما كان طالبا والذي كان يعود اليه مرارا . وكان لدى ام ماري فيتسيرا فيلا في « ريشيناو » والمسكن الذي دعي اليه ضيوف الرفاق سمي باسم الامير رودلف .

والارجح ان العجرفة في جاكوب ناسشاور هي التي جعلته يقرر أن ياخذ شقة في فيلا رودلف لزواج ابنته من الكاتب المسرحي المرموق . وكان المسكن جزءا من املاك عائلة فايزنيكس Waissnix ، وهم مزارعون اثرياء استغلوا نمو السكك الحديدية لكي يحيلوا « ريشاتو » الى منتجع على نطاق ضيق يشبه باث Bath في عهد جورج الرابع George IV وكان الامبراطور فرانز جوزيف من الزوار المترددين عليه بينما اخوه الدوق لودفيغ الكبير يمتلك فيلا كبيرة « شلوس فارثولز » Schloss Warthol في القرية . وانضم الكتاب والفنانون الى رجال البلاط ورجال المجتمع المتسلقين كزبائن للمنتجع ، وكان شقيقان من عائلة فيزنيكس يمتلكان معا فندقا اقيم في منطقة للاستشفاء ، وهو فندق « رود لفسباد » (المشهور بحمامات الاستشفاء الباردة) وبيتا كبيرا يعرف اصلا باسم « هاوس أوف دير فاج » ، وهو صالح للاستئجار . وفي منتصف الستينات من القرن التاسع عشر اجر هذا البيت تماما للامير رودلف وشقيقاته ووصيفاتهن ، وبعد ان انتقلوا منه اعيدت تسمية البيت تشرفا بالابن الوحيد للامبراطور واصبح « مايكل فيزنيكس » احد رفاقه في الصيد والشراب . وقسمت فيلا رودلف الى شقق كبيرة كل منها تحوي ٦ غرف ومطبخ خاص (٧) .

واذا كان زبائن « ريشيناو » الذين جاءوا من الطبقة العليا قد جذبوا جاكوب ناسشاور فان مناظر ريشيناو هي التي اعجبت هيرتزل المحب للطبيعة . وكانت هذه المناظر بالنسبة له (كما كانت بالنسبة لارثر شنيزلر

الذي كانت له صداقة ملتهبة مع اولغا فيزنيكس زوجة احدى الشقيقين (٨)) وهذا الوادي الاخير من جبال الالب ، وحقوله التي تنحدر خلال غابات من جانب الى شنيبورج Schneeburg ومن الجانب الاخر نحو راكساليس Rexalps ، مصدر جلال طبيعي خلاب . فقد كانت مكانا للكتابة ، والسير ، والراحة ، وكل ذلك في مكان يبعد مسافة مناسبة عن العاصمة . وقد احب هيرتزل الضاحية ، مهما كان الامر بالنسبة لذكرياته عن الحفل في فيلا رودلف ، وقد زارها في مناسبات لاحقة واختار ايدلاش Edlach تقع على بعد مسير قصيرة من ريشيناو نفسها في اخر معركة يائسة لكي يستعيد صحته* .

ولم تبق اي صورة فوتوغرافية عن حفل الزواج الذي ضم عائلات هيرتزل وناستشار وكولنسكي على الشمابنيا والاكل الفييني . وبذلك يبقى احد المراحل القليلة المبهمة في حياة هيرتزل* غير ان سجل الزيجات المحفوظ في مكاتب الطائفة اليهودية في ليوبولدشتادت يذكر ان ساعة الزواج كانت الواحدة بعد الظهر في ريشيناو .

وكان ذلك يتيح الوقت لان يعقد الزواج حاخام او مدرس دين في فينا ، او اذا لم يكن هذا او ذاك حاخام السلطات المدنية ، وحتى في تلك الحالة فان حاخام الطائفة اليهودية في ليوبولدشتادت كان مطلوبا منه قانونا بأن يدرج الزواج في السجل الذي تعطيه له الدولة . وبعد ذلك استقل العريس والعروس واثنان من الشهود الضروريين القطار الى ريشيناو .

وبعد الزواج اخذ تيودور جولي في جولة بالقطار لمدة شهرين في سويسرا وفرنسا . وقد حملت جولي منه بسرعة ، وفي بداية عام ١٨٩٠ كان هيرتزل يكتب « فيلتون » يصف فيها سروره لمولد ابنه . وكان عنوان المقالة « هذا الابن » ، وكتب يقول ، « هذا الصغير منحني حبا حسيا ملموسا للحياة . لانه ابني ، استمراري الذي لا ينتهي ابدا ، الضمان على اني سارث الارض الى الابد ، وسيتجدد دائما ، كأبني ، وحفيدي ، صغير الى الابد ، جميل الى الابد ، قوي الى الابد (٩) » . والطفل الذي ولد في ٢٩ مارس كان فتاة وسميت بولين على اسم شقيقة هيرتزل المتوفاة ، وفي ذلك الوقت كان الاثنان يعيشان في ستيفانيبلاتز Stephaneplatz رقم

---

* في حكاية اخرى متصله بمايرلينج ان الكونت هويوس مات في ادلاشرهوف Edlacherhof في عام ١٨٩٩ .

١ ، عند الزاوية من منزل والدي هيرتزل ، وفي العام اللاحق انتقلا الـى شارع مارك اوريلشتراس رقم ٧ ، «Mark Aurelstrasse» وهو شارع مليء بالعمارات السكنية في وسط المدينة . وهنا فان الحلم الذي ذكره في « الفياتون » اصبح حقيقة وولد لهما ابن في ١٠ يونيو عام ١٨٩١ . وطبقا للتقويم اليهودي الاقدم فقد ولد في اليوم الرابع في سيفان عام ٥٦٥١ . ويحتفل اليهود فيما بين السادس والسابع من سيفان بعيد « نزول القانون » وهو احتفال سريع لا يرمز لشيء « لان العام كله هو الذي ينتمي الى التوراة وليس الاسبوع أو الشهر وذلـــك لان التوراة لا تطلب رمـــزا فقط بل الحيـاة والسلوك (١٠) » . وطبقا للتوارة فان حياة الطفل كيهودي يجب ان تبدأ بختانه في اليوم الثاني عشر لسيفان . ولكن عائلة هيرتزل قررت الا تختنه ، ولم يعط كذلك اسما عبريا . بل سمي هانز : الصورة الالمانية لـــ جون John دون دلالة او اضافة يهودية للكلمة ، وربما كان ذلك اطراء لام جولي « جوهانا كولينسكي » Johanna Kollinsky .

ورغم ان الزواج كان مثمرا الا انه كان زواجا غير سعيد . ولو ان الخطابات المتبادلة بين اعضاء العائلة المتعلمين كلهم حفظـت ، لكان من الاسهل التأكد لا بما حدث من اخطاء في الزواج فحسب بل بالسرعـة التي حدثت بها تلك الاخطاء . غير ان الخطابات المتعلقة بهذا الموضوع قـد اختفت (١١) . وفي الظلام الذي نتج عن ذلك ، والذي سببه على الارجـح التدخل المقصود للمثلين في المأساة الثانية في حياة هيرتزل ، فما زال من الممكن رؤية عدم السعادة المبكرة . ويقول صامويل بتلر في قطعة شهيرة له ان ما يسميه الايطاليون « ابنة الموت » يضع يديه الباردتين بصورة مروعة على الرجل « خلال النصف ساعة الاولى الذي يكون فيها وحده مع المراة التـي تزوجها ولكنه لم يحبها ابدا حبا حقيقيا » . فان اي شهر عسل يصبح توترا عنيفا ، فلم يكن الزوج الجاد ولا الزوجة اللعوب يتفقان في مزاجهما الا في القليل: وربما حكم الشهران الاولان على مستقبلهما. وفي العام الاول لزواجه مهل هيرتزل في كتابه نص كلمات اوبريت Des Teufels Weib التي وضع موسيقاها ادولف موللر (Adolf Müller) وقد مثلت لاول مرة في ٢٢ نوفمبر ١٨٩٠ على مسرح ان دير فين «Theater An der Wein» ، وقصة المسرحية الغريبة ليس بينها وبين مأساته الخاصة الا علاقة بسيطة للغاية ، غير ان نشرة التسجيل الموسيقي كانت مزينة بصورة امراة شيطانية (١٢) . وكـان بينها وبين صورة جولي تشابه مذهل . وبدلا من عينيها اللتين تشبهان زهرة

القمح وضع لهب من النار* .

وكانت ثمة اسباب للشكوى من كلا الجانبين . وحتى لو لم تكن جولي مصدر الهام الاوبريت ، الا انها اعطت الانطباع بانها هيستيرية مما كـــان معناه على الارجح انها كانت عاطفية ونزاعة الى التملك والاستئثار وكانت مسرفة تنعم بالمظاهر بدلا من الراحة الصلبة التي ورثها هيرتزل .

وكان عمل زوجها سببا في اتصاله بالممثلات اللاتي كانت فضيلتهن سهلة وجمالهن ارفع من جمالها . وعندما كانت حاملا شعرت بالغيرة رغم ان تيودور لم يعطها مبررا للغيرة . ورواياته التي اكتشفت انها لم تكن تحبها بهذا القدر بعد الزواج ، لم تكسب ما يكفي لان تحيا الحياة المدللة التي عاشتها . والارجح انها طلبت ان تغمس يدها في دوطيتها قبل ان يفعل هو بالمثل . واذا كانت قد شكت من اسرار ماضيه وكيف يمكن ان يؤثر ذلك عليها ، فان عنصرا مريرا جديدا قد اضيف الى خمر الشيطان . ووجدت الخمر في جانيت هيرتزل شخصا على استعداد لان يقلبها تقليبا جيدا . لقد عاشت طويلا من خـــلال ابنها وكانت مترددة في ان تشاركه مع امراة لا تشبهها على الاطلاق . وكانت جانيت على بعد مسافة قصيرة تستطيع ان تقطعها لتذهب الى ابنها اثنـــاء العام الاول من حياته الزوجية ، وربما كان ذلك مؤذيا مثلما كان شهر العسل الطويل . واعتاد هيرتزل ان يذهب للغداء مع امه وابيه هربا من الضجيج في البيت . وحتى انتقاله الى شارع « مارك اوديل » لم يجعله بعيدا فكان يستطيع ان يستقل « تاكسي » الى منزل والدته . ورغم عدم اهتمام جانيت

---

* هناك مقطع شعري من الاوبريت يبدو انه لم يستخدم ولكنه قد يكون اكثر من مثال على المرح الاسود (عثر عليها جوزيف فرانكل في « مسرح ان دير فين » وكتبت بخط يشابه خط هيرتزل في صفحة ٢٨ من كتاب تاريخ حياة هيرتزل طبعة « ارارات » . لندن .
Theodore Hertzel, A Biography, London : «Ararat» Publishing Society 1946.

وما يلي ترجمة حرفية لشعر لا يمكن ان يكون الا شعرا متوسطا باي قياس :

امراة مشاحنة ، تئين مرهب .
يصيبها المرض ويفحص الطبيب فكها .
ثم ينظر من فوق نظارته الى زوجها ويهمس :
« ساقول امرا خطيرا : ارى هناك جرثومة السل » .
ويتلقى الزوج الخبر بقوة وصلابة رومانية
ولكن ماذا كانت مشاعره في اليوم التالي
عندما فتح جريدته : ها ! ان « كوخ » حطم
قوة هذه الجراثيم . ستنقذ وتبقى له
ان الرجل ضحية العلم .

شخصيا بالدين ، وبنفاق الحماة المعروف ، فربما كانت تشكو من استسلام جولي لتقيم غـير اليهود . واسفر الشقاق بين المراتين عن وقوف ابناء جولي الى جانبها بشدة ضد جدتهم التي كرهوها (١٣) .

والارجح ان هيرتزل كان يجد طوال الوقت السلوى في بولين وهانز . غير ان حبه لابنائه كان حبا نظريا . ولم يكن ابدا واثقا من عمرهما ، بينما كان يقول اشياء عاطفية عنهما ، « الاطفال هم اكبر معلمينا (١٤) » . الا انه ثبت انه كان على استعداد للتخلي عنهم لدى اقل اغراء .

وربما كان من الافضل لزواجه او انه ناقشه مع صديق بدلا من مناقشته مع امه . فعندما اصبح في حاجة الى صداقة مبتهجة ، تلقى انباء تبعث على الاكتئاب من « كانا » . ففي الصيف الذي تلى مولد بولين كتب اليها ناقـده السابق خطابا اظهر انقلابا مذهلا لموقفيهما . فبينما كان « كانا » يائسا كئيبا، كان هيرتزل يتهيأ لدور صارم كان من الصعب عليه ان يؤديه . وقال الخطاب :

برلين ، شارع كوثين ٣١
٩ اغسطس ١٨٩٠

« عزيزي الطيب تيودور ،

ربما تسلمت خطابي الذي ارسلته امس . وبالنسبة لي كان يوما شنيعا . فقد وعدت براهام بمقالة كان يجب ان تكون جاهزة في الساعة ٦ بعد الظهر . وكنت متوعكا طوال اليوم ، واستطعت ان اظل على قدمي بعد ان شربت عدة فناجين من القهوة السوداء . وجاءت الساعة الرابعة ثم الخامسة ولم اتم المقالة . وبدات قطرات العرق تظهر على حواجبـي وبدات يداي ترتعشـان . واخيرا قررت توجيه ضربة كبيرة : لم اضح الا بالموضوع الرئيسي ، وانتهيت منها وارسلتها . وحتى الان لم يردها الي ، وسيأخذها في النهاية . وعندئذ ، في يقيني سيحكم عليه . انها اسوأ شيء كتبته لـــه .

لماذا تكون لي صلة ببراهام ؟ اساسا ، لانه ليس ثمة اختيار امامي . فان صحف برلين كلها مغلقة امامي تماما . ولـــم يهتم اهـرن ليفيزون Ehren - Levysohn بان يطلب مني ان ارسل اليه شيئا ، دون التزام . ولا استطيع ان اعيش بما اكسبه من ماروث وموتسن Mamroth & Mauthsen ولذلك فقد سررت عندما دعاني براهام لان اكتب

موضوعات الساعة وما اعرفه عنه حتى الان هو انه رجل شريف بصرف النظر عن الصفقات الادبية التي يتورط فيها دائما . واذا كنت تعرف شيئا عكس ذلك فارجوك ان تبلغني .

وحتى الان لم استطع ان اجد منفذا في الصحف العائلية . وربما انجح في القصة القصيرة التي اكتبها . ومع ذلك فمهما بلغت الامور من يأس بالنسبة لي هنا ، فلم يطرا لي ابدا ان اعود الى فينا . فعندما اسمع عن فينا فان كل شيء امر به هنا يبدو محتملا (١٥) » .

وادرك هيرتزل رعشة الفشل ، لانه عرفها بنفسه ، ولكن الظـروف المحيطة به كانت اكثر راحة . وقد اصبحت شقته في فينا باردة رغم دفئها عندما شعر بعجزه عن ان يحل مشكلات « كانا » ، او يقيم الصداقة معه على قواعدها القديمة (رسم الفنان النمساوي « ماكس كوزفيل » لوحـة لهيرتزل ليس وهو في نوبة جنون تلك الفترة ، بل جالسا في حانة ، ملجأ اخر له بدلا من منزله . وهو يقرأ — وعيونه محملقة — اخبارا سيئة فـي صحيفة ، وشعره شوش مثل ربطة عنقه (١٦)) .

وفي بداية شهر فبراير عام ١٨٩١ ، عندما كانت جولي في شهرهـا الخامس من حملها الثاني ، تسلم خطابا اثار فيه الرعب اكثر من اي خطاب اخر تلقاه في حياته . وبدأ الخطاب ، « عزيزي الطبيب تيودور ، ان صديقك القديم يودعك وداعه الاخير قبل ان يموت ! واني اشكرك على صداقتك كلها وعطفك . واتمنى لك ولكل اعزائك كل سعادة في هذا العالم » . لقد اطلق كانا الرصاص على نفسه بعد ان انهى الخطاب .

وقد ظهر اثر الصدمة التي احدثها انتحار كانا من رد فعلـه لهـا . ولم يكن في رفقة جولي له شيئا يزوده بالسلوى ، فلم تكن حالتهـا تثير فيه شعورا بالامن . وبعد أربعة ايام من موت صديقه استقل هيرتزل القطار جنوبا الى البندقية . وكانت المدينة الادرياتيكية باردة بردا قارصا . ودفعه حزنه المشوب بالشعور بالذنب الى السفر غربا الى ميلانو وكانت الممثلة الكبير اليانورا ديوز Eleonora Duse تمثل على مسرح فيلودراماتيكو Theatro Filodrammatico وحضر حفلاتها . وامضى بقيـة الشهر يتجول اولا في الريفيرا الايطالي ثم الفرنسي . ثم مرة اخرى انغمس في القمار منتظرا علامة . وكتب يقول : « جنون القمار وجنون التبذير ليسا الا وجهين لنفس الاحساس (١٧) » . ولم تظهر اي علامة . وكانت جولي تمثل نوعا من الامن احبه دون حب ، وكان كانا شبحا لم يستطع طرده . وعاد الى فينا

ليراها في اخر اسابيع حملها ويرى مولد هانز .

وكان لموت « كانا » اثرا على اوزوالد بوكسر جعله ينزوي ويذبل ، مما حرم هيرتزل من صديقه الثاني وظهر علي بوكسر ما وصفه « بالاحساس الشديد بالوحدة والهجران » . بطريقة تتناسب مع مزاجه الحاد . وربما ؛ لانه لم ينظر الى اعلى ، استغل قلمه بطريقة اكثر ذكاء من « كانا » . وعندما بلغ العام الثاني له في برلين كان يكسب عشرة الاف مارك كصحفي . وكان نشطا في اعمال مربحة اخرى ، وكـــان يتردد علـــى لودفيج جولدبيرجر Ludwig Goldberger المستشار التجاري الخاص للامبراطور ، وهو الرجل الذي رأس لجنة برلين المركزيه لاعادة توطين المهاجرين اليهود من روسيا في البرازيل . وفي عام ١٨٩٠ طلب جولدبيرجر من بوكسر (٣٠ عاما) ان يزور البرازيل ويتولى بنفسه مهمة اختيار وشراء الاراضي من الحكومة . وتردد بوكسر . ومن المحتمل ان تكون حادثة « كانا » اليائسة قد ساعدتـــه على ان يتخذ قراره . وفي مايو ام ١٨٩١ بدأ عملا تبين فيما بعد انه في غاية الخطورة . ورغم انه كان سيتخذ من « ساوباولو » قاعدة له ، وهي مدينة بها كثيرين من المسوطنين الالمان وبعض الاحساس بالنظافة الصحية فان البلد كلها كانت موبؤة بالحمى الصفراء .

ولو ان زواجه كان به اي نفحة من الدفء لكان موت « كانا » ورحيل بوكسر قد جعلا هيرتزل ينجذب اكثر الى جولي واطفالها . وبدلا من ذلك فان خسارته المزدوجة القت ضوءا شديدا على الهوة بينه وبينها . وكتب الحاخام جوديمان بعد سنوات قلائل من عدم تمكنه من عقد زواج هيرتزل ، انـــــه استدعي بواسطة محامي . وكان المحامي يمثل هيرتزل . وطلب من جوديمان ان يدعو جاكوب ناسشاور لزيارته لكي يحل الحاخام نزاعا عائليا خطيرا . ورفض جوديمان . فيجب على ناسشـــاور ان يزوره من تلقاء نفسه اذا كان يريد حل الموضوع . وكتب الحاخام يقول ، « اعتقد ان موقفي ساعـــد هيرتزل ، لاني بالاستجابة لدعوة حماه فربما كنت اشعل بسهولة شرارة الانشقاق واجعلها حريقا (١٨) » . ولعل الحاخام منع زواجا تعيسا من ان يصل الى مرحلة الطلاق وربما كانت جولي تريد الطلاق مثلها مثل هيرتزل .

وبعد اقل من شهرين من مولد هانز ، غادر هيرتزل منزله مرة اخرى . وفي هذه المرة كانت الرحلة اكثر من مجرد اجازة في ايطاليا . فقد اعتزم زيارة اسبانيا مارا بفرنسا ثم يذهب بعد ذلك الى شمال افريقيا (١٩) . وبالنسبة لجولي فان رحيله كان بمثابة الخطوة الاولى نحو الطلاق . ورغم ان ذلك كان مدمرا بالنسبة لطفليهما ، وبالنسبة لحـــالة هيرتزل المالية

وبالنسبة للشعور بالتقدير لذاتها ، الا ان ذهن هيرتزل كان حينئذ مهموما بالحزن على كانا الذي اصبح بين الاموات ولم يكن اهتمامه منصبا على الاحياء. وحمل معه الى اسبانيا فكرة رواية ، «صامويل كوهين» وكان موضوعها الاساسي هو حياة صديقه القصيرة المأساوية. واحد الفصول التي اتمها تبين حالة بطل روايته في الامسية الاخيرة قبل انتحاره. «وفي احدى الامسيات راح يتمشى في ميدان « اونتر دن ليندن » شاعرا بانه اسمى من الناس جميعا وذلك بسبب موته القريب . ونظرا الى ضباط الحرس في سخرية ، يمكنه ان يأخذ اي واحد منهم معه الى الموت. وعندما طرات له الفكرة وهي ان يفعل شيئا مفيدا بانتحاره ، اصبح قائدا . ومشى بطريقة متكبرة حتى ان الجميع ابتعدوا عن طريقه غريزيا . وقد حيره ذلك ، وذهب الى منزله بهدوء واطلق على نفسه الرصاص (٢٠) » . ويبدو ان هيرتزل نفسه كان في ذلك الوقت قريبا من الانتحار عما كان عنه في اي وقت طوال حياته ، واذا لم يكن الانتحار فقد كان قريبا من اي عمل يائس .

الفصل الرابع عشر

غير ان فينا وجولي تقلصتا ، والمستمع الى صلاة في كاتدرائية كولونيا بهدوئها الرمادي ، وامضى خمسة ليال في باريس « تولوز لي تريـــك » ، و « المولان روج » . وبينما كان يفعل ذلك اعـــاد اكتشاف العزلة والحالة النفسية التي يمكنه فيها ان يكتب . وانتهى من عدة فصول في رواية صامويل كوهين . ثم تركها جانبا . وحمله القطار بعيدا ، بعيدا الى الجنوب . وفي المنطقة الجبلية على الحدود بين فرنسا واسبانيا راح يكتب ٤ مقالات طويلة ، « بداية رحلة اسابنية (١) . وبدا المقالة الاولى بقوله ، في « تارب » عاصمة البرانس ، اضفت ملحقا الى وصيتي . فقد منعت ، باللهجة القاطعة التي تناسب الاسلوب الذي يستخدم في تلك الوثائق ، ان يدفن جثماني هنا ، في حالة ما اذا مت من الملل . لاني افضل ان اعيش في تافريس [قريـــة نائية في التيرول] عن ان ادفن في « تارب » . ثم لدهشتـــي استطعت ان استيقظ في صباح يوم اخر واوصل رحلتي الى « بييرفيت » (٢) » . وكانت رخامة اتزان النثر ، والانانية الواثقة للرجل الذي يعرف ان تحركاته وآراءه ستثير اهتمام قرائه ، لها مقابل وهو الاشـــارة الى الموت وموارة الجسد التراب ، وهو موضوع نادرا ما كان غائبا عن عقل هيرتزل . وقد سحر هذا المزيج قراءه . وكان للمقالات التي اوحت بها اليه اراضي الحدود بين فرنسا واسبانيا نتائج حاسمة . ففي سان سباستيان ـــ « مكان محزن وكئيب للبقاء فيه ، ولكنه جميل ، جميل » ـــ تسلم برقية من فينا بينما كان يستعد لمغادرتها الى مدريد ، وقد واجهته البرقية بالاختيار بين نوعين من المستقبـــل . لان « نيو فـــري بريس » Neue Freie Presse ، عرضت

عليــه وظيفة مراســـلها في باريس بمرتب شهـــري قدره الف فرنــك من الذهـــب وفتـــرة تجـــربة لـــدة اربعة اشهر ، مع ٨٠ فرنكـــا لكل مقالة تنشر . ويجب ان يبرق بالرد برجوع البريد .

وكان النثر الممتاز الذي اثر في معظم الصحف المحترمة في وسط اوروبا يدين بالقليل للمناظر الجبلية غير المألوفة ، ويدين بالكثير لارتياحه العاطفي الناتج عن ابتعاده عن جولي وعن كل ما تمثله فينا من مكائد واعمال مسرحية متقطعة . لقد حقق له نجاح كتابته ما كان يسعى اليه دائما ، ولكن بثمن يدعو للسخرية وهو :

ان يشد نفسه من جديد الى نير جولي وعائلته ، وان يلزم قلمه بالعمل المنظم . وقد استبعدت اي فكرة للانفصال القانوني او الطلاق ، فان الوضع الذي يماثل وضع الغير الذي تفرضه عليه وظيفته التي طالما تمناها من قبل يحتم عليه ان تكون له سفيرة . واذا كان من دواعي الفرح والسرور ان يكون اطفاله يلعبون الى جواره ، فقد كانت رؤيته واضحة لدرجة جعلته يتنبأ بقسوة الحياة ، حتى في حالته هذه بعد ان اصبح آمنا من الناحية المالية ومع زوجة لا يمكن ان تزداد ازعاجا له لتقدمها في السن . وكان لا بد له من التخلي عن شمال افريقيا (٣) ، الحافة المثيرة للحضارة حيث يصبح كل يوم حلما . ولو انه ذهب الى هناك لكان من الممكن ان يمكث في فندق ويكمـــل روايته ثم يعود . غير انه كان هناك شيء ممكن اخر اكثر بوهيمية واكثـــر اصالة . ففي العالم الاسلامي بعيدا عن الأم والزوجة كان يمكن ان يجد الشفاء الذي وجده وسيجده هناك الاوروبيون الذين هم على نقيض مع مجتمعهم .

وربما جلبت له الاراضي المتقدة ، التي كانت مثالا للصحة بالنسبـــة لنيتشه وبالنسبة لمرض فاجنر ، الراحة الجسدية او الروحية . وربما افصحت رغباته الحقيقية عن نفسها بقوة سافرة مثله مثل ديلاكروا DeLacroix في مكان مثل القصبة (الحي الوطني) في الجزائر او في تونس . وكان عندئذ قد تعدى الثلاثين او كاد .

وكان شوقه للفضائل العسكرية يمكن ان يجد في « الفرقة الاجنبية » مكانا طيبا يمحو فيه ذكرى فينا [من احسن المذكرات عن تلك الفرقة تلك التي كتبها موريس ماجنوس Maurice Magnus يهـــودي اخر (٤) ، وكتب مقدمة لها الكاتب الانكليزي د. هـ. لورانس] . او بقدراتـــه على وضع نفسه في موقف رجال اخرين . ربما استطاع ان يعتنق القضية

الجزائرية مثل الشـــاعر الانكليزي ويلفريد بلنت Wilfrid Blunt القضية المصرية قبل ذلك بسنوات . وعلى ضوء مستقبله لم يكن هناك شيء غير عادي لا يمكنه استبعاده ، لو انه ذهب الى الجنوب . وبدلا من ذلك ، ابرق بقبوله للوظيفة واستقل القطار المتجه شمالا . وكان العرض يتجسد طموحا كبيرا لا يمكنه معه ان يرفضه . وكانت المرأتان اللتان في عقله — رغم انهما متعارضتان تحثانه على القبول : جانيت لانها كانت تتوق لان يحقق ابنها النجاح ، رغم انها لن تحب باريس ابدا ، وجولي لان نجاح زوجها يمكن ان يوفر لها ما كانت تتمناه طوال حياتها .

ومع ذلك فقد كتب عشية سفره الى باريس على ورقة : « سأضع الكلوش* مثل رجال الاعمال (٥) . وبالنسبة لرجل كتب ايضا « الملابس دائما تقول شيئا» (٦) فان الكلوش كان يقول الكثير . كان يقول «لا» للحرية وللاحلام، ويقول «نعم» للمضي قدما مع القيم البورجوازية واليأس المكبوح . ولعله رفض الامكنة النائية لانه حلم بها في وقت متأخر وبوهن . وكان المسرح منفذا له ولاحلامه ، ويبدو انه كان مغلقا أمامه . فقد كتب فيما بعد، « ان المسرح لا يريد أن يسمع مني شيئا . لقد انسحقت ثقتي بنفسي وانحنت حتى لامست الارض . لقد تسلمت العمل الجديد ، واعتقد اعتقادا امينا اني لن اكتب للمسرح بعد ذلك » .

وصل هيرتزل الى باريس في ٦ اكتوبر عام ١٨٩١ . وكان الثلج يتساقط مبكرا عن موعده ، وسجل اسمه في فندق « دي هولند » Hotel de Hollande في شارع السلام Rue de la Paix . وكان الثلج يحدد الافاريز ويعمق المناظر ويهدىء من سير العربات في مدينة تدخل عقدا من الزمان من اعظم عقودها . وقد أسر رساموها وشعراؤها وانطباعيوها انظار واسماع أوروبا . وعرف هيرتزل المدينة كسائح ، اما كمراسل فكانت امامه فرصة لا مثيل لها لرسم اي تفاصيل في صورته عن المدينة . ولكن الجو البارد اشار الى الجانب المتجهم لباريس مدينة المتعة . وفي ذلك الشتاء قدر لفرنسا أن تشهد سلسلة من الاضرابات الصناعية ، كانت صدى لمظاهرات العمال في برلين وفينا . وكانت واجهات أوروبا تخفي وراءها احياء فقيرة قبيحة ، وكانت الاحلام المشوبة بالعنف تنمو هناك .

وقدر لحياة هيرتزل ان تصاب بانشقاق مماثل بين الجميل والقبيح .

---

* الكلوش : حذاء مطاط يلبس فوق الحذاء العادي (موضة رجال الاعمال والاثرياء في ذلك الوقت) .

فلم يظل اعزب في فندق هولندا لمدة طويلة . ففي اسابيع قلائل حزمت جولي من امتعتها ما تحتاجه في باريس وانضمت العائلة الى بعضها من جديد في فندق اخر اكثر فخامة في شارع دروووت Rue Drouot ومن هنك عثروا على منزل كبير في شارع مونسو Rue Monceau واستاجروه وانتقلوا اليه . وكان قرب متنزه بنفس الاسم على بعد مسيرة قصيرة من المادلين Madeleine والشوارع الانيقة المتفرعة منه . وواقعا لا كمحبـين يمكن لمعاركهما أن توقد جمرة التجاذب بينهما ، بل كرفاق متعبين في شركة للحياة . وقدم كل منهما تنازلات . فكانت جولي تدرك ان تيودور يقدم اليها ـ بكده ـ حياة تنفق فيها ببذخ على الملابس ، والمسارح واللهو . وكان هيرتزل يدرك ان الانانية العنيفة المقبولة في الفنان ليست مقبولة في المراسـل . ولن تكون هناك مشاجرات او صراخ يتلوه اللجوء الى جانيت هيرتزل ولن تكون هناك دموع تعقبها تهديدات بالرحيل . وعندما كان يعتذر عن غيابه ، فقد كان العذر عمله للجريدة وفي اجازة الصيف عندما تغلق باريس وترحل عائلة هيرتزل عائدة الى فينا ، كان يمكنـه ان ياخذ ، اذا كان محظوظا ، عدة اسابيع للعلاج في بادن Baden بينما تاخذ جولي الاطفال الى منتجع اكثر رفاهية . وكان رفاق هيرتزل مثلهم مثل الباريسيين الاغنياء ، لديهم خدم وعربة ، وكانت الخادمة تحت اشراف جولي ترعى بولين التي لم تكن قد بلغت الثانية من عمرها ، وهانز الذي كان يحتفل باول اعياد ميلاده في العام اللاحق . ولم يكن تعليم الاطفال مشكلة لعدة سنوات ، وحتـى يمكن للمعلمين ان يتولوا امرهم فان الخدم يمكنهم ان يحموا الوالدين من ضجيج الاطفال . غير انه عندما مرضت بولين ـ التي لم تكن ابدا قوية ـ في بداية عام ١٨٩٣ ، اخذ هيرتزل ، هانز لينام في حجرة مكتبه ليلا ، وكان يرتعب من العدوى . وكان لديه ايضا سببا شرعيا لكي لا يشارك جولي غرفة نومها . ففي اثناء صيف ١٨٩٢ حملت جولي في طفلها الثالث والاخير مارجريـت ترود التي ولدت في باريس في ٢٠ مايو ١٨٩٣ .

وبالنسبة لمعظم الرجال في منصبه ، فان منزلا مريحا في شارع مونسو يجب ان يكون ملجأ للراحة من عالم المراسلـين . وخارجيا ، كانت حياته مثلما صورها لوالديه تماما . وكان هيرتزل ينظر اليه في المجتمع نظرة متحضرة ، فهو شخصية مهيبة بقامته المديدة ولحيته ، وكان اولئك الذين يختار التردد عليهم يتوددون اليه . اما داخليا ، فقد كان ذهنه ـ في كل استقبال او معرض او عرض مسرحي ـ مركزا في الساعة والمكتـب حيث يجب ان يكتب النسخة التي سترسل تلغرافيا ، الى « باخير وبنيديكت »

Bacher and Benedikt رؤساء تحريره النافذي الصبر في فينا . وبعد خبرة عامين كتب كلمات تحذيرية الى ابن عم له في بودابست كان يريد السفر الى باريس . « ان أي مراسل في باريس يجب ان يموت جوعا ، ويعرق ويشقى ويتجمد من البرد ويعمل اثناء الليل » .

ولما لم يجد هيرتزل الا القليل من الراحة في منزله ، اخذ يقضي في عمله ساعات اطول مما كان يتطلبها العمل . وكان ينمق رسائله فكانت احيانا تصبح انيقة لدرجة لا تخدم غرضها . واتخذ اصحابا من الفنانين والكتاب . وكان يذهب الى مقهى في ليالي الجمعة حيث المثقفون مثل ماكس نورداو Max Nordau يناقشون مشكلات الساعة . وكتب عن موباسان وهو يموت من مرض الزهري في المستشفى ، وكان يسأل هل يستطيع أن يشاهد العبقري من خلال ثقب في الباب . وراح يتتبع المناقشات البرلمانية بتفاصيلها الدقيقة وفي درجة من الادراك جعلت كتابه الذي اتخذها اساسا له «قصر بوربون «Palais Bourbon»سجلا رائعا لعصر لا يذكر عادة لما يميزه من حياة سياسية . وكانت له ايضا احزانه الخاصة . ففي عامه الاول في باريس كتب رثاء لاوزوالد بوكسر . ففي يناير عام ١٨٩٢ كان بوكسر في طريقه عائدا الى وطنه بعد ستة اشهر قضاها في البرازيل وزار يوما مدينة «ريو دي جانيرو»فأصيب بالحمى الصفراء.وفي السادس والعشرين من يناير مات . وانتهت اخر حلقة اتصال لهيرتزل بايام دراسته وكتب هيرتزل يقول بعد ان لجأ الى عزلة اوليمبية « ان الحياة ليست احزانا فقط ، بل لعبة يضحك منها الالهة بطريقة هومرية . ان المرء يجب ان يبعدها عنه بقدر مناسب (٧) » .

وثمة مشكلة من الصعب ان يبعدها المرء عنه بقدر مناسب . وبالذات اذا كان المراقب « الاوليمبي » يهوديا ، وهي التحيز العنصري في ارض الثورة . وفي فينا بدأت حركة المعاداة للسامية بواسطة اثنين من السياسيين هما جورج فن شونيرير Georg von Schonérer وكارل لويجر Karl Lueger . وفي فرنسا احال كاتب ذكي وهو ادوار ادولف درومونت Edouard Adolphe Drumont حركة المعاداة للسامية الى قوة كامنة في السنوات الخمسة عشرة الاخيرة في القرن التاسع عشر . وحلل كتابه « فرنسا اليهودية » اتجاهين مختلفين من الفكر . ففكرة الجنس التي لعبت دورا ملحا في ادمغة القرن التاسع عشر جعلت من السهل اثارة

نزاع بين الآريين والساميين . ولكن كيف يمكن لفكرة المؤامرة السامية ان تكون مقنعة ، اذا كان هناك في الوقت الذي كتب فيه ، اقل من ٨٠ الف يهودي في فرنسا باجمعها ؟ وادخل درمونت على الفكرة اتجاها جديدا بأن ربطها بمؤامرة مزعومة قام بها اليهود ضد الحضارة المسيحية . واخذ درومونت ادلته على هذا الخطر من كتابات القانون الالهي لبواتيير وانجوليم Poitiers and Angoulême والاب شابوتي Abbé Chabauty . وفي كتاب عنوانه اليهود اساتذتنا Les Juif nos Maîtres ، استخدم الاب شابوتي خطابين كتبا في مجلة يهودية عام ١٨٨٠ « ليثبت » ان اليهود الذين عاشوا في القسطنطينية في القرن الخامس عشر حثوا اخوانهم في الدين على تحويل نشاطهم الى نشاط سري والتظاهر بأنهم كاثوليك حتى يمكنهم في النهاية من ان يقلبوا الموائد على الاغلبية المسيحية ويستولوا على فرنسا . وقد ارسى هذان الخطابان (٨) القاعدة لنظرية تآمرية اثبتت ان الاعداء اليمينيين مثل مارات Marat (او اي شخص اخر) كانوا في الواقع يهودا مزيفين .

ورغم أن كثيرين من الناشرين الفرنسيين لا بد وان ساورهم الشك بأن هذا الكتاب قد يجلب التأييد من داخل مخزن من مشاعر الاستنكار . فقد جعلت التقاليد العقلانية التي كانت ما زالت سائدة ، من الصعب على دورمونت أن ينشر كتابه . وقد ساعده الفونس دوديه Alphonse Daudet (ومن السخرية انه كان من اقرب اصدقاء هيرتزل الفرنسيين) . الذي اقنع دار « ماربون فلاماريون Marpon Flammarion بأن تنشر الكتاب الملتهب (٩) .

وعندما توقفت مبيعات الكتاب بعد الاسبوع الاول ، تدخل دوديه لكي ينشر في صحيفة الفيغارو Figaro عرضا له ، وادى هذا في مبدأ الامر الى مبارزة ، ثم الى واحدة من تلك المعارك الصحفية العلنية التي تساعد على بيع الكتاب . ووجد ماربون فلاماريون فجاة ان قائمة كتبهم تحوي كتابا رائجا يمكن ان يبيع مائة نسخة (١٠) . وكانت اراء درومونت بصفة خاصة تؤثر على تلك الاجزاء من فرنسا التي كان اليهود فيها اما قلة واما غير موجودين على الاطلاق . وهذا التحيز الذي اثاره هذا الجدلي الذي لا مبادىء له لم يكن تعصبا دينيا اعمى الى حد كبير (وسببه التعليم) او خوفا من الاجانب (وسببه التجربة) بل كان خوفا . وهناك قطاع من المجتمع الفرنسي شعر بأنه مهدد ، ووجد في « اليهودي » رمزا لكل ما يخاف منه . وكان من بين المستمعين الى درومونت كل تلك العناصر التي وجدت في

الثورة كارثة وليس تحررا . وقد قاوم اعضاء الارستقراطية السالفة ، والفلاحون من ذوي العقليات المحافظة ، وكثيرون من العسكريين ، وقبل كل شيء الكنيسة ، غير انهم جميعا هزموا على ايدي القوى العلمانية .

وعندما اكتشف درومونت جمهوره نقل معركته الى الشوارع بأن انشأ في عام ١٨٩٢ صحيفة « لا ليبر بارول » التي كانت مهمتها الدفاع عن فرنسا الكاثوليكية ضد الخونة ، والجمهوريين والماسونيين الاحرار واليهود (١١) . وقد مول الصحيفة ج. بي. جرين J.B. Gerin الذي كان قبل عامين رئيسا لتحرير صحيفة موالية لليهود واسمها Le National ليناشونال . وقد ايد درومونت (الذي علق صليبا في كل مكتب) بسعادة طريقة جمع الاموال التي اشتملت على عدم التعرض للشخص بالاهانة في مقابل ان يدفع بعض المال ، ولا شك ان اليهود الاغنياء ومن بينهم البارون روبرت اوبنهايم Robert Oppenheim اشترى اسهما في الصحيفة ليحمي نفسه من الهجوم عليه . ورغم هذا فان درومونت ادار الصحيفة باشياء اكثر من مجرد التحيز والفساد . وككاتب له اسلوب حاز اعجاب كثيرين ممن لم يقبلوا افكاره ، وكرئيس للتحرير ، عرف كيف يستغل طاقة مجموعة شابة غير عادية من مساعديه . وكانت النتيجة ان اصبحت هناك اداة قوية لزيادة حدة انشقاق موجود فعلا في الروح الفرنسية . لانه بالنسبة لكثيرين من معاصريه لم يكن درومونت ينظر اليه على انه غوغائي قاسي يهاجم اقلية لا حول لها ولا قوة . وبالنسبة لهم فان اليهود كانوا عنصرا قويا في جماعة مسيطرة ، لان آل روشيلد مثلا كان معروفا عنهم انه لديهم احتياطي من المال (١٢) اكبر بكثير من راسمال بنك فرنسا ، وكان اليهود بالنسبة لاعدائهم يبدون كأنهم بذرة الجمهورية الثالثة . ورغم انهم لم يكونوا اقل ايمانا بالله من المسيحيين ، اصبح اليهود لاسباب واضحة ، ينسبون الى الخونة [اولئك الذين رفضوا الرؤيا المسيحية] ، والماسونيين الاحرار [وهم كجماعة سرية كانوا بسهولة يتهمون بانهم دبروا الثورة] والجمهوريين [الذين رفضوا التقاليد الملكية لفرنسا] . وقد حذر الكاتب اليهودي هيبوليت براغ Hippolyte Prague من أن الانفجارات المعادية للسامية مع مظاهر العنف الاخرى سببها الى حد كبير « الاستياء الذي انتشر في كل مكان نتيجة للاجراءات التشريعية او الحكومية ضد الملل الدينية وعلى الاخص ما حدث من طرد «الله» من علوم المدارس الابتدائية (١٣) . ولكن « براغ » هذا كان رجلا بعيد النظر بصورة فريدة . فلم ير معظم اليهود اي خطر داهم في ان يربط بينهم وبين الثورة التي حققت تحررهم . ففي ربيع عام ١٨٨٩

ــ وبعد العام الذي نشر فيه براغ تحذيره ــ اقيمت صلوات خاصة في المعابد اليهودية في جميع انحاء فرنسا للاحتفال بالذكرى المئة للثورة . وقد جمع مايكل ر. ماروس Michael R. Marrus سلسلة عظيمة من مقتطفات الكتاب اليهود يثنون فيها على تلك المناسبة (١٤) . فبينما وصف « ايسيدور كاهن » Isidor Cahen الثورة بأنها « قانونا الثاني في سيناء » ، فان المؤرخ موريس بلوخ Maurice Bloch قال ان ثورة١٧٨٩ ، تساوي تحقق النبوءة اليهودية : « لقد جاء زمن المسيح بهذا المجتمع الجديد ، الذي استبدل ثالوث الكنيسة القديم بهذا الثالوث الجديد ، الذي يمكن قراءة اسمائه على جميع الحوائط : الحرية ! المساواة ! والاخوة ! » وقال الحاخام كاهن حاخام نيمس Nîmes عن الثورة « انها فرارنا من مصر .. وعيد فصحنا الجديد » .

وسر الجمهوريون لهذه المشاعر : وقد ساعد اولئك (ولم يكونوا قليلين) الذين قدسوا ذكرى البوربون ، والذين اعتبروا لويس السادس عشر وحتى ماري انطوانيت شهداء ، على ربط اليهود بالمتسببين في الارهاب .

ويمكننا من الموقف الافضل للقرن اللاحق أن نرى أن الكاثوليك الفرنسيين واليهود الفرنسيين بينهما اشياء مشتركة اكثر مما يعترفون به . فان استبدال ماري (الخادمة الامينة للتوراة) بعاهر (وينسب هذا الى العقلانية) قد يكون نذيرا باحياء الوثنية وتدميرا للاخلاقيات الامر الخطير بالنسبة لكليهما . ولكن في ذلك الوقت اضاعت العداوة المتبادلة لرؤية اعرض . وفي روايته عن « لوردز » واهميتها اوضح آلان نيم Alan Naime ان ظهور العذراء في جروتو جاء كتشجيع كان يحتاجه الكاثوليك في فرنسا بشدة . وقد احيا روحهم اكثر من احيائه لحبهم للخير . فبينما كانت الصورة التي رسمها ايوجين سو Leugene Sue لراهب جيزويتي في كتابه Le Juèf Enant صورة دقيقة لصور معاداة السامية وبينما كتب اميل زولا كتابا يطالب فيه فعلا بقمع كل الاعمال المرتبطة « بلوردز » ، رد الكاثوليك بطريقة فيها المزيد من السم الزعاف . واستخدم اسقف احدى الابرشيات وهو الاب كروس صحيفة La Libre Purole « لا ليبرل بارول » كمنبر يعلن من فوقه ، « أن كل ما يطلبه ، هو حصيرة مصنوعة من جلد يهودي الى جانب فراشه يطأها بقدميه في المساء والصباح » . واتخذ التحيز اشكالا اكثر صلابة من الكلام. وفي نفس العام الذي كان الاسقف يطلب فيه ذلك..

] بدأ المثال رافيل Raphl العمل في « محطات الصليب » الخارجية في

« لوردز » . وهي ١٤ مجموعة ضخمة تشتمل على ١١٥ تمثالا آدميا كل منها ارتفاعه ٦ اقدام على الاقل . وكان عمل رافيل يمول الى حد ما من الثروة الخاصة لاسقف تارتبس Larbes . ويبدو الروماتيون وفيهم انسجام رجولي، ولكن يهذا الاسخريوطي الذي خان المسيح ، والامة اليهودية ، والمعبد اليهودي والفارازييم فيبدون وقد التوت قسمات وجوههم في عدواتهم للمسيح . وقد جسم رافيل هذه الصورة لليهود الحانقين في حديد صب . وهناك عبقة سميكة من الدهان والورنيش تضيف الى شعور الندم الذي تثيره تلك النصب التذكارية شعورا بالفزع الكئيب (١٥) .]

ولم يكن لمخاوف الكاثوليك — في حالتهم هذه — من الاجراءات التي تتخذها الحكومة ضد الكنيسة ، ما يبررها اكثر من مخاوف اليهود . وفي عام ١٨٩٩ بدأ فالديك روسو Waldeck Rosseau يتحرك ضد الجماعات الدينية . وفي عام ١٩٠٠ قمع نشاط طائفة « آباء مريم » وازداد الموقف تدهورا بعد انتخابات عام ١٩٠٢ عندما أوقف رئيس الوزراء الجديد اميل كومب Emile Combes مدارس الكنائس وبعث بهيئة التدريس الى المنفى .

وكان يمكن لهيرتزل كمفكر حر من اصل يهودي ، ان يتبنى موقفا علمانيا بسيطا . والواقع ان شخصيته المعقدة جعلته منتقدا لليهود وكذلك للكاثوليك وعلى استعداد لان يميز بين جوانب الخير والشر في الخرافات الشعبية . واثناء زيارته للبرانس ادرك النتائج الايجابية لظهور العذراء والتأييد الذي تلقاه من رجال الكنيسة من امثال اسقف مو Henry . وبمعرفته المتزايدة بالمجتمع الفرنسي تولد في نفسه احتقار للارستقراطية الفرنسية وللجماعة اليهودية الثرية بالمثل (١٦) .

ومع ذلك ففي بداية الصيف بعد وفاة بوكسر وقعت ثلاثة احداث الحقت بعزلته الاولايمبية توترا شديدا .

فقد دفعت مسرحية جديدة اسمها امير اوريك Le Prince d'aurec كتبها هنري لافيدان Henri Lavedan بهيرتزل الى ان يكتب عرضا طويلا لها . وجسمت المسرحية موضوعات درومونت الساخرة العنيفة . ورأى هيرتزل ان الشخصيتين الرئيستين في المسرحية هما الامير (الوريث المفروض للتقاليد الفرنسية) وبارون هورن (يهودي محدث نعمة) ، وارستقراطي ، وهو ادنى بكثير من المثال البروسي للارستقراطية ، وشخصيته في تصويرها اقل جودة من اليهودي محدث النعمة : « وهو طراز من الشخصيات

مسل للغلية » . وفي القرن الثامن عشر كان لكل امير الماني مساعده اليهودي الذي لا يستغني عنه . وقد نجح لافيدان في خلق صورة عصرية ليهود البلاط . « ولم يعد يتطلب اهتماما زائدا ، ولم يعد يلجأ للغش بل اصبح هو عرضة للغش » . ويعطي هودن الامير ٤٠٠ الف فرنك ويعطي زوجته ٣٠٠ الف فرنك اخرى وذلك كي ينتخبه الاول في ناديه حتى تقبله الزوجة كحبيبها . ولكن الاثنان يغشانه . فلم ينتخبه الامير للنادي بينما ترفض زوجة الامير محاولاته للتقرب منها احتقارا له، لانه يهودي، وليس من دافع الاخلاص لزوجها. ونقد هيرتزل الوحيد للصورة التي رسمها لافيدان لم يكن انه لم يجعل اليهودي محدث النعمة كريها الى حد كاف . « ان هورن لا يفخر الا قليلا بمعارفه الممتازين ، وعندما تخاطبه اميرة فانه لا يشعر بما فيه الكفاية بان هذا فخر له ، ولا يتلعثم بابتهاج كاف . وشعور اليهودي بعدم الامن لا يظهر بوضوح . ومع ذلك فان في الحياة الحقيقية تبدو تلك هي سمة هورن المسيطرة . وتظهر هذه السمة في اثناء التبادل المفاجيء للعجرفة والخنوع : رغم ان التفهم الرحيم لذلك يقول ان الشعور بعدم الامن ينبع من الاحزان الطويلة ، التي لم تنته بعد ... (١٧) »

وفورا اثر كتابة عرضه للمسرحية ، وقعت عينا هيرتزل لاول مرة على ادوارد درومونت، وكان يقف في واحدة من احدى المحاكمات العديدة التي اثارها هجومه العنيف على اراء الاخرين . وبعد اول مرة ، يلمح فيها الرجل الذي اقام معه علاقة غريبة يشوبها الاحتقار والاعجاب المتبادلان ، (كان قد قابله لاول مرة اجتماعيا في منزل « الفونس دورية » (١٨) وقع حادث بين مدى الخطورة التي قد تؤدي اليها كلمات درومونت . فقد كانت صحيفة « لا ليبر بارول » تهاجم الضباط من ذوي الاصل اليهودي منذ بداية العام . ولما كانت الاغلبية العظمى من اليهود الفرنسيين من الاشكيناز المتكلمين بالالمانية من الالزاس واللورين ، فكان من السهل الربط بين التحيز ضد الساميين والكراهية للالمان . وقد ادت تلك الهجمات الى مبارزات ، وفي احداها في ٢٤ يونيو سقط ارماند ماير وهو ضابط في سلاح المهندسين في الرابعة والثلاثين من عمره قتيلا برصاص مسدس رجل ارستقراطي معاد لليهود . وكانت المبارزة كشكل اجتماعي تروق لهيرتزل ، وظلت تروق له دائما . وقد اثار خيال هيرتزل موت الضابط الصغير ــ الذي جاء قبل اوانه ، والذي كان موضع اجلال لجمهور كبير اخذ يرثيه ــ وهو اكبر جمهور منذ جنازة « جامبيتا » قبل ذلك بعقد من الزمان . وسجل المشهد في

اسلوب نثري رائع بعث عبر اسلاك البرق الى فينا . وثمة دور أكثر روعة قد كذب . فقد كتب في اعقاب ذلك فجاة الى « آرثر شنيتزلر » يهنئه على كتاب جديد . وكانت كتابته الى شنيتزلر عن كتابه الجديد مجرد ذريعة او ستار . فقد كان السبب الاعمق هو حاجته الى صديق ، شخص مرتبط بشبابه ، شخص يستطيع ان يكتب له عن نفسه . واتضح من خطاباته التي كتبها اليه بعد ذلك مدى اشمئزازه من نفسه وحسده الكبير لشنيتزر على نجاحه في حياته الادبية . وقال ان تجربته الخاصة في المسرح كانت لا معنى لها وبغيضة . « ان القطع التي آمنت بها ، والتي وضعت فيها جهدا حقيقيا ، لم تر ابدا ضوء النهار . وعندما كنت اشعر باليأس كنت اختلق شيئا للمسرح — وانتج ما كتبته — واحتقر ما كتبته . وعندما اتوقف لاستعرض مكانتي في الادب الالماني — وهو امر افعله ، ولكن نادرا — ينتابني شعور بالضحك (١٩) » . وبالمقارنة بمواهب شنيتزلر ، التي كانت عندئذ تزدهر مثل الورود في حديقة الصيف ، فان مواهب هيرتزل كانت تبدو جديرة بالازدراء . فلم يكن الا مجرد رجل متعلم ، ضيق الصدر ، قليل التسامح ، غيور ، وتافه حقير .

وراح شنيتزلر ، الذي كان يعرف كيف قصرت مسرحيات هيرتزل عن تحقيق أمله الغض بالنجاح ، يواسيه بان قال له كيف كان يعجب به وهو طالب . واوضح رد هيرتزل على تلك المجاملة انه متعب جسدا وروحا « اذا كنت تراني دائما متقدما عشرين خطوة ، فيجب على الاقل ان تعرف ان هذه الميزة في المسافة ثمنها ، التعب الشديد ، واليوم كما قلت لك ، اجلس فوق صخرة على جانب الطريق واشاهد الاخرين يلحقون بي ثم يتركونني وراءهم » . أن اليأس واحتقار الذات ، والزعم بأنه دفن نفسه في الصحافة كعقاب على قحة ووقاحة كتاباته الاولى ، يظهر في خطابات متبادلة كتبها بينما كان يحرر مقالة عن المعاداة الفرنسية للسامية « للنيو فري بريس » . وبينما كان مبتهجا لنزاعه مع رجينا فريدلاندر Regina Friedlander ورفضه الاشتراك في حملة مضادة للحملة المعادية للسامية التي كانت مألوفة في ذلك الوقت ، وصل الى استنتاج متشائم في يناير عام ١٨٩٣ ، وهو أن فرنسا ستقوم فيها على الارجح ثورة جديدة . « اذا لم اعد بسرعة الى بروكسل ، فانهم على الارجح سيطلقون علي الرصاص بحجة انني بورجوازي ، وجاسوس الماني ويهودي او راسمالي » . وفي هذه الحالة النفسية كان يعتقد ان افضل حل بالنسبة للناس جميعا هو حكم دكتاتور طيب ، بينما

كان افضل حل بالنسبة لليهود هو التحول الى الاشتراكية اذا كانوا يعيشون في المانيا ، والى الكاثوليكية اذا كانوا يعيشون في النمسا .

وكان هيرتزل مع كل اعجابه ببسمارك والدولة البروسية ، يعرف النمسا اكثر مما يعرف المانيا . وكان الجانب النمسوي للحل هو الذي اوضحه لموريتز بنيديكت Moritz Benedict الذي يعمل في « النيو فري بريس » أثناء اجازته الصيفية في النمسا . وتخيل هيرتزل مساومة بينه كزعيم لليهود ، وبين البابا كزعيم للكاثوليك . وتصور نفسه يقول ، « ساعدنا ضد المعادين للسامية ، وسأبدأ حركة كبيرة حرة نيعتنق اليهود المسيحية (٢٠) بطريقة حرة ومشرفة » .

ومضى ليشرح ماذا يعني « بحرة ومشرفة » بالنسبة له : ان التحول الضخم عن الدين اليهودي يجب الا يشبه التحول بالقوة الذي حدث في القرن الخامس عشر في اسبانيا ولا يجب ان يشبه التحول عن العقيدة الذي كان سببا في اثراء الكنيسة من بداية القرن فصاعدا . « حرة ومشرفة لان زعماء هذه الحركة ــ وانا نفسي بصفة خاصة ــ سيظلون يهودا ، وبهذا يزيدون من التحول الى عقيدة الاغلبية » . لقد اعد الشخص الدرامي في هيرتزل مسرحا ضخما . فعندما تدق الاجراس ظهر يوم من ايام الاحد ، فان جموعا ضخمة ستتوافد على كنيسة سان ستيفان . وسيبقى اليهود المسنون ، وعلى راسهم بالطبع هيرتزل ، خارج الكنيسة ، راضين بأنهم قادوا الجيل الشاب الى جرن التعميد » . اني استطيع ان ارى نفسي وانا اتعامل مع رئيس اساقفة فينا ، وها انذا اقف هناك في الخيال امام البابا ــ وكلاهما اسف للغاية لانى لا اريد اكثر من ان اكون جزءا من اخر جيل يهودي ــ وارسلت شعار اختلاط الاجناس ليطير عبر العالم » . وقد رفض موريتز بنيديكت وهو رجل من فينا خبير بأمور الحياة ، ويؤمن بالذوبان الاجتماعي فكرة هيرتزل بالذوبان الديني ولم تكن حجته في ذلك حقيقة اليهودية بل تاريخها الطويل . وقال : « ان سلسلة نسبك قد حافظت على نفسها في اطار اليهودية . والان فانك تقترح ان تقيم نفسك كنقطة النهاية في هذه العملية ولن تستطيع ان تفعل هذا وليس لك الحق في ان تفعله هذا فضلا عن ان البابا لن يستقبلك ابدا » . ولم تكن فكرة هيرتزل مثلها مثل كثير من الافكار ، فكرة مبتكرة . بل كانت انعكاسا لفلسفة دافيد فريدلاندر (١٧٥٠ ــ ١٨٣٤) وهو زعيم لحركة الاصلاح الالمانية وصديق لـ موزيس ميندلزون Moses Menelssohn ، واول يهودى

ينتخب في المجلس البلدي لمدينة برلين . وكان فريدلاندر على استعداد لان يضحي بالتلمود والطقوس في مقابل ذوبان يهود برلين في البروتستانتية المسيحية بشـــرط الا يتطلب ذلك قبول المذهب المسيحي قبـــولا تاما . ويحبذ الالمانية بدلا من العبرية لاغراض الصلاة ، ورفض فريدلاندر الايمـــان بالمسيح . وكانت عائلته كلها تتبع مشورته وعمد بعض افرادها بينما كان حيا والاخرون بعد وفاته .

وربما نجحت فكرة هيرتزل المقتبسة من فريدلاندر اكثر في فرنسا . فلم يكن اكثر من خمسمائة يهودي من مجمـــــوع السكان اليهود في فرنسا اورثوذكسيين حقيقيين وذلك طبقا لاحد المراقبين في تسعينات القرن التاسع عشر (٢١). وكان معظم هؤلاء من اوروبا الشرقية، وعاشـوا في حي قذر وكانوا يمارسون العبادة في معابد صغيرة تختلف كثيرا عن المعابد الفاخرة التي يؤمها الاغنيـــاء .

وكانت الاغلبية الساحقة من اليهود الفرنسيين ، دون ان يأخذوا الخطوة « الحرة المشرفة » التي يوصي بها هيرتزل ، قد سمحوا بالفعل للمجتمع الذي يعيشون فيه بأن يغير تقاليدهم . وقد كتب « مايكل ر. مزروس » الذي نقلنا عنه في مكان اخر من هذا الكتاب عن الاسلوب الذي اثرت بـــه التقاليد الكاثوليكية على تقاليد اليهود . ففي بداية حياتهم يؤخذ الاطفال الى المعبد اليهودي ليباركوا بينما يبدأ طبق جمع «النقوط»* يدور على الحاضرين في افراح الزواج. وكان الصبية يحتفل بدخولهم اليهودية في سن الثالثة عشرة والفتيـــات في سن الثانية عشرة اي اقل منهم بعلم وكانوا يرتدون ملابس يقلدون فيها الملابس التي يرتديها الاطفال الكاثوليك عندما يحضرون اول قداس لهم لتناول العشاء الرباني . وعندما كان اليهودي يرقد على فراش موته فان الحاخام ينتقل اليه كما يفعل القسيس مع المسيحي ، وكان النعش ايضا يغطى بالاكاليل والزهور . واستخدم الارغن في المعابد بقرار صدر عام ١٨٦٥ . وارتدى الحاخامات الفرنسيون نفس زي القساوسة فيما عدا ان ياقة الحاخام بيضاء . وبعد سنوات قلائل اقترح احـــد كبار الحاخامات ان تقام صلاة « السبت » في صباح ايام الاحد (٢٢) .

---

* مساهمات مالية يقدمها الاقرباء والاصدقاء للمتزوجين اثناء الاحتفال بالزواج . (المترجم)

والواقع ان فكرة الذوبان الكامل ، قد دعي اليها في فرنسا في نفس العام الذي دعا فيه اليها هيرتزل عندما ذكرها لموريتز بنيديكت في النمسا .

وكان بيرنارد لازار Bernard Lazare (الذي ناقش في كتابه ما كان هيرتزل يناقشه شفويا) اصغر بخمس سنوات من رفيقه النمساوي . وكانت نيمس Nîmes في جنوب فرنسا مسقط راسه . ورغم انها كانت مركزا لطائفة اليهود «السفرديين» فمن الارجح ان اجداد لازار جاءوا من الالزاس. وعلى اي الاحوال فقد كانت نيمس بالنسبة له مثلما كانت بودابست بالنسبة لهيرتزل . ولما اتم دراسته الثانوية انتقل شمالا الى باريس ، حيث كان من اصدقائه الحميمين الشاعر الكاثوليكي شارلز بيجي Charles Pegy وجورج سوريل فيلسوف الفوضوية . وكان لازار يختلف عن هيرتزل في احد الجوانب الهامة : فقد كان ينتمي دائما الى ما يمكن ان يسمى بالضبط « باليسار » . فقرابة نهاية عام ١٨٨٠ كان اليهود الهاربون من مذابح القيصر يصلون الى فرنسا في اعداد متزايدة . وكان لازار حينئذ متصلا بمجلة من المجلات الطليعية . وقد استخدمها لينشر مقالين ، « وقد استنكر في اسلوب عنيف ضحايا الاضطهاد القيصري (٢٣) » . وكان لازار يؤيد ما بدا انه وجهة نظر عنيفة عندما اوضح في اسهاب الفرق بين « اليهودي » و « الاسرائيلي » .

[ان اليهودي هو ذلك الشخص الذي يصور في الكاريكاتير التقليدي المعادي للسامية ، وهو شخص يسيطر عليه الاهتمام الفريد بتكوين ثروة سريعة ، « شخص يجعل من المال هدف حياته ومركز العالم » . اما الاسرائيلي ، فقد ذاب في المجتمع الفرنسي ، وهو شخص اكثر تهذيبا ، « محدود في رغباته » ، وهو اما فقير او في حالة متوسطة ، وقد استقر زمنا طويلا في المكان الذي نعيش فيه . ان اليهود الفرنسيين هم اسرائيليون بصفة عامة ، اما اليهود الالمان ويهود اوروبا الشرقية فليسوا اسرائيليين انما هم يهود اصليون . ويشعر لازار بأن الاتهامات المعادية للسامية صحيحة في اساسها اذا انطبقت على هؤلاء اليهود . ويقول « ان الاسرائيليين يجب ان يرفضوا الارتباط باولئك الذين يتعاملون في تغيير العملة في فرانكفورت ، ونادلي المشارب البولنديين ، والسماسرة الذين ليس بينهم وبين هؤلاء شيء مشترك » . وراح يدعو الاسرائيليين وهو مستمر في غضبه الى « طرد هؤلاء المجذومين الذين يفسدوننا ، وان يتقيأوا العفن الذي يريد

أن يزحف اليهم ، » انهم يجب ان يذوبوا في فرنسا (٢٤) .]

وقد تكهن بعض الكتاب بأن لازار ربما ناقش هذه الاراء مع مراسل «نيو فري بريس» في باريس . ويبدو ان ما ذكره هيرتزل اخيرا عن لازار (الذي تحالف معه فترة قصيرة) يشير الى انه عرفه فقط عام ١٨٩٦* . وفي عام ١٨٩٣ فان ايا منهما لم يصر على تشجيع رفيقه في الدين ، ولم يضع اي منهما قدمه في معبد يهودي كبير او صغير . وهناك اعتبار هام اخر يجعل من غير المرجح ان يكون لازار قد ناقش المقالة التي نشرها في ٢٧ ديسمبر عام ١٨٩٣ مع هيرتزل . فقد قال عندئذ ان الحل الوحيد بالنسبة للاسرائيليين هو ان يفقدوا انفسهم في جماهير الامة . وبهذه الطريقة فقط يمكنهم الهرب من الانتماء الى « قبيلة الغزاة » التي انتموا اليها مرة . وفي الوقت الذي ظهرت فيه تلك المقالة كانت صحة هيرتزل اسوأ مما كانت في العالم السالف عندما كتب الى « آرثر شنيتزلر » . وفي اكتوبر قام الاسطول الامبراطوري الروسي بزيارة لميناء تولون . وكتب هيرتزل انه سافر جنوبا ليغطي الحادث . وربما جعلته حالته المكتئبة عرضة للاصابة بالملاريا التي كانت منتشرة في ذلك الجزء المهمل من فرنسا . وكان يعتقد ان قرصة البعوضة ، ضاعف من اثرها الغباء الشديد للاطباء الذين عالجوه . « وقد حقنني احدهم بالكينين تحت جلدي ، ومن هذا اصبت بدمل في الفخذ اجريت عليه عدة عمليات . ومشيت بعصى كالاعرج » . وعندما كتب اليه ابن عمه جينو هيلتاي Jeno Heltai (اصلا ايوجين هيرتزل) من المجر يطلب منه النصيحة بشأن زيارة باريس . رد عليه هيرتزل في بداية ديسمبر بأنه ما زال ضعيفا وسيرد عليه ردا قصير (٢٥) . ومن المشكوك فيه ما اذا كان قد توفر لديه في ذلك الوقت الدافع النفسي لان يناقش مع لازار كيف يمكن لليهود الفرنسيين او النمساويين الهرب من نسبهم الى « قبيلة الغزاة » الذين نسبوا اليها مرة .

---

* ١٧ يوليو ١٨٩٦ : « تحدثت مع بيرنارد لازار . طراز ممتاز من اليهود الفرنسيين المهنيين الاذكياء » . (المذكرات الكاملة . صفحة ٤٢٤) .

الفصل الخامس عشر

اعتبر هيرتزل في باريس كواحد من اهل فينا ، فقد كانت صلته بيودابست معروفة فقط لاولئك الذين كانوا ، مثله ، قد فتحوا اعينهم لاول مرة في هذه المدينة في المنطقة الشرقية من الامبراطورية . واحد هؤلاء كان « صمويل فريدريش بير » (١٨٤٦ — ١٩١٢) وهو مثال تقليدي كان يمتلك موهبة الاختراع . وكان « البيريت » Beerite هو احد هذه الاختراعات، وهو مركب كيميائي سريع الجفاف كان من المفروض ان يحل محل الملاط في اعمال البناء . وتشتمل تماثيله الباقية على تمثال نصفي لواشنجطون ارفنج في مدرسة واشنجطون ارفنج الثانوية في نيويورك . وفي شهر اكتوبر عام ١٨٦٤ ، نحو نهاية العام الثالث لاشتغال هيرتزل في باريس ، كان «بير» يقوم تمثال نصفي لمواطنه المجري . وتمثل احد جلسات العمل في هذا التمثال لحظة هامة في مجرى حياة هيرتزل .

كان الحديث الحميمي مع فنان ممارس ، وحقيقة انه هو نفسه موضوع عمل هذا الفنان ، قد ذكر هيرتزل بانفصاله هو عن الفن . وطرقات ازميل المثال ، حتى بالنسبة لرجل عادي ، تثير ادراكا قويا بالنفس التي ينظر اليها كشيء عادي في حياته اليومية . وعواطف النرجسي تثار بشكل اكثر عمقا ، فاهتمام الفنان يرضيه ، كما تحزنه حقيقة انه لن يكون شابا هكذا مرة اخرى . وحقيقة ان هيرتزل كان قد تعلم ارتداء الكلوش* ، ولكنه لم يحرز بعد شهرة في اوروبا . وكانت رسائله وتقاريره تنشر — وتقرا لذلك

---

* حذاء من المطاط يلبس فوق الحذاء العادي . (المترجم)

في فينا — في صحيفة يملكها ويحررها يهود ، وينظر اليها باعتبارها جريدة يهودية اساسا (١) . ولا يبرز اسم هيرتزل في ذكريات معاصريه من غير اليهود ، كما لا يفعل في الكتب التي تؤرخ للمسرح النمساوي (٢). وربما كي يهربا من عنف هذه المشاعر ، فان كلا من الرجلين (فلم يكن « بير » أيضا رودان اخر) بدأ يناقش المشكلة اليهودية في مدينتي امبراطوريتهما : فينا وبودابست . وقد وصف هيرتزل ، فيما بعد ، اكثر من مرة كيف الهمته هذه الجلسة مع «بير» فكرة احدى مسرحياته (٣) . وهو يقول في احدى هذه المرات :

« انفعلت وانا اعرض له المسألة اليهودية في النمسا . ولازمني الانفعال بعد خروجي . وفي طريقي الى المنزل اختمرت في ذهني المسرحية بأكملها . وفي اليوم التالي قلت له : « لو لم اكن الان عاملا اجيرا ، ولو كنت استطيع ان اذهب الى « رافيللو » لكتبت مسرحية » . ونظر الي « بير » وعلى وجهه علامات عدم التصديق . وفي اليوم الثالث لم اذهب اليه وبقيت بعيدا حتى انتهت المسرحية . وعندما عدت اليه ، انتابني اغراء قوي ان اخبره ، وان اقرأ له المسرحية بأكملها . ولكنني قاومت هذه الرغبة ، على اية حال، وبررت غيابي بانشغالي بعمل صحفي » .

ويظل هذا التحول الجديد في حياة هيرتزل ، الذي بدأ في ستوديو « بير » ، مثل زواجه ، محاطا بالغموض . ولا يرجع الغموض في هـذه الحالة الى التاريخ او المكان او صحة الامر من عدمه . وانما يرجع الغموض الى الدافع وراء عودة هيرتزل الى الكتابة الخلاقة ، ودلالة واهميـة النتيجـة .

وقد بدأ هيرتزل في كتابة المسرحية الجديدة ، التي أسماها « الجيتو » في البداية ، ثم « الجيتو الجديد » فيما بعد ، في ٢١ اكتوبر عام ١٨٩٤ . وانتهى من كتابتها في ٨ نوفمبر . وتبدو السرعة التي كتبها بها اكثر اثارة للدهشة اذا عرفنا مدى ثقل التزاماته (التي كان يوفيها) كمراسل . كما كان ايضا على اتصال بـ « بيركهارد » في فينا بشأن المسرحيات الجديدة التي تعرض في باريس وصلاحيتها للعرض في النمسا .

وحالما انتهى من المسرحية كتب الى « آرثر شنتزلر » محيطا اياه علما بالحقائق التي ذكرناها فيما سبق وعارضا عليه : « انا لا اريد ان يعرف احد انني المؤلف ، على الاقل مؤقتا ، وبالتاكيد ليس اقل من بضعة اشهر او سنوات . وانا لذلك اطلب العون من صديق كتوم للسر يعطيني رسميا كلمة شرف بأن يحتفظ بالسر وأن لا يفضي بأي شكل بما يعرفه ، حتى احله انا ؛

بشكل رسمي ، من وعده . هل توافق على ذلك ؟ » واقترح هيرتزل ان يتخذ له اسما هو « البرت شنابل » . كما يجب ايضا ان لا تعرف اسرته بالسر الذي يجب ان يبقى محصورا بينهما فقط . وكذلك يجب ارسال الخطابات المتعلقة بهذا الموضوع الى احد صناديق البريد في باريس وان تبدا كل هذه الخطابات بالعبارة التالية : « كتبت اليوم الى البرت شنابل » . ثم يطلب هيرتزل من شنتزلر حكمه الصريح على المسرحية — واذا وجد انها سيئة فان ذلك لن يقلق هيرتزل . فان الاسم المستعار سوف يكون بالنسبة لشنتزلر . كالدرع الواقي من الرصاص . ويضيف هيرتزل انه ينوي ان يكتب اربع او خمس مسرحيات بنفس هذه الطريقة خلال الاربع او الخمس اعوام التالية — وفي ذلك الحين سوف يضع نفسه موضع الاحتقار كصحفي .

كان شنتزلر في ذلك الوقت في الثانية والثلاثين من عمره . وكان قد انتهى توا من كتابة مسرحيته الدرامية « ليبلي » Lieblei ، وكان هو نفسه يبحث عن منتج لها .

وتحتوي المسرحية ذات الاربعة فصول — التي اقتطع شنتزلر من وقته كي يقراها وينقدها ويجد لها منتجا — على اسماء اربع عشرة شخصية بالاضافة الى وصيفتين وطباخ ورئيس للخدم . وتدور حوادثها في فينا في العام السابق . وكل الشخصيات — فيما عدا شخصيتين — (والخدم) من اليهود ، رغم ان احدهم وهو الدكتور بيشلر قد تم تعميده لاسباب اجتماعية . وهناك « تيمات » من حياة هيرتزل الحقيقية والمتخيلة منسوجة في سدة القصة ذات الدلالات الاجتماعية .

وتبدا المسرحية بزواج جاكوب صمويل (وهو بوضوح هيرتزل نفسه) من هيرمين هيلمان ، الابنة الثانية لابوين من اثرياء اليهود . وتنتهي المسرحية بموت جاكوب في مبارزة بعد ان اطلق عليه الرصاص كابتن الفرسان المتقاعد الكونت فون شرام . وبين هذين القطبين — حفل الزفاف في « غرفة الاستقبال المؤثثة باثاث انيق من طراز اواخر السبعينات يغلب عليه كثرة التذهيب (٤) » وغرفة المكتب المرصوصة بالكتب التي يؤتى بجاكوب اليها كي يموت — تدور حوادث المسرحية وحوارها الذي ينقل رؤيا خاصة للمجتمع اليهودي في فينا ومشاكله الناتجة عن ذلك .

ويستدعي الزواج (فيما عدا ان هناك احتفالا في المعبد خارج المسرح) ذكرى زواج هيرتزل نفسه . وعروس جاكوب « وقد بدت جميلة كصورة في ثوبها الابيض الحريري » نسخة اخرى من « جولي » ، تماما كما ان عديل

جاكوب وهو فريتز راينبرج هو مقابل الاخوان تاسشوير : جاكوب وويلهلم .
ويتم اثبات الضحالة العاطفية لهرمين (او جولي) بشكل سيء . .ويصل الشخصية الكوميدية في المسرحية، ايمانويل واسرستين، قبل باقي المدعوين في حلة ناحلة ويأخذ في تثمين الاثاث وكأنه في مزاد ، ثم يكشف للدكتور بيشلر ان « هرمين » كانت مخطوبة له فيما سبق ، وان اختيارها لجاكوب ، الذي يستحق الاعجاب ، زوجا لها ، مجرد حادث عرضي .

« د. بيشلر : لا يمكن ان اصدق ذلك !

واسرستين : كما اعيش الان واتنفس ! او ربما ، كما كنت اعيش واتنفس منذ عام مضى عندما كانت حلتي هذه جديدة تماما . وبشكل ما ، فقد كانت هي سبب سقوطي .

د. بيشلر : ماذا ؟ الانسة هيرمين ؟

واسرستين : بالطبع ! ان الزواج بواحدة من فتيات هيلمان يتكلف مالا كثيرا .

د. بيشلر : ان السيد هيلمان ليس غنيا بهذا الشكل .

واسرستين : حسنا ، لا استطيع بدقة ان اضعه في الدرجة الاولى . لنقل ٠٠٠ر١٠٠ جيلدر ، معظمها مستثمر في عمله واذا مات — وهو الامر الذي ارجو ان لا يحدث ابدا ....

[يضحك الدكتور بيشلر]

واسرستين : باختصار ، ليس كثيرا من المال ، ولكن مستوى مرتفع من المعيشة . لقد نشأت الفتاتان كي تتزوجا بمليونيرين . وعندما وقعت في غرام الانسة « هيرمين » قلت لنفسي : واسرستين ، عليك ان تصبح مليونيرا ! واخذت راينبرج مثالا لي — وهو الصهر الاخر ، فقد تزوج الانسة شارلوت منذ ثلاث أعوام . وخرجت والدم في عيني كي افوز بالانسة هيرمين. ووضعت كل ما املك في السندات البرتغالية .

اما الثاني ، الدكتور بيشلر ، وهو اليهودي المندمج ، فقد فعل بشكل فردي ما كان يدعو اليه هيرتزل في حديث مع موريتز بنيديكت — على ان يحدث على نحو جماعي — في العام السابق (٥) . واثناء حديث بيشلر مع واسرستين (الذي يشرح كيف يمكن خسارة النقود في البورصة) يذكر بيشلر انه لم يشهد حفل عقد الزواج في المعبد :

واسرستين : اوه ، لقد نسيت . لقد اعتنقت المسيحية ، اليس كذلك ؟

د. بيشلر : كل ما أعرفه ان الحاخام ليس راضيا عني . ولسبب وجيه، من وجهة نظره . ولم احب ان اؤذي مشاعر اليهود الورعين بحضوري .... (صوت عربة تقترب)

واسرستين : قل لي ، لماذا عمدت نفسك على اية حال ؟

د. بيشلر : ان الامر في الواقع ليس من شانك يا عزيزي . ولكنني لن اتجنب السؤال . لقد كانت خطوتي هذه حلا للمشكلة على المستوى الفردي .

واسرستين : فردي .... انا لا افهمك .

د. بيشلر : [يتنهد] دعنا نقول انها كانت محاولة لايجاد حل ... فانها ، بيني وبينك ، لم تحل شيئا .

والثالث ، اليهودي المتدين ، الحاخام فريد هيمر* ، الذي يقدمه السيد هيلمان الى جاكوب — على الرغم انه يفضل ، مثل والد جولي ، ان يدعوه بـ جاك على الطريقة الفرنسية . ولكن الحاخام ، على اية حال ، يوجه اولى كلماته الى عديل جاكوب :

الحاخام : لقد سمعت يا سيد راينبرج ان البورصة في نزول !

ويتساءل صديق جاكوب غير اليهودي « فرانز ويرزلخنر » في دهشة :

هل يضارب الحاخام في البورصة ايضا ؟

ويردد جاكوب صدى تساءل صديقه :

لا اكاد اصدق اذني أيها الحاخام ! هل انت مهتم بالبورصة ؟

ويرد الحاخام في ثقة هادئة :

ليس من اجلي يا صديقي الشاب ، بل من اجل فقرائنا .

ويجلس الحاخام ويصبح محط الاهتمام . ويستطرد قائلا [في شيء من الورع ، كما تقول توجيهات هيرتزل المسرحية] :

نعم ، حقيقة عندما تكون السوق جيدة تكون لدي نقود من اجل فقرائنا . ان البورصة يمكن أن تكون كريمة .

ولكن اذا كانت « هيرمين » ضحلة ، والحاخام محتالا ، فان «ويرزلخنر» غير اليهودي ليس اقل سوءا منهما . فهو يقوم بزيارة مفاجئة لجاكوب ذات

---

* نتيجة لسهو غريب ، حذف اسم الحاخام من قائمة شخصيات المسرحية في ترجمة « هاينز نوردن » لها والتي قامت بنشرها مؤسسة تيودور هيرتزك في نيويورك .

صباح (وكان جاكوب قد ظل مستيقظا طيلة الليل بدرس قضية بعض الموكلين الاشتراكيين) ويعرض عليه قرضا بدون فائدة (فقد تعلم جاكوب ، مثل هيرتزل ، كم تكلف الزوجة الثرية) ثم يعلن في اختصار عزمه على انهاء صداقتهما التي استمرت طيلة حياتهما .

ويرزلخنر : لا اعتقد ان احدنا سيرى الاخر بعد الان .

جاكوب : [منزعجا] فرانز !

ويرزلخنر : انا آسف . [في حزم] ولكن الامر ليس في يدي .

جاكوب : ماذا حدث بحق السماء ؟

ويرزلخنر : انه انت ... لقد تغيرت . ان الجو الذي تعيش فيه مختلف ... وكذلك الناس الذين تراهم . انا لا انتمي هنا ... الى « راينبرج » و « فاسرشتين » والمجموعة برمتها . الا يمكن أن ترى ؟ لا استطيع ان اتحملهم ... انهم يستفزونني . ومنذ زواجك ، اصبح من المحتمل ان التقي بهم في اي وقت هنا في بيتك .... لا يوجد مهرب منهم . ليس هذه غلطتك ... انهم اناسك ... رغم اني لا بد ان اقول اني احيانا اغضب منك قليلا . فالامر لا يبدو عادلا على نحو ما . على اية حال ، لنعتبر الامر منتهيا ! دعنا لا نفترق شيئا فشيئا نتيجة سوء فهم مصطنع . لننه الامر بطريقة حاسمة . ان شعوري نحوك لم يتغير . وسوف اكون رهن اشارتك في اي وقت تحتاج فيه الي . وانا أعرف ايضا انك ستكون رهن اشارتي . ولكن لنوقف كل هذه المقابلات الاجتماعية .

ويزيد « ويرزلخنر » في شرح دوافعه بعد فترة . لقد عزم ان يشتغل بالسياسة . واذا كانت له « علاقات صداقة باكثر مما يجب من المضاربين والسماسرة والاصدقاء اليهود » فسوف يوصم بانه اداة لليهود . ويعترف جاكوب بذلك قائلا : « هذا صحيح . انت على صواب » .

والموضوعان الاساسيان في المسرحية هما « الجيتو » و « الهروب » .

ويدافع الحاخام المضارب في البورصة عن الجيتو على مستوى واحد .

« صحيح أن الجيتو كان قذرا ومزدحما ، ولكن فضائل الحياة العائلية ازدهرت هناك . كان الاب هو رب العائلة ، وكانت الام [يضع يده بخفة على يد السيدة صامويل] تعيش من اجل اولادها فقط ، وكان الاولاد يحترمون اباءهم . لا تقلل من شأن الحي اليهودي ، يا صديقي العزيز . صحيح انه كان فقيرا ، ولكنه كان دارنا » .

جاكوب: انا لا اقلل من شأنه . انا اقول فقط اننا يجب ان نخرج منه .

الحاخام : وانا اقول لك اننا لا نستطيع ان نفعل ذلك ! حين كان هناك جيتو حقيقي ، لم يكن مسموحاً لنا ان نتركه دون اذن ، والا تعرضنا للعقاب الشديد . والان فان الجدران والسدود قد اصبحت غير مرئية ، كما تقول . ومع ذلك فنحن محبوسون في صرامة في جيتو اخلاقي . والويل لهذا الذي يهجره .

ومع ذلك فان جاكوب ، وهو يرافق الحاخام الى الباب ، يقبل هذا « الويل » ! « هناك سدود ظاهرية يجب ان نزيحها من الخارج ، ولكن السدود الداخلية يجب ان نزيحها نحن بأنفسنا . نحن انفسنا ، وحدنا » !

ويشير هيرتزل الى مفهومه عن هذا الجيتو الداخلي والهروب منه في المشهد الذي يظهر فيه جاكوب ، وهو الذي عامل الحاخام بعدوانية ، سلبيا بشكل غريب أمام صديقه السابق غير اليهودي ، وهو يقدم لـ « ويرزلخنر » يده :

جاكوب : اشكرك لصراحتك : وانا واثق انك فكرت في الامر جيدا جدا قبل ان تقرر ان تجرحني بهذا الشكل . واشكرك ايضا لصداقتك طيلة كل هذه الاعوام . لقد تعلمت منك الكثير .

ويرزلخنر [يسيطر على مشاعره] انت تمزح ... انت تعلمت مني ؟

جاكوب : هذا صحيح ، رغم انني لم اكن اعرف ذلك في البداية . لقد تعلمت اشياء كبيرة وصغيرة ــ انحناءات وايماءات ، كيف انحني دون ان اكون ذليلا ، وكيف اقف دون ان ابدو متحديا ــ كل انواع الاشياء .

وهذا الحوار هام . فهو يبين ان الهروب من الجيتو بالنسبة الى هيرتزل ــ وهو موضوع المسرحية الاساسي ــ يتضمن هروبا من صفات اليهود السيئة اكثر منه هروبا من اضطهاد غير اليهود . ويتمثل هذا (وبشكل قد يبدو لكاتب غير يهودي انه يكشف عن نقص واضح في التوازن) في سلوك راينبرج عديل جاكوب . فهو يستخدم كل حيلة من حيل مضاربي البورصة كي يدمر فون شرام الكريه . وتاتي لحظة الازمة في المسرحية عندما ينجح في ذلك . كان فون شرام قد خسر كل شيء ، واخذ جاكوب يرجو صهره ان يساعده . ويقدم الحاخام تاييده الادبي لجاكوب .

راينبرج : لا استطيع ان اوافقك . لست ملتزما بشيء على الاطلاق تجاهه . عديلي يظن انني ملتزم . ولكنه يقف الى جانب شرام ، ولا استطيع

ان اتصور سببا لذلك .

الحاخام : لانه يعتقد ـــ محقا تماما ـــ ان اعداءك سوف يستغلون مرة اخرى قضية كهذه للعمل ضدنا نحن اليهود . انا اوافقه على رايه . وهذا هو السبب في وجودي هنا . ان اسالك ان تساعد شرام .

وفي هذا المشهد تظهر ثلاثة اتجاهات نحو دمار فون شرام . فجاكوب يريد أن يساعده بدافع من نبل الفرسان ، والحاخام يريد ان يساعده لاسباب تتعلق بالتبصر بعواقب الامور ، بينما يحتج راينبرج (وهو يواجه ايضا مصاعب مالية) بان مبدا caveat emptor (ليكن المشتري على حذر ؛ هو السائد في البورصة كما في اي مكان اخر . وفي ذروة المشهد ، يقتحم فون شرام حجرة استقبال راينبرج المزوقة . ويعبر جاكوب لفون شرام عن تعاطفه معه بسبب خسائره المالية ، ولكنه يشير في نفس الوقت الى انه ، من الناحية التكنيكية ، لم يخدع ، بل اصيب فقط بالذعر في البورصة حيث لا ينتصر الا ذو الاعصاب القوية . ثم يغير بعد ذلك لهجته ، ويهاجم الارستقراطي بسبب اهماله الاجرامي الذي ادى الى كارثة منجم . لقد دفع عمال المناجم الجائعون ثمن شهوات الكونت . وتحتد الاعصاب :

شرام : لقد اخبرني عديلك الرائع انك احمق . قال انه يختلف عنك . . . ولكنني الان افهم كل شيء . لقد كنت معه قلبا وقالبا .

جاكوب : هذا كذب !

شرام : لست الا يهودي قذر اخر !

جاكوب : عليك ان تسحب ذلك !. . . .

شرام : واذا لم افعل . . . اتراك ستزحف كما فعلت مرة من قبل ؟

[يدخل رئيس الخدم]

انا اعرف امثالك . سوف تزحف من اجل اخيك ومن اجل نفسك . كلكم ، ايها اليهود القذرون ، سواء !

ويجفل جاكوب حين يسمع جملة : « كما فعلت مرة من قبل » . فقد كان صحيحا انه عندما تحداه احدهم فيمناسبة سابقة ، رفض المبارزة ، ليس بسبب الجبن ، بل بسبب الاشفاق على والده الذي كان مصابا بمرض خطير . وهو الان يندفع نحن فون شرام ويصفعه على وجهه . وتكون النتيجة : مبارزة ، يكون « ورزلخنر » هو مساعده فيها . ويصاب جاكوب بجرح مميت . وهناك نقطتان تتأكدان وهو يموت على خشبة المسرح . الاولى : « ايها اليهود ، يا

اخوتي ، انهم لن يدعوكم تعيشون مرة اخرى حتى تتعلموا كيف تموتون » . ثم اخر كلمات المسرحية : « اريد ان اخرج ... [بصوت اعلى] اريد ... ان ... اخرج .... من .... الجيتو » .

ويربط هيرتزل اصول مسرحيته ليس فقط بالحديث الذي دار في استوديو « بير » ، بل وايضا بحادثة وقعت في الصيف السابق . فقد كان قد عاد مع عائلته الى النمسا في اجازة قضاها في « بادن » مع « لودفيج سبيدل » المحرر الادبي لصحيفة « الجريدة الجديدة الحرة » . وكان هيرتزل قد بدأ يمل باريس . وكان مقدرا له ــ رغم ان ايا من الرجلين لم يكن يعرف حينذاك ــ ان يحتل منصب « سبيدل » بعد عامين . وذات مساء ، بينما كان الرجلان يتمشيان عبر مراعي « هنتر بروهل » ، اخذا يناقشان ما اصبح بعد ذلك مشكلة ملحة .

وقال هيرتزل : « انا افهم معاداة السامية . لقد احتفظنا نحن اليهود بانفسنا ، رغم ان ذلك لم يكن بسبب خطأ من جانبنا ، كجسد اجنبي بين الامم المختلفة . ولقد اكتسبنا في الجيتو عددا من الصفات غير الاجتماعية . وقد تم تدمير شخصياتنا بسبب الاضطهاد ، ولا بد ان نستعيد شخصياتنا هذه عن طريق نوع اخر من انواع الضغط . وفي الواقع ان معاداة السامية هي احدى نتائج تحرير اليهود (٥) » . ثم يقدم وجهة نظر موضوعية للغاية لمعاداة السامية ونتائجها المحتملة :

« ان معاداة السامية ، وهي قوة ضخمة لا واعية بين الجماهير ، لن تؤذي اليهود . وانا اعتبرها حركة مفيدة بالنسبة للشخصية اليهودية . وهي تمثل تعليما لجماعة من قبل الجماهير ، وربما ادى ذلك الى ان يتم استيعابهم (اندماجهم) . فالتعليم يتم فقط عن طريق ضربات قاسية . وسوف يحل بعد ذلك نوع من التقليد على الطريقة الداروينية . وسوف يكيف اليهود انفسهم . نهم مثل عجول البحر (الفقمة) ، التي هي فعل من افعال الطبيعة القتة في الماء . وهذه الحيوانات تتخذ عادات وهيئة الاسماك التي هي قطعا ليست منا . وما ان تعود الى الارض الجافة مرة اخرى ويسمح لها بالبقاء هناك لعدة اجيال ، حتى تتحول زعانفها الى اقدام مرة اخرى (٦) » .

وقد تلت هذه الاقوال المليئة بالامل ، صدمة شخصية ــ ليست مميتة مثل تلك التي تلقاها جاكوب صمويل ــ ولكنها كانت ذا اثر عميق بالنسبة لشخص في مثل حساسية هيرتزل . فبينما كانت عربته التي تجرها الجياد

(Fiacre في الاصل*) تمر خلف احدى الكنائس في طريق عودته الى « بادن » : « كان هناك شابان ، احدهما يرتدي زي طالب مدرسة عسكرية ، يمران . واعتقد انني كنت اجلس غارقا في الفكر . وفي هذه اللحظة سمعت بوضوح صيحة من خلف العربة تقول : يهودي قذر (٧) » . وقد كان رد فعل هيرتزل الاول يماثل ذلك الذي تملك جاكوب صمويل — او على الاقل ان يتشاجر مع الغلامين . ولكنه عاد ، يائسا ، يجلس على مقعده . فلم تكن الاهانة موجهة اليه شخصيا : « فلم يكونا يعرفانني ، وانما كانت الاهانة موجهة الى انفي اليهودي ولحيتي اليهودية ، التي لمحاها في غبشة الظلمة خلف فوانيس العربة » .

انصهرت مثل هذه الافكار الجريئة والخبرات المؤلمة في المسرحية التي كان على شنتزلر ان يتعامل معها ، اولا كناقد ، ثم بعد ذلك كوسيط لالبسرت شنابل .

كان شنتزلر ذو قلب عطوف ، وكان يعرف كيف يمكن بسهولة احباط همة كاتب . وكان يعرف ان مهمته الاولى هي الاصعب . وقد استهل خطابه المؤرخ في ١٧ نوفمبر عام ١٨٩٤ (٨) بتهنئة هيرتزل على اكتشافه لموضوع جديد للمسرح ، ولاشكال جديدة لم يحاولها كتاب اخرون . وقد اعجب بصدق بتصوير شخصية « واسرستين » اليهودي الفاشل الفقير . وفي احد المشاهد حيث يكشف « واسرستين » عن دخيلة نفسه لهيرمين ؛ ترن كلماته بالشجن الذي لا يزال يحرك العواطف . « انظري الي فقط . يجب ان ابتاع كل شيء بالنقود . يجب أن ادفع لقاء الصداقة ، والحب . بل انني يجب ان ادفع كي اجعل الناس يعاملونني بدماثة ، كما لو كنت في مطعم طيلة الوقت . وحتى عندما تكون جيوبي ممتلئة بالنقود فانني احظى بـ « الهر فون واسترستين » في وجهي ، وبابتسامة استهزاء خلف ظهري [برقة] انا آسف لنفسي (٩) » . ولكن حتى فيما يتعلق بواسرستين فان شنتزلر يضطر للشكوى من ان هيرتزل ينزل من قدرته على تصوير الشخصيات ويجعل شخصيته توضح نفسها اكثر مما يجب .

---

* عربة تجرها الجياد . اخذت اسمها من فندق St. Fiacre في باريس ، حيث استخدمت لاول مرة . (المترجم)

« ويدفعني هذا الى ان اعترض على اخر عبارة في المسرحية التي تجعل المحتضر جاكوب صمويل ينطق بها . فمن الافضل ان تجعله يموت دون ان يتكلم . فان مثل هذا الموت يقول اكثر ، ويقوله بشكل افضل ، مما يستطيع الرجل المحتضر ان يفعله . فالرجل المحتضر يقول : « ايها اليهود ، يا اخوتي ، انهم لن يدعوكم تعيشون مرة أخرى حتى تتعلموا كيف تموتون* » . ولكن موته يقول : « هذا الشيطان المسكين ، على الرغم من نبله ، كان يجب ان يدع نفسه يموت رميا بالرصاص بسبب مشاجرة سخيفة — فقط لانه ولد يهوديا ! » فقد كان هناك وقت كان اليهود فيه يتمحرقهم بالالاف بالنار . لقد تعلموا كيف يموتون . ولكن بالرغم من كل ذلك لم يسمح لهم ان يعيشوا . وهكذا فان مسرحيتك وقد بدأت بداية طيبة ، قد سارت بعد ذلك في طريق خاطىء . ومن الشخصيات الجديدة التي يمكن تقديمها شخصية طالب يهودي عضو في جمعية طلابية يقدم ثلاثين تحديا للمبارزة ، لانه يهودي . وتستطيع ان تقابل هذه الشخصية بشخصية طالب اخر عضو في جمعية كاثوليكية يرفض الدخول في مبارزة لاسباب تتعلق بضميره — ولذلك يعامل باحترام ! » .

ولا يعجب شنتزلر بشخصية « هيرمين » بوجه خاص . فالقاريء يفشل في تصور كيف يمكن لشخص مميز مثل جاكوب صمويل ان يرغب في الزواج منها . ثم يجد عيوبا اخرى في شخصية المسيحي فرانز ورزلخنر . فعلى الرغم من الجهد الذي بذله هيرتزل كي يكون موضوعيا ، وان يجعل منه شخصية جذابة ، فان النتيجة كانت ظهوره كفاشل عادي .

« اعطه على الاقل دافعا اقوى لقطع علاقته بجاكوب . او اذا لم يكن هذا ما تريد فكان يجب ان تشير الى هذا الجانب الشائن في شخصيته عند بداية ظهوره في الفصل الاول . او لندع جاكوب نفسه يقول انه مما يؤذي عمله الجديد ان تكون له علاقات مع اليهود . او من الافضل بكثير ان تدع جاكوب يفضح انحرافاته وسلوكه الملتوي . وكمساعد لجاكوب في المبارزة فانني افضل الطالب الذي اقترحته ذو الثلاثين مبارزة — ويمكنك ان تجعله ابن اخ واسرستين الظريف . كذلك فان « اليهودي ذو الحس المجروح

★ ربما مما يجعل نقد شنتزلر يستحق الثناء ان جملة : « حتى تتعلموا كيف تموتون » ، قد حذفت وحلت محلها نقط الحذف والاضمار (.....) في الترجمة الانكليزية للمسرحية .

بالكرامة » لا يرضيني ــ اعطه قدرا اكبر من الحرية الداخلية . فهو ، بالشكل الموجود ، لا يثير التعاطف لان المفهوم ليس مقنعا . الا توافق ؟ ثم هنـــاك شيء اخر : هناك نقص في شخصيات اليهود الاقوياء في المسرحية كلها . بل انه ليس صحيحا ، كما تشير ، ان كل اليهود في الجيتو كانوا اما محتقرين او يبعثون على الاحتقار . فقد كان هنك أخرون ــ وهؤلاء بالضبط هم الذين كان المعادين للسامية يكرهونهم اكثر من غيرهم . ان المسرحية جريئة ، ولكني اود ان تكون متحدية . وفوق كل شيء ، لا تجعل ابطالك يستسلمون للموت بهذه السهولة » .

وينتهي شنتزلر الى ان المسرحية بالتأكيد يمكن عرضها على المسرح ، اذا امكن ايجاد مسرح لعرضها . ولكنه ، اولا ، يتطلع الى قراءة ثانية . وفي اثناء ذلك ، ربما رغب هيرتزل في القيام ببعض التعديلات في النص على ضوء ردود فعله .

كان شنتزلر قد اخذ طلب هيرتزل ان يكون صريحا بشكل حرفي . وقد اوضحت اجابة هيرتزل انه كان مخطئا في ذلك .

« بعد ان اعدت قراءة المسرحية ، استطيع بشكل افضل ان ارد على اعتراضاتك . انا لا اجد ان الشخصيات « لا تثير التعاطف بشكل كاف » . وحتى لو كانت كذلك ، فهل يعني ذلك انني يجب ان ازيف كراهيتي للناس ؟ هل يجب ان اصور اناسا انقياء القلب ونبلاء بشكل رائع حتى ولو لم اكن اؤمن بوجودهم ؟ لا ، يا صديقي ، لن يكون هذا مجديا . فأنا ارفض ان اصيب نفسي بالعنانة من اجل نجاح ممكن . وربما كنت متحيزا ، ولكني اعتقد ان المسرحية قد كتبت بطريقة جيدة . ولن اقوم ، بأي حال من الاحوال ، بالدفاع عن اليهود او القيام بمحاولة لانقاذهم . ولندع النقاد يهاجمون او يدافعون . فاذا عرضت المسرحية ، اكون قد حققت هدفي . وما يحدث بعد ذلك لا يعنيني . فأنا لا ابالي على الاطلاق بالنقود ، رغم انه ليس لدي منها الا اقل القليل ، ولا بالشهرة ، رغم انه ليس لدي منها شيء على الاطلاق . وانا لا اريد ان اكون شاعرا متعاطفا . اريد ان اتحدث بصراحة وبوضوح ومن القلب . واذا وصلت هذه المسرحية الى العالم ، فان قلبي ســوف يستريح كثيرا » .

وينهي هيرتزل خطابه بالقول بأن شنتزلر كان على صواب ، ففي رأسه اعمال اخرى ، ولكنه وضعها جانبا مؤقتا . « اذا قدر لي يوما ان اتحرر من عملي الاجير فان اعمالا اسمى سوف تأتي . ان بداخلي ينبوعا ، ويوما ما

سوف ينفجر مزدهرا » .

ويكشف رد هيرتزل عن ثلاثة أمور . اكثرها وضوحا ، انه يبين كم كان هيرتزل غير صادق في طلبه للصراحة . والامر الثاني انه يكشف كيف ان هيرتزل قد اساء فهم النقد الذي وجهه شنتزلر . فان شنتزلر ، مثل هارتمان من قبله ، لم يجد ان الشخصيات التي قام بنقدها لا تثير العطف ، بل غير مقنعة ، ودوافعها غير واضحة بشكل كاف . كما ان شنتزلر قد وجد ان المسرحية ، كعمل من اعمال الجدال ، تضر باليهود اكثر مـــمـا تدافـــع عنهـــم .

ونجد الدليل على ان شنتزلر لم يكن وحيدا بالنسبة لرد فعله تجاه المسرحية في الخطابات المتبادلة في السنة التالية . ففي شهر مايو عام ١٨٩٥ (وبعد أن فشلت جهود شنتزلر في عرض المسرحية) كتب هيرتزل خطابا الى هنزيغ تفيلس (١٨٥٦ ــ ١٩٢٧) الذي كان عندئذ مدير الدراما في مسرح « لاندتياتر » الالماني في براغ . ومرة اخرى يستخدم هيرتزل حيلة « البرت شنابل » ، مضافا اليها مجموعة من التعليمات المعقدة عن كيفيـــة ارسال الخطابات بالبريد . فقد كتب من باريس يقول : « سوف اجعـــل هذا الخطاب يرسل اليك من فينا لاني اريده مسجلا ، وفي هذه الحالة سيكون علي ان اكتب اسمي على الغلاف . وهذا يمكن اكتشافه فورا في براغ (١٠) » . ويكتب هيرتزل قائمة بأسماء من رفضوا مسرحيته فعلا : « براهم » من المسرح الالماني في برلين ، و « بلومنتال » من مسرح لسنج ، وموللر ــ جوتنبرن من مسرح « رايموند » في فينا . ويعطينا ليون كيللنر النص الاصلي . فان موللر ــ جوتنبرن « لكي يصل الى مراجعة مزودجة لرايه ، اعطاها (المسرحية) الى مسيحي ويهودي كي يقرآها . وقد قال المسيحي : هذا ديناميت . وقال اليهودي : هذه اهانة لليهود* (١١) » .

والامر يتعلق بما هو اكثر من مسألة تفاصيل . فان صديق موللر ــ جوتنبرن اليهودي ، مثل شنتزلر ، قد وجد المسرحية شديدة الضرر بالاقلية اليهودية . كما أن المسرحية لم تقبل في براغ نفسها « بسبب معارضة رئيس

★ يختصر البروفسور « باين » Bein في ترجمته الانكليزية المطبوعة للخطاب عبارة هيرتزل الى مايلي : « لكي يصل الى مراجعة مزدوجـــة لرايه ، اعطاها الى مسيحي ويهودي كي يقرآها . وقد قال المسيحي : هذه اهانة لليهود (١٢) » .

الجالية اليهودية ، الذي خشي ان تكون لها بعض النتائج المؤسفة (١٣) » .

والدوافع وراء تغطية هذه النقطة بالضباب واضحة . فان مسرحيـة « الجيتو الجديد » كانت بالنسبة لمؤرخي سيرة هيرتزل الذين عاملوه كقديس : « خطوة هائلة الى الامام في تطوره ، كانت بداية منهج سياسي يهودي جديد. ومنذ ذلك الحين ارتفعت المسألة اليهودية عن الجو التافه للجماعات الصغيرة واجتماعات حفلات الشاي المغمورة ، ووضعها اليهود على مسرح العمل العلني العام . لقد كانت مثل ريح قوية تهب فجأة على الجو الخانق لحجرة مظلمة . كانت تمثل اتجاها جديدا : الكبرياء الدهشـة (١٤) » . وبنفس الروح يفسر اندريه شوراكي استخدام الاسم المستعار : « اراد هيرتزل ان يصل الى الجمهور وان يدفع بالمناقشة الى العلانية . وقد بلغ من عدم مبالاته بالشهرة انه كان ينوي طبع المسرحية تحت الاسم المستعار : آرثـر شنايل (١٥) » .

وهذا التفسير يجد تأييدا ضئيلا من علم النفس . فان مسرحية «الجيتو الجديد» تمثل محاولة اخيرة جادة للنجاح في السيرة القديمة ، اكثر بكثير من ان تمثل بداية سيرة هيرتزل الجديدة . وقد قبلت المسرحية اخيرا للعرض في مسرح كارلتياتر في فينا في شهر ديسمبر عام ١٨٩٧ . وقد وجد رقيب الشرطة المسرحية غير مناسبة حيث ان هجومها على المضاربين اليهود يمكن ان يؤدي الى اثارة الثناء الطائفي . ولكنه وافق عليها بشرط حذف حوالي ٢٤ فقرة وان لا يظهر الحاخام على المسرح مرتديا ملابسه الكهنوتية . وعرضت اخير في يناير ١٨٩٨ على جمهور متحمس من أصدقاء هيرتزل .

كانت السنوات الثلاث التي قضاها هيرتزل في باريس قد دعمته في مركز ذي أعتبار يحسد عليه . ولكن الجلسات مع المثال ركزت انتباهه — اليقظ دائما — على مسألة نوع الاعتبار الذي يستمتع به . فقد كان ثمن الحياة الرخية ، التي تتمثل في منزل فسيح مستأجر وعربة تجرها الجياد ، باهظا للغاية . فقد كان يعمل كالعبد خلف الكواليس ، معدا برقياته الطويلة المتقنة الى فينا ، التي تعالج التفاهات المشوشة التي كانت تموج بها هذه الفترة من حياة فرنسا السياسية . كما ان كتابة اسمه على صفحات جريدة يومية سريعة العطب تشبه الكتابة على الماء* . وكانت احلامه في ان يصبح فنانا

★ جمع هيرتزل مقالاته المتعلقة بالحياة البرلمانية في فرنسا في كتاب نشر في اخر عام ١٨٩٥ تحت اسم : «Das Palais Bourbon

قد خبت . بل انه لم يكتب حتى « فياتو » واحدة ناجحة منذ تلك السلسلة التي بفضلها حاز منصبه في صيف عام ١٨٩١ . وبالاضافة الى ذلك ، فان مسرحية واحدة من مسرحياته لم تعد عليه بالشهرة الذائعة او حتى بالنقود . وفي مثل هذه الحالة المزاجية قرر هيرتزل ان يبدأ بداية جديدة كفنان . فاذا استطاع أن يكتب مسرحية جديدة تثير التحدي كل عام ولمدة اربعة او خمسة اعوام ، فانه يستطيع عندئذ ان يترك باريس ويكتسب شهرة ككاتب اوروبي . وحلم بالهروب الى قرية صيادين في صقلية حيث يوجد فندق انكليزي جيد :

« سوف أسمح لنفسي ــ وحيدا ــ بالانغماس في افكار جميلة دون ان اكون مضطرا لكسب رضاء الناس بالكتابة الهابطة لهم . وسوف اراقب الصيادين وهم يطرحون شباكهم ، وهو مشهد يثيرني دائما . وفي المساء سوف اجلس لتناول عشاء طيب ، وانا ابتسم في تسامح للفتيات الانكليزيات وهن يغازلن الشبان . ولكنني لا استطيع . فها انا اجلس في باريس ، واذهب الى قصر البوربون او المسارح المملة والتقي بزملائي الذين ربما لم اكن افضل منهم (١٦) » .

واستخدام الاسم المستعار هو المفتاح . وقد كانت فكرة مقامر . ففي مقابل الاحساس بأن القدر لم يكن رحيما ، وان اعماله السابقة لم تقابل بالنجاح الذي تستحقه ، يهيء الاسم المستعار فرصة اخرى ، وتتاح للكاتب بذلك فرصة أن يحارب تحت اعلام جديدة ، والوجه خلف القناع مجهول وغير مرئي .

ويؤكد استخدام الاسم المستعار قول هيرتزل الصادق ان مسرحية « الجيتو الجديد » لم تكن عملا من اعمال النضال اليهودي السياسي . « لن اقوم ، بأي حال من الاحوال ، بالدفاع عن اليهود او القيام بمحاولة لانقاذهم » . ولم يكن يمكن ان يكون الامر غير ذلك ، كما اوضح الناقدان المجهولان . فالمسرحية ، بالنسبة للمتفرجين من غير اليهود ، سوف تكون ديناميتا ، وهي تعرض عرضا شبه كاريكاتوري لاقلية معلوماتهم عنها غير صحيحة . اما بالنسبة لليهود فانها ستكون اهانة حقا لانها تشير لضرورة ان يعيدوا بناء انفسهم على نمط غير يهودي . والجمهور الوحيد الذي كان يمكن في عام ١٨٩٤ ان تلاقي المسرحية اية نجاح معه ، وهو جمهور ربما كان هيرتزل قد اخذه في اعتباره ، هو جمهور يتكون من رجال مثل صديقه الفونس دوديه

كان يمكن أن تبهره عواطف وربما جلال جاكوب صمويل ، ابو الهول الوحيد الذي يجلس على هرم من الكمبيالات والاوراق المالية .

ولا تمثل المسرحية اتجاها جديدا الا اذا نظرنا اليها من خلال عمل هيرتزل كمؤلف مسرحي . ولقد هاجم « هارتمان » مسرحية «الطريد» لبعدها من الحياة ولانها جمعت شخصياتها من متحف مسرحي . وفي « الجيتو الجديد » ، وبعد مرور سبعة اعوام ، كان هيرتزل يحاول ان يكون واقعيا . فجو المسرحية هو المجتمع اليهودي الذي كان هيرتزل ينتمي اليه ، وليس المجتمع الارستقراطي الذي كان يثير اعجابه . ويتم تصوير زوجته واقارب زوجته ومعارفه في العمل بأقل قدر ممكن من الشفقة وفي مبالغة شديدة . ونقط نحو شخصية جاكوب صمويل ، الذي وجد شنتزلر ان دوافعه غير كافية ، مثل شخص في حلم ايضا ، تخفق خيالات هيرتزل بالاعجاب . فقد كان تسلط فكرة المبارزة عليه يرجع الى زمن بعيد . ولقد حارب مبارزته الوحيدة بشرف عندما كان عضوا في جمعية « البيا » ، كما كان يقول ان بضع مبارزات جيدة يمكن ان تفعل للقضية اليهودية اكثر مما يمكن ان يفعله الجدل المنطقي . وكان حلمه قد تجسد في خياله الى حد التفاصيل : سوف يتحدى واحدا من المعادين للسامية النمساويين مثل جورج فون شوندر او الامير الواس ليختنستين . واذا مات ، كما مات جاكوب صمويل ، فسوف يترك وراءه خطابا يطلع فيه العالم كيف انه قد سقط ضحية لاكثر حركات العصر ظلما . اما اذا انتصر ، فسوف يلقي خطابا بطوليا يستهله بالثناء على خصمه الميت كرجل شريف ، ثم يمجد المسألة اليهودية في فصاحة تليق بفريدناند لاسال . « سوف اكسب احترام القضاة ، وسوف تسقط التهمة الموجهة الي . وعند ذلك سوف يجعلني اليهود احد نوابهم ، ولكنني سأعتذر لانني ارفض الوصول الى مثل هذا المنصب عن طريق قتل رجل (١٧) » .

حلم اليقظة هذا، عن دور بطولي من خلف اسم مستعار، كان له صدى فيما بعد في كتابة ت. أ. لورانس لكتابه « اعمدة الحكمة السبع » . ففي الحفلات الادبية كان « جندي الطيران شو* » يهمس للمدعوين ، واحدا بعد الاخر ، وفي سرية مطلقة ، بحقيقة شخصيته . ومع ذلك فان لورانس قد

★ « شو » هو الاسم المستعار الذي اتخذه لورانس عند التحاقه متطوعا بسلاح الطيران البريطاني . (المترجم)

كسب شهرة مضاعفة من كتابه ، في حين لم تقنع مسرحية هيرتزل اليهود او غير اليهود . ولو أن مسرحيته كانت قد اصابت النجاح فان الاسم المستعار — الذي كان صدارا واقيا من الرصاص بالنسبة له كما بالنسبة للاخرين — كان سوف يطرح جانبا . وحتى — والامور كما كانت عليه — فان هـذا الاسم المستعار لم يحتفظ به طويلا . وفي خطابه الاول لشنتزلر تكلم عـن مقاومة الاغراء الذي يتملكه بأن يقول لـ « بير » اولا ثم نوردو — عـن « الجيتو الجديد » . ولكنه عند قدوم الربيع ، كان قد افضى بسره الـى « تويلس » في براغ .

ولكنه نظرا الى فشل مسرحيته في ان تحـرز له شهرة في اوروبا او ان يفوز موضوعها برضاء اليهود بعين المقامر الذي لا يلين. كان قد راهن بأقصى ما يملكه عاطفيا على لون معين ثم اعلن عامل المائدة الخضراء في برود ان رقم الصفر هو الرقم الرابح . كان دافع هيرتزل الدرامي قد فشل في حلبته الواضحة . ولكن هذا الدافع لن يموت ، كما لن يموت حافز الشهرة الذي يصاحبه . سيبقى ، ولكنه سيجد لنفسه حلبة اخرى . وكان قد اشار الـى نوع هذه الحلبة ، ليس فقط في حلم يقظته عن المبارزة الظافرة ، بل وايضا في رسائله الى شنتزلر في العام السابق ، والتي تحدث فيها — مقارنا نفسه بدافيد كوبرفيلد في شرفة الصحافة في مجلس العموم — عن القصاص الذي يصاحب قبول الصحافة كمهنة . ثم تجده فجأة — بعد ان تنبأ بامكانية اشتعال ثورة جديدة وبعد أن اوصى بتنصيب دكتاتور عادل — يلي بالاشارة الى الاتجاه الجديد :

« احيانا افكر في نفسي فعلا كسياسي ورجل دولة (١٨) » . فقد كانت « الجيتو الجديد » هامة لانها اوضحت فشلـه كفنـان ، واظهرت الحاجة لتحول جذري .

الجزء الرابع

زعيم اليهود (*)

١٨٩٥

« لقد قررت ان اضـع نفسـي على رأس عمل من اجل اليهود .... (١) »

---

* The Parnell of the Jews في الاصل . و « بارنل » زعيم ايرلندي معـروف في القرن التاسع عشر .

الفصل السادس عشر

قدر لعام معروف — هو عام ١٨٩٥ — ان يغير حياة هيرتزل بشكل درامي ، تماما كما في اليوم غير المعروف الذي اصبح فيه شاؤول الطرسوسي — وهو في طريقه الى دمشق — مسيحيا . ويمثل اعتناق هيرتزل للصهيونية (وهي تعبير صاغه « ناثان بيرنباوم » قبل بضع سنوات) تغيرا جذريا يماثل قبول شاؤول للمسيح الصاعد . فقد قبل الرجلان ، ثم هيأ بعد ذلك ، حركتين كانتا موجودتين فعلا . وكانت النتيجة بالنسبة لكليهما سلسلة من الرحلات التبشيرية المنهكة . ولكن المقارنة بعد ذلك تصبح اقل دقة . فقد اصبح شاؤول اليهودي بولص المسيحي بفضل وحي سمعي تبعه على الفور اشتراكه في رجم ستيفين . ولكن هيرتزل ، المفكر المتحرر ، لا يدعي تدخلا مماثلا من الخارج ، فقد عزا تحوله — وهو معاصر سيجموند فرويد — الى انفجار من لاوعيه (٢) . وبعد تحوله ، اخذ بولص يعلم ان كل الرجال ، احرارا كانوا ام عبيدا ، مختونين كانوا ام لا ، يجب ان يتوحدوا في المسيح . بينما علم هيرتزل أن اليهود يجب ان ينفصلوا عن المجتمع غير اليهودي . وكان لكل من الرجلين علاقة مبهمة — و لكنها مختلفة — بالدين اليهودي . فقد رفض بولص ، بشكل ما ، القانون اليهودي ، رغم ان تعاليمه ، بشكل اخر قد جلبت ملامح منه الى جانب كبير من البشرية . اما هيرتزل ، فبينما كان ، بشكل ما ، يعود الى اليهودية ، فانه كان يرفض ، في نفس الوقت ، خاصية التقاليد اليهودية ، وكان يحث اليهود على بناء دولة قومية مثل باقي الدول الاخـرى .

وقد حدث تحول هيرتزل في عصر كان يتم فيه تسجيل كل شيء في الصحافة والارشيفات . وقد وصف هيرتزل مسار تحوله ومجرى الحوادث

الذي ادى اليه في يوميات بدأها حوالي عيد العنصرة (عيد الحصاد اليهودي) عام ١٨٩٥ ، وواصلها حتى يوم ١٦ مايو عام ١٩٠٤ . ويبلغ عدد كلمات هذه اليوميات في افضل واكمل طبعاتها* نصف مليون كلمة او ١٦٣١ صفحة .

وهذه اليوميات ، جزئيا لانه كتبها بأسلوب بسيط غير متكلف ، وغالبا بسبب الاهمية الحقيقية لما تقصه ، تعتبر بحق رائعته الادبية . وتجعلها صراحتها والتفاصيل التي تملؤها ، اكثر الاعمال النثرية كشفا في عصر لم يكن فقيرا في مثل هذه الانجازات . ورغم انها تهتم اساسا بالمسألة اليهودية ، وبالحل الذي قدمه هيرتزل لها ، فانها بالرغم من ذلك وبشكل عرضي تلقي ضوءا كاشفا ، واحيانا قاتما ، على نهاية قرن وبداية قرن اخر .

وتبدأ اليوميات حين تصبح حقيقة ان هناك تحولا في دور الاختمار واضحة لهيرتزل . ولم تكن الدلالات الكاملة لهذا التحول قد وضحت بعد . وقد ادت عجلته لايضاحها الى ان يغفل ايراد اربع عوامل هامة في المرحلة التي سبقت التحول . وقد اصبح عاملان منهم من الاساطير . اما الاثنان الاخران فلم يذكرا على الاطلاق . والاربع عوامل في حاجة الى النظر .

والعاملان اللذان اصبحا اسطورتين هما مسرحية « الجيتو الجديد » وقضية دريفوس .

ولم تكن « الجيتو الجديد » ، كما اشرنا غزوا لحقل جديد اكثر منها محاولة اخيرة في حقل قديم . وقد كان اتخاذ الاسم المستعار تحديا للقدر . لماذا نجحت المسرحية ، قام المؤلف المسرحي المتخفي باعادة اطلاق نفسه في المسار الادبي . وتشير العقدة الثانوية في المسرحية — وهي الصراع بين عمال المناجم وطغيان راس المال — الى موضوع كان يمكن لهيرتزل — ككاتب مسرحي جديد — ان يحاوله .

ولكن السنة القديمة انتهت وبدأت السنة الجديدة دون ان تحدث الانطلاقة المفاجئة الى النجاح التي كانت يمكن ان تثبت نجاح المقامرة . وفي ١٩ يناير ، كتب اليه شنتزلر يقول ان مسرح بيرجتياتر قد قبل عرض مسرحيته ليبللي Libelei ، ولكنه لا توجد ، للأسف ، اية انباء بقبول « الجيتو الجديد » في برلين . وقد كانت خيبة امل هيرتزل من القوة بحيث انه لم يستطع ان يقدر مقدار المتاعب التي لاقاها ارثر شنتزلر

---

* The Complete Diaries of Theodor Herzl, ed. Raphael Patai, tr. Harry Zohn New York, 1960

من اجل « البرت شنابل » . وفي رده على خطاب شنتزلر في اول فبراير (٣) تحدث هيرتزل عن مسرحيته بوصفها « طفلي الصغير العزيز » («mein liebes kindchen») وعن المذاق المر الذي تركه رفضها . « ولا يساعد المرء كثير انيقول عن مخرج انه سفيه وعن اخر انه احمق » . وقد واتته الرغبة في ان يلقي بها في صفيحة القمامة ، ولكنه بدا بداية طيبة وسيبقى راسخا كالطود . ويعتبر خطابه التالي الى شنتزلر والمؤرخ في ١٤ فبراير ، واحدا من اكثر رسائل الود شذوذا . والخطاب ، وهو يمثل ذروة من ذرى اليأس ، يظهر ايضا تجاهلا انانيا لمشاعر الاخرين ، لانه مرسل الى صديق قد اثبت صداقته بصدق الجهود التي بذلها . فبعد استهلال عادي ، عاتب فيه شنتزلر لعدم ارساله اياه اخبارا ادبية ، يستطرد قائلا :

« انا في اشد الحاجة الى صداقة جيدة . واوشك ان انشر اعلانا في الصحف يقول : رجل في ربيع العمر يبحث عن صديق يمكن ان يسر اليه دون ان يخشى بكل سخافاته وتفاهاته . او كما يصوغون ذلك في الصحف الفرنسية : on demande un ami désinteressé . انا لا اعرف: هل انا شكاك اكثر مما يجب ، او قليل الثقة بنفسي اكثر مما يجب ، او ان عيني ذات رؤيا واضحة اكثر مما يجب ؟ وانا لا اجد احدا بهذه الاوصاف هنا بين معارفي . فاحدهم غبي جدا ، والاخر غادر جدا ، والثالث يثير اكثر جوانبي حساسية ، عندما يستغل ودا ماضيا ... قل لي ، هل تشعر انت ايضا بمثل هذه الشعور نحو صديق جديد ؟ »

لقد احبط فشل محاولة هيرتزل الاخيرة في ان يكون كاتبا مسرحيا جادا ، آماله ككاتب ، ولكن ليس كمبشر . ومن الصعب تصور انه كان يامل ان تواسي مسرحيته الام اليهود (وخاصة يهود روسيا ورومانيا) حتى ولو كان قد تم عرضها فورا وعلى نطاق واسع . فبعد رد فعل شنتزلر ، وكذلك رد فعل الناقد اليهودي غير المعروف الاسم والذي قال ان المسرحية اهانة لليهود ، لا بد انه ادرك ان اليهود ، وليس غير اليهود ، هم الذين كانوا يعارضون في عرضها . وفكرة انه « كانت من طبيعة الاشياء ان ترفض المسارح الالمانية مسرحيته* تبدو بعيدة ، كما تبدو الفكرة التي تقول ان كتابة

★ اندريه شوراكي André Chouraqui ، « رجل وحيد » «A Man Alone» ص ٨١ .

« الجيتو الجديد » كانت تعني في ذلك الوقت الخطوة الاولى في حملة . ولكن الاساطير تخفي حقائق معينة . فقد ركزت المسرحية اهتمام هيرتزل على مشكلة كان يحجزها ، الى حد كبير ، عن امعان الفكر الواعي . وقد تـرك عجز المسرحية عن اشعال الحماس طموحا مجروحا ولكن ليس مقتولا .

وهناك اسطورة اكثر الحاحا تربط تحول هيرتزل بقضية دريفوس . وفي هذه الحالة فان للاسطورة جذورها في شخصيـة هيرتزل في السنوات المقبلة : شخصية الرجل الذي يناضل كسياسي ويعدل من ماضيه لمصلحة القضية . ويقول دي هاس نقلا عن بطله : « لقد جعلتني قضية دريفوس التي شاهدتها في باريس في عام ١٨٩٤ ، صهيونيا (٤) » . وقد نشر هذا عام ١٩٢٧ . ولكن عندما كان هيرتزل لا يزال حيا ، كان دي هاس اكثـر حذرا . فقد كتب في مقالته عن هيرتزل في دائرة المعارف اليهودية في عـام ١٩٠٤ : « لم يعترف هيرتزل بالسبب الذي دعاه لان ينشر كتابه « الدولـة اليهودية » عام ١٨٩٥ . ولقد كان في باريس في ذلك الوقت ، ولا شك ان قضية دريفوس قد حركت عواطفه* » . ومن الممكن ان يكون « دي هاس » قـد سأل هيرتزل ، وقد كان من معارفه المقربـين ، عن الدافع الذي كان وراء تحوله ، وان هيرتزل ، في حرص ، قد جعل اجابته غامضة عمدا . وما ان مات كل من هيرتزل و « دي هاس » ، حتى اصبحت الصلة بين قضيـة دريفوس وتحول هيرتزل جزءا من الاسطورة .

ولا تتفق كتابات هيرتزل في ذلك الوقت وهذه الصلة العرضية . ونظرة الى الحقائق والتواريخ التي لا يعتورها الشك ، لا شك سوف تظهر كيف انه من غير المحتمل ان تكون هذه الصلة قد وجدت .

ولم تكن قضية دريفوس فقط اكثر القضايا اثارة للجدل في القـرن التاسع عشر ، بل كانت ايضا اطولها ، فقد امتدت في الواقع الى القـرن الذي تلاه . ويمكن تحديد تاريخ بدايتها بدقة . ففي ٢٦ سبتمبر عـام ١٨٩٤ ، قامت مدام « باستيان » ، وهي عاملة نظافة عجوز تعمل في السفارة الالمانية في باريس ، بتسليم محتويات سلة المهملات الخاصة بالكولونيـل شوارتز كوبن الى الماجور هنري ، نائب مدير المكتب الفرنسي لمكافحـة التجسس . وبعد ٢٤ عاما من فقد الالزاس واللورين ، وقبل ٢٠ عامـا من استعادة هاتين المقاطعتين ، كان الالمان يحظون بشعبية ضئيلة للغاية

---

* نشر كتاب « الدولة اليهودية » في الحقيقة في اوائل عام ١٨٩٦ .

في باريس . واكتشف الماجور ، وهو يقلب في الاسلاب ، ليس رسائل الملحق العسكري الغرامية ، بل مذكرة (عرفت في سجـــــــلات القضيـة باسم Le bordereau) تسجل قائمة من خمس وثائق كان رجل مجهول يرغب في بيعها للسفارة الالمانية . وقرر الرجال الذين تم اختيارهم للتحقيق ، انــه ليس في مقدور أحد سوى ضابط خدم حديثا في سلاح المدفعية يمكن ان يعرف التفاصيل التي كان الخائن المجهول يعرضها للبيع . وثارت الشكوك حول اربعة او خمسة ضباط . ثم وجد ان خط احدهم ، وهو الكابتن الالزاسي الفريد دريفوس ، يماثل الخط الذي كتبت به المذكرة . وفي ١٥ اكتوبـر تم القبض على دريفوس ، واكتملت المرحلة الاولى من القضية عندما قضت المحكمة العسكرية ، قبل عيد الميلاد بقليل ، بتجريـــده من رتبته العسكرية وبسجنه مدى الحياة .

ومن الممكن الان ، كما لم يكن ممكنا حينذاك ، استخراج عظام القضية بأصابع لا ترتعش . فلم يقبض على دريفوس بسبب صلاته مع الالمان ، او بسبب ان جده كان يهوديا او بسبب خيانته الزوجية ، رغم ان اولئك الذين يغضون الطرف عن المثاليات سوف يستخدمون كل هذه الحقائق ضده، وانما قبض عليه بسبب التماثل الخاطىء بين خطه وخط الخائن المجهول . ولكن الجيش ، الذي تصرف بنية طيبة في البداية ، والذي عين الماجــور جورج بيكار كي يقوم باعادة فحص القضية ، بدأ في نذالة يدافع عن خطأه الاول عندما قامت مدام باستيان في مارس ١٨٩٦ بتسليم سلة مهملات جديدة تدين ــ هذه المرةــ الماجور استرهازي، وهو ارستقراطي مسيحي كان حجم ضغائنه ضد فرنسا يماثل حجم ديونه الكبيرة . ثم نقل بيكار الشريف الى تونس ، واخذ الماجور هنري ، اعتبارا من شهر سبتمبر ١٨٩٦ فصاعدا ، يزيف الادلة ضده وضد دريفوس كذلك . وبازدياد المشاعر حدة في الصحف والمقاهي ، سقط الجيش اكثر فاكثر في هوة الخداع الاجرامي والظلم* .

★ قبل ان يدين القارىء غير الفرنسي الضباط الذين اشتركوا في حجب الحقيقة ، عليه ان يراجع تاريخه القومي . ومن المحتمل انه سوف يعثر على امثلة عديدة مشابهة . وقد كتب سيمور هيرش في جريدة نيويوركر بتاريخ ٢٩ يناير ١٩٧٢ يقول حول بطء سير التحقيق في مذبحة ماي لاي : « لقد ادرك الجيش انه لا يعالج فقط مسألة جريمة حرب خطيرة ، بل وايضا خداعا واسع الانتشار في اوساط الضباط الامريكيين الذين قاموا ، لاسباب متنوعة منها الرغبة في حماية وظائفهم ، باخفاء كل التفاصيل تقريبا المتعلقــة بالمذبحة » .

وانقسم المجتمع الفرنسي ــ الذي لم يهتم بالموضوع في البداية ــ انقساما حادا حوله . وبفضل جهود عائلة دريفوس ، بقيادة مازيو دريفوس ، اخو الضحية واميل زولا الذي نشر بيانه « اني اتهم » J'Accuse في ١٣ يناير ١٨٩٨ ، ادت سلسلة من المحاكمات الجديدة الى تبرئة سجين جزيرة الشيطان التعس . ولكن بالرغم من ذلك ، فقد رفض الجيش ان يعترف صراحة بذنوبه . فقد اصدرت محكمة عسكرية ثانية حكما سخيفا يقضي باعتبار ديفوس « مدانا بالخيانة العظمى ولكن تحت ظروف مخففة » وحكمت عليه بالسجن لمدة عشرة اعوام . ثم قبل دريفوس بعد ذلك العفو (رغم ان ذلك كان يتضمن الاعتراف بذنبه) بناء على نصيحة اخيه الذي كان يخشى الا يستطيع دريفوس تحمل حكم اخر بالسجن .

والقول بأن هيرتزل « قد تأثر دون شك بقضية دريفوس » تؤكده في الواقع رواية تكاد تكون معاصرة* . ولقد كان مشهد تجريد دريفوس من رتبته (والذي وصفه هيرتزل في برقية له الى جريدة « نيو فراي بريس ») يحرك الشفقة في اقسى القلوب .

ومع ذلك فانه في هذه المرحلة المبكرة للقضية ، كان يحرك الجالية اليهودية في باريس عاطفة اخرى هي عاطفة الحنق المشوب بالحرج ضد يهودي كان يبدو وكانه قد خذل جاليته . ومن الناحية المنطقية ، فان براءة او ادانة دريفوس ، لم يكن لها شأن ما بولاء اليهود الاخرين . ولكن يهود فرنسا كانوا يعرفون بالتجربة كيف يمكن ان تتحول لا منطقية العامة الى العنف . بل ان بعض اليهود كانوا اكثر غضبا من المسيحيين . وكان اثنان من كبار الصحفيين هما « ايزدر سنجر » و « جوزيف آرون » يقودان حملة شجاعة ضد معاداة السامية في الوقت الذي نشرت فيه انباء هذه الخيانة . « وعلى الرغم من ان الاعدام لم يكن هو عقوبة الخيانة او التجسس في ذلك الوقت ، فان الاثنان شعرا ان الخائن يستحق الاعدام في حالة ثبوت ادانته . وكان « آرون » يعتقد انه يجب أن يعدم رميا بالرصاص . اما « سنجر » فقد كان يعتقد انه يجب في هذه الحالة تطبيق « القانون الموسوي الجنائي القاسي الذي يقضي بالرجم حتى الموت ، وان يقوم حاخام فرنسا الاكبر بالقاء اول حجر (٥) » .

★ ما كتبه هيرتزل في يومياته بتاريخ ١٧ نوفمبر عام ١٨٩٥ .

وفي هذه المرحلة المبكرة ، كان الوحيدون المتأكدون من براءة دريفوس، هم اولئك الذين يعرفونه جيدا ، وهم افراد اسرته المقربين . « وقد عبرت مدام «هادامارد» ، حماة دريفوس وزوجة تاجر المجوهرات اليهودي الثري، عن هذا الشعور في عدة مقابلات صحفية . فقد تساءلت كيف يمكن لمثل هذا الرجل الثري المحب لعائلته ان يقترف مثل هذه الجريمة ؟ (٦) » . وقد كان هذا السؤال الفصيح يفتقد المنطق . فلم يكن دريفوس زوجا وفيا ، كما ان تاريخ الخيانة يثبت انه لا يوجد نوع من انواع البشر يمكن ان يكون فوق مستوى الشبهات . ولكن مدام « هادامارد » ، مثل اخيه ماثيو ، كانت تعرف الفريد دريفوس ، وكانت واثقة من براءته . وقد كانت حملة ماثيو لاثبات ذلك اقل فصاحة . فقد كان يعرف ان حسن التقدير امر اساسي ، وان مجرد تجريح حكم المحكمة العسكرية لن ينقذ اخاه . فقد كانت الادلة هي المطلوبة ، وليست العواطف . ولهذا السبب ، قام ماثيو باجبار «لازار» على ان يحتجز ، حتى اواخر عام ١٨٩٦ ، ما ثبت انه كان اول كتيب يدافع من دريفوس . وقد كتب « لازار » — وهو يصف نفاذ الصبر المحموم الذي عاناه صامتا طيلة عام ونصف عام — يقول : «Je n'ai eu aucun confident de mes actions ni de me desirs» (٧)★ . ومن الصعب لذلك ان نفترض ان هيرتزل قد سمع من «لازار» عن ادلة تثبت براءة دريفوس. بل انه حتى ادلة لازار كانت في تلك المرحلة تعتمد على الحدس في معظمها، بينما كان انشغال هيرتزل بواجباته كمراسل ومحاولاته لبيع مسرحية « الجيتو الجديد » وبكتابة يومياته ، يمنعه من لعب اي دور في هذه القضية .

وقد كانت شخصية دريفوس من الجوانب التي زادت القضية تعقيدا. فعلى الرغم من ولاء حماته ، وحب اخيه ، فانه لم يكن شهيدا جذابا . وكان من الصعب على اليهود الاتقياء ان يعجبوا برجل كان قد قطع كل الصلات التي تربطه بدين اجداده . ورغم ان جيل التسعينات من القرن الماضي لم يكن من السهل صدمه،فان المنافقين كانوا حينذاك — وما يزالون — قادرين على ادانة علاقاته الغرامية بنساء اخريات غير زوجته . ولم يكن دريفوس جذابا لا في مظهره ولا في سلوكه . ولم يكن لسلوك دريفوس اثناء المحاكمة اثرا طيبا في نفس اكبر مناصريه الماجور بيكار الذي واصل دفاعه عنه تمسكا

★ « لم اعد واثقا بعد من افعالي او من رغباتي . »

منه بالمبادىء فقط . وفي رواية مارسيل بروست العظيمة* ، والتي تلعب فيها القضية دورا هاما ، تقول مدام « دي جورمان » معلقة : « من المؤسف اننا لا نستطيع ان نختار احدا اخر كي يكون البرىء الذي ندافع عنه » . وقد كانت مدام « دي جورمان » في الحياة الواقعية هي مدام ستراوس التي كان اسمها قبل الزواج جينفييف هالفي (٨) . وقد اثار قبول الشهيد فيما بعد لما هو اقل من البراءة الكاملة غضب العديد من مناصريه المثاليين .

وقد كانت صعوبة ان يصبح مراقب امين من انصار دريفوس المتحمسين في مرحلة تحول هيرتزل (شتاء وربيع ١٨٩٤ ــ ١٨٩٥) تماثل صعوبة ان لا يكون من انصاره بعد ان اظهرت اكتشافات مدام باستيان الجديدة ادانة خائن اخر . ويمكن ان يكون القول بأن « قضية دريفوس قد جعلت من كل من هيرتزل و « لازار » صهيونيين** » مقبولا لو كان تحول الرجلين قد حدث في عام ١٨٩٦ او بعد ذلك . وان نقول ان هيرتزل قد اصبح صهيونيا وقت محاكمة دريفوس مفترضا ان دريفوس قد قبض عليه لانه يهودي ، وانه كيهودي لا يمكن أن يحاكم محاكمة عادلة، يماثل في مجافاته للمنطق تأكيد « درومونت » ان دريفوس ، لانه يهودي ، لا يمكن الا ان يكون خائنا (٩) . وقد كان لدى هيرتزل من الادلة للقيام بتفسير صهيوني للقضية اقل مما كان لدى « برنار لازار » . فبعد ان كتب مقالتين ادان فيهما معاداة السامية (١٠) ، تحمل « لازار » مشقة زيارة عائلة دريفوس في شهر فبراير عام ١٨٩٥ . وقد كانت هذه التجربة كافية لاقناعه بأن ظلما قد وقع . ونتيجة لذلك « وافق المدافع الشهير عن الفوضويين والثوريين ان يبذل كل ما في وسعه من أجل العائلة اليهودية الثرية (١١) » .

ولقد كان لقضية دريفوس صلات منطقية ضئيلة بوجهات النظر التي كان هيرتزل قد اصبح ملتزما بها في الفترة التي تلت المحاكمة مباشرة . وقد قال كاتب يهودي اخر بعد ذلك بنصف قرن :

« لم تكن هناك ازمة « يهودية » في جوهرها . وقد كانت القضية الاساسية في فرنسا هي قضية الديمقراطية ذاتها . وقد استمرت كذلك بعد الازمة . ولم يكن « التحرير » قد فشل ، بل كان قد احرز نجاحا . ولقد ارتبط مصير اليهودي الفريد دريفوس ــ بشكل رمزي ــ بمصير الديموقراطية الفرنسية ، واثار لذلك الامة باكملها . واين كان يمكن في العالم

★ « البحث عن الزمن الضائع » (المترجم) .

★★ والتر لاكير W. Laqueur في مجلة Encounter ــ عدد الـ... ١٩٧١ .

كله قبل قرن من الزمان ان تخرج نصف امة دفاعا عن يهودي ؟ ولو كـان هيرتزل يمتلك معرفة بالتاريخ ، لرأى في قضية دريفوس دليلا واضحا يبعث على الامل على نجاح التحرير . وقدر للعالم الذي ظل يعامل اليهود كمنبوذين طوال ١٥٠٠ عاما ان يشاهد ــ بعد مرور قرن من الزمان ــ نصف امة تتهم بمحو الظلم الذي حاق بيهودي واحد (١٢) » .

وقد برر هيرتزل فيما بعد لماذا قال ، كأمر مسلم به ، ان ضابطا يهوديا لا يمكن ان يقترف عملا من اعمال الخيانة الوطنية . « ان يهوديا يعمـل كضابط في هيئة اركان الحرب وامامه مستقبل مشرف ، لا يمكن ان يقتـرف مثل هذه الجريمة .... ان اليهود الذين ظلوا امدا طويلا محكوما عليهم بالخزي المدني ، قد نما في نفوسهم ، نتيجة لذلك ، ما يكاد يكون جوعا مرضيا للشرف والكرامة ، والضابط اليهودي في هذا « يهودي » بشكـل خاص (١٣) » . والافراد الذين ينتمون الى اقلية تواجه مثل هذه الفضيحة ، يجدون من السهل أن يكون رد فعلهم بهذه الطريقة الغريزية . وبراءة او عدم براءة دريفوس تتوقف ، لا على النقاش حول ما اذا كان اليهود يستطيعـون ــ او يجب ــ ان يكونوا خونة ، وانما على الدليل البارد الواضح الذي يثبت أن هذا الضابط بعينه لم يرتكب الجريمة التي يواجه الاتهام بارتكابها . وهكذا تشابهت حجج كل من هيرتزل الصهيوني و « درومونت » المعادي للسامية . وقد اعترف هيرتزل فيما بعد بدينه لدرومونت في الصيف الذي تحول فيه : « اني ادين لدرومونت بقدر كبير من الحرية الحالية لمفهوماتي ؛ وذلك لانه فنان (١٤) » . وربما كان هيرتزل يعني بـ « فنان » انه يناصر الاحكام الغريزية في مقابل الاحكام العقلية ، والعاطفة في مقابل الفكر .

وقد تطلب الامر مساحة كبيرة من هذا الكتاب لوضع تحول هيرتزل في اطاره الصحيح مع فشل مسرحية « الجيتو الجديد » ومأساة قضية دريفوس، ولكننا في حاجة الى مساحة اقل من ذلك كي نصف العاملان الاساسيان الاخران اللذان اثرا فيه وهو يقترب من لحظته الدمشقية . ولكن ذلك لا يجعل هذين العاملين غير مهمين .

لعبت النقود ــ او قلتها ــ دورها في حياته كما تفعل بالنسبة لمعظـم الكتاب . فمنذ شهر اغسطس عام ١٨٨٥ عندما استقال من وظيفتـه الحكومية الى ان كتب مسرحية « الجيتو الجديد » بعد ذلك بتسعة اعوام ؛ كان هيرتزل يعتمد في معيشته على ابويه وعلى قلمه . وحين كان جاكـوب ناسشـور لا يزال حيا ، كان يهتم اهتماما ابويا بدوطة جولي . وكان هيرتزل

يجد الكثير مما يضايقه في حياته في باريس . وكان والده ووالدته قد زارا فرنسا ، ولكنها لم تفز بحبهما وعادا الى النمسا . وكان يعزي نفسه بأمل حدوث تغيير وبأن يصبح ، ربما ، من رجال السياسة . وكان مرتبه يكفي لان يستأجر به منزلا وعربة . وكان دخل والده من عملــه كسمسار في البورصة كافيا للقروض الصغيرة وللمساعدة المادية الضيقة النطاق . ولكنه كان ينقصه المال والحرية اللازمان لمستقبل سياسي .

ثم في عام ١٨٩٤ ، توفي والد جولي وتم دفنه . ولعل هذا التحول في مركز الاسرة المالي ، بالاضافة الى ضيقه بباريس وعدم رضاء والديه عن المدينة اللاهية ، قد ساعد هيرتزل أن يقرر ان يعود الى فينا وان يلعــب دورا سياسيا . ويجب ان يلاحظ القارىء اننا نستعمل كلمات « لعل » و « ربما » .... الخ . وذلك لاننا نؤمن بحماية القارىء من الافتراضات التي تتخفى في ثياب الحقائق . وليس هناك دليل يمكن التثبت منه على ان ثراء زوجته المفاجىء قد اثر على هيرتزل ، رغم ان هناك ادلة (تتمثل في وصايا هيرتزل) تثبت انه كان يمد يده الى ثروة زوجته على نطاق متزايد (وقد عزى الحاجة لفعل ذلك الى اسرافه) . ولكن الثروة كانت من الضخامة بما يكفي كي يسجلها الدكتور بين Bein بالجلدرات والماركات في تأريخه لحياة هيرتزل* . ويمكـــن ان نـــورد هذه الثروة هنا بالجلدرات فقد ترك جاكوب ناسشور نصف مليون جيلدر ، او ما يقارب ربع مليون من الدولارات .

ولكن الحدث النهائي كان اكثر اهمية . ففي اوائل عام ١٨٩٥ ، بعث هيرتزل بعائلته الى فينا ، بينما قطن هو حجرة في فندق بشارع كامبون . وقد اعادت عودته الى حياة العزوبية خلق الوحدة التي ساعدته في مناسبة سابقة على الكتابة . فقد كان قد فاز بمنصبه كمراسل لجريدة النيو فراي بريس في باريــس باربــع فياتــوات كان قد كتبها وهو يتجــول وحيدا في الجبال بين فرنسا واسبانيا . واعطاه تحرره من جولي فجاة قدرة جديدة على ان يحلم ويخلق .

★ اختفت كافة الاشارات لوفاة وثروة جاكوب ناسشور في الترجمة الانكليزية للاصـــل الالمانــي .

الفصل السابع عشر

لا يمكن ربط تحول هيرتزل بحادثة او لحظة معينة . فقد كان هـــذا انتحول عملية بدات في خريف عام ١٨٩٤ واكتملت في ذلك الصباح من شهر مايو عام ١٨٩٥ عندما أصبح مستعدا لان يتخذ الخطوة الاولى في خدمة فكرته الجديـــدة .

والمتحولون العظام هم في العادة من الرجال والنساء الذين تحتوي شخصياتهم على عوامل متضاربة ، او نفسين احداهما موهوبة او مكبونة حتى يتم اطلاق سراحها في لحظتها الدمشقية . وهيرتزل مثال ساطع على ذلك . ولقد كان مظهره والقالب الذي صب فيه عقله منشقان مثل حياتـــه الخاصة .

وكان وجه هيرتزل يمثل ، لاولئك الذين قابلوه في تسعينات القـــرن الماضي ، توازنا بين القوة والرقة . وكان قبوله المستسلم للفشل النسبي ووحدته الداخلية يتلقهما طموح غير محدد مثل لحيته (وكثيرا ما وصفت بأنها اشورية) وانفه المصممة وشعره القصير الاسود القوي . وقد كتب ستيفان زفايج يقول :

« كان وجها وسيما لا خطأ فيه . وكانت لحيته السوداء الناعمة المعتنى بها تعطي وجهه خطا خارجيا واضحا يكاد يكون قائم الزوايا ؛ ووضعت فيه ـــ في توافق تام وفي المنتصف تماما ـــ الانف الواضحة ، وكذلك جبهته العالية المستديرة قليلا . ولكن هذا الجمال ـــ الذي ربما يكاد يكون منتظما اكثر مما يجب ويشبه اكثر مما يجب عملا من اعمال الفن ـــ كـــان يزيده عمقا العينان الوديعتان اللوزيتان برموشهما الحزينة الكالحـــــــة السواد ـــ عيون شرقية قديمة في ذلك الوجه الفرنسي شيئا ما ، ذلك الوجه

الذي كان يمكن ان يكون مصطنعا شيئا ما ، او مخنثا او موحيا بالخلاعة ، لولا ان حزن الف عام عانته الروح كان يبرق فيه (١) » .

وكان الحزن ينمو ويترعرع في منزل جولي الشبيه ببيت لتربية النباتات بالحرارة الصناعية . ويجب ان نصغي في احترام لما قالته كاتبة — لا يكاد احد يذكرها الان رغم فوزها بجائزة نوبل للآداب في عام ١٩٢٦ — وهي تشخص ما وصفته بانه :

« المأساة الكاملة لحياته » . وقد فعلت ماريا ديل جرازي ذلك على اساس مقابلتين مع هيرتزل تذكرتهما وقيمتهما بعد مرور ما يقرب من ثلاثين عاما . وقد جرت المقابلتان بعد تحوله ، وبعد ان استقر هو وجولي في منزل في احد ضواحي فينا . وفي المقابلة الاولى كشف عن نفس متحمسة تكـاد تشبه نفوس الانبياء . وفي المقابلة الثانية كان مع « زوجته الشقراء الجميلة التي — كما وضح لي على التو — لم تكن تجد سوى العذاب في ما كـان يمثل بالنسبة اليه حياته ومصيره . وفي هذه الساعة الواحدة التي قضاها في حضورها كان ... كاتب المقالات الفكه — هـــذا ولا شيء اكثر من ذلك (٢) » . ولم تكن « ماريا ديل جرازي » لتستطيع ان تعرف ان هـــذه المرأة الذي كان يفعل كل ما في وسعه في الظاهر كي يرضيها كانت تمثـل بالنسبة له القبر المتجول لاحلام مراهقته . كما لم يكن باستطاعتها ان تعرف احزان جولي الدفينة ، وهي الفتاة الثرية التي كانت الحياة تحمل اليها كل انواع الوعود ، والتي كان احباطها الداخلي في مثل حدة احباط زوجها . ولم يكن غير العقد الذي يربط بينهما ، والذي كان في مثل صلابة الحديد ، هو الذي يجبرهما على اداء هذا الدور في العلن .

والذي جعل هيرتزل يتحمل تمثيل دور مضحك صالون الاستقبال من اجل جولي وضيوفها ، والذي منع الحزن ان يجرفه كما جرف « كافكا » من قبل ، كان الدافع الذي ادركه « كافكا » وهو : « ان تصل الى هناك » مهما يكن الثمن . وقد جعل هذا الدافع اكثر الحاحا ادراك انه من غير المحتمل ان يعيش اكثر مما عاش فعلا . فان صحته العليلة التي منعته من الالتحـاق بالجيش النمساوي كان قد زادت سوءا بسبب المجهود العنيف الذي كان يتطلبه عمله في باريس والتوتر الذي كان يسببه زواجه التعس . واذا كان اطباء الجيش قد شكوا في اصابته بلغط القلب ، فان هذا القلب قد تعرض لمتاعب أكثر بسبب سوء علاج الملاريا التي اصيب بها . ولم تفعل زياراته المتعددة الى « بادن » وعيونها الكبريتية اكثر من تخفيف الامه بشكـل مؤقت . كما انه لم يكن يمتلك ، وحيته مهددة ، الايمان بحياة اخرى (٣) .

واذا كان عليه ان يصل الى هناك ، فان عليه ان يصل الى هناك الان .
وكان التوقير الذي يمكن ان يفوز به بعد وفاته له ولاولاده عزاءا شاحبا .
فقد كان قد كبت في نفسه اي اهتمام بالدين منذ ترك بودابست ، ان لم يكن قبل ذلك .

ومع ذلك فان هناك عملا يتصل بالدين ميز تحوله القريب من كاتب مسرحي الى رجل سياسة . فبعد أن كتب « الجيتو الجديد » بقليل ، فعل شيئا لم يفعله منذ طفولته . وكما بالنسبة لكثير من افعاله ، فقد اعطي هذا هالة حجبت دلالته . فقد كتب اندريه شوراكي يقول : « ولاول مرة منذ مغادرته بودابست ، احس بالحاجة الى الصلاة . وفي معبد في شارع لافيكتوار ، أحس ، وقد هاجت عواطفه عند سماع انغام الموسيقى القديمة ، ان طريقا جديدا للحياة يطلب منه (٤) » . وبعد مثل هذا الكلام (الذي يمكن ان نورد له امثلة اخرى (٥)) نفاجأ بأن نقرأ ما قاله هيرتزل نفسه :

« لاول مرة ذهبت الى معبد في شارع لافيكتوار ، ومرة اخرى وجدت مراسم الصلاة مبهجة ومؤثرة . وذكرتني اشياء كثيرة بشبابي وبمعبد شارع « تاباك » في بست . والقيت نظرة على اليهود الباريسيين ورايت تماثلا عائليا في وجوههم : الانوف المشوهة الجريئة والعيون القلقة الماكرة (٦) » . أن هذا يوحي بسياسي يزن ناخبي دائرته ، وليس رجلا يبحث عن بلسم لجراحه .

وبعد ذلك بقليل — قبل عيد الفصح تقريبا (٧) — قام بزيارة الفونس دوديه لكي يساله ان يكتب شيئا لجريدته . (وكان هيرتزل قد ترجم احدى مسرحيات دوديه الى اللغة الالمانية) . وتطرق الحديث الى موضوع اليهود، واعترف دوديه بأنه معاد للسامية وهو أمر كان معروفا عنه جيدا . وراق هذا الاعتراف لذلك الجانب في نفس هيرتزل الذي اعجبته اتهامات دوهرنج .
وقال هيرتزل ، الذي كان دائما في افضل حالاته اثناء مناقشة حامية — انه ينوي ان يكتب كتابا عن اليهود .

— « رواية » ؟

— « لا ، افضل ان اكتب كتابا » .

« ولكن الرواية يمكن ان تكون اقوى تاثيرا . فكر في كوخ العم توم » .

والهم ذكر هجوم هاريبت بيشر ستاو على العبودية هيرتزل فصاحة اكثر . كان مقتنعا حتى في شبابه ، اما حين وصل سن النضج فقد كان احيانا

لا يمكن مقاومته ، رغم أن من كان يكسبهم يوما كان احيانا يخسرهم في اليوم التالـــي .

وكان رد فعل « دوديه » ان صاح باعجاب « كم هذا جميل ! كم هذا جميل ! »

ودفع هذا التشجيع من رجل ذو شهرة اوروبية هيرتزل حين رجع الى فندقه ، الى ان يعود الى موضوع رواية كان قد بداها في الصيف الذي تلا وفاة « كانا » ، وكان نقله الى باريس قد منعه من اتمامها . وربما كان قد تأثر بشكوى شنتزلر من ان مسرحية « الجينو الجديد » ينقصها « يهود اقوياء » ، او ربما كانت طريقة تفكيره الجديدة قد اصبحت مسيطرة . وهكذا لم يعد « هنريش كانا » ــ او « صمويل كوهن » ــ هو بطل الرواية . ولم تعد العواطف والانفعالات التي سبقت انتحاره محل اهتمامه المحب . وبدلا من ذلك ، سوف يصبح « كانا » الصديق الاضعف لبطل ايجابي . وسيعرف البطل الجديد ــ وهو هيرتزل نفسه ــ بنبأ انتحار « كانا » وهو يقود هجرة جماعية الى الارض الموعودة . وبدلا من الدموع المهدرة ، سوف يغضب لضياع المواهب التي كان يجب أن تنتمي الى . . . اليهود (٨) .

ويأتي تعليق هيرتزل ضمن اصدق الصفحات التي كتبها واكثرهـــا بساطة :

« لا زالت كيفية انتقالي من فكرة كتابة رواية الى وضع برنامج عملي سرا غامضا بالنسبة الي ، رغم ان ذلك قد حدث خلال الاسابيع القليلة الماضية . ان ذلك يدخل في نطاق مملكة اللاوعي (٩) » .

وقد تفجر لاوعيه بسرعة كبيرة الى درجة ان هيرتزل لم يستطع ان يقوم بكتابة اكثر من كتابات عرضية ومذكرات اطول او نسخ من خطاباته .

وتظهر الشواهد الخفية بأن الموضوعات الاولى لم تكن متضمنة في مذكراته حتى شهر ابريل التالي عندما انتقل بصورة دائمة الى فينا ليقيم مرة أخرى مع جولي والاطفال الثلاثة (١٠) . ففي السادس عشر من ابريل ١٨٩٦ كتب يقول « أنه في هذه الاونة توقفت عن التحضير المتواصل فقد كانت الاسابيع التي تلت تتسم بفقدان الانتاجية لا مثيل لها كنت خلالهـــا افتقد الطمأنينة بحيث استطيع ان اكتب شيئا نقيا . لقد كنت اكتب ماشيا ، واقفا منبطحا في الشارع وعلى الطاولة وفي الليل (١١) .

واتخذ هيرتزل خطوته السياسية الاولى عندما كتب ، فجاة ، خطابا الى البارون موريس دي هيرش رجل الخير اليهودي المشهور في عصره ، وكان « دي هيرش » الذي ولد في ميونيخ ، قـــد انتقـــل الـــى بروكسل

في شبابه حيث تزوج من كلارا بيشوفشم في حفل زفاف يهودي لم تشهد العاصمة البلجيكية مثيلا له في البذخ (١٢) . وكان ، وقد اثرى من بناء السكك الحديدية (وخاصة في الامبراطورية العثمانية) ومنحه ملك بلجيكا رتبة النبالة ، صديقا حميما للامير الانكليزي الذي اصبح فيما بعد الملك ادوارد السابع ، كما كان يمتلك المنزل الذي يقع على ناصية شارعي جابرييل والاليزيه ، والذي كانت تمتلكه الامبراطورة « اوجيني » من قبل . وبعد وفاة ولده الوحيد لوسيان حين كان لا يزال في الواحد والثلاثين من عمره ، خصص البارون ثروته للتخفيف من آلام اليهود . وكان البارون ، الذي كان يؤمن بذوبان اليهود في البلاد التي يقيمون بها (رغم انه كان يقدم الطعام اليهودي « الكوشر » الى الحاخامات واقاربه من اليهود) يؤمن ايضا بضرورة انقاذ اليهود من الجيتو وتمكينهم من ان يحيوا حياة طبيعية كعمال زراعيين وتجار في بلاد مثل الولايات المتحدة والارجنتين . وكان قد عرض ، قبل ستة اعوام ، مبلغا ضخما بمقاييس تلك الايام) يبلغ ٢ مليون من الجنيهات الاسترلينية لانشاء مدارس زراعية وصناعية ليهود روسيا المضطهدين . وعندما رفضت السلطات القيصرية هذا العرض ، حول هذا المبلغ لتأسيس جمعية يهودية للاستعمار يتشابه غرضها مع الغرض الذي من اجله مات اوزوالد بوكسر في البرازيل .

وعندما انتهى هيرتزل من كتابة خطابه ، تركه على مكتبه بالفندق لمدة اسبوعين . وحين ظل الخطاب مقنعا بعد مرور هذا الوقت ، ارسله بالبريد (١٣) . ولا يذكر هيرتزل تاريخ كتابة مسودة الخطاب الذي نقل صورة منه في مذكراته ، ولكن يبدو من المحتمل ان يكون قد كتبه في ٢ مايو ، وهو يوم عيد ميلاده الخامس والثلاثين . وكان الخطاب الموقع باسم «الدكتور هيرتزل ، مراسل جريدة النيو فراي بريس » يطلب شرف السماح بمقابلة البارون لمناقشة المسألة اليهودية . واقترح هيرتزل يوم الاحد كيوم مناسب (فقد كانت ضرورة تغطية المناقشات البرلمانية لا تزال تشغله) واكد انه لا يريد « التحدث في مسائل مالية سواء اكان ذلك بشكل مستتر او صريح . ولان ما تطالب به يبدو متعددا ولا اخر له ، فان المرء لا يستطيع ان يدفع عن نفسه الشك في انه ليس لديه خططا بهذا الشأن . ولكن كل ما اريده ببساطة هو ان اتناقش معك بشأن امور سياسية يهودية ، وهي مناقشة يمكن ان تؤثر على ازمنة لن يعيش ايا منا كي يراها (١٤) » .

وكان هيرتزل من الفطانة بحيث اكد انه ليس بشأن « عملية ابتزاز صحفي » . ومن الطبيعي ان يرتاب البارون في التعامل مع الغرباء . ففي

٢٠ مايو ، رد بخطاب مرسل من منزله في ليدن : هل يمكن للدكتور هيرتزل ان يكتب مايدور في ذهنه في خطاب ، وان يكتب على المظروف عبارة « خاص » ؟ واعتذر البارون ، الذي كان يعرف عدة لغات ، عن كتابته للرد « بخـــط سكرتيري ، وباللغة الفرنسية ، ولكنني ، بسبب جرح صيد قديم في يدي اليمنى ، لا استطيع ان استعمل القلم لاية فترة من الوقت » . ولكن هيرتزل كان يعرف افضل من ان يتلزم بأفكاره كتابة في هذه المرحلة . ولذلك فقد رد على الرجل الذي كان معروفا بانه اكثر رجل في اوروبا ثراءا بقوله : « ان ما قمت به حتى الان كان كريما كما كان سيء الاستخدام، ومرتفع التكاليف، كما كان بلا معنى . وحتى الان لم تزد عن ان تكون رجل خير او « ببابودي » اخر* ، وانا اريد ان اريك الطريق لكي تصبح شيئا اكثر من ذلك (١٥) » .

وكان البارون معتـــادا على المنافقين ، وليس على الذين يتحدثون بصراحة ، ولم يكن معتادا ان يعرض عليه المجال للاعلاء من شأن نفسه . واثار ذلك فضول البارون . وفي خطاب ثان ارسله من منزله في لندن اعلن انه سوف يزور باريس لمدة يومين وابلغ « مسيو هيرتزل ، المقيم في ٣٧ شارع كامبون — باريس » بأنه سيكون تحت تصرفه يوم الاحد القادم الساعـــة العاشرة والنصف بمنزله رقم ٢ شارع الاليزيه .

ويعترف هيرتزل انه اعد خطابه بعناية شديدة .... « رايت ان حكمي على الرجل كان صحيحا ، وانني قد هاجمته من اضعف جوانبه (استعمــل هيرتزل اصطلاحا لاتينيا) . ويبدو ان قولي انه من الممكن ان يكون شيئا اكثر من « ببابودي » اخر ، كان ذا تأثير عليه » .

واعد هيرتزل نفسه للمقابلة باهتمام حريص بأفكاره وملابسه . وقضى اليوم السابق (وهو يوم السبت الذي يمتنع فيه اليهود الاتقياء عـــن العمل) في ترتيب مذكراته التي قسمها الى ثلاثة مجاميع هي : « مقدمة » و « انتشال الجنس اليهودي » و « الهجرة » . ولكن انشغاله بذلك لم يمنعه من ان يرتدي قفازا جديدا بعض الوقت كي لا يبدو وكأنه قد ابتاعه تــوا وخصيصا لهذه المقابلة (١٦) . ورغم ان شعاره كان « يجب ان لا يظهر المــرء احتراما اكثر مما يجب للاثرياء » ، فان هيرتزل قد راعته الاشكال المهيبة ، ولوحات كبار المصورين ، والسجاد، الذي كانت ثروة البارون تجد لنفسها

★ كان جورج ببابودي G. Peabody (١٧٩٥ — ١٨٦٩) هو المبشر باندرو كارنيجــي في حقل اعمال الخير في امريكا . وقد ارتبط اسمه ببناء مساكن قبيحة من الحجر ، تتم بتمويلها ، من اجل فقراء لندن وعدة مدن اخرى .

تعبيرا فيه . وكان هناك صندوق زجاجي كبير يمتلىء بالتماثيل الصغيرة . ولا يوجد شيء يجلب الماضي حيا اكثر من هذه التماثيل الفخارية الصغيرة للرجال والنساء والتي ترجع الى العصر الهليني في الشرق الادنى (١٧) . وقد استخدم الفنانون المجهولون الالوان الكابيه والتفاصيل الدقيقة ليصوروا تصويرا واقعيا نساء واطفال وصيارفة مدينة الاسكندرية ، وهو مجتمع لم يكن بعيدا روحيا عن باريس عام ١٨٩٥ . ولكن هيرتزل لم يكن لديه الوقت الكافي لامعــان النظر في هذه التماثيل ، فقد دخل البارون ، في تكلف اصحاب الملايين ، الى غرفة البلياردو بسرعة ، ثم صافح ضيفه وهو شارد الذهن ، قبل ان يختفي مرة اخرى كي يجتمع مع ضيوف اخرين . وسلح هيرتزل نفسه كي لا تتأثر اكثر مما يجب . قلت لنفسي : «لا بد ان البارون يستأجر احدا ما كي يشرف على حسن الذوق » . وكان البارون قد سلح نفســه ايضا للقاء المثقف المجهول . فقد كان على احد معاونيه في اعمال الخير ، وقد كان هيرتزل يعرفه من فينا — ان يعبر نفس الغرفة التي كان هيرتزل يجلس فيها منتظرا : وذلك كي يذكر ذلك الهازىء بـــ « بيابودي » بمدى اتساع اعمال البارون الخيرية .

وما ان انفرد هيرتزل بالبارون حتى طلب منه ان يعطيه ساعة على الاقل كي يشرح فيها افكاره . ورغم ان البارون قد وافق على ذلك مبتسما ، فان هيرتزل لم يستطع ان يشرح سوى ٢٢ صفحة من المذكرات التي كان قد اعدها . وهكذا ، فانه من الممكن ان تكون المراحل التالية من برنامجه كانت موجودة مع المراحل الاولى . ولكن المرحلة الاولى هي كل ما سجل حتى ذلك الوقت .

وقد هاجم هيرتزل اساسا فكرة اعادة التسكين الخيرية التي كان البارون مرتبطا بها ، وذلك لانها تحول المنتفعين بها الى Shnorrers (وهو تعبير بديشي يعني شحاذين) ولانها لا تعالج جذور مشكلة اليهود ، وهي مشكلة انحدارهم وتدهورهم كجنس . « وسواء بقي اليهود حيث هم او هاجــروا ، فان الجنس يجب تحسينه حيث هو . يجب ان يصبح اليهود اقويــــاء كالمحاربين ، متحمسين للعمل ومتحلين بالفضائل . وبعد ذلك فليهاجروا ، اذا كان ذلك ضروريا » . ولا يمكن لوم « دي هيرش » اذا كان قد احس ان هدف ضيفه في المستقبل كان يشير الى اعتقاده الحالي ان اليهود اشرار وجبناء ، يحجمون عن العمل . كانت نفسية « الجيتو الجديد » لا تـــزال واضحة . كان الصديق غير اليهودي قد ساعد جاكوب صمويل على ان يخطو

بضع خطوات بعيدا عن الجيتو ، وان ينظر الى الرجال في اعينهم وان لا يتذلل . وكان هيرتزل يريد الان من البارون ان يساعده في ان يعمل من اجل جماهير اليهود ما فعله « ورزلخنر » لفرد كان من صنع الخيال ، او ما قد تكون العضوية في جمعية « البيا » قد فعلته لهيرتزل : ان يساعدهم لكي يغيروا ايماءاتهم وصورتهم ، وان يتوقفوا عن انيكو نوا اذلاء خاضعين، وان يقفوا في شموخ ، وان يصبحوا ، كجماعة ، ما اصبح عليه جاكوب صمويل كفرد . وقد طور هيرتزل افكاره . وكانت هذه الافكار تتضمن انشاء « جوائز ضخمة — في البلدان الرئيسية المعادية للسامية — للاعمال الخارقة ، وللاعمال ذات السمو الاخلاقي الفذ ، وللشجاعة ، وللتضحية بالنفس ، والسلوك الاخلاقي ، والانجازات العظيمة في العلوم والفنون ، وللاطباء اثناء انتشار الاوبئة ، وللعسكريين ، وللاكتشافات الدوائية ؛ ولمخترعي المنتجات الاخرى التي تساهم في الرخاء العام — وباختصار لاي شيء عظيم » .

وكان هيرتزل يرى في هذا البرنامج « الفخم » قيمة مزدوجة . فسوف يحسن الجنس اليهودي ويؤدي في نفس الوقت الى دعاية طيبة لهم . وقد اخذ البارون وجهة نظر معارضة . وكان قد ظل طويلا يؤمن بأن الاقلية يجب ، في الحقيقة ، ان تبقى في الظل . وكان قد قال لزوجته ذات مرة ان الفكرة التي يجب تشجيعها هي ان الفرق الوحيد بين المسيحي واليهودي هو المعتقدات الدينية ؛ وانه كلما حدث بسرعة ان عمل اليهودي والمسيحي في ورشة واحدة او زرعا نفس الارض معا ، كلما كان ذلك افضل (١٨) . وقد قال البارون لهيرتزل : « ان كل تعاستنا تأتي من حقيقة ان اليهود يطمحون في الصعود الى أعلى مما يجب . كما ان لدينا مثقفين اكثر مما يجب . وهدفي هو ان امنع اليهود من الاندفاع الى الامام . لا يجب ان يخطو اليهود خطوات كبيرة . فان كل كراهة اليهود تأتي من ذلك » .

كان من الصعب الوصول الى تقارب عقلي بين البارون الناجح (المولود عام ١٨٣١) وبين الكاتب المسرحي الفاشل (المولود عام ١٨٦٠) . وكان البارون — الذي نشأ قبل ان يغزو مفهوم الجنس عقول الجميع ، والذي كان متزوجا من زوجة تشاركه كل آماله — ينظر الى يهود اوروبا الشرقية باعتبارهم مخلوقات بائسة تقع عليه بوصفه يهوديا المسؤولية المضافة التي تمليها الديانة المشتركة . وفي ٢ يونيو عام ١٨٩٥ ، كان تحول هيرتزل قد تبلور في قناعته الاولى : ان اليهود لا يمكن ان يذوبوا ، طبقا للمقاييس

غير اليهودية ، في مجتمع غير يهودي لان هذا المجتمع سوف ينظر الى اليهود دائما باعتبارهم اجانب . وانه لكي يصبح اليهود محلا للاحترام بالمقاييس غير اليهودية ، لا بد ان يفعلوا ذلك عن طريق دولة قومية ذات حكم ذاتي . وان التحرر الروحي الذي كانت مسرحية « الجيتو الجديد » تطالب به لم يعد كافيا . لان ملايين اليهود لا يمكن ابدا ان يكونوا مثل جاكوب صمويل ، وهم على بعد بضع خطوات فقط من « الجيتو » القديم . فقد كان ينقصهم التعليم والحساسية والشجاعة الارستقراطية . وقد كـان العلاج الذي قدمه هيرتزل لهذا الوضع بنيانا ثقافيا ، وكان لذلك يدين بالكثير لاساتذته الجامعيين . ولم يكن هذا البنيان يتضمن بالضرورة اية ارتباط بجماعـة معينة على وجه التحديد ، أو بأراض معينة على وجه التحديد . فقد كان حلا تجريديا لمشكلة محددة . وفي مناسبات مختلفة قادمة كان يقبل احيانا وجهة النظر هذه واحيانا وجهة النظر تلك بالنسبة لمن هم الناس الذين يجـب تجديدهم واين يجب ان يذهبوا . وهو يبدو في اليوم التالي لاحد العنصرة عام ١٨٩٥ محددا فقط بالنسبة لضرورة ألانفصال . « سوف اقول للقيصر : دع شعبنا يذهب ! نحن غرباء هنا ، وليس مسموحا لنا ان نذوب في الناس ، كما اننا لا نستطيع ان نفعل ذلك » . وهو يستعمل تعبيرات : « قومي » و « شعب » و « جنس » (وليس تعبيرات متصلة بالدين) كي يصف « نحن » المتضمنة . كما انه لا يقول شيئا بصدد المكان الذي سوف نذهب « نحن » اليه .

ويجب وضع استخدام هيرتزل لتعبير « جنس » ، ليس فقط في اطار الحرارة اللفظية ، بل في اطار زمنه ايضا . فقد كان هذا التعبير ، بدلالاته الخاصة بالاختلاف الفيزيقي والبيولوجي ، شائعا في اوساط اولئك الذين فقدوا ايمانهم بالديانات التقليديـة (التـي حلت مشكلة الهويـة علـى اساس مذهبي) والذين هزتهم اكتشافات داروين او شيوعها . وهو تعبير كان يستخدمه المعادون للسامية كما كان يستخدمه القوميون اليهـود ، ويستخدمه دزرائيلي كما يستخدمه « جوبينو » ، ويستخدمه « موسى هس» و « برنار لازار » كما يستخدمه فاجنر و « هوستون ستيوارت شامبرلين ». ولم يكن هناك احد اقرب لهيرتزل في عام تحوله اكثر من « ماكس نوردو » وهو فيلسوف كان يتمتع باحترام واسع . وكان قد كتب في عام ١٨٩٢ كتابا بعنوان Degeneration (الانحطاط او الانحلال) قال فيه انه حيث ان الفنانين الذين لم يكن يحبهم (مثل بودلير واوسكار وايلد ونيتشه وفاجنر)

كانوا منحطين جسديا فان اعمالهم كانت بلا قيمة ولا يمكن ان تبقى . وكان نوردو (وهو احد الصديقين المجربين الذي رغب هيرتزل ان يسر اليهما بانه مؤلف « الجيتو الجديد ») قد اكد انفصاله عن تقاليد الجيتو بتغيير اسمه (كابن الحاخام سودفلد) مما كان يعني « الحقل الجنوبي » الى « المرعى الشمالي» . وكانت حياته كطبيب وكصحفي وكمؤلف للكتب العلمية المبسطة، قد زادت هذا الانفصال عمقا . وكان قد هاجم في كتاب اخر واسع الانتشار هو The Conventional Lies of our Civilization (الاكاذيب التقليدية لحضارتنا) الانجيل بوصفه اكثر حداثة من الفيداس Vedas ولانه اقل مستوى من الناحية الفنية من «هوميروس» والكلاسيكيات الاوروبية ، ولانه طفولي كفلسفة ومقزز كقانون للاخلاق (١٩) . ولواحد كان انفصاله جذريا بهذا الشكل عن خلفيته الدينية فان الاصطلاحات المستمدة من علم الباثولوجي* كانت تتفق وعالم ما بعد داروين حيث كانت « الانواع » تتصارع من اجل البقاء ، وحيث كان سيزار لامبروزو (الذي اهدى نوردو كتابه اليه) يعلم ان العيوب الوراثية وليس سوء توجيه الارادة، هي سبب الجريمة . وكان نوردو يستخدم لفظ « الانحطاط » بمعناه الباثولوجي الكامل وهو : « تغير مرضي في بنيان الاعضاء يشمل انحلال الانسجة واحلال اشكال ادنى من الابنية محل اشكال اعلى (٢٠) » . وقد طبع كتابه طبعات عديدة وترجم الى جميع لغات اوروبا الرئيسية بما في ذلك الانكليزية . ومثل الكثير من الكتب العلمية الذائعة الصيت ، فان الكتاب سرعان ما فقد قيمته العلمية . وقد كتب « جورج موس » في مقدمة اول طبعة تصدر من الكتاب بعد مرور ٧٠ عاما في عام ١٩٦٨ ، يقول : « ان ما يذهلنا اليوم ليس فقط نفسية نوردو، بل وايضا استخدامه للاحكام الاخلاقية. والاخلاق لا علاقة لها بالحق الميتافيزيقي او بالتوق الداخلي للاخلاص . ولكنها تعني « ما يفيد » بالنسبة لتقدم الانواع (٢١) » . وفي رواية The Right to Love (حق الحب) وقد ظهرت في نفس العام ، انكر « نوردو » حق الافراد في انجاب الاطفال اذا كان ذلك يهدد الانواع . وحين اقنع هيرتزل « نوردو » بارائه ، فانه من المثير للاهتمام ، أن تحفظات « نوردو »

★ علم الامراض وطبائعها .

الوحيدة كانت تتعلق بمسألة ما اذا كان اليهود لا زالوا صالحين ، من الناحية الانتربولوجية ، للوصول الى مرتبة الامة أم لا (٢٢) • وقد اقنع هيرتزل « نوردو » فيما يتعلق بهذا الامر • وبعد ذلك بعامين ، وفي مناسبة هامة ، استخدم « نوردو » مجازا مرعبا كي يعبر عن خصوصية اليهود • قال : « يعلمنا علم الميكروبات ان هناك كائنات عضوية دقيقة لا تسبب ضررا على الاطلاق طالما كانت تعيش في الهواء الطلق ، ولكنها تسبب مرضا مدمرا اذا حرمت من الاكسجين • وعلى الامم والحكومات ان تكون على حذر حتى لا يصبح اليهود ، على نحو مشابه ، مصدرا للخطر (٢٣) » •

وهكذا فانه مما لا يثير الدهشة استخدام هيرتزل للمصطلحات العنصرية وذلك كابن لعصره وثقافته • فقد كانت التعاليم اليهودية التقليدية التي تقول ان اليهود شعب مقدس خصص لخدمة التوراة ـ وانهم شعب لا يمكن للاجانب الانضمام اليهم الا عن طريق اعتناق ديانتهم والقبول المطلق بأحكام التوراة ـ غير مقبولة بالنسبة لمن كانوا لا يؤمنون بالدين اليهودي واولئك الذين انفصلوا عنه سواء أكان ذلك سرا أم علنا • وعثر أولئك الذين تعمدوا عن غير ايمان ، أو أولئك الذين تزوجوا بغير اليهود ولم يعودوا يختنون اطفالهم او يراعون قوانين الطعام ـ عثروا على حل مريح لمشكلة الهوية • وكان هيرتزل يستخدم التعبير بشكل غير محدد وبدون التزام عميق • وعندما قابل ، فيما بعد ، يهوديا ذا ملامح تكاد تكون افريقية ، رفض « الجنس » واستبدله بتعبير « الامة » الذي يكاد لا يكون اكثر تحديدا •

الفصل الثامن عشر

لقد سيطر البارون موريس دي هيرش على المرحلة الاولى من برنامج هرتزل : فكان بمثابة « اليهودي الكبير في عالم المال » (١) الذي بمقدوره ان يمول الهجرة ، بينما هرتزل نفسه هو « يهودي عالم الروح » الذي في استطاعته ان يوحي بتلك الهجرة • غير ان دي هيرش قد وجد المفهوم القائل بجعل اليهود « أقوياء من أجل الحرب » مفهوما يبعث على الاشمئزاز الى حد كبير او من نسج الوهم والخيال ، حتى انه لم يسمح لزائره بأن يشرح على مسمعه سوى ست صفحات من أصل ٢٦ صفحة تؤلف الملاحظات التي قام بتدوينها (٢) وحين رجع هرتزل الى غرفته الموحشة انما المبدعة ، فانه وضع الحجج الاضافية في رسالة تتألف من حوالي الفي كلمة وهي مؤرخة في يوم الاثنين التالي لاحد العنصرة • فتجاسر على مواجهة مشكلة ربما كانت تشغل بال دي هيرش ـ ألا وهي مشكلة صغر سنه النسبي • « في فرنسا ، عندما يبلغ الناس السنة الخامسة والثلاثين من عمري ، فانهم يصبحون وزراء دولة ، مثلما ان نابوليون كان امبراطورا في تلك السن » (٣) • وبعد ان اقترح أنداده ، شدد هرتزل على انه قد سبق له اجراء حساب لكلفة نقل الجموع المهاجرة • لكن الشيء الاهم من المعدات واللوازم العسكرية ، هو الفكرة التي من شأنها ان تلهب المتمتعين في حق استعمالها • وحده الشيء الذي لا يقبل الوزن بدقة (اللاموزون) ، كالراية مثلا ، يمكنه تحريك الناس للاستماتة •

« ماذا ، ألا تأخذ اللاموزون بعين الاعتبار ؟ وما هو الدين ؟ اعتبر ، لو شئت ، ما قاساه اليهود في سبيل هذه الرؤيا طيلة فترة تمتد الى ألفي سنة • نعم ، الرؤى وحدها هي التي تستحوذ على عقول الرجال • وكل امرىء لا يستفيد من استعمال الرؤى ، ربما قد يكون شخصا ممتازا وجديرا ورزينا ،

وحتى انه يكون محسنا على نطاق واسع • لكنه لن يصبح قائدا للرجال ، ولن يتبقى منه أي أثر » (٤) وكمن يستخدم الاشياء اللاموزونة ، فقد استشهد هرتزل ببسمارك الذي أوجد الامبراطورية الالمانية • « فالمحسن على نطاق واسع » كان دى هيرش ، ذلك المحاور الغائب الذي تزلف اليه هرتزل تارة ، ثم عمد طورا الى تهديده • وطيلة يومين بعد ايداعه للرسالة في البريد ، اجتاحه ذعر مفرط • فربما أقدم دى هيرش على نشر رسائله لكي يبرهن أنه مجنون • « ولكن لو فعل ذلك ، سوف أحطمه ، وأثير التعصب الشعبي ضده ، وأدمره في كتابات مطبوعة (وهذا ما سوف ابلغه اياه في الوقت المناسب) » (٥) •

ان الهجرة ، وهي المرحلة الاولى من برنامجه ، أفضت من تلقاء زخمها الذاتي الى ثلاث مسائل اضافية متساوية في الثقل والاهمية • ما هو نوع الدولة التي ينبغي على اليهود ان يشيدوا صرحها ؟ وأين سوف يقع خيارهم على موقعها ؟ وكيف يتسنى لهم الحصول عليها ؟ لقد جرب هذه المشكلات كلها من خلال اعمال التفكير فيها ، مما أبقاه في حالة محمومة ابتداء من ٥ حزيران وحتى السادس عشر منه على الاقل ، وهو ذلك اليوم من العام ١٨٩٦ حين استنتج هرتزل « بأن الحياة قد انتهت بالنسبة لي ، وبدأ تاريخ العالم » (٦) ففي غضون أحد عشر يوما من الحياة العازبة ، حيث تناول طعامه في الحانات الصغيرة (البيسترو) دبج ما يعادل اكثر من ١٣٠ صفحة مطبوعة • وتراوحت الابواب التي طرقها من جملة واحدة الى « خطاب موجه الى آل روتشيلد » في اربعة وخمسين صفحة قام بتأليفه يوم ١٣ حزيران • فكأننا نشهد التطور التدريجي في الذهن لقصيدة رومنطيقية ، تأتي منابع الهامها معادلة في اثارة الاهتمام للاستخدام الذي جرى لها • ان جميع العوامل التي قد أثرت في تكوين هرتزل الفكري والعاطفي ـ أسرته وتعليمه ، ودراسته للقانون ، والدروس التي تلقاها في المبارزة بالسيف ، ومسرحياته ، والصحف التي قراها وكتب لها ، وسوق الاسهم التي كسب منها ابوه مورد رزقه ـ كلها أوجدت القرارة في البئر التي ترتفع منها زهرة أحلامه ، في خلق دولة لليهود •

فاليوم الاول يسجل حادثين عاديين في حياة مراسل صحفي • وفي ساعات المكتب زار سكرتير عضو في مجلس الشيوخ بخصوص شخص هنغاري اسمه « نمس » (٧) ، جرى تجنيده بصورة غير نظامية في الفرقة الاجنبية • (وكانت الزيارة بمثابة شرارة أشعلت لديه حلما من أحلام اليقظة عن كيف ان جنوده هو سوف يتصرفون بطريقة أفضل للغاية) • وتلك الامسية ، في ضوء قناديل من الغاز ، في دار الاوبرا العائدة للامبراطورية الثانية ، مر عبر

الردهة المهيبة لجان لوي غارنييه لكي يشاهد عرضا لاوبرا « تانهويزر » • ان هرتزل في فيينا لم يكن في عداد المعجبين بفاغنر • مثلما ان اوبرا «تانهويزر» لم تؤلف من الناحية الموسيقية العمل الرئيسي لريتشارد فاغنر • غير ان مواكبها الرائعة ونفخ الابواق المثيرة فيها جاءت ملائمة لمزاج هرتزل الحالي * •

« نحن ايضا سوف تكون لنا مثل هذه القاعات الرائعة ـ حيث يحتشد السادة بزيهم الكامل ، والسيدات يرتدين الحلل المترفة بقدر الامكان • نعم ، اريد الاستفادة من استخدام الحب اليهودي للترف ، بالاضافة الى كافة الموارد الاخرى » • ان مرأى الجمهور الباريسي وهو يجلس لساعات « تغص به القاعة المزدحمة ، لا يبدي حراكا ، وفي حالة من الانزعاج الجسدي » جعل أفكار هرتزل تلتفت صوب ظاهرة الحشد الجماهيري • فالمتفرجون تركز انتباههم على الاشياء اللاموزونة : مثل الاصوات والموسيقى والمشهد المسرحي • و « أنا ايضا سوف أقوم على تشجيع ورعاية المسيرات الاستعراضية الفخمة من أجل المناسبات الاحتفالية الكبرى » (٨) ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي أتى فيها على ذكر فاغنر خلال تلك الايام المحمومة • فقد كتب يقول عن الخروج التوراتي تحت قيادة موسى في انه يمت الى مخططه بالصلة ذاتها « مثلما تمت بهذه الصلة مسرحية هانز ساكس عن أيام المرافع الى احدى اوبرات فاغنر » (٩) •

بيد ان تأثيرات طفولته وبيته هي أقدم واكثر واقعية وغنى • فالحلم الذي راوده لكي يصبح مهندسا قد ترك أثره في نفسه • فهو في تصميمه على ان مشروعه سوف يكون بمثابة المشروع المماثل لقناة السويس ، وليس على غرار قناة باناما ، (١١) يتصور في خياله نشوء مدن جديدة كليا ، حيث يصار في الاول الى تمديد انابيب تلك المدن ومجاريرها • وسوف تجمع مدنه بين عنصري الفخامة والراحة : « بناء شيء من طراز القصر الملكي (باليه رويال) أو ميدان السان مارك (القديس مرقص » (١٢) • ويتطلع الى اليوم الذي ينتصب فيه تمثاله هو ، فيأمل في ان هذا التمثال سوف يجيء فنيا اكثر من تمثال

---

* ان اقتراح كارل شورسكي القائل بان هرتزل ربما قد احس « في عودة تانهويزر التي حزرته اخلاقيا الى الكهف الطبيعي صورة موازية لعودته هو الى الغيتو » (١٠) يبدو اقتراحا بعيد الاحتمال مثلما انه غير دقيق ، ذلك ان تانهويزر لا يرجع الى الكهف بعد مغادرته اياه (مع انه يحاول الرجوع في الفصل الثالث من الاوبرا) •

غامبيتا في قصر التويللري (١٣) . بيد ان كل مدينة سوف تزنرها الغابات ، بحيث يأتي الوقع مماثلا لجاردن سيتي بقدر ما هـو مماثـل لطابع مدينـة البندقية . والتماثيل في الحدائق العامة سوف يتم نحتها من حجر البريـل الكريم (وهو أخضر اللون عادة) . والمادة التي تجف بسرعة سوف تستخدم لالصاق قطع القرميد الزجاجية . ان جانيت هرتزل ، بما عرف عنها من هوى لنظافة والترتيب وآداب المعاشرة (الاتيكيت) ، كانت ستبدي استحسانها حيال هذا الاسلوب . « جميع المسؤولين في بزات رسمية ، أنيقـة ، علـى الطريقة العسكرية ، انما ليس الى درجة سخيفة ومثيرة للضحك » (١٤) . ان ثقافتها الجرمانية تسود المشروع الطوباوي (اليوثوبيا) الذي ينسجه خيال هرتزل : « المسرح الالماني ، والمسرح العالمي ، والاوبرات والاوبريتات ، وخيام السيرك ، ومقاهي الكونسرت ، ومقهى الشانزيليزيه » (١٥) . واختيار اللغة هو بمثابة التعبير لها عن الاحترام والاعجاب : « من المرجح ان تصبح الالمانية ، بحكم قوة الاشياء ، اللغة الرسمية . المانية اليهود (يودن دويتش !) مثلما ان الشارة الصفراء سوف تصبح شريطنا الازرق » (١٦) . كان هرتزل يفكر هنا بشيء يشبه الالمانية ـ السويسرية اكثر مما يشبه اللغة اليديشية . ذلك ان تأثير جانيت هو ملموس من جديد في الاستدراك القائل ان اللغة سوف يتم تطهيرها من « الرطانات اليهودية ، فالالمانية اليهودية ليس لها من معنى او تبرير الا على شاكلة اللسان المختلس لدى السجناء » (١٧) . مثلما ان جانيت هرتزل لم تكن لتقل في استحسانها لتحريم الروح اليهودية في الفكاهة والمرح . « ان احدى المعارك الرئيسية التي يترتب علي ان اخوضها سوف تكون ضد سخرية اليهود من انفسهم . وهذا الاستعداد للهزء والسخرية يمثل في أعماقه ، المحاولة الهزيلة من جانـب السجناء لكـي يتبـدون مثـل الرجـال الاحرار » (١٨) غير ان هرتزل يقدم تنازلا للطابع الانساني البسيط . فقـد لاحظ على صديق نمساوي في زيارة الى باريس انه كان مشتاقا الى احتسـاء القهوة مع الكريما المخفوقة كما اعتادها في عاصمة سلالة الهابسبورغ : « وبناء عليه ، سوف أنقل بأمانة المقاهي الفيينوية الى الجانب الاخر . وبمثل هـذه الحيل الصغيرة سوف أحقق الخداع المرغوب والعائد الى البيئة القديمة » (١٩)

وتأثير جاكوب هرتزل هو أقل من ذلك بكثير . غير ان والده ، مع ذلك ، سوف يكون العضو الاول في مجلس للشيوخ يتشكل من اليهود البارزين في موجة الهجرة (٢٠) . فالمام ابيه بعالم السندات والاسهم قد أزيل بالحك لدى الابن الذي يشعوذ بالملايين « ما هي عشرة بلايين مارك بالنسبة لليهود ، انهم

دون ريب أوسع غنى مما كان عليه الفرنسيون عـام ١٨٧١ ، وكم كان بينهم من اليهود ! » (٢١) ٠

أيامه في المنظمة الاخوانية الطلابية ما اعتراها النسيان ٠ ذلك ان المبارزة بالسيف سوف تلعب دورها « هناك » مثلما لعبته على عهد الدراسة فـي فيينا ٠ لكن فورة جنونه الخلاق تذوب ، وتعيد قولبة محنة الحداثة في السن ٠ فتتراجع اوروبا القرن التاسع عشر في صفحة واحدة الى اسبارطه الوثنية ، التي شكلت النموذج الاصلي لكثير من أحلام اليقظة بمجتمع مثالي ٠ والمبارزة سوف تكون فعلا بلا قيود ، « من أجل الحصول على ضباط حقيقيين ، ولاسباغ نفحة من الرقي الفرنسي الرفيع على المجتمع الفضيل ٠ ان المبارزة بالسيوف مسموح بها ، ولن يعاقب عليها ، مهما تكون النتيجة التي تسفر عنها ، شرط ان يكون شهود المتبارزين قد أدوا قسطهم في سبيل التوصل الى تسوية مشرفة ٠ وكل مبارزة بالسيف لن تحقق فيها محكمة المبارزة الا في أعقاب انتهائها » ٠ (٢٢) هذه الهيئة (المحكمة) تكتسب وظيفة جديدة وغريبة عندما يداعب هرتزل في عقله مسألة المبارزة بالمسدسات ، « أو النوع الاميركي ، اذا كان مـوجودا بالفعل » ٠ والى جانب اتخاذها القرار بشأن السماح في اجراء مبارزة معينة أو حظرها ، فان هيئة المحكمة يمكنها ان تلعب دورا ثانويا غير معروف في اوروبا الحديثة ٠ ويتصور هرتزل قاعة المحكمة خالية حتى من الشهود ، بينما يقوم القضاة في جو من السرية الصارمة على اصدار اوامرهم الى المتبارزين العتيدين بالامتناع عن الذبح الاخوي وبقتل عدو قومي بدلا من ذلك ٠ « بهـذه الطريقة سوف يتسنى الاحتفاظ بمجازفة الموت في المبارزة ، مثلما اننا سوف نستمد منفعة رائعة منها ٠ » ربما يكون هرتزل قد تذكر كيف ان الشرطة السرية في اسبارطه (جهاز الفزع الخفي Kryqteia) أصدرت اوامرها الى الشبان من ذوي المزاج الحار لانتقاء الرعايا الاهليين الذين قد يشكلون خطرا لكي يصار الى قتلهم ٠ فالسرية تسود الدولة المتخيلة ٠ وهرتزل (الذي تسهر على أمنه وسلامته شرطة سرية) سوف « يقوم مرارا بجولات تفقدية مفاجئة على المراكز القائمة ٠ (وهي جولات بالغة الاهمية ، للحيلولة دون الهدر ودون اهمـال المسؤولين لواجباتهم أثناء القيام بالوظيفة) ٠ وكذلك بالحصول على تقارير عن التجاوزات من جهاز شرطة ادارية سرية ٠ » (٢٣) بيد ان الجريمة التي تنال أقسى العقوبات سوف تكون جريمة (التحريض السياسي الذي من شأنه ان يؤدي الى سقوط الدولة ٠ » (٢٤) والعقاب الذي يقترحه هرتزل هو النفي ، او الموت في الحالات التي يمكن خلالها للمحرض المنفي ان يتسبب في الاذى ٠

ان نقائض المواقف السابقة ، باعتبارها من النقائض المشتركة بين جميع التحولات على سبيل الاهتداء ، تكمن وراء بعض تشريعات هرتزل . ويمكن لنا ان نلاحظ أربع نقائض من هذا القبيل . فقد سبق لهرتزل ، على غرار كل الكتاب ، ان تصادم مع أجهزة الرقابة . لكنه يعلن الان بأن حرية الصحافة سوف تكون مقيدة (٢٥) . فالذين يتمادون كثيرا ، سوف يتعرضون للتشهير (المشهرة = Pillory) : آلة خشبية للتعذيب تدخل فيها يدا المجرم ورأسه ابتغاء التشهير به ــ قاموس المورد) وتفرض عليهم الغرامات . ثم يعترف هرتزل : « في أيام شبابي كنت مقامرا ــ مثل لينغ ولاوبي وكثيرين غيرهما من الذين اصبحوا فيما بعد رجالا محترمين ــ لكن السبب الوحيد وراء ذلك هو ان نزوعي للعمل لم يجد متنفسا اخر » . (٢٦) فالمقامرة سوف تكون ممنوعة في المجتمع الجديد ، باستثناء « الاندية الراقية للعب الورق » ، حيث تحصر عضوية هذه الاندية بالاشخاص الذين تجاوزوا سن الاربعين . والانتحار (الذي استهواه مرة كموضوع أدبي) حفزه الان الى البحث عن عقوبات قاسية . فالانتحار الفاشل كان من السهل أن يعاقب : حيث يصار الى احتجاز الذين حاولوا القيام به مدى الحياة في مستشفيات للمجانين . أما معاملة الذين نجحوا في الانتحار ، فهي أشد صعوبة . فالدفن الشائن ليلا ، بعد اجراء التجارب الطبية على جثثهم ، ليس كافيا . يجب اعلان بطلان وصاياهم ، وحظر النشر على أعمالهم الادبية . (٢٧) وقبل يومين من ذلك فقط ، كان هرتزل قد أوصى بالاندماج من خلال قبول الاشتراكية أو المعمودية . بينما نجده الان يسبغ النعت الاحتقاري « جبان » على اليهود المندمجين الذين دخلوا في سر المعمودية . (٢٨)

لقد شارك هرتزل بناة المجتمع الطوباوي (اليوتوبيا) من أمثال افلاطون والسير طوماس مور في كره الديمقراطية . * فمن شأن جمهوريته

---

* ان سنوات هرتزل الاربع تقريبا في باريس خلفت لديه ارفع الاحترام للثقافة الفرنسية ، انما القدر الضئيل جدا من احترام النظام البرلماني . فالفصول التي أوردها في كتابه « قصر البوربون » تشكل بيانا علنيا وراثيا لمواقفه السياسية أبان عكوفه على كتابة اليوميات : « الشعب عاجز وسيبقى عاجزا على تسيير دفة شؤونه ، هذه الشؤون التي تتعدى ادراكه لجهة حجمها ومداها » . غير ان النائب البرلماني الذي ينوب عن الشعب في تسيير شؤونه له ، يرتدي قناعا . هذا القناع « ينمو من وجهة النظر الطبيعي . فهو مخلص في البداية » . والشعب نفسه يمعن في

الارستقراطية ان تجد مثالها الاقرب في مدينة البندقية المستقلة ٠ (٢٩) حيث يحكم هذه الجمهورية دوتشي على غرار البندقية ٠ والدوتشي وشيوخه سوف يحكمون الدولة وفقا للمبادىء المرسومة في « يوميات هرتزل » ، حيث تبقى هذه المبادىء طي الكتمان ٠ « عندما يصار الى نشر هذا الكتاب ، فان المواصفات لتنظيم الحكومة سوف تحذف منه ٠ اذ يجب هداية الشعب نحو الخير تبعا لمبادىء يجهلها هذا الشعب » (٣٠) ٠

وفيما لو حدث ان هرتزل لم يعد على قيد الحياة عندما تنشر اليوميات ، فان الاوامر الصادرة الى المشرفين على تحرير الكتاب تطلب اليهم استخراج القواعد الادارية وايداعها في المحفوظات السرية للدولة ، حيث تكون في متناول الحكومة وحدها دون سواها ٠ والدوتشي الاول سوف ينتمي الى أسرة آل روتشيلد ، طبعا شريطة النجاح في اكتساب آل روتشيلد الى جانبه (٣١)٠ ثم خطرت لهرتزل خاطرة وهو في طريقه الى ميدان سباق الجائزة الكبرى في باريس (Paris Grand Prix) يوم الاحد في ٩ حزيران ، مفادها ان ابنه هانز يمكنه احتلال منصب الدوتشي في وقت لاحق ٠ فتراءى له في المعيد المزدحم بزعماء البلاد انه يخاطب ابنه الشاب بعبارات من طراز «يا صاحب السمو ! ولدي الحبيب ! » يؤكد لنا هرتزل بأن الدموع ترقرقت في عينيه

تبسيط القضايا : « لو قدر لامة عظيمة أن تحل بها نكبة امتلاك وسيلة الاستفتاء ، فانها بالرغم من كل دعاة السلام سوف تواجه الحرب باستمرار . وتقف امام الخيار بين لا أو نعم » ٠ والمرض المتبقي في جسم الجمهورية الفرنسية بدا له قائما على اخفاقها في التمييز بين مبدأ الحكومة وشكل الدولة ، هناك مبدآن للحكم : المبدأ الارستقراطي والمبدأ الديمقراطي ٠ وأيا من هذين المبدأين تختار ، فان شكل دولتك يجب ان يأتي على النقيض منه ٠ فلو كان المبدأ ارستقراطيا لوجب على الدولة أن تكون ديمقراطية ـ بكلام اخر ، جمهورية ٠ اما لو جاء اختيار المبدأ ارستقراطيا ، لوجب على الدولة ان تكون ارستقراطية ـ أي ملكية ٠ « يجب على كل من مبدأ الحكومة وشكل الدولة ان يلطف الواحد منهما الاخر » ، هذه التأملات أوحت بها المناقشات البرلمانية في شهر تموز عام ١٨٩٥ ٠

حين طاف بخياله المفصل ماسحا ارجاء مشهد المستقبل . وتقدم فرسان هرتزل الدارعون عرضا مؤثرا للمدفعية والمشاة انطلق في سيره من قصر الدوتشي . ان زوجته وابنته لا تلعبان أي دور في حلم يقظته (٣٢) . غير ان هذا الحكم يشير الى الدور الذي توسمه هرتزل لنفسه ، على الاقل بصورة متقطعة أو مؤقتة . سوف يكون مستشارا . واللفظة الاكثر دقة لوصف وظيفته العتيدة كان من شأنها أن تكون كلمة « غستور » اللاتينية (الوكيل أو المفوض = Gestor) ، لكن جرى رفضها لئلا تنطوي ترجمتها الانجليزية الى « مدير » Manager على مغزى تجاري في بريطانيا العظمى (٣٣) .

ان موافقة الامبراطورية البريطانية هي مسألة حيوية للدولة . وبعض العادات الانجلو ــ سكسونية سوف يتم نسخها : « سوف أقود أولاد الذوات الى ممارسة الرياضات الانجليزية ، فأعدهم بهذه الطريقة الى الجيش » (٣٤) وسوف نمارس لعبتي الكريكت وكرة المضرب .

وأحد التأثيرات التي يشير غيابها الانتباه هو تأثير اليهودية . فرجال الدين اليهود وأماكن العبادة اليهودية ، مثل الهيكل أو المعبد ، لا تظهر الا كظهور الرموز والشخصيات المسيحية في أوبرات فاغنر . « سوف يرتدي كبار الكهنة حللا مثيرة للاعجاب (لكن هذه الحلل لا توصف بصورة مفصلة) ، ويلبس فرساننا الدارعون سراويلا صفراء وسترات بيضاء اللون . والضباط سوف يحملون على صدورهم دروعا مرصعة بالفضة (٣٥) ذلك ان اليهودية تؤلف مجرد جزء من اللاموزون المطلوب ، وعلى غرار البروتستانتية التي ربطها فاغنر بالقومية الالمانية ، يجب أن تجعل هذه اليهودية بطريقة ما مثيرة للاعجاب والدهشة ، حتى وان جاء ذلك على حساب تشويه طبيعتها . ان هرتزل يفكر باستقدام حاخام ساغدورا العجائبي (وهو حاصدي من بوكوفينا اشتهر بتقواه وعجائبه) وتوليته في منصب « يشبه الى حد ما منصب المطران المشرف على رعيته الاقليم (الابرشية) . وبالواقع ، في كسب رجال الدين برمتهم الى جانبنا » (٣٦) فلم يعد هرتزل يهوديا ارثوذكسيا بعد اهتدائه (أو انه لم يكن منتميا الى أي من الطوائف اليهودية المعترف بها) أكثر مما كان فاغنر على الاطلاق مسيحيا ارثوذكسيا . وفي وقت لاحق من ذلك الصيف نفسه بادر الى تحديد تصوره لله في انه تصور مستمد من تعاليم الفيلسوف اسبينوزا ، وينطوي على بعض أوجه الشبه مع الفلسفة الطبيعية التي قال بها أصحاب المذهب الاحدي في الفلسفة : « في استطاعتي أن أتصور مشيئة كلية الوجود ، ذلك اني أرى هذه المشيئة فاعلة في العالم الطبيعي . أستطيع

ان أراها مثلما أرى العضلة وهي تؤدي وظيفتها · فالعالم هو الجسم والله يقبع في تأدية هذا الجسم لوظائفه (٣٧) · وكل ما هو موجود ، ومن جملته العداء للسامية ، احتوى ارادة الخير الالهية · ان مثل هذا الايمان الذي يجري تحديده بهذه الصورة الغامضة جدا ، هو بعيد كل البعد عن الوحدانية المنزهة التي تنبع جذورها من الوحي النازل في سيناء ـ ومن أجل انكار هذا الوحي جرى انزال الحرم في اسبينوزا ·

أما المسألة الرئيسية الثانية ـ وهي تتعلق بأية منطقة أو أرض سوف يقوم هرتزل على ادارتها ، وعبر أي منظر طبيعي سوف يعدو جنوده مسرعين فوق صهوات خيولهم ـ فقد شغلته بصورة ضئيلة نسبيا في أوائل صيف العام ١٨٩٥ · فالمفهوم المجرد للدولة سبق بشيء من المسافة السؤال العيني عن المكان الذي ينبغي تشييد الدولة فيه · والمنطقتان اللتان أخذهما بعين الاعتبار كانتا مختلفتين أشد الاختلاف · الاولى منهما هي فلسطين ، تلك الارض التي اقام اليهود في جزء منها دويلات مستقلة من حوالي العام الالف الى عام ٥٨٦ ق·م · ومع ان هرتزل لم يكن بعد قد قرأ كراس بنسكر في « التحرر الذاتي »، هذا الكراس الذي يوحي بالكثير مما جاء في برنامجه هو ، فانه كان يعرف عن « عشاق صهيون » ، تلك المنظمة التي ضمت اليها عددا من يهود أوروبا الشرقية وترأسها بنسكر حتى وفاته عام ١٨٩١ · لقد ترسبت الى عمق أكثر في البئر الخلاقة ذكريات عن الحاخام القالاي ، الذي اعتبره جده بطلا ، وكان الداعية الى توطين سلمي لليهود في فلسطين · وهنا كتب هرتزل يقول : « الاسطورة الجبارة هي في صالح فلسطين » · لكنه أدرج في الوقت ذاته ثلاثة اعتراضات لها وزنها · ففلسطين هي قريبة جدا من البلدان التي أفسدت اليهود ، روسيا وأوروبا · وهي صغيرة الحجم أو المساحة الى حد لا يسمح بالتوسع · واليهود ما عادوا متعودين على مناخها (٣٨) · وهناك اشارتان في غضون يومين ـ يوم ١١ حزيران و ١٢ منه ـ تظهران بأن مخيلة هرتزل قد التفتت لحظة بلوغ الضغط أقصى درجاته صوب أميركا اللاتينية ، باعتبارها تؤلف قارة بعيدة بشكل مقبول عن « أوروبا المتعسكرة ، وذات السمعة الرديئة » (٣٩) · فلو ان اليهود عبروا المحيط الاطلسي ، لن تثير دولتهم انتباه اوروبا قبل مضي فترة ملحوظة من الزمن ·

« في أميركا الجنوبية يمكننا أن نعيش أولا وفقا للقوانين ولمعاهدات تبادل المجرمين الخ المرعية الاجراء لدى الدولة التي تستقبلنا (بالمقارنة مع أوروبا) »

ان قواتنا الدفاعية سوف تضم على الدوام عشرة بالمائة من المهاجرين

المذكور • وبهذه الطريقة سوف نحصل على جيش ونجمع افراده دون أن يلاحظ علينا ذلك احد من الناس ، انمـــا سوف نمضي بحذر لمدة طويلة ، مستغلين العداءات القائمة بين الجمهوريات ، ومحافظين على صداقتها من خلال الهدايـا والرشوات والقروض الخ » • ففي هذا المدخل الاول يستبق هرتزل النظر الى عملية قوامهـــا التسلل ثم الغزو لمنطقة ما غير مسماة تقـــع الى الجنوب من المكسيك • وما أن جاء اليوم التالي حتى كان تشديده قد تغير •

« يجب أن يكـــون ممكنا الحصول على تلـــك الجمهوريات الاميركية اللاتينية لقاء النقود • وفي استطاعتنا أن نقدم لهذه الجمهوريات معونات سنوية من الدعم المالي • انما هذا العون لن يستمر سوى حوالي عشرين عامـا فقط اي الى حين أن نكون قد بلغنا من القوة المبلغ الكافي لحماية أنفسنا • وا... العون المذكور من شأنه أن يتحول الى ضريبة لا تتفق مع كرامتنا في المستقبل ويمكن لايقاف دفعها أن يؤدي الى الحرب » • وحتى في هذه الصورة المترددة للاستيطان عبر الاطلسي ، فـان هرتزل ربط كرامة الدولة الى عجلة غلبـــة عسكرية مماثلة لغلبة المانيا وهيمنتها في أوروبـا : « ان المدة التي تستغرقها معونات الدعم هــذه يجب تحديدها من خلال المدة الزمنية التي يشير اليهـــا رئيسنا العسكري باعتبارها كافية لنا لكي نصبح **ندا لكافة تلك الجمهوريـات مجتمعــة** » (التشديد من المؤلف الحالي) • وهذه الحاجة كان مـن شأنها أن تقود الدولة الى التصادم مع « مبدأ مونرو » ، وربما كانت احد الاسباب المحتملة وراء الانقطاع عن المضي في استكشاف مسألة الهجرة الى اميركا الجنوبية • غير أن مدخلا اخر يرينا بوضوح مدى جدية هرتزل في النظر الى المسألة لفترة ما : « اذا كان انتقالنا هو الى منطقة حيث توجد حيوانات متوحشة لم يألفهـا اليهود ويتعودوا عليها ــ كالافاعي الكبيرة السامة وغير ذلك ــ سوف أستعين بالاهالي الاصليين ، قبل اعطائهم فرص العمل في بلدان العبور ، للقضاء على هذه الحيوانات واستئصال شأفتها • على أن تكون المكافات العالية من نصيب من يأتي بجلـود الافاعي ، بالاضافة الى بيوضها وفروخهـا » (٤٠) ومثل هذا المدخل يشير بوضوح الى مكان يعج بالادغال اكثر مما تعج به الارض المقدسة • ان فلسطين التي كانت تحوي الافاعي ، وبعضها من الافاعي السامة ، لم تستطع التبجح بوجود حيوانات أشد توحشا من الثعلب وابن آوى أو الضبع • وعنـد حلول هذا التاريخ كان الذئب نادر الوجود •

عندما وصل هرتزل الى النظر في المسألـــة الثالثة والاخيرة ــ كيفيـة الحصول على أرضه العتيدة ــ كـــان رعاته ومشجعوه بريطانيين • ومــع ان

يومياته كتبت بالالمانية فقد استخدم عبارة انجليزية هي « جمعية اليهـود » أو « الجمعية » ببساطة ، للدلالة على تلك الهيئة التي سوف تتطور الى الدولة ، واستعمل عبارة انجليزية أخرى تقوم الجمعية على ممارسة الاستعمار بواسطتها ومن خلالهـا • فالعقد الاخير من القرن التاسع عشر تميز ببلـوغ الاستعمار الاوروبي ذروته القصوى ، وكانت بريطانيا العظمى تمثل بالنسبة لكل قارىء من قـراء الصحف الدولة الاستعمارية دون منازع • ومثلما جميع الاساطيـل البحرية نقلت زي البحار البريطاني ، فقد عمدت كل من المانيا وبلجيكا وايطاليا الى البرهان عن تبوء منزلتها الجديدة كأمـم مـن خـلال اقتناء المستعمرات على الطريقة البريطانية • * وفي شهر أيار من العام ١٨٩٥ جرى اسباغ الاسـم الجديد : روديسيا ، بصورة رسمية على أحدث المقتنيات البريطانية ، وهـي تلك المنطقة الغنية من افريقيا الجنوبية التي تضم الماشونا والماتابيلي •

وهناك رجلان ـ جاكوب دي هاس الذي كان يعرف هرتزل معرفة حميمة والامبراطور الالماني الذي التقاه في ثلاث مناسبات ـ عمدا فيما بعد الى الربط بين رؤيا هرتزل عن كيفية الحصول على الاساس الاقليمي لاقامة دولة وبين الاعمال والتصرفات البريطانية في افريقيا • فقد كتب الاول قائلا : « ان غارة جيمسون في الترانسفال جعلت من تسميه الشركة ذات البراءة كلمة مألوفة ، وهذه التسمية هي الوصف المفضل لدى هرتزل لوسيط التطور المنظم » (٤١)• وقام هرتزل بابلاغ الامبراطور الالماني في أن خطته كانت تهدف الى « خلـق شركة يهودية ذات براءة لفلسطين على نمط الشركة البريطانية ذات البـــراءة لجنوبي افريقيا (٤٢) •

ان الصلات الروحية ـ والفروقات ـ بين البريطاني باني الامبراطورية

* بين عامي ١٨٨٤ و١٨٨٥ حصلت ألمانيا على جنوب غربي افريقيا ، وتوغولاند والكاميرون وغينيا الجديدة وتانغانيقا • وكسب ملك بلجيكا ليوبولد الثاني مساحة تبلغ مليون ميل مربع في الكونغو عام ١٨٨٥ • وفي العام نفسه استولت ايطاليا على اريتريا ، لكي يتبع ذلك فيما بعد استحصالها على الصومال • وخلال الفترة الممتدة من ١٨٩٤ الى ١٨٩٥ كانت اليابان تبرهن من خلال حربها الحديثة الاولى ضد الصين ، على حقها في الوقوف بمصاف الدولة الحديثة ، وبالتالي في اقتناء المستعمرات •

سسيل رودس وبين هرتزل جديرة بالاهتمام · فقد ولد رودس قبل هرتزل بست سنوات في أبرشية انجليكانية تقليدية ·وعمد في السابعة عشرة من عمره الى تغيير اتجاه حياته بركوب سفينة الى ناتال · وبينما نجد هرتـزل يغادر بودابست في العمر نفسه تقريبا لكي يصبح كاتبا ، فان رودس سرعان ما تحول الى واحد من كبار مقتني الثروات خلال القرن · وسرعان ما نبذ المسيحية لصالح نزعة ربوبيــة (deism) خشنة وغير مصقولة · اذ رأت في التاريــخ البشري صراعا من أجل انتاج نموذج من الانسانية أشد نبلا وسموا · لقد كان رودس بمثابة النبي لشعب منتصر وراض عن نفسه · فبدا له الامر على النحو الاتي : « هناك عرق واحد فقط يقترب من النموذج المثالي لدى الله ، وهـــذا العرق هو عنصره هو الانجلو ــ سكسوني ·وغرض الله ،اذن،هو في جعل العرق الانجلو ــ سكسوني مسيطرا وسائدا ، وأفضل طريقة لتعزيز صنيع اللـــه وتحقيق غرضه في العالم هي اسهام المرء في هيمنة العرق الانجلو ــ سكسوني وسيطرته ··· » (٤٣) لقد سعى رودس الى توسيع رقعـة امبراطورية سبق لها التضخم والانتفاخ ، وليس الـــى تأسيس مستعمرة لشعب بدون أرض · « وفي كل ما فعله كان رودس يتحرك بدافع مطمح مفرد لا يتغير ــ ألا وهـــو تأسيس « الاوطان ، المزيد من الاوطان » من أجل العنصر البريطاني » · فقـد تملكت رودس أكثـــر من مسحة من جنون العظمـــة · فعندما سأله الدكتور جيمسون (صاحب الغارة الغازية التي تسببت في اندلاع حرب البوير) كم هو طول المدة التي يتوقع لذكراه أن تبقى حية خلالها ، تردد لحظة ثم أجاب في تبجح : « أنا أعطي لنفسي أربعة الاف عام » · ومثلما أن هرتزل وقف مبتعـدا عن الشعب الذي اختار أن يقوده (وهو شعب لم يكن هرتزل ليطمئن اليه كل الاطمئنان ابدا) ، فان رودس ، وهو الكاره العنيد للنساء ، كان ينأى عاطفيـا عن بارونات المطاط ورواده الذين أوحى لهم · وعمد نفر من أتباعه الى تأليـف سيرة لحياته على غـــرار سير القديسين ، جاءت مشابهة للسير التي دبجها مؤرخو سير حياة هرتزل · فكتب احدهم في فترة متأخرة ترجع الى العـــام ١٩٤٣ يقول : « اليوم ، نجلس حول النيران في قرى الكرال الاهلية (والكرال Kraal) هي قرية من قرى أهالي جنوب افريقية الاصليين ــ قاموس المورد) ، حيث يقص الشيوخ على الشبان (الذين سوف يورثونها بدورهـم لابنائهم) القصة الحقيقية ــ التي هي أشد روعة من الاسطورة ــ عن « لامـولا ماكونزي » (الفاصل بين الثيران المتصارعة) ·وهو ذلك الرجل الابيض العظيم الذي كان صديقا لهم ، وأحل السلام الدائم بين البيض والسود ــ « أبانا وأمنا

اللذان لم يخيبا لنا من أمـل » ٠

فالانجاز الكبير الذي حققه رودس كان في عزل قبيلتي الماشونا والماتابيلي عن السيطرة على أراضيهما ٠ ولقد درس هرتـزل كيف تمت هذه العملية ٠ فالارض الواقعة الى الشمال من بتشوانا لاند كان يحكمها لوبنغولا ، ملك قبائل الماتابيلي المولعة بالحرب ٠ وفي العام ١٨٧١ منح هذا الملك لكل من المكتشف توماس بينز ورجـــل انجليزي اخر هـــو السير جون سوينبورن ، امتيازا لاستكشاف ثروة بلاده المعدنية ٠ غير أن بينز وسوينبورن لم يشغلا امتيازهما على الاطلاق ٠ فالارض البكر التي لم يحتلها سوى الافارقة ، كان يشتهيهـــا البوير من جنوب افريقيا والبرتغاليون من موزامبيق ٠ ولكي يحبط ذلك ، فان المقيم البريطاني في بولافايو قد استمال صديقه ، الملك ، للتوقيع على اتفاقية في العام ١٨٨٨ تعهد الصديق بموجبها في انه لن يتطلع من أجل الحصول على الدعم والمساعدة الى أية دولة غير بريطانيـــا ٠ ممثلة بمندوبها السامي فـــي الكاب ٠ وعقب ذلك فورا قام رودس بايفاد كل من ألفريد بيت وس٠د٠ رود من أجل اقناع لوبنغولا وحملهم على منحهما امتيازا احتكاريا لاستغلال المعادن والمواد المعدنية التي توجد في مملكته ٠ ومقابل ذلك الامتياز قدم له الاوربيون ٠٠٠ر١ بندقيـــة ماركة مارتيني ــ هنري ، و ٠٠٠ر١٠٠ طلقة من الذخيرة ، بالاضافة الى اعانة شهرية قيمتها مائة جنيه استرليني ٠ فبعد أن تم له الحصول على الامتياز الجديد ، عمل رودس على ابتياع حصص المساهمين الاسبقين لقاء مبلغ ٠٤٦ر١٠ جنيها استرلينيا ، والى اخراجهم من دائرة الامتياز ٠ ثم قـــام بجمع كل مصالحه تحت سقف شركة واحدة جبارة هي شركة جنوب افريقيـــا ، برأسمال مساهم قيمته مليون جنيه استرليني ٠

ففي اتخاذ القرار باستغلال بلاد لوبنغولا واستعمارها من خلال شركة ذات براءة كان رودس يستخدم معادلة تستند الى الممارسة البريطانية مؤخرا في كل من بورنيو الشمالية ووادي النيجر ٠ والذين ناصبوه العداء كانوا من الاحرار البريطانيين الذين خافوا من أن تؤدي خططه ومشروعاته ، كما هي أدت بالفعل الى نزع الملكية بصورة فعلية عن السكان الاصليين ٠ فلجأ رودس بمهـــارة فائقة الى استخدام الصحافة (في شخص ٠ت٠ ستيد بنوع خاص) والـــى توسل جماعة سياسية (هي الحزب الايرلندي في البرلمان البريطاني ، حيـــث أعرب رودس عن عطفه عن الهدف الذي سعى اليه الحزب المذكور في تحقيـــق الحكم الذاتي) لكي يسبغ صفـــة الشرعية على مغامرته ٠ وفي شهر تشرين الاول من العام ١٨٨٩ قامت الملكة فيكتوريا بمنح براءة ملكية في التأسيس الى

الشركة البريطانية لجنوب افريقيا · بيد أن البنود الجغرافية في نص البراءة جاءت غامضة على نحو متعمد ، حيث لم يرسم حد شمالي لدائرة عمليات الشركة ونشاطاتها · وأصبح جهاز مفوض للشرطة المسلحة بمثابة النواة لجيش خاص· وهناك تعهد باحترام القانـــون المدني المحلي (الاهلي) ـ رهنا بأي تشريـــع بريطاني قد يتم ادخاله ـ وبالمحافظة على حرية التجارة والدين ، حيث جـــرى ربط هذا التعهد بالتوقع في أنه سوف يتم انقاذ السود في الوقت المناســـب من الرق والكحول · وجاء مجلس ادارة الشركة ليربط بين النبالة ـ الاشراف ـ (في شخص كل من دوقي فيفي وابركورن) وبين المكر والدهاء (في شخص كل من رودس وبيت) ·

لقد ذهبت البراءة الى أبعد بكثير من حدود امتياز لوبنغولا · فأولت الى شركة تجارية حقوقا يصعب تمييزها عن حقوق السيادة · وأحلت هذه الشركة في وضع استعماري حيث ترتب عليها بصورة مؤكدة تقريبا انها سوف تلجأ الى استخدام « قوة الشرطة » التي سمح لها بانشائها وضمنت بأن السيـــادة سوف تنتقل بذلك الى « العرق » (العنصر) الذي يقود على التزويد بالجنود ·

وتكللت المعادلة بالنجاح عمليا · اذ بعد أن تم له الحصول على حقوقـــه الشرعية عمد رودس الى اتخاذ ترتيبات سريعة لكي يصار الى ارسال الجنود البريطانيين الى المنطقة الواقعة شمالي رأس الرجاء الصالح · وبعد أن تصدى الجنود لغارات وغزوات ضعيفة شنها البوير والبرتغاليون ، عمدوا الى مواجهة الخطر الرئيسي والمتوقع ـ من جانب السكان الاصليين · فقد ارتعب هـــؤلاء السكان فزعا من احتمـــال رؤية ارضهم يجري تقسيمها الى مزارع يملكهـــا مستوطنون أجانب · وعمدت قبيلة الماتابيلي بشجاعة عقيمة الى القيام بمحاولة يائسة لصد الغزاة ودحر المهاجمين · لكي تمنى بهزيمة ساحقة ومحتومة ، اذ تخبرنا احدى الروايات بأن « الرشاشات قد جرى استخدامها لتحدث نتيجة مخيفة لدى العدو » (٤٤) ثم جـــرى عقب ذلك فتح البلاد على مصراعيها أمـــام المستوطنين البيض · أما أفضل الاراضي ، فقد تم ادخارها فيما بعد من أجل استغلالهم لها بصورة دائمـــة ·

ان روتسم (Stencil) هرتزل من أجل الحصول على أرض تـــم القيام بتنظيفها واعدادها للاستيطان جرى اقتطاعه وتفصيله وفقـــا للنموذج الروديسي · فالمعروف ان رودس لجأ الى مساندة رؤياه ودعمها بشركة ماليـــة تستقي مواردها من الثروة الجديدة في مناجم كيمبرلي للالماس ومناجم الذهب في يوهانسبورغ · ورأى هرتزل ان تجنيد البارون دي هيرش ، ومن ثم آل

روتشيلد ، يأتي في الطليعة من سلم أولوياته . وكان على رودس أن يقنع عرابه الامبراطوري بأن مستعمرته الجديدة سوف تكون لصالحه ، ومن هنا قامت جهوده في الصحافة البريطانية وداخل البرلمان البريطاني) . أما هرتزل (حين يتسنى له العثور على عراب يرعاه) فقد كان عليه اقناع هذا العراب بأن دولة صهيونية من شأنها تدعيم مصالحه . لقد تظاهر رودس في البداية بمصادقة عاهل محلي . ثم انتهى الامر الى سحق هذا العاهل . أما هرتزل ، فانه سعى الى استخدام السلطان العثماني الاشد قوة (حالما يكون الخيار قد استقر على فلسطين) في الطريقة نفسها التي استخدمها رودس مع الملك لوبنغولا .

وهناك مشكلة واحدة ـ هي مشكلة السكان الاصليين ـ تبدت لهرتزل بشكل أشد الحاحا من تبديها لرودس . ولان البريطانيين قد سبق لهم امتلاك العديد من « الاوطان » ، فان الاستيطان في روديسيا سوف يكون محصورا ومقيدا ، ولفترة متطاولة من الزمن . بينما تصور هرتزل في خياله ملايين اليهود يصلون كلهم مرة واحدة « الى الجانب الاخر » . فقد سبق له التذمر من أن فلسطين ليست كبيرة جدا . وكان يعرف أنها ماهولة بعدد كبير من السكان . لكن هرتزل واجه هذه المشكلة بتصميم حاول اتباعه كتمانه . مؤثرين أن يرسموا صورة لزعيمهم حيث يبدو من خلالها ساذجا ، بدلا من ظهوره بمظهر صاحب الاطلاع أو القاسي الذي لا يرحم . وهناك شعار صهيوني ارتفع فيما بعد ـ « الارض التي بدون شعب من أجل الشعب الذي بلا أرض ! » يتناسب مع الميثولوجيا (أسطورية) التي تطرد لفظة « عربي » أو « فلسطيني » من فهارس معظم كتاب السيرة . ومثل كل صحافي اخر ، فان هرتزل اعتمد على الكتب المرجعية (المراجع) . ومن المؤكد تقريبا ان مكتبة الباريسي قد احتوى على « معجم ماير للمحادثة » أو دليل « بيدكر » عن « فلسطين وسورية » فالطبعة الاحدث صدورا لكل من هذين الكتابين * حينذاك ذكرت الرقم نفسه ، ٦٥٠ الف نسمة ، كعدد لسكان فلسطين الذين كانت اكثريتهم الساحقة سورية أو عربية ، بينما تواجد اليونانيون والاتراك واليهود والاوربيون باعداد أصغر .

Meyers Konversations Lexi Kovr ، الطبعة الرابعة المجلد ١٢ ، ١٨٨٨ ، ص ٦٢١

Baede Ker's «Palaestina und Syrien» Leipzig. 1888.

لقد كرس هرتزل عشرين صفحة من يومياته ، المؤرخة في ١٢ حزيران ، لتأملات حول الموضوع • فاقترب من الموضوع متيسلحا بالافتراض القائل ان السكان الاصليين يمكن قسمتهم في الاساس الى الكثرة الفقيرة والقلة المالكة للاراضي • بالنسبة للفقراء ــ من الفلاحين المستأجرين للارض أو الشغيلة ــ فانه تنبأ بالحاجة الى نزع الملكية بصورة جذرية ودون تعويض • وبينما هو يصر على أن « عمليتي نزع الملكية وابعاد الفقراء يجب تنفيذهما بحذر واحتراس وتكتم » ، (٤٥) فان الغموض يكتنف مسألة اللجوء الى استخدام القوة الاقتصادية أم القوة الجسدية • اذ يكتفي بمجرد الافصاح عما يلي : « سوف نحاول تسريب السكان المعدمين عبر الحدود بتأمين وظائف العمل لهم في « بلدان العبور » ، على أن نسد أمامهم كل مجالات العمل والاستخدام في بلادنا نحن » * بيد انه لا يحدد على سبيل التخصيص « بلدان العبور تلك » ، حيث سوف يصار الى اعطاء وظائف العمل للاهالي المقتلعين • • اذ لا توجد أية بلدان للعبور ، بل هناك أوقيانوس فحسب ، بين أوروبا الغربية (حيث يتصور هرتزل لحركة الهجرة اليهودية أن تأخذ نقطة انطلاقها) وبين شاطىء اميركا اللاتينية • ومن الصعب على المرء يفهم ديري كيف يتسنى تهريب السكان الاصليين الى هولندا ، بعد أن يكونوا قد فرغوا من عملية تنظيف الارض من الافاعي • وليس الامر على سهولة أكثر بالنسبة لفلسطين ، ذلك أن حلم هرتزل في يقظته يتصور وصول المستوطنين ببساطة وصراحة الى ساحل يافا بطريق البحر ، وليس بطريق البر عبر تركيا وسورية • فهو يصرح في مدخل لاحق من يومياته بأن المهاجرين سوف يرتدون لباس العشاء الرسمي على ظهر السفينة (٤٦) • وجل ما يتضح بجلاء هو أن معظم السكان الاصليين يترتب عليهم الرحيل •

ان نزع الملكية بالنسبة لاصحاب الاملاك سوف يكون نزعا طوعيا • وسوف يتم تشجيعهم على التفكير بأنهم يخدعون اليهود ويغشونهم ، اذ يبيعونهم الاشياء أكثر بكثير من القيمة التي تستحقها (٤٧) • ومثلما انهم

---

* والنص الالماني الاصلي للعبارة هو أشد صراحة وقوة صارخة ، حيث يضيف هرتزل بأن الفئة المالكة من السكان سوف تنضم الى جانبنا • راجع الطبعة الالمانية ليوميات تيودور هرتزل : Tagebuecher ، المجلد الاول ، برلين ١٩٢٢ ، ص ٩٨ •

سوف يعجزون عن استرجاع ما باعوه مرة بواسطة الشراء ، فكذلك الثمن الذي من شأنهم الحصول عليه ، فانه سوف يتم تخفيضه بواسطة خدعة · وهنـاك جيش من الوكلاء والعملاء الفرعيين المحليين « ينبغي لهم الا يعرفوا بـــان رب عملهم نفسه هو عميل سري يتلقى التعليمـات من هيئــة مركزية هي « لجنة مشتريات الاملاك » ، اذ سوف يقوم الوكلاء على ترتيب كثرة من الصفقـــات المنفصلة · « ان مثــل هــذه المشتريات السرية يجـب تنفيذهـا **في وقت واحد** (التشديد من عند هرتزل) » كمن يضغط على زر كهربائي · وسوف يتلقى عملاؤنا السريون الذين من شأنهم الظهور هناك بمظهر من يشترون لحسابهم المستقل ، الاشــارة التي تقــول : سيروا ! (Marchez) (٤٨) يجـب علـى المبيعات أن يتم انجازها خلال أسبوع ـ والا فان الاثمان سوف ترتفع عاليـا وخياليا · أما أصحاب العقارات من الذين على تعلـــق شديد بأرضهم أو ممن تقدموا في السن ، فانه سوف يعرض عليهم « نقل كلي الى أي مكان يبتغونه ، على غرار شعبنا نحن · هذا العرض لن يتـــم تقديمه الا بعد أن تكون كافــة العروض الاخرى قد قوبلت بالرفض · وحتى فيما لو أن هذا العرض لم يحظ بالقبول ، فلن يحدث أي ضرر من جراء ذلك · فالتعلق الشديد بالتراب لا يوجد سوى بالنسبة للممتلكات الصغيرة · أما الكبيرة منها ، فمن السهل الحصول عليها لقاء ثمـن » · (٤٩)

ان هرتزل لم يكن واحدا من أولئك المستسلمين للعاطفة ولم يعترف بأية قيود خارقة للطبيعة · ومن المرجح انه عرف عن دواء صديقه ماكس نــــوردو (الذي تمت صياغته قبل أن يهتدي عن طريق هرتزل الى الصهيونية) لمعالجة « مشكلة العمال الذين تشردهم التكنولوجيا الحديثة » · فقد كان دواء يمثل عصره بصورة نموذجية : « يجب على العمال المشردين أن يستوطنوا التربة ، واذا كانت أوروبا في حاجة الى المكان ، ينبغي عليهم أن يهاجروا الى مـا وراء البحار · وعندذاك سوف يحتل المهاجرون مكان « الاعراق الدنيا » التي لم تكن قيد البقاء في صراع التطور » · (٥٠) ويبدو ان هرتزل قد تنبأ مسبقا بـــأن ذهابه الى أبعد مما ذهب اليه حتى الان أي رجل استعماري في افريقيـا ، من شأنه استعداء الراي المتمدن لفترة مؤقتة · فهو يكتب في الصفحات التي تصف « نزع الملكية بصورة غير طوعية » قائلا : « في البداية سوف يعمد الناس الى نجنبنا بشكل طارىء · فنحن أصحاب سمعة سيئة · ولكن عندما تكون عملية تأليب الراي العـــام وقولبته من جديد لصالحنا قد تمت نهائيا ، سوف تكون قدامنا قد ترسخت بثبات في بلادنا نحن ، حيث لا نخشى بعد اليوم تدفـــق

الاجانب ، وحيث نستقبل زائرينا بنزعة ارستقراطية الى عمل الخير وبلطف ومودة يملؤها الاعتزاز (٥١) ٠

لم يكن هذا بمثابة صـــورة ذهنية من شأنها أن تسحر عامـــلا كادحا (البيون) في الارجنتين أو فلاحا في فلسطين وأن تخلب لبهما ٠ لكن هرتزل لم يستهدف ليومياته النشر الفـوري ٠

الفصل التاسع عشر

اتفقت حالة الغليان الذهني التي كان يعيش فيها هيرتزل مع بداية الصيف في فرنسا · وكانت عائلته قد رحلت الى فيينا ، وكان اصدقاؤه قد رحلوا لقضاء اجازاتهم بعيدا · وكان اعضاء البرلمان وحدهم ، والذي كان عليه ان يصف صغائرهم لجريدته ، هم الذين احتفظوا بنشاط الشتاء · والوحدة الممكنة بين الجموع تخصب الفكر ، وكانت مراسلاته الهائلة قد تضاءلت · فقد كتب خطابين الى « تويلز » في براغ بشأن مسرحيته · ثم ، حين هدأ غليانه ، كتب خطابا اخر الى شنتزلر في ٢٣ يونيو · وقد كتب اليه يقول انهم لا يزالون ينظرون في امر « الجيتو الجديد » في براغ ، ولكن شيئا مختلفا وجديدا وأوسع نطاقا (١) بكثير يحاصره الان · ولكنه ، فيما عدا الاشارة الى عودته المقبلة الى النمسا في يوليو ، لم يقل اكثر من ذلك · كانت حياته قد تغيرت · فعندما لا يكون غارقا في الكتابة ، او يتنزه في الحدائق العامة القريبة من شارع « كامبون » ، كان يتناول طعامه وشرابه في اماكن غير مأهولة مثل مقهى صغير بالقرب من شاتيليت Châtelet · وكان يريد تجنب الاتصالات الانسانية · فمن الممكن ان يطأ المعارف على أصابع اقدامه ، وهم لا يدركون العالم الرائع الذي أتى منه ·

ومع ذلك فانه حتى صاحب الرؤيا يحس بالحاجة للافضاء للاخرين ، حتى ولو كان ذلك لمجرد ان يؤكد لنفسه ان ما رآه كان اكثر من مجرد هلوسة · وبعد فشله مع البارون « دي هيرش » ، افضى هيرتزل ببعض افكاره الى يهوديين اخرين ، احدهما عن طريق البريد ، والثاني شخصيا ·

وقد كان الدكتور « موريتز جودمان » ، الذي كان في ذلك الحين حاخام فيينا الاكبر ، يحظى باحترام بسبب كتاباته عن الشؤون التعليمية اليهودية ·

ووفقا لنيته المقررة لكسب تأييد رجال الدين ، ولان « جودمان » يمكن ان يكون مفيدا كرسول ، فقد ارسل اليه هيرتزل ثلاثـة خطابـات في ١١ و١٦ و١٧ يونيو • وفي الخطاب الاول اعلن في جرأة ، انه قد قرر ان يقود عملا من اجل اليهود • واذا أراد « جودمان » ان يمد يد المساعدة ، فان عليه ان يعد تقريرا عن الوضع السياسي والاخلاقي الحالي لليهود في اوروبا شرق نهر الرايـن ، وبتأكيد خاص على آثار حركة معاداة السامية • وقد ابلغ هيرتزل «جودمان» انه يحتاج ايضا لمساعدة يهودي علماني ، وانه اختار « سالو كوهن » ، صديق الحاخام وراعي الكتاب اليهود الثري • واذا وافق « جودمان » فعليه ان يحضر تقريره الكامل الى « كو » بالقرب من بحيرة جنيف ، فـي خلال سبعة ايام •

وكان هيرتزل قد اختار « كو » عمدا • فان مناظرها الخلابة سوف تنتشل رفيقيه « من مفاهيمهما الضيقة المحدودة واليومية » • كما ان ما أثار حماسة هيرتزل لهذا المكان هو ان جان جاك روسو اكتشف نظرية العقد الاجتماعي هناك •

ورد جودمان عليه برقيا بأنه لا يستطيع ان يقوم بالرحلة ، وكذلـك لا يستطيع « سالو » الذي كان متغيبا عن فيينا • وقد أظهر الخطاب الذي تلـى البرقية بيومين ان الحاخام ، الذي كان يعرف هيرتزل فقط ككاتـب وزوج لجولي نأسشور ، قد أدهشه اهتمامه المفاجيء بقضية اليهود • وقد اعتـرف هيرتزل ، في رده ، انه ليس يهوديا تقيا ، ولكن مشكلة معاداة السامية ، رغم ذلك ، كانت تشغل ذهنه ، على الاقل منذ قرأ دوهرنج • وقال انه يريد من جودمان ان يلعب دور الرسول الى عائلة روتشيلد ، ليس لانه يعتمد عليهـم اكثر من اعتماده على اليهود الاثرياء الاخرين ، ولكـن لان خطتـه ، التي لا يستطيع ان يلخصها في خطاب ، تتطلب ان يكونوا على علم بالامر ، كما سوف يفهم جودمان في الوقت المناسب • وكانت مهمة الحاخام ان يقرأ رسالة هيرتزل « خطاب الى مجلس العائلة » لالبرت روتشيلد عميد فرع العائلة في النمسا ، في ضيعته الريفية في « جامنج والدهوفن » خارج فيينا • واختتم هيرتزل الخطاب بتحية الحاخام « باعجاب واثق بوصفك شريكي الاول » • وما ان ارسل هيرتزل الخطاب بالبريد حتى داهمته الشكوك • فقد تخيل الحاخام وهو يتنزه في المراعي النمساوية ، التي تكون في قمة نضارتها في بداية الصيف ، وأدرك ان احدى جمل خطابه الذي ارسله في المساء السابق (« ان لدي حلا للمسالة اليهودية ») يمكن ان تبدو مليئة بالادعاء للحاخام ذي الخبرة والاعوام الستين•

ولكي يثبت انه ليس مجنونا ، فقد قام ببعض العمليات الحسابية . وما ان كان الخطاب يسير في طريقه الدقيق المرسوم (وكثيرا ما كان البريد ـ بغير الطائرات ـ في القرن التاسع عشر ـ اكثر سرعة من بريد القرن العشرين) حتى أتبعه ببرقية يطلب فيها من الحاخام ان لا يفتح الخطاب . وتفسيرا لذلك ، ادلى بكذبة بيضاء : « احد الاصدقاء المشتغلين بالامر ، والذي كانت موافقته مفترضة ، يعترض تماما . لا بد من الاذعان » . وقد كان السبب الحقيقي مختلفا بعض الشيء .

ففي اثناء فترة غليانه الذهني ، كان الشخص الوحيد الذي كان هيرتزل يراه هو « فريدريش شيف » ، مراسل وكالة « وولف تلغراف » للانباء في باريس ، وهو رجل كان ولاؤه سببا في ان يجعله هيرتزل يشغل ، في احلام يقظته ، منصب سكرتيره في المستقبل . كما انه كان يمثل بالنسبة لهيرتزل اليهودي الفقير في مقابل « دي هيرش » اليهودي الغني . وكان « شيف » قد لاحظ ، في قلق متزايد ، اعراض جنون العظمة تنتاب صديقه الذي كانت حياته العزوبية في شارع « كامبون » ووجبات طعامه المتلصصة ، وتجنبه المتعمد لاماكن اللقاء القديمة ، تشير الى المراحل الاولى التي تنذر بانهيار عصبي . وفي البداية كان « شيف » يمازحه . وقال ان هيرتزل يبدو وكانه قد اخترع منطادا هوائيا ، وهو مشروع كان محل مناقشة لا تنتهي في ذلك الوقت . ثم (في اليوم الذي ارسل فيه خطابه الثالث الى جودمان) أعاده « ستيف » الى الارض الباردة بقوله ان فكرة هيرتزل لم تكن جديدة ، فقد جربها « ساباتاي زيفي » في القرن السابق . وكانت الحقائق التي أفضى بها شيف (وكذلك هيرتزل الذي نقلها) صحيحة ولكن تواريخه كانت خاطئة . فقد قاد « ساباتي زيفي » اتباعه (الذين كانوا أشبه بالطيور المهاجرة) الى فلسطين في القرن السابع عشر وليس الثامن عشر . ولكن كلا من هيرتزل و « شيف » تذكرا المسيح الدجال كنذير مشؤوم . وكان التراث اليهودي يربط دائما العودة للاراضي المقدسة بعصر المسيح الدجال . **وكان « التلمود يدين العودة عن طريق القوة (٤)** وفجأة رأى هيرتزل ـ وقد تذكر تأملاته القريبة ـ انه مثل « زيفي » في التراث اليهودي كان يحاول ان يستعجل الارادة الالهية . وغرق ، لا في الليل الاسود لروح المتصوف ، بل في راحة المستيقظ من كابوس . لقد انقذه « شيف » من ان يجعل من نفسه « اما مأسويا أو مثيرا للسخرية (٥) » . ولقد كان مستعدا ان يكون مأسويا ، ولكن ليس مثيرا للسخرية . وسل قلمه كي يكتب على عجل خطابا جديدا للبارون دي هيرش (٦) . وقد استهل خطابه

قائلا في حسم : « لقد أقلعت عن الامر » . ثم بتفصيل وروح فكهة وصف كيف شرح المشروع بأكمله لصديق عاقل ليس من رجال المال (وذلك كي يؤكد لدى هيرش انه لا يكتفي بمقابلة الاثرياء فقط) . وقد اقتنع صديقه بالفكرة الى حد سكب الدموع ، ولكنها كانت دموع الاسف ، فقد كان صديقه قد اقتنع بأن هيرتزل قد فقد عقله . ولكن هيرتزل نفسه لا يزال يعتقد ان فكرته سليمة . ولكن اليهود لم يتهيؤوا بعد لارض الميعاد . « ومع ذلك ، فأنا اعرف اين تقع هذه الارض ، انها بداخلنا ! في رؤوس اموالنا ، في عملنا ، وفي هذا الربط الخاص بين الاثنين الذي ابتكرته . ولكن سوف يكون علينا ان نهبط الى ادنى مما نحن عليه ، وسوف يكون علينا ان نتعرض لاهانات اكثر ، وان يبصق علينا ، وان يسخر منا ، وان نساط وان نسرق وان نذبح قبل ان نصبح ناضجين للفكرة (٧) » . وسوف يظل هيرتزل يقدر فكرته ، رغم ابتسامات الاغراب ، ولكنه لن يفعل شيئا اكثر من ذلك لوضعها موضع التنفيذ . « وبما يثبت ذلك انني لست سوى يهودي خائر العزيمة . فان رجلا غير يهودي كان يمكن ان يواجه كل الصعاب من اجل فكرة في مثل هذه القوة » . ولكن الخوف من ان يكون محطا للسخرية ، وان يبدو مثل « دون كيشوت » ، كان كافيا لان يجعله يتوقف .

حدث هذا في ذلك المساء .

وفي صباح اليوم التالي ، ١٩ يونيو ١٨٩٥ ، زاره « شيف » مرة اخرى . ولكن زيارته هذه المرة كانت بشأن بعض الفواتير التي كانت في حاجة الى المراجعة . ووجد هيرتزل انه يستطيع ان يقوم بالعمليات الحسابية البسيطة بشكل اسرع واكثر دقة من « شيف » المهزوز . وفجأة عاد اليه اقتناعه . وفي نفس ذلك اليوم ، اتخذ الخطوة الرمزية الاولى في تسعة اعوام من النشاط التبشيري . وكان « شيف » قد أشار اليه ، دون ان يدري ، الى الطريق بعد تصديقه ، وباشارته العابرة الى الحاخام « جودمان » بوصفه « غير كاف » (٨) . وقرر هيرتزل ان يتعامل ، لا مع مليونير او حاخام ، بل مع بطل من ابطال طفولته . ولقد كان الامير اوتو فون بسمارك ، المستشار السابق ومؤسس الرايخ الثاني ، يعيش متقاعدا ، وحاجباه الغاضبان تغطيهما أكاليل الغار . وكان قد بلغ من العمر ثمانين عاما . فاذا تبنى البطل غير اليهودي ـ الذي مدحه هيرتزل بقوله انه « اعظم بناة الامبراطوريات الاحياء ، حلمه ، فان المليونيرات والحاخامات سوف يتبعونه بالتأكيد » .

الجزء الخامس

كاتب المسرح المبشر

١٨٩٥ ـــ ١٨٩٩

انك لو فكرت في الامر ، لوجدتني في كـل ذلك لا زلت كاتبا دراميا • لقد اخترت فقراء يلبسون الاسمال من الشارع والبستهم ملابس فاخرة ، وجعلتهم يؤدون للعالم تمثيلية رائعة من تأليفي (١) •

الفصــل العشــرون

عندما لم يرد بسمارك على خطاب هيرتزل الذي أرسل اليه في ١٩ يونيو عام ١٨٩٥ ، لم يوقف استياءه فيض نشاطه أكثر مما يوقف العشب الضار المتجه الى الجلمود تيار الماء المتدفق نحو طاحون ٠ احلام اليقظة وأعشاب ضارة بالليل ٠ واذ هدأ جنون الصيف ، واذ تبلور التحول الى برنامج ، اعترف ان بسمارك كان عظيما وكان مغتاظا يقر بالمرارة ، والقيصر الشاب الذي نبـــذه يملك بين يديه المستقبل ٠ ولم تؤد الاتصــالات ببسمارك الى شيء * ٠ ولكن العجوز ، الذي كان سيموت بعد ٣ سنوات كان الاول في سلسلة من الاغيــار (غير اليهود) الذين اتصلوا بأمثال هيرتزل في المدن الشرقية المتناثرة التي زارها بول بين فترة تحوله واستشهاده ٠ وقد بنت استراتيجية ميزته عـــن الصهيونيين السالفين وضايقت بعض من خلفوه ** ٠

وبالنسبة لمن يؤرخ لحيــاة هيرتزل فهناك اغراء ابتــداء من عام ١٨٩٥ فصاعدا لادماجه في تاريخ الحركـة السياسية ٠ وهــذا من شأنــه ان يجــرد شخصيته من لونها المميز ٠ فسيرتدي زيا مثله مثل الاشخاص الذين يشبهونه في طريقة التفكير ٠

ومن السخف أيضا أن نضع هيرتزل في عزلة رومانتيكية ونفكر فيه على هذا النحو ٠ ان تحوله سيكون له أهمية ضئيلة اذا لم يكن قد سار بوحي الرجل

---

* اشار بسمارك فيما بعد الى رؤية هيرتزل قائلا بانها « خيال مريض (٢) » ٠

** انظر سيرة حاييم وايزمان للاطلاع على اعتراضاته ٠ ص ٤٥ من كتاب Trial and Error وكتاب Possim

الـــذي يسير في نومه الى مسرح مزدحم · فان التحـــول نفسه ربما كان لا يــدوم ·

ان التحول الى مذهب جديد عادة ما يخفي خيطا من الردة · ولم يكن لدى هيرتزل اي استثناء · ففيما بين ١٧ و١٩ يونيو عام ١٨٩٥ هجر هيرتزل كل شيء الا أن يقوم بعمل سياسي · فبعد أن أعلن « فريدريك شيفي » شكه في قواه العقلية كتب الى البارون دي هيرش قائلا ان اليهود ليسوا مستعدين بعد للصهيونية وانه تخلى عن الموضوع تمامـا · (٢)

وتمسك هيرتزل في نهاية الامر بتفسيره للفكرة الصهيونية لانه رغـم كل الاغراءات لـــه بالانسحاب ، الا انها أرضت نوازع عاطفيـــة وذهنية في نفسيته · وقوة هــذه النوازع جعلته يلتصق بهـــا أكثر من الحب لليهود · وبعثوره على ما يحقق ذاته في قضية وطنية كان هيرتزل يسير في ركـــاب تقاليد وطنيين اخرين في القرن التاسع على الاقل الزعماء الايطاليين لحركـة البعث · وكان اكتشاف للدور الجديد الذي اعتزم القيام به يعني رفضه الادوار السابقة غير المرضية له ، وقد اتسمت حياته السابقة بسلسلة من أخطاء في الاتجاه · لقد قرر ان يصبح مهندسا لانه أعجب بديليسيبس ، وانضم الى نادي مبارزة يميني لانه أعجب باخلاق الشباب الطيب البيئة · وقرأ القانون ومارسه لمدة عام واحد فقط ، ولقد أخذ وكسب الشهرة ككاتب للمقالات وكاتب مسرحي ورغم ذلك فان بداياته الزائفة عكست كلها شيئا من هيرتزل الحقيقي وسوف تسهم كلها بشيء في القائد الجديد · ان الحركة التي تزعمها بتركيزها على الانفصـــال عن أوروبا وعلى بناء الدولة تحل عـــدة مشكلات حيوية · وتثير مشكلات اخرى قد تزعج مثواه ·

ولقد أمضى هيرتزل سنواته التسع الاخيرة في حركة مستمرة حتـــى اصبح يبدو وكأنـــه صورة أخرى سريعة في عصر السكـــة الحديد للسندباد الاسطوري · وقد فرضت عليه أعماله التبشيرية التي لا تهدأ طريقة للحيـاة كانت قد حررت من قبل روحه الخلاقة · ووجد في حركة القطارات أو السفن في خط لويد ــ تريسينو القوة السريعـــة للخلق من جديد · وكانت الافكار تتدفق عليه وهو يسافر · وفي القطار من باريس الى فرانكفورت راوده موضوع رواية ، وألهمته الرحلة الى مصر بمقال لا ينسى · وأصبح موضوع عدم بقائه زوجا لجولي ، موضوعا لا يمكن التفكير فيه وذلك نظرا لدوره الجديد ، فعليهما معا أن يحافظا على تخيل المجتمع لهما بالانسجام غير أن دوره الجديد منحـــه الاعذار لكي يترك المنزل أكثر بكثير مما كانت العائلة تعيش معا في باريس ·

وكانت قدرتـه الملوكية على التحرك عندمـــا يريد ، سببا في ازاحة قدرا من التوتر الذي يسببه مشاركته جولي في منزل واحد ، أما هي فكان لها أصدقاء واقارب عديدين في فيينا يمكنها معهم أن تعرب عن ضيقها لاهتمامات تيودور السخيفة • وكـان من السهل في أول الامـــر ، في شقة كائنة في ١٦ شارع بليكانجاس في الحي التاسع ثم من ١٨٩٨ في منزل باحـدى الضواحي محاط بحريته ، خلق الايحاء بأن حياتهما الخاصة حياة طبيعية • غير ان جولي وقد خيب زوجها أملهـا ، عبرت عن عواطفها من خلال أطفالها فراحت تشرف على تعليمهم على ايدي المعلمين والمربيات • وقد أرضى الوضع الجديد حماتها ، وكان موقف هيرتزل كزعيم يهودي محسوسا أكثر في فيينا عن شهرته البعيدة في باريس • « لقد تخيلته « كملك لليهود » وتخيلت نفسه أمام الملك » • هكذا رأى أرثر شتيرن الطبيب النفسي الاسرائيلي في دراسة ممتعة عن عائلة هيرتزل وكيف تاثر موقفه من أبنائه بوضعه الجديد • وكانت جانيت حليفة ابنها في الاصرار على أن يتعلم الاولاد « مثل الامراء » ويقابلون من الاغراب أقل عـدد ممكن • وكان لدى هيرتزل شعور بالفزع من العدوى بالامراض واستخدم هذا كحجة لعزل بولين وهانز وترود عن الاطفال الاخرين • وقد سمع مراقب طفل يسأل اخر في مدرسة الحضانة : « هل ستذهب الى المدرسة عندما يصبح بابا ملكا ؟ » وكانت زيارة منزل هيرتزل تعتبر في الدوائر الصهيونية زيارة لبلاط الملك (٤) • وقد زادت هذه العادة من كره الاطفال لجدتهم ولرابطتهم بجولي •

وقد اطلق عن هيرتزل في الزواج مخزونـات مـن الطـاقة تفـوق مـا لدى البشر • فكان ما كتبه من كلمات في مذكراته ، وفي الصحافة اليوميـة ، وفي الخطابات (اكثر من خمسة الاف خطاب محفوظة في القدس) كانت منهكة له ولكنها كانت مذهلة • وبدون عار الطلاق وخسائره المالية فقد استعاد الحرية التي تذوقها في تروفيل ، أو البرانس قبل أن تجعله البرقية القاتلة ينتقل الى باريس وقبل أن يلبس « الكلوش » (غطاء المطاط فوق حذائه) •

ورغم ذلك فلم تعد هناك عملية الخلق الوحدانية للمقالات الاسبانية • كانت وحدة الزعيم المغمور بالضوء •• ان الاستحسان والتصفيق من الجماهير قد يسكر الرجل الذي فضل المسرح على الصحافة لميزته الجماهيرية • ويحتفظ في مذكراته بالمجاملات والمديح في حرص الممثل على دفتره الـذي يلصق به كل ما يكتب عنه ويلتقط له من صـور •

وثمة حالتان ، رغم ان واحدة فقط قد تكفي في هذا الصدد • فبعد عـام من تحوله ، في يونيو عام ١٨٩٦ زار بلغاريـــا مرتين ، المرة الاولى وهو في

طريقه الى القسطنطينية والثانية أثناء عودته منها ٠ وفي المرة الاولى : « لقد رحبوا بي بكلمات رائعة كقائد ، وكقلب اسرائيل (٥) ٠ » وفي المرة الثانيــة ، اثناء زيارة سياسية للمعبد اليهودي في صوفيا ، « وقفت على منبر المذبح * ٠ ولمَ آكن واثقا تماما كيف أواجه الجمع دون أن أدير ظهري لقدس القداس ، واذا بأحدهم يصيح « لا بأس عليك من أن تديــر ظهرك الى صندوق العهد ، فأنت أقدس من التوراة ٠ » وكان كثيرون يريدون تقبيل يــدي (٦) » ٠

وقد أعطى الدور الجديد الكاتب المسرحي الخائب الامل مخرجا لمواهبه ٠ « ان هيرتزل الذي فشــل في المسرح ، احــال السياسة الى مسرح ٠ واصبح المخرج ومدير المسرح واحتفظ لنفسه بالدور الرئيسي ٠ وكانت المسرحية هي الخلاص الصحيح لشعب ، وكانت القصــــة المسرحية هي رؤية رجــل واحد وتعميته ، التي قد تتغلب على كل الصعوبات ، والممثلون المساعدون هم حكام دول العالم وخلفية المسرحية هي القصة الكئيبة لمعاداة الساميــة والاضطهــاد العنصري في التاريخ الاوروبي (٧) » ٠

لو أعطيت الاولوية للعوامل العاطفية ــ وهي واضحة في الفقرة السابقة المقتبسة من محلل نفسي ــ فلانها تأتي أولا في كل من تطور الانسان وفي تطور رؤية هيرتزل نفسه ، حيث القفزات الجامحة تسبق الخطاب المنظم الى روتشيلد الذي بدوره يسبق كتابه بيان اكثر ترتيبــا وتنظيما ٠ غيــر أن عقل هيرتزل استملح الصهيونية كما استملحتها عواطفه ، فقد حلت مشكلات عقلانيــة له ايضا ٠ وهذه المشكلات تتعلق باليهودية ، في تطبيقها بالنسبــة لذاته وكلغز اجتماعي للعالم الحديــث ٠

ولم يكن هيرتزل ليتبنى الدين اليهودي من باب الاقتناع به ٠ فهو قد ولد لا اراديا ضمن الاقلية القديمة في أوروبا وخلال حياته وعمله تصارعــت صلة الحسب هذه بالاختبارات الارادية لعقله ٠ وبينما نفخ جده في البوق وأم صلاة « الكول نيدر » فان طقوس أبيه قد اصبحت أكثر فتورا كلما انتقلــت العائلة بعيدا عن جذورها عند الحدود ٠ فبين صباه في بودابست وعام ١٨٩٤ لم يحضر صلاة في المعبد اليهودي ٠ ومع ذلك فكل مرة يستحم كان يتذكر انه يهودي في لحمه ، وقد تمكن جده من أن يحضر حفل البار ميتزفاح الذي أقيم

---

* ليس ثمة مذبح في المعبد اليهودي ٠ ان هيرتزل يقتبس تعبيرا من تعبيرات الكنيسة ٠

له ، حتى لو كانت عبرية هيرتزل قليلة جدا وحتى لو كانت المهمة الرئيسية « لتثبيت عماده » هي حفلة بعد الظهر التي كانت تقام في بيت والديـه ٠

وكان واضحا ان التقاليد أصابها المزيد من الضعف في جيل أولاده ٠ فقد اتفق هيرتزل وجولي ، اللذان اختلفـا علـى الكثير ، على أن هانـز يجب ألا يختتن ٠ وآكل هيرتزل الاكل الذي لا تبيحه الشريعـة اليهودية والذي كانت جولي تطلبه لمطبخها ولم تصر على أنها يجب ان تلتزم بقوانين الطقوس اليهودية عندما يدعى الضيوف اليهود الى الطعـام فـي منزلهم ٠ وبذلك فقد واجهـت هيرتزل مشكلة أن يكون امام نفسه اوروبيا حر الفكر على ان يكون في نفس الوقت يهوديا أمام أوروبا ٠ ولم يقبل التعاليم التقليدية التي تقول ان اليهود هم أمـه من الحاخامات خصصت فقط لخـــرق التوراة ، وقد اثرت اسرائيل القديمة في رؤيته الخاصة بدولة لليهود تأثيرا كبيرا ٠ وبينت رؤيته اللامبالاة أو الجهل باليهودية وليس العداوة لها ٠ ويكتب هيرتزل في تصوره لوصول اليهود الى بلدهم الجديدة ، « ان الجميع سيرفعون الغطاء عن رؤوسهم ، دعونا نحيي العلم الجديد (٨) » ٠ وبهذا فانه احيانـا وبالصدف يبدي بعـده عـن التقاليد اليهودية التي تقضي بتغطية الرأس وليس بتعريتهـا في المناسبات الجليلة * ٠ وقد حلت مقولة ان اليهود شكلوا امة ولم يشكلوا جماعة دينية ـ وهي الفكرة الاجتماعية السائدة في العصر ـ مشكلة علاقته بالتقاليد اليهودية كما كانت قد حلت من قبل مشكلة « موزيس هيس » الذي نبذ الله وتزوج من عاهر المانية ٠ ان القانون الموسوي يمكن نبذه كما ينبذ الانجليزي المحاكمـــة بالتعذيب ٠ والنفخ في البوق يمكن ان يشكل ، مثل « رقصة مايو » جزءا من الفولكلور ٠ ويمكن الابقاء على تقليد الخفاش على أنه اجـراء صحي أو يمكن الاستغناء عنه ، كمـــا استغنى الانجليز عن صبغة الجسم الزرقاء المعروفـــة بالوسمـــة ٠

غير ان هيرتزل كان يتمتع بذهن مرب مثل مكتب أبيه ٠ وقد أزعج ذهنه

---

* الاورثوذكس المتزمتون يغطون رؤوسهم في جميع الاوقات ٠ واليهود الاخـرون يغطـون رؤوسهم عند دخول المعبد اليهودي ٠

كلمة استمرار بقاء اليهودي حتى القرن التاسع عشر وذلك منذ أيامه كطالب للقانون · فقد رأى تعقيد الوضع · وتبين قصته الجميتو الجديد ، وكذلك مذكراته انه شارك في الصورة المعادية المتكررة المألوفة لليهود في المجتمع الذي تردد عليه · ولكنه كان متفائلا وليس على غرار المنصريين · فكان يؤمن بامكانية التغيير · « وكان سيضع مكان يهودي الجميتو المتعلم المختصر انحساس ، اليهودي البطل القاسي المتكامل الصحة في أرضه » · وقد ظلت رؤيته للعالم مزدوجة ، عدسة تطل عى الجيتو الذي يتمنى أن يراه وقد هجر ، والعدسة الاخرى تطل على أوروبا التي كان يريد قيمها حتى بالنسبة لليهود · وقد ألح باستمرار عى الفائدة المزدوجة للصهيونية · « فستقام الصلوات في المعابد لنجاح المشروع وفي الكنيسة أيضا (١٠) » ·

وهناك ثلاث فجوات لها مغزاها في المذكرات التي عنونها « عن القضية اليهودية » عام ١٨٩٥ والتي تتيح لنا أن نتتبع تطور تحول هيرتزل الى فكرة الجديد الى أن تبلور نهائيا · فأول فجوة تغطي الشهر بين ٢١ اغسطس و ٢٠ سبتمبر · وهذه تجيء في أعقاب حادث هام الا وهو قراءته لخطابه الى آل روتشيلدز على الحاخام « موريتز جوديمان «Moritz Güdeman» (الذي نعرفه الان) والدكتور « هنريك ماير كوهين » رجل المصارف (البنوك) والمحب لاعمال الخير « والمحب لصهيون » ·

لقد وصل هيرتزل طبقا لموعد الى ميونيخ يوم السبت ١٧ أغسطس عام ١٨٩٥ حيث قابل جوديمان في قاعة الفندق · وانضما الى ماير كوهين · وشعر هيرتزل على الفور انه الرجل الخطأ : « يهودي صغير من برلين بمظهره، » ، اهتماماته تافهة (١١) · ثم ذهب هيرتزل بعدئذ الى المعبد اليهودي وحاول ان يجعل وقت وصوله نفس وقت انتهاء الصلاة · وترك هيرتزل للحاخام دفة الحديث وهو يتجول به حول المعبد الجميل · ثم انتقل الرجال الثلاثة بعد ذلك لتناول الغداء في حجرة خاصة في مطعم جوسبيرجر الذي يقدم الطعام اليهودي · وتحمس هيرتزل ، عندما انتابه السرور عندما اكتشف ان ماير كوهين يوافقه على فكرة صهيون ، وارتاح عندما لم يقل الحاخام شيئا بعد أن شرح هيرتزل وجهة نظره السبينوازية في الله وايمانه بأن هدف الانسانية هو أن تصبح كالله ، تعرف الخير والشر · وبعد الغداء بدأ هيرتزل قراءة « للخطاب » الذي استغرق بعد مقاطعة حدثت في الساعة الرابعة عندما كان لدى ماير كوهين موعد عمل ، حتى المساء ، وبعدها استؤنفت الجلسة في حجرة نوم هيرتزل ، وكان هو يجلس على الفراش والاخرين على المقعدين

الوحيدين في الحجرة • وبينما كان ماير كوهين يدقق في كل التفاصيل مثل عضو البرلمان كان الحاخام ـ وهو معروف بعدائه للصهيونية ـ يبدو وكأنه مأخوذ بافكار هيرتزل • وعندما غادرا المكان لتناول العشاء صاح جوديمان : « انك تذكرني بموسى ! »

ويقول هيرتزل انه رفض هذه الفكرة ضاحكا • « والان ، كما كان الامر من قبل فاني اعتبر كل شيء فكرة بسيطة ، تركيبة ماهرة معقولة ، لا شك أنها ستعمل بواسطة جماهير كبيرة •

غير ان جوديمان ، في لحظات حماسه الشديدة ، يعترف أن هيرتزل أقنعه كفنان وليس كرجل دين • وشعر بأنه مذهول مثل شخص كان يتوقع سماع أخبار طيبة فوجد بدلا منها جوادين جميلين كبيرين •

وعلى العشاء الذي كان أيضا في مطعم جوشير بيوجر ، اتفق الثلاثة على أن الخطاب يجب ألا يصل الى المقصود أن يوجه اليهم ، وهم « ال روتشيلد وهم قوم ادنياء ، وأنانيين كريهين » • وبدلا من ذلك يجب أن يعطي للناس في صورة رواية • وافترق الثلاثة في حالة معنوية مرتفعة (١٢) •

وقد احتوى الشهر الخاوي على « عدد كبير من الاشياء الصغيرة » سجلها هيرتزل جزئيا في نبذة طويلة في مذكراته بتاريخ ٢٠ سبتمبر • وكان جورمان احيانا يتحمس واحيانا يفتر حماسه بينما كانت صحيفته باردة كالثلج • ومن الناحية الايجابية علم أن رئيس حاخامات باريس زادوك كاهن كان صهيونيا بالغ التحمس مثل الكولونيل جولد سميث ، في انجلترا واسمه الكامل ـ « الكولونيل البيرت ادوارد ويليامسون جولد سميث ـ » الى درجة انه كان يريد تأجير السفن لغزو فلسطين (١٣) • وقد انتصر المعادون للسامية انتصارا كاسحا في انتخابات المجلس البلدي لمدينة فينا • « وفي المساء ذهبت الى منطقة لاندشتراس • وأمام مركز الاقتراع كان هناك جمهور صامت متوتر • وفجأة خرج الى الميدان الدكتور لويجر Dr. Lueger وتصاعدت هتافات حماسية : ولوحت النسوة بمناديل بيضاء من النوافذ • وساعد البوليس على حفظ النظام • وصاح رجل بجانبين بدفيء رقيق ولكن في صوت نفحته حادثة « هذا هو زعيمنا الفوهرر ! » وأقنعت تلك الكلمات هيرتزل اكثر من السباب والاستهزاء بأن العداء للسامية عميق الجذور في قلوب الناس •

والفجوة الثانية في المذكرات تقع في الفترة ما بين ٢١ سبتمبر و ١٥ اكتوبر • وهناك حادثان متعارضان جعلا من هذه الفترة فترة اغراء • فقد رفضت صحيفة «النيو فري بريس» التي كان يعتمد عليها في كسب عيشه رفضا قاطعا ان

تجعل من نفسها متحدثا بلسان الصهيونية ، وذلك فيما عدا موضوع قصير واحد نشرته ، ولم تشر الصحيفة شيئا عن هيرتزل كصهيوني حتى مات • وفي الوقت نفسه عرضت عليه الحكومة النمساوية عرضا مغريا ومذهلا • ففي سبتمبر من عام ١٨٩٥ اصبح لجاليسيا « وهي مقاطعة فيها اغلبية من البولنديين » ـ رئيسا للوزراء • وكانت مهمته محاولة جديدة لحل المشكلة الرئيسية لامبراطورية آل هابسبورج وهي التوفيق بين جنسياتها المختلفة • والمشكلة الان تركزت على التشيكيين • وقد تعرضت محاولات « باديني » لارضائهم لهجوم من جانب الوطنيين الالمان الذين انتقدوا بشدة أي محاولة نحو استخدام لغة الاقلية على أنها خيانة للامبراطورية الالمانية • وبين التواريخ الحاوية من مذكرات هيرتزل عرض الدكتور كوزميان Dr. Kozmian صديق رئيس الوزراء ويده اليمنى على هيرتزل رئاسة تحرير صحيفة يومية أقدم من « النيو فري بريس » ولكن حالها راكدة لمدة طويلة • ويسجل هيرتزل بالفصيل الاستقبال السار الذي لاقاه به رئيس وزراء الامبراطورية وكلامه الفاتر (كان الاثنان يتكلمان بالفرنسية) • وأكد هيرتزل انه يؤيد سياسات باديني عن ايمان بها وليس لانه عميل له ★ • وقد رد « على رغبتي التي أعربت عنها بأن يسمح لي بأن أزوره في أي وقت كسفير فقال بالفرنسية « لست اسمح فحسب بل اني أصر » « وتحدثنا أيضا عن الظروف التي سأقطع فيها صلاتي بالنيو فري بريس • وأوضحت من البداية اني أريد دائما أن أذكر اصدقائي القدامى واني لن أواصل جدلي المؤذي ضدهم الا اذا هوجمت أولا (١٥) » •

ورفض هيرتزل العرض ، ولكن ليس لانه شعر ان باديني في صراعه ضد القومية الالمانية ، قد يتفق مع لويجر • والحقيقة انه عندما أعرب باديني عن احتقاره للويجر أجاب هيرتزل بجسارة قائلا : « اعتقد انانتخاب لويجر كعمدة يجب أن يصبح شرعيا • واذا فشلت في ذلك في أول مرة فلن تستطيع أن تثبته مرة أخرى واذا لم تستطع أن تثبت الشرعية في المرة الثالثة فان الجنود ستمتطي صهوات جيادها (١٦) » •

وكان رفض هيرتزل تجريبيا وكان الرفض بهذه الطريقة كافيا لان يعاد العرض عيه مرة أخرى • وفي سبتمبر ١٨٩٦ شدد باديني من موقفه وحوله الى عداء مباشر للسياسات الليبرالية للنيو فري بريس ، وكان عندئذ يريد صحيفة تهاجمهم بوضوح • وقال هيرتزل ملخصا رأيه الاتي أن « الصحيفة » يجب ان تكون ليبرالية ومحافظة ومعادية للسامية ، وباختصار فان هذا ضرب من المحال •

وكانت المناقشات مع كوزمسيان وباديني ، أو كانت المؤامرة نظرا لموقف هيرتزل الخاص بمرتبـه في النيو دي بريس لغـزا لم يتضح • فمـاذا كانت دوافع باديني للاتصال بهيرتزل ؟ وماذا كانت دوافع هيرتزل عندما فكر على الاقل في هذا الاتصال ؟

لقد نظر باديني الى هيرتزل على أنه يهودي أكثر مما نظر اليه على أنـه صحفي • ولم يكن المراسلـون الصحفيون الاجانب نادرين في فيينا ولـم يكن هيرتزل ناجحا نجاحا مبرزا وهو محور الفيتون القصيرة الاجل في صحيفـة « الجماين فينر تسايتونج » • ولكنه كيهودي زعم ان اليهود كانوا خطرا على المجتمع الاوروبي ويجب أن يشجعوا على الهجرة (وهذا على الارجح كل ما فهمه باديني من آراء هيرتزل) يمكن ان يكون مفيدا بالنسبة لحكومة تريـد حلولا وسطى • فقد كان معظم يهود فينا من الليبراليين الاوفياء لليبراليتهم ، وكان بعضهـم اشتراكيين • وكانت جهود باديني تعتمد على جمـع أكثر قدر من التحالف ضد الالمان • وربما ساعده وجود هيرتزل ولويجر الى جانبه فـي التغلب عليهـم •

أما دوافع هيرتزل فكانت اكثر تعقيدا • وربما كانـت آراء « اليكس باين » صحيحة (١٨) عندما فكر في أن هيرتزل « انجذب الى باديني بسبـب سماته الشخصية وبسبب نظرته السياسية » • ولكن هيرتزل في ذلك الوقت كان ينجذب الى أي شخص في موضع السلطة لانه كان يريد أي وضع يمكنه أن يقنع يهوده الشكاكين • ويبين ما كتبه في مذكراته في ٦ نوفمبر عام ١٨٩٥ بعد ان رفض اول عرض قدمه له باديني ، الاتي : « يـوم مثبط للامال للغاية • جـاء الى مكتب شتيرن عضو المجلس الطائفي واخـرون • وجميعهم أناس يعتقدون أن الخلاص سيأتي بواسطة الحكومة ويتوجهون الى الوزراء في مذلة • ولذلك فكان من الممكن أن يؤمنوا بي لو أصبحت اليد اليمنى الصحفية لباديني • ولذلك فليس لي الان من نفوذ لديهم » • ورغم ذلك فان التواطؤ مع باديني كان من شأنه أن يقضي على هيرتزل كصهيوني ، وقد تشجع في نفس الليلة عندما أكد له البرفيسور ايزيدور سينجر وهو من كبار الاقتصاديين في مدرسة فينا انه أصاب عندما رفض • « فلو كنت قد قبلت اي منصب شبه رسمي لكنت قد ألحقت العار بنفسي وبالقضية (١٩) » •

وكانت الاعتراضات عقلية فقط • أما اخلاقيا وثقافيا فربما وجد هيرتزل انه من الممكن تحرير « صحيفة » لصالح الحكومة • وكان يمكن أن يساند باديني ضد القوميين الالمـان والليبراليين لو أن تلك الحكومـة النمساوية شجعت

القومية اليهودية كما كانت بالفعل تشجع القوميات التشيكية والبولندية . وعن طريق التحدث بالفرنسية فقد كان هو وباديني يلحان على موقفهما الغامض كيهودي ، وبولتدي يحكم آل هابسبورج . وحتى معاداة حلفاء باديني للسامية يمكن أن يوفق بينها وبين الصهيونية على أساس منهجي : كان لويجر يريد التخلص من اليهود بينما كان هيرتزل يريد نقل اليهود من أوروبا .

والفجوة الثالثة في مذكرات هيرتزل فيما عدا ٢٠ سطرا مقسمة بين أربع مرات قصيرة تستمر من ٢٩ نوفمبر حتى ١٨ يناير عام ١٨٩٦ . وقد كرست تلك الاسابيع لصياغة الافكار التي تزاحمت في ذهنه في بداية الصيف في كتيب صغير وهي الافكار التي وضعت في مسودتها الاولى في « خطاباته الى آل روتشيلد » . وكان هذا الكتيب هو بيانه السياسي الرئيسي . ولذلك فمن المهم وصف حادثين سبقاه على الفور . احدهما أثر في المناخ الذهني الذي مارس فيه الكتابة والحادث الثاني زوده بالتشجيع الذي كان الهامه في أشد الحاجة اليه .

الفصل الحادي والعشرون

نشرت صحيفة هيرتزل في طبعتها المسائية في ٢٤ اكتوبر عام ١٨٩٥ النص الكامل لخطاب جامعي ألقاه انطون مينجر Anton Menger استاذه السابق في جامعة فينا • وعنوان الخطاب « عن المهام الاجتماعية لعلم القانون »• مما يؤكد ان هيرتزل قرأ الخطاب بعنايـة •

وكما هو الحال مع الاحداث الجامعية فقد كانت للحفل بداية عاصفـة • فقد قام زعيما أوستريا ونوريكا وهما رابطتان كاثوليكيتان للطلبـة بمظاهرة احتجاج لانه كان معروفا عن مينجر انه معاد للدين بصفة عامة ومعاد للكاثوليكية بصفة خاصة • وقد تم تفريق المظاهرة التي كان المتظاهرون يرتدون فيهـا ملابسهم الكاملة ويحملون السيوف رغم انهم لا ينتمون الى أي من الجمعيات المتضاربة ــ بعد ضجـة •

ثم ألقى عميد الجامعـة المستقيل وهو الدكتـور لورنز مولنر الكلمة الافتتاحية • ولم تكن رسالته التي قال فيها ــ ان الجامعة لم تعد تستطيع أن تعصل نفسها عن مشكلات العصر ، وان الفكر يجب أن يخصب بالحياة ، رسالة تافهة في جامعة من جامعات العام ١٨٩٥ • ثم ألقى مينجر خطابه الذي حبك فيه أفكاره وكان ايضا مليئا بالمعلومات والاراء • ولما كان هو ووالدته من المحرومين من الكنيسة في ألمانيا فقد بدأ كلامه بالملاحظة المعروفة من قبل وهي ان كتاب مشروع دراسة القانون المدني للامبراطورية الالمانية (واسمه Outline of a Civil Law Book for the German Empire) لم يظهر أي اهتمام بحمايـة الضعيف وهذا الخطأ شاركت فيه النظم القانونية الاخرى التي كان اتجاهها العام هو حماية الامتيازات والملكية •

ثم حدد العميد الجديد بعد ئذ ثلاث مهام تواجه علم القانون وهي : تحديد

معنى القانون كما هو ، وهذا شيء يجعل القانون وكأنه عقيدة ، ثم استخراج مصادره ، وهذا شيء تاريخي ، ثم تطويع القانون للظروف المتغيرة وهذا من شأنه ان ينتج علما اجتماعيا للقانون ·

والاتجاه الاول سيطر على دول مثل انجلترا بقانون عام ، والنتيجة كانت غالبا طراز لا يحتمل من القوانين مرتبط بعلم قانون رائع · وأشار الى أن الالمان سيطر عليهم الاتجـــاه الثاني ، وهو الاتجاه التاريخي وكـــان هذا أيضا غير مناسب · « ان القانون ليس مثل الطريق الذي تسلكه الظروف السياسيـــة والثقافية ، شمول عام ينتمي الى الماضي ، بل على العكس فان القانون ينفع في الحاضر ، ومهمته الرئيسية تدخل في مجال النشاط العملي عن طريق تنظيم الوجود الانساني بطريقة عاقلة » ·

وقد أدت سيادة الاتجاه التاريخي الى التقليدية والى الاحترام الصـــارم للسلطة في الوقت أثرت فيه أمور مثل حق الانتخاب العام ، والخدمة العسكرية والثورة الصناعية والتعليم الاجبـــاي في التغيير الجذري للمجتمع · وهـــذه التطورات الحيوية نادرا ما وجدت أي اشارة أو ذكر لها في النظم القانونيـــة · وكشاهد على عدم الجدوى ذكر مينجر مرة أخرى الكتاب الذي أشار اليه من قبل وهو « Autline » ، لقـــد استغـــرق ١٤ عامـــا لشرحـــه ولكـــن لـــم يحقق شيئـــــا ·

ومضى مينجر الى القول ان القانونيين يجب أن يضعوا في اعتبارهم الدول الاخرى وقوانينها والتغيرات التي تحدث في مجتمعهم · وأهم هذه التغييرات تتعلق بالاحوال المتغيرة للسلطة في المجتمعات البورجوازية · « كل نظـــام قانوني هو نظام كبير من علاقات القوى » · ان الطبقات تجعـــل مـــن مصالحها الخاصة قانونـــا تدعي انه قـــانون موضوعي · واذا أخـــذت هـــذه العملية مـــن الاستمرار الى حد بعيد فان القانون يمكن أن يفقد أساسه ويصبح مصلحـــة ذاتية موضوعة في قالب معقول · وضرب مينجر مثالا بالطبقات العمالية الصاعدة قائلا : انهم لم يعودوا عبيدا ويجب تغيير القانـــــون بحيث يضع في الاعتبار الظروف الجديـــدة ·

لم يكن مينجر ماركسيا · وقال انه رغم الاهمية البالغة للتطور الاقتصادي الا انه من الخطأ النظر الى الظروف الاقتصادية على أنها المكون الوحيد للدولة والقانون والدين · فالسياسة مهمة مثل الاقتصاد : والمعركة يمكـــن ان تقرر مصير النظام الاقتصادي مثلها مثل طريقة جديدة للانتاج · وكمثال على مـــا يمكن للقانون أن يحققه أشار مينجر الى الطريقة الى أثار بها نقده للكتـــــاب

الـ « Outline » مشاعر الالمان بحيث انهم أدخلوا تحسينات على الطبعة الثانية منه · وكان للنمسا ميزة على جارتها الالمانية العظيمة فكانت لديها نظم قانونية أكثر مرونة · وفي النهاية دعا طلبته أن يقيموا ، كرواد للقرن العشرين مجتمعا ودولة تصلح الحياة فيهما بالنسبة لجميع طبقات الناس ·

وكانت لدعوة مينجر للتغيير الذي تحققه الدولة عن طريق عمليات القانون في الوقت المناسب أثارا هامة بالنسبة لهيرتزل في تلك الفترة من مستقبله ، وبهذه المحاضرة في ذهنه ، وبخطاب تقديم الى رئيس الحاخامين كاهن من الحاخام جوديمان في حقيبة يده ، سافر الى باريس ، الخطوة الاولى نحو لندن تلك المدينة الي تصورها في شهر يونيو مقرا للقيادة الصهيونية (١) · ومرة أخرى ساعدته الحركة في توضيح أفكاره · وفي القطار استبعد خليط التهديدات والدعوة الموجهة الى آل روتشيلد كعائلة كانت بمثابة السقالات « لخطابه » · واحتفظ بالاراء غير الشخصية التي كانت تروق لمينجر · وفي ١٦ نوفمبر قرأ تلك النسخة المشذبة على زادوك كاهن Zadoc Kahn الذي يبدو انه لم يقابله أثناء أيامه كمراسل في باريس · وقد جعلت الاعمال المكتبية من كاهن ، مثل كثير من الكنسيين رجلا يضع سياسته طبقا للظروف ، وكان رد فعله لآراء هيرتزل موازنة بين ايمان مزعوم بالصهيونية واعلان انه فرنسي محب لوطنه · « زادوك كاهن هو من سلالة اليهود الصغار » · كان ذلك استنتاج هيرتزل الذي أزعجه ·

ورغم ان فرنسا لم تكن تلعب في ذلك الوقت دورا هاما من مشروعات هيرتزل ، الا أن باريس اعطته شعاع أول هدى لافكاره · كان ماكس نورداو واحد من رجلين ، الى جانب ارثر شنيتزلر ، شعر نحوهما هيرتزل باغراء في التحدث عن « الجيتو الجديد » · غير انه في صيف عام ١٨٩٥ كان غائبا عن باريس · وقد أثبت الان انه الشخص الثاني الذي يفهم وجهة نظر هيرتزل · لكنه قبلها ايضا وان لم يكن على غرار موريتز بينيديكت في صحيفة « النيو فري بريس » ، والذي كان سباقا في القبول · وأصبح في الحال مستشار هيرتزل الحميم · ولما كان يعرف انجلترا معرفة جيدة فانه غدا في موقف يتيح له ان يزوده بالمعلومات قبل زيارته لانجلترا · (٣)

وكانت بريطانيا هي أقوى دولة في العالم في ذلك الوقت ، وكانت حقلا لنماء بذرة الصهيونية ، وذلك بوقت طويل قبل أن يتحقق فيها تحرر اليهود عام ١٨٩٠ · وكانت أشعار لورد بايرون « نغمات عبرية » « Hebrew Melodies »

وكتاب جورج اليوت « دانيل ديروندا » Daniel Deronda هي الزبد الادبي لصهيونية الاغيار الكامنة التي تتأرجح دوافعها بيـن الجنـون الكامـل والماكيافيليه · لقد راودت الاحلام رجال الكنيسة والنبلاء بأن عودة اليهود الى فلسطين سيعقبها تحولهم الى البروتستنتية والمجيء الثـاني للمسيـح · ورأى السياسيون ورجال الدولة الذين ينظرون الى الامور نظـرة رزينة المزايا التي ستعـود على بريطانيا من اقامة دولـــة يهودية في وسط الشـــرق الاوسط الاسلامي وبذلك تصبح الى الابد معتمدة على المساعدة الخارجية · وفي بداية عام ١٨٢٨ ، عندما كانت بريطانيا على خلاف شديد مع محمد علي باشا حاكم مصر ، عين لورد بالمرستون أول نائب قنصل بريطاني في القدس مع تعليمات بمراقبة عشرة الاف يهودي كانوا يعيشون في فلسطين · وبعد ذلك بعامين كتب بالمرستون الى السفير البريطاني في القسطنطينية يقول : « قد يكون من المهم للغاية بالنسبة للسلطان تشجيع اليهود على العودة الى فلسطين والاستيطان هناك ، لان الثروة التي سيجلبونها معهم ستزيد من مصادر الاراضي الخاضعة لسيادة السلطان ، واذا عاد الشعب اليهودي بموافقة السلطان وبدعوته وتحت حمايتـــه فسيكون ذلك مانعا لاي مخططات شريـــرة من جانب محمد علي أو خلفائه ··· (٤) ·

وبين اليهود البريطانيين ، كان تأييد الاتصال بفلسطين مختلفا وموزعا ، ويتراوح بين التأييد الابوي للاستعمار اليهودي الـذي ابـداه سيـر موزيس مونتفيوري Montefiore مما أدى الى تحمس نادي المكابيين · وكما يوحي اسم النادي فان المطالبين كانوا ينظرون خلفهم بنوع من الحنين الوطني الجارف الى اخر دولة يهودية شبه مستقلة في فلسطين · وكان احد اعضاء النـادي مؤلفا في الواحدة والثلاثين من عمره اسمه اسرائيل زانجويـل Zangwill

وكان مشهورا بروايـــة نشرهـــا مؤخرا اسمهـــا اطفـــال الجيتـــو ولكي يقابل رفيقه الانجليزي استقل هيرتزل عربة من محطة فيكتوريا · وشقت العربة طريقها عبر شوارع متكررة لا طابع لها من اتجاه شرقي غربي · وكان والد زانجويل بائعا فقيرا وصفه في فصل سابق ، وقد حقق ابنه نجاحـا اقتصاديا نسبيا · وكانت كيلبورن ، وهي ضاحية محترمة لاولئك الذين خدموا الحكم الفيكتوري ، كانت تتقدم الطريق نحو الحي القذر الذي أوحى لزانجويل بكتاباته · ولكن بالمقارنة بأي شارع عاش فيه هرتزل فقد كانت مكانا قذرا · « وصلت منحرف المزاج الى حد ما · المنزل قذر · وفي حجرة مكتبه المرصوصة

بالكتب يجلس زانجويل امام مائدة ضخمة للكتابة وظهره الى المدفأة • وكان اخوه يجلس قرب المدفأة ، يقرأ • والاثنان يعطيان المرء الانطباع بالجنوبيين المرتعدين من البرد الذين ألقي بهم على سواحل « اولتيماتولي » (٥) •

ووجد القوميان اليهوديان انه من الصعب التفاهم • وكان هيرتزل يعرف اللغة المجرية والالمانية والفرنسية ولكنه نادرا ما كان يتكلم المجرية • ولم يتكلم ابدا اليديشية • وعلى حد قوله انه لا يعرف من اللغة العبرية ما يمكنه ان يسأل عن تذكرة قطار (٦) • وكان زانجويل جاهلا بالمجرية والالمانية ولكنه كان يعرف بالاضافة الى اللغة الانجليزية اللغة اليديشية والروسية • وكتب هيرتزل يقول « ان فرنسية زانجويل كانت غير كافية » • لا اعرف حتى ما اذا كان يفهمني • وبالرغم من ذلك فكنا نتفق على نقاط هامة • فهو ايضا يؤيد استقلالنا » • ولكنهما اختلفا على اي حال حول من هو اليهودي • وكان زانجويل يعتقد ان اليهود جنس : وهي وجهة نظر كان على هيرتزل أن يرفضها « لو كنت انظر اليه ثم الى نفسي » * •ووصف مضيفه بأنه من النوع الزنجي ذي الانف الطويل وشعره أسود صوفي داكن ، مفروق من منتصف الرأس • » وقد ساعدت مناقشتهما هيرتزل على أن يحدد رأيه فيما يتعلق بمعنى القومية اليهودية• « ان كل ما اقوله هو : اننا وحدة تاريخية ، أمة ذات اصول جنسية متعددة • وهذا ايضا يكفي لقيام الدولة اليهودية • ليس هناك دولة شعبها من جنس واحد • » وكان رأي هيرتزل اكثر اصالة مما يبدو في ظاهره • ومن ذلك الوقت كان المعتقد عامة ان الامة •• كشيء مميز عن الجنس يجب ان تحوز أرضا مشتركة ولغة مشتركة • وكان هذا اللقاء في كيلبورن القذرة يمثل الافتقار الى الاثنين •

وفي وقت زيارة هيرتزل كان زانجويل اعزبا ، وقد تزوج فيما بعد من فتاة من الاغيار هي اديث ايرتون ، وهي كاتبة ابنة رجل مرموق من الجمعية الملكية Royal Society ، وكان زانجويل غير متزوج عندما تناول الغداء في أول الامر « في البلاط » مع عائلة هيرتزل في ضاحية فاهرنج في فينا Waehring ورغم ان تلك الزيارة تمت فيما بعد الا انها كانت متوقعة • وهي توضح السمات المتضاربة لشخصيتي تيودور وجولي هيرتزل • أما فشل هيرتزل

---

* ورغم ذلك فكان على هيرتزل ان يستمر في استخدام التعبير • فمثلا بالنسبة لليهودي الذي يعتنق الاسلام : « ان انظر اليك من كرجل عمل كرجل من جنس » وهو جنس اعتقد انه قادر على أي قدر من العمل •

في نقل انطباعه عن مظهر زانجويل او ان جولي لم توله انتباها · ويقول ليون كيلنر Kellner المضيف الثاني ان « مسز هيرتزل كان من الواضح انها مستاءة · فقد كانت على الارجح تتوقع رجلا طويلا قوي البنية ،أنيقا، مشذبا ، يرتدي ملابسه على احدث طراز انجليزي ، ذا سلوك اجتماعي مثالي · وبدلا من ذلك فقد جلس هناك على مائدة الوليمة التي أعدت بعناية بالغة رجل متوسط الحجم شكله يهودي قح وسلوكه بشع وملابسه مهملة وغير مناسبة (٨) » · وكانت عائلة هيرتزل واكثر منها عائلة بيشاور قد ازدادا ابتعادا عن التقاليد اليهودية أكثر من عائلة زانجويل · وبالرغم من ذلك ، وحتى ولو كان هيرتزل قد اخذ حرفيا نظرية زانجويل بأن الجنس هو الرابط بين اليهود ، الا انه كان هناك تجاهل واضح وملحوظ لهذا التقليد في منزل الزعيم اليهودي ·لانه « تكريما لضيفها فقد أعدت مسز هيرتزل «أكلة سلاطعين» لتكون اول طبق يقدم على المائدة · ولم يعرف زانجويل كيف يتعامل مع هذا الوحش الذي وضع امامه · وعندما شاهده ارتد مأخوذا الى الوراء · وأمسك بالسلطعون في محاولة بطولية وقربها من فمه · وصدرت صيحة من مسز هيرتزل ثم ابتسامة مؤدبة من المضيف ــ وحاولنا ان نبين للانجليزي المتعب كيف يأكل الوحش الموضوع على طبقه · ولكن دون جدوى » · وبالنسبة لليهودي التقليدي فان « السلاطعين » طعام محرم مثله مثل لحم الخنزير تماما · غير ان جولي لم تحتمل افتقار ضيفها الى التمدين وتركت الحجرة في احتجاج صامت بينما كانت الحلوى تقدم على المائدة · وبعد الطعام عندها ترك الرجال الثلاثة وحدهم · مدد زانجويل جسده تماما على اريكة · ورفع هيرتزل حاجبيه دهشة ولكن امتعاضه من السلوك المجرد من الكلفة لم يعمه عن رؤية مزايا زانجويل · وفي اليوم اللاحق عندما اشارت جولي الى تصرفات زانجويل الغريبة هب هيرتزل مدافعا عنه : « هذا رجل يهتم بروحه كثيرا وليس لديه ما تبقى للعناية بالمظاهر · » وكانت جولي ستكون اسعد لو انها قامت بدور المضيف لرجل لندن الهام التالي الذي اتصل بهيرتزل · ولكن سير صامويل مونتاجيو Montagu المالي وعضو الاحرار في البرلمان كان سيواجه السلاطعين دون غضب ولن يفعل مثل زانجويل في محاولته للتأقلم ·

وعندما تناول هيرتزل الغداء في منزل سير صامويل الانيق كان هناك ثلاثة خدم مبززين يقدمون الطعام اليهودي «الكوشير» · ووجد هيرتزل ان افراد عائلة صامويل الاخرين « فاترين نحوه أو ان تربيتهم حسنة فحسب » ·

وكان هذا حدس شديد لانه كان مصير الابن الثاني ادوين صامويل

مونتاجيو ان يصبح من أقوى المعادين للفكرة الصهيونية * ولكن بعد الغداء عندما وجد نفسه وحده مع سير صامويل ، « البطريرك الطيب القلب » ، اعترف بأنه نفسه يشعر بأنه اسرائيلي اكثر منه انجليزي . « قال انه سيقيم في باريس مع عائلته كلها . وكانت في ذهنه « فلسطين الكبرى » بدلا من فلسطين القديمة » (١٠) .

وفي اليوم التالي وكان ٢٥ نوفمبر ١٨٩٥ ، سافر هيرتزل الى مقاطعة ويلز لكي يقابل الكولونيل جولد سميث الذي سمع عنه في فينا . وكان جولد سميث متصلا باحدى كبار العائلات اليهود الانجليز . وقد نشأ جولد سميث كمسيحي فقام بتعميد ولديه الاثنين .وعندما كان شابا يافعا في الهند اكتشف هذا ، لقد ارتد الى دين اجداده بينما استمر في الخدمة كجندي للتاج .لقد هرب مع زوجته الحالية (ايضا يهودية معمدة) وبعد زواج مدني في سكوتلندا وعودتها الرسمية الى اليهودية تزوجا في معبد يهودي . « انا يهودي اورثوذوكسي » قالها جولد سميث لهيرتزل . ولم يعد على هذا باي ضرر نحو انجلترا (١١) وفي ذلك الوقت كان رئيسا لمقاطعة ويلز العسكرية . لقد عمل من قبل مع دي هيرش في أمريكا اللاتينية وأقنعته هذه التجربة ان فلسطين هي المكان الوحيد الذي يمكن التفكير فيه . « انه مثل مونتاجيو يفكر ايضا في فلسطين الكبرى . » وقد فتن هيرتزل بالامسية التي قضاها في « المز Elms » وهي منزل جولد سميث في « كارديف » . وقد دعى عازف البيانو النمساوي روزنتال ـ الذي كان يزور ويلز في ذلك الوقت ـ ليعزف بينما كانت ابنتا جولد سميث راشيل وكارميل ، « تستمعان الى العزف في اوضاع رشيقة » . حقا ، انه عالم اخر . واستطيع ان ارى اليهوديات الارستقراطيات في الحقبة القادمة ، مخلوقات رائعات عليهن مسحة شرقية ، رقيقات وحالمات وكقطعة من القطع البالية كانت هناك على مائدة حجرة الجلوس نسخة من نسخ التوراة في

---

* كتب ادوين عام ١٩١٧ قبل ان يصبح وزير دولة للهند ان الصهيونية كانت دائما تبدو لي متصبا سياسيا خاطئا ، لا يتمسك به اي انجليزي وطني في المملكة المتحدة ولو وقعت عينا يهودي انجليزي على جبل الزيتون ثم تاق لليوم الذي ينفض فيه تراب الارض البريطانية عن حذائه ليعود الى ممارسة الزراعة في فلسطين ، ليبدو لي دائما انه يريد اشياء لا تتعلق مع الجنسية الانجليزية ويصبح غير مناسب للمساهمة في الحياة العامة في بريطانيا ولا يستحق ان يعامل كانجليزي .

صندوق فضي (١٢) » ٠

كانت الصعوبة الاولى امام هيرتزل في هداية اليهود الانجليز افتقاره الى اللغة الانجليزية ٠ وقد ألقى كلمة في المكابيين في لندن جاء ثلثاها بالالمانية (ترجمت بواسطة الحاخام الصهيوني « سيميون سينجر ») وكان الباقي بالفرنسية ٠ ورغم ذلك فقد لاقت كلمته التصفيق وانتخب بالاجماع عضو شرف في جمعية المكابيين ٠ « ثم جاءت الاعتراضات التي رفعتها ، وأهم هذه الاعتراضات : الوطنية الانجليزية » ٠

ولكن رغم الصعوبة التي كان يواجهها في اللغة (اذ قرر ان يأخذ دروسا لتحسين لغته) ورغم فشله في اقامة مركز صهيوني ، فان النجاح في انجلترا جعله تواقا لان يعود الى منزله وينهي كتابه الصغير ٠

ولكن الميتروبوليس القذرة التي خلدها جوستاف دوريه Doré أضرت بصحته ورفعت من معنوياته ٠ وخلال مروره بباريس وجد نورداو (الطبيب والمؤلف) انه مصاب بنزلة أو التهاب في القناة التنفسية ٠

الفصل الثاني والعشرون

استغل هيرتزل الاسابيع التي اعقبت زيارته لانجلترا في توفمبر ١٨٩٠ لكي يتم كتيبه · وهناك غموض يحيط بحادث في حياة هيرتزل · وثمة لوحة نحاسية محفور عليها بالفرنسية والعبرية ومعلقة في كاستيـل مـن شارع كامبون في باريس والكتابة الفرنسية كالتالي :

Jei en 1895, Théodore HERZL Fondateur du Mouvement Sioniste écrivit «L'Etat JUIF» livre prophétique qui annonça la résurrection de l'État d'ISRAEL (1).

ومسالة ان هيرتزل هو مؤسس الحركة الصهيونية تحتاج الى جـدل كثير * ومن المؤكد انه لم يكتب كتاب الدولة اليهودية في الفندق الباريسي · وهذه مرة يكون فيها هيرتزل مسئولا عن خطأ حقيقي · ففي زيارة لباريس عام ١٨٩٩ كتب في مذكراته ما يلي : « من باب التقوى ما زلت أقيم في المكان القديم الذي كتبت فيه « الدولة اليهودية » الذي مرت عليه اربع سنوات الان · لقد بدات ذاكرته عن الماضي تتاثر برؤيته في الحاضر ، وحالته الصحية كانت سيئة ، فكان يعاني من خفقان في القلب ومن النبض غير المنتظم · وبعد ذلك بيومين ، اثر زيارة لمعرض السيارات ، صحح ما كتبه · « فجأة وجدت نفسي في الميدان محاطا بتماثيل اسطورية حيث في هذا الموسم بالضبط منـذ ٤

---

* تعبير «الصهيونية» استخدمه لاول مرة ناثان بيرنبوم قبل ذلك بسنوات ، وهو يعبر عن فكرة ــ العودة الى فلسطين ــ الذي نادت به حركة « هيبان زيون » (محبو صهيون) منذ تأسيسها في روسيا عام ١٨٨٢ ·

سنوات ، طرأت لي فكرة « الدولة اليهودية » اثناء سيري » · وفي كلتا المرتين من مذكراته استخدم هيرتزل العبارة الانجليزية (الدولة اليهودية) ، وكان هيرتزل حقا قد فكر في « فكرة » دولة لليهود بينما كان في الفندق في شارع كامبون في شهر يونيو عام ١٨٩٥ · ولكن الكتيب الذي تشير اليه اليافطة كتب في فيينا بعد ذلك الوقت بنصف عام ·

وأول ذكر بالاسم للكتيب في مذكرات هيرتزل جاء في ١٩ يناير عام ١٨٩٦ · « وقعت عقدا مع الناشر بريتنشتين « Breitenstein لقد تحمس عندما قرأت عليه فقرات قليلة من النص الذي أنهيته اخيرا بعد جهد طويل · وقد غيرت العنوان الى Der Judenstaat (بالالمانية) ·

وهذا العنوان الجديد لا يعني بالفرنسية L'État Juif كما ذكرت يافطة الفندق ولا The Jewish State (الدولة اليهودية) وهي الترجمة التي ذكرها ناشر المذكرات الامريكي بين اقواس · بل معناه « دولة اليهود · » لان الترجمة الالمانية « للدولة اليهودية » هي Der Jüdische Staat

والعنوان الالماني ـ Der Judenstaat يمثل فكرة هيرتزل الاصلية بالضبط : دولة يظل فيها اليهود اغلبية لها حكم ذاتي يستطيعون الحياة كما يشاءون،آمنين من المذابح·ومع ذلكفان الترجمات السيئة استخدمت في الترجمة الفرنسية والانجليزية للكتيب الذي موله هيرتزل ، وفي عام ١٨٩٩ كان هو نفسه يستخدم تعبير الدولة اليهودية في مذكراته · ولعل سببا من اسباب التغيير يرجع الى سهولة الكتابة · ومثل معظم الكتاب في ايامه ، كان هيرتزل يقرر التعبير الانيق الجميل النغمة ، ولكن السبب الاهم كان سياسيا · فسرعان ما اكتشف هيرتزل انه بينما استحسن الاغبياء او اليهود غير الملتزمين دينيا فكرة الدولة المجردة ، فان الصهيونيين المتدينين لم يوافقوا الا على دولة تحكمها التوراة · فالسير صامويل مونتاجيو مثلا اعترض عندما كتب اليه هيرتزل خطابا يوم السبت · وكان هناك في منزله درس اخر أشد قسوة · ففي ليلة عيد الميلاد عام ١٨٩٥ ، استراح هيرتزل قليلا من تصحيح كتيبه وراح يوقد الشموع في شجرة عيد ميلاد اطفاله ، وكانت بولين ذات الربيع الخامس تراقبه ، وهانز ذي السنوات الاربع وترود التي كانت في عامها الثاني وكلهم في سن يتيح لهم فهم السر المثير · وفي تلك اللحظة حدث ان جاء الحاخام مورينتز جوديمان لزيارة العائلة ، وكان من الواضح انه غضب بشدة لان هيرتزل يمارس طقوسا تتصل اتصالا وثيقا بميلاد المسيح · لقد جرح هيرتزل بشدة : فلم يكن يسمح لاحد بأن يضغط عليه كي ينفض يده عن عادة سنوية ·

« رغم اني لا يهمني اذا كانوا يسمونها شجرة هانوكه ، او الانقلاب الشمسي الصيفي أو الشتائي » ، لقد شعر غوديمان بتساؤلات وشكوك ازاء هيرتزل كيهودي منذ ان كتب اليه الصحفي المعروف من باريس · وقد احالت انوار عيد الميلاد هذه الشكوك الى أمور مؤكدة ·

وفي كتابته « الدولة اليهودية » فان هيرتزل كان متأثرا ليس بيهوديته بل برؤية يونيو كما عدلها نفوذ مينغر ، وقد حدث مؤخرا فقط ان الاعتبارات السياسية فرضت ترضية للامور الدينية · وفي نشر الكتيب شعر هيرتزل انه احرق مراكبه · وفي ١٤ فبراير عام ١٨٩٦ ، عشية نشر الكتيب ، كتب يقول : « ان هذه المجموعة من الكتيبات تشكل القرار في صورة ملموسة · ان حياتي قد تتجه الان اتجاها جديدا · » لقد أخفى الكتيب كثيرا مما كتب في « مذكراته » و « خطابه » ·

وتجيء مقدمة « الدولة اليهودية » باعلان جريء « ان الفكرة التي شرحتها في هذا الكتيب فكرة قديمة · انها اقامة دولة لليهود » ·

وثمة قوتان جعلتا من وجود دولة لليهود حاجة ملحة وليست فكرة مثالية وهما : معاناة اليهود والشعور العنيف بمعاداة السامية * · وفي ٢١ اغسطس في خطاب لجوديمان ، استخدم هيرتزل استعارة مذهلة · « هناك شيء اخر معروف وهو قوة البخار الذي يتولد عن الماء المغلي في غلاية الشاي ثم يرفع غطاء الغلاية · ان ظاهرة الغلاية هذه هي تجارب صهيون ومائه جهد منظم اخر لمقاومة « المعاداة للسامية » · ولكنني اقول ان هذه القوة كافية لكي تدير آلة كبيرة وتنقل بني البشر » · وهذه الاستعارة تستخدم مرة اخرى كلمة بكلمة ·

وهذا التصوير ـ الذي يوضح هذه النقاط ـ تتبعه مقدمة · وفجأة يغير هيرتزل الطريق وربما يتذكر شكوك نورداو ، حول قدرة اليهود كجنس على تكوين دولة ، والتخلص من الحجة القائلة انهم يعتمدون على الدول المضيفة ، ومهمتهم الملتزمين بها هي ان يكونوا طفيليين ·

وهنا تظهر عبقرية هيرتزل ، والفته بالمجادلات الاقتصادية لمدرسة فيينا

* علم هيرتزل بالطبع عن كتاب (Frieland) الذي كتبه تيودور هيرتزكا ، وهو عبارة عن يوتوبيا (جمهورية مثالية) تقام في افريقيا · وكان اقتصاديا ويهوديا ، وكان هيرتزكا يحرر صحيفة فينر الجماين زيتونج في الوقت الذي نشرت فيه اول «فييتونه» لهيرتزل ·

في احسنها • فيقول ان المهمة الملتزم بها اليهود هـي العامل الاساسـي وراء التقدم المصاحب للقرن التاسع عشر ، وتحـول اقتصاديـات الزراعيين الـى مجتمعات غنية معقدة • والآلات هي العبيد الجدد الذين يجعلون في الامكـان زيادة الانتاجية بصورة كبيرة • « اني اتعامل مع هذه الحركة [المعاداة للسامية] كيهودي ، ولكن دون خوف أو كراهية • واعتقد اني استطيع ان أرى فيهـا عناصر التأييد القاسي ، والمنافسة التجارية العامة ، والتحيز الموروث ، أو عدم التسامح الديني ، وايضا الحاجة المفترضة للدفاع عن النفس (١٠) » • ان المعاداة للسامية قوة ذات جذور عميقة ، جعلت من اليهود شعبا واحدا ، لا يستطيع التأقلم مع الشعوب • ان الامل في تفتتهم عن طريق تزاوجهم مـن اجناس اخرى يتطلب وقتا طويلا ، لقد بدأت العملية حقا في الطبقات العليا فقط •

ثم يعترف هيرتزل بعد ذلك بأنه باعلانه « اننا شعب واحد » فربمـا يريح المعادين للسامية ويقلق اولئك اليهود على الاخص في فرنسا ، الذين اختاروا ان يستوعبوا • ويرد هيرتزل ان الهجرة الكبرى لليهود المخلصيـن ستسهل الامور بالنسبة لاولئك الذين يريدون البقاء حيث هم • ويقـول ان الاحسان اليهودي هو محاولة صامتة لمنع هجرة اليهود من الشرق وافسـاد موقف المستوطنين لمدد طويلة (١١) • والمشروعات السابقة لتوطين اليهود ــ كان يفكر في جهود دي هيرش في امريكا الجنوبيـة وآل روتشيلـد ، فـي فلسطين ــ لم تحل المشكلة •

بل أعادت زرع المعاداة للسامية في مناطق جديدة • وهنا يضع جملتـه المثالية الجريئة : « ما هو غير عملي او مستحيل على نطاق ضيق ليس مـن الضروري ان يكون كذلك على نطاق اوسع ، ان المشروع الصغير يمكن ان يسفر عن خسارة في ظل الظروف نفسها التي تجعل مشروعا اكبر يكسب • ان النهر الصغير لا يمكن الملاحة فيه يحمل سفنا حديدية ضخمة (١٢) » •

وقبل ان تبحر مثل تلك السفن الضخمة ، يتناول هيرتزل بعض الامور التي يساء فهمها • انه لا يتوقع عودة الى الصحراء بل على العكس ، انتقال حضارة حديثة باكملها • وبينما سيكون هذا مشجعا لا مثيل له لليهود ، فانه سيشجع ايضا الهجرة الداخلية للمسيحيين الى وظائف كان اليهود يرفضونها • وهناك ثلاثة أدوات ستكون مسئولة عن ضمان الا تكون الهجرة الجماعية مغامرة عشوائية جزئية ، بل عملية منظمة على احدث اسلوب عصري وهي : « مجتمع اليهود » ، الجماعات الاقليمية والشركة اليهودية (١٣) •

والفصل التالي من « دولة اليهود » لا يظهر فيه هيرتزل في احسن حالاته · فالانتقال مفاجىء ويعود الى بيان معبر ولكن غير عاطفي عن مأزق اليهود · اينما عاش اليهود بأية اعداد فان تدهور موقفهم مؤكد ، وهذا يثير السؤال العاجل : الا يجب ان نرحل ؟ ولكن اذا الامر كذلك ، فالى أين ؟ لا فائدة اطلاقا من الانتظار لتحسن موقف اليهود · ان قوى العالم ترغم اليهود على الدخول الى اسواق المال كما ارغمهم العالم في العصور الوسطى على اقراض المال ·

ولن تنقذهم الا خطة عظمى · ومما لا جدوى فيه ان نأمل تحويلهم الى مزارعين أو فلاحين · وعندما قام موزس هس Hess بمحاولة مثل هذه فان وجود المزارعين اليهود قد أثار ببساطة كراهية جيرانهم·وكان الامر لا معنى له تماما مثل ان نطلب منهم أن يذهبوا الى الحرب مسلحين بسهام وليس بمدافع ·

وبدلا من ان يعيد النظر في الجذور العاطفية لمعاداة السامية فان هيرتزل فضل ان يحلل العوامل السياسية والاقتصادية التي جعلت من هذه الحركة امرا لا مفر من وجوده · ان التحرر هو السبب الرئيسي للمعاداة الحديثة للسامية · فقد اصبح اليهود داخل الجيتو شعبا بورجوازيا ، وبالسماح لهم بالخروج ، فقد شكلوا منافسا رهيبا للطبقة المتوسطة من ابناء البلاد · ورغم ذلك،وبسبب القوانين التحررية التي اصدرتها معظم الدول الاوروبية فان المواطنين لم يستطيعوا حماية انفسهم عن طريق الغاء حقوق اليهود أو اهدارها · ولهذا فان السبب البعيد لمعاداة السامية هو ضياع قدرة اليهود على الانخراط بين المجتمع اثناء العصور المتوسطة : « ان سببها المباشر هو انتاجنا الفائض لاذهان ضئيلة لم تستطع ان تجد مخرجا في اي اتجاه ، صاعدا أو هابطا ، مخرجا مأمونا في اي اتجاه · اننا عندما نغرق ، نصبح بروليتاريا ثورية ، نصبح المرؤوسين في الحزب الثوري ، وعندما ننهض ، تنهض معنا ايضا قوة قدراتنا المالية الفظيعة ·

والنتيجة هي الكراهية بين الظالم والمظلوم · ومرة أخرى تصبح لعملية الاندماج في المجتمع قوة الندبة القديمة في الازعاج المستمر · ويرفضها هيرتزل لسببين ، احدهما يحمل بين طياته اقناعا أقل من الاخر : يبدو انه دفاعي · « لا أود للحظة ان انوه الى أني اريد مثل هذه النهاية [الاندماج في المجتمع] · ان شخصيتنا القومية لها مجدها التاريخي الباهر ، ورغم كل التحقير فانها من النبل بحيث لا تسمح لنفسها بأن يكون زوالها مرغوبا · ورغم اننا ربما « نستطيع » ان ننجح في ان نختفي دون اثر في الشعوب المحيطة بنا

اذا سمحوا لنا بذلك في جيلين (١٥) » • غير ان الاعتراض القوي هو ان الاغيار يرفضون ذلك ، نتيجة لذلك يكرر هيرتزل قائلا : « فنحن شعب واحد » •

كل هذا جاء كمقدمة « للمشروع » •

« فلتمنح لنا السيادة على جزء من الارض يكفي لتلبية مطالبنا الوطنية الشرعية ، وسنتولى نحن الباقي » • ولم يقدم هيرتزل هنا أو في مكان اخر في الكتيب مناقشة عن المواطنين ، وهنا تختفي الصراحة التي ابداها في المذكرات• وتعرض المشكلة ببساطة كفكرة تجريدية • « ان اقامة دولة جديدة ليس امرا باعثا على السخرية ولا أمرا مستحيلا • ألم نشهد العملية في ايامنا ، بين امم لم تكن طبقة متوسطة عريضة مثلنا ، بل شعوبا افقر وأقل تعليما وبالتالي أضعف منا (١٧) • والافتراضات في هذه الفقرة مهمة • كانت في ذهن هيرتزل دول جديدة مثل المانيا وايطاليا • وفيهما شكل الالمان والايطاليون الاغلبية الساحقة التي عاشت على اراض قومية امتلكتها منذ ازمان طويلة • ويتخطى هيرتزل مشكلة ان اليهود لم يشكلوا مثل تلك الاغلبيات في اراضيهم• والافتراض القائل ان اليهود كان معظمهم من الطبقة المتوسطة يغشى جهله بوضع معظم اليهود الاوروبيين على الاقل حتى تلك اللحظة •

« وسنتولى نحن الباقي » : وذلك عن طريق « مجتمع اليهود الذي سيضع مشروعا علميا وطرقا سياسية وعن طريق الشركة اليهودية ، التي ستنفذ كل ذلك • وسيكون للشركة اليهودية مهمتان كبيرتان وهما : تصفية ثروات اليهود في الدول التي سيتركونها وتنظيم التجارة في البلد الجديدة • ومرة اخرى يتركز التأكيد على العصرية • ويرفض هيرتزل الصهيونيين الاوائل على انهم دعاة تكوين نسيج شعبي ، ويشرح وجهة نظره بمقارنة مذهلة فيقول : لنفرض مثلا اننا اضطررنا الى تطهير بلد من الحيوانات المتوحشة ، فلا يجب ان نعمل ذلك بالطريقة التي اتبعها الاوروبيون في القرن الخامس عشر • فلا ينبغي ان نحمل الحربة والرمح ونخرج فرادى بحثا عن الدُببة ، بل يجب ان نشكل جماعة صيد ضخمة عظيمة ، ونحصر الحيوانات كلها معا ثم نلقي في وسطها قنبلة الملنيت (١٨) » •

ان صورة الحيوانات المتوحشة تثير في الذهن صورة الغابة • غير ان هيرتزل لم يكن ملتزما بأرض محددة ، كما كان منذ ستة أشهر سبقت • « هناك منطقتان تقفزان الى الذهن : فلسطين والارجنتين • وقد اجريت تجارب هامة للاستعمار الاستيطاني في الدولتين ، ولكن على الاساس الخاطيء وهو

التسلل التدريجي لليهود • ومن المحتم ان ينتهي التسلل الى مصير سيء • لانه لا بد ان تأتي اللحظة الحتمية عندما تضع الحكومة المفيدة حدا للمزيد من تدفق اليهود بعد ان تتعرض للضغط من منصب البلد الذي يشعر بنفسه مهددا • اي من المنطقتين يمكن ان تفضل على الاخرى ؟ ان الجمعية سوف تأخذ ما يعطى لها وأي شيء يحبذه الرأي العام اليهودي ••• ان الارجنتين واحدة من اكثر البلاد خصوبة في العالم وأراضيها شاسعة وقليلة السكان ومناخها معتدل * » •

ومن ناحية اخرى فان « فلسطين » هي وطننا التاريخي الذي لا ينسى • ومجرد اسمها سيكون عاملا مهما فعالا شديد الفعالية • ولو اعطانا صاحب الجلالة السلطان فلسطين فاننا بدورنا نتعهد بتدبير مالية تركيا تدبيرا كاملا • وسنشكل عندئذ جزءا من حائط دفاعي لاوروبا وآسيا مركز المدنية ضد البربرية • ويمكن ان توضع الاماكن المسيحية المقدسة تحت نوع من السيادة الدولية خارج الحدود » •

وينتهي الكتيب بتأكيد نهائي وهو ان المشروع عملي ومعقول • ومن دواعي السخرية ان ثمة عاملين متعارضين سيساعدان على انجازه وهما : ما يعرفه الاغنياء من ان النقود ممكن ان تفعل اي شيء في مجتمع صناعي يدور ضد حماس الفقراء ، الجهلة بقوة العلم • وهنا يتيح هيرتزل لنفسه ان يقول نبوءة :

« بمجرد ان تبدأ في تنفيذ المشروع ، فان المعاداة للسامية ستتوقف فورا وفي كل مكان (٢٠) » •

كان هيرتزل يحتاج في نشر «الدولة اليهودية» الى ناشر يهودي • وأول من اتصل به في هذا الصدد هو سيجموند كرونباخ من برلين — Cronbach وقد رفض لانه لم تعجبه النظرية • (وأشار هيرتزل الى ان كرونباخ نشر على سبيل الانتقام يوميات حلاق) وكان الثاني الذي اتصل به هيرتزل هو ماكس بريتنشتين في فيينا Breiten Stein وقد تعاقد معه في ١٩ يناير عام ١٨٩٦ على نشر طبعة من ثلاثة آلاف نسخة • وكانت البروفات النهائية جاهزة في نهاية الشهر • وخلال الاسبوعين اللذين سبقا

---

* تقول الطبعة الثالثة عشرة من الموسوعة البريطانية « ان تعداد سكان الارجنتين عام ١٨٩٠ كان ٣٫٩٥٤٫٩١١ نسمة ومساحتها ١٫٠٨٣٫٥٩٦ ميل مربع •

النشر قرأ هيرتزل كتاب بينسكر المسمى «التحرر الذاتي» Auto-Emancipation وهو الكتاب الذي حوى الكثير من افكاره هو ٠ « من المؤسف اني لم أقرأ هذا الكتاب قبل ان يطبع كتيبي ٠ ومن ناحية اخرى ، من الخير اني لم اعرف به ـ فلربما كنت قد تخليت عن كتيبي (٢١) » ٠ وفي عيد « سانت فالانتيـن » وصلت الى رقم ١٦ شارع بليكان لفافة ضخمـة تحـوي الـ ٥٠٠ نسخـة الخاصة بالمؤلف ، وفي صبيحـة اليوم التالي عـرض « الدولة اليهودية » Der Judenstaat في نافذة عرض بريتنشتاين في ٥ شارع فاهرينج ٠ وقد اصبح هيرتزل الان قلقا ينتظر رد فعل الجماهير ٠ وترددت الشائعات عمن سيقوم بعرض الكتيب وفي أي روح ٠ ولكن حتى ٢٣ فبراير لم يظهر اي عرض ويومها ابلغه جماعة من الصحفيين ان الكتيب هو حديث فيينا ٠ وكان هيرمان باهر Bahr واحدا من الجماعة وهو الذي كان منذ مدة طويلة قد ألقى خطابا دفع هيرتزل الى الاستقالة من البيا Albia ٠ والان اصبح «باهر» كاتبا ملتحيا وناجحا بعض النجاح وقال لهيرتزل ان عليه ان يـلاحظ انـه سيهاجمه ـ ان الناس لا يمكن ان يعيشوا من غير اليهود ـ وابتسم هيرتزل لدعابته ولكنه كان يفكر فقط في عروض الكتيب ٠

وكانت اول ملاحظة صحفية رآها ، مقال افتتاحي نشر في ٢٦ فبراير في صحيفة فستاونغاريشر غرنزبوتي Westungarischer Grenzbote وكان الكاتب ايفان سيموني Simonyi (١٨٣٤ ـ ١٩٠٤) ٠ وهو عضو في البرلمان المجري أسس الصحيفة التي تنشر باللغة الالمانية ليحارب كـل مـن الالمـان واليهود ٠ وتكلم عن الدكتور هيرتزل في لهجة بطولية وأظهر المزيد من المقالات الافتتاحية ان تلك ليست سوى نزوة عابرة ٠ وفي ٣٠ مارس قام المجري المعادي للسامية بزيارة هيرتزل بنفسه ، « رجل زئبقي ثرثار يحمل قدرا مذهلا من العطف على اليهود ٠ وكان كلامه خليطا من المعقول والتافه ، وكان يؤمن بجريمة قتل الطقوس الكاذبة ، ولكنه الى جانب هذا فله افكار بالغة الذكـاء وعصرية للغاية ٠ انه يحبني (٢٢) » ٠

وقد عزز هذا التأييد الحماسي المستمر من سيموني ـ الرجـل المعادي للسامية الذي ما زال يؤمن بأن اليهود استخدموا الدم المسيحي فـي عيـد الفصح ـ ثقة هيرتزل بأن افكاره ستروق لكل من اليهود واعدائهم ايضا ٠ وكان ذلك ايضا بمثابة عزاء له في وقت كانت ردود الفعل الاخرى لكتيبه غير مشجعة ٠

فبينما اتهمه كاتب يهودي بأنه يكتب « نشرة تمهيدية لاقامة سويسرا

يهودية » ، وصف كاتب اخر الصهيونية بانها « جنون وليد اليأس (٢٣) » ٠
وقال ناتان بيرنبوم Birnbaum الذي اخترع هذا التعبير ان اعتنـاق هيرتزل للصهيونية يرجع الى رغبته في الكسب الشخصي ٠ (« حسود ، متجمد فكريا ، تافه » ٠كان هذا رد هيرتزل) ٠وكان أسوأ كل شيء الانباء التي نقلت اليه عن طريق ناشره مباشرة قبل زيارة « سيموني » ، وهي ان الحاخام جوديمان رفض القاء محاضرة عن « الدولة اليهودية » ٠ ويقول « ان وجهـة نظـري ، سياسية ، بينما وجهة نظره هو دينية ٠ ومن وجهة نظره هو فـلا بـد الا ان يوافق على محاولاتي في استباق العناية الالهية (٢٥) » ٠ ولم تكن العداوة اليهودية لكتيبه عداوة حافلة ٠ لقد اعتزم ان يكون زعيما « لليهود » وليس نبيا لهم أو شهيدا ٠ ورغم هذا فهو لا يستطيع زعامة اليهود اذا رفضه اليهود ٠
وعلى الفور بعد تأييد « سيموني » المشجع له ، اكتسب هيرتزل بدلا من جوديمان الشكاك ، مريدين جديدين احدهما كان قلقا متعجلا لكي يرى العناية الالهية تسرع بالامور ، والثاني متآمر كان التردد والحيرة بعيدين بعد موطنه عنه ، وكلاهما من الاغيار ٠

الفصل الثالث والعشرون

العصر العابس

ان عبوس العصر رسميا غالبا ما تعادله ابتسامة سرية مجنونة .

عندما يعيش الزمن عبوسا رسميا فغالبا ما تكون هناك ابتسامة سرية مجنونة حتى تتزن الامور .

لقد زج عصر التنوير بالرهبان في كهوف قوطية ، وزخرت كتب السحر والنبوءة الهرمية بقباء عصر البخار . ولم يكن هيرتزل ، العقلاني ، له اي اتصال بهذا الجانب من جوانب عصره الى ان حلت في صبيحة يوم من ايام شهر مارس عام ١٨٩٦ جاءه هذا الجانب في صورة قس ملتح . وكان أول رد فعل له هو ان ينزع الى الشك .

كان القس المبجل ويليام هيشلر Hechler المولود في الهند من أب الماني وأم بريطانية ، في يوم ما معلما لابن الدوق فريدريك دوق بادن الكبير وهو عم القيصر . وكان يعمل وقت مقابلته لهيرتزل قسا ملحقا بالسفارة البريطانية في فيينا . وكان طموحه طوال حياته ان يصبح اسقف القدس البروتستانتي . ولم يكد يقرأ « الدولة اليهودية » حتى هرع الى سفيره قائلا : « ان الحركة التي قدرها الله من قبل قد جاءت (١) » وقد ظل هيشلر لعدة سنوات يكرس ساعات فراغه (كان يستقيظ يوميا في الساعة الخامسة) لدراسة النبوءة الانجيلية وعلاقتها بالعصر الحالي . وكان النص المرشد له هو آية في سفر الرؤيا : « المدينة المقدسة سوف يطأها الوثنيون تحت اقدامهم اثنين واربعين شهرا (٢) . وقرر هيشلر أشبه بالكثيرين مثله ان يقرأ المشهد على انه « ثلاثين عاما » . غير اننا لو أرجعنا تاريخ النبوءة الى تاريخ سقوط أورشليم في ايدي الرومان في سنة ٧٠ بعد موت المسيح كان يجب ان تتحرر اورشليم اذن في سنة ١٣٣٠ ميلادية . وما دامت هذه الطريقة في الحساب لم تنجح ، فان هيشلر اعتبر نقطة البداية سنة ٦٣٧ ميلادية ، وهي

السنة التي انتزع فيها عمر بن الخطاب ، حمو الرسول محمد وخليفته الثاني القدس من اسقفها البيزنطي • وقد نجح هذا الحساب ، حتى لو كان العرب بتوحيدهم الالهي ، يستحقون بصعوبة ان يوصفوا « بالوثنيين » • وهذا يعني ان اليهود سيعودون الى « فلسطين » ويقبلون اليسوع عيسى بن مريم « كمسيحهم » في عام ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨ (٣) • وكان موقف هيشلر من يهود ايامه موقف الجمع بين النقيضين مثل هيرتزل ، رغم أنه كتب من وجهة نظر اخرى يقول « ان اليهود بدأوا ينظرون قدما الى المستقبل المجيد لامتهم ويؤمنون به وذلك عندما يصبحون بركة على الجميع من جديد بدلا من ان يكونوا لعنة عليهم » • ان الصهيونيين بلا وعي منهم ينفذون لما جاء في الكتاب المقدس فيما يتعلق بالاحداث التي يحدثنا الانبياء انها ستؤدي الى عودة المسيح الثانية ، وهم يفعلون ذلك بلا وعي منهم مثل آبائهم الذين حققوا نبوءة الله ، عندما جاء المسيح أول مرة وعاش في القدس (٤) » •

ودهش هيرتزل ، الذي شكل ذهنه بواسطة « لا ادريين » مثل مينجر ، عندما علم ان حركته حركة « انجيلية » • وأحس بأن هيشلر به شيء ما لدى المشعوذين • وراح يستشير مدرسه الانجليزي ، لانه كان مستمرا في اصراره على تحسين لغته الانجليزية • وعلق مدرسه على الفور قائلا ان هيشلر هو هويشلر Heuchler وهي كلمة المانية معناها المنافق أو المخادع • ورغم ذلك فقد كان هيرتزل يشعر بأنه حقق اتصالا ما عندما يدعم أي مؤمن ايمانه هو • وبعد ذلك بأيام قلائل رد زيارة هيشلر • كان القس يعيش في احد الميادين الفاخرة التي تشكل مع متحف الفنون الجميلة الميدان الاخضر المربع والمعروف باسم شيلر بلاتز Schiller Platz وبينما كان يصعد ببطء أربع درجات من السلالم اخترق اسماعه صوت الارغن • كان السلم يؤدي الى غرفة بنيرها ضوء الشمس مصففة من الارض الى السقف بالاناجيل • وما كاد هيرتزل يلقي نظرة على تلك الكنوز حتى قدم اليه مضيفه خريطة عسكرية لفلسطين على السجادة • ثم أشار باصبع نبوية الى الكنيسة المقدسة وقال انها طبقا لحساباته ستكون مكانا « للمعبد الجديد » •

وقطع نشوة النبوءة سيدتان انجليزيتان جاءتا لمشاهدة مجموعة الاناجيل الخاصة بالقس • وعندما اصبح الرجلان وحدهما من جديد راح هيشلر الذي كان في الستينات من عمره يغني لهيرتزل اغنية صهيونية من تأليفه • وصاحب غناءه بالعزف على الارغن • وكان هيرتزل على استعداد لان يقبل هيشلر بقيمته الفعلية او على ما هو عليه لو كان مفيدا له • ولما انتهى الغناء ، أسر اليه انه

يريد : اتصالات على مستوى السفراء ، ومع بعض رجالات الدول او الحكام • يمكن ان تؤدي مساندتهم لهيرتزل أو ارتباطهم به الى اقناع اليهود • والشخص المثالي في هذا الصدد هو الامبراطور الالماني •

وعلى الفور أثار القس موضوع النقود • هل سيدفع هيرتزل نفقاته لزيارة برلين ؟ واذا وافق فانه سيثير الموضوع مع قساوسة البلاط واثنان من امراء العائلة المالكة • ورغم انه لم يكن يستطيع الا بصعوبة توفير المائة جيلدر اللازمة ورغم ان جولي ستقض مضجعه اذا عرفت الا ان هيرتزل وافق • ولكنه مثل أي فييني (من فيينا)سافر فقد خشي ان يبدو هيشلر للامراء كرجل شاذ اخذ بدعة اليهود • ولذلك فقد أوصى هيشلر ان يؤكد بأنه لم يأت بناء على وصية هيرتزل • وبذلك فاذا كان كل ما يريده الرجل العجوز هو رحلة مجانية الى برلين فان هيرتزل سيدفع تكاليفها وسيكون مندهشا لذلك • غير ان ايمان هيشلر بجدوله الزمني النبوئي كان مثيرا الى حد غريب • وربت القس على جيب سترته الذي سيحمل فيه الخريطة الكبيرة عندما يتجول الاثنان راكبين حول الارض المقدسة معا • وهذه اللمحة البسيطة جعلت هيرتزل يؤمن بشدة بأنه مخلص • وكان هيشلر قد أثار هيرتزل قمة الاثارة ، غير انه في اليوم التالي هبطت معنوياته مرة اخرى بعد زيارة له من الدكتور Dr. Beck طبيب العائلة ، فقد شخص بيك مرض في القلب سببه الاثارة الشديدة • وفي الوقت نفسه راح يتحدث بنغمة من الشك عن تورط هيرتزل في المسألة اليهودية ، فان احدا من اصدقائه لم يفهم دوافعه • وكان احد ازواج اخت جولي قد قال نفس الكلام المزعج :

ان اليهود الذين في محيطه لا يفهمون لماذا يورط نفسه رجل مثل هيرتزل في قدراته وموقفه في هذا الموضوع • وكان على هيرتزل ان يلتزم الصبر شهرا قبل ان يرحل هيشلر ولكن ليس الى برلين ، لانه ثبت انه لا حاجة لذلك • ففي ١٤ ابريل زار الامبراطور فيينا • واقترح هيشلر بعد ان اجرى اتصالات مع اصدقائه في الحاشية الامبراطورية ان يذهب هو وهيرتزل الى كارلسرو Karlsruhe ،مقر دوق بادن الكبير والعنوان التالي للامبراطور• وكان الدوق الكبير له صلة حميمة بغليوم الثاني اذ قام بدور رئيسي في تتويج جده ويلهلم الاول ، ورفض هيرتزل هذا الاقتراح المغري • انه لن يذهب الا بدعوة • وعندئذ طلب هيشلر صورة فوتوغرافية لهيرتزل • كان يريد ان يثبت لاصدقائه في البلاط ان الزعيم الصهيوني مختلف جسديا عن صورتهم عن اليهودي • وكما شاء الحظ ، فقد كان يوم ١٤ ابريل يوم عيد ميلاد جاكوب

هيرتزل ، وكهدية لوالده كان هيرتزل قد التقطت له صورة ، وكانت معه عدة نسخ اضافية ٠

وفي ذلك المساء ، ابتاع هيرتزل تذاكر لوج في الاوبرا ، وكان اللوج يواجه لوج الامبراطور بانحراف ٠وراح هيرتزل يدرسه عن كثب اثناء الحفل ٠ ولاحظ هيرتزل تصلبه بصفة عامة ، ودماثته ، وضحكه من آن لاخر ، وقبل كل شيء الطريقة التي يريح بها يده اليسرى بصفة دائمة على مقبض سيفه ٠ وقد وضع هيرتزل نظرية فيما بعد عن شخصية الامبراطور على اساس ذراعه اليسرى الذابلة ٠ هذا التشويه هو المقابل الامبراطوري للعبء اليهودي ٠ فالامبراطور ، محارب أوروبا الصناعية الاعلى لديه عيب كان يمكن ان يبعده عن الخدمة (كما حدث مع هيرتزل واستبعد عن الخدمة) كمجرد جندي بسيط ٠ ان ملابسه البراقة ، وخوذاته اللامعة كانت تلاهي متلألئة عن علته (٥) ٠

وبدأ هيشلر في صبيحة اليوم التالي في رحلته الطويلة الى كارلسرو ٠ وتبع ذلك اسبوع من الكرب بالنسبة لهيرتزل ٠ برقيات تبلغه ان ينتظر وبرقيات تقول له ان يأمل ٠ وبدأ يعتقد ان القس قد ضلل وأنه سيستغني عن نفقات الرحلة بروح مرحة الى اقصى حد ممكن ٠ وكان يوم ٢١ ابريل عام ١٨٩٦ يوم أزمة ٠ فلم تصل كلمة من هيشلر ولكن ورد في الصحف نبأ مغادرة الامبراطور كارلسرو الى كوبورج Coburg ٠ واذ شعر هيرتزل ان وعود الاغيار ربما تكون خداعة ، عاد الى هدفه الاول ، دي هيرش ٠ وكان في اليوم السابق قد بدأ كتابة خطاب طويل الى نورداو في باريس يطلب منه ان يحاول اقناع المليونير بالتخلي عن ملايين قليلة لاستخدامها كبقشيش في تركيا ٠ كانت فلسطين من الممتلكات العثمانية وقد يكون المفتاح في يد القسطنطينية وليس أوروبا ٠ وبعد ساعة من ايداعه الخطاب في صندوق البريد اغرقه نبأ في حالة من اليأس ٠ ففي الاقطاعية المجرية الذي دعا اليها رجال أوروبا الكبار بما فيهم أمير ويلز مات البارون « موريس دي هيرش » ٠ وقد اصبح هيرتزل مليئا بالندم ٠ فلم يرسل له حتى كتيبه « الدولة اليهودية » ، وتردد في الكتابة الى نورداو ٠ « في اللحظة التي قررت فيها ان افعل ، يموت ٠ كان يمكن لمساهمته ان تساعد قضيتنا في ان تنجح بسرعة بالغة ٠ وعلى اي حال فان وفاته خسارة للقضية اليهودية ٠ فقد كان الوحيد بين اليهود الاغنياء الذي أراد ان يفعل شيئا عظيما للفقراء ٠ ربما لم أعرف كيف اعامله معاملة صحيحة (٦) » ٠

ولكي يعود الى اهداف الاغيار ، وصلته رسالة من هيشلر ٠ كان على

هيرتزل ان يسرع بالذهاب الى كارلسرو • وكان معنى هذا ان الدوق الكبير سيستقبله • « يوم عجيب • يموت هيرش واتصل انا بالامراء (٧) » •

واستعد هيرتزل في كارلسرو للقاء باهتمام كبير • كانت هناك صور للدوق معروضة في نوافذ عرض محلات العاصمة الصغيرة النظيفة • ودرسها • يبدو على الدوق انه شخص صادق جاد عادي في السبعين من عمره • (عاش بعد هيرتزل بثلاث سنوات) وأنصت هيرتزل بدقة عندما أبلغه هيشلر كيف فاتح رئيسه السابق في هذا الاجتماع الهام • لقد لعب هيشلر على عواطفه لكي يحوز اهتمامه • وكان يعرف انه كمعلم سابق فانه مرتبط في ذهن الدوق الكبير بابنه المتوفى لودفيج Ludwig وفي هذه اللحظة كان ضريح كبير من الحجر الاحمر يجري اتمامه قرب المكان الذي اعتاد ان يلعب فيه تلميذه انيت • وبينما تساقطت الدموع على وجنة الاب الملتاع واساه هيشلر ذاكرا احد المزامير • واختار بدقة مزمورا ذكر فيه صهيون • ولعب على غروره • كان الدوق الكبير قد قام بالفعل بدور كبير في اقامة الامبراطورية الالمانية • فماذا لو قام بدوره في تأسيس دولة ثانية ؟ « لان اليهود سيصبحون امة عظيمة » • وكان للدوق الكبير ثلاثة تحفظات : موقف هيرتزل كمجرد كاتب ، قلقه من ان يبدو الباعث على تأييد الصهيونية هو التخلص من اليهود ، والخوف من ان تؤدي هجرتهم الضخمة الى استنزاف رؤوس الاموال •

ورفض هيرتزل اقتراح هيشلر بأن يرتدي الفراك : كان المقصود الا يعرف احد شيئا عن المقابلة « ولذلك فقد ارتديت حلة من طراز الامير ألبرت » • ان المظاهر تزداد اهميتها كلما ازداد تسلق المرء ارتفاعا لان كل شيء عندئذ يغدو رمزيا (٨) » • وقد استلزم هذا المثل استئجار عربة من اجل الخطوات القليلة حتى باب القلعة • وقد حاول هيرتزل جاهدا لكي لا يتأثر بالجنود الذين يتولون الحراسة وبالمداخل الملكية • ولكن منظر الاعلام التي يعود تاريخها الى حرب عام ١٨٧٠ ضد فرنسا ملأه خوفا • وكان هيشلر يشعر بذلك ولهذا ظل محتفظا بثرثرة مرحة مكررا من آن لاخر ان الدوق ليس الا بشرا على اي حال • غير انه في نفس الوقت حذر هيرتزل ان يخلع القفاز من يده اليمنى اذا حدث وقدمت له يد الدوق ، وثبت في تلك الحالة ان هذا التحذير لم يكن ثمة حاجة اليه • فبعد الانحناءات المهذبة جلس الرجال الثلاثة في مقاعد لم يقصد منها ان تكون مريحة اثناء ساعتين ونصف الساعة من المحادثات •

وقد بالغ هيرتزل ، وليس الدوق الذي كان متواضعا في اهمية منصب

الدوق • وحقا ان الدوق الكبير فريدريك قد استعرض القوات امام الامبراطور غليوم الاول عام ١٨٧١ ، ولكن اهميته في النظام الامبراطوري اهمية رمزيـة في احسن الاحوال • وعندما قال هيرتزل ، وهو يسعى للحصول على تأييده للصهيونية السياسية ، انه مستشار الامبراطور ، رد الدوق الكبير قائلا : « اني اقدم اليه المشورة ولكنه يفعل كما يحلو له » • وكانت اهمية المقابلة ايضا رمزية • فالدوق الكبير لا يمكنه ان يضمن ان يقدمه الى ابن اخيه وبالتالي ولا القيصر ايضا • ولكن هيرتزل دخل في الاعمال البعيدة للسلطة الالمانية • فيستطيع ان يشرح فكرته بصفة عامة ويدحض الاعتراضات المباشرة لها • وقال ان الصهيونية سيكون لها فائدة مزدوجة : فانها ستمص فائض البروليتاريا اليهودية وسوف تبقي رأس المال الدولي تحت السيطرة • وتكلم ايضا بصورة عامة جدا ، ان الدولة اليهودية في فلسطين سوف تخدم مصالح أوروبا • اننا سنعيد العافية الى مناطق الشرق المبتلية بالطاعـون • وسوف نبني طرق سكك حديدية الى آسيا ــ طريق الشعوب المتمدينة • وهذا الطريق لن يكون عندئذ في ايدي أي دولة كبرى وحدها (٩) » •

وانتهت المقابلة على الاقل بالتصافح بالايدي • ونتيجتهـا الوحيـدة الحاسمة هي اتفاق بأن هيرتزل يجب ان يكتب الى الدوق الكبير من آن لاخر ، ورغم هذا فان روح هيرتزل المعنوية قد ارتفعت • لقد استقبله حاكم ، ورغم ان بادن كانت مقاطعة ثانوية ، فان الهمسات والتلميحات يمكـن ان تجعـل المناسبة امرا ذا وقع مؤثر على اليهود الشكاكين •

ورغم ان هيرتزل كان يدين بنجاحه لهيشلر الا انه لم يكن يثق به ثقة تامة • وقد زودته الرحلة الطويلة بالقطار عائدا الى فيينا عن طريق ميونيخ بالوقت لكي يفكر • « هناك الكثير من الحذلقة ، والتواضع المبالغ فيه في هذا الرجل ، ولكنه يعطيني نصائح رائعة مليئة بالنية الحسنة التي لا يمكن ان يخطئها احد • وهو ذكي وغامض وحاكم وساذج في الوقت نفسه » • وكانت ثمة نصيحة خاصة بسؤال هام فاذا كانت الدولة ستكون في المشرق فمـا حدودها • وفي القطار من ميونيخ أخرج هيشلر ــ الذي قام برحلة جانبية الى بازل ــ خرائطه • « يجب ان تكون الحدود الشمالية هي الجبال التي تواجه كابادوقيا Cappadocia ، والجنوبية قناة السويس ، والشعار الذي يجب

ان يرفع هو : « فلسطين داوود وسليمان (١٠) » * ولم يبرىء هيرتزل ساحة هيشلر من التعصب العنصري ٠

[ان فكره رائع ، رغم ان معاداته للسامية تطل مــن آن لاخر برأسها ٠ ان الثقة بالنفس من ناحية اليهودي تبدو وقاحة بالنسبة له ٠ وعندما كانت الدنيا تظلم ، روى لي قصة معادية للسامية معاداة مباشرة ، مرة استضاف يهوديا في منزله ، وعلى سبيل الشكر سرق اليهودي ٠ وثمة دارس للتلمود رد عليه عندما حكى له متاعبه بمقارنة بين الزهور والامم قائلا ان الزهرة بريطانية والزنبقة فرنسية وهكذا اما الشوكة السميكة في كوم الروث فهي الزهرة اليهودية (١١)] ٠

كان الحكام والملوك الاوروبيون احد الاهداف في استراتيجية هيرتزل ٠ والهدف الاخر كان السلطان العثماني وهو الرجل الوحيد الذي يمكنه اذا اراد ، ان يبيع فلسطين للحركة الصهيونية ٠ وقد ساعد هيرتزل في اتصاله بالسلطان وحكومته في القسطنطينية تعاون اخر من الاغيار ، رجل شاذ بطريقة اكثــر تهذيبا ، ورجل قال عنه هيرتزل موجزا : « من اكثر الناس الذين تعاملــت معهم اثارة للاهتمام منذ ان بدأت في القضية اليهودية (١٢) » ٠

ان اصول فيليب مايكل نيفلنسكي كأرستقراطي بولندي ميال الى معاداة السامية ، ولكن تجاربه الخاصة عن الاضطهاد قد زادت من حدة تعاطفه ٠ لقد نشأ في جزء من بولندا تحتله روسيا وفقد اراضيه ووضعه الاجتماعي عندما اشترك وهو شاب في ثورة فاشلة ضد الحكم القيصري ، وبعد ذلك أحال طول المنفى سليل الارستقراطية الى عميل لكثيرين والى ساحر ومتهور لا جذور له ٠ « بما اني لا استطيع ان اشكل سياسة أمتي ، فلا أعبأ على الاطلاق بأي شيء ٠ اذهب الى جولات فنانين في السياسة ، مثل لاعب البيانو الماهر ــ وهذا كل ما في الامر (١٣) » ٠ وأول ولاء مشرى له كان للنمسا ــ المجر ، ولكنه بعد ان فقد احتمال الوفاء لبولندا ، لم ير نيفلنسكي اي خطأ في ان يأخذ المال مــن الذين اضطهدوا بولندا ٠ وكان مثل الكثيرين من البولنديين لغوي بطلاقة ،

---

* الجبال التي تواجه كابادوشيا هي سلسلة جبال طوروس التي تحرس الحدود الجنوبية لما هو تركيا الان ٠ ويبدو ان هيرتزل كانت لديه فكرة هزيلة جدا عن حدود مملكة داوود ٠ لم يحدث ان اي دولة يهودية مارست سيطرة فعالة على السهل الساحلي الذي سكنه الفينيقيون والفلسطينيون ، ناهيك عن سيناء ولبنان وشمالي سوريا ٠

وكانت الافكار والولاءات تتدفق في ذهنه مثل اللغات • وفي عام واحد عندما تكلف بوليس آل هابسبورج عناء الكشف عن مكاسبه اكتشف ان روسيا والعرب ورومانيا وتركيا وايطاليا وفرنسا قد ساهموا كلهم في دخله • وكان لدى نيفلنسكي متحدث مسلي ساخر سند واحد قوي وهو معرفته الرائعة « بالباب العالي » ، كما كانت اوروبا تسمى حكومة القسطنطينية في ذلك الوقت • وقد اكتسب هذه المعرفة بين عام ١٨٧٤ عندما عينه وزير خارجية النمسا اندراسي Andrassy في سفارة آل هابسبورج في القسطنطينية •

وعام ١٨٧٨ عندما استدعي بسبب ديونه التي أثارت الفضائح ، وكانت الامبراطورية العثمانية تحكم في ذلك الوقت من يلدز ، وهي منتزه يضم عددا من المباني المهلهلة التي لا تلفت الانظار ، ومن هنا لعب السلطان العظيم الاخير عبد الحميد الثاني مباراته الدفاعية الطويلة الامد ضد أوروبا المسيطرة • ولما كان ضئيل الحجم ذو انف معقوف ، جبان يخاف بشدة من الاغتيال لدرجة انه لم يكن يحتمل الممرات ، وكان عبد الحميد من ناحية المظهر أقل الحكام تأثرا على وجه التاريخ • والواقع ان عظمته تبدو ضئيلة عندما توضع الى جانب حكام مبكرين في اسرته من امثال محمد الثاني الذي استولى على القسطنطينية، أو سليمان العظيم الذي جرت مدافعه حتى ضواحي النمسا • ولكن الدهاء في السياسة ليس هو تقليد فترات القوة في فترات الضعف ، بل هو معرفة مواطن الضعف (اذا كان الانسان ضعيفا) واستخدام ما تبقى من مصادر القوة لحماية الوجود او لامتداده • وكان عبد الحميد مثله مثل السلاطين الاخرين قد نشأ في الحريم ولكنه اكتسب هناك ليس شهوة موهنة نحو المحظيات ، بل مهارة المحظيات في التآمر وقد أثار قوى السلطة على بعضها كما تثير المرأة عشاقها بعضهم على بعض •

وكان يعلم ان مقاطعاته المهملة ، وصحاريه الاستراتيجية مطلوبة في الغرب • وكانت بعض الدول تفضل الابقاء عليه ضعيفا ولكن سليما ، خوفا من ان يغنم فيغنم الاخرون من الحطام • وكان اخرون تواقين لتقسيم الغنائم على الفور في البلقان وفي آسيا وافريقيا • والدولة الوحيدة التي لم تحاول الحصول على قطعة من الامبراطورية العثمانية هي المانيا وكانت النتيجة صداقة خاصة بين السلطان والقيصر •

كل هذا كان معروفا في اوروبا بفضل السفراء والصحفيين • غير ان نيفلنسكي يمكنه ان يقدم اكثر من مجرد التحليل السياسي • لقد عرف الغاية التي لا يستطيع الذين لا يعرفون المثور على طريق فيها والتي احاطت بكشك

السلطان الصغير البسيط . وقد جعلت التقاليد المسئولين العثمانيين قابلين للرشوة تماما مثلما جعلت التجارب نيفلنسكي ، وبعد ان غادر تركيا حافظ على صداقاته مع الباب العالي ، وفي فيينا راح يعزز سمعته كخبير بأن بدأ تكوين وكالة جديدة . وقد اصدرت هذه الوكالة نشرة يومية عنوانها « مراسلات الشرق » ، Correspondance de l'Est (مخصصة للانباء من الشرق وجنوب شرق أوروبا) ، ثم ملحق يومي بعنوان مراسلات النمسا Oesterreichische Korrespondenz وبها تقارير عن شئون امبراطورية آل هابسبورج في الشرق. وكانت تلك النشرات مجرد واجهة للتآمر وبيع النفوذ .

ولقد حدد هيرتزل سياسته ازاء العثمانيين في ٣ مايو عام ١٨٩٦ ديونيز روزنفيلد Rosenfeld محرر وناشر صحيفة تصدر باللغة الالمانية في القسطنطينية . فقد قال له هيرتزل : « سنغدق على تركيا فوائد ضخمة ونهب الوسطاء هدايا كبيرة اذا حصلنا على فلسطين . وهذا لا يعني أقــل من التخلي عنها كبلد مستقل . وفي مقابل هذا فسنصحح على الفور مالية تركيا (١٥) ». وزعم روزنفيلد وهو يتوق الى الهدية انه على علاقات طيبة مع عزت بك ،الشخص العربي المفضل لدى السلطان . وأكد ان اللحظة مناسبة لاغداق الاموال لان تركيا في أسوأ حالة مالية غير عادية تمر بها . ولكن هيرتزل تردد . انه يريد شخصا يجمع بين المهارة والوزن الشخصي ليكون مبعوثه ، انه صحفي مقيم ، يعتمد على ما لديه من حظوة حسنة لدى العثمانيين لا يمكن ان يكون هو الرجل الذي يؤثر ويقنع . ثم الى جانب تحوليــن رئيسييــن احداهمــا اعتنــق فيها الاورثوذكسية اليونانية ثم الكاثوليكية الرومانية فقد كان روزنفيلد يهوديا من الاصل . والامر يحتاج الى كياسة السيد الاقطاعي وحيازته للقبول ، لان المبعوث سيوجه مداهناته ووعده ووعيده الى اولئك القريبين من العرش والا فقد يحدث ما لا تحمد عقباه .

كانت اعصاب الاتراك باردة عندما يجيء ذكر النقود . لانه في القــرن التاسع عشر كانت الدولة الضعيفة اذا غرقت في الديون تفقد استقلالهـــا بسهولة . والمثل الكلاسيكي لذلك كانت مصر التي ما زالت من الناحية النظرية اقليما في امبراطورية السلطان . وفي عام ١٨٧٥ اطيح بالخديوي المصري من على عرشه نتيجة للضغط الانجلو فرنسي بسبب عدم قدرته على سداد ديونه لمن أقرضوه من الغربيين . وكانت هذه مجرد المرحلة الاولى فقط نحو انزال مصر الى محمية محجبة ، مع احتلال بريطاني كامل عام ١٨٨٢ . وكان الخوف من اتخاذ اجراء مماثل ضد السلطان قد جعله مستيقظا في منتزهه الحزين حيث

تحلق طيور ضخمة فوق مآذن هشة وحيث يتلى القرآن اثناء ساعات الظلام ٠ وفي الوقت نفسه فان عرض مبعوث هيرتزل شراء فلسطين في مقابل تأييد مادي غير معلن من شأنه جعل هذا المبعوث ان يواجه المشكلة الكبيرة وهي انه في صيف عام ١٨٩٦ كان استاذه غير متمتع بأي وضع معترف به بأي حال بين اليهود ، وكانت الاموال التي تحت تصرفه هي مرتبه من النيو فري بريس (الذي خفض كثيرا لان هذا كان مرتبه من باريس) ثم الكنسي التي تركها له والده ودوطة جولي ٠ والامر يحتاج الى ساحر يمكنه ان يبني هرما من تفاهات مثل الاجتماع مع دوق بادن الكبير ٠

وقد اقترح اسم نيفلنسكي على هيرتزل في ٢١ فبراير عام ١٨٩٦ ، بواسطة الدكتور شاول رفائيل لانداو Saul Raphael Landau وهو مواطن من جايشيا ولذلك يعرفه الكثيرون من البولنديين ٠ وهناك في شيء من كلام لانداو عن نيفلنسكي جعل هيرتزل يشعر ان نيفلنسكي هو الرجل الذي يبحث عنه ٠ وردا على مكالمة تليفونية من هيرتزل لنيفلنسكي زاره نيفلنسكي في ٧ مايو ، وزعم البولندي على الفور انه قرأ الكتيب دولة اليهود واعجب به * ٠ وبالاضافة الى ذلك فقد ناقشه مع شخص لا يقل عن السلطان عبد الحميد في رحلته الاخيرة لتركيا ٠ وبدا ان هذا هو الاطراء المثالي لرجل الاتصالات ٠ ورغم ذلك فان ما قاله من ان السلطان لن يتخلى ابدا عن القدس لان بها جامع عمر بين انه يفهم فهما واضحا رؤية السلطان السياسية التي تعتبر الاسلام الرباط الوحيد بين امبراطورية مهددة ٠ واستمر نيفلنسكي يقول بذكاء متساو ان السلطان ليس لديه فهم كثير للحالة ٠ فان الانهيار العثماني في مواجهة اوروبا سببه الى حد كبير افتقار التجارة التي جعلت اوروبا الغربية قوية وثرية ايضا منذ القرن السابع عشر ٠ وثمة ملاحظة اخرى ــ وهي ان السلطان يفضل ان يتخلى عن الاناضول اسرع من تخليه عن القدس ــ وهذه الملاحظة تثير العجب في القرن العشرين لان الجمهورية التركية التي اساسها الاناضول هي كل ما تبقى من الامبراطورية العثمانية ٠ ورغم هذا فان نيفلنسكي كان في الواقع يقول ما ردده أتاتورك مؤسس الجمهورية التركية : ان العثمانيين ساكني المدن الكبرى يحتقرون الاتراك ــ أو ساكني القرى ــ في الاناضول ٠

---

* ربما كان ذلك اكثر من مجاملة ٠ فطبقا لمصدر (١٦) فان زوجة نيفلنسكي ماريا وهي ممثلة سابقة كانت يهودية من ناحية الاصل وربما لفتت انظاره الى الكتاب ٠

وقد اعتبرت السلالة الحاكمة مهمتها الاولى دينية • وقد تطلب هذا منهم ان يتمسكوا بالقسطنطينية (غنيمتهم التاريخية الكبـرى) وان يحمـوا الاماكن المقدسة الثلاثة : مكة ، قبلة الصلاة الاسلامية ، والمدينة حيث قبر النبي ، ثم القدس نقطة البدء في رحلة اسراء ومعراج الى السماوات •

وكانت المشكلات الملحة التي تواجه السلطان في تسعينات القرن التاسع عشر (١٨٩٠) هي مشكلات اليونانيين (وكانوا يريدون بشدة ضم كريت لمملكتهم المستقلة) ثم الارض •وكان اليونانيون يشكلون التهديد الاخطر ،لانهم لم يكونوا يسكنون جزرا خارجية بل يقيمون في المركز الجغرافي للامبراطورية : لانـه مهما كان رأي عبد الحميد سيئا في الاناضول الا ان النجد الكبير الذي يحده البحر شمالا وغربا والصحراء والجبال شرقا وجنوبا كان هو القرص الدوار ونعتمد عليه الاتصال بالاجزاء الاخرى الى حد كبير • وكان ايضا خزانا للجنود• والان فان المشكلة الارمينية جاءت بنيفلنسكي الى فيينا في طريقه الى غرب أوروبا • وكصديق للسلطان فقد كان في مهمة سرية الى الزعماء الارمينيين المنفيين • وكان سيقترح عليهم صفقة : اذا كفوا ايديهم وامتنعوا عن المضي في حرب العصابات التي عرف انهم يعتزمون شنها ، فان السلطان سيضـع سياسة اكثر تحررا لصالحهم • وكان مهتما ايضا باقناع الصحافة الاوروبية بان تكون أقل عنفا ازاء تركيا • وبما ان اليهود كان لهم نفوذ في الصحافة فقد شكلوا ايضا جزءا من مهمته •

وقد ظهرت قدرة هيرتزل غير العادية في اقناع الاخرين بنفـوذه علـى المغامر المسن الساخر • وبالطبع نطق هيرتزل بتلميحه الذي لا مفر منـه : « ان القضية اليهودية ستعود عليك بفوائد اعظم من القضية الارمنية (١٧) » • واكد نيفلنسكي في مقابل ذلك انه حقا يتوقع مكافأة كافية اذا نتج عن مهمته شيء • الا ان الارستقراطي البولندي (غير السلطان العثماني) أوتي فهمـا حاذقا لقيمة النقود وادراك داهية كيف ان هيرتزل لديه القليل منها جدا • وكان عرض هيرتزل بالتدخل لدى الارمينيين خياليا بالمثل • ورغم ذلك فقد وافق نيفلنسكي ، قبل ان يرحل في ١٠ مايو لبروكسـل ، ان يضيـف حسـاب الصهيونيين الى دفاتر حساباته • واستطرد « ان التفاحة يجب ان توضع على مائدة حتى لا تسقط • والارض تطفو في وسط الهواء • وبالمثل قد أستطيع ان اؤسس الدولة اليهودية وأبث فيها الاستقرار دون أي تأييد كبير • ان السر يكمن في التحرك (١٨) » • وكان مصرا على انه عندما يعود نيفلنسكي فانهما سيستقلان القطار الى تركيا •

ومرة اخرى يعاني هيرتزل عدة اسابيع من قلق الانتظار · كان يدرك مثله مثل نيفلنسكي انه يحاول خدعه ساحر · « ان الاشياء العظيمة لا تحتاج الى اساس متين » · كتب هذه الجملة بعد يومين من رحيل البولندي · واستطرد

وقد استطاع هيرتزل ان يبقي على توازنه في الفترة الفاصلة عن طريق نشاط لا يتوقف · فحاول ان يقنع نورداو ان يحاول بدوره اقناع الارمن (ابرق نورداو بالكلمة الواحدة « لا » (١٩) !) ، وان يدبر حديثا لنيفلنسكي مع لورد سالزبوري رئيس الوزراء البريطاني (هذا ايضا بالطبع افضى الى لا شيء) · واعتزم القاء خطاب كبير في المكابيين اللندنيين ذلك الصيف ــ ولكنه سيحتاج الى المزيد ليظهره اكثر من مجرد اجتماع مع دوق كبير واحد · ومضى قدما في الترجمات الانجليزية والفرنسية والروسية لكتيبه ومولها كلها بنفسه · وكانت النسخة الانجليزية هي اول نسخة تطبع ، وقال مترجمها سيلفي دافيجدور في ٢١ مايو ان سير صامويل مونتاجيو قدم نسخة الى جلادستون (٢٠) · وفي ٢ يونيو عام ١٨٩٦ كان رد جلادستون المتحفظ هو المناسبة الوحيدة خلال فترة حياته التي أشارت فيها النيو فري بريس ، دون التزام ، الى صلة هيرتزل بالصهيونية · وجاء ذلك بعد « فيتون » من ضيعة تولستوي قرب موسكو تقول ان الرجل الحكيم قد قرأ ايضا الكتيب ولكنه اعترض على نظريتها ، ورغم ان معظم الطلبة اليهود في جامعة فيينا يحبذون الاندماج ، الا ان زمرة صهيونية اقترحت تجنيد كتيبة من الف أو الفي متطوع وارسالهم الى يافا · « وقد نصحتهم ألا ينفذوا هذه الفكرة الغاريبالدية اللطيفة ،لان هؤلاء الرجال الالف،ليسوا على غرار رجال«مارسالا» ،ولن يجدوا شعبا معدا وطنيا في انتظارهم ، ونزولهم هناك سيقمع في خلال ٢٤ ساعة مثل مزحة لتلميذ صغير (٢١) » * ومن القسطنطينية كتب روزينفيلد مثيرا الانزعاج ان الشخص الذي يتصل به يريد ان يعرف على وجه التحديد المبلغ الذي يقع تحت تصرف هيرتزل ، « لانه سيخاطر برأسه اذا فشلت المفاوضات (٢٣) » ·

---

* هذه الجملة المقتبسة مثيرة للاهتمام لانها تبين ان هيرتزل لم تكن لديه اضغاث احلام عن الموقف المنتظر من الفلسطينيين ازاء اي غزو صهيوني · غير انه حتى في حالة ايطاليا ، اقر مندوب كافور في نابولي انه من بين سبعة ملايين مواطن من المملكة الجديدة المنضمة من الصقليتين ، لم يكن هناك مائة واحد يؤمنون بالوحدة الايطالية (٢٢) ·

وراح هيرتزل يهدي‌ء من ضيقه بأن يفكر فيما ينجزه نيفلنسكي · غير ان ابتعاد نيفلنسكي عن سحر هيرتزل ، أتاح لحماسه أن يهـدأ · وعندما عاد الى فيينا تجنب هيرتزل لمدة ٣ ايام ولما عثـر عليـه هيرتزل فـي اخر الامر تكلم بصراحة : ان مشروع هيرتزل يعتبر خياليا في الدوائر الصحفية ، وايضا في الدوائر المالية والحكومية وهذا أمر لا يدعو للدهشة · فقد اعلن مدير « لاندسبانك » ان المشروع خرافي ، اما ناشره « بنيديكت » فقال انـه جنون (٢٤) · وفي محاولة واضحة لالغاء الرحلة اكد نيفلنسكي ان العثمانيين مشغولين جدا بكريت حتى يفكروا في صهيون · ورغم ذلك فبعد اسبوع في ١٥ يونيو ١٨٩٦ كان هيرتزل يكتب مذكراته في القطار الى القسطنطينية · كان قد ركب قطار الشرق السريع من فيينا في المساء · لقد اقتنع نيفلنسكي ولحق بالقطار اثناء توقفه في « بست » في الساعة الثانية صباحا · ورغم ذلك فان نيفلنسكي قد احتفظ بقواه العقلية · وقد سلم هيرتزل قائمة تحـوي خضروات كبقشيش لاصدقائه في تركيا : دراقن ، وفريز ، والاسباراجـوس (نبات الهليون) والعنب كلها مستوردة من فرنسا وكلها من «فندق زاخر» اغلى فنادق فيينا · واحتفظ هيرتزل بقواه العقلية ايضا · ان الفندق لا يستطيـع ان يوفر الا جزءا من الطلب الضخم ولم يعبأ بأن يحمل السبت الى مكان اخر · ومن بين رائديه الجديدين كان القس الشاذ هو الذي كلفه من الاموال الاقل بكثير ·

الفصل الرابع والعشرون

تحتوي الصفحات التي كرسها هيرتزل لاول زيارة له للقسطنطينية على مواد كان يمكنه ان يضعها في « فيتون » لو ان مهمته لم تحول دون مثل تلك النتاج التافه · كان يزور العاصمة العثمانية في لحظة تناسب كآبتها الغريبة وتآكلها · ولو كان جوركي على حق وان ضوء القمر الكامل الساطع على النهر يمكن اثارة صورته في الذهن بوصف قطعة من الزجاج المكسور تتلألأ في الطين ، فان الصفحات اذن التي تصف محاولة هيرتزل للحصول على قاعدة ارضية لدولته اليهودية ستثير في الذهن اكثر من موضوعها · وقبل كل شيء فهي ستثير المزيج بين الحساسية والنضال اللذين عاشا معا في نفس مؤلفهما ·

كان في القسطنطينية من ١٧ يونيو عام ١٨٩٦ حتى ٢٨ يونيو · وكانت لرحلة القطار كالعادة فوائدها مع هيرتزل · فقد استطاع نيفلنسكي ان يقدمه الى ثلاثة مسافرين الذين اعطوه اول تذوق للرجال الذين سيتعامل معهم : زياد باشا كان شخصا صغيرا جدا وأنيقا وباريسيا في سلوكه : وكاراثيودوري ، مرحا ، سمينا ، ذو لحية بيضاء يبدو صاخبا جدا وهو يقرأ تاريخا لروسيا عندما لا يتكلم،وتوفيق باشا صغير يقتبس من«النويفراي برس» كدليل على عقليته الحديثة · وقد كرر زياد ما سبق ان قاله له نيفلنسكي : « ابدا لن تحصل على فلسطين كدولة مستقلة ، ربما كدولة تابعة » ·

ورد هيرتزل قائلا : « سيكون هذا نفاق من البداية ، ان كل دولة تابعة تفكر كيف تصبح دولة مستقلة (١) » ·

كان هيرتزل يدخل عالما ظاهر فيه اهمية اكثر منها في اوروبا الغربية · وفي صوفيا ظهر جنوده ، مجموعة متنافرة من الصهيونيين الذين ادهش تقديمهم للورود الحمراء والطريقة البالغة الاحترام التي يتكلمون بها

المسافرين العاديين في القطار . ولكن نيفلنسكي لم يكن مندهشا . وقد حياه عند وصوله رجل صاحب مقام رفيع من كنيسة بلغارية يرتدي ثيابا رائعة . وعندما وصل القطار الى استانبول جاء دور الباشوات . وكانوا قد نظموا أنفسهم وبمجرد ان وصلوا الى يلدز حيتهم جموع من الاقارب والاصدقاء .

وقد رحب بهيرتزل صحفيان يونانيان و « البارون بيرتولد بوبر » Popper وهو يهودي نمساوي كان والده شريك عمل لجاكوب باسشاور وقد اصبح نبيلا عام ١٨٦٧ . وعبر البوسفور المليء بالسفن كانوا يرون حيدر باشا ، نهاية خط السكة الحديدية الممتد الى الجنوب عبر الاناضول نحو هدفه النهائي في مكة وبغداد . وكان « بوبر » في ذلك الوقت يساوم من اجل العقد الخاص ببناء الجزء الممتد من اسكندريتا (اسكندرونه الجديدة) حتى دمشق . وكان الطريق من استانبول الى بيرابيوغلو الجزء الاوروبي من المدينة شرق القرن الذهبي يمر بشوارع قذرة تطل احيانا على جوامع كبيرة ذات قباب . وكتب هيرتزل : « ركبنا من تلك المدينة القذرة الجميلة المذهلة ، الشمس تبهر الانظار ، والفقر له الوان والمباني بالية . ومن نافذة في فندق « رويال » امتد المنظر حتى القرن الذهبي . والمنازل على المنحدرات بنيت بين الخضرة وكان العشب ينمو بين الاحجار ، وكأن الطبيعة تستولي ببطء على تلك المدينة المتداعية » . وقد احتل هيرتزل ونيفلنسكي جناحا في فندق « رويال » وقد اشتركت غرفتا نومهما في صالة بها أريكة خضراء من الدمقس . وبمجرد ان غير نيفلنسكي ملابسه ذهب الى « يلدز » تاركا هيرتزل يقوم بجولة راكبا حول « بيرا » ثم يسير متنذا بروح مرحة في الشوارع الكثيرة المهاوي والمطبات حتى الكوبري القديم . ولكن مزاج نيفلنسكي كان متعكرا عندما عاد متأخرا عما كان متوقعا . كان السلطان مريضا بدمل وكان عزت بك عدوانيا ازاء المشروع لان كثيرين من الناس يعتمدون الان على العمولات . وحملتهم مسيرة بعد الغداء الى حفل موسيقي في قاعة في الهواء الطلق حيث كانت فرقة ايطالية تقدم اوبرا خفيفة . ومن بين المتفرجين لمح نيفلنسكي ابن الوزير الكبير . واستغل هيرتزل خطة بجرأة الصحفيين . وفي دقائق كان الشاب الصغير قد انضم اليهم على مقعد بينما كان هيرتزل يوضح مهمته وطلب من الشاب ان يرتب له موعدا مع والده . ومثل غيره الذين يعرفون الشرق الاوسط اوضح ابن الوزير الكبير ان الاحتلال اليهودي لفلسطين سيثير غضب المشاعر الاسلامية .

وهنا لم يعرض هيرتزل لقضيته في تعريف دولته المقبلة على انها

جمهورية ارستقراطية . فقد كانت كلمة « جمهورية » كلمة محرضة على الفتنة في تركيا . ورغم كل شيء فقد وعد الشاب الصغير بأن يبذل اقصى ما في وسعه .

وفي اليوم التالي ـ ١٨ يونيو ـ اجرى هيرتزل أحاديث مع رجال ضربوا المثل على نفوذهم في اثارة السلطان . ولما كان نيفلنسكي يعتقد ان النفوذ الروسي كان في ذلك الوقت قويا في « يلدز » فقد قام هيرتزل بأول زياراته للقنصلية الروسية في « بيرا » لياكوفليف المترجم : « رجل طويل نحيل أسود الشعر وجهه ضيق ولحيته خشنة ، وعيونه صغيرة مشقوقة بالطول » . وافتتح هيرتزل الكلام بأن اعلن عزمه على زيارة الامبراطور عن طريق وساطة عضو من اعضاء عائلته (كان يقصد أمير ويلز الذي لم يقابله اطلاقا) ورد ياكوفليف بأن أعرب عن شعوره بالاستياء من اليهود الذين قابلهم عندما كان قنصلا في القدس . وقال انهم حاولوا التخلص من الضرائب التي عليهم للقنصلية ، زاعمين انهم اتراك عندما لم يكن مناسبا في ذلك الوقت ان يكونوا من الروس ثم العكس بالعكس . وأشار هيرتزل في رده انه بالنظر الى الاضطهاد الذي تعرض له شعبه ، فليس من الغريب اذا اظهروا عيوبا اخلاقية .

ونقلته زيارته التالية الى اماكن شاسعة تشرف على اخر شعب أوروبا . ووجد هيرتزل ان « توبكابي » التي كانت مقرا لامبراطورية مناضلة ،قد أصبحت الان مدينة قديمة تتآكل ، مبانيها ضخمة ، وتضج بنشاط ملحوظ للغاية . « وقادهم السكرتير العام لكبير الوزراء ، وهو طبيب صغير في الجيش ، الى سيدة ـ رجل محني الظهر كان من قبل طويل القامة له وجه متجعد ذابل ولحية بيضاء . وكان يرقد على المكتب امامه زوجين من المسابح . وبعد البداية الديبلوماسية العادية التي ترجمها سكرتيره بدقة ، بدأ كبير الوزراء في العمل . ما هي الشروط التي يعرضها هيرتزل ؟ ورغم ان هيرتزل اتفق مع نيفلنسكي بينما كان في القطار ان ٢٠ مليونا قد يكون مبلغا معقولا ـ ٢ مليون لفلسطين نفسها و١٨ مليون لانقاذ تركيا من دائنيها ـ الا انه رفض ان يلتزم بشيء . وانتهت المقابلة واطلع السكرتير هيرتزل في لمحة طيبة منه على منظر جميل للمضايق ، بين اوروبا وآسيا وفي نفس الوقت ضغط على يده .

وكانت الزيارة التالية لوزارة الخارجية . كان محمد نوري بك ـ الذي ظنه هيرتزل خطأ أرمنيا ـ ابن رجل فرنسي اعتنق الاسلام وأمه شركسية . ولما كان قد تعلم في اوروبا وكان له شعر الاوروبيين المحمر اللون فقد تصنع احتقار رفاقه زاعما انه الاعور بين مملكة من العميان . ورغم انه كان يكبر

هيرتزل بعامين فقط الا انه كان السكرتير الاول للشئون الخارجية منذ عام ١٨٩٣ · وبعد ان ألم بسرعة بفكرة هيرتزل قدمه للترجمان الاول داوود افندي وهو يهودي عثماني ، واحتج داوود قائلا ان اليهود اغنياء في الامبراطورية التركية وأوفياء للسلطان ·وكان هذا صحيحا الى حد كبير · فمنذ ايام الاضطهاد الاسباني والامبراطورية العثمانية ترحب باليهود الذين كان عددهم كبير في سالونيكا وازمير · وكان داوود رجل طويل القامة ممتلىء وله لحية رمادية قصيرة وقد قعقع الحرس سلاحهم عندما مر بهم · وأحس داوود ان موقعه وكذلك مواقع رفاقه في الدين في مناطق اخرى من الامبراطورية قد تتعرض للخطر اذا ساد الاعتقاد بأن حركة يهودية ستقتفي اثر اليونانيين والبلغاريين والارمن في المطالبة بجزء من ملك السلطان · وأبدى داوود تخوفه بأن رجا هيرتزل ان يبحث عن شخص اخر ليقدمه الى وزير الخارجية ·

وكانت ثمة مقابلة اخيرة انهت اول صباح لهيرتزل في تلك المدينة الكبيرة · كان نيشان افندي أرمني يرأس المكتب الصحفي · وكان هو ومرؤوسيه يلومون الصحافة لما تكتبه عن تركيا · فلم يكونوا سعداء لبعض المقالات الاخيرة في « النيو فرى بريس » ·

وقد عاد نيفلنسكي من تلك الامسية الى الفندق يحمل انباء من « يلدز » سيئة للغاية لدرجة انه طلب نصف زجاجة شمبانيا دليلا على حزنه ·

وقال لهيرتزل: « لم يفلح أي شيء·· السلطان يرفض سماع أي شيء عن ذلك » · وفتحت الزجاجة ومضى يروي لهيرتزل ما قاله السلطان ، « اذا كان الهر هيرتزل صديقك مثلما انت صديقي فرجائي ان تنصحه ألا يتخذ خطوة اخرى في هذا الموضوع · أنا لا استطيع بيع قدم واحد من الارض لانها ليست ملكي ولكن ملك شعبي · وقد أقام شعبي هذه الامبراطورية بأن حارب من اجلها بدمائه ورواها بدمائه ، وسوف نغمرها بالدماء مرة أخرى قبل ان نسمح لاحد بأن يغتصبها منا · ان رجال فرقتين من جيشي من سوريا وفلسطين فضلوا ان يقتلوا واحدا واحدا في « بليفنا » * ولم يستسلم منهم واحد ، لقد ضحوا بحياتهم جميعا على ارض تلك المعركة · ان الامبراطورية التركية ليست ملكي

---

* مدينة في بلغاريا الحديثة حيث حوصر الجيش العثماني على ايدي الروس والرومانيين عام ١٨٧٧ ·

بل ملك الشعب التركي ** ولا استطيع ان اتخلى عن أي جزء منها · دع اليهود يوفرون بلايينهم · وعندما تقسم امبراطوريتي فيمكنهم ان يأخذوا فلسطين بلا مقابل · ان جثتنا ستقسم فقط ، ولكني لا أوافق على تشريح جسدنا ونحن احياء (٣) » ·

وقد بين رد فعل هيرتزل لخيبة الامل هذه ادراك رجل فنان بلمحة عظيمة وبين حاسة الديبلوماسي الثانية فيه ، اذ ان كلماته ستردد مرة اخرى في « يلدز » · وقال لنيفلنسكي انه تأثر بكلمات السلطان الصادقة الرائعة رغم انها حطمت آماله بصفة مؤقتة · كان هناك جمال مأساوي في القدرية التي تقبل الموت وفصل اجزاء الجسد ، ورغم ذلك تقاتل ولو حتى بلا هدف حتى اخر الانفاس ·

وفي اليوم التالي ، الجمعة ، كان احتفال « السلاملك » ، وهي مناسبة اسبوعية هامة ، فقبل الظهر ينتقل عبد الحميد من قصره المسيج ليصل حتى الجامع الابيض الى جانب البوسفور الازرق المشرق · ويسير الجنود ، وهم رفاق متينو البنيان ، عصبيو الحركات لوحتهم الشمس ممتلئين نشاطا ·· يتحدون كل المشاق ، وتنزل فرق الفرسان من فوق التل ، وجنود زواوين يلبسون عمائم خضراء وحمراء يسيرون بخطوة الاوزة التي علمها اياهم مستشاروهم العسكريون الالمان · وقد رفع نافخو البوق ابواقهم الى شفاههم على استعداد للنفخ ، والصفوة من المجتمع العثماني ــ الباشوات يمتطون ظهور خيلهم أو يجلسون في العربات ، وصبية صغار يرتدون زيا أشبه بزي الضباط، وابن السلطان وامراء اخرون تسحب خيولهم معلميهم ذوي اللحى الكبيرة ، وكبير الاغوات ، وثلاث عربات ملكية بها سيدات محجبات ، كلهم ينتظرون الرجل الذي يزعم كالخليفة ، خليفة النبي وزعيم الطائفة الاسلامية على وجه الارض ·

ويصل السلطان في عربة نصف مكشوفة يشاركه فيها عثمان باشا ،

** بالالمانية .

«Das türkische Reich gehort nicht mir. Sondern dem türkischen Volk»

هيرتزل ينقل بالالمانية ما قاله له نيفلنسكي اما بالالمانية او بالفرنسية · لم يكن نيفلنسكي يتحدث باللغة التركية العثمانية · وبينما كان من المألوف بالنسبة للاوروبيين الحديث عن الامبراطورية التركية ، فقد اعتبر السلطان عبد الحميد نفسه السلطان الخليفة لامبراطورية اسلامية وليس لامبراطورية تركية والارجح انه تكلم عن الامبراطورية العثمانية والشعب العثماني ·

الجندي ذي الخمسة والستين ربيعا والذي أنعم عليه بلقب « الغازي » بعد الدفاع البطولي عن « بليفنا » الذي مات فيه كثيرون من العرب · وبينما حوافر الخيل تدق بين سور مزدحم بالضباط والحرس ، راح هيرتزل يدرس السلطان بنفس العناية التي أولاها للقيصر · كان السلطان نحيلا وضعيفا وأبرز ملامحه أنفه الكبير المعقوف ولحيته البنية اللون المتوسطة الحجم التي يبدو انها صبغت · وأولئك الذين يحملق فيهم غالبا يعرفون · وقد حملق عبد الحميد بشدة في الاوروبيين اللذين وقفا في شرفة قريبة ، وبعد ان انتهت الصلاة — وقد استمرت حوالي ٢٠ دقيقة — حملق السلطان مرة اخرى ·

ان روعة الاحتفال بالسلاملك الامطورية ، وبعبير السلطة فيه ، قضى على كل ما جاء بعده وجعل منه سقوطا هاويا مفاجئا · فلم يرق لهيرتزل رقص الدراويش الذي اخذوه لمشاهدته · والموسيقى صدمته واحس انها مطبوخة محليا ، والرقص نفسه كان أشبه بالرقص الرباعي الذي يرقصه الانجليز ويتحول فجأة الى لف يثير الدوران وقد ذكره منظر الدراويش وحركاتهم وهم في ثيابهم البيضاء وعباءاتهم المفتوحة وكفهم الايسر المتجه نحو الارض والايمن المتجه الى اعلى ، بلوى فولر Fuller ، وهو راقص أمريكي أثارت حركاته الافعوانية الاعجاب في الفولي بيرجير Folies Bergère في اول عام لهيرتزل في باريس ·

وبعد ظهر ذلك اليوم — الجمعة — قابل هيرتزل ساكن روماني لغابة يلدز ، وهو تاك مارجويريت Darguerritte احد الشخصيات المدمنة للخمر والمفضلة لدى الوزير الكبير · وكان الرجل مروجا للاقاويل ومحبا للاذى ، وبعد ان حكى له عن مغامرات البارون بوبر Popper قال لهيرتزل ، ان نيفلنسك طلب منه نيابة عن هيرتزل ان ينسى موضوع فلسطين ·

لقد بحث هيرتزل التكتيك مع نيفلنسكي في البهو المشترك بين غرفتيهما في الفندق · وفي بداية الاسبوع التركي — يوم السبت ٢٠ يونيو اقترح هيرتزل قرضا ابتدائيا للسلطان قدره ٢ مليون ، ورغم ان النقود قد تضيع في مصرف بلا قاع الا انها قد تلين الحالة بعض الشيء · وكان من الحيوي بالنسبة لهيرتزل الا يعود الى اوروبا خاوي الوفاض · وذكر نيفلنسكي اقتراحا مضادا تقدم به عزت بك : وهو ان يحصل اليهود على أرض اخرى ثم يبادلوها مصحوبة بقرض بأرض اخرى مع السلطان ، وعلق هيرتزل على ذلك قائلا : « لقد فكرت على الفور في قبرص · ان فكرة عزت فكرة جيدة ، وتبين انه يفكر معنا ونصالحنا · وهو يرفض ان يكون له سهم شخصي فيها · ولكنه لديه عائلته

في البلاد العربية ، وعددهم ١٥٠٠ ، ويجب ان يفعل شيء من اجلهم » • ونوري بك الذي قابله هيرتزل تقدم ايضا باقتراح ثالث • فبدلا من محاولة اخراج تركيا من نطاق الازمة المالية ، فان اليهود يجب ان ينضموا الى اولئك الذين يدلون هذا الخطاف فمثلا يجب ان يتسللوا الى لجنة حاملي السندات • لقد غير هيرتزل رأيه بسهولة بسبب اعتبارات الالفة الشخصية وكان ثمة تشابه بين شخصية اليهودي المجري ذو الميول الالمانية وبين شخص ثوري وهو نصف اوروبي يحتقر الى حد كبير المجتمع الذي خدمه ظاهريا • وكتب هيرتزل ان نوري يتمتع بذهن بالغ الذكاء في وزارة الخارجية • وهنا أظهر نيفلنسكي الفطنة الاكثر حدة • فلعن اقتراح نوري على الفور • لو ان اليهود تسللوا الى حاملي السندات فانهم سيصبحون مكروهين مثل اعضاء اللجنة تماما •

ورغم ان نيفلنسكي لم يستطع ابدا ان يحصل لهيرتزل على موافقة السلطان ، فقد نجح ببراعة في الحصول له على تقديمه للاشخاص المفيدين • وفي اليوم التالي ، يوم الاحد استقبل عزت بك الرجلين في « يلدز » ، وكان عزت بك في ذلك الوقت الرجل المفضل لدى السلطان والذي له اكبر نفوذ عليه • وكان « يلدز بارك » في ذلك الوقت ببعض مبانيه المبهرجة بصورة تنم عن ذوق سقيم والتي كانت ترمم ، يعتبر مثالا للامبراطورية البالية • « انه يبدو متسخا الى حد ما • والمكاتب الخاصة تشبه كبائن الشواطىء • حتى حجرة عزت بك الرجل القوي ، صغيرة وفقيرة • مكتب عزت ومكتب اصغر لسكرتيره ، وبعض المقاعد ذات المساند وسرير ذو اربع اعمدة تداريه ستارة (في حالة اذا ما كان سيقضي الليل هناك في عمل مستمر) ، وهذا كل شيء » • وظهرت البيروقراطية الشرقية بعينها عندما استقبل عزت بك زائر اخر ، جواهرجي يهودي ومعه ساعة فضية يبذل طلبها للسلطان للطبيب الذي شفاه من بثوره • وبعد ان انتهى منه ، اعطى عزت بك هيرتزل خمس عشرة دقيقة فقط • ولفت نظره ان السوري العربي ذكي ولكنه متعب • ولم يحقق هذا الاجتماع شيئا رغم ان في نهايته تعلم هيرتزل ان اعطاء البقشيش عرف مألوف فكان كل خادم أو بواب يمد يده اليه بلا خجل • واتجه نيفلنسكي وهيرتزل في عربة شرقا نحو البوسفور الى بيبيك Bebek والى مقهى جوار الشاطىء • وعندما جلسا بعيدا عن اسماع الناس باح نيفلنسكي بما أنجزه في اليوم السابق مع كبير الوزراء : وكان قد التزم الصمت من قبل كي لا يبلغ هيرتزل عزت عن غير عمد •

وقال نيفلنسكي ان السلطان ، قد غضب اخيرا للطريقة التي كتبت بها

النيو فري بريس » عن تركيا ــ وذلك بعد ان وافــق عبــد الحميد ، للباشر Bacher (محرر الصحيفة مع بنيديكن وناشرها) على المثول امامه • وكان من المستحيل عندئذ لهيرتزل ان يستقبله كصحفي ولكنه يمكن ان يستقبله كصديق ــ اذا اظهر هيرتزل في هذه الاثناء جدية لهذه الصداقة • يجب على هيرتزل ان يتدخل لدى الصحافة في لندن وباريس وبرلين وفيينا لكي تتناول المشكلة الارمينية بروح اكثر تفهما ، وينبغي ايضا ان يقنع الزعماء الارمينيين على ان يستسلموا للسلطان الذي سيكون بدوره كريمــا في التنــازلات • « بالنسبة لي كل الناس مثل الاطفال الذين كنت سأجيء بهم مــن زوجــات مختلفات » • لقد استخدم السلطان مقارنة لا يمكن ان تطرأ على الذهن فــي مجتمع غربي • « انهم اطفالي ، جميعهم ، ورغم ان بينهم اختلافا فــي الاراء الا انهم معي فليس هناك خلاف » • ويبدو ان السلطان عندما افتــرض ان هيرتزل يستطيع ان يأتي بمثل تلك المعجزات فانما كان في الواقع يضعــه موضع الاختبار • وبما ان هيرتزل زعم انه يستطيع حل لغز المالية العثمانية ، فليبين اذن قوته في مشكلة الارض الابسط من المشكلة المالية • وقال هيرتزل انه على استعداد ان يحاول ولكن لو ان السلطان استقبله اولا فان ذلك سيعزز من موقفه • وقال نيفلنسكي ، « لا •• فيما بعد : ثم انه سينعم عليك بعد ذلك بوسام عظيم » •

ودفعه توقه الشديد لمقابلة السلطان الى ان يتجول بعصبية في معرض لرجال الحريق ، ثم حضر حفلا لعازف بيانو بولندي في منزل مدام جروبلر ، احدى المضيفات القلائل من القسطنطينية ، وكان زوجها بولنديا استقر بــه المقام في تركيا بعد الثورة الفاشلة التي حطمت نيفلنسكي • ويبدو ان هيرتزل أثار عواطفها وبعد ذلك وفي نفس العام ارسل اليها بصور بولين التي بلغت الان السنة السادسة من عمرها وكان هانز في الخامسة وترود في الثالثة •

ولكن نزهة بحرية في البوسفور في المساء هدأت من حدة اعصابــه • « راحت احجبة المساء تغلف في بطيء القلاع البيضاء الجميلة الشامخة حيث عاش الحريم ، ارامل السلاطين السابقين وأرامل السلطان الحالي لانه لا يعيش معهن وهذه الجمل تبين ان ذهنه لم يكن بعد مركزا •

وفي يوم الاثنين عاد هيرتزل الى الهجوم بعد ان استعاد نشاطه • ان بنفلنسكي يجب ان يهيىء له المقابلة بأي ثمن ، فان موقفــه مــن المموليــن والمكابيين في لندن يعتمد عليها • وقد استخدم تاك مارجويريت للحصول على مقابلة يوم الثلاثاء مع الوزير الكبير ثم أبرق على الفور الى بينيريكت في فيينا

انه سيبلغه في برقية بكل ما حدث في المقابلة بشرط ان تؤكد « النيو فري بريس » ان المقابلة كانت ودية · ورد بينيديكت ببرقية قائلا انه سيفعل كل ما يريده هيرتزل · واستغرقت المقابلة مع الوزير ساعة ونصف الساعة · وكانت ساعات مؤلمة لان هيرتزل كان يكتب ملحوظات على ركبته وضوء الشمس مسلط عليه · وكانت مقابلة روتينية · وبينما كان هيرتزل وتاك عائدين عبر كوبري الصوت الذهبي حام حولهم صبي شحاذ للحصول على البقشيش حتى بعد ان منحه هيرتزل بعض النقود · ورجا هيرتزل تاك ان يخلصهم من الصبي · وفعل تاك هذا بأن بصق بصقة كبيرة في وجه الصبي · وبعد ذلك بنصف ساعة عندما عادا الى الفندق انضما الى نيفلنسكي في البهو · وكان نيفلنسكي مشغولا يكتب · وفجأة أمر تاك قائلا : « اضرب الجرس ! » وأطاع تاك وشد حبل الجرس · وكانت مذلته في هذه اللحظة انتقاما مما فعله بالصبي · وعندما قص هيرتزل الحادثة المزدوجة على نيفنسكي قال هذا متفلسفا : هنا يبصق على المرء ثم يبصق هو بدوره على الاخرين » ·

هل سيحصل هيرتزل على مقابلته مع السلطان ؟ وكان يوم الاربعاء يوم ترقب مشجع · فقد بعث السلطان برسالة بأنه يجب ان لا يرحل ، وعلى الفور بعث هيرتزل بمقالة موالية لتركيا الى صحيفته · وبعد الظهر ابحر الى قصر السفير النمساوي لاجراء حديث معه · وشبه السفير السياسة بلعب الشطرنج ، وأعقب هذه التفاهة رحلة مسائية ، ثم عشاء قرب البحر وعودة في ضوء القمر عبر المياه نحو خط أفق من المآذن والقباب ، وكان تاك ماجويريت ثملا كاللورد ·

لقد ثبتت صحة تحذير نيفلنسكي من ان الوقت غير ملائم لزيارة هيرتزل · ففي يوم الاحد كانت هناك شائعات عن اراقة الدماء في كريت وعن مذبحة فرقة عثمانية على ايدي الجنود الدروز غير النظاميين ، وعن غارة روسية ضد ارمينيا تركت وراءها ٣٠٠ قتيل من المسلمين ·

وفي يوم الخميس سقط المزيد من القتلى وهذه المرة قرب بحيرة فان Van · وغدا سيكون يوم جمعة اخر ، واحتفال اخر بالسلامليك ، وساعات اخرى لا يمكن ان ينجز فيها شيء · لقد فعل هيرتزل كل ما في امكانه · وبعث بحديثه مع الوزير الكبير مع مسافر الى فيينا على قطار الشرق السريع ·

ولقد استخدم نيفلنسكي اصطلاحا فاسقا لكي يبقي على معنويات هيرتزل · وكان واثقا ان الاتراك مستعدين لاعطاء فلسطين لليهود ، وكان الباب العالي

يتصرف ببساطة مثل عاهرة تتظاهر بالحياء والخجل • وبعد احتفال السلامليك الثاني قابل نيفلنسكي السلطان ، بينما ذهب هيرتزل في جولة • وفي المساء قدم هيرتزل تقريره • (لم يكن هيرتزل واثقا ابدا الى أي مدى يمكن الاعتماد على صدق نيفلنسكي الامر الذي زاد من التوتر) لقد شكر السلطان هيرتزل على المقالة التي كتبها في « النيو فري بريس » • لقد رحب باقتراح عزت — بأن يحصل الصهيونيون على ارض اخرى ثم يعرضونها لمبادلتها • ويبدو ان هيرتزل اخذ هذا التقرير بقيمته الاسمية ، وبالنسبة لدارس نفسية السلطان فقد يبدو ذلك تدريبا على استراتيجيته المفضلة وهي التسويف • ووعده « على أي حال سأقابل الهر هيرتزل ان عاجلا أو آجلا » • كان مثالا اخر على التسويف • غير ان هيرتزل كان في حالة يرى فيها البعوضة الصغيرة عيسوبا •

وروى نيفلنسكي حديثا لطيفا :

- السلطان : « الا بد ان يحصل اليهود على فلسطين ؟ ألا يستطيعون يستقروا في أي مكان اخر ؟ » •
- نيفلنسكي : « فلسطين مهدهم •• وهم يريدون العودة الى هناك » •
- السلطان : « ولكن فلسطين مهد ديانات اخرى ايضا » •
- نيفلنسكي : « اذا لم يستطيعوا الحصول على فلسطين ، فسيذهبون ببساطة الى الارجنتين » •

وتبعت ذلك مناقشة باللغة التركية مع عزت (لم يفهمها نيفلنسكي) ومن ذكر « سالونيكا » فمن المحتمل ان يكون السلطان قد فكر في ان يعرض شمالي اليونان (٤) •

ولكن جاء يوم السبت ، ثم الاحد ، يوم رحيل هيرتزل ولا شيء سوى التلميحات والوعود • وقال له نيفلنسكي ان ياور الملك اكثر نفوذا من جميع السفراء : لانه كان حالما موثوقا به وكان السلطان يتصرف طبقا لاحلامه • ان امير بلغاريا يدين بعرشه لواحد من تلك الاحلام •

ومن ارض العجائب هذه قرر هيرتزل ان ينقذ ما يمكن انقاذه • وطلب من نيفلنسكي مباشرة ان يأتيه بوسام • « انا لم اعبأ اطلاقا بالاوسمة ولا أعبأ بها الان • ولكن من اجل الناس في لندن فاني احتاج بشدة الى علامة حظوة من السلطان » • وفي هذا المساء ، بعد ان شاهد كنوز السلطان في توبكابي ودولما باشا — وصل اليها في قارب السلطان الذي يجدف فيه ثمانية رجال اقوياء — عاد الى الفندق ليجد نيفلنسكي غارقا في عرقه وهو لا يرتدي الا

ملابسه الداخلية وكان يكتب خطابا ·

وقال البولندي « انه يرسل اليك هذا » ، قالها عرضا وهو يسلم هيرتزل صندوقا ، كان يحوي صليب القائد بدرجة المجيدية * وبينما كان هيرتزل السياسي قد خاب امله ، وكانت الحلية الرخيصة هي نهاية الرحلة التي كلفت ٣ الاف فرنك وكانت غير ثمرة الاف فن البلاغة ظهر هيرتزل الفنان · وخلف زعيم اليهود المنتظر يكمن كاتب المقال الناجح والفنان الاصيل · « لقد أحببت منظر القرن الذهبي من نافذة فندقنا ، الغسق والليل الذي تضيئه الانوار وضباب الصباح الرائع الوردي ، وروعة ابخرة المساء البنفسجية الزرقاء المشوبة باللون الرمادي · السفن الكبيرة تختفي في الضباب ثم تظهر من جديد · وفي الليالي القمرية احجبة خفيفة منضوهة · واليوم مشمس · والمرتفعات التي هناك ـ ايوب Eyub اعتقد ـ تمتد بين رقعتين زرقاويتين · وفوقنا السماء الرقيقة وتحتنا المياه الزيتية التي تتوهج عليها ضربات المجاديف الفضية » ·

وبعد اسبوع عاد الى لندن ، يصنع الطوب لمبناه السياسي من فروع القش التي جمعها من هذا الحطام الجميل الذي كانت حمايته الوحيدة ان كل واحد يريده « ان اي من القراصنة لن يسمح للاخرين بأن يستمتعوا بهذا الجمال ولهذا فلربما بقي دون ان ينهبه أحد (٥) » ·

---

* وسام وضعه السلطان عبد المجيد ، ابو السلطان عبد الحميد عام ١٨٥٢ · والوسام له سبعة شعب فضية واهلة بها نجوم تحيط بميدالية ذهبية تتوقف الجواهر فيها على درجة الوسام وكانت معناها ستة درجات · وسام هيرتزل من الدرجة الثانية ·

الفصل الخامس والعشرون

كان استقباله بواسطة دوق بادن الكبير ثم وزياراته للمسئولين العثمانيين بمثابة العمودان اللذان أسس عليهما استراتيجيته مع الاغيار · غير ان استراتيجيته يمكن ان تكون لها معنى في حالة ما اذا اعترف اليهود به زعيما لهم · كان عم القيصر العجوز حاكما خفيف الوزن ، والسلطان رجلا مترددا ولا يمكن عندئذ للاوسمة والمصافحة بالايدي ان يكون لها نتائج · ولكن اذا حملت مثل تلك الدوائر الهامة ، هيرتزل على محمل الجد ، فان اليهود قد يحذون حذوهم ، واذا قبله اليهود ــ والافضل المليونيرات منهم واذا لم يقبله هؤلاء فالمتعلمين او كملجأ اخير الكتل البشرية ــ كزعيم لهم فانه عندما يطرق ابواب الملوك في اوروبا او تركيا مرة اخرى فستكون لذلك ثمرة · وكان هيرتزل عندئذ في موقف ساحر عليه ان يحتفظ بثلاثة اطباق في الهواء معا مرة واحدة ولو سقط احدها على الارض فسيتبعه الاخران · ان الرفض من جانب رجال الدولة من الاغيار ، والفيتو الذ ائي من جانب السكان سيعرقل مهمته · غير انه اذا امتنع اليهود عن فهم تأييدهم فان المهمة سوف تنتهي قبل ان تبدأ · وسوف يبدو عرضة بتخليص أوروبا من ثوارها وماليها عندئذ عرضا افاقا كعرضه دفع ديون السلطان · وبتاييد اليهود فقط له عندئذ يمكنه ان يتحدث حديث له وزنه في اوروبا وآسيا ·

لقد طلب السلطان قرضا بمليونين كدليل على نفوذ هيرتزل · وكانت مدينة لندن في ذلك الوقت أغنى مصادر العالم برأس المال · وبعد اسبوع من رحيله عن تركيا كان هيرتزل يدخل مجلس العموم كضيف على السير صامويل مونتاجيو · وكان للمظاهر الخارجية الفخمة أثرها الفعال (١) ، برؤية تلك الابهة البرلمانية المهيبة ــ وقبل كل شيء فالمظاهر لها أثرها الشديد ــ شعرت

بلمسة من دوار مثل تلك التي شعرت بها عندما كنت في الحجرة الملحقة بحجرة دوق بادن الكبير • وفي الوقت نفسه بدأت أفهم لماذا يتمسك اليهود الانجليز ببلد يمكنهم فيه ان يدخلوا هذا المجلس كسادة » • وأسر اليه مونتاجيو بأنباء مثيرة • ان مؤسسة هيرش تحت تصرفها عشرة ملايين جنيه استرليني • ولكن كانت هذه اخر انباء طيبة من الاغنياء • فقد غيم على زيارته للندن جو من التردد والشك والفشل • وكانت اخر كلمة لمونتاجيو هي انه سيتمسك بالحركة فقط بلغوا الارستقراطية ـ فسأجعل الجماهير تتحرك أيضا (٢) » •
يتزعمها غوغاء : « ولكن في أسوأ الاحوال ـ اذا اثبت الارستقراطيون انهم اذا تمت الاستجابة لثلاثة شروط : ان الدول الكبرى يجب ان توافق ، مؤسسة هيرش يجب ان تسلم ملايينها ، ويجب ان ينضم ادموند دي روتشيلد ، زعيم الفرع الفرنسي في السلالة الحاكمة الى اللجنة • واعرب مونتاجيو ايضا عن شكله الكبير في الاجتماع الشعبي في حي الايف ان الذي قرر هيرتزل ان يلقي امامه خطابا في ١٢ يوليو عام ١٨٩٦ • ورد هيرتزل قائلا انه لا يريد حركة

لقد اوضح الاجتماع الشعبي لساكني الايست ان الملوحين بقبعاتهم الهاتفين المرحين كيف كان ينظر الى زيارته لتركيا في خلفية كئيبة • وقالت الاعلانات المكتوبة باللغة اليويسفية ـ خطأ ـ ان هيرتزل استقبل بواسطة السلطان • وقارنه واحد من المتحدثين بموسى وكولومبوس • لقد اسكر هيرتزل شعوره بالسيطرة على مستمعيه • وشعر انه طائر مع النسيم • وهاجم محبو صهيون الانجليز عندما وضع اوراقه على المائدة في اجتماع في المعبد اليهودي في بيفيس ماركس Bevis Marks : انه يعارض التسلل او المستعمرات التي لا يوجد دفاع عنها • « لقد قلت اني اريد فقط النوع من الاستعمار الاستيطاني الذي يمكن ان نحميه بجيشنا اليهودي (٣) • وانتهى الاجتماع في صخب ، وكانت حالة الطقس مثل حالته • وكتب الى جولي في احدى الخطب النادرة التي بقت ، « طفلتي العزيزة •• كلمتين سريعتين قبل ان ارحل في جو رديء الى بولونيا • آمل ان يكون اله البحار رحيما معي • غدا سأكون في باريس • ولا اريد ان امكث هناك اطول من اللازم لان اجازتي حتى الان لم تكن الا متعبة للغاية ، رغم اني قمت بعمل ناجح للغاية • اني اتوق للراحة ، قبلاتي الحارة لك وللاطفال الاعزاء ، ابيك المخلص ، تيودور (٤) » •

وفي باريس في ١٨ يوليو زار هيرتزل البارون ادموند دي روتشيلد في مقر عمله في شارع لافاييت • كان البارون يكبر هيرتزل بخمسة عشر عاما • لو ان روتشيلد يمنح هيرتزل ما رفضه البارون الراحل دي هيرتش فانه

سيواصل مفاوضاته مع السلطان كسفير بابوي للارستقراطيين وليس كمدافع عن حقوق الشعب · غير ان دي روتشيلد كان اكبر سنا من دي هيرش · وبدأ حديث مينس مع الرجل المصرفي اسفر عن ان كولونيل جولد سميث وصل الى راي نهائي بأن مشروعات هيرتزل بالغة الخطورة · وكان الباقي كله مقبض للصدر مما لم يستطع هيرتزل معه ان يسجله · لقد شعر رأس اكبر عائلة يهودية في اوروبا ان مصالحه المالية لن تصان على الاطلاق بواسطة الصهيونية بل ستصبح مهددة بها · وكرئيس لعدد من المستعمرات الخيرية التي لا كسب من وراءها في فلسطين خاف رمي روتشيلد ان تعـــرض مؤامـــرات هيرتزل مستعمراته للخطر ·

واذ فشل هيرتزل في كسب مليونير واحد الى جانبه ، استعـــد لغزو الطوائف اليهودي · وكان بخاصة في النهاية ــ مصر للضجيج والمأساة وللتنظيم ايضا ــ كان سيمحو آثار مواقع العدو · وقد ثبت ان الكفاح لاقناع اليهـــود اعتقه من سياسي الاغيار الطاف أو رشوة المسئولين العثمانيين · كـانــت المراهنات كبيرة وهاجم هيرتزل بجنون المتصاعر · واذا خسر فسيلام علـى انه حالم كسول وتسوء سمعته ككاتب ·

ولو كسب فان تفاخره الصامت ، « سأتعامل مع اقوياء هذا العالم كمثيل لهم » · سيصبح حقيقة واعية · ولما كان المنتصرون في التاريخ هم الاقوياء ولو بصفة مؤقتة على الاقل ــ فانه اذا كالبقية فسيطعن في اعدائه او يتحولون بعد وفاته الى مؤيدين · وسوف يدان الكتيب الـــذي كتبـــه موريتز جوديمان National Judentum الذي كتب فيه اعتراضاته على القومية اليهودية على انــه عمل يتسم « بالغموض الجبان » وكتب بناء على « رغبات الطبقة العليا ليهود فيينا (٦) » · وفي ذلك الوقت كان هيرتزل هو الذي يبدو غامضا ، هيرتزل الذي كان حلفاؤه يبدون مشكوكا فيهم · لقد رحب هيرتزل بعودة هيرتزل الظاهرة الى اليهودية وتحمس لجراة افكاره · ورغم ذلك فانه يعترض علنا على عدم تمسك عائلة هيرتزل حتى بأقل قدر من اليهودية ويعلم ان « الدولـة اليهودية » لم يكن بأي حال مشروعا لدولة مبنية على التوراة · وقد قارنه في تخوف وهو يفكر بعيدا عنمجالسعره الشخصي ــ بسباتي زيفي

والمسيح الكذاب الذي جاء ذكره لاول مرة على لسان شيف Schiff في ١٧ يوبيو عام ١٨٩٥ تكرر مرارا في اذهان الشكاكين · فمثلا في ٢٩ مارس ١٨٩٦ اليوم الذي سبق زيارة فون سيموني المعادي للسامية حضر هيرتزل جلسة رابطة الطلبة اليهود (يونيتاس) · وشرح فيها اوتو فريدمان Otto Friedmann

عضو بارز في كلية هيرتزل السابقة ، اهمية عيد الطلبة اليهود ٠ « جلست الى جواره ٠ وتحدث الي فيما بعد على انفراد وذكرني بسباتي زيفي الذي سحر الناس جميعا ثم غمز لي بطريقة يبدو ان معناها اني يجب ان اصبح مثل ساباتي هذا ، او هل كان يعني اني بالفعل ساباتي (٧) ؟ » ٠

وقد ذكر التشبيه الملعون بسباتي زيفي بصورة اكثر وضوحا بواسطة واحد من اكثر المبشرين اليهود ذكاء في عصره ٠ وهو حاييم زندل ماكوبي Chain Zundel Macoby لود في روسيا عام ١٨٥٩ ودرس الانبياء وهو طفل في السادسة وأصبح في مراهقته المبكرة داعية ملهم « لمجيء صهيون » ، وسافر في جميع انحاء روسيا يبشر بالاستيطان السلمي في الارض ٠ كانت صهيونيته دينية وغير سياسية ، وكانت روحه ستتقزز من أي محاولة لطرد الناس الاخرين الدين يعيشون في فلسطين ٠ وقد أضفى عليه نجاحه كمبشر (او مجيد) الاسم الذي يذكر به الان (الكامبتنرر مجيد) ٠ وفي عام ١٨٩٠ وكان عمره ٣٢ عاما ، سافر الى لندن حيث كسب بتبشيره اتباعا متحمسين غير المهاجرين من روسيا ، ورقته المعروفة تظهر من حديث لابنته وهي في سن الشيخوخة ٠

« ما الذي علمه لكم ابوك ايها الاطفال بخصوص اكل اللحم ؟ » ٠

اجابت : « انه شيء قاس ، قاس » ٠

استقبل الكامينتزر مجيد هيرتزل في استنكار الانبياء ٠ ان الكافر * لا يمكن ان يكون زعيما يهوديا صادقا ٠ بل على العكس يمكن ان يكون ساباتي زيفي يرتدي مسوح القرن التاسع عشر ٠ « هاجمه ماكوبي بكلمات حادة قاسية، وقال انه مسيح كذاب يجب تجنبه ٠ غير ان اتباع هيرتزل في الايست اند وبعضهم من مدارس مجيد السابقين ، بدأوا يفرقون اجتماع الحاخام ٠ وقد حدى هذا الضغط باتحاد المعابد اليهودية الى منعه من ذكر الصهيونية في صلواته ، وفي النهاية طلب اليه ان ينسحب من جميع الاعمال الطائفية في لندن ٠ ومات عام ١٩١٦ ، « رجل محطم القلب ، مظلوم تعس (١٠) » ٠ ورغم ذلك فان اعظم ظلم حل به بعد وفاته ٠ اذ في عام ١٩٤٨ كان المجيد قد ضم فعلا الى حاشية هيرتزل » ٠ ان هجرة عدد من القوميين اليهود التي أدت بالفعل في

---

* اعتقد « الماجد » (أو الواعظ) ان هيرتزل اعترف بالحاده أمام آشر مايرز رئيس تحرير جويش كرونيكل في ذلك الوقت ٠ وكان موقف هيرتزل الديني الذي حدده بنفسه على انه نوع من الاحدية ، هو اقرب الى اللاادرية ٠

عام ١٨٨٧ الى تأسيس « القديمه » Kadimah في حي الايست اند في لندن والخطاب العاطفي التبشيري الذي ألقاه القس حاييم ماكوبي ، و « كامينتزر مجيد » الشهير ، اثارا في بداية التسعينات قلاقل شعبية لصالح القومية اليهودية (١١ » وبعد ذلك بأربعة حقب اقيمت قاعة للتعليم في ذكرى « مجيد » في جامعة بار ابلان في اسرائيل ٠

وثمة كتيب لجمع التبرعات به ملخص لتاريخ حياته ، وصفحتين لذكراه ولم يذكر في الكتيب شيئا عن خلافه مع هيرتزل ورفضه للصهيونية السياسية ويقول : « ان فيض عقله وقلبه مهدا الطريق لنجاح الصهيونية في النهاية (١٢) » وهذا يشبه احياء ذكرى كاردينال نيومان دون ذكر كلمة عن خلافه مع كاردينال مانينج ٠

كان من الاسهل على هيرتزل المفكر الحر له ان يرفض المعارضة لافكاره على انها نتيجة للنزق الديني او المصالح الذاتية الضحلة ٠ ولم يستطع ان يفعل ذلك ٠ فبعض معارضيه الاذكياء كانوا مثقفين ورجال خبرة كان عليه ان يحترمهم ٠ فقد رأوا خطرا عظيما في مشروعاته وفي الطريقة التي حاول بها دفع هذه المشروعات الى الامام ٠ وهناك ثلاثة من ناقديه قد ينحنوا عن الجميع : صحفي جريء ، ووزير مالية محنك ، وعالم اجتماعي من الرواد ٠ ونحن نعلم ان هيرتزل كان يحترم شخصية الثلاثة ٠

ول واحد من الثلاثة قابل هيرتزل هو الدكتور جوزيف ٠ اس٠ بلوخ Bloch (١٨٥٠ ــ ١٩٢٣) ، عضو في برلمان النمسا وحاخام مثقف ، وكمحرر لمجلة Oesterreichische Wochenschrift اكثر المعادين للسامية اصرارا في العالم المتكلم بالالمانية ٠ وكانت مجلته الاسبوعية التي تخصصت في دحض كل تشهير عنصري تقرأ في معظم البيوت اليهودية ٠ وقد جمع بلوخ بين التعليم على انطريقة اليهودية التقليدية مع ثقافة علمانية عميقة ٠ وكان اول رد فعل من جانبه لهيرتزل عندما قابله في اجتماع في الاتحاد النمساوي الاسرائيلي في احد مطاعم فيينا يماثل رد فعل جوديمان ، لقد دهش لانه وجده مهتما بالشئون اليهودية ٠ وكتب بلوخ فيما بعد يقول : « هيرتزل كان معروفا بأنه رجل كامل محنك واستاذ من اساتذة فن الحوار الذي نادرا ما تحدثت كتاباته في «الفيتون» بما فيها من لمحات سحرية متعالية ، بشيء عن مصير اليهود » ٠ وكان بلوخ يؤمن هو وجوديمان ان اليهود طائفة دينية متماسكة بدين موسى ، وبالنسبة له فان ما يراه من ان اليهود لم يشعروا بأي مشاركة مع يهودي قبل دين اخر يثبت صحة نظريته ٠

وبعد ذلك بخمسة ايام قبل بلوخ دعوة الى منزل احد الاصدقاء المهندسين ليستمع الى هيرتزل وهو يقرأ ما اصبح فيما بعد « دولة اليهود » . وارتــاح بلوخ لانه لم يسمع شيئا يذكر عن صهيون او فلسطين فيما قرأه هيرتزل . وقال موضحا : « ان فلسطين هي وطن اليهود القديم انها رمز لما يتوقعه الانبياء ولآمالهم . ومهما كان الامر فان موقعها عند حدود آسيا وافريقيا واوروبا جعلها دائما همزة اتصال بين الدول الكبيرة المجاورة ويجب علينا نحن اليهود الا نضع رؤوسنا على فراش المرض هذا مرة اخرى (١٤) » .

وبعد ذلك بأيام قام هيرتزل بزيارة بلوخ وهو يشعر بقدر من الحــرج لقد أقنعه عدد من اصدقائه ان كلمة فلسطين المغناطيسية وحدها هي التي يمكن ان تثير اليهود ليهاجروا . ورجا بلوخ هيرتزل ان يقرأ تاريخ الارض المقدسة منذ الازمان القديمة ، وعندئذ سيجد ان فلسطين كانت مستقلة فقط اثناء حكم داوود وسليمان وانه بعد ذلك تتابع عليها أناس كثيرون وجعلوا منهــا ميدانا لمعاركهم . وانضم بلوخ الى صفوف أولئك الذين ذكروا شبطاي زيفي . ولكي يصحح فكرة هيرتزل عن اليهودية اعاره كتابا لادولف جيلينيك الحاخام الذي عمل مع جوديمان حتى وفاته عام ١٨٩٣ . وعلم هذا اليهود ان ديارهم يمكن ان تكون معابد للاله الحي افضل من المعبد الذي هدم منذ امد طويل . « ان المذبح في القدس قد دمر واليهودي لا يستطيع ان يقدم أي قربــان ، ويقــول التلمود ان اروع مذبح هو قلبك : كن كريما مع الفقير ، لانك اذا أعنت أبــا واحدا وأعلت أولاده أجدى في عين الرب من ذبح مائة ثور له ، افعلوا الخير ، ادرسوا التوراة وضع روح العدالة فيها والحب في اعمالك وعندئذ لن تحتاج الى ضحية الدم (١٥) » .

ورغم انه كان واضحا ان هيرتزل لم يكن يعتزم احياء مذهب من مذاهب التضحية في معبد يعاد بناءه الا ان بلوخ كان يخشى ان يؤدي برنامج هيرتزل الى العنف والمعاناة . واقتبس مثالا من شاعر النمسا الاعظم فرانز جريلبارتزر قال فيه : « من الانسانية عن طريق القومية الى الوحشية (١٦) » . ان اللفتة المعادية للسامية التي تقول ان فلسطين ستصبح مصيدة فئران طيبة لليهود قد يثبت انها صحيحة .

وبعد نشر « دولة اليهود » على الفور ، وفي بداية عام ١٨٩٦ ، قدم بلوخ هيرتزل الى ناقده الثاني وهو ليون ريتر فون بيلينسكي (١٨٤٦ ـ ١٩٢٣) . وكان بيلينسكي وزوجته ، رغم انهما كاثوليكيان الا انهما من أصل يهودي وظلا يحتفظان بتعاطف حار مع اليهود . وقد نشأ بيلينسكي في جاليشيا وكان له

سجل ذكي في جامعة لفوف Lvov التي أصبح عميدها في سن الثانية والثلاثين · وفي عام ١٨٨٣ انتخب في البرلمان النمساوي وفي الوقت الذي قابل فيه هيرتزل كان وزيرا للمالية (وقد احتل نفس المنصب في بولندا المستقلة بعد الحرب العالمية الاولى) وقد سمع بيلنسكي حكايات شاذة عن هيرتزل ووافق على مقابلته فقط بشرط أن يقسم كلاهما على ان يظل اجتماعهما سريا · ولا تشير مذكرات بيلنسكي التي نشرت بعد وفاته بأي شيء الى هيرتزل ولا يظهر ايضا اسم بيلنسكي في يوميات هيرتزل *

ولكن ١٢٠٠ صفحة مطبوعة بالالة الكاتبة تصف اتصالاته مع هيرتزل اعطيت بلوخ بواسطة بلينسكي الذي سلمهم بوصيته الى شخص سمي (حاييم بلوخ) الذي أفرج عن الكثير ليبين موقف رجل الدولة · وكمية المذكرات تثبت مدى الجدية التي أخذ بها كل رجل الاخر (١٧) · وكان بيلنسكي كسياسي على اتصال يومي بصانعي سياسة آل هابسبورج · وكانت المعاداة للسامية بالفعل في عام ١٨٩٦ تجد ذخيرة لها في مناقشات هيرتزل كما وجد اتباع درومونت عندما ظهر « الدولة اليهودية » في نسخته المترجمة بالفرنسية · فقد قال فون شونرر Von Schönerer لبيلنسكي انه يعتقد ان هيرتزل على حق تماما وان الحل الوحيد للمشكلة اليهودية هو ان يعطى اليهود ارضا ثم نجعلهم يرحلون اليها · والرأي الذي قاله درومونت واتباعه في « لا ليبري بارول » هو ان اليهود مشكلون من شعب مقسم لا يمكنهم الاندماج · ونظرية هيرتزل التي رددها مرارا عندما كان يتعامل مع الاغيار ـ بأن الصهيونية ستدفع بالعناصر الخطرة الى دولهم المضيفة لهم ـ يمكن ان يكون لها نتائج قاتلة · لقد وافق المعادون للسامية على هيرتزل لانه يؤكد اتهاماتهم التي يوجهونها لليهود · وقال بيلنسكي : « اذا استمرت الدعاية المغرضة الخبيثة التي تقول ان اليهود خطر على العالم وانهم ثوريين فان الصهيونيين بدلا من اقامة دولة يهودية سيتسببون في تدمير اليهود الاوروبيين » ·

وشارك بيلنسكي بلوخ رأيه ، ورأى الامبراطور فرانز جوزيف * وهو

---

* كان هيرتزل على الارجح يريد استبعاد بيلنسكي عن يومياته التي احتفظ بها لاسباب سياسية · فبينما ذكر اجتماعاته مع جوزيف بلوخ فانه لا يسجل المناقشات التي سمعها منه ضد الصهيونية ·

* علق فرانز جوزيف لبيلنسكي على ما قاله هيرتزل من ان المساواة في الحقوق المدنية =

ان القومية مدمرة في حد ذاتها . كان فون شونرر يريد حربا ، لان القومية الالمانية ستنهض من حطام امبراطورية آل هابسبورج ، وتنبأ هيرتزل بدولة يهودية قومية تنهض نتيجة للحرب التي ستدمر بالمثل امبراطورية السلطان .
وكتب بيلنسكي يقول : « ان هيرتزل لا يريد ان يعترف انه قومي متزمت ، ولكنها حقيقة أليست القومية هي بعينها القصص ؟ والفكرة بأن اي يهودي ليس متمسكا بالصهيونية وليس قوميا ليس يهوديا — ليست فكرة أصيلة . فان القوميين الالمان يقولون نفس الاشياء. ان هيرتزل يستخدم كل انواع الصواريخ الصحفية ليثير الشقاق بين الدول . ولكن عندما تنشب الحرب فان اليهود سيكونون اول ضحاياها (٢١) » .

كان بيلنسكي واحدا من اثنين من المفكرين الذين تنبأوا في تلك المرحلة المبكرة بأن برنامج هيرتزل سيثير العداوة لليهود في منطقة الشرق الاوسط وهي منطقة لم يكن معروفا فيها بعد التمييز على الطريقة الاوروبية ** « ان المعادين للسامية الذين يوصون اليوم بالخطة الصهيونية سيحرضون الغوغاء في فلسطين فيما بعد وسوريا ايضا ثم يصبح بعد ذلك تركيز اليهود في فلسطين أمرا لا فائدة منه للصهيونيين (٢٢) » .

ويمكن ارجاع تاريخ تنبؤ بيلنسكي بالتصادم مع العرب تقريبا الى عامين بعد اول اجتماع له مع هيرتزل . والتنبؤ الثاني يمكن تأريخه بدقة . ففي ٩ ديسمبر عام ١٨٩٩ نشر لودفيج غومبلوفيتش Gumplowicz مقالة عن « التفسير الاجتماعي للتاريخ » . ورغم انه لم يكن لهذه المقالة علاقة بالصهيونية الا ان لودفيج كان يهوديا وفي خطاب من هيرتزل في ١١ ديسمبر طلب الى عالم الاجتماع المرموق ان يعبر عن موقف هذه الحركة المجنونة » . [الصهيونية] . وارسل بالبريد بعض كتاباته الى لودفيج . وكان لودفيج في سن كبير يمكن معه ان يكون كوالد هيرتزل . واستغل كبر سنه لكي يكتب الى هيرتزل رأيا ذابلا . فقال ان الصهيونيين على خطأ من الناحية التاريخية . فان اليهود لهم صلة كبيرة ايضا بفلسطين مثلما كان « للآريين » في القرن التاسع عشر صلة

= أمر سيء لانها أدت الى اندماج اليهود وتزوجهم المشترك فقال : « ماذا كان سيحدث لهذا الهيرتزلي اذا لم تكن هناك مساواة في الحقوق المدنية ؟ ان تعاون هيرتزل مع القوميين الالمان ، أعداء الملكية يقلقني باستمرار » .

** انظر الصفحة التالية .

بالهند : « وفي فلسطين فان اسلافهم كانوا قلة مثل اسلاف الفلسطينيين في مصر » · وأشار الى بعض الوثائق الادبية التي حصل عليها ابنه ماكس والتي تنقي ظلال الشك على « الاصول السامية » لليهود الروس والبولنديين · « وهذا هو اساسك التاريخي · والان سذاجتك السياسية » · تريد ان تقيم دولة دون اراقة الدماء ؟ اين رأيت مثل هذا من قبل * ؟

انه بدون القوة والدهاء ؟ انه وبصراحة وأمانة على الاسهم ؟ » لقد بنى جميلوفكس (الذي مات قبل نشر حتى صورة من اليوميات) حكمه على هيرتزل على اساس تصريحاته وكلماته الكثيرة · لانه في الوقت الذي كتب فيه جميلوفكس لهيرتزل كان هذا قد أصبح له منبر وساحة يتكلم منها ·

أما المنبر فكان جريدة اسبوعية تنشر بالالمانية وهي Die Welt · وكانت النجمة اليهودية أو نجمة داوود مناسبة جدا في وضعها بين اداة التعريف والاسم · وطبعت في فيينا في توركنشتراس (شارع توركن) ·

وقد استنزف اصدار الصحيفة من المال والنشاط الجسدي اكثر مما يقدر عليه هيرتزل ولكن حتى المساء في ٦ يونيو عام ١٨٩٧ ، خرجت الصحيفة · ووصف هيرتزل نفسه بأنه « مرهق كلية » ، وهي عبارة تظهر من الان فصاعدا بتكرار في يومياته · فكانت هناك زيارة زانجويل ، والحاجة لوضع صفحة تسلية ورواية اخرى والخوف الكامن من ان يستغل بينيديكت صحيفة « دي فلت » كمبرر لطرده · وقد أبدت امه وكذلك جولي المخاوف من انه قد يفقد مصدر دخله الوحيد ·

والهدف الرئيسي من الصحيفة كان نشر وجهة النظر الصهيونية داخل الطوائف اليهودية · ولكن في نفس الوقت كتب هيرتزل الى سيدني هويتمان Whitman وهو رحالة انجليزي يتمتع بصداقة السلطان ، وكتب الى احمد مدحت الصحفي المفضل لدى السلطان ، وقال ان « دي فيلت » اصبحت موجودة لخدمة القضية العثمانية · وفي هذا الصدد أثار هويتمان موضوعين · هل سيدين المستوطنون اليهود بالولاء للسلطان ؟ وكيف دون ان يجردوا

---

* ليس معنى هذا ان اليهود لم يعانوا في الدول الاسلامية ، فقد عانوا الى جانب المسيحيين والمراطقة المسلمين ولكن القانون الاسلامي الذي أساسه القرآن يعترف باليهود مع المسيحيين من « شعوب الكتاب » موحدين يستحقون التسامح · أما التحيز الذي وجد فاساسه تحيز غير عقلاني او تنافس تجاري · أو تحيز مبني على أساس مذاهب عنصرية ، اما نوع المعاداة للسامية فلم يكن معروفا ·

المواطنين من الارض سيحصل اليهود على الارض التي يحتاجون اليها ؟ وبالكاد كان رد هيرتزل ، على ضوء ما كتبه في يومياته ، صريحا • فقد كتب يقول : « ان المهاجرين اليهود في فلسطين سيصبحون رعايا صاحب الجلالة السلطان بشرط ضمان « حماية انفسهم » ضمانا تاما • اما شراء الارض اللازمة فسيتم دون قسر أو اجبار ، فلا يمكن ان يكون الامر موضوع « تجريد » اي شخص على الاطلاق من ملكيته • فالملكية حق خاص للفرد ولا يمكن انتهاكه • امـا ممتلكات السلطات الخاصة فيمكن الدفع مقابلها نقدا طبقا لقيمتها اذا اراد البيع (٢٥) » •

ويظهر انشغال هيرتزل « بدي فيلت » من خطأ غريب له عندما كان يشير الى عيد ميلاد ابنه • فقد ذكر في نهاية المجلد الرابع من اليوميات : « يونيو — العيد السابع لابني هانز » • كان في الواقع العيد السادس * •

والاكثر أهمية من المنبر كان الساحة : اول مؤتمر صهيوني • لقد شجع فكرة حشد يجمع مؤيدي الصهيونية غضبه مع البارون دي روتشيلد وينقـل هيرتزل كلامه الى البارون ، « لقد كنت المفتاح لسر الخزانة كله » ، واذا رفضت فان كل شيء كونته حتى الان سيتداعى • وسأضطر عندئذ الى ان افعل كل شيء بطريقة مختلفة • سوف أبدأ حملة اثـار شعبيـة وبهذا سيكـون مـن الصعب المحافظة على السيطرة على الجموع الشعبية (٢١) » • وبعـد ذلـك بيومين أصدر تعليماته الى « دي هاس » يعرض له من لندن ان ينظم « الجموع الشعبية (٢٨) » •

وكان المشجع الاخر للمؤتمر الصهيوني « خطاب طيب » تلقاه عندما كان يستريح في اوسيه Aussee في اول اغسطس عام ١٧٩٦ • فقد اقترح رئيس الحاخامات « زادوك كاهن » الدعوة لعقد « مؤتمر سري » يمثل اكبر الطوائف اليهودية • وكان كاهن يعلم بالشقاق الذي حدث مع دي روتشيلد وأراد ان يصلح بين هذين اليهوديين المرموقين ، يجب ان يكون المؤتمر سريا حتى لا تثير مخاوف روتشيلد — ويمكن ان يسفر عن سند بديل لهيرتزل • ورغم ان رد فعله المباشر كان الموافقة ، فلم يكن يريد مؤتمرا سريا • اذا كانت الجموع اليهودية ستنظم فيجب رؤيتها حتى يمكن تنظيمها ، ولو عقد المؤتمر فيجب ان

---

* كان هيرتزل يذكر ابناءه احيانا في يومياته ومن الغريب انه في المرات الخمسة التي اشار فيها الى اعياد ميلادهم يخطىء في عمرهم في ثلاث مناسبات •

يكون مؤتمرا علنيا مثيرا الى اقصى حد ممكن ٠

ومر اكثر من عام قبل ان ينعقد المؤتمر ٠ وكانت النية في اول الامر عقده في ميونيخ ولكن الطائفة اليهودية في تلك المدينة احتجت رسميا وبعد التفكير بسرعة في زيورخ قرر هيرتزل اختيار بازل وهي مدينة سويسرية اصغر من المدن الاخرى ٠ واستمر المؤتمر من ٢٩ الى ٣١ اغسطس عام ١٨٩٧ ٠ وتم في النهاية اختيار المبنى الذي سيعقد فيه المؤتمر وهو الكازينو الخاص بالمدينة وهو قاعة تستخدم للحفلات الموسيقية او للمقامرة ٠ وبلغ عدد المندوبين ٢٠٠ مندوب ، من بينهم القس هيشلر وصهيونيون مسيحيون اخرون ٠ ولم يكن المؤتمر بأي الاحوال اجتماعا سريا بل عقد بعد اكبر قدر من الدعاية الممكنة ٠ وحضره مراسلون عن ١٢ صحيفة كبيرة على الاقل بما فيها « لندن تايمز » ، ونيويورك هيرالد ، وفرانكفورتر زايتوغ وايكو دي باري وكذلك مندوبين عن الصحافة السويسرية والعبرية ٠ وقد اختلف المندوبون (رجالا ونساء) في مراحل العمر وفي المهنة ٠ ولم يكن روتشيلد ولا المليونيرات الاخرون حاضرين ولم يذكروا ـ بناء على تعليمات هيرتزل في الكلمات ٠ كان اجتماعا للطبقة المتوسطة من مندوبين غير منتخبين مدفوعين للكلام في سبيل ما اعتبروه انفسهم ٠ وكانوا تقريبا من نفس الطبقة التي خلقت القوميات الالمانية والايطالية ٠ ولو تركوا لكي يتصرفوا بأنفسهم ليبدوا كجماعة زرية الملبس ٠ ولكنهم لم يتركوا لكي يتصرفوا بأنفسهم ٠ فقبل المؤتمر بشهور قرر هيرتزل ان جميع المندوبين الذين سيحضرون الجلسة الصباحية الافتتاحية يجب ان يرتدوا حلة المساء ٠

« لقد نجح هذا نجاحا رائعا ، ان الزي الرسمي يجعل معظم الناس متصلبين وهذا التصلب يهيء الطريق للرصانة ـ وهذا ما قد لا يحققونه من ازياء فاتحة اللون او حلل صيف او ملابس السفر ٠ ولم اتوان عن تشديد هذه النغمة الى حد الوقار ٠ لقد ظهر توردداو في اول يوم مرتديا رداء الرهبان ورفض ان يعود الى منزله ويغير ملابسه ليرتدي حلة كاملة ٠ وجذبته جانبا وتوسلت اليه ان يفعل ذلك كمعروف لي ٠٠ وقد وافق ٠ وفي مقابل ذلك عانقته شاكرا ٠ وبعد ربع ساعة عاد يرتدي زيا كاملا » ٠

ومن هذا المكان الانيق بعث هيرتزل ببطاقات للذكرى لكل من اطفاله ولوالديه ولجولي رغم ان آل ناستاور كانوا لا يوافقون على الصهيونية بصفة عامة ٠ وكتبها على مائدة رئاسة التي اقترب منها بهدوء أشبه بهدوء الثلج حتى وجد من بين البرقيات والبريد الاخر اول خطاب يكتبه له ابنه هانز الذي

كان بالكاد قد تعدى السادسة من عمره . وارسال البطاقات كان اول عمل خفيف على قلبه منذ ان بدأ الحركة (٣٠) .

وأسفرت ثلاثة ايام من الاثارة الكلامية عن قرارين ما زال لهما اهميتهما : احدهما قرار شكر ووفاء ابرق به الى السلطان ، والثاني كان تعريفا مختصرا للبرنامج الصهيوني :

« ان هدف الصهيونية هو خلق وطن لليهود في فلسطين يتم الحصول عليه طبقا للقانون العام » .

ان المؤتمر يفكر في الوسائل التالية لتحقيق هذا الهدف :

١ ــ تشجيع الاستعمار الاستيطاني لفلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود على أسس مناسبة .
٢ ــ تنظيم اليهود بأجمعهم وربطهم بعضهم ببعض عن طريق المؤسسات المناسبة المحلية والدولية طبقا لقوانين كل دولة .
٣ ــ تقوية وتربية الوعي والمشاعر القومية اليهودية .
٤ ــ اتخاذ خطوات تمهيدية نحو الحصول على موافقة حكومية اذا اقتضت الضرورة لتحقيق هدف الصهيونية (٣١) .

وبرنامج بازل كان في احدى تفاصيله اقل صراحة من « دولة اليهود » الهيرتزلية وفي تفصيل اخر كان اكثر حزما . ان ذكر وطن وليس دولة كان مناورة تكتيكية من جانب ماكس نورداو . وكتب فيما بعد يقول : « لقد بذلت اقصى ما في وسعي لاقنع المطالبين بالدولة اليهودية في فلسطين اننا قد نجد تعبيرا مواربا يعبر عن كل ما نعنيه ولكن يقوله بطريقة يمكن معها تجنب اثارة الحكام الاتراك للارض التي نريدها واقترحت كلمة «Heimstatte» كمرادف للدولة State ... وهذا هو تاريخ التغيير الذي لاقى تعليقات كثيرة . كان تعبيرا غامضا يثير الالتباس ولكننا جميعا فهمنا ما يعنيه . وبالنسبة لنا فكان يعني عندئذ دولة يهودية وهو يعني نفس الشيء الان » . وقرر البرنامج صراحة المنطقة المطلوب ان يكون الوطن عليها . ولم تذكر الارجنتين مرة اخرى ، وعندما اقترحت منطقة اخرى في قارة اخرى كانت العاصفة التي تنتج عن ذلك تعجل بموت هيرتزل .

وغادر هيرتزل المؤتمر في حالة ابتهاج . « اذا لخصت مؤتمر بازل في كلمة ــ وسأعمل على الا اقولها علنا ــ فستكون هذه : في بازل أسست الدولة اليهودية . واذا قلت هذا علنا وبصوت مرتفع اليوم فسيرد علي بضحكات عالمية . ربما في خمس سنوات وبالتأكيد في خمسين عاما سيعرف الجميع ما

اقول » • والواقع ان مجرد ان المؤتمر ـ الذي يمثل تحقيق وجـود المجتمـع اليهودي ـ قد عقد وانه سيعاد عقده وانه يستطيع ان يعلن انه يمثل الدولة اليهودية كل هذا أضفى على هيرتزل موقفا جديدا في العالم ، لانه انتخـب رئيسا للمؤتمر • وكان الهدف من تصرفه كرئيس ، وهو نتيجة لحضـوره المناقشات البرلمانية الفرنسية ـ هو التأثير في المراقبين مثل نيفلنسكـي أو هيشلر الذين يستطيعون ان يكتبوا التقارير لمن يعملون معهم • لقـد أثـار نيفلنسكي قلقه • وكارستقراطي بولندي ماذا سيقول عن اليهود ؟ وماذا سيقول اليهود عنه ؟ وقرر هيرتزل ان ينحيه جانبا •

وقد زوده الابتهاج بالمزيد من الطاقة • وفي طريق عودته الى فيينا كان متسرعا لكي يضع قرارات المؤتمر في طبعة كبيرة العدد من «الدي فيلت» لدرجة انه نزل من القطار عند حدود النمسا ليبرق بتعليماته الى الطالب الذي كان يحرر الصحيفة في غيابه والذي كان عمره ٢٢ عاما (٣٢) • لقد ملأ الكونجرس هيرتزل بالشعور بالاحترام لذاته • ورغم ان اللغة العامة كانت الالمانية الا ان احد المتحدثين حياه بالعبرية قائلا انه الملك • ولكن اعصابه عانت مما كتبه في مذكراته ان عواطفه مضروبة مثل الفراشات على الدبابيس ••• وقالت السيدة زونشتين وهي من اليهوديات الامريكيات بعد مشاهدته : « انهم سيصلبونك في النهاية ، وسأكون انا لك كمريم المجدلية » • « كان اربعة او خمسة اشخاص يتحدثون معي في وقت واحد • وهذا توتر ذهني كبير • وشعرت وكأن علي ان العب ٣٢ دورا من الشطرنج في وقت واحد » • او اقوم برقصة البيض • وذكر بعض البيض • صحيفته : فيجب الا يعطيها اي مبرر لطـرده • واليهـود الاورثوذكس ، لصالحهم سيحضر الصلاة في المعبد وهو يرتدي قبعـة سوداء عالية ، وكانت الكلمات العبرية القليلة في الصلوات أكثر في محنتها بالنسبة له من كلمة المؤتمر الافتتاحية • ومطالب الوطنية النمساوية • السلطـان العثماني : خطة انتزاع ارض من امبراطوريته قد تتعارض بشدة مع برقية الولاء للقيصر الروسي : ان سوء معاملته لليهود كان حجة للصهيونية ، ولكنه في بعض المراحل فان القيصر قد يكون شخصا مفيدا • الكنائس المسيحية : قد تكون منزعجة من اجل الاماكن المقدسة • وتوقف لكي يجد بيضا اخر • ادموند دي روتشيلد ، محبذ صهيون ، الذين ابقوا انفسهم بعيدين ثم الحزازات الشخصية والمنازعات بين الصهيونيين ، والحقيقة انه كان يسيطـر فقط علـى الاولاد والشحاذين واللصوص • بعضهم يستغلني والاخرون امـا غيـر مخلصين او يتآمرون مني • والنوع الثالث يتخلى عن كل شيء بمجرد ان يتفتـح أمامـه

مستقبل اخر ٠

لقد كان هيرتزل يميل دائما الى الشك والارتياب ٠ وبعد ان زالت عنه حالة الابتهاج اقتنع فجأة ان نيفلنسكي كان خائنا ٠ لانه عندما ناقشا معا الخطوات التالية التي سيتخذانها في تركيا أباح نيفلنسكي عرضا انه كان على اتصال بالبارون ادموند دي روتشيلد ٠ وقال البولندي ان المليونير يكن عداوة شديدة للصهيونية وانه يعتقد ان نشر كتيب «الدولة اليهودية» قد ألحق بالفعل اضرارا بالمستعمرات التي يساعدها روتشيلد في فلسطين ٠

وقد كبح هيرتزل جماح غضبه فقط خوفا من الاذى الذي قد يدبره له هذا النصاب في تركيا اذا أراد ٠

الفصل السادس والعشرون

في تلك الايام ، وفي منتصف الطريق بين فترة انعقاد المؤتمر الاول والمؤتمر الثاني كتب هيرتزل يقول : « اني اعيش دائما في جو محطة السكة الحديد ، فالقطارات اما تمر مسرعة .. واما المحطة مهجورة (١) » . ومن الناحية السياسية لم يتحقق اي تقدم هذا العام . والزيارة لتركيا ما زالت تبدو غير ذي ثمرة ورجع هيرتزل مرة اخرى الى عالم الخيال والى عائلته . وثمة افكار ثلاثة لم تسفر عن شيء ، وقد وصفت في مذكراتها : اولها كتابة دراما شعرية تمثل في زي عصر النهضة ـ وكتابه رواية عن صحفي يتحول عن القومية الالمانية الى صهيوني ، ومسرحية عن موسى . وفي يناير عام ١٨٩٨ نشر سيرة قصيرة له في مجلة ال « جويش كرونيكل ، ١٤ يناير ١٨٩٨ » وقال فيها انه ضرب بالعصا في المدرسة لتغيبه عن حصص الدين * وقد مثلت مسرحيته الجديدة ، بفضل الشهرة الجديدة لكاتبها لاول مرة في فيينا في شهر يناير ثم في برلين في شهر فبراير بينما اخرجت مسرحية الهارب لاخر مرة لها في مسرح « بيرمتياتر » . وفي مارس كانت ثمة انباء مثيرة ، سيذهب القيصر الى فلسطين في شهر اكتوبر ليفتتح كنيسة يهديها الى السلطان ويظهر صداقته له . وكان هيشلر ، الذي كان لديه مؤتمر للكنيسة في برلين يحث القيصر على مقابلة هيرتزل .

---

* يقول جوزيف باتاي ان هذا وكثيرا مما جاء في السيرة الذاتية يمثل الروح الهزلية لهيرتزل لا يجب ان يؤخذ حرفيا فالحقيقة ان المدرسين في مدرسته كانوا لا يلجأون الى العقاب الجسدي .

ومن شدة التوتر التي اجتاحته بسبب آماله لجأ عندما كان في فيينا الى عائلته • وكان منزلهم الجديد في ٢٩ « هاينزجيرهاس » في « فاهرينــج » منزلا صحيا ومنعزلا ، وكان يتمتع بحماية الاشجار التي اعتقد انها حيويـة بالنسبة للمدن الجديدة « هناك » • وفي ١٠ يونيو بلغ هانز السابعة واعطاه والده علما صهيونيا • « درع داوود وست نجوم في ستة مثلثات والسابعة على القمة وفي الوسط أسد يهوذا ••• » •

غير انه رغم احتياطات هيرتزل فقد مرضت بولين مرة اخرى ذلـك الصيف ، وشاهدها الزوار « في كورت » راقدة في الفراش وقرب قلبها زجاجة من الماء الساخن • وكما يحدث في زواج لا حب فيه راح كل من الابوين يلقي اللوم على الاخر للاهمال وزاد الاثنان من افساد الطفلة • ونمت لدى بولين حاسة بالحاجة الى العناية كان لا يمكن ان تنمو لديها ابدا • ويبدو ان مرضها وكان على الارجح « الحمى الروماتزمية » قد أفسد صحتها الى الابد • ولكنه في بداية اغسطس اخذ اجازته السنوية ، وقال هيرتزل لرئيس تحريره ان صحة بولين تحسنت وقال ذلك على ما يبدو لكي يبرر رحيله الى بازل حيث افتتح المؤتمر الثاني في ٢٩ أغسطس • وكان مؤتمرا مرهقا مثل المؤتمر الاول لكنه اقل اثارة • وقد طارت افكاره مثل المنطاد من منضدة الرئاسة • وعاد الى ربوع شبابه سواء قرب سالزبورج أو فوسلاو ، لم يكن متأكدا • « ربوع خضراء ساعة الغسق ، شجرة طويلة في طريق — منزل صغير — لم أعد أعرف ما اذا كان منزلا ريفيا أم هدوء منتشر لا نهائي (٣) » • كانت الوفود تبحث موضوع اقامة بنك •

ثم في ١٠ سبتمبر عام ١٨٩٨ وقع حادث ، فبينما كانت الامبراطـورة اليزابيت ، امبراطورة النمسا تخرج من فندقها في جنيف لكي تستقل عابرة ، غرس فوضوي ايطالي خنجرا في ظهرها • وقال الكاهن « ويليام هيشلر » في خطبة يوم الاحد في اجتماع لهيئة من الممثلين الديبلوماسيين : « لم يمر أسبوع مثل هذا بالعالم في تاريخه كله (٤) » • وأسرع الكاهن وأرسل خطابا الـى رئيسه في « بادن » • وكان معظم الخطاب يدور حول دور هيرتزل في نبوءات سفر الرؤيا (اخر اسفار العهد الجديد) • ولكن ليس تماما • وكان لـدى هيشلر انباء طيبة • فقد قام القيصر — الذي كان موجودا في فيينا لحضـور جنازة الامبراطورة — بزيارة معرض فلسطيني صغير سمح السفير لهيشلر باقامته في السفارة • ونظرا للزيارة التي كان القيصر يعتزم القيام بها للارض المقدسة فقد زاد اهتمامه بمعابد هيشلر وخرائطه • وكان ثمة نصر اخـر :

فكان هيشلر يوشك ان يقوم بأول حج له لفلسطين · (وكان ذلك بفضل اصدقاء الدكتور هيرتزل ، الذين دفعوا له ألف جيلدر (٥)) · وكان لدى الكاهن هدف عملي في النهاية : وهو ان يقوم بعملية بحث عن « صندوق العهد » ، المخبأ بلا شك سليما في جبل النبوة شرقي الاردن · وكان على السفير الالماني في القسطنطينية ان يقنع السكان بأن يتخلى عن شرق الاردن للقيصر ، وعندئذ ، « وعندما يتم العثور على صندوق العهد ، فان جلالته سيمتلكه ومعه لوحي الحجر وبها الوصايا العشر التي كتبها الله فوق جبل سيناء ، وربما النسخة الخطية لكتب موسى الخمسة المخبأة في التابوت والتي ستثبت مدى سخافة ما يسمى « بالنقد الاكبر » وما يحاول ان يقوله هذا النقد من ان موسى لا يمكن ان يكون قد كتب ذلك الخ ·· الخ وكان كل هذا لصالح هيشلر ·

وبالنسبة لهيرتزل ايضا فقد اعقب عملية الاغتيال بعض النجاح · ففي عدد من الاحاديث الحماسية راح هيرتزل يفيض في مزايا الصهيونية وفوائدها بالنسبة للحالة الداخلية في المانيا ومدى رغبة المانيا في ان تكون فلسطين محمية لها · وكان الذين يستمعون اليه ثلاثة من اكبر الرجال نفوذا في الامبراطورية الالمانية ·

وكان هيرتزل محظوظا بالرجل الذي كان سفيرا لالمانيا في فيينا من عام ١٨٩٤ حتى عام ١٩٠٢ · فقد كان الكونت فيليب اويلنبورغ رجلا محبا للفنون وكان ــ كما قال هيرتزل يريد بشدة مقابلة واحد من رجالات الادب البارزين · وكان يمثل ، بصفته اكبر اصدقاء الامبراطور ، جانبا واحدا من مزاج هذا الرجل الزئبقي · هذا لان القيصر لم يكن فقط استاذ الحرب الذي شخصه هيرتزل بأنه ليس فحسب رجل عوض عن ذراعه المكسور بمواقفه الحربية بل كان محبا حقيقيا للفن والموسيقى ربما ورثه عن جده رفيق الملكة فيكتوريا · ولكن الفنون تغيرت منذ ايام مجد تنيسون · وقدر لاويلنبورغ (بعد ان كان أميرا في عام ١٩٠٠) ان يسقط سقطة درامية مثل « وايلد » ولها نفس الطابع · ولكن حدث هذا بعد ان مات هيرتزل · ولم يكن اويلنبورغ عام ١٨٩٨ باعثا على احساسه بنذر الشر بل كان باعثا على احساسه بالقرب من السلطة ·

وردا على رسالة من هيرتزل أبرق اليه السفير في « اونتيراخ » في « الاتيرسي » قائلا أنه سيكون موجودا في السفارة الالمانية في التاسعة صباحا في اليوم السابق للجنازة · وعاد هيرتزل الى فيينا مسرعا · وبدأ الحديث ، متأخرا قليلا واويلنبورغ يبتسم دائما بينما كان هيشر يضع اللمسات الاخيرة لمعرضه · وقد أثر الكونت في هيرتزل فقد كان رجلا طويلا أنيقا في

السن الذي ينحدر فيه خط الحياة · فقد كان عمره يقارب او يزيد عن ٥٥ عاما ولكنه يبدو ان المستقبل ما زال امامه · ربما المستشار الامبراطوري ؟ (٧) وكان ايلنبيرغ في الواقع يتمتع بذلك التحفظ البروسي المشهور وكان في الواحد والخمسين من عمره وكان يبدو « جامدا مثل خزانة من الحديد » ، غير ان العيون القاسية الزرقاء تبرق فجأة وتصبح عيونا رقيقة وتشير الى الجانب غير المأمون فيه ، وتحدث بود الى زائره اليهودي الانيق · ولكنه لم يستطع ان يعده بأن يقدمه الى الامبراطور في هذه المناسبة ·فان الامبراطور سيكون مشغولا بالاجتماع مع برنارد فون بولو وزير خارجيته · وربما لان الرجلين كانا من ذوي الاهتمامات الفنية ، وربما لان هيرتزل شعر بالتقارب مع البروسي ، الذي كان سيعرفه اكثر فيما بعد ، فلم يقيده هو وايلينبيرج خجلهما المعهود · فراح بتكلم بثقة · وثبت من مؤتمرين صهيونيين ان القومية اليهودية موجودة كقوة· وقد اعتقد في البداية ان انكلترا ستكون هي المتبني الطبيعي للصهيونية · « ولو كانت المانيا فاني سأرحب بها أكثر · فان يهود اليوم أكثر ثقافتهم المانية · ولكني لا اقول هذا لاني في السفارة الالمانية بل لان تلك هي الحقيقة · والدليل : هو اللغة الرسمية للمؤتمرين اللذين عقدا في بازل » ·

وكان ذكر انجلترا تصرفا ذكيا · فقد أثارت انجلترا سلسلة من ردود الفعل لدى الامبراطور ودائرته ، فكان الاعجاب والغيرة يتصارعان من اجل المكان الاول · وكانت الامبراطورية الهندية التي ورثها أمير ويلز البغيض من جدة انقيصر (التي ماتت بين ذراعيه وليس بين ذراعي ادوارد السابع) قد جمعت من بعض ممتلكات المغول · كان ثمة تشابه بينهما وبين مملكة السلطان المتداعية ، وكانت فكرة التسلل الى الشرق الاوسط كصديق للسلطان ثم تحويل الحكام العثمانيين الى مقابل الماني للهند البريطانية ، احد احلام اليقظة التي تراود الامبراطور ، واقترح ايلينبيرغ على الفور ان يجتمع هيرتزل مع « فون بيلو » في صباح اليوم التالي ·

ويبدو ان استقبال فون بيلو لهيرتزل بسرعة ــ في مسكنه الخاص والحقائب مفتوحة ولم تفرغ محتوياتها بعد ــ يؤكد ان الالمان كانوا حقا مهتمين بفكرة اقامة محمية جديدة ، وقد اتبع فون بيلو كوزير للخارجية سياسة التوسع الاستعماري · ولكنه لم يكن مثل اويلنبورغ فقد أثار « فون بيلو » كل خجل هيرتزل وذلك رغم ما زعم من ميوله الفنية · «في حضور فون بيلو» كنت اصبح كاتبا لا جدوى منه وكنت احاول بشدة ان اقول كلاما معقولا بدلا من ان اتحدث جديا في صميم الموضوع (٩) » ·

والنقطة التي آكد عليها هيرتزل كانت محسوبة بحيث تحظى باعجاب البروسي الذي غضبت مشاعره المحافظة لمصرع الامبراطورة : الصهيونية كانت ترياقا للاشتراكية ، التي كانت على أي الاحوال شيئا غريبا على المزاج اليهودي • وقد بدا على فون بيلو انه تأثر عندما أبلغ ان الصهيونية جندت بالفعل الى جانبها كثيرا من الطلبة اليهود من هذا المذهب المدمر • ولكنه أبقى المحادثات على مستوى غير محدد : ففي لحظة يجب ان يتركهما ليقابل سيدة في المحطة • ولكنه شعر في البداية انه مرغم على ان ينكر الشائعات التي قالت ان القيصر كان معاديا للسامية : فقد كان فقط يعارض « اليهود المخربين » ولم يكن « فون بيلو » مشجعا على أي حال عندما اقترح هيرتزل ان يجتمع به القيصر في القطار • ولكنه رفض ان ييأس • فأثناء العشاء في السفارة الذي اعقب الجنازة جعل هيشلر يجلس في المكان المخصص للبوابين ، بعد ان بعث ببطاقته اولا الى ايلينبيرج في الدور العلوي • وانتظر هيرتزل في مكاتب « دي فيلت » وكله أمل وهو يرتدي زوجا جديدا من القفازات السوداء وحول قبعته السوداء شريط من قماش الكريب • ولم يستدعه الى المحطة مرسال أو مسرة • وكان عليه ان يعود الى تعليقات فاهرنبج وجولي •

وقبل حديثه الهام التالي ، قام هيرتزل بزيارة سريعة لانجلترا لالقاء كلمات وجمع تبرعات • وسافر عن طريق هولندا ، وفي امستردام تلقى ردا من ايلينبيرج على المذكرة التي أعقبها هيرتزل باجتماعاته في فيينا • وأكد له ايلينبيرج ان القيصر مهتم بحركة هيرتزل وانه على استعداد لاستقبال وفد صهيوني في فلسطين (١٠) • وكان هيرتزل مغتبطا للغاية وهو يلقي خطابا في حشد شعبي من عشرة آلاف شخص في حي « ايست اند » في لندن • « من أروع الاشخاص الذين يؤيدون الاب الكاثوليكي « ايجناتيوس » ، فقد كان من دواعي السرور ان تستمع اليه وان تراه وهو في عباءة الدير السوداء ذات الثنيات ، ولحاته الايفانجيلية التي تنتمي الى القرون الوسطى ، وجانب وجهه الجميل الواضح وكلماته المليئة بالحياة » • ولم يكن تأكيد القس بأن الصهيونية هي يهودية الله ليسكت حاخاما شكاكا ولكنه أثار الحماس في جماهير حي « ايست اند * » •

---

* كان الصهيونيون مرتبكون بشان معرفة من الذين يؤيدون قضيتهم • فبينما يصف هيرتزل الكاهن « ليسيستر لين » بانه كاثوليكي ، فان « ديهاس » الذي كان حاضرا ايضا يسميه

وكانت برلين هي وجهة هيرتزل التالية ، حيث ابلغه اويلنبورغ انه سيقضي عدة ايام في ليبنبورج في بيته الريفي • ولم تكن هناك ، لخيبة أمل هيرتزل ، رسالة تنتظره في الفندق • فهل يمكن لجو بروسيا ان يكون قد القى بالشاعر المنتظر في حظيرة الارستقراطية البروسية ؟ وقد تاخر هيرتزل على القطار فقد استغرق اختيار ملابسه التي سيرتديها وقتا طويلا •

وقرر أخيرا أن يرتدي حلة الفراك الرمادي والسروال ، رغم انها حلة ذات لون فاتح كان يمكن أن تكون مناسبة لزيارة الريف • ومع ذلك فلو انه ذهب دون رداء رسمي فقد يثير الانطباع بأنه يعتبر نفسه ضيفا • ويبدو ان اويلنبورغ وافقه على الرداء الذي اختاره هيرتزل ، فبعد ان قدمه الى عائلته ، صحبه الى منتزه مملوء بأوراق الخريف • وتكلم صديق القيصر بطريقة مشجعة للغاية لدرجة أن عينا هيرتزل أصبحتا زائغتين من شدة الامل • وبينما كان بتنكره قال اويلنبورغ : « ربما تأتي اللحظة التي أطلب منك فيها أن تؤدي لي خدمة » • ورد هيرتزل قائلا : « عندئذ ستجد في شخصا مخلصا لا يجحد المعروف » • وعندما عاد الى الغرفة في فندقه أخذ هيرتزل يبحث عن المغزى لمعنى كلام اويلنبورغ ،ولكن دون جدوى•ولكن أيا كانت تلك الخدمات الغامضة فان هيرتزل سوف يؤديها • « ان كل من يتصل بي سيجد عكس المثل الذي يقال عن اليهود (١٢) •

والاخرى ان اويلنبورغ تكهن حتى عندئذ بأن حياته الخاصة قد تتطلب الدفاع عنها بواسطة قلم ماهر • ولكن بصرف النظر عن هذا اللغز فان الحديث اثار ابتهاج هيرتزل • فبعض اليهود قد يهنئون ويتصافحون على محمية ، ولكن ما دام هيرتزل لم يكن يريد ملكية فان احدا اخر لم يكن يستطيع قبول الملكية »• فالحياة في حماية المانيا القوية ، العظيمة ، المنظمة بدقة والمحكومة بروعة لا يمكن

« هذا الاب الرائع النادر ايجناتيوس ، راهب بروتستانتي من سانت بينيدكتين (١١) » • كان الاب ايجناتيوس ــ الكاهن جوزيف ليسيستر لين ــ اكبر الشخصيات شذوذا في الكنيسة الانجيلية في القرن التاسع عشر • فقد زعم ، مثل هيرتزل انه جلد بلا رحمة في المدرسة (سانت بول) لانه اظهر اهتماما بالغا بالمواد اليهودية (معاصروه ينفون صحة حكاية الجلد) • وقد اصر على احياء النظام الرهباني في كنيسة انجلترا فعاش حياة السخف التقية مثل شخصية فالوث في رواية رونالد فيربانك • وفي احدى المناسبات حمل هو واخته جيرزود ــ طفلا منذورا للخدمة في دير يرتدي رداء الرهبان ــ الى روما ، حيث أساء الايطاليون فهم مقصده •

الا أن يكون له أثار مفيدة جدا على الشخصية القومية اليهودية » ٠ (١٣)

وانتظر هيرتزل الان لكي يستدعيه الامبراطور٠٠ولكي لا يضيع الوقت الى أن يصل الاستدعاء ، وضع هيرتزل في قدميه احسن أحذيته ٠ ولكن عبثا ٠ فكان عليه بدلا من ذلك ، أن يدبر أمره في اليوم اللاحق مــــع عم القيصر وزير خارجيته ومستشاره الامبراطوري ٠ وعقدت الاجتماعات الثلاثة في بوتسدام ٠ وسافر بنفس القطار مثل « فون بيلو » ٠

وبلغ من حفاوة استقباله بواسطة دون بادن الكبير أن قال هيرتزل كلاما نادرا عن تعلق شخص ٠ « أنـــا لا أذكر حتى كل الكلمات الطيبة التي حياني بها ٠ واعرف فقط اني احب وأقدر هذا الرجل العظيم ، الحكيم الطيب ٠ فلم أقابل في حياتي رجلا ارستقراطيا حقيقيا مثله ٠٠٠ » (١٤)

وتكلم بادن بحرية عن الفترة العظيمة للوحدة الالمانية : وقرص هيرتزل نفسه لكي يتأكد من أنه لا يحلم ٠ « ها هو شخص من أعظم الرجال في أعظم عصور المانيا يتحدث بهذه الطريقة معـــي ٠٠ أنا الصحفي البسيط ٠ » لقــد استعرض الحكيم الامبراطوري الموقف الاوروبي في روسيــا ان أي عمل مهمــا كان فظيعا فيمكن توقعه ٠ وفي انجلترا ، فان الكنيسة تحبذ الصهيونية لان الحكومة لم تتخذ أي تصرف بعد ٠ وفي فرنسا ستحكم الديكتاتورية قريبا ٠ وبالنسبة لالمانيا فالامل العظيم هو برنامج ضخم للتوسع في بناء الاسطول ٠ « استمعت باعجاب الى تلك الافكار المثيرة الناضجة وأنا مستسلم لهدوئها دون حتى أن أكون على معرفة بتفاصيلها ٠ واقترحت عليه أن ينشر هذه الاراء على الشعب بطريقة سهلة ومستساغة ووضعت قلمي تحت تصرفه في هذا الصدد ٠ وستكون هذه أكبر دعاية فعالة ضد الاشتراكيين » ٠

وبعد اويلنبورغ وبادن كان اجتماعه مع « فون بيلو » مخيبا للامال ٠وكان السبب فـــي هذا هو وجود الاميـــر « كلودفيج فون هوهينلوه » المستشار الامبراطوري ٠ وقد شعر بعدم تعاطف فوري معه وذلك عندمــا بدأ هوهينلوه الذي كان في عامه الثمانين يوجه اليه الاسئلة ٠ هل سيترك اليهود الاغنيـــاء المستريحين في برلين مثلا ، أموالهم ليتبعوه ؟ ما مساحة الارض التي يطلبهــا هيرتزل ؟ وهل ستصل شمالا الى بيروت أم الى أبعد من ذلك ٠ (١٥)

وتفادى هيرتزل هـــذه الاسئلــة ، فان الفقــراء سيتبعونه ٠ وسيطالب الصهيونيون بما يريدون ، وكلما ازداد عدد اليهود كلما ازدادت الارض التـــي يطلبونها ٠ وسوف تشترى الارض بالطبع من ملاكيها الحاليين طبقا للقانون المدني ٠

● ومن هؤلاء الملاك ؟

ورد هيرتزل : العرب ، اليونانيون « خليط الشرق باجمعه » ·

● وما هو رد فعل تركيا لفكرة اقامة دولة هنـاك ؟

ونقـل هيرتزل عن دوق بادن الكبير قولـه ان السفير الالماني في القسطنطينية الهير مارشال Herr Marschall كان مشجعا ·

وهنا تدخل « فون بيلو » ، الذي أصبح مستشارا بعد ذلك بعامين خلفا لهوهينلوه قائلا : انه لم ير تقريرا بهذا المعنى من الهير مارشال ·

وتصور هيرتزل ان هوهينلوه معاد للسامية وسبب برودة الرجلين هو الرغبة في تثبيط همة استاذ عبقري · وكـان هيرتز غير منصف بالنسبة لهوهينلوه · فقد تمسك المستشار بالمبادىء الليبرالية طوال حياته السياسية الطويلة ، ورغم انه كاثوليكي الا أنه أيد بسمارك وكفاحه الثقافي الالماني وعارض علنا المبدأ القائل بأن « البابا رجل لا يخطىء » · وكان أيضا مؤمنا عن اقتنـاع ببراءة دريفوس وجرم استرهازي (١٦) · وكانت أسئلته مباشرة وفي صميم الموضوع · وقد ذكر هيرتزل عرضا أن هناك مبلغ ١٠ مليون جنيه في متناول اليد · وهل سيقدم اليهود الاغنياء في الواقع هذا المبلغ ؟ ولما كانت المانيا صديقة لتركيا فانه من الضروري والحيوي معرفة موقف تركيا من الخطة الصهيونية · فهل كان هيرتزل يعرف بالضبط أرض من تلك التي يريد الحصول عليها وهل في ذهنه ردود واضحة لهـا ؟

كل تلك الاسئلة كانت تحتاج الى أجوبة واضحة ، وكانت ردود هيرتزل غامضة أو سلبية · وكان الجانب العنصري الوحيد الذي في الحديث هو اشارته الى « خليط الشرق » · وربما كان افتقاره الى الدقة في تحديد الارض التـي يريدها ثم ذكره الشـاذ « لليونانيين » في لبنان ، قد ساعد في اقناع كـلا الرجلين بأن اويلنبورغ قد ورط سيدهما فـي مشـروع رومـانتيكي من شان نبنيه أن يفسد المصالح الالمانية في الشرق * ·

ورفض هيرتزل أن تثبط همته · وحصل من « فون بيلو » على وعد بأن يسمح له بأن يلقي خطابا في القدس ، وسوف يعرض مقدما لكي تتم الموافقـة عليه في القسطنطينية · وسوف يستقبله الامبراطور هناك أو في فلسطين ·

---

* كان الالمان الذين يعيشون في فلسطين في ذلك الوقت أكثر عددا من اليونانيين وكانت هناك أيضا عدة مستعمرات للبروتستانت ·

وحتى لو اتضح ان الصهيونية هي «حبيبة الامبراطور المهجورة» فان تقدمها لا يمكن أن يتحقق الا عن طريق المغامرة · وقد صحب هيرتزل معه ، كرفاقه في المغامرة ، أربعة من اليهود المتكلمين بالالمانية ، كلهم ملتحون واعمارهم تقرب عمره ولهم مهارات متعارضة ومقيدة · فكان ماكس ايزيدور بودنهايمر محاميا (٣٢ عاما) ، ان أي ميثاق سيحتاج الى المهارة وذلك كي يكتب بطريقة تجمع بين الدقة والغموض ··· وكان دافيد ولفسون (٤٢ عاما) تاجرا ناجحا وكان مستشار هيرتزل الرئيسي في الشئون المالية وكانت النقود هي الاداة للضغط على السلطان وللمساعدة في عملية الاستيطان · وجوزيف سيدنر وهو في عمر هيرتزل كانت له خبرة في شراء الاراضي في فلسطين قبل ذلك بسنوات · والدكتور موزيس شنيرر ــ ٣٧ عاما ــ وكان طبيبا جراحا ونائب لرئيس لجنة العمل الداخلية الصهيونية · وسوف يرعى صحة زملاءه بينما يكون المستشار لشئون الصحة في دولة المستقبل ·

وقد ترك « ماكس بودنهايمر » فاتورة بتكاليف حفل الشاي الذي أقيم وداعا له في منزله في فاهرنج (١٧) وسبقه ولفسون وشنيرر الى المحطة · ويبدو ان والد هيرتزل الذي دب البياض في شعره الان وصبغ اللون الرمادي ولحيته ، كان يرى ان الموضوع برمته مشكوك فيه · وجلست والدته بفخر مطمئنة الى حكمة ابنها · وكان الاطفال يلهون على نحو صاخب · وسمحت جولي الفاتنة الشقراء والتي ما زالت مليئة بالحيوية لسيدنر بأن يستخدم مواهبه الهندسية في قياس طول قدمها لكي يأتي لها بزوج من الشباشب التركية · وكأنما كانت تعني بذلك انها لا تبالي بأهداف الوفد · وما زال تعليق هيرتزل على حفل الشاي موجودا · « ان البعد عن أبنائي الاحباء صعب جدا هذه المرة ولعلي أفضل البقاء في منزلي الجميل مع أطفالي الذين تمر طفولتهم الوردية دون أن أتمتع بها ، والذين يكبرون دون أن ألاحظ الدقائق الجميلة لنموهم » · وأبدى تشككه في الاخرين عندما أخذ على محمل الجد تحذيرا بأن الاتراك قد يقتلوه · ولو حدث ذلك ، فان والديه فقط هما اللذان سيحزنان بشدة · فقد كان أولاده صغارا ، فبولين في الثامنة من عمرها ، وهانز في السابعة وترود في الخامسة · ولم يفكر أبدا في جولي في مثل هذه الحالات ·

وفي قطار الشرق السريع كان المغامرون يبدون وكأنهم يتحركون اخيرا نحو هدف من الممكن تحقيقه · وناقش هيرتزل مع بودنهايمر سؤال هوهينلوه عن مساحة الارض التي يريدونها · واقترح بودنهايمر بجرأة :

« المساحة : من نهر النيل في مصر الى الفرات · واشترط فترة انتقال

مع وجود أجهزتنا الادارية الخاصة • حاكم يهودي لهذه الفترة • ثم بعد ذلك اقامة علاقة مثل تلك القائمة بين مصر والسلطان • * وبمجرد أن يبلغ عدد اليهود في المنطقة ثلثي عدد سكانها تتولى المنطقة الادارة اليهودية سياسيا بينما بتوقف تشكيل الحكومة المحلية دائما على عدد الاصوات الاكبر في المجتمع » (١٨) وأيد هيرتزل في مذكراته انه يجد أفكار بودنهايمر رائعة « نسبيا » ولا يشير الى نقاط الخلاف التي فرقت بين الرجلين بينما تقدم قطارهم نحو البلقان في الطريق الى الحدود التركية •

وفي هذا فان القسطنطينية لم تثر في هيرتزل شيء في زيارته الثانية لها : « كل المناظر أصبحت مألوفة وبذلك ضاع الاهتمام الذي شعرت به في الايام الاولى قبل عامين » • وكانت أفكاره مركزة على الامبراطور • وكانت ثمة لحظات مثيرة للقلق منها مثلا تلك اللحظات التي زار بودنهايمر فيها السفارة الالمانية وأبلغ في فتور أن السفير مارشال (الذي ربما علم من فون بيلو كيف أسيء نقل كلامه) لا يعرف احدا اسمه الدكتور هيرتزل • وتمكن من المقابلة التي كان يحلم بها فقط بعد أن استخدم كل الضغط الممكن من جانبه ، بخطابات الرجاء الى فون بيلو أولا ثم الى الامبراطور نفسه (١٩) ، وذلك قبل أن تبحر اخر سفينة يمكن ركوبها الى الاسكندرية ، نقطة العبور الضرورية للوصول الى يافا• ومشاعره عندما قابل الرجل العظيم أخيرا لا يمكن وصفها الا بطريقة الشعر • فقد أحس هيرتزل بأنه ضل في غابة مسحورة يقال أن وحيد القرن يعيش فيها وفجأة ووجه بمخلوق رائع من مخلوقات الغابات ، وليس في جبهاته الا قرنا واحدا • وكانت دهشته لظهور هذا المخلوق ليست كبيرة لان وجوده اصلا هو مثار الدهشة الاكبر • « وزادت دهشتي عندما بدأ المخلوق ذو القرن الواحد يتكلم في صوت آدمي ودي للغاية وقال ، « انا وحيد القرن الاسطوري • » (٢٠)

وجرى الحديث بعد ظهر يوم ١٨ اكتوبر عام ١٨٩٨ في قصر الضيافة الذي بني خصيصا للامبراطور في ساحة يلديز Yildiz • ووجه هيرتزل

---

* رغم ان مصر كانت محتلة بجيش بريطاني ، الا انها كانت تتمتع بالحكم الذاتي تحت حكم الخديوي الذي اعترف بالسلطان العثماني كحاكم مطلق • ويبدو ان هيرتزل وبودنهايمر فكرا في دولة يهودية ذات استقلال ذاتي على أن يكون القيصر الالماني حاكما مطلقا اسميا • ولما كان المصريون عثمانيي الجنسية فان معنى هذا أن سكان الدولة الجديدة اليهودية ستكون جنسيتهم المانية •

اهتمامه لملابسه فارتدى حلة فراك وقفازا رقيقا رمـادي اللون • وقد صحبـه ولفسون في الطريق وحمل معه فرشاة الملابس ، وجلس على الصندوق « يهودي له نظرة ماكرة يبدو انه له علاقة بالبوليس • » وبعد انتظار طويل مثير للقلق ، وبعد الشكوك المثيرة للرعشة في أن الامبراطور سيحضر وما اذا كان سيستقبله، استدعي هيرتزل أخيرا الى غرفة في الدور العلوي • وكان الامبراطور يرتدي زي جنود المجر ذي اللون الداكن ولمـا وصل الى الباب تقريبا مـد يده محييـا هيرتــزل •

ولا نملك الا أن نبتسم للنثر الملوكي الذي عبر به هيرتزل عن مشاعره في تلك اللحظة والتي تعتبر قمة لحظات وجوده • « عيناه العظيمتان في لون زرقة البحر ••• » « رقيقتان وجريحتان ورغم ذلك جريئتان ••• » « وجهه الرقيق الجـاد ••• » ورغم هذا فقد كان ذلك قمة الملكية الاوروبية عندما حكمت أوروبا معظم العالم وحكم الملوك أوروبا • وفي بهاء النجـــوم اللامعة وسلطة رؤســاء الجمهوريات بهؤلاء الملوك أن يجعلوا الساخرين فهم خداما لهم ، وان •• يحيلوا كل عين الى شخص متمشيا معهم • ووجد هيرتزل نفسه يفعل مثل القيصـر ويشاركه عداوته لفرنسا الجمهورية • وقال الامبراطور : « غالبا ما أتساءل ما الذي سيؤول اليه حال هذا البلد • انه بلد عظيم قبل كل شيء • ان الـــروح الفرنسية هي التوابل ، الفلفل بالنسبة للحضارات الاخرى ـ الملح الاثيني • وطبعا اذا زاد الفلفل فقد فسد كل شيء • ولكن ماذا سيحدث لفرنسا ؟ » •

وكان رد هيرتزل ، « اعتقد يا صاحب الجلالة انها ستنهار من الداخل • انها راقية حقا في الادب والفن وهذا هو التفسخ والانهيار » •

واتفق الامبراطور وهيرتزل وفون بيلو في الرأي : ان باريس مدينة قضاء الوقت الممتع ومدينة المقاهي والنوادي الليلية •

غير ان هيرتزل كان في مهمة • فلم يجعل القيصر يفلت بما قاله من أن هناك عناصر يهودية في المانيا من الافضل أن تنتقل الى فلسطين • وفهم مثلا المرابون الذين يعملون بين الفلاحين في مقاطعة هيس Hesse • وشـن هيرتزل هجوما مضادا على المعاداة للسامية • ورد فون بيلو قائلا ان اليهـود نسوا ديونهم لآل هوهنزوللرن ونشطوا في جميع اضراب المعارضة • وقد أتاح ذلك لهيرتزل الفرصة لكي يعيد تأكيد نظريته : ان الصهيونية تزيح اليهـود وتبعدهم عن أحزاب الثـورة •

واذا كان مضمون الحديث أقل تأثيرا من حقيقة وقوعه الا انه انتهى بأن بدأ الامبراطور ايضا في العمل الجاد •

« قل لي فقط في كلمة ما الذي يجب أن أطلبه من السلطان ؟ »

واختار هيرتزل الجملة الروديسية · « شركة مؤجرة ، تحت الحماية المانية » · ونطق تلك الكلمات بالانجليزية ليجعل وجهة نظره أكثر وضوحا ·

وصافح الامبراطور هيرتزل بيده اليمنى التي توازي قوة يده رجلين ثم سار في المقدمة وكان أول من خرج من الباب ·

ومن القسطنطينية أبحر الصهيونيون الخمسة الى الاسكندرية عبر البحار اليونانية ، حيث رسوا لمدة طويلة في ميناء « بيريه » ووقفوا لتلتقط لهم صورة فوتوغرافية الى جانب الاكروبوليس ، الذي كان مصدر الهام لكثير من المباني في فينا · وفي الاسكندرية ركبوا سفينة أصغر اسمها الروسيا ، في اخر مرحلة من مراحل رحلتهم ·

لقد دخلوا الان عالم الاساطير · ويوضح وصول هيرتزل الى يافا في ٢٦ اكتوبر عام ١٨٩٨ كيف الاحداث في حياته يمكن أن يعاد تشكيلها بسرعة · وقد نقلت عن دافيد ولفسون الرواية التالية :

« عندما غادرت سفينتنا ميناء بور سعيد الى يافا كان المساء قد حل · وكنا جميعا نعرف اننا سننزل في فلسطين صبيحة اليوم التالي · وقد أوينا الى غرفنا ليلا ما عدا هيرتزل الذي لم يفكر في أن يستريح وظل ساهرا على ظهر السفينة ·

وكنت نائما نوما عميقا لان الوقت كان قد تعدى منتصف الليل عندما سمعت احدهم ينادي علي : « دافيد ! أنائم أنت يا صديقي ؟ وشعرت بيد تمس برفق بينما استمر الصوت يقول : ألا تريد أن ترى أمنا « صهيون » يا دافيد ؟ انهض ان نور الصباح قد سطع على أبراج يافا ! ونحن نراها تتلألأ الان !

ونهضت من فراشي ·· وذهلت عندما رأيت هيرتزل وهو يرتدي ثيابه وكأنه على موعد مع الامبراطور · وكان وجهه يضوي وعيناه تلمعان وصاح قائلا : تعال يا دافيد ارتدي ملابسك ! سنذهب لنرى أرضنا الام الحبيبة !

وارتديت ملابسي وصعدنا الى سطح السفينة ورأينا مآذن يافا وارتمى كل منا بين ذراعي الاخر وظهرت الدموع في عيوننا وهمسنا : بلدنا ! أمنا صهيون ! »

والاحرى ان ولفسون روى هذه الرواية « بعد ليلة من عودته » (٢١) ورواية هيرتزل التي كتبها في اليوم الذي أعقب وصوله الى فلسطين تتسم بالامانة والدقة التي ترغم المرء على تصديقها · فقد كتب يقول ان المنظر الوحيد الذي أثر فيه في الرحلة هو قناة السويس : فلقد تضاءل الى جانبها كل شيء

راه في اليونان وقد عاني من الحرارة طوال الرحلة ولقد اشترك الرجال الخمسة الملتحون في غرفة واحدة في السفينة وأضحى جو الغرفة خانقا الى حد لا يطاق. وفي أول ليلة تسلل هيرتزل من الغرفة تاركا رفاقه في الساعة الثالثة صباحا ، وقضى الليلة الاخيرة بأكملها نائما على ظهر السفينة ، ثم « عند ظهور الضوء بدأنا نوجه نظرنا تجاه الساحل اليهودي .. * وحوالي الساعة السابعة رأى فولفزون أول قطعة من اليابسة ، نقطتان من الجبال الى اليمين . »

ويتحدث هيرتزل عن المشاعر المتضاربة التي شعر بها مختلف المسافرين عندما اقتربوا من يافا : العرب الذين كانوا معهم طوال الطريق من القسطنطينية والراعي الالماني العجوز من جنوب افريقيا والفلاح الروسي الذي نقله حجه الى مكان قذر الرائحة ، واليهودية الرومانية التي لهـــا ابنة مريضة في القدس . ويبدو أن هيرتزل كان يشعر بالقلق خشية أن تمنعه السلطات التركية مـــن النزول الى البر . ومن باب الحيطة أعد برقية شكوى ليرسلها الى القيصر اذا حدث ذلك . غير انه اتضح انه لا حاجة به اليها . وقد استقبل الرجال الخمسة دون ضجة لنش خاص بشركة « كوك » أنزلهم على رصيف بحري (وقد ارتدى الخمسة الخوذات الفلبينية البيضاء التي كانت تعتبر عندئذ ضرورة للبقاء على قيد الحياة في المستعمرات) .

وكان البوليس الالماني موجودا لاستقبال الامبراطور عند وصوله . وقصد هيرتزل ورفاقه الى فندق صاخب في المدينة العربية . (٢٢)

وقد عانت فلسطين ــ وهي جزء بسيط مما رآه هيرتزل في زيارته التي استغرقت تسعة أيام ــ من الميتولوجيين أكثر مما عاني هيرتزل نفسه . فعندما كانت الطليعة من الداعين للصهيونية السياسية يحاولون تشجيع اليهود على الهجرة الى هناك راحوا يؤكدون ان فلسطين أرض خصبة فقال سير موزيس مونتفيور Montefiore الذي زار منطقة صفد في ٢٤ مايــو عام ١٨٣٩ انه رأى ، « ساحات من اشجار الزيتون ، عمرها على ما أعتقد يزيد عن ٥٠٠ سنة ، وكروم ، ومراعي شاسعة ، وابار كثيرة ، وكذلك أشجار التين، والبندق ، والليمون ، والتوت وغيرها الخ .. وحقول غنية بالقمح ، والشعير والعدس (٢٣) . » وبعد ذلك بجيل ، امتطى لورنس أوليفانت Lawrence

---

* تعبير غريب لانه ظهر في الازمان القديمة فان الساحل كان يسكنه الفينيقيون في الشمال والفلسطينيون في الجنوب وهم ليسوا من اليهود .

Oliphant — وهو مسيحي كان يدعو لتوطين اليهود ـ حصانه في منطقة أخرى وهي سهل ازدرايلون · ورغم ان السهل كان يمتلكه لبناني من أصحاب البنوك من آل سرسـق · الا انـه فـي عـام ١٨٨٣ كـان هنـاك خمسـة الاف مزارع عربي في ٣٠ قرية متناثرين في انحاء السهل ·

وسيدهش القراء عندما يعرفون ان كل فدان من سهل ازدرايلون كان في ذلك الوقت في قمة زراعته ، وان الركوب في السهل في أي اتجاه كان آمنـا تماما دون ان يكون الراكب مسلحا ، وكما أرى ··· فالسهل يبدو اليوم وكأنه بحيرة خضراء ضخمة من القمح المتموج بتلاله التي تتوجها القرى التي ترتفع منها انجزر ، وهو يمثل صورة من أحسن صور الخصوبة الرائعة ···· ويمكن أن نأخذ فكرة عن كمية القمح التي تنتج سنويا في جزئهم من سهل ازدرايلـون وحده مما قاله لي سورسوك بنفسه بأن تكاليف نقل محصوله الى حيفا وعكـا في العام السالف بلغت ٥٠ الف دولار · (٢٤)

وبعد ذلك كتب الصهيونيون بطريقة أخرى · فقد كتب أندريه شوراكي مثلا يقول : « بعد ١٩ قرنا من الزمان كانت البلاد في حالة اهمال تدعو للاسف » فقد كانت المستنقعات وابن آوى هم سادتها الحقيقيين ، وكانت الارض جرداء وقاحلة ومظلمة مثل أكثر نبوّات الانبياء حزنـا » (٢٥) وثمة عاملان ـ الـى جانب الرغبة في الدعاية ـ يمكن أن يكونا السبب في النظرة السوداء للارض المقدسة من جانب الصهيونيين الذين جاءوا فيما بعد · فبعضهم استقر هنـاك بعد الحرب العالمية الاولى عندما وصلت المنطقة الى حالة المجاعة · وتناقـص سكانها بنسبة الثلث ـ كعقاب من الاتراك لتأييد العرب للحلفاء ـ أما الاخرون ـ الذين جاءوا مثل هيرتزل في زيارات قصيرة ـ فقد وصلوا في أواخر الصيف أو بواكير الخريف ، وهي فصول لطيفة في أوروبـا أو أمريكا ولكنها شهور جفاف في الشرق الاوسط حيث تجمع المحاصيل مبكرا في شهر مايو وحيث يصبح العشب مصفرا الى أن تسقط أمطار الشتاء الاولى · * وقد وجد هيرتزل البلاد في أقصى حالات الجفاف والوحشة · ولم يجذبه العرب ولا المستوطنون الصهيونيون ولا اليهودفي القدس · وكان عليه أن يترك البلاد بذكرى جذابـة

---

* وهذا واضح صحيح ايضا بالنسبة للجزر اليونانية · وحتى في هذه الازمان القديمة · ويظهر هذا من بيت شعر شهير لسافو :

اني أكثر صفرة من العشب ويبدو اني لست بعيدا عن الموت ·

واحدة فقط ـ جماعة من الفتية اليهود يمتطون ظهور الخيل ويرقصون رقصة عربية ـ ثم ذكرى واحدة أخرى وهي صورة فوتوغرافية تنفخ نفخ في الدعاية الصهيونية • ولكن حتى هذه كانت عرضة للتزييف •

وقضى هيرتزل يومه الاول وصبيحة يومه الثاني يزور عددمن المستعمرات الصهيونيون ولا اليهود في القدس • وكان عليه أن يترك البلاد بذكرى جذابة « المحسنون » • وكانت مساحة أقـــدم تلك المستعمرات ٦٠٠ فدان واسمهـــا « ميكفاه اسرائيل » وهي مدرسة زراعية بها حوالي مائة تلميذ • وكانت أكثرها عظمة مستعمرة « ريشون ليزيون » التي أنقذها آل روتشيلد من الافلاس فـــي عام ١٨٨٤ والتـــي غطت في وقت هيرتزل مساحـــة تزيد على ألفي (٢٠٠٠) فدان • وكان ثمة ستمائة مستوطن يهودي يزرعون مليون ونصف مليون كرمة• وعاد هيرتزل الى فندقه وعند طريقه أرسل هيرتزل رسالة الى أوجست زو اويلنبورغ ، عم فيلب زو اويلنبورغ ورئيس بلاط القيصر ليقول له انه سينتظر في الطريق القريب من مدرسة ميلفاه اسرائيل في صبيحة اليوم التالي ، عند احدى المحطات التي سيتوقففيها الامبراطور•وكانهيرتزل يشعر بالمرض ولكنه تمكن من الوصول الى المدرسة (على بعد أميال قليلة من يافا) في صبيحة اليوم التالي ووقف هناك مرتديا سترة داكنة اللون وقبعة من الفلين الى جانب عدد من الالات الزراعية • « جماعة مختلطة (كرر هيرتزل العبارة الانجليزية) من الشحاذين العرب ، نسوه ، وأطفال ورجال امتطوا ظهور الخيل ، اصطفوا حول الطريق المترب • وفي الساعة التاسعة ، علا الضجيج والصخب مما أنبأ بقرب وصول الموكب الملكي • وظهر في البوابة الفرسان الاتراك ذوو النظرة الصارمة، وراحوا يرمقون الجماهير بنظرات عسكرية • وكان هيرتزل قد درب المنشدين من الاطفال ، كما يقول ، لينشدوا النشيد الامبراطوري ، « مرحبا بك في تاج المنتصرين » • وجذب الامبراطور لجام حصانه ومال قليلا من على حصانه ليقول كلمات الرجل المهذب المألوفة عن حرارة الجو ومستقبل البلاد وحاجتها الـــى الري • وعلى احد الجوانب وقف ولفسون ومعه آلة التصويـــر الكوداك وكله حرص على أن يحتفظ للابد بمشهد يمكن أن يستغل بحيث نقول فيما بعد أكثر مما قاله الامبراطور : ليس اليهود على الاطـلاق الذيـــن كـــان ممثلـــوهم غير الصهيونيين موظفو آل روتشيلد يبدون طبقا لما قاله هيرتزل وديعين ولكـــن مغتاظين •

ولكن عندما حمض المصور في يافا الصور ، كانت النتيجة صورة تبين الامبراطور وهو ينحني فوقحصانه ليحيي الدكتور هيرتزلالذيوقفمنتصبا في

حلته البيضاء المصنوعة من قماش التوبير ولحيته الاشورية من البروفايل وقبعته المصنوعة من الفلين في يده اليسرى • ووراء الامبراطور مباشرة مجموعة من الاعلام المثلثة وبها نجمة واضحة • وكان الرمز واضحا : الامبراطور الالماني ، وخلفه الاعلام التي تثير السلطان والامبراطور والصهيونية ، يحيي حامية تيودور هيرتزل •

كيف تم تدبير هذه الصورة ؟

يجب أن يضع القارىء في اعتباره أربعة صور يمكن أن تسميها أ ، ب ، ج و د • فالصورة أ هي التي تبين ظل القيصر وقدم هيرتزل اليسرى • والصورة ب هي الصورة التي فسدت تماما • والصورة ج هي التي تبين الامبراطور وهو يميل من فوق حصان أبيض وهو يقف أمام شخص اخر ملثم ويرتدي خوذة (الارجح انه أوجست زو اويلنبورغ) ويركب حصانا داكن اللون وبه علامة بيضاء على وجهه وخلفهم الاعلام المثلثة : رأس الحصان الابيض ضائعة من الصورة وتبرز قبعة فلينية صغيرة من اليمين • والصورة د هي التي نشرها الدكتور « بين » على أنها الصورة « المعدلة » • وهي ـ الصورة التي استخدمت لتصور سيرة « دي هاس » الى جانب أشياء أخرى ـ وتبين الامبراطور على الحصان الداكن ذي العلامة البيضاء على وجهه ومد يميل نحو هيرتزل المرتدي حلة فاتحة اللون من قماش التويد ويحمل قبعة بيضاء (عليها شريط غامق اللون) مختلفة عن تلك التي في الصورة ج • وأولئك الذين لفقوا الصورة لا بد وانهم اتبعوا العمليات التالية :

١ ـ نقلوا « زو اويلنبورغ » (أو الشخص الثاني أيا كانت شخصيته) من على جواده الاسود ذي العلامة البيضاء •

٢ ـ نقلوا الامبراطور المائل من على حصانه الابيض الى الحصان الاسود الخالي الان •

٣ ـ وضعوا صورة لهيرتزل في ملابس فاتحة اللون أمام الحصان الابيض وخلف حصان الامبراطور •

٤ ـ وضعوا قبعة كبيرة أخرى من الفلين •

وبهذا يبقى لغز واحد فقط دون حل • هل الصورة ج (الموجودة في كتاب الدكتور « بين » في مواجهة الصورة د) هي نفس الصورة أ ؟ يبدو هذا غير محتمل • فالصورة ج يظهر فيها القيصر بوضوح الى حد معقول ، وليس ظلا مثل الصورة د •

وكان هيرتزل (الشخص التاريخي في الحلة الداكنة اللون الذي كان

يشعر بالمرض طوال الصباح) قد أصابته حمى طفيفة في الوقت الذي لحق فيه هو وأصحابه بقطار القدس • وغادر القطار المحطة متأخرا وبذلك ذهبوا الى المدينة المقدسة يوم السبت بالمواصلات العامة • ويقول هيرتزل :

كان الجلوس في كابينة القطار المزدحمة المحرقة عملية تعذيب • وبينما كنا نعبر الريف المهجور الكئيب زادت وطأة الحمى وأصبحت أكثر ضعفا بينما كنا نقترب من يوم السبت • لاننا بسبب القطار الذي تأخر ، الامر الذي أحزن فولفزون حزنا كبيرا ، وجدنا أنفسنا نسافر يوم السبت • كان القمر بــدرا عندما وصلنا الى القدس وكنت أريد أن أقطع النصف ساعة التي تستغرقها المسافة من المحطة الى الفندق راكبا ، غيران الرجال عبسوا بوجوههم فاضطررت الى المشي حتى المدينة ورغم اني كنت ضعيفا من أثر الحمى الا اني مشيت متكأ على عصـاي •

وازاء القدس كما كانت حالها في ذلك الوقت ، شعر هيرتزل بمشاعـر مريرة • فكل شيء تآمر ضده : ليس فقط الالمان الذين يبدو انّ موقفهم كان قد تغير ، والزعماء اليهود المحليون الذين تجنبوه ، بل الموقف الدولي ايضا • فقد عمد نزاع اقليمي بين انجلترا وفرنسا في السودان « حادث فاشودا » ـ بنشوب حرب أوروبية ، ولعدة ساعات بدى ان الامبراطور سيقطع زيارته ولا يستقبل المندوبين الصهيونيين على الاطلاق • وقد أسف هيرتزل فيما بعد لانه لم يصر على تقديم رفاقه الى الامبراطور على الملأ عند دخـول القدس دخول المنتصرين • وعندما تم ترتيب اللقاء تماما كانت هناك مشاكل صغيرة وسخيفة • فجودنها يمر الذي لم يكن لديه قبعة حريرية ، لم يجد الا بديلا بشعا وحلة أكمامها متسعة لدرجة ان أكمـام قميصه كانت دائما تنزلق وتظهر منهـا واقترح شنيرر أن يتناولوا البروميد ليهدأوا اعصابهم بدلا من ذلك على أن يأكلوا أكلا خفيفا حتى يستطيعوا البقـاء متنبهين • وقصدوا الى موعدهم في عربة ، ولكن الحادث الدولي كان مفاجئا • فقد كان الوفد الالماني ينزل في مخيم لم يكن هناك أمكنة مناسبة لنزوله في القدس نفسها •

وكان القيصر وفون بيلو يجلسان في الخيمة الامبراطورية وكان غليوم الثاني يرتدي خوذته الملثمة نفسها وزيا رمادي اللون استعماريا وقفازا بني اللون وكان يحمل في يده اليمنى سوطا للركوب • صورة كان هيرتزل يراها شاذة • وكان الحديث رسميا جدا وسمح لهيرتزل بأن يقدم رفاقه الاربعة بأسمائهـم ، ولم يشترك ولفسون أو بودنهايمر في أي وقت في الحـوار الذي كان على أي الاحوال قصيرا • وسمح لهيرتزل أن يقرأ عنوانه (الذي عدل من قبل طبقـا

لتعليمات المسئولين الالمان) ولكن رد الامبراطور لم يكن فيه التزام • وتحدث عن الحاجة الى المياه والاشجار ، وأشار الى أن جميع المستعمرات ، الخاصة باليهود وكذلك الخاصة بالالمان يمكن أن تكون نموذجا للمواطنين لما يجب أن يفعلوه ليحسنوا حال الارض • ثم سأل القيصر هيرتزل ما اذا كان يعرف فون بيلو • ولا بد ان السؤال جرح هيرتزل الذي قابـــل وزير الخارجية ثلاث مرات من قبل • واقتبس فون بيلو كلمة من بيندار Pindar « الماء أفضل الاشياء » •

ولم ينس هيرتزل تلـك الكلمـات • ولكـن كانت هنـاك أشياء قليلـة اخرى يجب أن يتذكرها • فقد قرأ القيصر درجات الحرارة في الرملة : ٨٨ فهرنهايت في الظل ، ١٠٦ في الشمس • ولكن الجو في الخيمة كان قطبيا • وقد اوضح سلوك مساعد الامبراطور للمندوبين الراحلين كيف ان أسهم الصهيونيين قد هبطت منذ المقابلة في القسطنطينية •

وكانت رغبة هيرتزل الوحيدة الان هي الهرب من فلسطين • ولم يكـن القلق الذي شاب ساعاته المتبقية دون مبرر • كـــان الدكتور أهارون مـازي Ahron Mazie وهو طبيب لال روتشيلد ، يروج اشاعة بـــأن هيرتزل جاء ليحول اليهود عن دينهم الى البروتستنتينية • واذا كان الاتراك ما زالوا يتمتعون بقواهم العقلية فيجب أن يتخلصوا من هيرتزل بينما الفرصة سانحة أمامهـــم •

ولما اضطر الى قضاء ليلة أخرى في يافا راح يتنقل في قارب من سفينة لاخرى في الميناء • والى جانب رجال الامبراطور العسكريين ، والسفينة التركية المتجهة الى القسطنطينية كان هناك مركب متجه الى بيروت ، وعدة سفن شحن احداها روسية وأمامها أربعة أيـــام ليتم شحنها بالبضائع ، ويخت « جيمس جوردون بنيت » صاحب جريدة « نيويورك هيرالد » • وسأل هيرتزل كـــل السفن المدنية عدا السفينة التركية ما اذا كان يمكنهم اخراجه من فلسطين • وأخيرا اتفق مع « دوندي » وهي سفينة شحن بريطانية صغيرة حمولتها ٣٥٠ طن كانت ستنقل البرتقال الى الاسكندرية في اليوم التالي • وكانت المزارع العربية في يافا قد اشتهرت بانتاج انواع عالية من الحمضيات •

وقد عبس رفاقه عندما اضطرهم للنهوض من فراشهم ليلحقوا بالسفينة هذا باستثناء ولفسون المخلص • وكان الطريق الى الاسكندرية صعبا • ونام الرجال الخمسة على ظهر المركب يتنهدون تحت النجوم • ويبدو ان رفاقـــه لم يشاركوه مشاعره عندما أبدى وهم في الاسكندرية حماسا للطريقة التي بين بها الخديوي اسماعيل احياء جديدة بأكملها فوق الرمال القاحلة • ومن مكتب

التلغراف ارسل برقية الى والده : هل نتج شيء عن المقابلة ؟ وجاء الرد : « المقابلة اصبحت معروفة » وانتقل هيرتزل الى رجينا « مارجريتا » وهي سفينة ايطالية وكانت روحه المعنوية مرتفعة للغاية ·

ولكنه صدم في نابولي · فأولا جاءته الانباء بأن نيفلنسكي مريض ولن يستطيع الذهاب الى القسطنطينية · (شعر هيرتزل شعورا أكيدا بأن هذا تمارض) ثم قرأ لاول مرة البيان الذي نشر في ٢ نوفمبر في القدس والذي يصف زيارة القيصر لفلسطين · فبعد أن أشارت صحيفة « االيجماين زايتونج » التي تصدر في ميونيخ الى زيارة جامع عمر تحت اشراف حاكم سوريا قالت ان القيصر زار بطريــرك الرومان الكاثوليك وبطريرك اليونــان الكاثوليك · « استقبلاه عند أبواب منازلهما محاطين برجال كنائسهما · وبعد ذلك استقبل القيصر القنصل الفرنسي ووفدا يهوديا سلمه البوما به صور عن المستعمرات اليهودية في فلسطين · وقال القيصر ردا على خطاب لرئيس الوفد ، ان كل تلك المحاولات يمكن أن تعتمد على اهتمامــه الطيب الذي يهدف الى تحسين الزراعة في فلسطين لصالح رفاهية الامبراطورية التركية مع احترام سيـادة السلطان احتراما تامــا · »

ما الذي حدث بين غرفة الحكومة في يلدز Yildiz والخيمة القريبة من القدس حتى يصاب القيصر بهـذه الجفوة ؟ أبلغ دوق بادن الكبير هيرتزل في خطاب كتبه في ٥ ديسمبر عام ١٨٩٨ بأن ابن أخت الامبراطور لم تعجبه « الطريقة التي يعيش بها أخوانك في الدين في مدينة القدس · فقد كان لهم أثر سيء على الامبراطور وعلى الاخص لان كثيرين من صغار التجار يشتركون في مضاربات من كل الانواع وذات طابع غير محبوب أخلاقيا هناك · وهو يقر بأن ظهور هؤلاء التجار له أثر بغيض وضار بالقضية التي تدعو لها · » (٢٩)

غير انه كانت ثمة أسباب أقوى من ذلك بكثير · كان للحكومة الالمانية على الارجح هدفان رئيسيان عندما دبرت زيارة الامبراطور لفلسطين · وباخلاصه المجيب لكنيسة المسيح البروتستنتية وهديته الاعجب وهي عبارة عن قطعة ارض خـاصة بجمعية « صعود العـذراء المباركة » الـى الجمعية الكاثوليكية الالمانية للارض المقدسة ـ كـان الامبراطور انمـا يحـاول توحيـد المذهبـن المسيحيين الكبيرين في امبراطوريته · وفي نطاق السياسة الخارجية كانت الزيارة جزءا من الاندفاعة الالمانية نحو الشرق · وكما قالت صحيفة « لنـدن تايمز » في ذلك الوقت ، (٣٠) « ان الامبراطورية العثمانية تتلقى بنادقها مـن « موزر » Mauser ، ومدافعها من « كروب » · ان تأييد الصهيونية لن

يرضي المسيحيين الالمان وقد اتضح على الفور انه سيغضب السلطان • وقد أبلغ اويلنبورغ هيرتزل فيما بعد ان معارضة السلطان هي العامل الحاسم • « رفض السلطان اقتراح القيصر بشأن الصهيونيين رفضا قاطعا لدرجة انه لم يعد من الممكن المضي في الموضوع أبعد من ذلك • وكنا تواقين لان تظل على علاقات طيبة معه •وكضيف فان الامبراطور بالطبع لن يلح في الموضوع • » (٣١)

وكانت النتيجة الفورية لزيارة هيرتزل هي ، في الواقع ، المزيد من تشدد المعارضة العثمانية لتوطين اليهود • *

وثمة مذكرة رسمية المانية تبين أنه كانت هناك أيضا عوامل اخرى لعنت فكرة المحمية الالمانية • فلم تكن فرنسا أوانجلترا لترحب بتوسع النفوذ الالماني حتى مواقع قريبة من المارونيين اللبنانيين (في حالة فرنسا) أو الى قناة السويس (في حالة انجلترا) • ولم يكن هيرتزل من الرعايا الالمان • ولم تؤخذ تأكيداته بأن فلسطين اليهودية ستكون مخلصة لالمانيا الى الابد على محمل الجد في برلين أكثر مما أخذت مزاعمه بالاخلاص للسلطان في القسطنطينية • (٣٢)

ومعظم تلك الاعتراضات كان يمكن أن يتنبأ بها أي مسئول عادي متنور • ولكن هيرتزل الحالم وغليوم المدعي سمحا لانفسهما بأن يقعا تحت الاغراء عبر الحدود بين الحقيقة والحلم • وكان مساعدهم الاول فيليب زو اويلنبورغ نفسه شاعرا هاويا • أما فون بيلو فلم يأخذ ابدا المشروع على محمل الجد البالغ • وتقول مذكراته انالدافع الىالاهتمام البسيط من جانبالامبراطور بالصهيونية هو الرغبة في أن يخلص المانيا من عناصر لم يحبها بصفة خاصة • وتوضح المذكرات أيضا انه اذا استطاع الصهيونيون أن يضيفوا الى الصور الفوتوغرافية فان الالمان يمكنهم أن ينتقصوا من التاريخ • ويؤكد فون بيلو صراحة أن « الامبراطور رفض استقبال ممثلي الصهيونية في صهيون ** » • (٣٣)

---

* ذكرت « جويش ورلد » في ١١ نوفمبر عام ١٨٩٨ أنه في اجتماع للرابطة الانجليزية اليهودية « قال تسيم بيهار » ان سلطات الحكومة تضع العراقيل أمام وصول اليهود والاجانب • وقال مستر اس• ام• ادلر انه خطأ الصهيونية السياسية » •

** من الغريب ان الالمانيين الاخرين القريبين من مشروع المحمية الالمانية يفكرون ايضا في الوفد الصهيوني استقبل رسميا في فلسطين • ويعتبر القيصر بأنه قابل هيرتزل في القسطنطينية : « رجل ماهر وبالغ الذكاء ذو عينين مؤثرتين ولا شك أن الدكتور هيرتزل مثال متحمس ذو

وقال السلطان الكلمة الاولى والاخيرة : طالما ظلت امبراطوريته قائمة وعلى قيد الحياة فان فلسطين لن تكون للبيع • ولم يتزحزح السلطان ابدا عن رأيه بأن الارض المقدسة تشكل جزءا من مسئوليته المقدسة ، كخليفة للاسلام و كسلطان للعرب الذين يشكلون تسعة أعشار سكان البلاد •

ولعل هذا يشهد بالكثير لما لدى هيرتزل من عناد والحاح غريبين لانه رغم هذا الرفض الواضح استمر في ممارسة الضغط • وعاد الى فينا ليجد نيفلنسكي مريضا مثل قضيته • ومع ذلك فقد أصر هيرتزل بين جوانحه ان « لا » ما زالت معناها « ربما » وان « نيفلنسكي » هو الرجل الذي سيحيل « ربما » الى « نعم » •

عقلية ارستقراطية » • غير انه يقول في شرحه « لقد حييته في مناسبة اخرى لاحقة : عندما مررت بمستعمرة يهودية زراعية في فلسطين » وكتب فيليب زوايلنبيرغ فيما بعد يقول ان السبب الذي أسف له لانه لم يصاحب عمه اوجست ايلينبرغ الى فلسطين هو أن هيرتزل لم يسمح له بمقابلة « سواء في القدس او القسطنطينية » لاني كنت سالح في هذه المقابلة من اجله » (٣٤) •

الجزء السادس

المتآمر اليائس

١٨٩٩ ــ ١٩٠٤

● « الرياح تهب على الغاب . أشعر بخريــف حياتي يدنو . اني في خطر من أن أترك للعالم أثرا من بعدي . ولابنائي شيئا » .

الفصل السابع والعشرون

في أول ابريل عام ١٨٩٩ ، مات « فيليب مايكل دي نيفلنسكي » في غرفة تطل على خليج البوسفور • وكانت زوجته قد صحبته الى فندق بريستول في القسطنطينية وكذلك عائلته وطبيب يهودي • وكان لموته المفاجىء اثار على هيرتزل ظهرت تباعا في تغير طرأ على صحته وشخصيته • وكان من الناحية السياسية قد فقد مرشده الى « يلدز » التي فكر عند احدى انعطافاتها أن يجد المفتاح لفلسطين • وفقد أيضا بديلا لكانا وبوكسر • صديق كان تفاؤله يفعم روحه ، وكانت نياشينه تتيم اعجابه ، وذاتيته غير ذات أثر عليه • لقد وسمه بالطبع بأنه نذل ، ولكن هيرتزل كان يعرف طبيعته الى حد كاف يجعله لا يثق في شكوكه • وتشير مذكراته وهي الشاهد الاول على التغيير الذي طرأ على هيرتزل ، الى موت نيفلنسكي بألم وحزن ازداد حدة بسبب الاحساس بالذنب• لقد سمح له ، بعد أن شخص مرضه بأنه ألم بالقلب بأن يصبح أول شهداء الصهيونية السياسية • ورغم ذلك فان ذكراه لم تبق غير ملطخة •

فمن ١٨ مايو الى ٢٩ يوليو ١٨٨٩ ، كان مؤتمر للسلام ينعقد في لاهاي وكان أول مؤتمر في سلسلة طويلة من محاولات غير ذات جدوى للحد من التسلح • وقد تبنى المؤتمر القيصر الصغير نيكولاس الثاني الذي ضمن أن يحضره ممثلو ستة وعشرين دولة وعدد كبير من المثاليين ، ومن أبرزهم البارونة « بيرتا فون سوتنر » Bertha Von Suetner ، وهي السكرتيرة السابقة « لالفريد نوبل » وكان هيرتزل يعرفها لانها كانت تكتب في صحيفته • واعتقد هيرتزل ان صداقتها قد تيسر له الوصول الى القيصر • وذهب الى هولندا أياما قلائل في منتصف شهر يونيو ، وأبدت البارونة ودها نحوه بأن أدرجت اسمه في قائمة المدعوين على عشاء احتفالا بالذكرى الثالثة لزواجها • وكان من بين

الضيوف كابتن شين من السلاح البحري الروسي ، « وليون بورجوا » مندوب فرنسا في المؤتمر ، والسفير الفرنسي في لاهاي · (٢)

وكان هناك واحد من المندوبين الاقل شأنا وهو نوري بك نفسه الذي كان هيرتزل قد أعجب بذكائه في أول زيارة له للقسطنطينية · وكان نوري ما زال السكرتير الاول للشئون الخارجية · ولكي يهرب من الدوامة الانسانية دعا نوري بك لتناول الغذاء معه وحدهما في الصالون المجاور لفندقه · وصور العثماني (لان نوري ـ نصف فرنسي ـ لم يكن تركيا بأي حال) نيفلنسكي على انه شهيد طاهر الروح · وبعد الكلام بحذر عن « الفقيد » بدأ يتحمس لتشويه السمعة · فقال ان نيفلنسكي قد غش هيرتزل من البداية ، وانه لم يلفت ابدا نظر السلطات التركية الى اقتراحات هيرتزل ، بل عرض بدلا من ذلك التجسس على الصهيونيين لصالح الاتراك · وقد تآمر محمد نديم السفير العثماني في فينا مع البولندي في مقابل أن يسمح له بمضاجعة زوجته · وكان تعليق نوري القاسي : « حكاية قذرة » ·

وفي مثل تلك الصحبة وبعد تلك الافشاءات ، تشجع هيرتزل لانه يقدم على كذبة سياسية · فقال انه يحتاج الى شركة قانونية · وسأله نوري هل يمكنه أن يحصل على مساندة القيصر ؟

وقلت بحماس : « نعم » ·

فقال : « اذن لقد تم الموضوع · » (٣)

لم يكن هيرتزل يتمتع بصحة طيبة بعد أن ترك بودابست · وبينما كان طالبا أصيب بمرض سري ، وكان الامل العظيم بالنسبة لهذا المرض في ذلك الوقت هو أن يصبح مرضا مزمنا ولكن بصورة معتدلة · وقد رفض مرتين في خدمة الجيش · وعندما كان مراسلا في باريس أصابته نوبات مرض من أمراض الشيخوخة قد يكون له علاقة بمرضه الاول · غير أن الاشارة الى المرض في مذكراته تصبح أكثر الحاحا وثمة نوعان من المعاناة يشير اليهما : خفقان في القلب وضعف في العقل ، أو فقدان الوعي للحظات قصيرة · وقبل أن يذهب الى لاهاي قصد الى « باد نوهيم » في اجازة للعلاج لمدة ثمانية أيام · غير انه بعد ثلاثة أيام من عشائه مع نوري كان في باريس يشعر بالمرض · « ان قلبي متوتر بصورة سيئة وأعاني من الخفقان ومن النبض غير المنتظم (٤) » وفي مكان اخر من المذكرات يصف أنيميا العقل · كان يتحدث مع زملائه في مكتب صحيفة « دي فيلت » التي كان يدفع خسائرها المالية من ماله الخاص ولا بد أن تكون هذه الخسائر قد ساهمت في التوتر الذي أصابه · « فجأة أظلم وعيي بالامور

وأصابت الغشاوة ادراكي · رغم انه كانت في استطاعتي أن ألاحظ ما يحدث لي عن كثب أثنـــاء النوبة وكنت حتى أتبـــادل النكات مـــع شاليت ورايـــخ السكرتيران · » (٢٥)

وحملته عربة الى فاهرنج Wahring ، حيث أشار عليه الطبيب باجازة للراحة · ولم يأخذها · فتلك النوبات يمكن أن تصيبه في أي مكان وفي أي وقت · وفي احدى أمسيات شهر يونيو وأثناء زيارته لباريس ، كان يتنقل بعربة في غابة بولونيا واذا به يوشك على الاغمـــاء في العربة · فتمدد علـى أريكتين من أرائك المنتزه في الغابة حتى مرت النوبة ، ثم ركب العربة وعـاد الى منزله ، « بوعي ناقص الى حد كبيـــر » · (كانت الخلفية هذه المرة هـي متاكدة نورداو) · وفي مناسبة أخرى أصابته النوبة · بينما كان يقرأ كوما من المقالات الادبية · « لم أقل عنها لاحد · فوالدي يمكن أن يكتشفا الامر فيثوران له · ولن يجعل ذلك زوجتي تزداد حيالي · » (٧) كانت جولي مقتنعة بـأن اهتماماته السخيفة تجعله يمرض وتستنفد أيضا دوطتها · ولـم تكن تخـاف اطلاقا من الحديث بصراحة عما هي مقتنعة بـه ·

وقد بلغت تلك النوبات التشنجية ذروتها في صيف عام ١٩٠٠ · فقـد عقد المؤتمر الصهيوني الرابع في لندن وليس في بـازل Basel مثل سابقه · ورغم انه كان الاسبوع الاول من شهر أغسطس أحس هيرتزل برعشة قاسية أرغمته على أن يلتزم فراشه يوم وصوله الى لندن · كان ينزل بفندق لانجـــام في بايزواتر Bayswater واعتقد هيرتزل (الذي كان جاهلا بالطب) أن الاعراض التي أصابته هي أعراض مرض الملاريا أو ربما الالتهاب الرئـوي ، أما سكرتيره الذي لم يكن طبيبا أيضا فقد رأى ان تلك هي اول ازماته القلبية الحقيقية · (٨) وارتفعت درجة حرارته الى ١٠٤ فهرنهايت فرأىأشياء غريبة جعلت ممرضتيه الانجليزيتين تبدوان أمامه في صورة شخصيات مشعوذة · ورغم انه تمكن من أن يشترك في الجانب المتعلق بالنشاط الاجتماعي للمؤتمر ، بما في ذلك الحفل الذي أقيم في الحديقة تكريما لروتشيلد وكان قد أوشـك على أن يشفى من ارهاق مرضه في لندن في نهاية أغسطس · ولكن حتى الثامن والعشرين من سبتمبر كان فاتر الهمة عديم النشاط ·

وقد أجهده المرض العضوي وانتقص من توثبه الذهني بصورة متقطعة ، وتمزق مزاجه · وأصبحت الامور البسيطة نسبيا تتسبب في اثارته بشدة · وقبل مؤتمر السلام ، غاب عن ذهنه أين وضع الخطاب الـذي أرسلـه اليـه ايلينبيرج في العام السالف الى أمستردام · ولما كان الخطاب يؤكد اهتمـام

القيصر بالصهيونية فقد كان خطابا هاما وكان يريد تصويره • وفي الوقت نفسه كان يريد كتابة مقال افتتاحي عن عودة درايفوس من جزيرة الشيطان • وقد جعله ذلك يبقى ساهرا حتى ساعة متأخرة من الليل • وعندما وصل صديقه الكسندر مارموريك صباح اليوم اللاحق ومعه آلة التصوير لم يستطع هيرتزل ان يعثر على الخطاب • وجرى بحث يائس عن الخطاب في جميع انحاء المنزل ، ولكن دون جدوى • وذهب الى فيينا ، الى مكتب صحيفة « دي فيلت » الذي يقع في شارع توركنشتراس ، والى شقة والديه : لا شيء ! وعندئذ اقترح والده أن يبحث في الحديقة في منزلهم الريفي الذي يقع قرب المدينة • وهناك كان الخطاب يرقد على مقعد بين كومة من قطع خشب التنوب • « وبمحض الصدفة فان البستاني لم يحضر لينظف الحديقة طوال أربع وعشرين ساعة ولم يكن اطفالنا ايضا هناك الذين يمزقون كل الخطابات • ولم تسقط أية أمطار اذ كان الخطاب سينقع فيها فتفسده تماما (١٠) » •

ورغم ان احدى ممرضاته الانجليزيات وهي كاثوليكية كانت تعتقد ان مظهره يذكرها بالمسيح * ، الا ان صوره الفوتوغرافية التي لم تلمس يظهر فيها انتفاخا متزايدا في الوجه ، وتشير مذكراته الى اعتداءات مماثلة على روحه التي كانت يوما ما بالغة الحساسية ، انتفاخ في أوعيتها الشعرية بسبب جنون العظمة ** •

وفي أعقاب رحلته الاولى الى تركيا بدأ يعي في اجتماع للعمال في لندن ان اسطورته بدأت تولد • « الناس عاطفيون ، الجماهير لا ترى بوضوح • واعتقد انهم ليست لديهم الان ايضا صورة واضحة عني • وثمة ضباب خفيف بدأ يرتفع حولي وربما تصبح تلك هي السحابة التي سأسير فيها (١٣) » •

وبعد قليل من وفاة نيفلنسكي ادلى بحديث لزوجة احد الديبلوماسيين التابعين لاحدى دول أمريكا اللاتينية • وقد وصفته بأنه « رائد الصهيونية » ونسبت اليه تصريحات كانت لا شك بالنسبة لاي شخص مسيحي تصدر عن شخص اكبر من مجرد « رائد » • فلقد وصف فلسطين بأنها « الارض التي

---

* الى الدكتور ليبستر في فندق لانجهام •

** على ذكر الديبلوماسيين النمساويين اللذين اهملا في الرد على بطاقات هيرتزل : « انهم يعاملونني وكانني هواء - هؤلاء الاغبياء الذين لن يشعر احد بوجودهم عندما يلمع اسمي خلال الاجيال لمعان النجم •

تبدو ميتة اليوم ، ولكنها نائمة فقط ومستعدة « مثل ابنة «جايروس» ان تنهض من القبر » . وأعلن عزمه على أن يطرد الباعة المتجولين والقذارة التي تلطخ شرف القدس من تلك المدينة المقدسة . وقد أسر لكاتب عبري بحلم طفولته ـ لم يذكر ابدا حتى الان ـ وفي الحلم حمله المسيح الى موسى الذي قال انه الطفل الذي صليت من أجله (١٤) . وفي الوقت نفسه اصبح عنيفا بصورة متزايدة ازاء اليهود ـ وثمة كلام قاله قبل عيد ميلاده الاربعين ـ « فكرت في كلام طيب ليكتب على قبري : « كان رأيه في اليهود رأي طيب اكثر من اللازم » يتوازن مع اقوال غاضبة سريعة كثيرة : « زارني يهودي القدس نافون بك ومعه مشروعات ـ انه طراز اليهودي الشرقي المتفرنس السيء، طراز اليهودي الشرقي الاحمر ـ وجهه وجه طير جارح ، « نصاب ماكر » (١٦) وبعد ان ذهب هيشلر والاسقف براملي مور الطيب الى كنيسة ايرفنجايت Irvingite حيث ارتدى الاسقف عباءته الكنسية ليطلب نصيحة الرب بشأن واجبهم فيما يتعلق بالصهيونية كتب يقول : « هؤلاء المسيحيون البسطاء القلوب احسن بكثير من حاخاماتنا اليهود الذين يفكرون في الاجور التي سيحصلون عليها مقابل عقد الزيجات بين اليهود الاغنياء (١٧) » .

هذه الاحكام العدائية ربما عكست اعجابا كامنا بأولئك الذين انتقدهم . وهي لا شك تكشف في رائد القومية اليهودية ، قلق نفسي مستمر . وليس من الصعب ان نميز اسباب القلق النفسي الذي جاء متوازيا مع المرض العضوي. فقد حاصره قلق المشكلات المالية ، وهذا هو اكثر انماط القلق ازعاجا على الدوام . وقد أثر كل ذلك عليه ليس كزعيم لحركة طموحة فحسب وانما ايضا كأب لاطفال ثلاثة .

وفي ٢٥ مايو عام ١٨٩٨ ، عندما مضى على « دي فيلت » اقل من عام ، تحدث مع « عزيزتي ل. كيلز » عن المستقبل . ولو ان المنية لحقت بهرتزل قبله لاصبح كيلنر رئيسا لتحرير « دي فيلت » ونشر المذكرات على اجزاء . « ان الصحيفة نفسها ملك لاولادي ، لانه في الفترة التي كنت اعمل فيها لصالح اليهود ، اهملت في كسب المال لهم (١٨) » . ولو امتدت الحياة بهانز اطول منه ووصل الى مرحلة الرجولة لتولى شئون الصحيفة ودفع من ارباحها مرتبا لاخته . غير ان الواقع المر انه في العام الذي أعقب فشله في فلسطين وموت نيفلنسكي كانت آماله الكبيرة قد قضي عليها تماما . وكان لا يزال يدفع نفقات « دي فيلت » ، فمن مجموع خمسين الف جيلدر انفقت بالفعل على الصهيونية ، انفق ما لا يقل عن خمسة وعشرين الفا منها على صحيفة استمرت

في الخسارة طوال حياتها * • وقد ارغمته مطالب عائلته ونفقات حركته السياسية على التمسك بمنصبه في « نيو فري بريس » رغم ان المسئولين عنها « باشر وبنيديكت » ظلا باستمرار معارضين لارائه • وبعد المؤتمر الثالث في اغسطس عام ١٨٩٩ ، الذي بعث فيه الشعور بالضجر في البداية ثم ضايقه ، ثم أثبت في النهاية فقط ان الحركة ما زالت موجودة ، عاد الى فيينا • وقد ضايقه الفارق بين المناداة بملكية الشيء ، والسيادة عليه في مؤتمر بازل وضايقته ايضا تبعيته لمرؤوسيه في فيينا • « علي أن أعود مرة اخرى الى العبودية الحقيرة في « النيو فري بريس » حيث لا يسمح بأن يكون لي رأي خاص • انها مسألة بضعة آلاف من الجيلدرات ، لا ينبغي ان أضحي بها لاني أعول اسرة (١٩) • ان مطالب العمل السياسي ، التي تجيء عن طريق الوسطاء والصحفيين أو المخبرين لا تنتهي • وقد وجدت الروح التي تخشنت بسبب الطموح الذي تمرغ في الهموم المالية في جولي هدفا • كان ينفق نقودها ونقوده على الحركة وعلى « دي فيلت » • ولو اعترف بذلك فأنه سيضع نفسه في موقف المدافع عن نفسه • لقد وقف موقف المهاجم بطريقة لم تتح لها قوة للرد • وفي عام ١٨٩٩ بينما كان يعد كلمته للمؤتمر الثالث فان خياله ربط بين مرض بولين في الصيف السابق وبين ضغينته على جولي • وبدأ يكتب مسودة لمسرحية « الأم الآثمة » والتي سميت « جريتل » فيما بعد وأجريت البروفات عليها لتمثل على مسرح ريموند في فيينا في مارس عام ١٩٠٠ • وظهر نقد صحفي به ثناء كبير على أول عرض للمسرحية في « النيو فري بريس » في ٥ ابريل ، والنقد موقع بالحروف ف• ش F. Sch وهذه الحروف من اسم فريدريك شتونر الذي عمل تحت رئاسة هيرتزل في القسم الادبي في الصحيفة • (كان من سياسة الصحيفة ان تكتب عن هيرتزل الكاتب بينما لا تقول شيئا عن هيرتزل السياسي) • والشخصية الرئيسية في المسرحية هي « ماريام وينتر » امرأة هستيرية يانعة وشهوانية ، اصبحت « بكل ما اتبعته من اساليب المناورة ، زوجة للدكتور جورج وينتر وهو محام متحفظ في فيينا • وكانت لها علاقة آثمة بشاب متكلف طائش هو ادجار بوهيم • وسرعان ما تعاقب على آثامها بمرض ابنتها جريفل مرضا خطيرا ، وفي نشوة الاثم تعترف ماريان لزوجها بخيانتها له ، وتنزعج الطفلة لمشاحنات والديها وتنهض من

---

* توقفت دي فيلت عن الصدور في شهر يوليو عام ١٩١٤ •

مخدعها ثم تغرق فيه مرة اخرى لتتلو صلاة النوم :

انى متعبة ، وسأذهب لاستريح
واغلق عيناي
ابي ·· لعل عيناك
تراقبان فراشي ·

وعندما تبل جريتل من مرضها ، تتسع الهوة بين الزوجة الطائشة والزوج الجاد · وبعد ظهر أحد الايام عندما يصحبون جريتل في أول نزهة لها وهي مثقلة بالدمى تقفز الفتاة دون صبر على قدم ثم أخرى ، وينتاب ماريان شعور اكيد بأن ابنتها ستؤخذ منها · وعندما تعود جريتل من نزهتها في الحديقة تجد أن أمها قد انتحرت ·

وربما رأى بعض نظارة فيينا في « ماريان » و « ادجار بوهيم » صورة لجولي وآل ناسشاور المعادين للصهيونية · كان هذا في شهر ابريل · وفي الشهر اللاحق ، في ٢٣ مايو عام ١٩٠٠ سار هيرتزل قدما في حملته العدوانية ولكن بصورة شخصية هذه المرة · فقد كتب وصية قال فيها ان فكرته عن السلوك الفروسي لم يكن يسمح له بكتابتها من قبل خمس سنوات· وقد ترك كل شيء ، بما في ذلك الكلمات الطيبة ، لوالديه والاملاك لاولاده · وثمة فقرة تنص على أن « لا يحصل اقارب والدي ، وزوجتي جولي ناسشاور او اقاربها على أي شيء » · وبعد ذلك بسبعة أسابيع اضاف فقرة أكثر عنفا : « لم يبق من دوطية زوجتي ، جولي ناسشاور الا ٢٠ الف جيلدر · وبلغت النفقات الضخمة التي فرضتها علي خلال الاحد عشر عاما الماضية ٥٥ الف جيلدر على وجه التقريب بالاضافة الى الاموال التي كسبتها انا بصعوبة · والان بدأ دخلي يتحسن وربما انجح في اضافة شيء الى الدوطة بحيث تتسلم قيمتها الاصلية عندما يحين أجلي · وأود منها ان تودع الاموال المذكورة في المحكمة وان يصبح لها حق الانتفاع بها دون ان تلحق بها أي تلف أو تضر بها وذلك حتى نهاية حياتها * ·

اما نفقات البيت ، ونفقات ملابس جولي ، وخسائره لال ناسشاور في لعب الورق (٢١) ، والمبالغ الصغيرة التي كان يعطيها لهيشلر ، والحاجة للمساومة حول مبالغ كبيرة لرجال مثل نوري ، كل هذه كانت اشياء تافهة بالمقارنة للملايين التي كان يجب ان تكون تحت تصرفه لو أراد تنظيم تمويل

---

* ترجمت وصية هيرتزل الى الانجليزية ونشرها جيلبر N.M. Gelber الذي يضيف قائلا : « لا شك انه ساهم بثروته وبثروة زوجته في القضية التي كرس لها حياته ايضا (٢٠) » ·

الامبراطورية العثمانية واستعمار جزء منها · (قدر هيرتزل الدين العثماني مبدئيا بـ ٨٥مليون جنيه استرليني أو ٢٢مليون بالسعر الجاري عندئذ (٢٢)) وكان هيرتزل يشارك سيسيل رودس في آرائه الاستعمارية ولكنه كان يفتقر الى عبقريته المالية ولم يحصل ابدا على شيء يوازي في قيمته مناجم راند ليدعم به مشروعاته ، وكل ما كان لديه هو الافتراض بأن القوة المالية اليهودية ، التي افسد اليهود وجودها الواضح حتى ذلك اليوم ، يمكن ان تستخدم لمساعدتهم (٢٣) ·

ولكن لم يقدم دي هيرش الذي اتصل به في البداية ولا آل روتشيلد الذين حثهم في خطابه على التبرع بينس واحد ــ لقد تجسدت في أول مؤتمر صهيوني عام ١٨٩٧ ، رؤية هيرتزل « لمجتمع اليهود » ، وقد اقترح ماكس بودنهايمر عندئذ انشاء صندوق قومي يجسد رؤية هيرتزل الخاصة باقامة شركة يهودية تماثل الشركة البريطانية لجنوب افريقيا التي ساعدت سيسيل رودس على استعمار ممتلكات الملك « لوبنجولا » وتنبأ هيرتزل عندئذ بأن عام ١٨٩٨ سوف يشهد اقامة ما سمي مؤقتا بالبنك اليهودي للتعمير Jeuisch Colonial Bank . وسيكون مقر البنك الرئيسي في لندن وستكون رأسمال الاسهم فيه ٢ مليون جنيه استرليني ، وسعر السهم جنيه واحد · وقد قدر لموضوع البنك ان يثار مرة أخرى في المؤتمر الثاني في العام اللاحق ، وقد جعلته الرحلة القادمة الى فلسطين امرا ملحا للغاية · وقد تم تسجيل البنك في الواقع في لندن في ٢٠ مارس عام ١٨٩٩ وبعد اسبوع فتح باب المساهمات· غير ان عدد الاسهم التي بيعت بلغ ٢٠٠ الف سهم اي أقل بـ ٥٠ الف من أدنى عدد مطلوب · الا انه عندما حان موعد المؤتمر الثالث وصلت اسهم البنك بالكاد الى العدد المطلوب ، وكان العدد اقل بصورة محزنة مما توقعه هيرتزل · وكما يمكن ان يتوقع من بنك يقام لهدف سياسي بواسطة رئيس كان ملهما ولكنه هاوي دساس الانف ، تولد عن البنك من المتاعب اكثر مما حققه من المكاسب · فقد جرى تحقيق في اتهامات بسوء الادارة ثبت ان لا اساس لها من الصحة · ومع ذلك فقد تسبب البنك في الاساءة باستمرار الى المشاعر على الاقل عندما أصدر هيرتزل « اسهما خاصة للمؤسسين » ، كان من شانها ان اعطى اناسا كان يمكنه ان يثق في صهيونيتهم نوعا من الاشراف على البنك · وكان « دافيد فونفرون » مساعده الامين في جميع الشئون المالية ·

ولكن حتى صبر فولفزون كان قد وصل الى النقطة التي قصمت ظهر البعير في بداية سنة ١٩٠٠ ، ولا يستغرق الملخص لمتاعب هيرتزل المالية الا

سطورا قليلة مطبوعة • ورغم ذلك فان القلق الذي سببته تلك المتاعب غيم على حياته الاسابيع تلو الاسابيع البطيئة • والمذكرات تعكس صورة كاتبها الجديد القلق ويضيع فيها طابعها الواضح المثير • وتصبح توثيقا لمجادلات ضيقة الافق، ومملة مثل تسجيلات مباريات البريدج القديمة • وكان هيرتزل يلعب مثل السحرة الان ، ليس فقط بثلاثة اطباق بل بدستة منها ، ومدير البنك اللحوح يمسكه بذيل معطفه من الخلف •

واصبحت الاتصالات الجديدة برجال السلطة هي فقط التي يمكنها ان تشعل النار في قلمه • وهنا تنبعث المهارة القديمة في التصوير السريع بالقلم من الصفحات الكئيبة المليئة بالحروف ، والاشارات الى الصحة السيئة ، والشكوك في المعارف من اجل الثقة ، والصمت حول حياته الشخصية • لقد فقدت الاماكن مؤقتا قدرتها على ان تكون مصدر الهام له وفي زياراته الثلاث الاخيرة لتركيا يصف مؤامراته ولا يصف خلفية الزيارات فقد كتب يقول : « ان الجمال لم يعد يثير في شيئا (٢٤) » •

وقد اصبحت مؤامراته التركية ، الباهظة التكاليف ، والممتدة ، والتي لم يكن ثمة طائل من ورائها ممكنة في النهاية ، وذلك باكتشافه لبديل رائع لنيفلنسكي • كان ارمينيوس فامبيري Arminius Vambery مغامرا ومكتشفا يقف على قدم المساواة مع معاصره سير « ريتشارد بيرتون » • وكان ابواه من اليهود الارثوذوكس في المجر ، وقد دان بالاسلام ليدخل في خدمة العثمانيين ثم دان بالبروتستانتية المسيحية ليصبح استاذا للغات الشرقية في بودابست • وعندما قابله هيرتزل لاول مرة في ١٧ يونيو عام ١٩٠٠ فان حياة فامبيري الشاذة اصبحت غير عادية بالطريقة المؤثرة التي رواها بها • « هذا اليهودي المجري الاعرج العجوز الذي يبلغ من العمر ٧٠ عاما والذي لا يعرف ما اذا كان تركيا أم انجليزيا يكتب الكتب بالالمانية ، ويتكلم ١٢ لغة يتقنها كلها نفس الاتقان ، وقد دان بخمس ديانات خدم في اثنتين منها كقسيس » كل هذا أثار اعجاب هيرتزل الذي أضاف : « بهذه المعرفة الوثيقة بخمس ديانات كان من الطبيعي ان يتحول الى «ملحد» (٢٥) » • وفي ثقة شديدة أسر فامبيري اليه بانه عميل سري لكل من تركيا وبريطانيا العظمى • وكان لديه المزيد من الاسهم • فقد كان ثريا • وكان صديقا شخصيا للسلطان عبد الحميد ، الذي كان يأكل معه على الطريقة التركية جالسا القرفصاء على الارض • (لم يكن لدى هيرتزل مثل هذه القدرة على التأقلم • فكان يجد في عادة استخدام نفس الادوات في تناول اطباق متتابعة عادة مقززة • كان ابن جانيت هيرتزل يصر

على طبق جديد وشوكة وسكين لكل نوع من خمسة عشر نوعا من الطعام في الغداء • وكان يعتقد ان هذا اللون سيكون له اثر على الخدم الاتراك اكثر من أثر البقشيش الذي يمنحه لهم) • وقد طلب السلطان من فامبيري ، مثل بيفلنسكي من قبله ، ان يرفع من اسم تركيا في الصحافة الاوروبية • وقد أوضح ذلك لهيرتزل ما يجب عليه ان يفعله فيجب على فامبيري ان يشير على السلطان بأن يدعو هيرتزل الى القسطنطينية (فان مجرد وجوده هناك سيرفع من أسهم عبد الحميد) ويوكل اليه المهمة •

ولا شك ان فامبيري كان أذكى من نيفلنسكي بل والاحرى اكثر شجاعة منه • فقد كتب في وضوح عن رحلات عانى فيها الكثير من المشاق في آسيا الوسطى • ولكن شخصيته بينت ان الرجل الذي يستهتر بالدين لا تبقى روحه سليمة ، وتحت تأثير مستر نوريس القرن التاسع عشر ، فان هيرتزل المسن الاقل امانة ، يحل مؤقتا محل هيرتزل المثالي الذي سعى لان يتصرف ويكتب بصراحة نبيلة • ويصبح هيرتزل ابن الاخ المعجب المتواطىء • ويصبح العم فامبيري (كما كان هيرتزل يطلب ان يسمح له بمناداته على طريقة نارداو) هو النصاب الذي يبدأ أولا بأن يضحك الناس ثم لا يلبث ان يملي تعليماته عليهم • ويبدأ هيرتزل ورفاقه في استخدام الشيفرة : « فالسلطان » مثلا هو « كوهين » ويلدز هي « المصنع » وكانت الشفرة قناعا ضروريا تحوي المذكرات (المكتوبة بخط هيرتزل الجميل) فقرات يدرك حتى من يترفق في الحكم عليها انها ذات وجهين • فمثلا ، يشير فامبيري في واحد من خطاباته الى صديقه السلطان (الذي كتب عنه بعد عزله مذكرات توضح الكثير *) على انه ابن السفاح القذر (٢٦) • ومع ذلك فان هيرتزل في خطاب مليء بالولاء المتذلل الى السلطان يشير الى فامبيري قائلا : « صديقي الرائع البروفسور فامبيري ، الخادم المخلص الامين لجلالتكم (٢٧) » • وبالمثل فان في كلامه ايضا تعارضا فيقول : « حاليا أرى ان هناك مشروعا واحدا اخر فقط : عليك ان تعمل على ان تزداد متاعب تركيا ، وعليك ان تشن حملة شخصية ضد السلطان ، ولتسع الى الاتصال بالامراء المنفيين » وبالاتراك الصغار ** » ، وفي الوقت نفسه عليك

---

* ذكريات شخصية عن عبد الحميد الثاني وبلاطه ، « القرن التاسع عشر ، يونيو ١٩٠٩ » •

** كان الاتراك الصغار سيطيحون بالسلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٩ ويقيمون دكتاتورية قومية عنصرية تعادي العناصر غير التركية في الامبراطورية العثمانية •

عن طريق زيادة حدة النشاط اليهودي الاشتراكي ان تثير رغبة الحكومات الاوروبية في ممارسة الضغط على تركيا لكي تقبل اليهود لديها (٢٨) » وقد تعارضت هذه الخطة الماكيافيلية مع كل من المواعظ التي ادلى بها هيرتزل للمحافظين الالمان عن الصهيونية على انها الاكسير ضد الاشتراكية ومع الدعوة المميزة للولاء لامير المؤمنين : « ان عظمة الامبراطورية العثمانية وقوتها هما الامل الوحيد للامة اليهودية ، واود أن اكسب كيهودي أمين ـ لا لنفسي بل لاخواني ـ النوايا الطيبة للخليفة العظيم (٢٩) » ٠

وقد أوضحت زيارات هيرتزل الثلاث الاخيرة لعاصمة الخلافة في مايو سنة ١٩٠١ وفي فبراير ثم في يوليو ١٩٠٢ ، ما تحقق من مضار لانه كان ابن امه ، ولانه ينظر الى الشرق على انه بربري ، ولانه فشل في ان يعرف ان التكتيك العثماني هو كجزء من استراتيجية دفاع خطيرة ٠ ـ ولو لم يكن لديه هذا الشعور بالاحتقار المتعالي الذي يشاركه فيه معظم الاوروبيين ـ فلربما كان سوء تقديره لاعدائه قد تضاءل ولوفر وقته وأنقذ صحته ٠ وعندما بدأ ـ كما سنرى ـ ينظر الى شعوب شرقية أخرى نظرة تتسم بالتعاطف ، كان الاوان قد فات : وعندئذ كان الجهاز الصهيوني قد أفلت من سيطرته عليه ، ررغم انه كان اكثر تعقلا بعد ان عركته التجارب الا انه اصبح ضعيفا الى حد لم يستطع معه ان يكسب شيئا ٠

ويشهد وصفه لتناوله الطعام مع زعماء الحكومة العثمانية ـ وهو شرف له كبير ـ على عدم التعاطف « أكلة كريهة اخرى مع تلك الاطباق البربرية العديدة والتي يجب ان يبتلعها المرء ، طبقا للعادة الشرقية مصحوبة بصيحات التلذذ ٠ طعام أفاعي حقيقي (٣٠) » ٠ وربما شعر القيصر أو سيسيل رودس بنفس الشعور ٠ وقد أساء هيرتزل ايضا تقييم النظام الذي حافظ على امبراطورية السلطان ، ان لم تكن سليمة ، فقائمة وموجودة ٠ وكان الاتراك غير قادرين على مقاومة اوروبا المسلحة (الى ان حارب جيش من الفلاحين يتزعمه عبقري عسكري من اجل ارضه في جاليبولي) الا انهم استخدموا فنون الديبلوماسية ليتقوا خطر الاجانب الذين كانوا يرغبون في الحصول على شرائح من أراضيهم ٠ وأحد هذه الفنون كان فن التسويف ٠ ويحكي هيرتزل عن انتظاره الطويل في القسطنطينية للحصول على رد ايجابي : « ثمة حالتان يمكن تسجيلهما تحدثان باستمرار ٠ القلق في يلدز الذي يزيد من طول ساعات الانتظار ٠ ثم الشعور الذي يجتاح المرء وهو يتحدث معهم ، انهم ليسوا جادين على الاطلاق ٠ فهم مثل زبد البحر ٠ تعبيراتهم فقط هي الجادة وليست نواياهم (٣١) » ٠

والواقع ان نوايا العثمانيين بصرف النظر عن المظاهر ، كانت كلها طبيعية وجادة · فهم يريدون لدولتهم البقاء على قيد الحياة · وفي الوقت نفسه كانوا يعترفون بأنهم يفتقرون الى المال · وكان هذا الصحفي النمساوي ذو البشرة الشمعية واللحية الطويلة المربعة يعرض عليهم تصحيح ميزانية متشابكة ومعقدة كأشجار الغابات ، او بتعبير استخدمه هيرتزل اكثر من مرة ، ان يقوم بدور « اندروكليس » مع الاسد التركي · وكان المسئولون الاتراك ، وهم أقل سذاجة مما يبدون ، ينتابهم فضول ليروا ما يمكنه ان يقدمه لهم · فهل هناك ملايين من اموال اليهود تحت تصرف ضيفهم ؟ اذا كان الامر كذلك فيمكن ان تكون هذه الاموال ذات فائدة · ورغم ان فلسطين نفسها لم تكن للبيع الا انه يمكن بحث التنازلات والصفقات بشأن مناطق اخرى · وقد وردت العراق مثلا كمنطقة يقترح ان يستوطن فيها اليهود وذلك في شهر فبراير سنة ١٩٠٢ · وكما استخدم هيرتزل الوسام التركي (الذي كان يحتقره) للتأثير على اليهود الغربيين فان الاتراك يمكن ان يستخدموه (وكانوا يشكون في قوته المالية) لكي ينتزعوا بالملاطفة والتملق المزيد من الاموال من مموليين اخرين مثل الفرنسيين · ومرة اخرى كان هيرتزل كصحفي يستطيع ان يؤثر على صحافة النمسا وصحافة دول اخرى لكي تصبح اكثر تفهما للمشكلات التركية · وقد تمكن هيرتزل من احياء اسطورة ، وهي ان اليهود يسيطرون على الصحافة الغربية ، وهي اسطورة عاشت طويلا في الشرق الاوسط ·

كان موقف العثمانيين البعيد عن المراوغة الى حد كبير ثابتا من البداية حتى النهاية · فالتصريحات الاولى التي ادلى بها السلطان لنيفلنسكي تعبر عنها الرسالة التي بعث بها الى هيرتزل في الزيارة الخامسة والاخيرة : « انه يمكن استقبال الاسرائيليين وتوطينهم في الامبراطورية العثمانية بشرط الا يقيموا معا اي ان يتفرقوا في الامكنة التي تراها الحكومة مناسبة وبشرط ان تحدد الحكومة عددهم مسبقا · وسيمنحون الجنسية العثمانية وتفرض عليهم جميع الالتزامات المدنية بما فيها الخدمة العسكرية كما يخضعون لجميع قوانين البلاد مثلهم مثل العثمانيين (٣٢) » ·

وكان السلطان عندئذ يرحب باليهود ضحايا المعاداة للسامية في روما وروسيا في الوقت الذي حث فيه بيرنارد لازار الفرنسيين على اغلاق ابوابهم امام اليهود الشرقيين ، وكانت فيه انجلترا تفكر في الاجراءات التي تمكنها من الحد من هجرتهم اليها · وكان الاتراك بمطالبتهم بأن يقبل اليهود الخدمة العسكرية وان يخضعوا لقوانين الدولة فانما كانوا يطالبون بمثل ما طلبته

الولايات المتحدة من المهاجرين اليها • وهناك ايضا اشياء وافق هيرتزل عليها في اكثر من مناسبة • وكانت العقبة هي المكان الذي سينزل به اليهود ، وكان اصرار هيرتزل على ان يسمح لهم بأن يستوطنوا فلسطين دليلا للاتراك على ما اشار اليه أوروبيون مثل دوق بادن الكبير تلميحا ، على ان اليهود بمجرد ما ان يوجدوا في فلسطين بأعداد كبيرة فانهم سيعملون مثلما فعله اتبـاع تركيا السابقين مثل البلغاريين ، ويعلنون استقلالهم • وملاحظة هيرتزل التي قال فيها : « عندما يكون لدى المرء جيش قوامه مليون رجل فانه عندئذ فقط يستطيع ان يتصرف في بلد دون ديبلوماسية (٢٣) » ، قد تبدو لصاحبهـا اصلية ، اما بالنسبة للاتراك الذين كان جيشهم في وقت ما اقوى جيش في أوروبا فقد كانت حقيقة بدهية • فعندما يصبح لدى الصهيونيين مثل هـذا الجيش فليفعلوا ما يريدون •

وقد جعل تلهف هيرتزل على الحصول على عقد واصرار العثمانيين على عدم اعطائه هذا العقد في اجتماع هيرتزل الوحيد مع السلطان مزيجا من سوء الفهم والتفاهة • لقد ذهب الى القسطنطينية وقد اكد له فامبيري (الذي وعده بـ ٣٠٠ الف جيلدر) ان العقد سيتم في هذا العام • وكانت ابنته الصغيرة ترود تبكي لانه قد يتغيب في ٢٠ مايو (كان متغيبا) وهو يوم عيد ميلادها • غير انه في النهاية ، في ١٨ مايو سنة ١٩٠١ ، وصل الى المصح الداخلي في يلدز • وجلس في مقعد مواجه لاريكة جلس عليها ، « السيد » وقد تدلـى السيف بين ساقيه : « صغير الحجم ، متسخ ، بلحيته الرديئة الصباغة والتي يرجح أنها كانت تصبغ مرة كل اسبوع بمناسبة السلاملك • الانف المعقوف ، الاسنان الصفراء الطويلة ، والشفة العليا ذات الشق في النصف ، والطربوش المكبوس فوق رأس ، على الاحرى أصلع ، الاذنان البارزتان ، واللتان تعملان لحماية السروال ــ كما اعتدت ان اقول عن مثل لابسـي الطـرابيش هؤلاء لصديقي لاسليه ــ اي انها تعمل لكي لا يسقط الطربوش على السـروال • اليدان الضعيفتان في قفاز أبيض اكبر من حجمهما ، وأساور القميص الخشنة غير المناسبة ذات اللون الصارخ ، ثم الصوت الشاكي ، والتوتر في كل كلمة ، والخنوع في كل نظرة (٣٤) » • واستغرق الحديث ساعتين • وعرض هيرتزل ان يسوى الدين ، بشرط ان يقوم جلالته بلمحة تأييد لليهود • وتقدم سكرتير السلطان باقتراح : ان جواهرجي البلاط وهو يهودي ، يمكنه ان يدلي للصحافة نقلا عن السلطان بعدة تصريحات طيبة لصالح اليهود • وقد أزاح هيرتزل هذا الاقتراح جانبا وقال انه يريد ان يجند يهود العالم في قضية التنمية التركية •

ورود السلطان بان الامبراطورية غنية حقا · ففي هذا الصباح فقط وصلت برقية من بغداد تفيد اكتشاف آبار بترول اغنى من آبار القوقاز · ولكن بعد كلام عن المال ، والحلول والاحترام المتبادل ، وصل الحديث الى لا شيء · والانجاز الوحيد الذي حققه ليواجه استياء ابنته ترود كان يتمثل في مظروف ازرق سلمه اليه في اليوم التالي نفس السكرتير الذي تكلم عن جواهرجي البلاط · وكان بالمظروف هدية من السلطان ، دبوس به ماسة ذهبية صفراء (٣٥) ·

وقد اعطى هيرتزل البقشيش لخدم السلطان · والان اعطى السلطان البقشيش لهيرتزل · ولم يكن ليعطيه ابدا اكثر من ذلك ·

الفصـــل الثامن والعشرون

كانت واحدة من أبرز السمات التي تمتع بها هيرتزل طوال حياته هي مقدرته على الانتقال والتحول من الحقيقة الى الخيال ، ليجد الخصوبة فـي الكتابة حين كانت تعتري الواقع موجات الجفاف . ولنحو ثلاث سنوات بقيت الكتابة اخر « حلم كبير » له ــ كما اعرب في روايته الوحيدة الجادة * ــ كمرآة ذات شفافية يلجأ اليها كلما بدت الحياة اليومية كئيبة ، عديمة الرجاء .

وقد راود هيرتزل موضوع هذه الرواية بينما كان يستقل القطار يوم ٢ يوليو عام ١٨٩٩ عائدا من باريس الى فرانكفورت ، حيث كان في رحلة عمل الى لندن متعلقة ببعض المسائل الخاصة بالبنك . وكان العنوان الاصلي الذي اختاره هيرتزل لروايته التي تتناول موضوع الدولة التي يمكن اقامتها فـي المستقبل لليهود ، هو « صهيون الجديدة » . وقد هبطت فكرة الرواية نفسها على هيرتزل اثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني الثالث في اغسطس ١٨٩٩ . وفي يوم ٣٠ اغسطس ، وبينما كان هيرتزل مسافرا ــ هذه المرة من وسط فيينا الى بيته في ضواحي فارنج ــ هداه تفكيره الى عنوان افضل وهو « الارض القديمة الجديدة » Altneuland = Old - New Land الذي يسمعك صدى لاسم المعبد اليهودي الشهير في براغ .

ولنحو تسعة عشر شهرا بعد ذلك ، لم تحقق رواية الحلم اي تقدم فوق هذا ــ اي منذ الفترة الفاصلة التي يغزو فيها عنصر الحلم الحياة اليوميـة باكتشافه فامبيري ومحادثته « حاكم بلاد العجائب » وهذه تسمية اخـرى لـ « يلدز » . ولقد أشار هيرتزل مرة اخرى الى الرواية في ٨ نوفمبر عـام ١٨٩٩ ، حينما لحق به اليأس بسبب خسائره في « دي فيلت » وافتقـاره الى

التأييد من جانب القيصر أو الناس • فعاد مرة اخرى الى الكتابة كوسيلة للحياة • « لكي احصل على طحين لطاحونتي فانني حتى راجعت مسرحيتي الهزلية Muttersohnchen (حبيب أمه) وأضفت جزءا للكوميدي جيراردي ، وليس هناك عمل ادبي يمكن ان يكون اكثر كرها على نفسي من ذلك • وربما ستوجه الي الانتقادات عندما يعرف انني الذي أعد بمثابة « النبي » قد قمت بمثل هذه الاعمال الحقيرة • ولكن ماذا أفعل ؟ ان الصهيونية تكلفني الاموال الطائلة ولا تعود علي بشيء • ومن ناحية اخرى فانني قد أسأت الى نفسي اساءة بالغة باعتباري « كاتبا المانيا » وهم بالفعل لا يجرؤون على تمثيل ما اكتب » •

وفي ظل هذه المشاعر فكر هرتزل مرة اخرى في « الارض القديمة ـ الجديدة » ، كما فعل يوم ٣ يونيه عام ١٩٠٠ عندما كان يتأرجح بين آمال فامبيري في ان يمنحه السلطان براءة خاصة ، وبين يأسه الشخصي الاكثر واقعية • « او اننا سوف نسمع ـ لا ـ نمطيه من يلدز ؟ فاذا ما صدرت هذه فانني سأستأنف العمل في روايتي « الارض القديمة ـ الجديدة » حيث ستكون مشروعاتنا حينئذ فقط للمستقبل وللدولة ••

غير ان هيرتزل قضى بعد ذلك عاما كاملا في اعمال وانشطة متعلقة بالعالم الواقعي الحقيقي • وتخلل هذا العام بعض اوقات الراحة • « كانت اعمال الفنتازيا الادبية تبدو بعيدة عني ، في الوقت الذي كنت فيه أسير هنا وهناك في غرفة أولادي • كان الاولاد يغتسلون ويوضعون على أسرتهم لينامون ككل ليلة • كانوا يطلقون ضحكاتهم اليومية ويجذبون أغطية السرير حولهم بعد ان يكونوا قد اغتسلوا وهم يغنون في الحمام ، ثم يتلون صلواتهم الليلية • واليوم جعلت أولادي يتلون صلاة باللغة العبرية بالاضافة الى الصلاة التي يتلونها باللغة الالمانية * » •

ومرة اخرى ـ في مارس عام ١٩٠١ ـ يقع هيرتزل فريسة خيبة أمل شديدة • رفض لورد روتشيلد مقابلته في لندن ، خلاف يثار حول ميراث بوصية من مخمور صهيوني روسي يدعى جورج توبي ، قيمته ٢٠٠ر٠٠٠

---

* كتب هيرتزل وهو في التاسعة عشرة رواية وصفها فيما بعد بانها « رواية قصيرة غضه وسيئة » وقد ظلت هذه الرواية غير منشورة حتى مارس عام ١٩٠٠ حينما النمه « باشر » ـ الذي كان يفتقر الى المواد الروائية حينذاك ـ بنشرها وظهرت بعنوان Die Heimkehr (The Home Coming) اي «العودة» وكتب عليها « من تاليف هـ• يونغمان » •

جيللر [وحدة النقد الهولندي] • فيينا تضايقه لدرجة تجبره على التفكير مرة اخرى في الانتقال الى لندن (وافقت جولي غير ان والديه رفضا) •

وفي خضم هذه الاحاسيس الحائرة يعود هيرتزل مرة اخرى راضيا الى عالمه الطوباوي الخيالي • « انني الان اعمل باجتهاد في كتابة روايتي « الارض القديمة الجديدة » •

لقد تحطمت آمالي في احراز نجاح عملي • ان حياتي لم تعد رواية الان ، ولهذا اصبحت الرواية حياتي » • ويتوقف هيرتزل مرة اخرى فقد مني بصدمتين جديدتين الاولى هي زيارته الرابعة لتركيا واما الصدمة الاخرى فقد كانت في اتصاله للمرة الاولى بالمليونير الرقيق الذي اقترن دوره في التاريخ بدور هيرتزل نفسه • وبعد ان يقابل السلطان في مايو عام ١٩٠١ يرحل هيرتزل الى لندن لاستغلال صدى هذه المقابلة يساعده في ذلك اليهود البريطانيون ممن حضروا المؤتمر الصهيوني الاول ، بويليام توماس ستيد الصحفي المحالف لـ سيسيل رودس ، وقد تم هذا الاتصال نيابة عن هيرتزل • وكان هيرتزل قد اهتدى حينئذ الى وسيلة جديدة للحصول على فلسطين • فان مسئولي جنوب افريقيا ـ وكان هيرتزل قد فكر منذ عام ١٨٩٦ في تجنيد البليونير الافريقي الجنوبي بارناتو ـ يمكنهم ان يقوموا سرا بشراء الاسهم التركية • وهنا تكون لهيرتزل رسالة مزدوجة : بالنسبة للسلطان ، « التحرر من الديون » اذا سلم فلسطين ، وبالنسبة لليهود ، « فلسطين » اذا دفعوا لاهل جنوب افريقيا ما انفقوه مضافا اليه بالطبع ارباح هذه المبالغ •

ويجيب ستيد على كون قائلا : « لقد ابلغته [رودس] ان هيرتزل سيأتي ويقابله في اي يوم يلائمه ، وانه يرغب في ان يتناقش مع المؤسس الاوحد للدول الحديثة • ولقد قال رودس : « اذا أراد أية افادة مني فليس لدي سوى كلمة واحدة أقولها وهي ، دعه يملأ كيسه بالنقود » •

اما رودس ، الذي كان من مؤيدي المانيا لاسباب عنصرية فقد ابلغ ستيد بانه يعتقد « انه يجب ان تستسلم تركيا الاسيوية لالمانيا وذلك لان بريطانيا

---

* هذه القصة صحيحة تماما باستثناء الجزء الخاص بالصلاة باللغة العبرية ، حيث كانت مذكرات هيرتزل معدة للنشر • والحقيقة ان المام هيرتزل بالعبرية كان طفيفا للغاية لدرجة انه كان عندما يريد ان يتلو جملة باللغة العبرية فانه كان يطلب ان تكتب له هذه الجملة بالحروف اللاتينية •

ليس بمقدورها ان تحكم العالم كله » · وكان رودس ، مثل هيرتزل ، معجبا الى درجة الهوس بالقيصر · غير انه في يوم ٢٧ مارس عام ١٩٠١ يكتب هيرتزل في اسلوب قاتم يقول : « مات سيسيل رودس · لقد كنت افكر منذ وقت طويل انه يمكن الاعتماد عليه في جمع التبرعات · لم انجح في الاتفاق معه ، فلقد فشل اعواني في لندن في هذه المرحلة فشلا ذريعا » · ويعود ثانية لاستئناف العمل في روايته في تحمس اقوى ، وفي ٣٠ ابريل عام ١٩٠٢ ينتهي من كتابة اصولها · ونشرت الرواية في الاسبوع الاول من شهر اكتوبر للعام نفسه ·

وتتميز « الارض القديمة الجديدة » بأنها الطوباوية Utopia الوحيدة التي كتبها رجل كانت افكاره مركزة بشكل مباشر حول خلق دولة · وكرواية فان « الارض القديمة الجديدة » تميل للانتساب الى الرواية العلمية ، وقد وصفها ليزلي أ· فيلدر بانها « نتاج يهودي الى حد بعيد » ، وعلى ذلك الاساس فانها تعد اخر مظاهر اعجاب هيرتزل بـ « دوليسبس » · ومن حيث البناء الدرامي فهي قصة حيكت حول صداقة غير عادية بين رجلين · الدكتور فريدرك لوفنبرج ، وهو يهودي من فيينا انيق · غير سعيد عمره حوالي ٢٣ سنة ودكتور في القانون · يقرأ لوفنبرج اعلانا ـ مشابها لذلك الذي فكر هيرتزل يوما في نشره في الصحف الفرنسية ـ يقول : « مطلوب شاب متعلم ويائس وعلى استعداد لان يجري تجربة قد تكلفه حياته · اتصل بمكتب ن· و· بودي (١) » · وفي ختام حفلة ماجنة تصرخ ارنستين لوفلر ـ الفتاة التي يحبها فريدرك لوفنبرج ـ في وجهه معلنة رفضها له مفضلة عليه رجل اعمال سمسرة به حول في عينيه ! وهنا يقرر لوفنبرج التقدم لصاحب الاعلان الذي قرأه ، ويصل الى مستر كنجسكورت ، وهو ضابط بروسي سابق تمكن من ان يصبح مليونيرا على حساب بيع عرض زوجته لابن اخته ! ونتيجة لذلك اصبح كنجسكورت يكره الجنس البشري بصورة عامة والنساء بصفة خاصة · « انه من الانسانية ان تكون حقيرا سافلا ، وكل فرصة تدفع للفحشاء · تحاشى البشر اذا اردت الا يدمرون حياتك · وبعد ان يشتري مجموعة جزر صغيرة في البحار الجنوبية ويختا انيقا فانه يسعى لان يكون معه رفيقا دائما من الذكور » يتعين

---

(١) ترجمت الرواية ونشرت في نيويورك بعنوانها « الارض القديمة الجديدة » وقام بنشرها لوتا ليتسوف مع مقدمة كتبها امانويل نيومان ·

علي ان اذكرك انك تتحمل الان مسئولية تستغرق حياتك كلها ، أو على الاقل طوال حياتي انا . فاذا أتيت معي الان فلن تكون هناك عودة . ولن تكون هناك نساء على الاطلاق » . ويقبل فريدرك لوفنبرج .

وقبل ان يرحل الرجلان معا ، يقوم فريدرك بمساعدة اسرة الطفل اليهودي الفقير دافيد ليتوك على ان تهاجر الى فلسطين .

وفي خلال الرحلة التي يقوم بها الرجلان الى الجنوب ، يزور المغامران — بناء على اقتراح كينجسكورت — فلسطين عام ١٩٠٣ . ويقدم هيرتزل صورة كئيبة للاراضي المقدسة . « كانت الازقة والشوارع [في يافا] قذرة ومهملة ، مليئة بالقمامة ، تخنقها الروائح الكريهة . وفي كل مكان تطالعك مناظر البؤس التي يعيش فيها الشرقيون . اتراك فقراء ، وعرب على درجة من القذارة ، ويهود فقراء يائسون » وفي القدس يثور الرجلان لظهور الشحاذين وهم يصلون امام حائط المبكى . ويبحر الرجلان مغادرين فلسطين عن طريق قناة السويس متجهين الى احدى « جزر الجنة » وفيها يقضيان عشرين سنة كروبنسون كنجسكورت واليهودي مان فراداي .

وفي عام ١٩٢٣ يعود الصديقان مرة أخرى ، ولا احد منهما قد مل أو ضجر رفقة الاخر وقد عادا لان حنين كنجسكورت ، وليس حنين فريدريك ، قد ارجعهما الى أعقاب العالم ثانية . وتكون المفاجأة الاولى التي يقدمها الكاتب هي خليج السويس الذي لم يعد يعج بالسفن الدولية « في بور سعيد ، نزل الرجلان من على ظهر السفينة . كانت هناك في الميناء حركة مرور مفعمة بالحياة لسفن الشحن الصغيرة ، والاسواق الرثة لم تعد مليئة بالحشود والمواكب البهيجة المتباينة الاجناس واللغات والالوان والتي كانت يوما ما احدى سمات المدينة المميزة لها . فلقد كانت نقطة تقاطع الطرق لجميع المسافرين من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . لقد كان معظم المسافرين والرحالة قد تعودوا المرور في رحلاتهم على بور سعيد ، ولكن الان — وفي الرواية — فلم يعد في المدينة غير سكانها الوطنيين ولا يزورها غير طغمة من البحارة شبه المخمورين الذين يترنحون أمام البارات القذرة في المدينة » وتصف الرواية كيف ان الموقع الجديد لفلسطين الذي يتوسط سلسلة من محطات السكك الحديدية قد أدى الى خلو بور سعيد من سياحها . ويسرع الرجلان الى حيفا ، التي أضحت الان أفضل ميناء شرقي البحر المتوسط . وهنا ترتب المصادفات أن يكون دافيد ليتواك الصبي اليهودي الذي كانت أسرته تتضور جوعا — والذي سينتخب رئيسا للبلاد فيما بعد — على وشك أن يعتلي زورقا كهربائيا عندما

يقابل الرجلين · ويأخذ الفتى الجائع والذي أصبح الان سياسيا بارزا الغريبين ليعرفهما بالمجتمع الجديد في هذه الدولة ·

والحقيقة ان شخصيات هذه الرواية هي تقريبا نسخ دقيق للافراد الذين لعبوا أدوارا في قصة حياة هيرتزل نفسه · وبناء على ذلك فان حكم هيرتزل عليه والنماذج التي رتبها لهم على درجة كبيرة من الاهمية في مجال تتبع سيرة هيرتزل الذاتية ، بخاصة في ضوء حقيقة أن جانبا كبيرا من حياته الشخصية تحجبه الغيـــوم ·

ففردرك مثلا ، الذي قدم هيرتزل تلخيصا لكينونته في الفصل الاول على أساس أنه « شاب متعلم ويائس » هو بشكل واضح هيرتزل نفسه : وبالتحديد هيرتزل في أيام ما قبل الصهيونية ·

أما كينجسكورت ، الذي يصفه فريدريك بأنه « أفضل صديق لي فـــي الدنيا ، كمـــا انه أيضا صديقي الوحيد » يذكرنـــا بفيليب زو ايولنبرج · فكينجسكورت يجسد اعجاب هيرتزل بالقيم البروسية (١) ، أما اعتماده على صديق رجل فانه يشير الى أن هيرتزل قد سجل ، ربما دون أن يدرك ذلك ، ما يعتبر تاريخيا أكثر سمات ايولنبرج أهمية (٢) · أما دافيد ليتواك فهو في الحقيقة دافيد ولفسون ، الليتواني المولد وخليفة هيرتزل فيما بعد في رئاسة المنظمـــة الصهيونية العالمية ، كما كان راعيا وكافـــلا لاحدى بناته · أما كانا وبوكسر فقد ورد ذكرهما بالاسم في الصفحات الاولى من الرواية ، كذلك يظهر الافراد الاخـــرون كشخصيات ثانوية · حتى ريتشارد فاجنر ، سبب الخلاف الذي نشب بين هيرتزل والقيصرية ، فانه يظهر مرة ثانية تحت صيغة رمزية (الـــى الذين يعرفون اسم الاب الحقيقي للموسيقار) في شخصية الحاخـــام الدكتور جيير وهو زعيم للدهماء يستغـــل الاستيـــاء الاجتماعـــي لكسب نفوذ سياسي ، ولكنه يخسر في الانتخابات · وبالنسبة للادوار التي تم توزيعها على أصدقاء هيرتزل المقربين فانها ذات مغزى وأهمية بالغة · فبولين (التي اليها قدم اهتداء روايته) تولد من جديد في شخصية مريام المدرسة الجادة التفكير التي يتزوجها فريدريك في النهاية تلبية لرغبة أمها وهي على فراش المـــوت · اما المرأة التي تزوجها هيرتزل في الحياة الواقعية ، جولي ناشور فقد رسمت

---

(١) « بالمناسبة اذا كان هناك شيء أتمنى ان اكونه ، فهو ان أغدو أحد افراد طبقة النبلاء البروسية » · قال هرتزل ذلك في « المذكرات الكاملة » ٥ يوليو ١٨٩٥ ·

(٢) الفضيحة التي تحيط بايولنبرج والمدعوة « كاميريللا » في بلاط القيصر تشكل اول شقاق بين القيصر وشعبه ·

في شخصية ارنستين لوفلر ، ورسم هيرتزل أفراد عائلة ارنستين أغنياء قساة كاليهود ، بل وأكثر قسوة الشخصيات اليهودية في « الجيتو الجديد » • وفي الاوبرا ـ حيث كان يحضر فريدرك دراما موسيقية تقوم على قصة ساباتي زمفي ـ يرى فريدرك أرنستين وابنتها » وفي بادىء الامر كان تحت تاثير وهم غامض عريب • ان أرنستين لم تتغير على مدى السنوات العشرين الاخيرة • انهـا مـا زالت تتمتع بقسماتها الشابة الرقيقة ، ونفس هيئتها الشابة الجميلة • وسريعا ما أدرك فريدرك خطأه • فالفتاة الجميلة التي الحا في النظر اليها ليست أرنستين ، ولكنها ابنة أرنستين • أما مسز فنبرجر فكانت السيدة البدينـة الشاحبة التي كانت ترتـدي ملابس غير أنيقة والتي كانت تجلس في المقعد التالي • لقد تطلعت اليه ، وابتسمت له ، وأجابت هزة رأسه لها بشكل واضح • كم كان وهما طويلا ، عاش في خيالاته السعيدة على جزيرة كينجسلورت ، لقد كان دائما يراها في احلامه شابة جميلة العود والملامح • وكانت نظرته المفاجئة على ما أحدثته فيها السنون صدمة كبيرة • لقد شعر باحساس فيه مزيج من العار والارتياح أيضا • أكان قلبه مولعا الى هذه الدرجة بهذه المرأة ! أهذا شيء محتمـل ! »

أما الشخصية الوحيدة التي ليس لها نظير في تجربة هيرتزل في الحياة ، فهي شخصية الفلسطيني المنزوي المنعزل • ففي خلال رحلتـه الى فلسطين لم يقابل هيرتزل أيا من العرب وباستثناء ما أبداه من أنهم ـ أي العرب ـ يمكنهم القيام بتطهير المستنقعات للمهاجرين فان هيرتزل كان يبدو انه لم يفكر فيهم كثيرا • وهناك خطاب واحد فقط من هيرتزل الى رجل عربي وقد نشر هـذا الخطاب على الرغم من أنه ليس واحدا من خطابات هيرتزل التي دونها فـي يومياته (١) • ويرجع تاريخ هذا الخطاب الى ١٩ مارس عام ١٨٩٩ ، أي مباشرة في أعقاب رحلته الى فلسطين وقبل أيام قليلة من وفاة نيفلنسكي • أما العربي الذي كان الخطـاب موجها اليه فهـو يوسف زيا الخالدي نائـب القـدس في البرلمان العثماني عام ١٨٧٧ والذي عين بعد ذلك في عام ١٨٩٩ عمدة للقدس • وكان العمدة ، وهو المتحدث باسم الاغلبية العربية في فلسطين ، قلقـا للغاية

---

(١) ترجمة لاصل فرنسي نشر تحت عنوان « من الملاذ الى الفتح » « قراءات في الصهيونية والمشكلة الصهيونية حتى عام ١٩٤٨ » . وليد خالدي . بيروت ، مركز الدراسات الفلسطينية عام ١٩٧١ ، ص ٩١ •

ازاء نوايا الوفود الخمسة الصهيونيين الذين كانوا يشاهدون في يافا والقدس أثناء زيارة قيصر • وكتب العمدة الى صادوق خان كبير حاخامات فرنسا يعرب له عن مشاعر الود والصداقة التي يكنها لليهود وعن قلقه ازاء النوايا الصهيونية في بلاده • وبعث صادوق خان برسالة العمدة الى هيرتزل الذي قام شخصيا بكتابة رد على مـا تضمنته رسالته • يقـــول هيرتزل في رسالته الى العمدة « ان اليهود لا تعضدهم قوى ميالة للقتال وليسوا هـم أنفسهم أهـل حرب • ان الاماكن المقدسة هي ملك للانسانية جمعاء ، وعلى ذلك فهي شيء مقدس » • ويمضي هيرتزل قائلا في رسالته « ان فخامتكم ترون صعوبة أخرى في الوجود مع سكان من الاغيار في فلسطين ، ولكن من سيفكر في طردهم ؟ اننا سنزيد من انسانيتهم وثرواتهم وذلك عن طريق جلب ثرواتنا معنـا اليهـم • ويجيب هيرتزل على طلب العمدة أن يبحث اليهود عن مكان اخر يستقرون فيه بتهديد مقنع بأن اليهود قد يفعلون ذلك بالفعل « مما سيكون في غير صالح تركيا » ، وكمواطن عثماني مخلص كان يتعين على الخالدي أن يؤيد ولا يعارض المخطط الصهيونـــي •

ان ريشد بيه (١) في « الارض القديمة الجديدة » هو عربي ثري ، ومثل اليهود في المجتمع الجديد يتحدث باللغة الالمانية ويلهو في أماكن اللهو التـي أقامها المهاجرون الجدد في « جاردن سيتي » • ورشيد بيه ، في الرواية ، هـو احد افضل أصدقاء دافيد ليتواك ومتزوج من زوجة مثقفة غير انها منعزلـة • ويسخر رشيد بيه من مخاوف كينجسكورت من أن المسلمين قد يعتبرون اليهود دخلاء ، ويرد رشيد بيه « انك تتحدث بشكل غريب أيها المسيحي • هل تسمي من لا يأخذ منك شيئا ، ولكن يقدم لك أشياء لصا ؟ لقد تسبب اليهود فـــي ثرائنـا » •

وقد ترك هيرتزل مسألة ما اذا كان الفلسطينيون الفقراء يخطفون بطريقة غامضة عبر حدود مبهمة كالحدود ذاتها • فان صور وصيدا ودمشق وتدمـر (بالميرا) تقع بالتأكيد على خط السكة الحديد اليهودي ، كذلك فان الارض الواقعة شرقي الاردن هي جزء من الدولة • كذلك فان هناك غموضا مناظرا فيما يتعلق بفلسطيـن نفسها • ان الاسماء توراتية ، غير ان القطـارات الكهربائية تتنقل بك خلال أماكن اسكندنافية ولكنها حارة • ليس هناك جيش ، لان السلام

---

(١) هكذا كتبها [نطق] هيرتزل في كتابه . ويقصد بها بالطبع « رشيد بك » .

العالمي قد منع الحرب . أما التعصب الديني فانه شيء من أشياء الماضي .

والحقيقة ان العذوبة الغالبة والبهجة وتحاشي المشاكل المعقدة ـ التي لم يتمكن هيرتزل من تحاشيها في مذكراته ـ التي رسمها هيرتزل في « الارض القديمة الجديدة » قد دفعت أمانويل نيومان ـ محقا ـ الى أن يصور ـ في مقدمة الطبعة الامركية ـ حكمه بأن هيرتزل انما كان يكتب هذه الرواية لهدف الدعاية ، وذلك على الرغم من أن نيومان قد قصر هدف هذه الدعاية على مجرد الهام وحث الشعب اليهودي على الايمان والثقة في الفكرة الصهيونية .

الفصل التاسـع والعشرون

جرت الحقيقة المرة هيرتزل من احلام يقظته · وقد مرضت جولي بعض الوقت وكانت تشكو من ألم داخلي · وبينما كان يمر بباريس في بداية شهر يونيو عام ١٩٠٢ كتب يقول انه أصبح « رجل مسن ومشهور » · وكانت أيام شبابه رغم ما بها من حزن أفضل · وكان حينئذ كاتبا · والان أصبح ذا شهرة عالمية كمروج لليهودية · ومع ذلك فان هذا الدور لا يرضي مآربه الكامنة في نفسه « أنا ككاتب ، وعلى الاخص كاتب مسرحي ، لا شيء ، بـل أقل مـن لا شيء · ان الناس يقولون عني اني صحفي جيد · ومع ذلك أشعر ، واعرف اني كاتب أو كنت كاتبا ذا مقدرة عظيمة ، كاتب لم يعط ببساطة كل ما عنده لانه أصابه القرف والاحباط » · وفي لندن دعي للشهادة أمام لجنة ملكية عينت لوضع تقرير عن مشكلة الفيض الجديد الضخم من اليهود الروس · وقد اعتزم أن يثير بصفة خاصة غضب روتشيلد ، أول يهودي يصبح بريطانيا ويضفـي عليه لقب بير Peer ، النبيل أو الشريف واليهود البريطانيين المندمجين في المجتمع البريطاني بصفة عامة · وسيحدد الورطـة التي تواجـه البريطانيين :

فاما أن ينفصلوا عن تقاليدهم بمنح حق اللجوء للاجئين ، أو يتركـوا طبقتهم العاملة « دون حماية » · واحد الطـرق للخلاص من الورطة بالنسبة للبريطانيين هو الا يمنحوا فلسطين لليهود بل يمنحونهم قبرص ·

ولم تكن فكرة الحصول على قبرص بفكرة جديدة · ففي أول زيارة لـه لتركيا لعب هيرتزل بفكرة الحصول على الجزيرة لاستخدامها كورقة مساومة لاقنـاع السلطان بتسليم فلسطين لليهود · وقد ظل بعد ذلك يراسل دافيز تريتش Trietsch الذي كان ـ كداعية لتوطين اليهـود في قبرص ـ أول قومي يهودي يتصل بالمسئولين البريطانيين (في حالته ، المندوب

السامي في نيقوسيا) بهدف استعمـــار منطقة تسيطر عليها بريطانيا • وقد أحرج تريتش هيرتزل في المؤتمر الصهيوني الخامس بأن حاول تعديل برنامج بازل لعام ١٨٩٧ بحيث يكون كالآتي : « تحـاول الصهيونية أن تقيم لاغلبيـة اليهود وطنا في فلسطين وفي أراضيها المجاورة ، امنا من كل جانب • (٢) »

ثم في مساء ٩ يونيو عاد من المسرح الى فندقه الذي ينزل به في لندن ليجد برقية من فيينا تدعوه للعودة الى منزله • كان جاكوب هيرتزل في حالة خطيرة• ورغم أنه حاول أن يقنع نفسه أنها قد تكون اصابة بالتهاب رئوي الا أنه أدرك في أعماقه انه الموت وكان اليوم اللاحق هو عيد ميلاد هانز الحادي عشر •

وقبل أن يلحق بالقطار الى دوفر ، وصلته برقية أخرى آكدت أن والده قد توفي دون ألم بجلطة • ومن بين ما احزن هيرتزل بشدة : ان والده توفي دون أن يقرأ الصفحات الاخيرة من (الارض القديمة الجديدة) Alteneuland وعندما عاد الى فيينا اتخذ قرارا غريبا : فسيوارى والده التراب بصفة مؤقتة في « دوبلنجر فريدهوف » • وكانت هذه المقابر أجمل مقابر في المدينة : « فــوراء حوائطها يــرى المرء الامتداد الشاسع للتلال الخضراء والوديـــان التي ترتفع تموجاتها ثم تنخفض تجاه جريترج وسيفرنج الى كاهلينبرج (٣) • » ويبدو ان أمه شاركت في اصراره على اعادة دفن جاكوب هيرتزل في المستقبل القريب في دولة مثل تلك التي صورتها رواية « الارض القديمة الجديدة » •

غير ان مكان هذه الدولة يصبح فجأة موضع شك • فمنذ عام ١٩٠٢ حتى عام ١٩٠٤ كان هيرتزل يفكر في الحصول على قبرص أو شبه جزيرة سينا أو اوغندا • * أو العراق أو موزمبيق أو الكونغو أو ليبيا • وكانت قبرص وسينا وأوغندا تؤخذ على محمل الجد كأهداف يهودية لمناقشتها والحصول عليها على أعلى المستويات • أما عن رغبة هيرتزل الجامحة للحصول على واحدة من تلك الاراضي عن طريق ميثاق بريطاني ، فلم تكن هناك مناقشة • وكانت المناقشة تتعلق بدوافعه • فهل كان يريد الحصول على واحدة من تلك الاراضي أو غيرها تحل « للحاجة اليهودية » ؟ أو كخطـوة نحو فلسطين ؟ أو كبديل عنهـا ؟ ان تصرفاته السابقة تعتبر المفتاح •

ففي بداية شهر يوليو عام ١٩٠٢ ، عاد هيرتزل الملتاع الى لندن • وكان

---

* أوغندا كانت كما سنرى وصفا غير دقيق لاراضي في شرق افريقيا البريطانية او كينيـا الحالية •

عليه الان أن يقدم الادلة أمام اللجنة الملكية فاستقبله لورد روتشيلد · وتنبأ روتشيلد بـأن « الاحمقين » في اللجنة ـ ارنولد هوايت وايفانز جوردون ـ يعتزمان ان يطلبـا الى هيرتزل أن يساند وجهة نظرهما المعادية وتصورهما يقـولان « ان الدكتور هيرتزل بلا شك هو اليهودي المثالـي · وهو يقول ان اليهودي لا يمكن أن يكون انجليزيا (٤) » · ورغم ذلك فقد كان لورد روتشيلد الحذر هو الذي خرجت منه كلمة « أوغندا » غير الحذرة · وبعد الغداء والقهوة طلب هيرتزل من روتشيلد ما اذا كان يريد أن يستمع الى مشروعه · ووافـق روتشيلد · وسحب هيرتزل مقعده قرب اذن المالي العجوز ·

« أريد أن أطلب من الحكومة البريطانية ميثاقا لاقامة مستعمرة » ·

« لا تقل ميثاق · فهذه الكلمة وقعها سيء حاليا » ·

« سنسميها كما تريد اذن ، أريد أن أقيـم مستعمرة يهودية في أرض تملكها بريطانيـا · »

« خذ أوغندا ! »

« لا ·· استطيع أن استخدم هذا فقط ··· » ولان الحجرة كان بها أناس اخرون ، كتب هيرتزل على قطعة من الورق ، « شبه جزيرة سيناء ، فلسطين المصرية ، قبرص »

ويقول هيرتزل انه عندما سأل الممول الكبير ما اذا كان موافقـا ، نظر روتشيلد الى الورقة في ابتسامة متكلفة ثم رد قائلا :

وقال هيرتزل : « عليك ان تمنع السلطان من طلب المال · »

وعلق روتشيلد قائلا انه رغم تمكنه من وقف رومانيا عن الحصول على المال (بسبب سياسته المعادية لليهود) ، الا أن تلك المهمة خارجة عن ارادته · واذا أرادت الدول الكبرى مد السكك الحديدية عبر الاناضول فانه لا يمكنـه منعها من ذلـك ·

وذكر هيرتزل الان أرضا أخرى · « لقد عرض علي السلطان بلاد ما بين النهرين (العراق اليوم) ·

وذهل روتشيلد ·

« ورفضت ؟ ! »

« نعـم (٥) »

وبعد ذلك بوقت قصير سافر هيرتزل في زيارته الخامسة والاخيرة الى القسطنطينية · وحتى لو كانت بلاد ما بين النهرين (العراق فيما بعد) غيـر صالحة للاستعمار الا أن استغلال معادنها أمر يستحق البحث · غير انه لم تعقد

أية صفقات مع السلطان · ووضع هيرتزل الان كل آماله على رجل اتصالاتـه في لندن وهو « ليوبولد جاكوب جرينبيرج » * واستطاع أن يرتب له مقابلة مع الرجل الوحيد الذي يستطيع مساعدته في توطين اليهود في احدى الممتلكات البريطانية · وهذا الرجل هو جوزيف شامبرلين ، وزير المستعمرات منذ عـام ١٨٩٥ وقد استقبله في ٢٠ اكتوبر عام ١٩٠٢ · ولكي يحافظ على الموعد هرب هيرتزل من صحيفته مثل التلميذ الذي يهرب من المدرسة وكالتلميذ أيضا كان يخشى العقاب أو الطرد ·

واذ منح ساعة يوضح فيها ما بنفسه « لسيد انجلترا الشهيرة تأثـــر هيرتزل الى درجة ان انجليزيته الرديئة الحاضرة ارتجفت بينما خلي لثام وزير المستعمرات من أي تعبير مشجع · ولكن عندما تحمس لموضوعه ضحك هيرتزل وهو يقارن مفاوضاته غير المجدية مع السلطان بالمساومة لشراء سجادة ·

واستغل فترة الضحك ليقول ما يريد : « قبرص والعريش وشبه جزيرة سينـــاء » ·

وأخذ شامبرلين تلك المناطق بالترتيب الذي ذكره هيرتزل · فقبرص التي تقع في نطاق سلطته سكانها من اليونانيين المسيحيين والاتراك المسلمين · ولا يستطيع أن يجمعهم ويطردهم من الجزيرة من اجل اليهود ، وعلى النطـاق الدولي فان اليونان وروسيا ربما تثيران صخبا شديدا وفي الجزيرة نفسهـا قد تكون هناك مقاومة من جانب نقابات العمال مثل تلك المعارضة التي قاومت الهجرة الى انجلترا · ولا يستطيع شامبرلين كوزير للمستعمرات في حكومـة المحافظين التي يرأسها آرثر جيمس بلفور أن يفعل شيئا ضد ارادة السكـان الاصليين · بشرط أن يكون السكان من البيض ، لانه اذا استطاع هيرتزل أن يحدد « بقعة واحدة من الممتلكات البريطانية لا يعجب بها سكان بيض فعندئذ

---

* جرينبرج صحفي وناشر صغير . عـرف تشامبرلـن في برمنجهـام عندمـا كـان الرجلان راديكاليين عنيفين · وفي عام ١٩٠٦ اشترى جرينبرج مجلة « الجويش كرونيكل » بمساعـدة الصندوق الاستعماري اليهودي Jewish Colonial Trust واصبح اول رئيس تحرير يهودي· ومات عام ١٩٣١ ·

يمكن التحدث بشأنها (٦) ٠ وما دام كل شيء يناقش علنا في انجلترا ، فان أي مناقشة لاقتراح هيرتزل ستستحقها عاصفة سياسية ٠

« وأجبت » ٠ وكان جواب هيرتزل جاهزا ، « ليس كل شيء في السياسة يذاع حقا على الملأ ، النتائج فقط ، أو أي شيء يحدث وتكون ثمة حاجة له في المناقشات » ٠ ولخص هيرتزل عندئذ الاسلوب الذي سينفذ به مشروعه بمجرد أن تقام شركة يهودية شرقية لانشاء مستعمرة في سيناء والعريش ، « فان القبارصة سيريدون ذلك المطر الذهبي على جزيرتهم أيضا ٠ وسيرحل المسلمون ، وسيبيع اليونانيون بسرور جزيرتهم بثمن طيب ويهاجرون الى اثينا أو كريت (٧) ٠ »

واعتبر شامبرلين انه تخلص من فكرة قبرص ٠ وانتقل الى البديل الاخر الذي اقترحه هيرتزل وهو العريش ٠ ورجع في البداية الى خريطة يعرف اين توجد العريش وذكر هيرتزل بصاحب مخزن نسي المكان الحقيقي لشيء يريد بيعه ٠ وعندما عثر على العريش في سيناء داخل حدود مصر ، أشار الى أنها لا تقع في نطاق سلطاته وأي تقدم نحو هذا الاتجاه سيتوقف عندئذ على لورد كروفر المفوض البريطاني في القاهرة ٠

ويوضح الحديث مع شامبرلين الكثير من جوانب هيرتزل في تلك الفترة الاتية ٠ فان يأسه من الحصول على الارض قد أظلم ذهن المحامي فيه ٠ وكتبوا الى جرينبيرج في الخطاب الذي كان السبب في الحديث يقول : « أود أن أثير اهتمام مستر شامبرلين باقامة مستعمرة لليهود على نطاق واسع في الممتلكات البريطانية (٨) ٠ » ورغم ذلك فانه من الناحية القانونية فلم تكن قبرص او سيناء من الممتلكات البريطانية في ذلك الوقت ٠ وفي عام ١٨٧٨ سمح السلطان لبريطانيا في مقابل وعد منها بمساندته ضد الروس بادارة قبرص كقاعدة لهذا الغرض ٠ وظلت قبرص نظريا جزءا من الامبراطورية العثمانية ٠ وكانت العريش وسيناء جزءا من مصر التي كان حاكمها الخديوي عباس الثاني يحكم دولة تابعة للامبراطورية تحت سيادة السلطان ٠ وقد احتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ كحليف للخديوي عندئذ ، وكان اللقب الرسمي لممثلها ، لورد كرومر

هو « الوكيل البريطاني والقنصل العام » . وقد نسي هيرتزل بمطالبته بقبرص مجادلاته عن حاجة شعب الى وطن ، وافترض ان القبارصة سيهجرون قراهم في مقابل الحصول على المال . وكان من المؤكد تقريبا ان القورويين سيثبتــون انهم عنيدون في تخليهم عن أرضهم مثــل الفلاحين في فلسطين . وقبل ذلك بسنوات كتب هيرتزل في « كتاب المهازل » يقول : « ان المسرحية الوحيدة المثيرة هي تلك التي تجري وراء الكواليس (٩) » . وملاحظته تلك لشامبرلين التــي وضعها الكاتب الحالي بين نبرات ــ تبين قبوله للخداع السياسي . وقد برر الكثيرون من القوميين الخداع لصالح الامة . وهذا الدفاع يفترض أن هيرتزل اعتزم تضليل الشعب البريطاني واليونانيين وأتراك قبرص .

ونفسه هذا المبرر ، يمكن بالطبع ان يستخدم لخداع اليهود : لمصلحتهم كما يراها هيرتزل .

وعلى أي حال فقد فسر هيرتزل رد فعل شامبرلين لطلبه بشأن قبرص على أنه الرفض الحاسم . وفي اليوم اللاحق رغم نداء من روتشيلد (الذي بدأ يعجب به) بقبول قبرص بدلا من العريش ، فان هيرتزل لم يذكر الجزيـــرة عندما استقبله لورد لانسداون زير الخارجية البريطانية . وفي البداية وجد أن لانسداون جنتلمان انجليزي مهذب ومتواضع ولكنه ليس ذكيا بصفة خاصة . غير أن هذا الطراز من مثقفي الطبقة العليا قد طور عبر قرون طريقته الرقيقة في تهدئة المتحمسين . وتعثر هيرتزل أثناء مجادلاته ، وشعر بالارتياح عندما رحل بطلب من وزير الخارجية بأن يقدم مذكرة ووعدا منه بأنه سيعطي جرنبيرج (احد اكبر المتعاونين معه في ذلك الوقت) توصية الى لورد كرومر . وتنقسم الاشهر بين نوفمبر ١٩٠٢ ومارس ١٩٠٣ الى قسمين . ففي الفترة الاولى دبت الحياة في روح هيرتزل المزعزعة عندما استقبلت السلطات في مصر جرينبيرج استقبالا وديــا . وفي الفترة الثانية ، عندما عــــاد جرنبيرج الى مصر يحمل تعليمات واضحة بأن يعمل من أجل الحصول على اتفاق فقد كان القلق والشك يمزقان هيرتزل وكان يتعلم الدرس المؤلم وهــو ان الحركــة السياسية مثــل الدراجـــة : اذا توقفت بالحركة بها سقط عنها . ودون النجاح فان حركتـــه ستتوقف عن الحركة . ولكن خداع النفس فقط هو الذي جعله يأمــل في أن تتوفر لــه فرص الحصول على اتفاق من مصر لتعمير سينـــاء تحت الضغط

البريطاني • ويبدو ان الرجل الذي شاهد مناقشات قصر بوربون بتمييز ذكي قد فقد الان القدرة على التمييز الواضح بين الخيال والحقيقة • وعندما وصف مفاوضاته في مصر * ، فان تقريره يعكس التالي : « بعد مفاوضات طويلة تلقى وكيلنا من الحكومة المصرية بيانـــا أعلنت فيه انها موافقة علـــى مبدأ الاتفاق المقترح » • وكان هذا غير حقيقي • ففي ٢٢ فبراير عام ١٩٠٣ أعلـن بطرس غالي وزير الخارجية المصرية رفضه الصريح لاية فكرة عن الاتفاق •

« طبقا للفرمانات الامبراطورية ، فان الخديوي لا يمكنه تحت أي مبررات أو دوافع أن يتخلى ، كليا أو جزئيا ، عن أي من الحقوق الخاصة بالدولة ذات السيـــادة •

« ولهذا ، فان فكرة الامتيـــاز الخاص بالاتفـــاق يجب أن تستبعد رسميـــا (١١) • »

وكانت الحكومة المصرية مثلها مثل السلطان على استعداد لان ترحـب باللاجئين اليهود وان تمنحهم امتيازات خاصة بالضرائب والاراضي بشرط أن يصبحوا من رعايا الدولة المحليين • » الامر الذي نص عليه في وضوح بحيث يعني ان اليهود الذين ليسوا بعد من الرعايا العثمانيين (كما كان الحـــال مع المصريين) يجب أن يستخرجوا شهادات من الدول مسقط راسهم تنص علـى انه ليس هناك مـــا يمنع من أن يصبحوا عثمانيين وان هذه الدول لن تطالب بهم كرعاياها أو كاشخاص خاضعين لحمايتها •

وقد أدى رفض الحكومة المصرية النظر في اتفاق من النوع الذي يريـده هيرتزل الى جفاء بينه وبين جرنبيرج •

وحاول جرنبيرج الذي لم يكن واثقا تمام الثقة بما يريده هيرتزل ، أن يحصل من مصر على أكثر قدر مما يستطيع الحصول عليه • وارتكب خطا بأن أرسل الى هيرتزل برقية تهنئة على أساس أن بعض الاراضي قد عرضت عليه • وتمزقت هيرتزل عواطف مؤلمة فيها الشك • فقد شعر بأن جرنبيرج كان يحاول أن يتزعم حركة الصهيونية وذلك بينما كان هو منكبا على عمله الصحفي فـي فيينا • وعندما ألح على جرنبيرج لكي يحدد له طبيعة العرض المصري تسلم ردا

---

* في المؤتمر الصهيوني السادس عام ١٩٠٣ •

بالشيفرة :« الوثائق توافق على التنازل عن الاراضي في شبه جزيرة سيناء الشركة اليهودية الشرقية طبقا لتقرير اعضاء اللجنة ولاقامة مجلس بلدي في الاراضي ٠ الاخير بديل للاتفاق (١٢) » ٠ وشك هيرتزل في أن جرينبرج يحاول الحصول على التنازلات وينسبها لنفسه ٠ وعندما سمع هيرتزل ان مندوب السلطان في مصر يضع العراقيل أبرق بتعليمات واضحة :

« يمكنك أن تعد المندوب التركي بالفي جنيه بعد أن يتم توقيع الاتفـاق بواسطة الحكومة المصريـة » ٠ ولم يفعل جرينبيرج ذلك ٠ (١٣)

وبدلا من ان يتمرد رفاق هيرتزل ، تعاونوا في ما يبدو انه مخطط أرعن طائش يشهد على سطوته كزعيم ، ويشهد أيضا على اعتماد اتباعه كزعمـاء أدنى منه مرتبة على نجاح يسهمون فيه ٠ ولكن اشارة هيرتزل الى المبالغ التي طلبوها ، وتلقوها في احيان كثيرة ، تدل ضمنا على أن الحماس للعريش كان حماسا هزيلا ٠ وقد أخذ جرنبيرج مبالغ من الصندوق الاستعماري اكثر بكثير مما يحتاج اليها ، واعطى كولونيل جولد سميد مائة جنيه لنفقاته في يناير غير انه في شهر مارس كان يطلب مائة وخمسون جنيها أخرى ليرسلها الى زوجته مع خطاب ضمان لنفقاته ٠ وقد تضايق هيرتزل بصفة خاصة عندمـا رفض « ليون كيلنر » وهو « شخص أكن له ودا قديما » ـ ان يكتب دراسته عمـا يقوله القدماء عن « يلدز وبحيرة سيربونيا » (الجزء من سيناء الواقع شرقـي القناة) الا اذا تسلم ٥٠٠ جيلدر (١٤) ٠ ومن حسن حظ رفاقه ، كان هيرتزل ينفق النقود مثل مقامر يكوم الفيشات ضد سوء الحظ المتعاقب ٠

وقد غادرت جماعة من الخبراء مدينة تريسته في ٢ فبراير عام ١٩٠٣ الى مصر لتستقصي امكانيات اقامة دولة يهودية في سيناء ٠ وربما كان حظهم مع الجغرافيا افضل من حظ جرنبيرج مع الديبلوماسية ، لانه عندمـا عـاد حرينبيرج الى أوروبا في اخر شهر فبراير لم يكن معه أي اتفاق ٠ وتجنب فيينا وتجنب ايضا هيرتزل وذهب بدلا من ذلك الى باريس ليجتمع مع نورداو ٠ وبعث بالخطاب الذي تلقاه من بطرس غالي وزير الخارجية ومعه تقريره الخـاص بالبريد الى هيرتزل ٠

ورفض هيرتزل التقرير في ضيق فاتر ، وبدا التقرير « عمـلا رائعـا لعميل ليس مخلصا اخلاصا تاما » ٠ لانه خلافا مع كلماته في المؤتمر اللاحق فان مذكراته تبين اعترافه الصريح بأن مسألة منحة الاتفـاق رفضت رفضـا قاطعا » ٠ غير ان هيرتزل كبح جماح نفسه ٠ كأنه اذا عمل على اثـارة نفور جرنبيرج فقد يتقارب جرينبيرج بشدة مع روتشيلد ٠ وكان رده مهذبا ورغم

ذلك فان الفقرة الاخيرة من الرد كانت تضج بالسخرية والتهكم .

« لا بد ان السيدة جرينبيرج مندهشة ومسرورة لرؤياك مرة اخرى بعد مثل هذا الغياب القصير . ارجو ان تبلغها تحياتي . ولعلها ظنت مثلي انك متغيب اطول من ذلك وانك لن تعود الا ومعك الاتفاق او مع اللجنة (١٦) » .

وفي ١٨ مارس ، كتب الى لورد روتشيلد يطلب منه ان يدعو الى عقد اجتماع في باريس للرجال الذين يديرون « هيرش ترست » اي « صندوق هيرش » . وذكر هيرتزل ان ثلاثة اعضاء من اللجنة قد عادوا بينما كان خمسة ما زالوا يمسحون المنطقة الجبلية الجنوبية في سيناء . « ولكن حتى النتائج التي تحت ايدينا في التقارير والمذكرات تبين ان المنطقة التي نفكر فيها مناسبة مستعمرة كبيرة . وبالاضافة الى هذا فقد تلقينا تأكيدا مبدئيا مكتوبا من الحكومة المصرية بمنح المستعمرة المرغوب فيها للحركة اليهودية من ناحية المبدأ (١٧) » . ولم يكن اي من هذه التأكيدات صحيحا . فقد افصحت عن يأس مماثل لاستعداده بالمخاطرة بصحته في رحلة جديدة . رحلة تبدأ في اليوم نفسه . « سأسافر الى القاهرة لوضع الامور في نصابها مع لورد كرومر والحكومة المصرية » . وسيكون عنوانه فندق شبرد .

الفصـــل الثــلاثــون

واستقل هيرتزل السفينة ومعه خبراؤه من ميناء تريسته الذي كان أكبر ميناء في امبراطورية آل هابسبورج · « ايام نهارها أزرق شمسهـا ساطعـة تغزوها الرياح · وقد غرقت القارة فيما وراء الافق · وللحظة يمكن للمرء ان يلتفت وراءه فيراها وقد غدت مصغرة مثل ايام شبابه ، وخطوطها لها نفس العبير ، والى الامام يمتد البحر العظيم ··· الادرياتيكي ··· » · ورسـت السفينة وكان اسمها « سميراميس » لفترة قصيرة في « برنديزي » بعمودها الروماني المتصدع وبؤسها الحي ·

[ان العمود والبؤس الغريب مرتبطان احدهما بالاخر · لقد كان المكان دوما ميناء · وقد نزل هنا جنرال روما المحظوظ وسوف يخلد العمود ذكراه الى الابد · وهذا البؤس الغريب ؟ الشحاذون ·· نساء ورجالا ، وجـوههم تآكلت ، وانوفهم مدلاة ، وبعضهم ينقصه ذراع أو ساق · أي أرض ملعونـة هذه ؟ انها ميناء · وهنا يصل البحارون الهائجون جنسيا وينزلون الى الشاطيء قادمين من بحار العالم اجمع ، وتلك النسوة الشحاذات كن يومـا غـادات ايطاليات ، والمقعدون يصطفون على جانبي الطريق المؤدي من السفينة الـى مكتب البريد حيث يبعث المرء بآخر تحياته لاوروبا · والشرطي الوحيـد رجل فظ · ويصيح بصوت أجش ويلوح بعصاه مجاهدا لكي يحفظ النظام غيـر المعهود بشيء · وهو يفعل ذلك لكي يثير اعجاب المسافرين القادمين من على ظهر السفينة الكبيرة · ان كثيرا من الاعمال البطولية ليس لها دافع اكثر عمقا من ذلك · وكان ما فعله مع رجل ضرير يقوده صبي ممسكا بيده يعد ضربا من القسوة · فقد دفع بالضرير والصبي معا الى ما وراء باب به سياج ثم اغلقه عليهما · ولم تكن ثمة حاجة لان يغلق المزلاج بالمفتاح لان الضرير لم تكن لديه

القدرة على المقاومة · وفي البداية راح الضرير المسجون يولول ويصيح مناديا على الصبي بأن السفينة ستضيع منه ولن يحصل من ركابها على بنس واحد · وأخذ صوت نحيبه يرتفع حتى بدا للناظرين انه ملك المأساة الذي نفي وفقئت عيناه · ولم يفتح الطاغية الباب ويدع الضرير العجوز منه الا بعد ان رفعت السفينة مرساها · وكان الرجل لا يزال ينتحب ويجذب ذراع الصبي ومشى طول الميناء وهو يندب حظه العاثر لكل من يمر بهم ·

وأضحت السفينة التي كانت ستدر عليه بنسات قليلة حطاما بالنسبة له · وما كانت آلامه ستزداد عن ذلك لو انه كان هو نفسه صاحب سفينة غرقت في قاع المحيط · غير ان الفقراء في مثل تلك الاحوال أسعد حظا من الاغنياء لان خسارتهم يسهل تعويضها وكان الرجل الضرير العجوز الباكي اخر مشهد تقع عليه عيوننا في أوروبا] ·

وبذلك انتقل هيرتزل مرة اخرى عن العالم الكئيب الزاخر بالتفاهة والتنغيص والبرقيات والذبول الاخلاقي الى عالم النثر المشرق · ان « الفيتون » ذات الخمسة آلاف كلمة التي كتبها « للنيو فري بريس » كان تصديرها العبارة اليونانية التي اقتبسها « فون بيلو » من بندار Pindar وتبدأ كالاتي : « الماء أحسن شيء ·· ان مصر تقع بين حلمين الاول هو الذهاب اليها والثاني هو العودة منها » · وبينما كانوا يجرون في البحر المتوسط كان الاكاديميون منهم يبحثون عن تعبيرات هومرية حتى جنوب « رأس ماتابان » عندما ارتفع موج البحر وانكمشت الارقام على مائدة قائد السفينة · وفي الاسكندرية التي وصلوها مبكرين في ٢٣ مارس من عام ١٩٠٣ راح يتذكر العالم الذي نبذه في البداية في باريس والذي اصبح الان ينجذب اليه وينفر منه في وقت واحد ·

ان الشمس تشرق وتضيء بنور احمر ، وبنور بنفسجي ، والبؤس يبرز بعنف ، نسوة غامضات في ثياب سوداء يمررن امامك ، والحجب التي تسندها عن عظمة الانف جلبة من النحاس والعينان متروكتان دون شيء يسترهما · وفي المحطة ، ضجيج · وبين كل هذه الكوارث فانها مسالة قرش او على الاكثر قرشين · انه نفس الجهد الذي يبذله حمال في الكلام والتبجح هنا لكي يأخذ منك قرشا اخر يمكن ان يجعله بسهولة عضوا في البرلمان في بلد متمدين · ان قيمة الوقاحة تزداد بالضبط مع ثقافة الشعب » ·

وكما خففت « الارض القديمة الجديدة » من وطأة خيبة أمله ، كذلك فان رؤيته لمياه النيل خففت من جفاف صمته · ان المشاعر التي يشعر بها السائح ـ

النهر الابدي ، والجمال المحملة احمالا بصرف النظر عن عصر البخار ـ هي المشاعر الروتينية عن مصر · ورغم ذلك فان هدفه ايضا كان مغموسا في اشجان شاعر يرى في كل صورة حزينة مرآة المصير الانساني ، ويبدو ان هيرتزل في مصر كان يقول وداعا للعالم المادي · « ان عائلة الفلاح تربض جانب البئر ، تنظر الى الجاموسة وهي تدور وتدور وتدور · وسواء كان الوقت صبحا أو ظهرا أو مساء ، فان الشمس تسطع من خلال السماء المفتوحة · وتستمر الجاموسة في الدوران · واذا كان صاحبها رؤوفا بها فانه يضع عصابة حول عينيها ، ولا ترى الجاموسة من السماء شيئا ولا ترى من طريقها المتواصل شيئا » · ثم فجأة تصل الدلتا بقراها وقنواتها الى ذروة من المنازل الفاخرة والحدائق والمآذن والمساجد : انها عاصمة مصر ·

وسلبية المريض تتنفس عبر السطور وذلك بينما كان هيرتزل يشاهد « الحفلة التنكرية » في القاهرة من شرفة الفندق المواجه لحدائق الازبكية والاوبرا · « انك تجلس في الشرفة وبيدك منشة للذباب وتدع الاشياء تأتي اليك ، وتمر بك · الالوان والصيحات · ومئات من العروض من التجار والمرشدين · صبيانية الشرق وقذارته · غير انه في وسط كل هذا تجد عددا من رجال البوليس الجارين المتنبهين المتازين · فيلق من الاسكتلنديين ساكني الجبال يمرون في سراويلهم المصنوعة من ذلك القماش المقلم ، شباب انيق مرح ... « الاحتلال » · وانجليز اخرون ، وضباط يرتدون الطربوش ، وهو اكثر ارتفاعا من مثيله التركي انهم يعرفون كيف يحافظون على النظام ، دون وحشية ودون جنون استوائي » ·

وتتحول المقالة الان الى اطراء للبريطانيين · أول الاجانب الذين لا يضطهدون المصريين التعساء · لقد عاد عالم السياسة الى الظهور من جديد · وفي سفارة فيينا سيقرأون « النيو فري بريس » (هذه مهمة هيشلر) وسترسل ترجمة لاطراءات الدكتور هيرتزل الى القاهرة · غير ان هيرتزل يسر الى مذكراته التي لن تنشر حالا بانطباعات أعمق من مجرد الاعجاب العادي بقوات الاحتلال ، وكان في الوقت الذي كتب فيه المذكرات ٢٦ مارس قد استقبل بواسطة ايفلين بارينج Baring ايرل كرومر الاول Erl Cromer وكواحد من اعظم الحكام العسكريين البريطانيين اكتسب كرومر في شبابه اسم « المستبد » ، وقد وجده هيرتزل ، « اكثر الرجال الذين قابلتهم فظاظة (٢) » · اما كرومر من جانبه فقد رأى في زائره اليهودي « متحمس متهور (٣) » · ولم تسجل زيارة هيرتزل في السيرة التي كتبها

لورد زيتلاند لكرومر رغم انها نشرت في وقت متأخر في عام ۱۹۳۲ · واستاء هيرتزل ، وحضر محاضرة لسير ويليام ويلكوكس أشهر خبير للري في العالم ووجوها « مثيرة للضجر الشديد » ·

« لعل أعظم ما أثار اهتمامي هو العدد المذهل من الشبان المصريين الاذكياء الذين امتلأت بهم القاعة · انهم سادة المستقبل · ومن الغريب ان الإنجليز لا يبصرون ذلك · فهم يعتقدون انهم سيتعاملون مع فلاحين الى الابد · أن قواتهم اليوم التي يبلغ قوامها ١٨ الف جندي تكفي لهذا البلد الكبير · ولكن الى متى سيستمر ذلك ؟ انها نفس الجرأة ونفس البرود الانجليزي الذي جعلهم لا يقدمون الا دعما مصريا ضعيفا لاوراق نقد بنك انجلترا ·· هذه الجرأة تجعلهم تجارا ومغامرين رائعين ، ولكنها ستجعلهم ايضا يفقدون مستعمراتهم بعد ذلك (٤) » ·

ان الانجليز قد يفقدون امبراطوريتهم ـ انه يود لو يعود بعد خمسين عاما ليرى ما اذا كان ذلك سيتحقق ـ غير ان هيرتزل كان دائما يدرك كلما طال انتظاره انه سيغادر مصر بدون المستعمرة التي يسعى للحصول عليها · ولم يثر وجود هيرتزل في مصر شيئا من الاهتمام او الملاحظة · وتحدثت الاعمدة الاجتماعية في صحيفة « ايجيبشيان جازيت » عن قوم زاروا مصر مثل دوق هيس درامستادت الكبير وملكة البرتغال · وفي الاوبرا اعلن ان ارميت فوفيلي سيمثل بصفته ضيفا دور « ادموند كين » في ٣١ مارس ودور أوديب في اول ابريل (والمسرحيتان بالفرنسية) · وقام عالم الاثار المصرية الشهير ماسبيرو بالقاء محاضرة عن « قبور الامبراطورية القديمة في سقارة تحت رعاية نادي السيدات » · وفي المساء كانت ثمة حفلة راقصة صغيرة في فندق شبرد · وتسلل صوت الموسيقى الى الحجرة التي كان هيرتزل يرقد فيها في ألم · وكان الجو ما زال باردا ليلا وقد انخفضت درجة الحرارة الى ٤٥ء فهرنهيت ولكنها بالنهار كانت في تلك الايام تصل الى ٧٠ء فهرنهيت · وطبقا للتقاليد القبطية القديمة ، فان الافاعي تفتح عيونها في ٢٥ مارس ، وفي اليوم التالي فان الضفادع والزواحف تستيقظ ثم يبدأ طاعون الذباب · ويحجز الضيوف الكبار تذاكرهم للعودة الى بلادهم ويبدأون في اعداد حقائبهم ·

وكان تقرير اللجنة صريحا للغاية وبصورة لا تشجع على شيء · وقال المكتشفون الذين اتسخوا بالتراب : « ان البلاد غير مناسبة اطلاقا للمستوطنين من الدول الاوروبية » · وبضغط من الاعضاء الصهيونيين ، وافق التقرير على ان ذلك الجزء الذي هو الان صحراء يمكن ، لو توفرت فيه المياه ، ان يستوعب

قدرا كبيرا من السكان · وكانت فكرة هيرتزل هي ان يستخدم النيل ، بضخ مياهه تحت قناة السويس · وقد أثار هذا الاقتراح استياء البريطانيين ، والحكومة المصرية وكان سيثير استياء الشعب المصري لو سمع به · ورفض انبريطانيون الذين اعتبروا القناة كالوريد الوداجي بالنسبة لهم النظر حتى في اغلاقها بصورة وقتية · اما الحكومة المصرية التي تعرف مواطنيها المتحمسين المندفعين ، فقد ادركت رد فعلهم عندما يصل الى اسماعهم الحديث عن اقامة مستعمرة اجنبية في الاراضي المصرية · لقد كانت هناك سابقة ، وذلك عندما حصل ديليسيبس على امتياز لتنمية الاراضي الواقعة الى جانب القناة ذات المياه العذبة والتي جلبت مياه الشرب من النيل لمدن مثل الاسماعيلية وبور سعيد ·

وقد ألغى الخديوي اسماعيل هذا الامتياز مكلفا مصر كثيرا عندما توجس خيفة من ان يضع الفرنسيون موطئا لاقدامهم في مصر ، وكان الخديوي يعلم ايضا بما فعلوه في الجزائر ·

وكانت المياه هي أثمن السلع في البلاد · فلو لم يكن نهر النيل لكانت مصر جزءا من الصحراء الممتدة من البحر الاحمر غربا حتى الصحراء الكبرى شرقا · وفي القرى المصرية يحارب الفلاحون جيرانهم اذا شكوا في أنهم يسرفون في استخدام هذا السائل الثمين · فاذا كانت هناك مياه فائضة فيجب ان تستخدم لا في ري مستعمرة أجنبية في سيناء بل في توسيع مساحة الارض التي يمكن ان يزرعها الفلاحون ·

وعندما أبحرت السفينة بوهيميا التابعة لشركة لويد النمسوية في ٤ ابريل نشرت قائمة المسافرين في صحيفة « الاجيبشيان جازيت » · وكان على رأس القائمة « الكونت والكونتيسة بيسينين ، والكونت ليدوتشوفسكي ، البارون هيرنج والبارونة زوجته والعائلة » ، وذكرت القائمة عددا من المرموقين المنسيين وجاء ذكر هيرتزل في الثلث الاخير منها · وانتهت القائمة بذكر اسماء وصيفات للحجرات وخادم · كان هذا العصر يعرف كيف يقدر أهمية الناس ·

الفصـــل الواحد والثلاثون

ورغم كل شيء فلم يسافر هيرتزل وهو يائس تماما · لقد أرغم نفسه على الاعتقاد بأن الاعتراضات المعروفة ضد سيناء يمكن التغلب عليها · وجاء زوال الوهم بسرعة · ففي الحادي عشر من مايو عام ١٩٠٣ رفضت الحكومة المصرية رسميا المشروع برمته · وفي ١٤ مايو كتب كرومر وكان هـو القوة الحقيقية في مصر الى لورد لانسداون بأنه في الوقت الذي بذل فيه جهده لكي يحصل على فرصة عادلة هو وزملاؤه لكي يعرض برأيه ، « الا اني علـى أي حال أصبح من رأيي انه يجب التخلـي عن الموضـوع · · وقـدم الاسبـاب لرأيه · فلو تقرر تنفيذ أي واحد من المشروعين ـ ري ما يقرب من ٦٠ الـف فدان شرقي القناة عن طريق ضخ المياه من النيل ، أو الري بمياه المطر لارض قرب العريش ـ فان الحكومة البريطانية ستضطر الى ممارسة « ضغط اكبر مما تبرره ظروف الحالة ايا كانت بكثير » · والحكومة البريطانية التي يجب ممارسة مثل هذا الضغط عليها لم تكن ـ كما أوضح كرومر ـ مدفوعة بمشاعر معادية لليهودية عندما رفضت المشروع · وكان الدافع الى الرفض فكرتين : فقد قرر الخبراء البريطانيون والمصريون ان المشروع غير عملي ، ولم يكن أحد يريد الارتباط بمشروع فاشل باهظ التكاليف ، ومن الناحية السياسية فانه في نطاق التعقيدات السياسية والحقوق الشرعية التي كونت مصر ، فستكون كارثة لو سمح لمجتمع دولي ان يستوطن شبه جزيرة سيناء ، لاهداف سياسية واقل ما يقال عنها انها يصعب التوفيق بينها وبين مصالح السلطان الـذي تخضع مصر لسيادته ·

وأدرك هيرتزل ان زيارته لمصر كانت هباء · وكتب في ١٦ مايو يقول :

« لقد ظننت ان سيناء شيء مؤكد الى حد اني لم أعد أريد شراء مقبرة للعائلة في مقابر « دوبلينج » التي يرقد فيها ابي بصورة مؤقتة . واني الان اعتبر أن الامر قد تحطم وها انا قد ذهبت الى محكمة المقاطعة وسأحصل على المقبرة رقم ٢٨ (٢) » .

ان اخراج جثة شخص حبيب الى النفس من قبرها لتجربة مروعة . وقد وكلت الى سكرتير هيرتزل واسمه أ. هـ. ريش وهو نمساوي مهمة نقل جثمان جاكوب هيرتزل الى مقبرة جديدة . وقد توسل الرجل الى هيرتزل الذي كانت صحته مثار قلقه ألا يحضر هذه العملية . ولكن في اللحظات الاخيرة ، عندما رقد النعش في مكانه الجديد ، ظهر هيرتزل فجأة الى جانب القبر . وعندما خطا قرب الحفرة اهتز وقد غلبته مشاعره . وعاد الى ريش . « حالا — سرعان ما سأرقد انا ايضا هنا (٣) » .

وكان رفض مشروع سيناء قد دفع هيرتزل الى اتجاهين غريبين جديدين. احدهما نحو شرق افريقيا في اخر محاولة لبناء دولة اثناء حياته ، والاخر نحو روسيا ونمو علاقته السياسية الهامة الاخيرة . واذ ظل هيرتزل هو الممثل في رقصة البيضة التي وصفها في المؤتمر الصهيوني الاول فقد واصل اللهو بمشروعات اخرى . وفي احدى زيارات كرومر للندن طلبت العريش ولكنها رفضت مرة أخرى . وطلبت فلسطين مرة اخرى من السلطان رغم انها اقتصرت هذه المرة على « ولاية عكا » . (عرضت على عزت بك وهو العربي المفضل لدى السلطان رشوة جديدة ، بلغت هذه المرة ١٢ الف جنيه ، اذا تمكن من عقد اتفاق) وفي ٢٥ مايو عام ١٩٠٣ طلب هيرتزل من سفير البرتغال في فيينا ان يسمح له بالاستيطان في موزمبيق (كان الرد مراوغا) وفي ١٢ يوليو من نفس العام طلب من مصرفي بلجيكي ثري ان يطلب من الملك ليوبولد ان يسمح له بنفس الشيء في الكونغو (ورفض الرجل) وأغرب عرض فكر فيه هيرتزل طيلة ستة اسابيع قبل ان يرفضه — جاء من رجل سويدي تحول الى الجنسية التركية واسمه « علي نوري بك » تدخل بارجتين مستأجرتين تخفيهما سفن تجارية مضيق الدردنيل ليلا ، وتقصفان يلدز في الصباح ثم يتم تعيين سلطان جديد يتعهد باعطاء اليهود وثيقة مكتوبة بالاستيطان في فلسطين (٤) * .

أما شرق افريقيا وروسيا ، وهما المنطقتان اللتان كانتا موضع اخر تورط جاد لهيرتزل ، فقد تولد عنهما المعارضة واللطف . وقد كانتا معا

* توقع مثير لمشروع ونستون تشرشل الفاشل بشأن الدردنيل في الحرب العالمية الاولى .

السبب في اثارة أول تحد خطير لموقفه كزعيم . ولم تفصل الموت عملية التحدي فحسب بل جعل من المستحيل اخفاء اهداف كل مشروع عن طريق التكتم أو التشويش .

ولكي نكشف الغطاء عن نوايا هيرتزل الحقيقية ، لم يعد من الممكن ان نعتمد على ما كتبه في مذكراته . فقد اصبح الان اقل صراحة ولم يعد يكتب شيئا في أسابيعه الاخيرة . فالحقائق يجب ان تستخدم بالطريقة التي يستخدم بها علماء الحفريات بقايا العظام .

ويمكن بدء التحقيق بحقيقة واحدة . ففي ٢٣ ابريل عام ١٩٠٣ ، قام هيرتزل مرة اخرى بزيارة جوزيف شمبرلين الذي استقبله عندئذ كصديق . وكان وزير المستعمرات العجوز قد عاد لتوه من رحلة الى جنـوب افريقيـا (تتعلق بانهاء حرب البوير) وأخذته الرحلة الى مصر والى شرق افريقيا . وفي القاهرة عندما أثار شمبرلين موضوع مشروع سيناء اعلن كرومـر صراحـة معارضته للمشروع . ثم قام ــ قبل عيد الميلاد ــ بزيارة احدى المنجزات الكبرى للامبراطورية البريطانية : الخط الحديدي الذي أوشك على الاكتمال والذي يربط الساحل الشرقي ببحيرة فيكتوريا في قلب افريقيا وكان طوله ٥٨٤ ميلا وتكلف (٥) ملايين جنيه . ولم يكن هذا الخط سببا في ان تزداد حركـة الشحن الى الجنوب الى اربع امثالها في العام اللاحق فحسب بل فتح ايضـا منطقة جديدة كبيرة للاستيطان الاوروبي . وقد لاحظ شمبرلين ان هنـاك أراضي خالية من السكان على طول خط السكة الحديدية بين نيروبي ومنطقة ماو . وكتب في مذكراته في ٢١ ديسمبر عام ١٩٠٢ : « اذا كان الدكتـور هيرتزل يريد نقل جهوده الى شرق افريقيا ، فلن تكون ثمة مشقة في ايجـاد ارض مناسبة للمستوطنين اليهود . » والان وقد قابل الدكتور هيرتزل مرة اخرى وجها لوجه فقد نحى جانبا اي مزيد من المناقشة حول العريش . وقال في رقة ، لقد وجدت ارضا لك أثناء سفري ، وهي أوغندا . والجو ليس حارا على الساحل غير انه كلما توغلت الى الداخل فان المناخ يصبح رائعا ــ حتـى بالنسبة للاوروبيين . ويمكن زراعة السكر والقطن هناك . وقد راودتني الفكرة بأن هذه الارض ممكن ان تكون للدكتور هيرتزل » . ولكنه بالطبع كان يريد فقط الذهاب الى فلسطين او اراضي تجاورها .

وتبين المراسلات بين هيرتزل (الذي استخدم جرينبيرج كممثل له)

والسلطات البريطانية ان الامر لم يعد كذلك * • ففي ٢٥ مايو عام ١٩٠٣ كان جرنبيرج يؤكد لشمبرلين أنه يولي اقتراحه « اهتمامه الفوري الجاد » ، ولكنه يطلب تحديدا واضحا للاراضي المطلوبة • وجاء الرد من وزارة المستعمرات ، « مستر شمبرلين يريدني ان اقول ، انه لم يشر الى اي مكان معين ولكنه يرى ان اكثر الاراضي المناسبة هي تلك الواقعة بين نيروبي وقمة جرف « ماو » غير انه اذا كان الدكتور هيرتزل مستعدا لبحث الموضوع ، فسيكون من الضروري ان يزور مندوبوه المحمية وان يقدموا تقريرهم الخاص عن اكثر المواقع التي يرونها مناسبة » •

والافتقار الى التحديد والدقة حول ما هو واضح انه جزء من أراضي كينيا ، قد يؤكد لاول وهلة رأي هيرتزل بأن شمبرلين ضعيف في الجغرافيا • ولكن وزير المستعمرات كان له عذر في حالة « أوغندا » • ففي شهر ابريل عام ١٩٠٢ كان هناك تعديل للاراضي داخل الامبراطورية فقد ضمت المقاطعة الشرقية (٦) من محمية أوغندا الى شرق افريقيا البريطانية • وتضم المقاطعة الشرقية كثيرا مما هو الان ، المرتفعات الغربية في كينيا ، وهي هضبة صحية نمتد من الساحل الجنوبي لبحيرة رودلف حتى الجنوب على طول جرف « لايكيبيا وكيكويا » حتى حدود ما كان يعرف عندئذ بشرق افريقيا الالمانية وهي الان تنزانيا • ولما كانت الهضبة ترتفع ٨ آلاف قدم فوق سطح البحر ، فان متوسط درجة الحرارة يتراوح بين ٦٦ه الى ٧٣ه فهرنهيت • وكانت المنطقة خالية من الحميات بفضل الحروب القاتلة ، وكانت خالية من السكان الى حد كبير • والمنطقة التي فكر تشمبرلين من أنه يعرضها (انظر الخريطة في الصفحات المصورة في هذا الكتاب) كانت في حجم يقرب من حجم مقاطعة يوركشير ، أكبر المقاطعات في انجلترا أو حوالي ٦ آلاف ميل مربع • ورغم ان تشمبرلين طلب من هيرتزل عن طريق وزارة المستعمرات ان يقدم « اذا أراد »

---

* النسخ الاصلية من مشروع هيرتزل لتوطين اليهود (وقد علمه لورد لانسداون بالحبر الاحمر) ورسائل جرينبيرج ، وردود المسئولين في وزارتي الخارجية والمستعمرات ، ومذكرات المسئولين البريطانيين والاطراف المعنية الاخرى في شرق افريقيا محفوظة في لندن في مكتب السجل العام وفي وزارة الخارجية •

مذكرة ، فان طبيعة الاقتراح بأنه اقتراح مبدئي كانت دائما موضع التأكيد وكذلك توقفه على القرار النهائي لوزارة الخارجية . وقدم جرينبيرج مذكرة هيرتزل حول « فلسطين الجديدة » وذلك في ١٣ يوليو ١٩٠٣ . وما زالت تعليقات لورد لانسداون الهامشية موجودة على المذكرة بالمداد الاحمر . فقال في تعليقه : « يبدو هذا صحيحا » وذلك عندما اقترح هيرتزل ان يتحمل الصهيونيون نفقات أي بعثة للتقصي . ولكن كان تقديره النهائي للموضوع : « اخشى انها ستكون امبراطورية داخل امبراطورية » . ولم يكن البريطانيون على استعداد للموافقة على « الجري وراء شيء شبيه بالسيادة » فان السلطات التي يتمتع بها قنصل اي مقاطعة بريطانية هي الحد الاقصى المقرر (٧) .

ومنذ عيد الفصح عام ١٩٠٣ ، أخذ اسم مدينة كيشينيف يتردد من آن لاخر في الصحف . والارجح ان بوليس القيصر قد شجع المذابح التي قتل فيها ٤٧ يهوديا و٢٩ آخرين مصابين بصورة خطيرة ، والمؤكد ان بوليس القيصر لم يفعل شيئا ليحول دون وقوع تلك المذابح ، ويظهر اسم مدينة كيشينيف لاول مرة في مذكرات هيرتزل في ١٩ مايو . فيذكر المدينة في خطاب وقور ودي الى الرجل الذي يسيطر على البوليس الروسي وهو وزير الداخلية فياشيسلاف بليفه Pehve . واسم هذا الرجل الذي لا يذكره أحد الان كان له في تلك الايام رنين شرير يشبه ما أحدثه بعد ذلك اسم ادولف ايخمان . وربما كانت ممارسة بليف لعمله في مجتمع يبدو مسيحيا في الظاهر بالاضافة الى انه كان يزداد سنا في الفترة التي كان يتمتع فيها بذروة سلطته هما السبب في الحد من دوافعه للقسوة . وكان موظفا مثل ايخمان ولم يكن متطرفا دينيا .

وقد استفاد في عمله من اغتيال القيصر الليبرالي الكسندر الثاني . فرغم جهود الكسندر لتحرير ظروف اليهود الروس الا انه ووجه بالفتنة والعصيان التي قام فيها اليهود بدور كبير ولكنه غير عنيف . * وقد كسب بليف الذي كان ضابط بوليس الثقة لحماسته في مطاردة القتلة . وفي عام ١٨٨٤ اصبح نائبا لوزير الداخلية وفي عام ١٨٩٤ رئيسا للوزارة الامبراطورية وفي عام ١٨٩٩ وزيرا لخارجية دوقية فنلندا الكبيرة وكان بليف ابنا لابوين المانيي المولد واصبحا روسيين فيما بعد ،واصبح بليف كبير الدعاة والمؤيدين للسياسة الجديدة لالكسندر الثالث ، التي كان هدفها جعل القومية الروسية القوام الصلب للامبراطورية . وبذلك فانه لم يضطهد اليهود فحسب بل اضطهد

الفنلنديين والبولنديين والارمن والنبلاء الروس من ذوي الاتجاهات الليبرالية ·

وعندما خلف القيصر الاخير نيقولاس الثاني ، سلفه الكسندر الثالث عام ١٨٩٤ كان احيانا يقف مع بليف واحيانا أخرى مع وزير ماليته الاكثر ليبرالية وهو دي ويت · ولما كان القيصر الصغير الضعيف يرعى زعماء جماعة « البلاك هاندردز » Black Hundreds التي كانت رياضتهم هي المذابح ، ولما كان اليهود بطبعهم يميلون للثورة على ظلم أوضاعهم فقد رأى « بليف » في المعاداة للسامية سياسة قد تكسبه رضاء سيده عليه · ويؤكد عدوه دي ويت ما كان بليف سيقوله لهيرتزل : انه شخصيا ليس لديه شيء ضد اليهود ··· فلديه من الذكاء ما يكفي لان يفهم انه يتبع سياسة خاطئة أصلا · ولكنها ترضي الدوق الكبير سيرجي الكسندروفيتش (شقيق الكسندر الثالث) وأيضا صاحب الجلالة ، وبالتالي فان بليف يبذل أقصى ما في وسعه (٨) · » وبذلك لم تكن مذابح كيشنيف بلا هدف · وكان بليف يريدها أن تكون تحذيرا للطائفة اليهودية ، الذي كان هو على اتصال فعلا بحاخاماتها وزعمائها المنفيين · فلو استطاعوا أن يوقفوا اشتراك اليهود في الحركة الثورية ، فان بليف سيزيل العوائق أمامهم ويوقف المذابح · وكانت لدى « بليف » معلومات كثيرة عن الحركة الصهيونية (التي سبقت في روسيا زمن هيرتزل) وذلك بفضل شبكة من الجواسيس والوشاة · وبينما كان بليف يستنكر اهتمامها بالتأكيد على جنسية يهودية فانه أيد هدفها بانتقال اليهود من روسيا ·

وقد اتصل هيرتزل بالقيصر ، رئيس بليف ، في عام ١٨٩٩ · وفي ٢٢ نوفمبر من ذلك العام كتب خطابا يشرح الصهيونية حمله دوق بادن الكبير قريب القيصر الى سانت بيترسبورج · واستخدم هيرتزل لكي يشرح اراءه تعبيرا قال فيه : « المشروع الصهيوني من أجل الحل النهائي للمشكلة اليهودية (٩) · » تردد هذا التعبير بطريقة مشئومة بواسطة اخرين فيما بعد · ففي يوم عيد الميلاد رد القيصر في فرنسية مؤدبة على الدوق الكبير : لقد قرأ مذكرة مستر هيرتزل باهتمام بالغ ، ولكنه رغم أن نظرية الصهيونية قد تساعد على اقرار الهدوء الداخلي في اوروبا الا أنه لا يرى كثيرا من الحلول العملية لها حتى في المستقبل غير القريب (١٠) ·

وكان من نتيجة رفض القيصر أن أصبحت روسيا بعيدة عن ذهن هيرتزل، رغم انه ظل مدركا للمصادر الكامنة لمجموعة المستعمرات ·

وقد جعلته مذابح كيشنيف ــ والتي جاءت على قمة فشله في تركيا وفي مصر ــ يفكر في روسيا مرة أخرى · واستقل القطار الى سانت بيترسبورج بعد ان

شجعته كلمات من وسيط (١١) مؤداها أن بليف ينظر مقدما الى التعرف بشخصية هامة مثل الدكتور هيرتزل وسيؤيد من كل قلبه « الهجرة دون حق العودة • » ومكث في روسيا من ٧ حتى ١٧ اغسطس عام ١٩٠٣ • والى جانب التعليقات على سائقي العربات في روسيا والكنائس المطهمة بالذهب فان مذكراته تذكر العمل فقط • ولاول مرة يؤرقه السؤال عما اذا كانت روايته صريحة • فقد تلقى من فيلنا Wilna في ١٦ أغسطس رسالة من سير كليمنت هيل من وزارة الخارجية في لندن • واقترحت الرسالة رسميا ان اليهود يجب أن يسروا اوغندا لان هناك احتمالا بأن تتقدم بريطانيا بعرض لاعطائهم أرضا هناك • ولو كان هيرتزل قد قرر أن يعمل بمفرده من أجل الحصول على أرض في شرق أفريقيا فانه واجه مشكلة خطيرة لانه اعد مذكرة خطط لها بصورة كاملة لتكون نصا صهيونيا لينشر في « دي فيلت » • وبرنامج بازل عام ١٨٩٧ يطالب بالاستيطان في فلسطين وليس في مكان اخر • وعندما حاول ريش أن يوسع الموضوع بحيث يتضمن قبرص ، برزت مشكلة • لقد أدرك هيرتزل منذ أمد طويل ـ ورأى الان بنفسه ـ كيف ان الصهيونية الموجودة في روسيا وبولندا تختلف عن صهيونيته • لقد رفض اوروبا بتردد شديد ، لان اوروبا على ما يبدو رفضت اليهود ، لقد أراد الحصول على أرض يمكن فيها لليهود أن يثبتوا انهم أيضا يمكنهم أن يديرون دولة على أسس ليبرالية أوروبية • ولم يرفض الصهيونيون الشرقيون اوروبا لانهم لم يعرفوها ابدا ، فقد مجدوا كل ما كان يهوديا وفضلوا العبرية على اليديشية واعتبروا فلسطين أرضهم القومية بحق • وكرر هيرتزل وهو يدرك تلك المشاعر القومية انه أيضا يريد فلسطين • واذا كان قد وافق على افريقيا فسيبدو انه فعل ذلك لانها البديل الافضل الثاني • وتوجيه تحمس اليهود الروس الى « فلسطين جديدة » في افريقيا سيتطلب الحيلة والجهد أيضا •

ويبدو ان العلاقة بين هيرتزل « وبليف » بدأت فاترة غير انها سرعان ما تسلل اليها الدفء (١٢) • وقد أبدى « بليف » « وكان سمينا الى حد ما ••• ذا وجه شاحب جاد ، وشعر رمادي ، وشارب أبيض وعينان بنيتان يشع منهما النشاط » تشككا في البداية • وعندما طلب هيرتزل ورقة ليكتب عليها الاسئلة حتى لا يقطع حبل أفكاره وكلماته انتزع « بليف » ورقة من دفتر أوراق صغير ، « ولكنه قام بطريقة سمجة بقطع الجزء المطبوع في أعلى الورقة وكأنه يخشى أن يستخدمها هيرتزل استخداما اخر • غير ان الصراحة التي قدم بها هيرتزل شروطه استجلبت احترام الوزير • وتعهد هيرتزل بأن

يسكت الثوريين اليهود (الهدف الرئيسي لسياسة بليف) وأن ينظم خروجا بحجم لا يجرؤ بليف على تصوره • وفي مقابل ذلك كان لهيرتزل ثلاثة مطالب :

١ ــ يجب أن تقنع روسيا السلطان بأن يصدر ميثاقا يسمح بمقتضاه لليهود بالاستيطان في فلسطين وذلك باستثناء الاماكن المقدسة •

٢ ــ يجب أن تساعد روسيا الهجرة عن طريق الضرائب التي تجمعها من اليهود الاغنياء •

٣ ــ يجب السماح بقيام « المنظمات المخلصة » من المجتمعات الصهيونية الروسية •

وبعد قليل من الجدل وافق بليف وسجل الاتفاق كما رآه في خطاب استخدمه هيرتزل • وفي الوقت نفسه طلب من هيرتزل مذكرة تحوي خلاصة الموضوع • وكانت هذه فرصة سانحة لوضع الامور في نصابها بالنسبة لقراء مذكراته في المستقبل • وأوضحت المذكرة التي قدمها هيرتزل الى بليف انه يجاهد من أجل فلسطين • ويمكن أن تبرز كدليل على اخلاصه لبرنامج بازل •

ورغم ان رحلته الى روسيا لم تحقق الا القليل ، فان لها أهميتها لما تبينه من نوايا هيرتزل الحقيقية • ففي ذلك الوقت كان يعرف القسطنطينية جيدا ويعرف ان معظم السياسات التركية يحركها الخوف من روسيا • ولقد وسع القياصرة من مملكتهم الصغيرة نسبيا حتى اصبحت امبراطورية واسعة تمتد الى حدود الصين واليابان • وكان التوسع في أكبر جزء منه على حساب الشعوب المتحدثة بالتركية •لقد شجعت روسيا اليونانيين والبلغاريين والصرب على الثورة ضد تركيا • ولهذه الاسباب عقدت تركيا تحالفا مع بريطانيا ثم عقدت تحالفا مع القيصر • وكان للتأييد الروسي لاستيطان اليهود في فلسطين اثر واحد ممكن التكهن به : اغلاق الاراضي المقدسة أمام الهجرة اليهودية طالما ظلت الامبراطورية العثمانية لها كيان قائم •

ولو ذهب هيرتزل الى سان بيترسبورج بغية القيام بجهد مخلص للحصول على فلسطين فان رحلته لن يكون لها معنى • واذا أصر على الحصول على شرق أفريقيا فسيكون للرحلة معنى •

أما من ناحية انه كان لديه الاصرار فهذا أمر يثبته الشهود المدركون للامور وكذلك تثبته اعماله أثناء عودته •

كان من المقرر أن يفتتح المؤتمر الصهيوني السادس في بازل في الاسبوع الاخير من شهر اغسطس • واسرع من روسيا ، وأمضى ليلة واحدة فقط مع عائلته في اجازة في التوسيه Altaussee • واستراتيجيته في المؤتمر

هي دليل اخر على نواياه · ورواية هيرتزل في مذكراته قصيرة وتبدأ كالاتي :

« ٣١ أغسطس ، كونستانس ، بحيرة كونستانس ·

انتهى المؤتمر السادس الكبير الصعب ·

وعندما أصابني الارهاق تماما خرجت من مبنى المؤتمر بعد الجلسة النهائية مع اصدقائي زانجويل ، ونورادو وكدوين وجلسنا في غرفة كدوين حول زجاجة من المياه المعدنية ، وقلت لهم :

« الان سأتلو عليكم كلمتي في المؤتمر السابع ، هذا اذا طال بي العمر لاشهده ·

« وحتى ذلك الوقت فاما أن أكون قد حصلت على فلسطين أو أدركت عدم جدوى بذل أي جهود أخرى ·

« وفي الحالة الاخيرة ستكون كلمتي كالاتي :

« لم يكن ممكنا · الهدف النهائي لم يتحقق ولن يتحقق في وقت قريب · ولكن لدينا نتيجة مؤقتة : هي الارض التي يمكن أن نوطن فيها جموعنا المعذبة على أسس قومية مع حق الحكم الذاتي · لا أعتقد انه من أجل حلم جميل أو علم شرعي ، فسيكون لنا الحق في أن نمنع هذه الراحة عن التعساء · »

وسوف يؤكد هو أيضا بأنه أصبح من أحباء صهيون (استخدم العبارة الانجليزية وليست العبرية) ، وان القرار بشأن شرق افريقيا اسفر عن انقسام في الحركة تركز حول شخصه وانه لهذا السبب سيستقيل ·

وبوضع مقدمة عن المؤتمر السادس عبارة عن كلمة متخيلة للمؤتمر السابع فقد أوضح هيرتزل ما كان يعمل من أجله في اخر شهر اغسطس في حياته · ففي يوم الجمعة ٢١ أغسطس قدم هيرتزل تقريرا للجنة العمل الكبرى في الحركة الصهيونية عن الانجازين اللذين قام بهما : الرحلة لمقابلة بليف وتلقيه للعرض البريطاني · وهناك أدلة قليلة قائمة حتى الان تلقي الضوء على هذا الاجتماع · وعلى الرغم من ذلك فهناك أمران واضحان · فقد بدا هيرتزل مستاء ومتأثرا لقلة التقدير لما أنجزه · بينما تشجع لان الصهيونيين في شرق أوروبا كانوا مستعدين لقبول أوغندا · وتأجل الاجتماع لمجيء يوم السبت وفي صبيحة اليوم التالي حضر هيرتزل الصلاة في المعبد الامر الذي أصبح عادة من عاداته في المؤتمر · وبمجرد الانتهاء استدعى جماعة صغيرة من القادة الى حجرة جوزيف كووين ليطلعهم على الوثيقة البريطانية · وكان متأكدا من وقعها عليهم فتركهم وحدهم ليثبت انه لا يحاول اقناعهم · وفي هذا المساء ناقشت « لجنة العمل الكبرى » رسالة بليف · وقال معارضو سياسة هيرتزل فيما بعد ان أيا

من تلك الاجتماعات لم يخول له أن يقدم العرض البريطاني للمؤتمر ، ويؤكد هيرتزل من ناحية أخرى انه خول له ذلك ·

ومن المرجح انه تعمد ترك الموضوع غامضا ، وهو يعلم انه عندما يلقي خطابه في المؤتمر في الصباح فان الوقع على الزعماء اليائسين لما سيقوله سيكون وقعا كهربائيا · وكان على حق في ذلك · وأظهر هيرتزل لاخر مرة مواهبه الدرامية · وأعلن للوفود انه منذ وقت قصير مضى « وضعت الحكومة البريطانية جزءا من « شرق افريقيا البريطانية » تحت تصرف المؤتمر بهدف تنفيذ مشروع توطين اليهود · وهذه المنطقة سيحكمها اليهود ولكنها ستكون تحت السيادة البريطانية (١٤) » وكان هناك حماس كبير لهذا الاعتراف العلني الاول لكيان اليهود من جانب دولة كبيرة · وكانت خطوة هيرتزل التالية ان يكون هناك مشروع قرار للاقتراع عليه في المؤتمر بعدم قبول « العرض » البريطاني بل تعيين لجنة للتقصي تشبه اللجنة التي قامت بالتقصي في سيناء وقدمت تقريرا عنها · وجرى التصويت بصورة عادلة تماما ، وترجم المشروع الى كل اللغات التي يتكلم بها الوفود بما فيها العبرية · وقد تمت الموافقة على مشروع القرار وكانت الاصوات المؤيدة ٢٩٥ والمعارضة ١٧٧ ، غير ان ١٠٠ مندوب امتنعوا عن التصويت ·

ويمكن تخمين توقعات هيرتزل وآماله · فان اللجنة يمكن أن تتقدم بتقرير موات عن خصوبة ومناخ منطقة نيروبي · ويمكن أن يشجع بليف موجة من الهجرة · وتدخل الروس في « بورت » (أو حتى الشائعات عن هذا التدخل) يمكن أن تغلق الابواب الى فلسطين · ويمكن أن يقيم هيرتزل عندئذ « فلسطين الافريقية العلمانية الجديدة » بينما يطارد « محبو صهيون » The Lovers of Zion احلامهم الخرافية الى أقصى الشمال دون أن يلحقوا الاذى بحلمه هو ·

ولكن الكونجرس لم يكن برلمانا ديموقراطيا عاديا تكفي فيه أغلبية ٢٩٥ صوتا ضد ١٧٧ لتسكت الباقين · فان « القائلين لا » كما سمي « صهيونيو — صهيون » انفسهم كانوا أكثر ميلا الى الانشقاق والتآمر عن قبولهم الهزيمة · كانت الحركة كلها ضعيفة بالفعل بما فيه الكفاية أمام العالم · ولهذا فان أي انقسام نتيجة لاختلاف في الآراء سيكون معناه الكارثة النهائية · وبصفته زعيما لفئة داخل فئة أخرى فان هيرتزل لم يستطع التفاوض مع احد · ولذلك ذهب أمادا بعيدة لكسب معارضيه « القائلين لا » · فقد اتفق على ألا تستخدم الاموال الصهيونية لتمويل أسفار اللجنة · وعندئذ ، وقبل كلمته الختامية كتب اليه صديق ، بحروف لاتينية ، الجملة العبرية الاتية : « اذا نسيتك ، يا قدس ،

فلتذبل يدي اليمنى ! » وقد نقـــل هذه الجملة بايمـــان ولاقت استحسان من استمعوا اليهـــا ·

والسؤال الذي تطرحه كلمات هيرتزل وأفعاله سؤال بسيط وهو : هل ما زال صهيونيا بالمعنى المفهوم من برنامـج بازل ؟ والجواب على هذا السؤال معقد · فلما تدهورت حالة هيرتزل الصحية ، ولما لم يعد يتحدث بوضوح عن نفسه فان نتاج عقله كـان غامضـا بدرجـة تسمـح بتنقيتـه مـن شوائبـه بصورة جذرية كما حدث مع صورة فولفزون · وكان عزوفه عن الكلام بصراحة بلا شك أمرا يتسم بالحذر والتعقل · وقد اشتدت قوة عداوة معارضيه له الى الحد الذي دبروا فيه عزله في العام اللاحق وكان بعضهم مستعدا للتعبير عن معارضتهم له بأساليب أكثر عنفا · وكان المعتقد ان حليف هيرتزل الاول هو ماكس نورداو · وفي ديسمبر حضر نورداو حفل « هانوكا » مع زوجته في قاعة « شاراس » في باريس · وكانت مناسبـــة صهيونية · وفجأة قرب منتصف الليل تقدم نحو نورداو طالب يهودي روسي في الرابعة والعشرين من عمـره يدرس الكيمياء وأطلق عليه رصاصتين وهو يصرخ « الموت للافريقي الشرقي ! » وقد أخطأ في اصابة نورداو وأصاب الرصاص ساق رجل كان يقف الى جانبه ·

وقد استقبل نورداو الذي اجتاحـــه الغضب الشديد ، مراسل صحيفة ليبر بارول Libre Parole واسمه رفائيل مارشاند وذلك في منزله في حي « البيجال » ·

وكان ما أشار اليه مارشاند في حديثه مع نورداو في ٢١ ديسمبر عـام ١٩٠٣ بأن نورداو زعيم الصهيونية ، يفسر الكثير من موقف هيرتزل الـــذي ضعف في تلك الفترة · وكان نورداو غير ديبلوماسي في غضبه فاتهم (مثلما فعل هيرتزل) الروس اتهاما قويا بأنهم وراء محاولة الاعتداء على حياته ثم عبر عن رأيه في الصهيونية بصراحة خشنة قائلا انها : « اعادة بناء القومية اليهودية على أرض مستقلة ··· انها ليست مسالة دين ، ولكنها مسالة تتعلق بالجنس تماما ، وليس هناك من اتفق معه اتفاقا كبيرا حول هذه النقطة أكثر من مستر « دروموند » Drumont · وبرر نورداو رفض فلسطين ليس فحسـب لرفض السلطان التخلي عن الارض المقدسة بل أيضا بالمخاوف من العزلة مثل الاتراك في بحر الاتراك · وفي ثنائه على أوغندا « بلد رائع يشبه جوها وريفها جنوب انجلترا » كان نورداو مثل هيرتزل الذي زار الفريد اوستن Alfred Austen الشاعر البريطاني المشهور في منزله في مقاطعة كنت Kent عـام ١٩٠٠ · وقد أثار ارتياحه حينئذ ذلك الربيع الرقيق في الريـــف ثـم

الاخشاب التي تحترق في المدفأة في المساء ٠

وسوف يصبح موقف هيرتزل الحقيقي أسهل للفهم اذا أمكن تفسير اسطورتين : أولاهما ، ان هيرتزل شعر بارتباط عاطفي لفلسطين ، والثانية ، هي أن قبوله شرق افريقيا كان الدافع له التألم لمعاناة اليهود ٠ وتبين مذكراته انه لم ير الكثير من فلسطين أثناء زيارته الوحيدة القصيرة وان حتى ما رآه لم يسره كثيرا ، ان « الارض الجديدة القديمة » تجسد حلما ، ولهذا فان موقعها ومناظرها ليسا أمرا ذا بال ٠ أما فيما يتعلق بمعاناة اليهود وألمهم فقد عارض دائما العلاج التقليدي عن طريق الاحسان ٠ وهذا لا يعني انه لم يكن رجلا رحيما ٠ بل يعني على الاحرى ان الصهيونية كانت بالنسبة له حركة قومية ٠ ويمكنها على المدى الطويل فقط أن تجلب اليسر والراحة المادية لليهود المعذبين ٠

وكان من ناحية رفضه للاحسان كعلاج لمعاناة اليهود متفقا مع معارضيه داخل الحركة ٠ « ان مشكلة تلبية احتياجات اليهود ليست من اختصاص الصهيونية التي يتلخص عملها في التركيز على تحقيق هدفها النهائي حتى لو لم تستطع وسط الطريق أن تكون بمثابة أي عون لجماعات اليهود المعذبين ٠ ولهذا فقد لخص الدكتور « اليكس بين » وجهة نظر معارض هيرتزل في المؤتمر السادس ٠ والواقع ان أي من الموقعين اللذين سعى اليهما هيرتزل سعيا يائسا سواء كان العريش أو شرق افريقيا أن يجلبا أي شيء سوى الالم والعناء الى أول جيل من المهاجرين من روسيا ٠وقد تعذب من الجو الحار فييافا في شهر اكتوبر، ان الصيف في سيناء الشديدة الحرارة يعذب المرضى والشباب والكبار ٠ يمكن بناء منتجع مريح في أوغندا ٠

لماذا اذن بذل هيرتزل جهودا مضنية للحصول على شرق افريقيا ؟٠ كان مما لا شك فيه يتوق أن يحقق شيئا عظيما في حياته ٠ ولكن في عام ١٩٠٣ عثر الطموح على طرق روتينية ٠ فقد أصر على أن تكون له الطاعة كقائد ولكنه كان في غاية المرض وكان مصيره محتوما فلم يستسلم لاحلام الملوك ، ورغم انه كان في فيلنا Wilna في طريقه مغادرا روسيا وصل الى سمعه صوت رجل يهتف لليوم الذي سيحكم فيه « الملك هيرتزل ٠ لقد أصبحت جولي امرأة مريضة ، ولم تكن صحتها على ما يبدو أفضل من صحته ٠ وكان شعوره بانه مسئول عن تدهور صحتها يدفعه الى تأنيب نفسه فيجعله يعود ليلا ٠ وكان اطفاله المهملين مصدر تأنيب اخر لنفسه ٠

ولم تشف بولين أبدا من مرضها ، وكان واحد من كتفيها مرتفعا عن

الاخر ، وكانت هوائية رديئة التربية وتبين الصور الى أي مدى تختلف عن شقيقته المثالية التي سميت باسمها . وكانت شخصيتا هانز وترود المعزولين عن غيرهما من الاطفال ، واللذين شعرا بالهوة بين والديهما ، واللذين رفضا جدتهما ، متأثرين بماضيهما أما مستقبلهما فكان ملبدا بالسحب . وكان هانز طفلا جذابا صامتا في الثانية عشرة من عمره . ولكن كان من الصعب تخيله كولي عهد تحت الشمس الافريقية .

وبالنسبة للصهيونيين الذين كانوا مترددين في التخلي عن صهيون فان هيرتزل دعم الرأي الذي عرضه نورداو في خطاب تأييد في المؤتمر السادس اذ قال : ان شرق افريقيا ستكون مأوى لليلة وأرض تدريب لاغتيال صهيون في النهاية . وكانت هذه نقاط جدل . وكان هيرتزل يعرف جيدا انه اذا حصل على شرق افريقيا وذا أرغم اليهود الروس على الهجرة واذا أغلقت أبواب فلسطين فعندئذ ستستوعب شرق افريقيا كل الاموال التي في أيدي اليهود . ويمكنهم تحت زعامته أن يقيموا دولة تشبه « الارض القديمة الجديدة » وبدلا من أن تصبح أوغندا خطوة في الطريق نحو فلسطين ستكون خطوة حاسمة في الاتجاه المضاد .

وهناك ثلاثة اعتبارات لهم حسابهم في رغبة هيرتزل في اتخاذ تلك الخطوة الافريقية بعيدا عن فلسطين . وواحد منها فقط بحث من قبل . وذلك هو ادراكه الواضح في عام ١٩٠٣ ان السلطان كان دائما جادا فيما قال عن رفضه أي صورة من صور الحكم الذاتي اليهودي في فلسطين . ومع ذلك فلو ان هيرتزل كان يريد فقط « صهيون » ولا مكان اخر غيره لضم نفسه الى الصهيونيين الروس الذين كانوا يريدون بناء جسر متين من المستوطنين على الارض المليئة بالثقافة العبرية . وسيشكل هذا الجسد نواة الدولة عندما تصبح الامبراطورية حطاما على حد تعبير السلطان . وكان اخلاص هيرتزل وتمسكه بالصيغة التي وضعها ـ أولا الميثاق ـ ثم الاستيطان ، عامل من العوامل التي أبعدته عن فكرة فلسطين .

ولكن الاعتبارين اللذين لم يبحثا من قبل أقوى . قال هيرتزل التعبير التالي في أيامه اللطيفة « العدو هو الطبقة التي لا تحس بشيء في الامة (١٦) » . عندئذ كان أهالي البلاد عبارة عن ظلال مجردة . ولم يكن متأكدا ما اذا كانوا يرتدون زيا عربيا أو امازونيا .

ولكن زعامته لحركة لها أطماع في « الشرق الاوسط » جعلته يفكر في العدو الاصلي . وفي عام ١٨٩٧ زاره في فيينا الوطني المصري الشاب « مصطفى

كامل » وكتب هيرتزل في ذلك الوقت يقول : » ان الشرقي الصغير شخصيته مؤثرة ، انه مثقف ، وأنيق ، وذكي ، وبليغ (١٧) · » وعندئذ لم يفكر في كيف يمكن أن يستغل مصطفى كامل الذي كان هدفه الرئيسي أن يطرد البريطانيين من مصر · ان انجلترا يمكن أن تؤيد قيام فلسطين اليهودية على أن يكون بينها وبين الخليج الفارسي خطوط سكك حديدية · غير ان زيارته لمصر تركت لديه انطباعا قويا · فقد أثارت قلمه بينما أوضح الذكاء الوقاد للشباب المصري في المحاضرة العامة ان مصطفى كامل لم يكن وحده · وكان بادراكه لقوة الوطنية المصرية يبين انه أكثر قدرة على التمييز من لورد » لورد كرومر » الذي يبدو انه تصور ان المصريين سيؤيدون الاحتلال الى أجل غير مسمى · وفي العام اللاحق وقبل أن تنتهي مذكراته كتب فجأة يقول : هناك حركة عربية تريد ان تجعل من واحد من سلالة » محمد » خليفة · لقد سرق السلطان سليم الاول * الخلافة والان يمكن استردادها كنوع من البابوية تحتل فيها مكة مكانة روما (١٨) » · ويبدو ان هيرتزل اعترف بوجود قومية تماثل قوميته وموجودة ومتدعمة في موقفها · والاحرى انه من لحظات تأمله تنبأ بدائرة الاعداء التي يمكن أن تحاصر المستعمرة اليهودية في فلسطين : ليس من السادة الاتراك بل من العرب الذين يمتلكون تقريبا كل البلاد ، واخوانهم في مصر والاراضي الاخرى ·

والارجح انه حسب ان المنطقة التي تفتقر الى السكان في افريقيا ستكون مكانا أقل تهديدا بالنسبة لاستيطان اليهود · وفي الاتجاه الجنوبي أثبت سيسيل رودس ما يمكن أن ينجزه الرجل الابيض ·

والاعتبار الثالث كان اعتبارا قويا على مستوى مختلف · استاء حاييم وايزمان Chaim Weizmann الذي رأى هيرتزل لاول مرةفي المؤتمر الثاني – بسبب ما وصفه بميوله الكنسية · وبالنسبة لنا الذين تتبعنا هيرتزل في تفكيره الحر ، وفي شبابه المكافح ، وتجربته الفريدة الساخرة في باريس فان هذا الكلام يبدو لنا للوهلة الاولى مثيرا للدهشة · فقد كانت اتصالاته الوحيدة بالتقاليد الدينية في أيام صباه عندما رافق عائلته الى جوار المعبر

---

* سليم الاول استولى على مصر من المماليك ١٥١٧ واسر اخر الخلفاء العباسيين الذي كانت زعامته في ذلك الوقت قد أصبحت رمزية ·

اليهودي وعندما تحدث جده الذي جاء من سيملين عن بطله الحاخام القالاي ۰

أمـا تعليمه في المدرسة فكان المانيا وعلمانيـــا في روحه ، وفي أواخر مراهقته رفض موسى على أنه غشاش ۰ ولم يكن بزواجه من جولي ناستاور قد أنهى فحسب انفصاله عن ممارسة التقاليد اليهودية بـل أعطـاه ايضا ثلاثـة أطفال الذين اصبحوا للقانون التقليدي يهودا يشك في يهوديتهم ۰ ورغم ذلك فان تورطه مع الصهيونية قد جعله على اتصال باليهود المتدينين وجعله يفكر في الديانة التي تجاهلها ۰ وقد أدلى في المؤتمر الثاني بملاحظة مقتبسة : « ان الصهيونية سوف تأتي الى عقر دار اليهودية حتى قبل العودة الى أرض اليهود » وفي ذلك الوقت كان هذا التأكيد تكتيكيا وغامضا مثل زياراته السنوية للمعبد اليهودي ۰ ومما لا شك فيه أن هذا التأكيد لم تتبعه أي عودة من جانب هيرتزل الى القوانين الدينية ۰ ولكنه كانت تشير الى أنه كانهو والاوروبيين الشرقيين يتحركون فيإتجاهات متعارضة ۰فكان وايزمان والصهيونيون الروس يتحركون بعيدا عن خلفية دينية ۰ وكانت الدراسات التلمودية وأساتذتهم الحاخامات يشكلون ماضيا مالوفا كانوا يريدون أن يرتفعوا فوقه في مستقبل قومي ۰ كان هيرتزل رجـلا في طريقه الى الموت وكانت خلفيتـــه العلمانية التي تشكلت بواسطة العقلية الميالة للشك في القرن الثامن عشر والتقليد العلمي في القرن التاسع عشر والذي تأثر بموجات القومية المجرية والالمانية ۰۰ كل هذا كـان ينحسر عنه ، ووجد نفسه غارقا في حاضر كل شيء فيه متعلق بطريقة أو أخرى بالتقاليد اليهودية ۰وكان هيرتزل ،كفنان ، حسا‌سا لاراء الدارسين التلموديين حتى عندما عارضوه ۰ وربما كان « جوزيف صامويل بلوخ » المحرر الشجاع أول من قال صوته عن التعاليم التلمودية التي منعت اليهود من أخذ فلسطيـن بالقوة أو اقامة دولة هناك ۰ وقد تأكدت نفس التعاليم في صلاة للحاخام الاكبر « ادلر » في لندن ۰ فقد أدان ادلر بوضوح الصهيونية السياسية ودور هيرتزل فيهـا ۰ » لقد أعلن بوضوح ان خلاصنا سيتأثر بالتدفق الالهي في وقت يبدو مناسبا في نظر الرب عندما يرضيه أن يبعث بالمسيح وعندما تتحد أمم العالم باتفاق واحد وتساعد اسرائيل على العودة الى أرض آبائهم * ۰ » كان للتلمود

---

* تليت الصلاة في المعبد اليهودي في شمال لندن في ١٢ نوفمبر عام ١٨٩٨ ، ونشرت الخطبة في نفس العام تحت عنوان : « الصهيونية السياسية في مواجهة الصهيونية الدينية » ۰

قوة كاملة بالنسبة ليهودي مؤمن ولم يكن هيرتزل أبدا يهوديا مؤمنـا · ولكن مشهد نعش أبيه ، وادراكه بأنه سرعان ما سيموت جاء في نطاق اكتشافه عما قالته اليهودية عن « فلسطين » و « العودة » · وقد غامر تفكيره العلماني بأن أصبح متورطا في تقاليد قديمة وقوية · وكان موقفه الثقافي قريبا من موقف « اسرائيل زانجويل » Israel Zangwill وقد أصبح زانجويل ـ الذي وضعه زواجه من زوجة غير يهودية في علاقـــة غامضة مع اليهودية ـ يعارض بصفة متزايدة اقامة دولةفي فلسطين ، «علىأساس انها ستتطلب اعادة الصورة اليهودية القديمة للعبادة بكل طقوسها مثل الضحية وغيرها ، ولهذا لا نستطيع أن نعيش حياة حديثة هناك (١٩) · » ولما كان التلمود ينص على أن المسيـــح وحده هو الذي سيعود باليهود من المنفى ، فقد وضع هيرتزل في موقف مؤلم · وكيهودي سيء لا يمكن لهيرتزل ان يكون المسيح ويمكنه فقط أن يكون شخصا محتوم المصير ـ كما حذره بلينسكي ـ يجلب الفزع على عائلته في البداية ، ثم علـى الناس الذين خرج لينقذهم · وحتى لو كـــان التلمود مجرد أساطير أو ميثولوجيا فان أولئك الذين يؤمنون بأنه حقيقي يمكنهم أن يفسدوا نسيج دولته العلمانية الليبرالية · ولذلك فان شرق افريقيا كانت تمثل طريقا للهروب · ففي تلك الارض العذراء التي لا ترتبط بأي ماض فيه حكم ديني « اليهود الذين يريدونها » بالتعبير والكلمات التي استخدمها قبل ذلك بسبع سنوات عندما كان يكتب « دير جودنستات » أو « الدولة اليهودية » ، « سيحصلون علـــى دولتهم وسيستحقونها · »

وفي مثل تلك الدولة فان أولاده زانجويل وأولاد نورداو يمكنهم أن يقيموا في شرف مجتمع صورته موجودة في كتابات هيرتزل ·

الفصــل الثاني والثلاثون

يتضح باستمرار ، ان اهتمام هيرتزل بأوغندا كان يمثل اصرارا علـى التحـول عن فلسطين وذلك عندما تحقق في مدى جديـــة العرض البريطاني والعقبات التي تقف أمام نجاحه هذا الى جانب اعتراضات الصهيونيين · وقد بالغ هيرتزل وحلفاؤه في مدى واقعية العرض ومداه · ونشرت صحيفـة لندن تايمز برقية تصحح تقريرها الخاص بخطاب هيرتزل الافتتاحـي فقالت : ان الاراضي في شرق افريقيا البريطانية التي عرضتها الحكومة البريطانية علـى الصهيونيين لن تكون « خاضعة للسيادة البريطانية » ، ولكن ستمنـح الحكم الذاتي اليهودي تحت اشراف بريطانيا * · (١) وقال نورداو للكونجرس ان اليهود يمكنهم اذا اقتضت الضرورة أن يستقروا في شرق افريقيا البريطانية ، « التي وضعتها بريطانيا منفصلة تحت تصرف الاستيطان اليهودي المتمتع بالحكم الذاتي · » وتحدث زانجويل بالمثل عن « عرض بريطاني » عندماكان يقدم تقريره الى اجتماع حماسي للاتحاد الصهيوني البريطاني في بداية شهر سبتمبر (٣) ولم تتجاوز الحكومة البريطانية في عام ١٩٠٣ اقتراحها بأن الصهيونيين يمكنهم أن يتحـــروا عن شرق افريقيا البريطانية بهـــدف الاستقرار على صورة من الاستيطان ، ولـــم يتقدم الجانب البريطاني بشيء ولو قريب من الاستقـلال الوطني · وفي وقت انعقاد المؤتمر الصهيوني السادس أسرعت وزارة الخارجية

---

* في نص اخر بالغ هيرتزل في مدى الارض « المعروضه » · وكتب الى عزة بك في ١٢ ديسمبر عام ١٩٠٣ كلاما يتضمن ان بريطانيا عرضت مساحة تتراوح بين ١٨٠ الف و٢٣٠ الف ميل مربع ·

البريطانية بوضع حد للتقارير المبالغ فيها • وفعلت ذلك بأن أرسلت لصحيفة « التايمز » نص خطاب كان مرسلا الى جرينبيرج من سير كليمنت هيل (المسئول الذي وصل خطابه الى هيرتزل من روسيا) أكد ان بريطانيا على استعداد فقط على أن « تدرس » المستعمرة اليهودية وانها ستحتفظ في أي الاحوال لنفسها بمعظم الحقوق بما في ذلك « سلطة العودة الى احتلال الاراضي اذا لم تنجح مسألة الاستيطان • » (٤) وفي ٧ سبتمبر عام ١٩٠٣ ، نشرت نفس الصحيفة شكوى لورد ديلامير من أن « اعطاء هذه الارض الجميلة الى اليهود معناه تسليمها لحفنة من الاجانب » • وكان ديلامير نفسه يشتري أراض في شرق افريقيا في ذلك الوقت • وكما فعل كرومر ورفض سيناء ، بعد محاولة معقولة لان يكون عادلا ، فان سير تشارلز ايليوت المندوب السامي البريطاني في مومباسا أعرب عن رفضه المتزايد للمشروع ، بينما كان يوليه على ما يبدو دراسة معقولة • وهناك خطاب لسير تشارلز ايليوت من لورد لانسداون يبين ترددا كبيرا في اعطاء مستعمرة للمستوطنين اليهود من أثمن أجزاء «المحمية»(٥) ويبين الخطاب أيضا انه في لندن كان المشروع برمته مشروعا مبدئيا • وبدأ اليوت رده الطويل على خطاب لانسداون المكتوب في ٤ نوفمبر بأن اقترح بأن منطقة اصغر مساحة وتقع قصيا ناحية الشمال ولا تشمل نيروبي ربما تكون أفضل وذلك بدلا من اقتراح تشمبرلين الاول • وكانت هذه المنطقة هي منطقة « وازجيشو » وهي سهل أخضر به ماء كثير ومناخه معتدل • وفي أغسطس وجدته أنا نفسي باردا الى حد غير مناسب ، غير ان هذا الاعتراض لن يشعر به اليهود من وسط أوروبا • والسهل محاط بالغابات التي تنتج أخشابا جيدة ، وهو فعلا غير مسكون بسبب (كما أوضحت في الرسالة المذكورة من قبل) الحروب القبلية ولكن ليس بسبب عيب اخر • وموقعه معزول الى درجة كافية بحيث يحمي اليهود من أي مظاهرات عدائية من أجناس أخرى ، ويتيح لممارسة الحكم الذاتي بطلاقه اذا توفر لهم ، وهو على بعد كاف من الساحل بحيث يضمن اضافة معقولة جدا الى حركة خط سكة حديد أوغندا • » (٦) وهو ليس مثل الارض التي اقترحها تشمبرلين ، فلم يكن سهل وازجيشو يمتد على طول خط السكة الحديدية بل كان يبعد عنه بمسافة • وكانت لدى ايليوت فكرة واضحة عن مدى الحكم الذاتي اليهودي • « ولا أعتقد انه من المستحسن أن تكون هناك أكثر من مجالس بلدية يهودية ، وليس من المرجح أن يطلب اليهود الشرقيون أكثر من ذلك • لانه بالنسبة لمعظم الشرقيين فان « الحياة القومية » تعني الحياة الدينية بالمعنى العام للمنطقة التي تسيطر عليها مراعاة الاصول الدينية • »

وأضاف ايليوت ان تجربته الخاصة مع اليهود في روسيا وتركيا والمغرب لم تثر فيه الحماس بالنسبة للمشروع • وكان يشك فيما يقوله من أن اليهود مزارعون جيدون وكان يخشى لو انهم بدأوا بزراعة الحقول فسرعان ما سيتجهون الى دور الوسطاء أو يمولون المستوطنين البريطانيين الذين أوضح ايليوت انه يفضلهم على اليهود وأعرب عن خوف من أن الوجود اليهودي في المنطقة قد يجعل مثل هؤلاء المستوطنين البريطانيين ينزحون عنها •

وكانت لايليوت اراء سلبية اخرى • فقد أرسل خطابا من أسقف مومباسا جاء فيه : ان نجعل كل هذه الارض تؤول الى ملكية الطبقة الدنيا من اليهود سيتسبب في الحاق الجمود في عملية تطوير الحياة المسيحية الحقيقية بين القبائل الافريقية الامر الذي نتوق جميعا لان نراه يتحقق • ولن يكون من عملهم رفع جيرانهم الوثنيين الى مرتبة الحضارة المسيحية • (٧) » ولما أدرك البريطانيون انه ليس هناك الكثيرون من الصهيونيين الذين يريدون الاستيطان في شرق افريقيا ، على الاقل ليس فورا ، فان التردد البريطاني في حجز مناطق واسعة من الاراضي القيمة اصبح أكثر وضوحا • وفي الوقت نفسه ، فقد رفض البريطانيون ، رغم احتجاجات جرينبيرج ، أن ينظروا في منح أكثر من « سلطة تنظيم التقاليد الدينية اليهودية وقدر من الحكم الذاتي مثل الذي تتمتع به اقطاعية تحت « مجلس الاقطاعية » في انجلترا » •

وفي ٢٤ مارس عام ١٩٠٤ ، صدر عن ايليوت ما كان يأمل هو أن تكون « الضربة القاضية » • وكتب ان الموقف قد تغير فلم يكن هناك من قبل مستوطنين كافيين للارض ، والان ليست هناك أرض كافية للمستوطنين • « ولما كان الامر كذلك فلم أعد استطيع أن أوصي على نيافتكم باقامة مستعمرة يهودية في تلك المحمية وحتى على سهل « وازجيشو » وليست لدي اية كراهية لليهود ولا أي اعتراض على قيام طائفة يهودية منعزلة ، ولكن التجربة الطويلة في شرق أوروبا أقنعتني أنه ليس من السياسة السماح بقيام مستعمرات يهودية بين المسيحيين • ومثل هذا الوضع لا بد في النهاية أن يسفر عن صراعات عنصرية • » (٨) وأبقى البريطانيون المشروع مفتوحا بدافع فقط من عدم الرغبة في النكوص على عهدهم • *

---

* في ٢٦ يوليو عام ١٩٠٤ كتب لورد لانسداون بالمداد الاحمر على مذكرة يحدد اعتراضات الصهيونيين على شرق افريقيا : « سنكون محظوظين اذا فشل المشروع تماما » وفي هذا الوقت كان هيرتزل قد مات •

وازاء كل هذه الغيوم المثبطة للهمم ، لجا هيرتزل مرة أخرى الى قطار . ووصل الى البندقية في منتصف شهر يناير عام ١٩٠٤ . « لم يعد يهمني أن أرتدي حلة السهرة من أجل بريطاني ونصف بريطاني في الجراند هوتيل ، ولهذا ذهبت الى مشرب الجعة النمساوي باور » . وهناك قابل اخر الشواذ الذين كان يجذبهم اليه طوال حياته . كان « بيرثولد دومينيك ليباي » رسام البلاط للبابا بايوس العاشر الذي انتخب حديثا ، وكان ليباي مجري المولد ويصغر هيرتزل بأربع سنوات . وعلى كئوس الجعة راح الرجلان يرسمان خططا سريعة لرحلة هيرتزل الاخيرة . وقد وجد القرن التاسع عشر هيرتزل والرسام يسافران جنوبا معا في القطار .وفي روما وعد ليباي بأن يقدم هيرتزل الى البابا بينما وعد هيرتزل في النمسا أن يفعل بالمثل مع ليباي ويقدمه الى « دافيد جاتمان » وهو مليونير يهودي لديه احتكارات للفحم .

ولم يعد السفر يهدىء من أعصابه ، ووصف كيف أن نومه في فندق كوبرينال في روما أصبح « أسوأ وأسوأ . » غير ان تغيير المناظر ، والاتصالات الجديدة مع العظماء ما زالت تثيره ذهنيا . وفي روما كان سيقابل ملكدولة ورئيس كنيسة عظيمة .

وقبل ن يقابل الملك فيكتور عمانويل الثالث ، قام هيرتزل بجولة ترويحية حول وسط المدينة . وقد تحرك خيال المهندس فيه ازاء الحياة الجديدة فلو حصل على القدس ، فسيشق شارع « الدياسبورا » وسيقيم على جانبيه عمائر تمثل أذواق جميع البلاد التي عاش فيها اليهود . غير ان الصعود الى الجناح الملكي في قصر كوبرينال جعله يلهث . ورغم ذلك فان عينيه لم تفقدا حدتهما ، ولم يفقد لسانه ذلاقته بينما كان الرجلان يتحدثان كما يتحدث التلاميذ معا . واظهر الملك واقعية عائلته ـ وقال ان اليهود سيحصلون في النهاية على فلسطين ـ ولا بد أن ينتظروا ، حتى يصبح لهم هناك نصف مليون يهودي . ولما اعترض هيرتزل قائلا انه لا يسمح لهم بالذهاب الى هناك قال عمانويل : « ياه .. ان كل شيء ممكن بالبقشيش . »

« ولكني لا اريد ذلك . ان مشروعنا معناه الاستثمار والتحسينات ولا أريد لهذا أن يحدث طالما ان البلد ليست بلدنا . » وضحك الملك وردد مثلا ايطاليا معناه ان هذا سيجعل هناك تحسينات في منزل شخص اخر . »

ومرة أخرى تدخل ساباتي زيفي . كان أحد أسلاف الملك قد تآمر مع المسيح الكذاب . الامر الذي أثار سؤالا من الملك :

« أما زال اليهود ينتظرون المسيح ؟ »

« بالطبع يا صاحب الجلالـــة ، في الدوائر الدينية • أما في دوائرنا ، الاكاديميون والمستنيرون فهذه الفكرة غير موجودة طبعا • » وكي لا يخطـيء الملك ويعتقد ان هيرتزل حاخاما ، آكد هيرتزل ان الحركـة الصهيونية حركة وطنية محض • وقال نكتة • فبينما كان في فلسطين تجنب ركوب حصان أو حمار أبيض حتى لا يحرجه احد ويخطيء في الظن انه المسيح •

وقـال الملك انه مغتبط لان الصهيونيين على مـــا يبدو تخلوا عن شرق افريقيا ــ وكان السبب الذي ذكره وهو أنه يحب قوة الفكرة ويمكنه ان يتعاطف مع المتطرف الشاب الذي حاول قتل نورداو قــد لا يكون السبـب الحقيقي • وكانت الاطماع الامبراطورية الايطالية متجهة الى شرق افريقيا ، حيث حصلت ايطاليا على اريتريا والصومال بالفعل وحيث ظلت أثيوبيا جارة أوغندا هدفـا للاستعمار والاطماح الايطاليـة •

ورغم موقف الملك ، قام هيرتزل بمحاولة جديدة للحصول على بديـل لفلسطين • فاقترح ان ينزح اليهود الفائضون الى طرابلس (كانت عندئذ من الممتلكات العثملنية) تحت القوانين الحرة والنظم الايطالية •

وهنا كرر الملك مرة أخـــرى جملته السابقة : « ولكن هذا أيضا منزل شخص اخـر • »

« ولكن تقسيم تركيا لا بد قادم يا صاحب الجلالة • »

وكانت الروح التي تسود هذا الكلام تختلف قليلا عن روح المحادثـــات السابقة مع الامبراطور ، الدوق الكبير أو وزير المستعمرات • غير انه في ٢٥ يناير * استقبله حاكم مملكة قال عنها مؤسسها انها ليست من هذا العالم • فقد حكم جوزيبي سارتو الريفي المولد الكنيسة الكاثوليكية حتى عام ١٩١٤ ، وبعد خمسين عاما من وفاته أعلن انه قديس ، وهو أول بابا يضم رسميا الـى قائمـــة القديسين منذ البابا بايوس الخامس في القرن السادس عشر • وقد ظهرت حساسية هيرتزل ازاء منافسيه في اعجابه لصرامة وحزم كلمات عبد الحميد الاولى عن فلسطين ، وبدت من حديثه مع رجل عارضه ، بادب ، ولكنه

---

* تحقق ذلك بصفة مؤقتة في الثلاثينات من القرن العشرين في حكم الملك نفسه الذي اضاف الى القابه لقب امبراطور حتى هزمت ايطاليا الفاشية على أيدي الحلفاء •

بطل جلال الكنيسة · وجاء هيرتزل وهو مصر على ألا يقبل خاتم البابا ولكنه عندما قرر الا يفعل ذلك (قال ليباي ان هذه لفتة مهمة من البابا) فان رفضه نغص عليه طوال فترة الحديث · ومخاوفه مزاته ربما يكون قد أغضب البابا لم يكن لها على الارجح أي أساس ولكن البابا بايوس الذي لاحظ ان هيرتزل يرتدي وسامه العثماني ، خاطبه مناديا اياه بالزعيم وليس بالسنيور · ورغم ان هيرتزل كان رجلا ملما بشئون الدنيا الا انه كان يعرف الشيء الاصيل بمجرد أن يراه · وقد أثارت لمسات البابا الريفية ، الكميات الضخمة من النشوق ، وعطسه في منديل احمر كبير · وكتب فيما بعد يقول · « انه أسقف خشن ريفي طيب ، ظلت المسيحية بالنسبة له شيئا حيا حتى في الفاتيكان · »

ولكن موقف البابا من الصهيونية كان موقفا حازما ·

« اننا لا يمكن أن نصدر موافقتنا على هذه الحركة · لا يمكننا أن نمنع اليهود من الذهاب الى القدس ـ ولكننا لا يمكننا أن نوافق ، ان أرض القدس ، ان لم تكن دائما أرضا مقدسة فقد جعلتها مياه المسيح عيسى مقدسة · وأنا كرئيس للكنيسة لا يمكنني ان أقول غير ذلك · ان اليهود لم يعترفوا بالمسيح ولهذا فنحن بالتالي لا يمكننا أن نعترف بالشعب اليهودي · »

ويقول لنا هيرتزل انه ردد على مسامع البابا رأيه في أوضاع المقيمين خارج بلادهم غير ان هذا لم يكن له أي أثر كبير · وقال البابا « ان القدس يجب الا تقع في أيدي اليهود · » وأدلى بأسبابه لذلك : « هناك احتمالان ، اما أن يتمسك اليهود بدينهم ويستمروا في انتظار المسيح الذي قد ظهر فعلا بالنسبة لنا · وفي هذه الحالة فانهم ينكرون قدسية المسيح عيسى ونحن لا نستطيع مساعدتهم · وأما يذهبون الى القدس دون أي ديانة وفي هذه الحالة سيضعف موقفنا نحوهم ·

« ان الديانة اليهودية ، نحن الذين أسسناها ، ولكن تلتها تعاليم المسيح ونحن لا يمكننا أن نعطيها مزيدا من الشرعية · ان اليهود الذين كان يجب أن يكونوا أول من يعترف بالمسيح لم يفعلوا ذلك حتى يومنا هذا · »

وكان الكلام على طرف لسان هيرتزل · « هذا ما يحدث في كل عائلة · لا احد يؤمن بأقاربه » · ولكنه بدلا من ذلك قال : « ان الارهاب والاضطهاد قد لا يكونا الوسيلة السليمة لتنوير اليهود · »

وقد ذهل هيرتزل للبساطة التي عبر بها البابا عن رأيه بعد ذلك اذ قال : « ان ربنا جاء بلا قوة · كان فقيرا · وجاء في سلام · ولم يضطهد احدا · وقد ازدادت هيبته في النهاية · لقد احتاجت الكنيسة الى ٣ قرون لتتطور ·

وكان أمام اليهود وقت كاف للاعتراف بقدسية المسيح دون أي ضغط ولكنهم لم يفعلوا ذلك حتى هذا اليوم ٠ »

« ولكن ، أبانا المقدس ، ان اليهود لفي عسر شديد ولا أعلم ما اذا كانت نيافتك على علم بمدى هذا الموقف المحزن ٠ اننا في حاجة الى أرض لهذا السفير المضطهد ٠ »

« وهل لا بد أن تكون الارض هي القدس ؟ »

« اننا لا نطالب بالقدس ، بل بفلسطين ، الارض المقدسة فقط ٠ »

« اننا لا يمكننا أن نؤيد ذلك ٠ »

وهناك سؤال واحد للبابا ، تذكر هيرتزل أن يكتبه في مذكراته فيما بعد ، وبعد الحديث بصفحتين ٠ « لقد تحدث عن المعبد في القدس ٠ لقد دمر الى الابد ٠ هل نفترض اننا يجب أن نعيد بناءه وان نؤدي فيه الصلوات على الطريقة القديمة ؟ ولا يكتب هيرتزل رده ٠

وفي اخر ليلة له في القدس رأى هيرتزل حلما غريبا كان هو والقيصر وحدهما في قارب صغير في البحر ٠

الفصل الثالث والثلاثون

وفي مايو عام ١٩٠٤ ، قال أطباء هيرتزل له ان يستشفي في مياه عيون فرانز اينسباد في النمسا • وكان اخر عمل رسمي له هو مقابلة وزير الخارجية في فيينا •وكان اخر ما كتبه في مذكراته في السادس عشر من مايو عندما سجل فيها خطابـا الى « جاكوب شيف » Jacob Schiff ، وهو مليونير أمريكي • وقبل ذلك بثلاثة أيام ، وفي مقدمة خطاب الى بليف بالفرنسية كتب الكلمتين الانجليزيتين «Broken Down» أي أنا منهار • وكان السبب في الكتابة في مايو هاتين المرتين زيارة قام بها اليه الدكتور نيسان كاتزنلسون الذي صاحبه الى روسيا • وقد ذكـــر كاتزنلسون ان « شيف » وهو رجـــل صهيوني ومحب للخير * والاصلاح الاجتماعي كـان على استعداد للتفاوض بهدف منح قرض لروسيا (التي كانت عندئذ غارقة في حربها الباهظة الفاشلة مع اليابان) بشرط أن تفعل شيئا لليهود • وأضاف هيرتزل « ولكن من المفهوم أن هذا العمل الطيب كان سيعود عليه « شيف » بأكثر من الفائدة المعتادة (١) • وكانت هذه الكلمات في مذكرات هيرتزل علامـــات لا تشير الى شيء • وفي نهاية شهر يوليو لم يكن هيرتزل ولا بليف على قيد الحياة •

تمثل الفترة ما بين ٦ مايو عندما أنهى هيرتزل مذكراته ، و٣ يوليو عندما أنهى حياته ، المساحة الشاغرة في الخرائط القديمة التي كـان يملؤها راسمو الخرائط بالمردة أو عرائس البحر • وبينما كان جسد هيرتزل بين أيادي اطبائه كان زعماء حركته يشرفون على الباقي • كـان زعيم الدمى في أيدي الدمى • ولا بد ان الاطباء (أربعة على الاقل كانوا يشرفون عليه (٢)) كانوا يعلمون انهم

---

* في عام ١٩١٧ كان بليف ضد اقامة دولة يهودية •

لا يستطيعون انقاذ حياته • وازدادت مصاعبهم تعقيدا بسبب غموض شكواه •
ولم تكن العمليات التي تساعد في تشخيص أمراض القلب مثل تحليل الدم ، ورسم القلب والقسطرة لم تكن موجودة عام ١٩٠٤ • وكان الاجماع في ذلك الوقت هو ان هيرتزل كان يعاني من علة مستفحلة في عضلة القلب وهو التهاب مزمن في العضلة القلبية Myocarditis Chronica (٣) • وفي عام ١٩٣٦ رفض الدكتور وولف جاتمان في براج هذا التشخيص ، الذي يقول عنه طبيب أكثر معاصرة انه « وصف مبهم جدا » يمكن أن يعني أي شيء أو كما يشك المرء لا شيء ، مما يبين جهل الطبيب التام • » (٤) ويقترح جاتمان ان مرض هيرتزل كان « أول بوادر اضطراب القلب الذي نتج به بسبب مرض قلبي اصابه في سنواته المبكرة • » ويبدو أن جاتمان استبعد ، وهو يجهل السجل الطبي لهيرتزل ، وجود « أي نوع من العدوى الذي لا نجد سندا له في حياة هيرتزل بأسرها • » واذا كان سبب رفضه في خدمة الجيش ان قلبه كان به لغط فان أحدث تشخيص يمكن هو الالتهاب البكتيري شبه المزمن في الشغاف • وكان هذا المرض في ذلك الوقت قاتلا ، ويستغرق شهورا ليسبب الوفاة ، وله آثار سيئة على الجسم وهي هبوط درجة الحرارة ، والانيميا ، والخمول ، الضعف المتزايد • ويصاب صمام القلب ذو الندبة (ليس هناك دليل ما ذا كان صمام أورطي أو تاجي) بالعدوى • والعدوى الشائعة كانت ال ستربتوكوكوس فيريدان ، Streptococus Viridans وبمرض بسيط مثل اصابة في الاسنان ثم سوء علاج من الطبيب يمكن أن تطلق فيضانا من البكتيريا في الدم • ويمكن لدمل في الانسجة الناعمة في الجلد أن يكون له نفس الاثر (٦) • او ربما كانت نتائج متأخرة لشبابه في فيينا • وقد بينت دراسة أخيرة أنه قبل اكتشاف المضادات الحيوية كانت جرثومة السيلان الـ Gonococus هي السبب المباشر لستة وعشرين في المائة لحالات التهاب الشغاف البكتيري (٧) •

ومهما كان السبب العضوي فان الضغط العاطفي قد لعب دورا كبيرا • فان المؤتمر العام الذي صاحب مؤتمر « أوغندا » السادس كان عنيفا • ولاحظ شاهد عيان الاثر على هيرتزل بينما يدفعه المناهضون الروس مثل السيل الجارف الذي يتزايد بسبب الثلج الذائب في الربيع بعد « المؤتمر » فقال : « في لحظة توتر اصبح هيرتزل عجوزا • رأيت وجهه الباهت ، وعضلاته المتقلصة • ففي لحظة مثيرة رأى هيرتزل عدم جدوى الحلم الصهيوني : فقد رأى الارتباك بدلا من التضامن ، والتنافر بدلا من الوحدة ••• وربما شعر ، وهو الرجل القوي ، انه فشل (٨) » •

غير ان موقفه العائلي كان يسبب له توترا مؤلما . فقد بلغ ابنــه هانز الثالثة عشرة من عمره في ١٠ مايو عام ١٩٠٤ وذلك طبقا للتقويم العادي . اما التقويم اليهودي فكان مختلفا اختلافا طفيفا وطبقا له فان هانز أتم عامه الثالث عشر في ١٨ مايو وحفل البارميتزفاح كان يجب ان يقام له في اليوم التالي وكان يوم خميس او الاكثر ترجيحا يوم سبت . ولكن لانه لم يختن ابدا فلم يمكنه اعتباره ابنا ولا يمكن استدعاؤه ليقرأ الكتاب المقدس اليهودي . ويمكن بسهولة تصور القلق الذي حل بهيرتزل وهو يدرك ان ابنه ، وولي عهد الحركة اليهودية ليس مؤهلا لهذا الحفل الهام . وقد اقلقته عندئذ الحالة الغامضــة لاطفاله اكثر مما اقلقته علاقته مع جولي .

وفي ٩ مايو ، اليوم السابق لعيد ميلاد ابنه كان الدكتور كاتزنلسون معه في « فرانز سباد » . وكانا يتنزهان معا في المدينة عندما فاجأت هيرتزل ازمة قلبية حادة . وكان ذلك في بداية الموسم وكان شارع القيصر خاليا . وبحث كاتزنلسون دون جدوى عن شخص يستطيع احضار طبيب ، غير انه تمكن من ان يساعد زعيمه هيرتزل على الوصول الى احدى الارائــك حيــث استراح بعد قليل . وقد وصف كاتزنلسون الحادث بعد ذلك في صحيفــة « دي فيلت » (١٠) « الصهيونية الاسبوعية » . لقد حاول ان يواسي هيرتزل بأن تظاهر بأن الازمة جاءته بسبب الانحدار في الشــارع وبسبب خطوتهــم السريعة . ورفض هيرتزل هذه المواساة . لقد دق الجرس الثالث ويستطيع ان يواجه الموت بهدوء . ولعل ما يواسيه انه امضى سنواته الاخيرة في أمور مفيدة . وتكلم الرجلان معا بالالمانية وقال هيرتزل بعد ذلك (لم أكن بعد كل ذلك خادما سيئا للحركة ، ألا تعتقد ذلك ؟) وهذه الكلمات مهمة لانها تمثــل كيف يمكن تصحيح صورة هيرتزل .

وبمجرد ان مرض هيرتزل ، بدأت عملية تحنيط دينية ، هدفها الابقاء عليه (واستخدامه) كصورة بعد الموت . فلم يتبق شيء من الحجرة المريضة يمكن ان يفسد الصورة . نشرت صحيفة « دي فيلت » تفصيلات موثوق بها عن المرحلة الاخيرة ونشرتها بالانجليزية صحيفة « جويش كرونيكل » ، وبعــد « فرانسيسباد » ــ حيث لم تتحسن حالته ــ انتقل الى ايدلاش ــ بالقرب من ريخمان ــ حيث تزوج جولي .

« وهنا في البداية تحسنت حالته قليلا ، غير انه منذ اسبوعين ظهرت اعراض خطيرة لاضطراب ضربات القلب مع ما يصاحبها من آلام ومعــاناة شديدين . لقد عانى كثيرا من اللهثة . وعلى كل فقد نجح العلاج الحريص

لطبيبه واخلاص زوجته الرائع ، التي ظلت أسابيع ترعى المريض وحدها ، الى حد كبير في التغلب على المرض وانتعشت الامال بين اصدقائه في ان الخطر يمكن تجنبه • بل لقد بدأ يسير في الحديقة • ويقال ان هذا كان سببا في الكارثة • والارجح بسبب برودة في الجو (في ٢ يوليو) يوم السبت الماضي • بدأ يصاب بالتهاب الرئة • وأدرك الاطباء ان القلب المريض المجهد لا يمكن ان يحتمل تلك المضاعفات الجديدة • وكانت الليلة من السبت للاحد سيئة للغاية • وكان المريض يدرك حالته البالغة السوء ، ورغم انه تمكن من ان يخفي عن والدته خطورة حالته الصحية • الا انه أصر على ان يستدعيها هي وولديه الصغيرين من أوسيه Aussee • وفي صبيحة يوم الاحد ظهرت فجأة بوادر الانهيار • وظل يحقن بحقن الكافور وكانت كلماته ، « هل سأستطيع ان أرى أمي ؟ » وبعد الظهر طرأ عليه تحسن رائع لدرجة ان البعض اعتقد انه سيتخطى هذه الازمة الخطيرة • وعندما وصلت أمه استطاع ان يعانقها ويعانق الاطفال • وكان هادئا وروحه مرحة • وفي الساعة الخامسة الا الربع قال انه يريد ان ينام قليلا وكان الدكتور سيجموند فيرنر طبيبه الامين وملازمه لعدة ايام ، والذي كان وحده معه في الحجرة ، قد غادر جانب الفراش للحظة عندما سمع تنهيدة عميقة • وعندما استدار بسرعة • كان الدكتور هيرتزل قد لفظ آخر أنفاسه (١٢) •

وقد تلقت صحيفة « جويش كرونيكل » برقية من مراسلها الخاص تاريخها ٦ يوليو • وبها صورة مما قاله هيرتزل في اخر كلماته : « كم أود أن استريح » والبرقية فيها الصدق السيكولوجي وكان تاريخها مبكرا • والاضافات الى تلك التقارير عن لحظات هيرتزل الاخيرة تحتاج الى أدلة • وقد انيح لهيشلر أن يزور هيرتزل ، وفي تخريفه الذي يذكر على أنه تاريخ لنقديسين قال بطله : « بلغهم كل تحياتي وقل لهم اني اعطيت دماء قلبي لشعبهم » • وعندما نشر هذا الكلام كان هيشلر معروفا فقط في الدوائر الصهيونية ، ولم يتحقق طموحه في ان يصبح قسا بروتستانتيا للقدس • ومدى الاعتماد على ذاكرته لا يمكن ان يتأكد بتأريخه زيارته لهيرتزل في يوليو ١٩٠٣ وتحرير مكانها « بمنزل هيرتزل في ادلاش Edlach » وكان لاختفاء هيرتزل آثار حرجة على زعماء حركته وكذلك على عائلته • وكان الهدف من جنازة تمجيد الزعيم المتوفى ووصفه بأنه الطلسم الحي • وقد كتب مراسل خاص لصحيفة جويش كرونيكل يقول :

« في بقعة جميلة تطل على التلال المحيطة بفيينا ، أودع جسد تيودور

هيرتزل مثواه الاخير · لم أشهد في حياتي مثل هذا الحشد الضخم من الناس متجمعون حول قبر منذ دفن بيكونسفيلد في هوجنتون · لقد أحيلت المكتبة في مسكن هيرتزل الى المكان الذي انتظر فيه جسده حتى يدفن ، وهناك ظلت الجثة حتى ازيلت البقايا من « ادلاش » · ووضعت في كفن من الرصاص ووضع هذا بدوره في صندوق من الصفيح · ووضع كل هذا على حامل وغطي بعلم صهيوني قماشه من الكريب · ورغم انه كانت هناك في غرفة كميات ضخمة من الاكاليل والزهور الا ان الكفن نفسه كان مغطى بباقة بسيطة من الزهور ، ويبدو ان الذي وضعها هناك واحد من أعز أقاربه · وكان المكان محاطا بشمعدان نحاسي ضخم وبه شموع مضاءة وعليه حراسة من حرس دائمين · وبدأت مراسم الجنازة في الساعة العاشرة صباحا عندما تجمع الاقرباء والاصدقاء السياسيين للزعيم المتوفى في الحجرة التي بها الجسد المسجى · وأنشد المرتلان مع الكورس ترنيمة تيفيلا ليموشيه Teffillah Lemoshè ، وبعدها نقل الجثمان الى النعش · وتمشيا مع تعليمات الدكتور هيرتزل الواضحة ، أقيمت الجنازة فيما يتعلق بالبساطة ، كجنازة رجل فقير · وكانت هناك عربتان فقط ، في احداهما الزوجة الارملة والأم ، مع الابن وبعض النسوة الاخريات من الاقارب· واما الحشد الكبير الاخر فقد انضم في طابور سار من المنزل الى المقبرة خلف النعش · وكان حشدا رائعا مكونا من الرجال والنساء جاءوا من بقاع كثيرة · منهم يلاحظ المرء اليهودي الملتحي يرتدي القفطان والقادم من بلاد الغال (فرنسا) والى جانب الرومان ذو العيون الداكنة اليهودي الاشقر من شمال المانيا · وعلى كل وجه كانت هناك علامات الاسى والحزن الدفين الدائم ، تلك النظرة التي يطغى عليها الاحساس بفقدان عزيز لا يعوض (١٤) » ·

وبعد ان اسجي الجسد في قبره الى جانب جاكوب هيرتزل ، يقول لنا نفس الشاهد ، تلى هانز هيرتزل الكاديش بينما قام دافيد فولفسون بدعوة المعزين الى الانضمام في تلاوة القسم الذي أنهى به هيرتزل المؤتمر السادس : « اذا نسيتك ، يا أورشليم ، فلتذبل يدي اليمنى ! » ·

وقد وجه فولفزون فيما بعد ذلك نداء بتقديم المساعدات المالية لعائلة هيرتزل : ١٠٠ الف جيلدر من اموال هيرتزل الخاصة انفقت على الحركة · وفي مقابل ذلك نشرت صحيفة « دي فيلت » بيانا من الارملة الذي ظهر في الصحيفة على انه « رسالة من السيدة هيرتزل » في صحيفة « جويش كرونيكل » في ٢٩ يوليو عام ١٩٠٤ · وقالت جولي بعد ان شكرت كل مواسيها على عطفهم :

« اذا لم أكن قد ساهمت اجتماعيا في عمل زوجي المحبوب اثناء حياته ، فكان ذلك لخوفي من ان أشجعه على عمله المقلق المتعب ولاني كنت أرى نهاية للاسف جاءت بسرعة غير متوقعة ٠ ان عمله على أي الاحوال كان وسيظل عملا مقدسا بالنسبة لي ٠ وسوف اخدم الحركة الصهيونية بكل جهدي وقوتي وسأبذل كل ممكن لكي اجعل ابنائي يدخلون في العمل الذي قام به ابوهم واجعلهم ابطالا في حركة خلاص شعبنا التي كافح هو من اجلها ٠ واني آمل عندئذ ان اتصرف بروح فقيدنا المحبوب وان اعبر لمحبوبيه عن التقدير لما أداه من عمل في حياته ٠

لقد شكل هذا البيان مع ما يبدو من تقدير للعناية المخلصة التي أولتها جولي لزوجها أثناء مرضه جزءا من حملة قام رفاقه لاخفاء حقائق أحرجتهم الى حد كبير وباستمرار ٠

وقد سمع حاييم وايزمان وهو كيميائي من الرافضين وله مستقبل عظيم في الحركة الصهيونية ، انباء وفاة هيرتزل في جنيف ٠ وقد هزته هذه الانباء ٠ ورغم هذا فقد قرر الا يحضر الجناز وان يذهب بدلا من ذلك الى انجلترا عن طريق باريس ٠ وبعد ان قرر ذلك زار فيينا في اغسطس وذهب الى مقابر دوبلينجر ٠ وصف « احساسه بالتقزز لاننا نقف الى جانب حطام القضية وان المتوفي نفسه ساهم في ذلك بقدر كبير ٠ لقد مات هيرتزل « لصالحه » في الوقت المناسب (١٥) » ٠ ويروي كيف ان زعماء الصهيونية يكنون عداء شديدا لجولي ٠ ومراسلاته في ذلك الوقت تبين الاسباب ٠ ففي الاسبوع الذي اعقب وفاة هيرتزل ، قابل نورداو في باريس ٠ وقد رفض نورداو رفضا قاطعا بأن يخلف هيرتزل ٠ وقدم لذلك ثلاثة أسباب ٠ أولا ، انه لا يعتبر حياته الخاصة « وطنية » بالقدر الكافي » ٠ ثانيا سيقابل معارضة قوية في الوسط الصهيوني الذي لن يغفر له الامور التي غفرها لهيرتزل ٠ ثالثا ، انه لم يؤمن بالقضية ، ولم يكن يريد ان يمثل بواجهة ليس وراءها بناء صلب ، كان في استطاعة هيرتزل ان يفعل ذلك بفضل ايمانه الخاص بشخصيته (١٦) ٠ وأوضح نورداو لوايزمان ان الامر الذي لن يغفر له هو زواجه من « آنا كوفمان » ارملة صديقه « ريتشارد كوفمان » وهو من الاغيار (غير اليهود) ٠ والغريب في هذا الموضوع ان نورداو قال : (« لقد وصلتني الصهيونية متأخرة سنتين ») ٠ وطبقا لمذكرات هيرتزل فانه حصل على ولاء نورداو للحركة في بداية شهر نوفمبر عام ١٨٩٥ ٠ ورغم ذلك فان نورداو تزوج من آنا عام ١٨٩٨ ٠ ويبدو انه يشير هنا الى انه في السنوات المبكرة لصهيونية هيرتزل

كانت الفلسفة غير الدينية المتعلقة بدولة اليهود ، والارض الجديدة القديمة ، ما زالت سائدة ، أما اليهودية التي تكلم هيرتزل عن عودتها فلم تكن تتضمن بالضرورة أي روابط بقوانين التوراة ٠

وكان موقف نورداو يشير الى انه يشكل نزعة تصحيح للاعداد لعـودة هيرتزل ٠ لقد تجاهل الصهاينة زواج هيرتزل ، غير انه الان بعد ان مات فانه يجب حماية سمعته من آثار زواجه ٠

ورغم بيانها الذي نشر في « دي فيلت » فلم تقم جولي ولا ابناؤها بأي دور في الحركة الصهيونية ٠ وعلى أي حال فقد كانت امام جولي فترة قصيرة من الوقت ٠ ورغم انها كانت كعروس قوية الجسد بصورة مذهلة الا انها عندما بلغت منتصف الثلاثينات ، واثناء عاميها الاخيرين كزوجة لهيرتزل ، أثارت حالتها الصحية قلقا أكثر من حالته هو ٠ وقد قضت سنواتها الثلاث كأرملة في مستشفيات العلاج في هومبورج ، وفيسبادن ، وكونيجشتين ، وجاءها الموت في باد اوسيه عام ١٩٠٧ ٠ واذا كانت مثل الاميرة ستيفاني ولية العهد قد عانت من موت زوجها في سن صغيرة ، فقد تحملت اذن مرضـا يوصف بأنه مدمر بالنسبة للنساء (١٧) ٠ « وطبقا لرغبتها التي عبرت عنها بوضوح وهي ان يحرق جسدها تماما ، فقد احرقت جثتها في « جوته » ، وكانت تريد ان يعطى الوعاء الذي يحوي الرماد لابنها هانز ـ غير ان الوعاء فقد بطريقة غريبة غير مفهومة (١٨) » ٠ ولعل قرار جولي العنيف ـ لان حرق الجثة لم يعد أمرا يمارسه اليهود ولا الكاثوليك ايضا ـ قد اتخذ بدافع من رغبتها في عدم احراج اتباع زوجها ٠ واذا لم تكن « الالاشا » تعتبرها يهودية فان عملية دفنها كانت ستثير مشاكل تشبه تلك التي أثارها زواجها ٠

لقد امتد عمر جانيت هيرتزل ذات الارادة القوية ـ بعد ابنة زوجها وماتت في فيينا عام ١٩١١ ٠ ويبدو ان احفادها كرهوها من قلبهم بينما كانوا يحبون أمهم من قلبهم ٠ وقد ارسل هانز ، الذي ورث عن ابيه حسن الطلعة والذكاء ، الى انجلترا ليتلقى تعليمه هناك ٠ وحصل على منحة دراسية من كليفتـون كوليدج ليواصل تعليمه في جامعة كمبريدج وهناك أصيب بانهيار عصبي ٠ وعرف هانز بسلوكه المستقيم وبالطيبة واللطف ولم يتزوج ابدا ٠ وطبقـا للاطباء النفسيين فقد كانت له علاقات طبيعية بالنساء في باريس دون زواج رغم انه كان يفضل كبح النفس عن الشهوات الجنسية ٠ ورغم ان الصهيونيين دفعوا لاولاد هيرتزل بسخاء عظيم الا أن ثروتهم استثمرت فـي السنـدات النمسوية ٠ وبينما كان هانز في انجلترا صودرت سنداته عام ١٩١٤ اثناء

الحرب ولم يحصل ابدا على أي تعويض ۰ وعاش في فقر ملحوظ ، وكان يكسب ما يستطيع الحصول عليه من الترجمة ولكن كان عليه ان يحسب حساب كل بنس ۰ وكان اهتمامه منصبا اكثر على الدين اكثر منه على السياسة ومر بعديد من تفرعات الدين المسيحي قبل ان يتم تعميده ككاثوليكي على ايدي القس « آرثر داي » في ١٩ اكتوبر عام ١٩٢٤ ۰ غير انه سرعان ما ارتد ۰

وكان موقفه من والده بالغ التعقيد ۰ وكان يعلق على حائط حجرته في كامبريدج صورة لوالده وكان يحمل في حافظة نقوده قصيدة شعر في رثائه كتبها « اسرائيل زانجويل » ، ولكنه كان لا يحتمل ان يسمع ذكر اسم هيرتزل ۰ وكانت رابطته القوية بأخته بولين وكان ذلك سببا في وفاته ۰ ويبدو ان بولين لم تعاف تماما من آثار الحمى الروماتيزمية على بنيتها ، وقد ترك تدليل والديها لها آثارا ايضا عليها ۰ وكانت المراهقة التي جاءت وفاة والدها في طياتها سببا في تفجير شحنة من الحيوية الحيوانية جعلت حياتها قصيرة مثل حياة امها وحزينة ايضا مثلها ۰ فبعد محاولة لان تصبح ممرضة اطفال ، اصبحت زوجة غير مخلصة ثم زوجة لا تنجب وهوت الذهاب الى نوادي الليل التي ترن فيها اسواق موسيقى الجاز وكانت مريضة تتردد على عدد لا يحصى من الاطباء النفسيين ۰ وعندما مرضت مرضا خطيرا في عام ١٩٣٠ من اثر ادمان المورفين ، هرع هانز من انجلترا الى جوار فراشها في بوردو ۰ وعندما اعتقد انها في طريقها الى الشفاء عاد الى انجلترا غير انه سرعان ما استدعي من جديد ۰ وبينما كان في باريس قام بزيارة مفاجئة « لانا نورداو » وابنتها « [illegible] » في منزلهما (١٩) ۰ وبدا لهما مضطربا ذاهلا غير أنه غادرهما في نفس [illegible] ان يقول ما كان يبدو انه على طرف لسانه ۰ وفي بوردو حيث كانت بولين قد [illegible] واتته أوهام جامحة بأنه يستطيع اعادة جسدها الى الحياة ثم احلام عن انه سيدفن معها في قبر واحد ۰ وكتب يقول : « كانت حياتي رديئة ، وستكون النهاية رديئة ۰ فبعد موت اختي العزيزة فان الرجل الذي يدين نفسه لما فعل يجب ألا يترك تنفيذ الحكم للاخرين (٢٠) » ۰ وقد انتحر مثلما فعل أعز اصدقاء والده فأطلق الرصاص على نفسه في غرفة نومه بفندقه ۰

كان هيرتزل قد أضاف فقرة الى وصيته وذلك في ٥ مارس عام ١٩٠٣ (كان هذا قبل ان يغير طريقه الى أوغندا) ۰ « أود ان ادفن في كفن معدني في المدفن المجاور لوالدي وان أظل هناك حتى ينقل الشعب اليهودي رفاتي الى فلسطين ۰ وبالمثل فان كفن والدي وأختي بولين المدفونة في بيست واعضاء

عائلتي (أمي وابنائي) يجب ان يجلبوا الى فلسطين · وزوجتي لو أرادت ذلك في وصيتها الاخيرة » · وقد تم تحقيق هذه الرغبة بالنسبة لهيرتزل عام ١٩٤٩ · غير ان هانز وبولين ظلا مدفونين في بوردو تحت شاهد قبر عبري ، وكانت ابنة هيرتزل الثالثة ، على غير هانز الانطوائي وبولين الهوائية المندفعة، كانت مجنونة · قام دافيد فولفزون الوصي على ترود بسحبها من المدرسة الثانوية في فيينا عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها · وبعد ذلك تارجحت حياتها بين الانفعال الشديد والاكتئاب الشديد · وعلى غير ابناء هيرتزل استطاعت ان تكون علاقة من العلاقات الدائمة · فقد كان زوجها ريتشارد نيومان ، رجل صناعة ثري أكبر منها بستة وعشرين عاما وكان أبا لثلاثة اطفال من زوجة طلقها · وقال نيومان ان ترود عولجت في ١٤ عيادة نفسية مختلفة · وكانت تعاني من نوبات من الجنون المؤقت ، ثم الكآبة ثم الثرثرة الكثيرة ، ثم العدوان ، والشك ، كل هذا مع لمحات من الحكمة ، وومضات دافقة من الحب ، آخرها رسائل كثيرة الى زوجها يمكن جمعها في مجلدين · وكتبت ايضا الى شخصيات هامة مثل الرئيس الامريكي روزفلت والقيصر · واتصلت بملك انجلترا تحمل اقتراحا غريبا : « اريد ان احكم هل من المستحيل ان تجيء الي بالعرش البريطاني ؟ » وبعد ان تنازل ادوارد الثامن عن العرش حثته على اعادته ·

وفي عام ١٩٤٢ ، أخرجت السلطات الالمانية « ترود » من مستشفى ستينهوف العقلي وأرسلتها الى تريزينشتادت ، حيث لحق بها زوجها · وكان في ذلك الوقت نزيلا في منزل يأوي المسنين · ويعتقد الدكتور « بين » ان ترود كانت تحمل معها مفتاحا ضخما لفهم حياة والدها · « ان معظم الرسائل بين هيرتزل وجولي كانت في حيازة مارجريت ترود ··· التي اخذتها معها عندما رحلها النازيون الى تريزنشتادت (٢١) » · وهذا التفسير غامض غموض أي شيء في القصة · فقد كان تيودور هيرتزل شخصية كبيرة ضمن عفاريت النازية · ولعل الرسائل أحجبت عن الدارسين لحياة هيرتزل لاسباب قد تهم حكام الرايخ الثالث المجانين · وليس من المحتمل عندئذ ان تكون ابنته قد استطاعت ان تحتفظ بها وهي في مستشفى عقلي تحت الاحتلال الالماني ومن المستحيل تماما ان تكون قد حملتها الى احد معسكرات الاعتقال ثم أحرقتها هناك · والارجح ان الرسائل أحجبت قبل ذلك بكثير ، وعلى الاكثر بعد وفاة هانز ·

ويقول لنا ارثر شتيرن (٢٢) « ان ترود في تيريزنشتادت جذبت الانتباه

المباشر بملابسها المعتنى بها ومتاعها وسحرها وأناقتها وقالت : انا ابنة هيرتزل، اريد ان اجري اتصالات شخصية مع اكبر السلطات اليهودية في تيريزنشتادت » واعتنى بها مدير المستشفى ودبر الامور لنقلها الى عنبر الامراض النفسية في المعسكر • ويبدو انه اعتنى بها وتم تمريضها على ما تتيحه الظروف ، وأعطيت قسطا خاصا من الطعام ليكمل القسط المحدود الـذي يعطـى لمجـرد ابعـاد المجاعة » • ولم يكن أي منهما (ويفترض الدكتور شتيرن انها ماتت جوعا) أو اجتاحها حزن دفين بسبب موت زوجها • وماتت في شهر مـارس مـن عـام ١٩٤٣ وتركت ابنا واحدا وهو ستيفان تيودور نيومان ، وهو اخر سلالـة هيرتزل • ويقال ان هذا الفتى الشاب كان يشبه جده • فأثناء الحرب العالمية الثانية خدم كضابط برتبة كابتن في الجيش البريطاني وقام بعـد الحـرب مباشرة بزيارة فلسطين في طريقه الى الهند • وفي عام ١٩٤٦ عين نيومان ملحقا تجاريا في السفارة البريطانية في واشنطن • وأنهى سلالة هيرتزل بأن قفز من فوق كوبري في العاصمة الامريكية في ٢٦ نوفمبر عام ١٩٤٦ * •

---

* وربما يمكن معرفة الدوافع لانتحاره من الاوراق التي سلمها الى مستر ايلياهو ايلات وهو ممثل الوكالة اليهودية في واشنطن في ذلك الوقت • وهذه الاوراق لم تنشر محتوياتها ؛ وربما كان اكتشافه لسر من أسرار العائلة قد أطاح بتوازنه العقلي •

NOTES

CHAPTER 1

1. Theodor Herzl, "An Autobiography," *Jewish Chronicle*, January 14, 1898.

2. The Dohány-utca synagogue is described and illustrated in *A 90 Eves Dohany-utcai Templom*, Budapest, 1949.

3. The first rabbi is Professor Sándor (in his English writings Alexander) Scheiber of the Orthodox Rabbinical Seminary, Budapest; he made the comment in conversation with the author. The second quotation is from an article by Dr. André Ungar (rabbi of Temple Emanuel, Westwood, N.J.) in *Conservative Judaism*, winter 1971: "Hungary: A Sentimental Journey."

4. The quotations about the Pesth and Hungary of 1858 are to be found *passim* in the 1858 edition of Murray's *A Handbook for Travellers in Southern Germany*.

5. For William Tierney Clark (1783–1852) see the Dictionary of National Biography.

6. The statistics and references to the hygienic conditions of nineteenth-century Budapest and Berlin can be found in the thirteenth edition of the Encyclopaedia Britannica.

7. Grant, A. J., and Temperley, Harold, *Europe in the Nineteenth and Twentieth Centuries* (1789–1939), London, Longmans, 1927, p. 283.

CHAPTER 2

1. Circumcision not a sacrament: see Jewish Encyclopaedia, New York and London, Funk and Wagnalls Co., 1903, vol. IV, article by Aaron Friedenwald, M.D., late of Baltimore. Rabbi Meir is quoted as saying that a non-Jewish physician could if necessary perform the operation; as could women, slaves and even children.

2. Samuel Raphael Hirsch, *Judaism Eternal*, London, Soncino Press, 1956, vol. 2, pp. 230–31.

3. Genesis XVII: 10–14, in *The Pentateuch and Haftorahs*, Hebrew Text, English Translation and Commentary, ed. by Dr. J. H. Hertz, C.H., Late Chief Rabbi of the British Empire, London, Soncino Press, 5720-1960.

4. Exodus IV: 24–26, ibid., p. 221.

5. Joshua V: 2–9, ibid.

6. See Howard Carter's *The Tomb of Tut Ankh Amen*, 3 vols., London, Cassel & Co., 1923–33, for a photograph of this iron dagger.

7. Jewish Encyclopaedia, article already cited.

8. Book of Jubilees, XV: 26–27.

9. I here follow Dr. Alex Bein, *Theodore Herzl, A Biography*, London, Horovitz Publishing Co., East and West Library, 1957, p. 8, though Raphael Patai, editor of *The Complete Diaries of Theodor Herzl*, tr. Harry Zohn 5 vols., New York, Herzl Press and Thomas Yoseloff, p. 1860, transliterates the Hebrew as Binyamin Z'ev.

10. Hirsch, op. cit., vol. 1, p. 233.

11. Ibid., p. 149.

12. Deuteronomy XXVIII: 10–14, in *The Pentateuch and Haftorahs*, op. cit., p. 866.

13. These curses (and others) occur in Deuteronomy XXVIII between vv. 15 and 50.

14. *Pirke Aboth, The Ethics of the Talmud: Sayings of the Fathers*, ed. with introduction, translation and commentary by R. Travers Herford, New York, Schocken Books, 1962, p. 30.

15. Dr. I. Grunfeld in a preface to his translation of Samson Raphael Hirsch's *Horeb, A Philosophy of Jewish Laws and Observance*, London, Soncino Press, 1962.

16. Bein, op. cit., p. 5.

CHAPTER 3

1. Bein, op. cit., p. 7.

2. Max Bodenheimer in *Im Anfang der Zionistischen Bewegung*, ed. H. H. Bodenheimer, Frankfurt a.M., 1965, p. 110.

3. Bein, op. cit., p. 10.

4. For Yehudah Alkalai, see article in Jewish Encyclopaedia.

5. Jewish Encyclopaedia, article on Purim of Buda.

6. Jacob de Haas, *Theodor Herzl, A Biographical Study*, 2 vols., New York, The Leonard Co., 1927, vol. 1, p. 30. The same story, told to de Haas by Herzl in 1896, also appears in Adolf Friedemann's *Das Leben Theodor Herzls*, Berlin, 1914.

7. de Haas, op. cit., p. 31.

8. This extract from Disraeli's Life of Lord George Bentinck is quoted in the Jewish Encyclopaedia article on the Earl of Beaconsfield, 1903.

9. Bein, op. cit., p. 8. The photograph is no. 7 in his book.

10. de Haas, op. cit., p. 31, gives the story that "Lobel Herzl was a mystic and practised 'white magic' or Caballa," but adds that he was inclined to think such stories had been fabricated by local gossips after Lobel's great-grandson became famous. The New Standard Jewish Encyclopaedia spells it "Kabbalah."

11. Bein, op. cit., p. 9.

12. Photograph no. 5, Bein, op. cit.

13. Joseph Patai, "Herzl's School Years," *Herzl Year Book*, vol. 3, Herzl

Centennial Issue, New York, Herzl Press, 1960, gives a detailed account of Herzl's education in Hungary.

14. John Pudney, *Suez: de Lessep's Canal*, London, Dent, 1968, p. 20.

15. Joseph Patai, *vide supra*.

CHAPTER 4

1. *Complete Diaries*, p. 117.
2. Ibid., p. 28.
3. Ibid., p. 127.
4. Ibid., p. 122, conclusion to a letter to Bismarck of June 19, 1895.
5. Joseph Patai, *Herzl Year Book*, vol. 3; in the Hungarian edition of his life of Herzl Patai reproduces Herzl's mark card.
6. Joseph Patai, *Herzl Year Book*, vol. 3: I have transposed the order of two sentences.
7. Jacob Wassermann, *Mein Weg als Deutscher und Jude* (German edition, 1921); English translation, S. N. Brainin, New York, Coward-McCann, 1933, pp. 12–14.
8. Ibid., p. 14.
9. Article on "Reform Judaism," New Standard Jewish Encyclopaedia, ed. Cecil Roth and Geoffrey Wigoder, London, W. H. Allen, 1970, p. 1609.
10. Bein, op. cit., p. 14.
11. Ibid., p. 12.
12. Acts of the Apostles II: 1–4. Jerusalem Bible.
13. Exodus XIX: 5, 6, in *The Pentateuch and Haftorahs*, op. cit., p. 291.
14. Passage in Israel Zangwill's *Children of the Ghetto* quoted as description of Moses Zangwill, Israel's father, in Norman Leftwich's *Israel Zangwill*, London, James Clarke, 1957, p. 72.
15. A phrase of Wassermann's, op. cit., p. 6.
16. Professor John George Robeson (author of *History of German Literature*) in essay on Heine, Encyclopaedia Britannica, 13th ed., vol. 13, p. 215.

CHAPTER 5

1. The Gymnasium was still standing, as was the church, in October 1971.
2. "An Autobiography," *Jewish Chronicle*, January 14, 1898. "At the Gymnasium, which was called the Evangelisches Gymnasium, the Jewish boys formed the majority . . ."
3. For Herzl's knowledge of Hungarian, see Alexander Scheiber, *Herzl Year Book*, vol. 3.
4. Oscar Brilliant, referring to R. W. Seton-Watson, *Racial Problems in Hungary*, London, 1908, in article on Hungary in Encyclopaedia Britannica, 13th ed.
5. Quoted in *The Economist*, London, August 21, 1971.
6. Graham Greene, *A Sort of Life*, London, 1971, p. 117.

7. Joseph Patai, *Star over Jordan, The Life of Theodor Herzl*, tr. from Hungarian by Francis Magyar, New York, Philosophical Library, 1946 [original Hungarian, 1932], p. 26 and *passim*.

8. de Haas, op. cit., for example: p. 57. "As always he had been nervous in the presence of strangers, a weakness he diligently tried to conquer."

9. Bein, op. cit., p. 21.

10. Herzl's "An Autobiography," *vide supra*. Herzl uses the word *Schriftsteller*.

11. Bein, op. cit., p. 22.

12. Bein, op. cit., p. 22. "He guarded every keepsake of hers like a sacred relic." Joseph Patai recounts the annual visit to Budapest.

13. Phrases of Herzl's, quoted by Alex Bein, p. 21.

CHAPTER 6

1. Herzl to Heinrich Kane, 30 August 1883, Herzl-Kana Correspondence, Central Zionist Archives, Jerusalem.

2. Simone de Beauvoir, *The Second Sex*, p. 299.

3. Raoul Auernheimer, *Das Wirtshaus zur verlorenen Zeit*, Vienna, 1948; translated and abridged extract, "Beard of the Prophet," in *Herzl Year Book*, vol. 6, New York, Herzl Press, 1965.

4. Norman Cohn, *Warrant for Genocide*, London, Eyre & Spottiswoode, 1967, p. 171, gives Marr as "the probable inventor of the word 'anti-semitism'"; Cohn translates the title as *The Victory of Jewry over Germandom, considered from a non-denominational point of view*. I have translated Marr's *Judenthum* as "Jewishness" in order to keep Marr's double suffixes and also because *Judenthum* becomes important later in Herzl's life.

CHAPTER 7

1. "Autobiography," op. cit.

2. Bein, op. cit., p. 25.

3. Arthur Schnitzler's correspondence with Herzl; *Midstream* VI, November 1960.

4. Hans Kohn, "Zion and the Jewish National Idea," *The Menorah Journal*, 1958.

5. Incidents and quotations from *The Life and Opinions of Moses Hess*, by Isaiah Berlin; Lucien Wolf Memorial Lecture, December 1957, Jewish Historical Society of England.

6. Bein, op. cit., p. 182.

7. From the Preface to *A Musician's Problem*, being part of *The Case of Wagner*, written by Friedrich Nietzsche in Turin, May 1888.

8. Aphorism 40 in Selected Aphorisms from Nietzsche's *Retrospect of His Years of Friendship with Wagner*, Summer 1878, vol. 8, Oscar Levy ed., tr. Anthony M. Ludovici, Edinburgh, 1911.

9. Ibid., Aphorism 41.

10. Preface to *A Musician's Problem, vide supra.*

11. Ernest Newman, *The Life of Richard Wagner*, London, Cassell, 1945, vol. 3, p. 275.

12. Nietzsche wrote in January 1874; *The Use and Abuse of History* comes in *Thoughts Out of Season*, tr. Adrian Collins, ed. Oscar Levy.

13. Epilogue to *A Musician's Problem, vide supra.*

14. *A Musician's Problem*, p. 5.

15. Ibid., Preface.

16. *Retrospect of His Years of Friendship with Wagner*, op. cit., Aphorism 76.

17. See Carl E. Schorske, "Politics in a New Key: an Austrian Triptych," *Journal of Modern History*, December 1967.

18. Adolf Hitler, *Mein Kampf*, tr. James Murphy, London, 1939, p. 94.

19. Bein, op. cit., p. 26.

CHAPTER 8

1. Leon Kellner, *Theodor Herzls Lehrjahre* (1860–1895), Vienna, 1920.

2. R. S. Morton, *Venereal Diseases; Studies in Social Pathology*, London, Penguin, 1966, p. 30.

3. Fritz Judtmann, *Mayerling: The Facts Behind the Legend*, London, George G. Harrap, 1971; original ed., *Mayerling ohne Mythos*, Vienna, 1968.

4. To the present author, whose Oxford B.Litt. thesis he was supervising; with reference to Algernon Charles Swinburne, whose pathological masochism was denied by Harold Nicolson in his *Swinburne* as late as 1926, then conclusively proved by the publication of G. Lafourcade's *La Jeunesse de Swinburne* two years later.

5. The *Jugendtagebuch* was published in *Theodor Herzl Jahrbuch*, ed. Tulo Nussenblatt, Vienna, 1937; the letters to Kana repose in the Central Zionist Archives (CZA), Jerusalem.

6. de Haas, op. cit., pp. 37–38.

7. Bein, op. cit., p. 62.

8. Judtmann, op. cit., p. 20.

9. Dr. T. Nussenblatt, "Theodor Herzl Before the Commission on Fitness for Military Service," *Judische Welt*, July 31, 1936.

10. Information received from Dr. T. H. M. Stewart, Ottawa General Hospital.

11. CZA, letter addressed "Herrn H. Kana, Doktor," from Pesth, March 5, 1882.

12. CZA, letter from Baden, August 30, 1883.

13. CZA, letter dated November 22, 1883.

14. *Jugendtagebuch*, p. 47.

15. For Boswell's malady, see *Boswell's London Journal 1762–1763*, ed. Frederick A. Pottle, London, 1950.

CHAPTER 9

1. Cf. Carl Schorske, op. cit., *passim.*

2. Eric Nemes, Hungarian-born Paris art expert, in letter to the author.

3. Fritz Hartung, *Deutsche Verfassungsgeschichte,* Stuttgart, 1950, p. 255.

4. Jüdisches Lexikon, vol. 1. Congress of Berlin.

5. Anatole Le Roy-Beaulieu, *Israël chez les Nations,* Paris, 1893, pp. 55–56.

6. "Autobiography," 1898.

7. Bein, op. cit., p. 30.

8. Ibid., p. 89.

9. *Theodor Herzl Jahrbuch,* ed. Nussenblatt, p. 22 onward.

10. Kellner, op. cit., pp. 127–34.

11. Ibid., p. 18.

CHAPTER 10

1. Gustav Kobbé, *Complete Opera Book,* ed. and revised by Earl of Harewood, London, 1954.

2. My debt to Robert Gutman's *Richard Wagner: The Man, His Mind and His Music,* London, 1968, is evident throughout this discussion of *Parsifal* and its significance.

3. George Heer, *Quellen und Darstellungen zur Geschichte der Burschenschaft und der deutschen Einheitsbewegung,* vol. 16, Heidelberg, 1939.

4. See Herzl's letter of resignation, whose text is printed in full on pp. 27, 28 of Kellner, op. cit.

5. Bein, op. cit., *passim.*

6. Letter to Dankwart, April 4, 1883, printed on p. 29, Kellner, op. cit.

7. CZA, letter dated August 30, 1883.

8. CZA, letter 16, The Month of Affliction.

9. Peter Loewenberg, op. cit., p. 156.

10. *Theodor Herzl Jahrbuch,* for these two quotations under cited dates; ed. Nussenblatt.

11. Herzl's own term in "Autobiography," op. cit.

CHAPTER 11

1. "*Ich glaube, von Anfang an ist jeder gut, oder wie ich es nenne, echt . . . Dann tritt etwas ein, vielleicht nur der Verlauf der Zeit, und sie werden unecht.*" From "*Der Gedankenleser*" (The Thought Reader), last essay in *Neues von der Venus,* Leipzig, 1887.

2. For Herzl's university influences, see in particular Joseph Adler, *The*

Herzl Paradox: Political, Social and Economic Theories of a Realist, New York, Hadrian Press, 1962.

3. "Autobiography," op. cit., 14.1, 1898.

4. Herzl's letter to Kana, May 28, 1885, quoted by Kellner.

5. "Autobiography," op. cit., "In Salzburg I spent some of the happiest hours of my life. I would have liked to have stayed in the beautiful town, but, as a Jew, I could never have advanced to the position of a Judge."

6. Bein, op. cit., English version, p. 48.

7. "*Gestern war Grande Soirée bei Treitel. An die 30–40 kleine, hässliche Juden und Jüdinnen. Kein tröstender Anblick.*" Kellner, op. cit., p. 127.

8. Kellner, op. cit., p. 48. This letter is placed immediately after one dated August 3, 1883; internal evidence, such as a reference to Berlin, indicates that it was written after November 1885.

9. Josef Fraenkel, *Theodor Herzl: Des Schöpfers Erstes Wollen,* Wien, Fiba Verlag, 1934, *Vorwort.*

10. "Autobiography," op. cit.

11. Fränkel, op. cit.

12. Olga Schnitzler, *Spiegelbild der Freundschaft,* Salzburg, Residenz Verlag, 1962, p. 81.

13. Bein, op. cit., English version, p. 66.

14. Kellner's eighth chapter, "On The Wrong Road," gives this estimate along with other criticism of Herzl the playwright.

CHAPTER 12

1. Kellner, op. cit., p. 92.

2. I owe these important details to Mrs. Therese Nickl's researches in the pages of the Vienna directory, *Der Wohnunganzeiger von Adolph Lehmann,* as well as in Vienna's Zentralfriedhof where the Naschauers are buried.

3. Bein, op. cit., German version, p. 106. "*Ungleich seinem Vater, der sich mehr für jüdische Literatur und Philosophie als für den Erwerb interessierte, war er der richtige Vertreter jener ersten Generation emanzipierter Juden, denen die Emanzipation vor allem den raschen wirtschaftlichen Aufstieg ermöglichte.*"

4. Bein, op. cit., English version, p. 62.

5. André Chouraqui, *A Man Alone,* tr. from *Théodore Herzl: Inventeur de l'état d'Israël* by Yael Guiladi; Keter Publishing House Ltd., Jerusalem, 1970, p. 39.

6. Nussenblatt, op. cit., pp. 49ff.

7. Kellner, op. cit., p. 60.

8. Bein, op. cit., German edition, p. 88.

9. Kellner, op. cit., p. 61.

10. Josef Fränkel, op. cit., introduction to *Seine Hoheit.*

11. "*Schonungslos sind wir nur gegen die Nahestehenden.*" *Herzl-Worte,* zusammengestellt von Felix A. Theilhaber, Berlin, 1921, p. 87.

12. Kellner, op. cit., gives the dates of composition as January 25–Feb-

ruary 1; he also gives the complete text of Ernst Hartmann's letter of advice, dated February 7, 1887. *Inter alia: "Studieren Sie mehr nach dem Leben als in der Welt, die Ihr Kopf malt . . . Bilden Sie nach lebenden Modellen anstatt nach den Gipsmodellen eines Theatermuseums."*

13. Kellner, op. cit., p. 71.

14. F. Freund, "Das Alltägliche," *Neues von der Venus,* Leipzig, 1887, p. 181.

15. Ibid., "Mentor und Telemach," p. 227.

16. Bein, op. cit., German edition, p. 118.

17. Martha Hofmann, *Theodor Herzl, Werden und Weg,* Frankfurt-am-Main, 1966, p. 29.

CHAPTER 13

1. See "The Testaments of Herzl," N. M. Gelber, *Herzl Year Book,* vol. 3, p. 259.

2. In *The New Ghetto,* written 1894, Act II, scene 9.

3. "*Über Verlobungen lacht man in Theater immer herzlich, weil die Schadenfreude uns allen geboren ist.*" *Herzl-Worte,* p. 86.

4. Youth Diary, May 2, 1882, *Theodor Herzl Jahrbuch,* ed. Nussenblatt.

5. In "The Chief Rabbi and the Visionary," in *The Jews of Austria, Essays on Their Life, History and Destruction,* London, 1967, edited by himself, Josef Fränkel explains how the *Memoirs of Rabbi Moritz Güdemann* (1835–1918), written for his family, never published and possibly since destroyed, came into his hands for a few days before the Second World War.

6. See photostat of wedding certificate.

7. Herr Michael Waissnix still retains the slate tablets on which the names of the temporary tenants were chalked.

8. See *Liebe, die Starb vor der Zeit,* Vienna, 1970, both for the Schnitzler-Olga Waissnix correspondence (ed. Heinrich Schnitzler and Therese Nickle) and in particular for Olga's letter of June 12, 1890, describing Hélène Naschauer's marriage the following summer.

9. Chouraqui, op. cit., p. 9, states that Hans's birth "was welcomed in lyric accents by Theodor," and claims that "*Der Sohn*" was written on this occasion. It was in fact published the previous year.

10. S. R. Hirsch, *Judaism Eternal,* p. 231.

11. See Bein, op. cit., German edition, p. 108; also English edition, pp. 63–64.

12. Josef Fränkel reproduced the cover of the musical score in his *Theodor Herzl, A Biography,* London, "Ararat" Publishing Society, 1946.

13. I owe this information to a letter from Madame Maxa Nordau of September 21, 1972.

14. "Die Kinder sind unsere gröster Lehrmeister." *Herzl-Worte,* p. 87.

15. See Kellner's chapter on Kana for text of this and following letter.

16. The portrait was reproduced on front cover of *Hadassah Magazine,* January 1972.

17. *"Spielwut und Sparwut sind nur verschiedene Grade desselben Passion." Herzl-Worte*, p. 91.

18. According to Fränkel, "The Chief Rabbi and the Visionary," *vide supra*.

19. Kellner, op. cit., p. 152.

20. *Complete Diaries*, p. 12.

CHAPTER 14

1. *Anfang einer spanischen Reise* (1: *"Luz, das Dorf"*; 2: *"Zur Brücke von Spanien"*; 3: *"Die Geckenküste"*; 4: *"König Kind"*) was reprinted in Theodor Herzl, *Feuilletons*, Wien, Verlag Banjamin Harz, 1911, pp. 111–51.

2. *"In Tarbes, dem Hauptorte der Pyrenäen, fügte ich meinem letzten Willen ein Kodizill hinzu. Ich verbot in dem kategorischen Tone, welcher zur Feinheit solcher Schriftstücke gehört, dass meine Reste hier bestattet würden, falls mich die Langweile hinwegraffen sollte. Denn ich möchte beinahe noch lieber in Tarvis leben, als in Tarbes begraben sein. Zu meinem Erstaunen erwachte ich aber am andern Morgen und konnte die Reise nach Pierrefitte fortsetzen."*

3. Kellner, op. cit., p. 152.

4. Maurice Magnus, *Memoirs of the Foreign Legion*, London, Martin Secker, 1924.

5. *Complete Diaries*, p. 42.

6. *Herzl-Worte*, p. 93. (from *Palais-Bourbon*)

7. February 11, 1891. *"Mann muss es nur in der richtigen Entfernung betrachten."*

8. Norman Cohn, op. cit., p. 46, discusses the true significance of these two letters.

9. Lieselotte Schmidt, "Édouard Drumont–Emile Zola: Publizistik und Publizisten in der Dreyfus-Affäre," inaugural dissertation for Ph.D. in Philosophical Faculty of the Free University of Berlin, 20.12.1962.

10. Israel Cohen, *Theodor Herzl, Founder of Political Zionism*, New York, Thomas Yoseloff, 1959, p. 64.

11. Malcolm Hay, *The Pressure of Christendom on the People of Israel for 1900 Years*, Boston, 1960, p. 188.

12. Jean Bouvier, *Les Rothschild*, Paris, 1960, p. 48.

13. Michael R. Marrus, *The Politics of Assimilation*, Oxford, 1971, p. 317, for quotation from Les Archives Israélites, 3.10.1889.

14. Marrus, op. cit., pp. 90, 91.

15. Alan Neame, *The Happening at Lourdes*, New York, Simon & Schuster, 1967, *passim* and in particular pp. 155–57.

16. For attitude to Lourdes, see Bein, op. cit., English edition, p. 70.

17. Bein, op. cit., English edition, pp. 79–80, gives a compressed version of the critique; longer version of it in German edition, pp. 132ff.

18. Israel Cohen, op. cit., p. 64.

19. For letters between Herzl and Schnitzler, see Olga Schnitzler, *Spiegelbild der Freundschaft*, Salzburg, 1962, ch. on Herzl.

20. *Complete Diaries*, p. 7.

21. See Marrus, op. cit., p. 59, who quotes an editorialist in *Univers Israelite*, 16.12.1898.

22. Marrus, op. cit., pp. 58ff.

23. Ibid., p. 169.

24. Ibid., pp. 169–70.

25. *Three Unknown Herzl Letters*, op. cit.

CHAPTER 15

1. Moritz Benedikt, first editor with Eduard Bacher, then publisher of *Neue Freie Presse*, to Herzl: "Until now we have been considered as a Jewish paper but have never admitted it." *Complete Diaries*, p. 246.

2. For example, Joseph Gregor, *Geschichte des Österreichischen Theater*, Wien, 1948.

3. *Complete Diaries*, p. 11; my text Olga Schnitzler, op. cit., pp. 86ff. Also for other quotations from letters to and from Schnitzler.

4. All quotations from Heinz Norden's translation, *The New Ghetto*, New York, 1955; I change gulden to guilders.

5. *Complete Diaries*, p. 9.

6. Ibid., p. 10.

7. Ibid., p. 11.

8. Olga Schnitzler, op. cit., pp. 90ff.

9. P. 72, Norden translation.

10. Alex Bein's tr. and ed. *Herzl Year Book*, vol. 1, 1958, p. 304.

11. Leon Kellner: "*Er hatte es, um seine Meinung überprufen zu lassen, einem Christen und einem Juden zu lesen gegeben. Der Christ sagte: das ist eine Dynamitbombe. Der Jude sagte: das ist eine Beschimpfung des Judentums.*"

12. Bein, op. cit., p. 305.

13. Israel Cohen, op. cit., p. 62.

14. Bein, op. cit., English edition, p. 107.

15. Chouraqui, op. cit., p. 77.

16. Olga Schnitzler, op. cit., p. 92.

17. Bein, op. cit., English edition, p. 88.

18. Ibid., p. 78. *Staatsjuristen* might also be translated as "politician."

CHAPTER 16

1. Herzl to Chief Rabbi Moritz Güdemann, June 11, 1895; de Haas, op. cit., p. 58.

2. *Complete Diaries*, p. 13.

3. Olga Schnitzler, op. cit., ch. on Herzl.

4. de Haas, op. cit., p. 50. De Haas gives the source as "an essay quoted in Kellner's collection, but wrongfully described as having appeared in the *North American Review* in 1899."

5. Marrus, op. cit., p. 213.

6. Ibid., p. 215.

7. Robert Gauthier, *"Dreyfusards!" Souvenirs de Mathieu Dreyfus et Autres Inédits*, Paris, 1956, p. 86.

8. George D. Painter, *Marcel Proust, A Biography*, London, Chatto & Windus, 1959, vol. 2, p. 329.

9. See *"L'Âme de Dreyfus,"* by Édouard Drumont, *La Libre Parole*, December 26, 1894; reprinted in H. R. Kedward, *The Dreyfus Affair, Catalyst for Tensions in French Society*, London, Longmans, 1965, p. 59.

10. *"La Justice,"* November 17, 1894, and *"L'Écho de Paris,"* December 31, 1894.

11. Marrus, op. cit., p. 181.

12. Elmer Berger, *The Jewish Dilemma*, New York, Devin-Adair, 1946; chapter "For Free Jews in a Free World," pp. 169–208.

13. Bein, op. cit., English edition, pp. 114–15.

14. *Complete Diaries*, p. 99.

15. N. M. Gelber, "The Testaments of Herzl," in *Herzl Year Book*, vol. 3, pp. 257–68.

CHAPTER 17

1. From "King of the Jews" in *Theodor Herzl: A Memorial*, ed. Meyer W. Weisgal, New York, 1929.

2. Maria E. Delle Grazie, "Father and King, A Remembrance of Herzl's Views on Jewish Destiny," also in *A Memorial*, p. 40.

3. "We are bad soldiers, because we are devoid of honor, because there is nothing for us beyond death." *Complete Diaries*, p. 71.

4. Chouraqui, op. cit., p. 80.

5. Bein, for example, p. 118 (English edition).

6. *Complete Diaries*, p. 11.

7. Ibid., p. 12.

8. Ibid., p. 13.

9. Ibid., p. 13.

10. Ibid., p. 24.

11. Herzl says (ibid., p. 24) that the notes were dated and that he would ask his father to enter them in the Diary.

12. For Baron de Hirsch, see Samuel J. Lee, *Moses of the New World, The Work of Baron de Hirsch*, New York, Thomas Yoseloff, 1970. For marriage, p. 102.

13. For the letter and its circumstances, see *Complete Diaries*, pp. 13–17.

14. Ibid., p. 14.

15. Ibid., p. 16.

16. For Herzl's preparations, and for the account of his visit to de Hirsch, see ibid., pp. 17–24.

17. Describing the Tanagra statuettes in the Greco-Roman Museum in Alexandria, E. M. Forster says they "were at first connected with funeral rites and later placed in the tomb from the sentiment that prompts us to drop flowers, especially when the dead person is young. They have mostly been found in the tombs of children and women. They are the loveliest things in the Museum." *Alexandria*, New York, Doubleday, 1961, p. 129.

18. Samuel J. Lee, op. cit., p. 16. The following direct quotation: *Complete Diaries*, p. 22.

19. Max Nordau, *The Conventional Lies of Our Civilization*, Chicago, 1895, p. 61.

20. Oxford English Dictionary.

21. *Degeneration*, tr. from 2nd ed. of the German work; reprinted New York, Howard Fertig, 1968; Introduction by George L. Mosse, p. xxiii.

22. *Complete Diaries*, p. 276.

23. In the closing paragraphs of Nordau's address to the 1897 Zionist Congress: quoted by David Baron in *The Ancient Scriptures and the Modern Jew*, London, 1900.

24. "Israel Zangwill is of the long-nosed Negroid type, with very woolly deep-black hair . . . his point of view is a racial one—which I cannot accept if I so much look at him and at myself." *Complete Diaries*, p. 276.

CHAPTER 18

1. *Complete Diaries*, p. 26.
2. Ibid., p. 25.
3. Ibid., p. 27.
4. Ibid., p. 28.
5. Ibid., p. 37.
6. Ibid., p. 105.
7. Ibid., p. 33. Patai has Nemec; probably Herzl used the French *c* to terminate the Hungarian name Nemes.
8. Ibid., p. 33.
9. Ibid., p. 38.
10. Op. cit., p. 375.
11. *Complete Diaries*, p. 63.
12. Ibid., p. 38.
13. Ibid., p. 40.
14. Ibid., p. 33.
15. Ibid., p. 40.
16. Ibid., p. 56.
17. Ibid., p. 40.
18. Ibid., p. 106.
19. Ibid., p. 60.
20. Ibid., p. 42.

21. Ibid., p. 29.
22. Ibid., p. 58.
23. Ibid., p. 52.
24. Ibid., p. 62.
25. Ibid., p. 65; also see ibid, p. 170: "We shall impose extensive but firm limits on public opinion, especially in the beginning."
26. Ibid., p. 68.
27. Ibid., pp. 57 and 127.
28. Ibid., p. 36.
29. Ibid., p. 39.
30. Ibid., p. 55.
31. Ibid., p. 39.
32. Ibid., p. 57.
33. Ibid., p. 47.
34. Ibid., p. 57.
35. Ibid., p. 40.
36. Ibid., p. 34.
37. Ibid., p. 231.
38. Ibid., p. 56.
39. Ibid., pp. 69–70 and 92.
40. Ibid., p. 98.
41. de Haas, op. cit., p. 99.
42. *Vide* unpublished Memoir in the State Archives Berlin-Dahlem, quoted in *Herzl Year Book*, vol. 6, p. 61.
43. Arthur F. Basil Williams, *Cecil Rhodes*, New York, Greenwood Press, 1968, p. 50.
44. Besides Williams, op. cit., see, for this last quotation, article by Alfred Peter Hillier and Frank R. Cana on Rhodesia in the thirteenth edition of the Encyclopaedia Britannica; also J. G. McDonald, *Rhodes, A Heritage*, London, Chatto & Windus, 1943; also Lewis H. Gann, *A History of Southern Rhodesia: Early Days to 1934*, London, Chatto & Windus, 1965.
45. *Complete Diaries*, p. 88.
46. Ibid., p. 212.
47. Ibid., p. 88.
48. Ibid., p. 90.
49. Ibid., p. 90.
50. *Degeneration*, op. cit., p. xix.
51. *Complete Diaries*, pp. 88–89.

CHAPTER 19

1. Kellner, op. cit., p. 157.
2. See *Complete Diaries*, under relevant dates, for texts of Herzl's letters to Güdemann.
3. Ibid., p. 102.
4. See footnote to page 29.

5. *Complete Diaries*, p. 115.
6. Ibid., p. 115, dated June 18.
7. Ibid., p. 116.
8. Ibid., p. 126.
9. Ibid., p. 120.

CHAPTER 20

1. *Complete Diaries*, June 10, 1895, p. 67.
2. Ibid., p. 438.
3. Ibid., p. 115.
4. Arthur Stern, "The Genetic Tragedy of the Family of Theodor Herzl," *The Israel Annals of Psychiatry and Related Disciplines*, vol. 3, no. 1, April 1965.
5. *Complete Diaries*, p. 368.
6. Ibid., p. 402.
7. Peter Loewenberg, op. cit., p. 167.
8. *Complete Diaries*, p. 91.
9. Loewenberg, op. cit., p. 171.
10. In "The Jewish State," as edited by Arthur Hertzberg in *The Zionist Idea; A Historical Analysis and Reader*, New York, Harper Torchbooks, 1959, p. 225.
11. *Complete Diaries*, p. 230.
12. Ibid., p. 233.
13. Ibid., pp. 242–43.
14. Ibid., p. 244.
15. Ibid., p. 256.
16. Ibid., p. 261.
17. Ibid., p. 469.
18. Bein, op. cit., English edition, p. 153.
19. *Complete Diaries*, p. 266.

CHAPTER 21

1. "Our headquarters will be in London because in matters of civil law we must be under the protection of a great nation which is not anti-Semitic at the present." *Complete Diaries*, p. 144.
2. Ibid., p. 272.
3. Ibid.
4. George Kirk, *A Short History of the Middle East*, London, 1945, p. 147. See also Adel Ismail, *Histoire du Liban*, Paris, 1955.
5. *Complete Diaries*, p. 276.
6. Ibid., p. 171.
7. To Arminius Vámbéry, June 21, 1900; *Complete Diaries*, p. 967.
8. *Theodor Herzl: A Memorial*, pp. 73–74.
9. Document dated August 23, 1917, CAB24/24, marked Secret, *Circulated by the Secretary of State for India.*

10. *Complete Diaries*, p. 280.
11. Ibid., p. 282.
12. Ibid., p. 283.
13. Ibid., p. 284.

CHAPTER 22

1. See *Guide Juif de France*, Paris, 1971, p. 50, for a photograph of the plaque.
2. Cf. Walter Laqueur, *A History of Zionism*, London, 1972, p. xiii.
3. *Complete Diaries*, p. 848.
4. Ibid., p. 851.
5. Ibid., p. 286.
6. Ibid., p. 285.
7. Ibid., p. 299.
8. Harrap's Standard German-English Dictionary, 1967, agrees with Muret-Sanders, 1897, published about the time Herzl was writing, in giving the primary meaning of *Herstellung* as establishment, creation; Muret-Sanders gives a secondary meaning with *Wieder* in brackets, as restoration, while Harrap gives this meaning as archaic. Grimm cites examples from Goethe and Schiller for the use of *Herstellung* as an abbreviation for *Wiederherstellung*. If the pamphlet harked back to the state of David, it might be possible to argue for "restoration" as the correct translation. Such harking back is absent.
9. *Complete Diaries*, p. 237, for first use of figure.
10. Arthur Hertzberg's edition of *Der Judenstaat*, in *The Zionist Idea*, p. 209.
11. Ibid., p. 212.
12. Ibid., p. 213.
13. Ibid., p. 214.
14. The translation given by de Haas, op. cit., p. 79.
15. Herzberg, op. cit., pp. 219–20.
16. Ibid., p. 220.
17. Ibid., p. 220.
18. Ibid., p. 221.
19. Ibid., pp. 222–23.
20. Ibid., p. 225.
21. *Complete Diaries*, p. 229.
22. Ibid., p. 317.
23. The first, Anton Bettelheim (1851–1930), in *Münchner Allgemeine Zeitung*: "We reject Herzl's *Judenstaat* with greater distaste than the meanest anti-Semitic pamphlet." The second, Dr. Julius V. Gans-Ludassy (1858–1922), in *Wiener Allgemeine Zeitung*, which he edited 1894–1902, when he took over editorship of the *Neue Freie Presse*.
24. *Complete Diaries*, p. 308.
25. Ibid., entry for March 26, 1896, p. 316.

CHAPTER 23

1. *Complete Diaries*, p. 310.
2. Revelation XII:2. The Jerusalem Bible translates as "pagans," earlier versions as "gentiles."
3. Hechler works out his prophecies in a letter to the Grand Duke of Baden, March 26, 1896, reproduced in facsimile in *Herzl, Hechler, the Grand Duke of Baden and the German Emperor: 1896–1904*, documents found by Hermann and Bess Ellern and reproduced in facsimile, Tel Aviv, Ellerns' Bank Ltd., 1961.
4. Ellern, op. cit., item 15, p. 7.
5. *Complete Diaries*, pp. 462–64.
6. Ibid., p. 323.
7. Ibid., p. 323.
8. Ibid., p. 331. For the interview with the Grand Duke of Baden: pp. 328–41.
9. Herzl probably refers to Britain and its desire to monopolize control of the Suez Canal area.
10. *Complete Diaries*, p. 342.
11. Ibid., p. 342.
12. Ibid., p. 390. For Nevlinsky, see N. M. Gelber, "*Philipp Michael de Newlinski: Herzls Diplomatic Agent*," in *Herzl Year Book*, vol. 2, 1959.
13. *Complete Diaries*, p. 390. I have changed "I don't care a *rap*," to "*fig*."
14. Israel Cohen, *Theodor Herzl*, p. 208.
15. *Complete Diaries*, p. 344.
16. Dr. Louis Poborski to N. M. Gelber, op. cit., p. 118.
17. *Complete Diaries*, p. 346.
18. Ibid., p. 348.
19. Ibid., p. 349.
20. Ibid., p. 354.
21. Ibid., p. 356.
22. Denis Mack Smith, *Victor Emmanuel, Cavour, and the Risorgimento*, London, 1971, p. 34. The original source occurs in *La Liberazione del Mezzogiorno e la Formazione del Regno d'Italia*, Carteggi di Camillo Cavour: 5 vols., Bologna, 1949–54.
23. *Complete Diaries*, p. 359.
24. Ibid., p. 362.

CHAPTER 24

1. *Complete Diaries*, p. 367. All the material in this chapter is based on pp. 366–403 of the *Complete Diaries*. References are only provided for certain, more important quotations.
2. Ibid., p. 370.
3. Ibid., p. 378.

4. Ibid., p. 395.
5. Ibid., p. 399.

CHAPTER 25

1. *Complete Diaries*, p. 411.
2. Ibid., p. 416.
3. Ibid., p. 420.
4. *Some Early Herzl Letters*, ed. Alex Bein, *Herzl Year Book*, vol. 1, p. 310.
5. *Complete Diaries*, p. 42.
6. Dr. Shalom Spiegel, *Theodor Herzl: A Memorial*, p. 92.
7. *Complete Diaries*, p. 317.
8. *Jewish Vegetarian*, London, autumn issue, 1967.
9. See Julius Jung, *The Light* (Journal of the Federation of Orthodox Synagogues), London, September 1967.
10. See article by Minnie Timkin, *Jewish Review*, March 3, 1971.
11. Paul Goodman, *The Rise of English Zionism, Theodor Herzl: A Memorial*, p. 77.
12. Pamphlet (undated) entitled *Kamenitzer Maggid Hall of Education / at Bar Ilan University / Israel: Rabbi Chaim Zundel Maccoby* 1858–1916. Professor Sir Isaiah Berlin, C.B.E., M.A., F.B.A., who salutes "the memory of this brave man whose political courage was very great," gives no indication of the precise direction in which the Maggid's courage had been deployed.
13. Chaim Bloch, "Theodor Herzl and Joseph S. Bloch," *Herzl Year Book*, vol. 1, p. 156.
14. Ibid., p. 157.
15. Adolf Jellinek, *The Talmud, Two Speeches*, Vienna, 1868.
16. Bloch, op. cit., p. 159.
17. N. M. Gelber, "Herzl's Polish Contacts," *Herzl Year Book*, vol. 1, pp. 211–19.
18. See facsimile of Daudet letter in André Chouraqui, *Théodore Herzl: Inventeur de l'état d'Israël*, Paris, Éditions du Seuil, 1960.
19. *"Ils ne voient pas en nous des énergumènes, des maniaques, des êtres barbares et sans coeur, mais des citoyens qui usent du droit de légitime défense."*
20. Bloch, op. cit., p. 155.
21. Gelber, "Herzl's Polish Contacts," p. 214.
22. Ibid., p. 215.
23. Werner J. Cahnman, "Scholar and Visionary, The Correspondence between Herzl and Ludwig Gumplowicz," *Herzl Year Book*, vol. 1, p. 177.
24. Herzl's *Complete Diaries*, p. 556, shows the typography.
25. Ibid., p. 551.
26. Ibid., p. 560.
27. Ibid., p. 428.

28. Ibid., p. 430.
29. Ibid., p. 447.
30. Ibid., p. 581.
31. Walter Laqueur, *The Israel/Arab Reader; A Documentary History of the Middle East Conflict*, London, Weidenfeld and Nicolson, 1969, p. 11.
32. Christopher Sykes, *Cross Roads to Israel*, London, Collins, 1965, p. 32.
33. *Complete Diaries*, p. 581.
34. Ibid., p. 578.
35. Erwin Rosenberger, "The First Congress," *Herzl Year Book*, vol. 1, p. 288.
36. *Complete Diaries*, pp. 585, 586, 578, 577.
37. Ibid., p. 587.

CHAPTER 26

1. *Complete Diaries*, p. 609.
2. Joseph Patai, "Herzl's School Years," *Herzl Year Book*, vol. 3, p. 55.
3. *Complete Diaries*, p. 651.
4. Cf. Hechler's letter to Grand Duke of Baden, September 26, 1898, reproduced in Ellern, op. cit., item 15, p. 2.
5. *Complete Diaries*, p. 665.
6. Letter cited in note 4, ibid., p. 4.
7. *Complete Diaries*, p. 662.
8. Ibid., p. 664.
9. Ibid., pp. 665–68, for Bülow interview.
10. Text of letter from Rominten, dated September 27, 1898, preserved in Eulenburg's handwriting in Central Zionist Archives and translated in *Herzl Year Book*, vol. 6, pp. 63–64.
11. de Haas, op. cit., p. 237.
12. *Complete Diaries*, p. 694.
13. Ibid., p. 693.
14. Ibid., pp. 697–700, for interview with Grand Duke of Baden.
15. Ibid., pp. 701–4, for interview with von Bülow and Hohenlohe.
16. *Denkwürdigkeiten des Fürsten Chlodwig zu Hohenlohe-Schillingsfürst*, Stuttgart, vol. II, 1907, p. 533.
17. Henriette Hannah Bodenheimer, *Im Anfang der Zionistischen Bewegung*, Frankfurt a.M., 1965, p. 110.
18. *Complete Diaries*, p. 711.
19. Ibid., pp. 716, 717, for text of letter to Kaiser.
20. Ibid., p. 722.
21. To Z. H. Masliansky, described as "Dean of Zionist propagandists in this country [the United States]," *Theodor Herzl: A Memorial*, p. 76.
22. All Herzl quotations about his visit to Palestine come between pp. 737–65, *Complete Diaries*.
23. Quoted in Nevill Barbour's *Nisi Dominus, A Survey of the Palestine Controversy*, London, Harrap, 1946, p. 32.

24. L. Oliphant, *Haifa, or Life in Modern Palestine*, London, 1887, pp. 59, 60.

25. Chouraqui, *A Man Alone*, p. 136.

26. Denys Page, *Sappho and Alcaeus*, Oxford, 1955, p. 20.

27. *The Mizrachi Woman*, vol. 27, no. 4 (December 1954), p. 6.

28. *Allgemeine Zeitung*, München, November 3, 1898.

29. Quoted by Bein, *Herzl Year Book*, vol. 6, p. 76.

30. *The Times*, London, October 28, 1898.

31. *Complete Diaries*, p. 1,021.

32. Ellern, op. cit., item 47. Ellern attributes the *aide-mémoire* to the German Foreign Office, in reply to a letter from the Grand Duke of Baden.

33. Von Bülow, *Denkwürdigkeiten*, Berlin, 1930, vol. 1, p. 254.

34. See essay by Bein, "Herzl's Meeting with the Kaiser," *Herzl Year Book*, vol. 6, for manuscript sources for the quotations from the Kaiser and Eulenburg.

CHAPTER 27

1. *Complete Diaries*, p. 1,062.

2. See Bertha von Suttner, *Memoiren*, Stuttgart, 1908.

3. *Complete Diaries*, p. 848.

4. Ibid., p. 849.

5. Ibid., p. 968.

6. Ibid., p. 1,155.

7. Ibid., p. 1,206.

8. A. H. Reich, *In Memoriam*, published in *A Memorial*.

9. *Complete Diaries*, p. 979.

10. Ibid., p. 841.

11. S. S. Sarna, *Early British Zionism;* unpublished typescript of twelve pages, the property of Mr. N. M. Brilliant.

12. *Complete Diaries*, p. 1,461.

13. Ibid., p. 421.

14. Ibid., p. 874. Herzl reprints the interview.

15. Ibid., p. 942.

16. Ibid., p. 1,158.

17. Ibid., p. 1,161.

18. Ibid., p. 637.

19. Ibid., p. 863.

20. *Herzl Year Book*, vol. 3, pp. 257–68.

21. *Complete Diaries*, p. 1,051.

22. Ibid., p. 1,196.

23. Ibid., p. 451.

24. Ibid., p. 1,105. Two days later he qualifies this statement: "Excursions to the Bosphorous whose beauty finally did stir even my hardened heart."

25. Ibid., p. 961.

26. Ibid., p. 967.
27. Ibid., p. 1,164.
28. Ibid., p. 960.
29. Ibid., p. 1,181.
30. Ibid., p. 1,339.
31. Ibid., p. 1,334.
32. Ibid., p. 1,341.
33. de Haas, op. cit., p. 80.
34. This description is his final recollection as he sails away on the *Principessa Maria. Complete Diaries,* p. 1,128. There is another description of the Sultan two days earlier, p. 1,112.
35. Ibid., p. 1,122.

CHAPTER 28

1. *Complete Diaries,* p. 920.
2. Ibid., p. 886.
3. Ibid., p. 959.
4. Ibid., p. 1,040.
5. Ibid., p. 1,071.
6. Ibid., pp. 370, 409 and 514.
7. Ibid., p. 1,169.
8. Ibid., p. 1,265.
9. Leslie A. Fiedler, *Waiting for the End, the American Literary Scene from Hemingway to Baldwin,* Harmondsworth, England, Pelican Books, 1967, p. 76.
10. *Complete Diaries,* p. 741.
11. Ibid., p. 1,356. On January 23, 1904, Victor Emmanuel III of Italy asked to see a copy of the book, "if possible not in German." On February 23, 1904, Herzl sent him a translation which had appeared in an American magazine.
12. Ibid., p. 852.
13. Ibid., p. 856.
14. *Old-New Land,* New York, 1960, p. xix.
15. Ibid., p. 252.
16. Ibid., p. 259.

CHAPTER 29

1. *Complete Diaries,* p. 1,283.
2. See Oskar K. Rabinowicz, "Davis Trietsch's Colonization Scheme in Cyprus," *Herzl Year Book,* vol. 4, pp. 119–206.
3. G. Sil-Vara, *Theodor Herzl: A Memorial,* p. 21.
4. *Complete Diaries,* p. 1,292.
5. Ibid., p. 1,294.
6. Ibid., p. 1,361.

7. Ibid., p. 1,361.
8. Ibid., p. 1,355.
9. "*Interessant ist nur das, was hinter den Kulissen gespielt wird,*" *Herzl-Worte,* p. 89.
10. *Complete Diaries,* p. 1,372.
11. The text of this letter, as of other documents to do with Herzl's Egyptian negotiations, *Herzl Year Book,* vol. 1, p. 114 *et passim.*
12. *Complete Diaries,* p. 1,425.
13. Ibid., p. 1,417.
14. Ibid., p. 1,430.
15. Ibid., p. 1,428.
16. Ibid., p. 1,430.
17. Ibid., p. 1,437.

CHAPTER 30

1. The *feuilleton* that appeared in the *Neue Freie Presse* on April 12, 1903, was published in book form in vol. 2 of Herzl's *Feuilletons,* Berlin, 1903.
2. *Complete Diaries,* p. 1,446.
3. Letter from British Agency, March 28, 1903; cf. Raphael Patai, "Herzl's Sinai Project," *Herzl Year Book,* vol. 1, p. 116.
4. *Complete Diaries,* p. 1,449.
5. See *Report of the Sinai Technical Commission,* Appendix to Raphael Patai, op. cit.
6. All quotations about theaters, visitors, in the *Egyptian Gazette,* portions of which were printed in French.

CHAPTER 31

1. *Herzl Year Book,* vol. 1, p. 120.
2. *Complete Diaries,* p. 1,491.
3. A. H. Reich, *In Memoriam,* in *Theodor Herzl: A Memorial.*
4. *Complete Diaries,* p. 1,498, for interview with Count Paraty; p. 1,511 for letter to Franz Philippson; pp. 1,614–17, 1,619–20 for Ali Nuri Bey and his scheme. Herzl proposed a twelve thousand pounds bribe to Izzet Bey on December 12, 1902, p. 1,574.
5. For Chamberlain interview, *Complete Diaries,* pp. 1,473–75.
6. *Atlas of Uganda,* Department of Lands and Surveys, Uganda, 1962.
7. F. O. Document 785. Cecil James Barrington Hurst, assistant to the legal adviser to the Foreign Office, has annotated Herzl's *Jewish Colonisation Scheme* with critical notes typed in black. Using red ink, Lord Lansdowne has ticked portions of the Memorandum which he approves (such as Herzl's suggestions about taxation), has underlined some of Hurst's strictures and added, beside his comment on the *imperium in imperio,* "But there might be natives within the assigned area and it would be necessary to provide for their protection."

8. *Memoirs of Count Witte,* London, 1921, p. 380.
9. *Complete Diaries,* p. 888.
10. Czar's letter reproduced in facsimile, Ellern, op. cit., p. 79.
11. The intermediary was Paulina Korvin-Piatrovska, Polish author, Zionist sympathizer and friend of Plehve. *Complete Diaries,* p. 1,514.
12. Plehve interview, *Complete Diaries,* pp. 1,522–32.
13. Weizmann, The Letters and Papers of, vol. 3, Series A, Sept. 1903–Dec. 1904, ed. Meyer W. Weisgal, Oxford, 1972, p. 332.
14. *The Times,* August 24, 1903.
15. Bein, op. cit., English edition, p. 457.
16. "*Der Feind aber ist der eiserne Reifen der Nation,*" *Herzl-Worte,* p. 11.
17. *Complete Diaries,* p. 527.
18. Ibid., pp. 1,616–17.
19. Weizmann Papers, op. cit., p. 77: in a passage where Weizmann comments that Zangwill, like Nordau, "is completely hypnotized by Herzl."

CHAPTER 32

1. *The Times,* August 26, 1903.
2. *Complete Diaries,* p. 1,575.
3. For Nordau, *The Times,* August 25, 1903; for Zangwill, at meeting of the English Zionist Federation, September 5, 1903, *The Times,* September 7, 1903.
4. This letter, dated August 14, 1903, was sent to Greenberg on receipt from Chamberlain of the letter from Greenberg of July 13, 1903, containing Herzl's scheme for an African Jewish settlement. *The Times* published Sir Clement Hill's letter on August 26, 1903.
5. Lansdowne's letter of October 15, 1903, refers to a dispatch of the fourteenth numbered 459 "which will indicate how far H.M. Government would be prepared to go in furthering the scheme."
6. Sir Charles Eliot's letter of November 4, 1903, was written from Commissioner's Office, Mombasa.
7. Eliot included the bishop's letter in a dispatch of March 24, 1904.
8. The above dispatch confirmed in more detail a telegraphic dispatch of February 11, 1904. This also referred to a large grant of land to the East Africa Syndicate.
9. *Complete Diaries,* p. 1,592; he made the entry at 5 A.M. For the rest of Herzl's stay in Rome, for his interviews with King Victor Emmanuel III and the Pope, see ibid., pp. 1,591–1,607.

CHAPTER 33

1. *Complete Diaries,* p. 1,628.
2. Besides Dr. Siegmund Werner, we hear of Dr. A. Konried and Professors Singer and Ortner: Nussenblatt, op. cit., p. 284.

3. Ibid.: "*Dr. A. Konried bezeichnet als die Todesurache Chronische Herzmuskelentzündung: Myocarditis chronica. Die Professoren Singer und Ortner die Herzl behandelten namen eine fortschreitende Herzmuskelerkrankung an.*"
4. Dr. T. H. M. Stewart in association with Dr. Jules Eli Harris, Ottawa General Hospital.
5. Dr. Wolf Guttmann, Nussenblatt, op. cit., pp. 284ff.
6. Not to be ignored, and not ignored by Guttmann, the chronic suppuration in the wake of his treatment for malaria contracted at Toulon.
7. Stephen J. Kraus, *Complications of Gonococcal Infection*, The Medical Clinics of North America: Symposium on Venereal Diseases, 56, no. 5, 1972, pp. 115–25.
8. S. Alfred Adler, *Jewish Chronicle*, July 8, 1904.
9. According to information given to the author by Mark Braham.
10. May 20, 1910.
11. Bein, op. cit., German edition, p. 682; English edition, p. 500.
12. *Jewish Chronicle* version of *Die Welt* story, July 15, 1904.
13. From *The First Disciple*, in *Theodor Herzl: A Memorial*, 1929.
14. *Jewish Chronicle*, July 15, 1904.
15. *Weizmann Papers*, op. cit., p. 328.
16. Ibid., Letter to Zvi Aberson of July 9, 1904.
17. R. S. Morton, op. cit., p. 60.
18. Arthur Stern, op. cit., p. 111.
19. Madame Maxa Nordau in a letter to Dr. M. Clarke dated September 21, 1972.
20. Stern, op. cit., p. 104.
21. *Herzl Year Book*, vol. 1, p. 310, footnote.
22. Stern, op. cit., p. 108; as for other details of Trude's plight.

EPILOGUE

1. Alfred Werner, "The Tragedy of Ephraim Moses Lilien," *Herzl Year Book*, vol 2.
2. Israel Zangwill, *Jewish Chronicle*, July 15, 1904.
3. *Clemenceau Remembers Herzl*, as told to Pierre Van Paassen, *Theodor Herzl: A Memorial*, p. 27.
4. Leo Goldhammer, "*Herzl and Freud*"; in *Herzl Year Book*, vol. 1, p. 195.
5. Adolf Hitler, *Mein Kampf*, tr. James Murphy, London, 1939, pp. 58–59.
6. *La Libre Parole*, A. de Boisandré, July 11, 1904.
7. See Norman Cohn, op. cit., p. 69.
8. Letter to Heinrich Kana, September 4, 1882, Central Zionist Archives, Jerusalem. "*Schmerz ist das Grundgefühl des Lebens und die Freude ist nur dann, wenn zufällig der Schmerz eine Weile nicht ist.*"

الفهرس

هرتزل

اعرف عدوك

إن حكمة هذا الشعار لا تخفى على أحد ولكن ليس من السهل دائماً أن يعرف الإنسان عدوه إذ لا بد من توافر دراسات نزيهة لمعرفة العدو.

ويعتبر كتاب «هرتزل» أول دراسة موضوعية جادة يقدمها كاتب غربي غير صهيوني، ففيه يلقي ديزموند ستيوارت الكاتب البريطاني المعروف باهتماماته بشؤون المنطقة الأضواء على العديد من الجوانب الخفية من حياة مؤسس الحركة الصهيونية ومفكرها الأول ونشأة وأصول الحركة الصهيونية وارتباطاتها الاستعمارية التي أدت في النتيجة إلى اغتصاب فلسطين وتهديد مستقبل الأمة العربية.

انه كتاب شيق وهام عن شخصية لعبت دوراً كبيراً في تاريخ الكيان الصهيوني.

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير -
ت ٨٠٧٩٠٠/١ - برقياً : موكيالي -
بيروت - ص. ب : ١١/٥٤٦٠ بيروت
تلكس : LE/DIRKAY - ٢٠٠٦٧